قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ

خُرافة الإلحاد

الطبعة الثالثة

د. عمرو شريف

الإلحاد المعاصر
تطور الداروينى
ريتشارد دوكنز حادى الملاحدة
الكون بين الإله والإلحاد
شراذم الإلحاد الجديد
صراع متوهم
الطريق إلى الله
الحياة
التصميم والتطوير
الخروج من المستنقع
الألوهيه والدين والأخلاق
العقل
طبيعة العلم



خُرافة الإلحاد

عندما أزالت ثورة الاتصالات المعاصرة الحواجز بين الثقافات والحضارات ، غزا الإلحاد الغربى المعاصر عقول بعضٍ من شبابنا، فصرنا نلتقى بهذا الفكر فى المدارس والجامعات والتجمعات الشبابية والإعلام....

ولخطورة القضية، يتناولها الكتاب بالتفصيل. فيبدأ بدراسة تحليلية متعمقة لمختلف ظواهر الوجود (الكون ـ الحياة ـ التطور البيولوجى ـ العقل الإنسانى ـ الدين ـ الأخلاق)، ليحدد العلاقة الحقيقية بين الألوهية والعلم: «صراعٌ» أم «وفاق»؟

ثم يتصدى الكاتب لآراء أعمدة الإلحاد في الغرب، وعلى رأسهم البيولوجى البريطانى ريتشارد دوكنز. ويُتبع ذلك بجولة مع الإلحاد فى العالم الإسلامى، ويطرح علينا خبرته الشخصية فى مناظرة العديد من الملاحدة العرب وغير العرب، ويخرج علينا ـ لأول مرة ـ بتصنيفٍ لدوافع وأنماط الإلحاد لدى هؤلاء، مع أسلوب التصدى لكلٍ من هذه الأنماط.

وفى المقابل، يأخذنا الكاتب فى جولة مع الرحلات الإيمانية لبعض كبار المفكرين الذين كان العقل هاديًا لهم فى طريقهم إلى الله.

ويختم المؤلف الكتاب بطرح المنهج الواجب اتباعه للخروج من مستنقع الإلحاد، متضمنًا الخطوط العريضة لتجديد الفكر الدينى الغارق في الجمود والتقليد، والذى ساهم فى نشأة هذه الظاهرة.

ونلمس بوضوح عبر صفحات الكتاب قلق المؤلف الشديد لاتخاذ بعض شبابنا قرارًا مصيريًا رافضًا فى أخطر قضايا الوجود الإنسانى، وهى قضية الألوهية، دون أن يولوها حقها من الدراسة والاهتمام! لذلك يقدم المؤلف لقرائه هذا الكتاب المتفرد فى تناوله، ليسد به عجزًا خطيرًا فى المكتبة العربية.



خُـرَافَـة الإلحـاد

الطبعة الثالثة
١٤٣٦ هـ / ٢٠١٥ م



٢٢ شارع الأندلس ـ مصر الجديدة ـ خلف حديقة مارى لاند
تليفون وفاكس : ٢٢٥٦٦٣٧٥ ـ ٢٢٥٦٦٤٣٥
٠١٠٠١٦٣٣٧١٨
Email: shoroukintl@hotmail.com
http://shoroukintl.com

خُرَافَة الإلحاد

د. عمرو شريف

أستاذ الجراحة العامة



البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

شريف، عمرو.

خرافة الإلحاد/ عمرو شريف.

ط١ ـ القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٤م.

٤٩٦ص؛ ١٧×٢٤سم.

تدمك 978-977-701-948-4

١ ـ الإلحاد والملحدون.

أ ـ العنوان.

رقم الإيداع ٢٤٧٧/ ٢٠١٤م

الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 701 - 948 - 4

الغلاف: نيفين صلاح

إهـــــداء

إلى كل باحث عن الحقيقة . . .

د. عمرو شريف

فهرس

الموضوع **الصفحة**

الباب الثالث: مستنقع الملاحدة

الباب الرابع: مــع الله

مَـدْخَـل...

كان موضوع إحدى محاضراتى يدور حول الإلحاد؛ فقلت مُعَرِّفًا به:

الإلحاد ببساطة هو إنكار وجود الإله...

وأضفت: لم يشهد تاريخ البشرية مدًّا إلحاديًّا عارمًا كالذى شهده فى ظل الحضارة المادية المعاصرة. كما لم تعرف بلادنا الإلحاد إلا فى العقود الأخيرة، وقد شهدت البلاد مدًا إلحاديًّا بعد ما أُطلق عليه ثورات الربيع العربى.

واستطردت شارحًا أشكال الإلحاد، خلفيته التاريخية، حجج الملاحدة وكيف ندحضها...

وخلال المحاضرة ألقيت على الحاضرين سؤالًا: مَن منكم يوجد فى دائرة حياته شخصًا ملحدًا؛ هو نفسه، أو جار، أو زميل دراسة أو عمل، أو صديق، أو قريب لصديق، أو.. أو.. **رفع عددٌ غير قليل من الشباب أيديهم.**

وبعد المحاضرة جاءنى عددٌ من كبار السن (من المسلمين والمسيحيين) وقال لى كلٌّ منهم: **إن ما عرضت من تساؤلات يطرحها الملاحدة؛ مثل لماذا العذاب والألم فى الدنيا؟ وما أصل البشر؟ ومن خلق الإله؟.... لم تخطر لنا على بال، فنحن نحيا حياتنا بفضل الله مؤمنين ولا تساورنا أية شكوك.**

يحمل هذان الموقفان رسالة مهمة؛ **وهى أن الإلحاد وإن كان قد بدأ يطل برأسه بين الشباب فى بلادنا، فإن الإيمان فطرة يستشعرها الناضجون ويحيون فى ظلها خارج دائرة الشكوك والقلق.**



لماذا هذا الكتاب

لمَّا كان مشروعى الفكرى يدور حول العلاقة بين العلم والفلسفة والدين، ويهدف إلى تجديد الفكر العلمى وتجديد الفكر الدينى، كان طبيعيًّا أن تتطرق كتبى السابقة لمشكلة الإلحاد.

وقد تلقيت عددًا من الطلبات الكريمة لإصدار مؤلَّف متكامل حول الإلحاد، ولعل أجملها كان من الفاضل الشيخ الدكتور محمد العوضى المفكر والإعلامى الكويتى الكبير، الذى لم يتوقف دوره عند حَثِّى وتشجيعى على إخراج الكتاب، لكنه ظل يمدنى بالمراجع والاقتراحات منذ البداية وحتى مثول الكتاب للطبع. وقد دفعنى للاستجابة لهذه الطلبات ما رصدته بنفسى من تزايد أعداد الملاحدة فى بلادنا فى السنوات الأخيرة، حتى إنى ألتقى أسبوعيًّا تقريبًا بشاب ملحد ترسله إلىَّ هذه الجهة أو تلك، لمناظرته والإجابة عن تساؤلاته.

وخلال العام الماضى أدركت أن قضية الإلحاد ينبغى أن تحتل منزلة الرأس فى مشروعى الفكرى. فاستجبت لدعوة المفكر الإسلامى الكبير د. محمد عمارة لتأليف عمل عن الإلحاد يصلح لأن يكون الكتاب الهدية المُرفق بمجلة الأزهر، وقد صدر الكتاب بالفعل مع عدد المحرم العام ١٤٣٥ هـ من المجلة بعنوان «وهم الإلحاد». كذلك جعلت موضوع مقالاتى الأسبوعية فى جريدة أخبار اليوم بعنوان « فى بيتنا ملحد». وأكثرت من المحاضرات والندوات فى الجامعات والأوساط المختلفة حول ذات الموضوع. وأخيرًا يأتى الكتاب الذى بين يديك ليتناول القضية بتأصيل وعرض عميقين.

يعالج هذا الكتاب خرافة الإلحاد، من خلال مشروعين فكريين متداخلين شديدى الأهمية والحساسية، وهما:

- تجديد الفكر العلمى؛ بحيث يدرك العلماء أن ليس بين العلم والدين تعارض، بل هناك توافق عميق بينهما، مصدره أن جذور العلم الحديث مستمدة من الدين، وأن يدركوا أن التوصل لآليات الظواهر العلمية لا يتعارض مع وجود غائية وراءها. وبذلك يُسلمنا العلم فى آخر المطاف إلى القول بالوجود الإلهى الخالق لهذا الوجود ومدبره وحافظه[1].

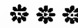
(١) هذا الطرح ليس ببدعة، فهو دأب كبار العلماء الذين وقفوا وراء ثورة العلم المعاصر، كإسحق نيوتن ومكسويل وفولتا وأينشتين وماكس بلانك وغيرهم.

- تجديد الفكر الديني؛ بحيث يفرز خطابًا دينيًا يمثل عامل جذب بعد أن أصبح الخطاب السائد عامل طرد من دائرة الإيمان. وذلك امتثالًا لحديث رسوله الكريم ﷺ: إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها[١].

ويتفاعل هذان المشروعان التجديديان ليحققا المنهج الإسلامي الأصيل في الدعوة والذي يتمشى مع هذا العصر ويتجاوب مع وعد الله ﷻ ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت].

وبالإضافة لمعالجة خرافة الإلحاد، فإن الكتاب دعوة لأن نتعلم قراءة كتاب الله المنظور (الآفاق والأنفس) كما نقرأ كتاب الله المسطور (القرآن الكريم)، وأن نستمد من كليهما الأدلة على الوجود الإلهي. ودعوة لأن نتقبل الجهود الحثيثة لتجديد أمر الدين، وإلا أغرقنا طوفان المادية الذي لا يُبقي ولا يذر.

إن من يتصدى لهذه المهمة كالذي يضع نفسه بين حَجَرَيّ الرحى أو بين المطرقة والسندان كما يقولون! فمحاولات تجديد الفكر العلمي لن يرضى عنها العلماء الماديين ومن يسير سيرهم، كما لن تُرضي محاولات تجديد الفكر الديني جُل علماء الدين المقلدين ومن يهتدي بخطاهم. ومن أمثلة ذلك ما لاقيناه من هجوم بعد كتابتنا عن مفهوم «التطور الموجه للكائنات الحية»، الذي يتمشى مع العلم في قبول التطور وهو ما يرفضه المتدينون المقلدون، ويتمشى مع الدين في أن الله ﷻ هو الخالق من خلال آلية التطور وهو ما يرفضه الدراونة وأيضًا المقلدون من رجال الدين[٢].



منهج الكتاب...

كان التصور الأوَّلي للكتاب أن يقوم على تفنيد آراء كبار رجال الإلحاد في الغرب وبخاصة ريتشارد دوكنز، حيث يعتمد الإلحاد في بلادنا على إفرازاتهم. ثم أدركت أن ذلك يكون كمن يعطي الفقير الجائع سمكة! بينما الأفضل أن نعلمه الصيد. لذلك فضلت أن يطرح الكتاب القضية كما نتعامل نحن الأطباء مع أحد الأمراض؛ عرض مسببات المرض، وتاريخ ظهوره

(١) هذا الحديث من الأحاديث الصحيحة المشهورة عن الصحابي الجليل «أبو هريرة». رواه أبو داوود، وصححه السخاوي والحاكم والبيهقي وابن حجر والألباني.
(٢) سنفصل هذا الموضوع في الفصل السادس.

واكتشافه، وأعراضه وعلاماته، ومضاعفاته، والوقاية منه وعلاجه، بذلك نحقق نجاحًا أكبر فى استئصال شأفة المرض. ولا شك أن هذا التناول يعطى القارئ مناعة أقوى ضد شكوك النفس، وقدرة أكبر على التصدى لما يُطرح عليه من شبهات إلحادية.

هذا وقد سألنى بعض المهتمين بكتاباتى: نراك تكرر أفكارًا وموضوعات وأحيانًا فصل أو أكثر بين كتبك، ألا يخل ذلك باستقلالية كل كتاب؟

لهؤلاء قلت:

إن المؤلف الذى يتصدى للكتابة فى مجالات مختلفة يستطيع أن يُفرد لكل موضوع كتابًا، دون تكرار للموضوعات والأفكار. أما «صاحب المشروع الفكرى الحياتى» فيعرض مشروعه من زوايا وجوانب مختلفة حتى يستكمل طرحه، ولا مفر فى عرض المشروع الواحد من تداخل وتكرار الأفكار. وربما كان أستاذانا د. مصطفى محمود ود. عبد الوهاب المسيرى ممن ظهرت هذه السمة بوضوح فى كتاباتهما المتعددة.

أقول ذلك لأنك ـ قارئى الكريم ـ ستجد تكرارًا فى هذا الكتاب لبعض الأفكار من كتبى السابقة، فأرجو أن تلتمس لى العذر.



لمن هذا الكتاب . . .

كتبت فى حصاد كتابى «رحلة عقل» أنه يخاطب أحد خمسة عقول، لا شك أن القارئ يمتلك أحدها:

١- متدين يريد أن يرقى بإيمانه، من إيمان الميلاد إلى إيمان اليقين، حتى يمتلئ قلبه بالشعور بأن الله حق: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت].

وقد يقترب الإنسان بذلك من مقام الخشية: ﴿ ... إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ... ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر].

٢- متدين غابت عنه حقيقة الإنسان، كموجود متكامل من جسد وذات غير مادية (روح/ نفس/ قلب/ عقل). ومن ثَمَّ نظر إلى الإنسان نظرة عوراء، لا ترى فيه إلا مادية متدنية أو روحانية منفصلة عن الواقع.

٣- متدين يظن أن فهمه للدين الذى تربى عليه «تمام التمام»! فلم يُنزل العقل والعلم منزلتهما فى منظومة الإيمان. فغاب عنه الكثير، بل غاب عنه أكثر مما حَصَّل. وربما أسلمه ذلك إلى أن يصبح أحد أفراد المجموعة التالية.

٤- متدين يبهره ما يردده الملاحدة من (كلام كبير) حول مساهمة العلم فى تأكيد المفاهيم الإلحادية، حتى قالوا: «إن الإله وهم كبير، وإن الدين أفيون الشعوب، ...»، فيغمره شعور بالنقص لانتمائه لهذه الطائفة المتخلفة (المتدينين!)، بدلًا من أن يغمره الشعور بالزهو.

٥- ملحد أو متشكك، اتَّشَحَ بالعلم، عن كِبر أو عن جهل، ورأى فيه برهان الإلحاد، بدلًا من أن يرى فيه أدلة الإيمان، فَتَوجَّب أن نوضح له الحقيقة حتى ننقذه من نفسه.

وبعد أربع سنوات، أخاطب بكتابى هذا «خرافة الإلحاد» ذات العقول الخمسة التى خاطبتها بكتاب «رحلة عقل»، عسى أن تجد فيه العقول المؤمنة اليقين والترقى، وأن تجد فيه العقول الملحدة والمتشككة النور والهداية.



ونختم هذا المدخل بوقفة مع محتويات الكتاب:

ينقسم الكتاب إلى أربعة أبواب تضم أربعة عشر فصلا.

● الباب الأول بعنوان «العلم والدين والإلحاد»، ويشتمل على ثلاثة فصول: الأول «الإلحاد المعاصر» ونتعرض فيه لنشأة الإلحاد المعاصر وسماته.

والثانى «طبيعة العلم» ونعرض فيه مفهوم العلم وقدراته وحدوده.

ثم نبين فى الفصل الثالث بعنوان «صراع مُتَوَهَّم» أن هناك توافقًا عميقًا بين الدين وجذور العلم، وليس صراعًا كما يتوهم البعض.

● والباب الثانى بعنوان «بين الإله والإلحاد»، ونطرح فيه أهم الظواهر الكونية والبيولوجية والإنسانية والغيبية، ونبين كيف ينظر إليها كل من المؤمنين بالإله والملاحدة، وحجج كل من الفريقين. لذلك جاءت الفصول من الرابع إلى التاسع تحت عناوين:

الكون بين الإله والإلحاد

الحياة بين الإله والإلحاد

التطور الداروينى بين الإله والإلحاد

التصميم والتطوير بين الإله والإلحاد

العقل بين الإله والإلحاد

الألوهية ـ الدين ـ الأخلاق، بين الإله والإلحاد

• ونتناول فى الباب الثالث وعنوانه «مستنقع الملاحدة» أفكار الملاحدة فى الغرب والشرق.

وقد خصصنا الفصل العاشر وعنوانه «ريتشارد دوكنز، حادى الملاحدة الجدد» لعرض أفكار زعيم الملاحدة الغربيين الجُدد ومنهجه الفلسفى وللرد عليهما وتفنيدهما.

ويتناول الفصل الحادى عشر فكر أشهر أتباع دوكنز وأهم مؤلفاتهم تحت عنوان «شراذم الإلحاد الجديد».

ثم يأتى الفصل الثانى عشر بعنوان «الإلحاد فى العالم الإسلامى»، ونعرض فيه تاريخ الإلحاد فى بلادنا من حروب الردة حتى الإلحاد المعاصر بين شبابنا.

• والباب الرابع والأخير بعنوان «مع الله»:

ونتناول فى فصله الثالث عشر تحت عنوان «الطريق إلى الله» الرحلات الإيمانية لأربعة من كبار المفكرين، والتى شكلت فيما بينها نسيجًا يشتمل معظم ملامح المنظومة الإيمانية.

ويمثل الفصل الرابع عشر والأخير «الخروج من المستنقع» حصادًا لفصول الرحلة، وعرض لخطوات الخروج من مستنقع الإلحاد إلى فردوس الإيمان، مع طرح متوازن لأهم واجبات المسلمين فى هذا الزمان، وهو تجديد الفكر الإسلامى.

هكذا تتكامل الرحلة من الإلحاد إلى الإيمان إلى الإسلام. ونسأل الله ﷻ أن يجعلها عملًا مقبولًا تَثْقُل به موازينُنا، وأن يجعلنا من أهل شهادة «لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله»

عليها نحيا، وعليها نموت، وعليها نلقى الله يوم القيامة.

***

الباب الأول

العلم
والدين
والإلحاد

الفصل الأول

الإلحاد المعاصر..

- ميلاد الإلحاد المعاصر
  - تبدأ القصة منذ عدة قرون
  - نيوتين ولابلاس وآلية العالم
  - العلم يخرج من القمقم
  - الإلحاد يطل برأسه
- الفكر الإلحادى المعاصر
  - يتبنى الفكر الإلحادى المعاصر عدة مفاهيم
  - ينقسم الملحدون إلى أربع مجموعات
  - يتميز الفكر الإلحادى إلى مستويين
  - هل شاع الإلحاد؟
- الفلسفة الإلحادية المعاصرة
  - الفلسفة الوضعية المنطقية
  - الإلحاد الجديد
  - عودة الوعى والتدين العقلانى
  - أنتونى فلو فى مسيرة الإلحاد
- منهج الملاحدة الجدد
  - وسائل الإزعاج.
  - رسم الخطط: البديل عن الإله
  - هل من جديد عند الملاحدة الجدد؟
  - ما كل هذا الحقد ضد الإله والدين، وضد الإسلام!
- متتالية الفكر المادى، الحضارة المادية، ثم الإلحاد
  - الحضارة المادية
  - العقل المادى
  - الفكر المادى
- القارئ الكريم

«من المفارقات المؤلمة، أن بعض رجال الدين فى نهاية العصور الوسطى وقفوا فى وجه العلم؛ لأنه «يهدد» إيمانهم بالإله، وفى القرن العشرين يقاوم البعض ما توصل إليه العلم، لأنه «يمهد» للإيمان بالإله!»

ألفن بلانتنجا[1]

تعلمنا فى صغرنا أن كفار مكة الذين بُعِثَ فيهم رسول الله ﷺ برسالة الإسلام كانوا ينكرون وجود الله ﷻ. ولَمَّا شببتُ عن الطوق واقتربتُ من فهم القرآن الكريم علمتُ أن معظم الكفار كانوا يقرون أن الله ﷻ هو خالق الكون والحياة والإنسان[2]، لكنهم كانوا يشركون مع الله آلهة آخرى، وإنهم بعبادتهم لأصنامهم كانوا يتقربون إليه سبحانه وتعالى[3]. أما إنكار الوجود الإلهى ـ كما يفعل الملاحدة المعاصرون ـ فقد كان نادرًا قبل العصر الحديث، حتى يمكننا القول أن الإلحاد المعاصر صناعة أوروبية حديثة.

دارت هذه الأفكار فى خاطرى وأنا أبحث فى نشأة الإلحاد المعاصر وجذوره. ما الذى أدى إلى التردى من كفر إلى كفر أكبر؟

فلنتابع الرحلة من بدايتها:

---

(١) Alvin Plantinga: أستاذ الفلسفة الأمريكى المتدين الشهير بجامعة نوتردام، ولد عام ١٩٣٢م.

(٢) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ...﴿٢٥﴾﴾ [لقمان] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف].

(٣) ﴿...وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ...﴿٣﴾﴾ [الزمر].

ميلاد الإلحاد المعاصر

تبدأ القصة منذ عدة قرون[1]

حتى خمسمائة عام مضت، كان المصدر الأساسى للمعرفة فى أوروبا هو الكتاب المقدس بعهديه (العهد القديم، والعهد الجديد)[2]، كما تبنى رجال الدين فى الكنيسة الكاثوليكية آراء أرسطو وبطليموس العلمية حول الكون وكوكب الأرض والفيزياء والكيمياء والتاريخ الطبيعى...، وألحقوها بمفاهيمهم المقدسة.

بناءً على هذه المصادر، كَوَّن إنسان العصور الوسطى فى أوروبا صورة عن العالم، هى:

١- تقف الأرض ثابتة فى مركز الكون، وتدور الشمس والقمر وبقية الكواكب حولها فى دوائر.

٢- خَلَقَ الإله العالم عام ٤٠٠٤ ق.م. واستنتج الكهنة هذا التاريخ من جَمْع أعمار الأجيال المتتابعة من أبناء آدم كما جاءت فى التوراة فى سفر التكوين.

٣- سوف تكون نهاية العالم (أى يوم القيامة) فى تاريخ ليس ببعيد، عام ٤٠٠٤ ميلادية. وذلك لكى تتوسط حياة المسيح تاريخ العالم.

٤- خلق الإله العالم فى لحظة ما فى الماضى، تمامًا كما يبنى البشر المنازل ويصنعون الآلات والأثاث. والفارق الوحيد هو أن الناس تصنع ما تصنع من مواد موجودة سَلفًا.

٥- يسير العالم طبقًا لخطة إلهية مُحكمة؛ فكل شيء فى الكون له هدف وغاية (الغائية). فقد خُلقت الشمس كى توفر النور للإنسان خلال النهار، بينما يُزَوِّده القمر بالضياء ليلًا، كذلك يظهر قوس قزح ليُذَكِّر الإنسان بوعد الله للنبى نوح بألا يُدَمِّر الجنس البشرى مرة أخرى عن طريق الطوفان. وإذا كانت هناك أشياء مقززة، كالحشرات والثعابين والقاذورات، فهى عقاب للإنسان على خطيئته الأصلية، حين عصى آدم ربَّه وأكل من الشجرة.

وفى النهاية، لا يمكن لعقل الإنسان الكشف عن جميع أسرار الخطة الإلهية. ولكن عليه أن يثق كل الثقة فى أن لكل شيء غرضًا.

---

(١) عن مقدمة كتاب «الدين والعقل الحديث» للفيلسوف الأمريكى والتر ستيس، المنشور بالعربية عام ١٩٩٨م، ترجمة أستاذ الفلسفة الدكتور/ إمام عبد الفتاح إمام - مكتبة مدبولى.

(٢) العهد القديم هو كتاب اليهود المقدس، ويشتمل على ٣٩ سفرًا. واعتُبر أيضًا الجزء الأول من الكتاب المقدس عند المسيحيين. وتُشكل توراة موسى أول خمسة أسفار من العهد القديم، وأولها سفر التكوين الذى يحكى قصة الخلق من بدايته حتى وفاة نبى الله يوسف عليه السلام. والعهد الجديد عند المسيحيين (٢٧ سفرًا) يشتمل على الإنجيل (الأناجيل الأربعة لحوارى المسيح عليه السلام) ثم أعمال الرسل، ثم رسائل الرسل وأهمها رسائل بولس، ويُختَم برؤيا يوحنا اللاهوتى.

٦- يمثل العالم نظامًا أخلاقيًّا، وهذه فكرة بالغة الأهمية فى التاريخ العقلى والروحى للجنس البشرى. وهى تعنى أن القيم الأخلاقية (كتحديد الخير والشر) مطلقة يحددها الإله، وليست نسبية تعتمد على رغبات البشر ومصالحهم ومشاعرهم.

٧- يقف وراء ذلك كله إله خالق، له أفكار وتصورات، وربما انفعالات وعواطف أيضًا.

٨- رجال الكنيسة هم الواسطة بين الإله وبين الناس فى قبول التوبة والحصول على الغفران ودخول الجنة.

لقد أعطت الهيمنة على الدين والعلم رجالَ الكنيسة القوة، متمثلة فى السلطة والثروة. ولقرون طويلة مارست الكنيسة الكاثوليكية فى روما سلطتها على شعوب أوروبا وحكامها، حتى إن باباواتها كانوا يُنَصِّبون الملوك ويعزلونهم. ولما كان الشعور الدينى شعورًا فطريًّا، تَقَبَّل الناس هذه الهيمنة، وضحوا بحريتهم وما لهم لصالح رجال الدين[١].

العلم يخرج من القمقم

يؤرخ المؤرخون لنهاية العصور الوسطى وبداية العصر الحديث بصدور كتاب «فى دوران الأفلاك» لكوبرنيكوس. لقد وقعت الطامة الكبرى (من وجهة نظر الكنيسة) عندما أعلن كوبرنيكوس[٢] (بحساباته الرياضية) ثم أثبت جاليليو[٣] (بتلسكوبه) أن الأرض ليست مركز الكون، بل هى مجرد كوكب تابع يدور حول الشمس. لقد دفعا ثمنًا غاليًا لعلمهما وشجاعتهما؛ إذ تبنت الكنيسة حملة شعواء لاضطهاد وتعذيب وقتل العلماء باعتبارهم من السحرة والمشعوذين.

كذلك كان اكتشاف الميكروسكوب (عام ١٥٩٥م) صدمة كبيرة؛ إذ مَكَّن العلماء لأول مرة من رؤية الجراثيم، التى ثبت فيها بعد أنها المسئولة عن كثير من الأمراض. كيف ذلك؟! أليس الله (أو الشيطان) هو الذى يُنزل الطاعون والأوبئة بالبشر؟ كيف تستطيع إذًا صلوات رجال الدين (مدفوعة الأجر) أن تشفى الأمراض؟!

(١) يتكرر هذا النمط من سيطرة رجال الدين على العامة والحكام عبر التاريخ. فقد كان المصريون القدماء ينظرون إلى ملوكهم الفراعنة باعتبارهم آلهة، وينظرون إلى الكهنة باعتبارهم حلقة الوصل بين الناس وبين الآلهة فى الأرض وفى السماء، وبمجرد أن حاول أخناتون تحدى سلطة رجال الدين قتلوه ونَصَّبوا توت عنخ آمون كفرعون وإله بدلًا منه!

(٢) Copernicus: (١٤٧٣ – ١٥٤٣م)، فلكى بولندى، نشر نظريته عن مركزية الشمس فى كتابه De revolutionbus Orbium Coelestium الذى صدر يوم وفاته.

(٣) Galileo Galilei: (١٥٦٤–١٦٤٢م)، عالم الفلك الإيطالى الشهير.

نيوتن ولابلاس[1]... وآلية العالم

بلغت الجهود العلمية ذروتها بفضل عبقرية إسحق نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧م) التى أتمت إرساء أسس العلم الحديث. لقد كان نيوتن مسيحيًّا ورِعًا، ولا شك أنه كان سيصاب بالهلع لو شعر أن إنجازاته العلمية سوف تُقوِّض أركان الإيمان الدينى فى الغرب.

لقد توصل نيوتن إلى قوانين الحركة الثلاثة الشهيرة، وكذلك قانون الجاذبية. كما وصف بِدقة - فى ضوء هذه القوانين - بنية المجموعة الشمسية (الشمس والكواكب الدَّوَّارة حولها). وهى نفس القوانين التى تصف سقوط التفاحة من الشجرة، كما تصف ما يحدث إذا تصادم قطاران.

لذلك شَبَّه الفيزيائيون النظام الشمسى (كما وصفه نيوتن) بالساعة الزنبركية، التى تُـملأ ثم تُترك لتعمل تلقائيًّا. إن قوة الجاذبية وقوة الطرد المركزية وقوانين الحركة كفيلة بالمحافظة على عمل النظام الشمسى دون التدخل من قوى خارجية.

انتشرت فكرة آلية العالم انتشار النار فى الهشيم، فقام العلماء والفلاسفة فى أوروبا بتفسير كل شىء من خلال منظور الآلية. حتى إن توماس هوبز[2] (فيلسوف الإلحاد البريطانى الشهير) شَبَّه أجهزة جسم الإنسان بمجموعة من الآلات التى تحكمها القوانين الفيزيائية.

وقد لاحظ نيوتن اختلافًا طفيفًا بين ما ينبغى أن تكون عليه مدارات الكواكب كما تحددها حساباته، وبين المدارات الفعلية التى يرصدها التليسكوب[3]. وإذا تراكمت هذه الفوارق مع مرور الزمن، فسينقلب النظام الكونى رأسًا على عقب؛ فقد تغوص الكواكب فى الشمس، أو تفلت من سيطرتها وتندفع فى الفضاء الكونى السحيق.

تجاوز نيوتن هذا الإشكال بأن اعتبر أن الإله يتدخل من وقت لآخر ليُعدِّل مسارات الكواكب! لقد كانت هذه آخر مرة يطرح فيها عالِـم عظيم فكرة تدخل قوى غيبية كتفسير لظاهرة طبيعية.

ثم أثبت الفلكى الفرنسى ماركيز لابلاس (١٧٤٩ - ١٨٢٧م) أن الانحرافات التى عجز نيوتن عن تفسيرها بالقوانين الطبيعية ليست تراكمية، وأنها تلغى بعضها بعضًا بعد فترة من

(١) التعريف بهما آخر الفصل.
(٢) التعريف به آخر الفصل.
(٣) يظهر هذا الاختلاف بشكل واضح فى مدار كوكب عطارد، وسنفصل ذلك فى الفصل الرابع.

الزمان، وبالتالى لا تحتاج إلى تدخل إلهى لتصحيحها. لذلك أجاب «لابلاس» نابليون عندما سأله عن دور الإله فى النظام الكونى بأنه لا يرى حاجة للقول بهذا الافتراض!!. ولذلك أيضًا صرنا نتحدث عن «حتمية لابلاس» التى تعنى أن الكون يخضع بشكل تام لقوانين الطبيعة».

الإلحاد يطل برأسه

لكن، كيف تسببت هذه الاكتشافات (وغيرها كثير) فى الصراع الذى نشب بين العلم والدين فى أوروبا؟.

لم يكن الصراع بين العلم والدين بسبب اكتشافات «مُعَيَّنة» للعلم تعارض معتقدات «مُعَيَّنة» للدين. كذلك فإن المفاهيم التى كان على الكنيسة أن تتخلى عنها، أمام طوفان العلم، لم يكن منها ما هو ضرورى للدين. فأساسيات الدين تتلخص فى ثلاث نقاط، نطلق عليها «النظرة الدينية للعالم»:

١- هناك إله خلق الكون.

٢- هناك خطة كونية وغرض كونى للخالق من الخلق (الغائية).

٣- يمثل العالم نظامًا أخلاقيًا يحدده الإله.

ومن المؤكد أنه منذ بداية الثورة العلمية فى القرن السابع عشر - وحتى الآن - لم يظهر اكتشاف علمى واحد ولا فكرة منطقية تتعارض مع هذه الأساسيات، التى لولاها لانهدم الدين.

ومع ذلك، فإن الثورة العلمية كان لها بالفعل أثر مدمر للمسيحية فى أوروبا؛ إذ أعقبها مباشرة نزعة شَكِّية إلحادية كبرى، جعلت من القرن الثامن عشر أكبر عصر للشك فى التاريخ الحديث، حتى أن ملك إنجلترا كان يشكو أن نصف أساقفة كنيسته ملاحدة!

كيف أدت الثورة العلمية إلى زلزلة النظرة الدينية للعالم، بالرغم من أنه سواء كانت الأرض هى مركز الكون أو كانت مجرد تابع صغير يدور فى فلك الشمس، فإن ذلك لا يمنع وجود إله خلق كل شىء ؟ كذلك لن نكون أكثر صدقًا وأمانة وأشد إخلاصًا وعدالة (النظام الأخلاقى) لو تمسكنا بقانون الحركة عند أرسطو، ولم نستبدله بقوانين الحركة عند نيوتن؟!

لمـاذا...؟

نؤكد عن يقين أن نشأة هذه النزعة الشَّكية الإلحادية الكبرى وإنكار أساسيات النظرة الدينية لم تكن مشكلة علمية على الإطلاق، بل كانت مشكلة نفسية فلسفية(١)! ترجع إلى عدد من العوامل النفسية أهمها:

أولًا: لا شك أن ما تَعَرَّضَ له العلماء من اضطهاد وتنكيل على يد الكنيسة، قد أدى إلى تبنى العلماء والمفكرين موقفًا عدائيًا من الدين، انعكس على موقف العامة.

ثانيًا: إذا كان نيوتن قد رجع بعلاقة الإله بالكون إلى وقت خلق النظام الشمسى، وترك له دورًا يتمثل فى تعديل مدارات الكواكب من حين لآخر، فقد ألغى لابلاس قيام الإله بأى دور كونى. وبذلك تلاشت نظرة الكنيسة بأن الإله خلق الكون منذ ستة آلاف سنة، وأنه خلق جدنا آدم بيديه، تلك النظرة التى كانت تعنى أن العلاقة قريبة وأن الإله يهتم بنا كثيرًا.

كذلك كان الشعور بقرب الإله يغذيه الإيمان بالتدخل الإلهى المباشر فى حياة البشر، فالصواعق تبيد أعداء الدين، والزلازل تعاقب العصاة. لكن التفسيرات العلمية لمثل هذه الظواهر لم تدع مجالًا لهذا الشعور.

ثالثًا: نجح العلم فى تفسير الظواهر الطبيعية بآليات لا تحتاج للبحث عن غاية أو هدف. كما نجح فى التنبؤ بالظواهر الطبيعية، كالخسوف والكسوف والعواصف. وقد قدم ذلك خدمات مباشرة للإنسان، فأصبح مثلًا يتحاشى الإبحار فى يوم محدد تفاديًا لهيجان متوقَّع للبحر؛ لذلك اقتنع الإنسان بسذاجة تفسيرات رجال الدين ونبوءاتهم.

رابعًا: اعتقد رجل عصر العلم أن نجاح التفسير المادى للظواهر الطبيعية واختفاء الغائية عن أحداث الكون، يعنى اختفاء الغائية من خلق الكون ككل.

خامسًا: عندما لم يعد للإله غاية من خلق البشر كما تلاشى دوره فى حياتهم، لم يعد هناك مبرر لأن يضع لهم منظومتهم الأخلاقية (ما يجب عليهم فعله وما لا يجب). وهكذا هدمت الثورة العلمية الإيمان بأن العالم يمثل نظامًا أخلاقيًا، وارتبطت القيم الأخلاقية بمصالح البشر المادية العاجلة.

---

(١) يكمن مفتاح فهم هذه المشكلة فى أن عقول البشر لا تعمل بالطريقة التى يقول بها المناطقة. فإذا كان اقتناع رجل بفكرة معينة (أ)، يستتبعه منطقيًا اقتناعه بالفكرة (ب)، فإن الواقع يخبرنا أن هذا الانتقال المنطقى هو الاستثناء وليس القاعدة! فالأعم الأغلب أن الانتقال بين الأفكار يتم عن طريق التداعى النفسى والإيحاء، إذن فهى انتقالات نفسية وليست منطقية.

سادسًا: قدم العلم الحديث للإنسان متوسط عمر أطول كثيرًا من ذى قبل، كما قدم له إنجازات علمية وحضارية تحقق له رفاهية وثراءً لم يكن يتصورهما فى يوم من الأيام، فتبدلت عقيدته من الإيمان بالإله، إلى الإيمان بالعلم وقدراته وإنجازاته.

سابعًا: يرى من أراد (إمساك العصا من الوسط) أن الله قد خلق العالم، ووضع فيه قوانين الطبيعة التى تُسَيِّره ثم تَرَكَه. إن ذلك يعنى أن الإله الخالق لم يعد يفعل شيئًا لنا، وليس له أدنى تأثير فى أحداث العام. إنه ببساطة إله لا أهمية ولا احتياج إليه!

ثامنًا: لذلك كله، أخذ المفكرون يتساءلون: إذا كان العلم قد قطع شوطًا كبيرًا فى فهم آلية أمور كانت تُفَسَّر بشكل ميتافيزيقى، كالأمراض والرعد والبرق والزلازل...، فما المانع فى أن يتوصل العلم لتفسير كل ما نعتبره ميتافيزيقيًّا؟ وبذلك تلاشت تمامًا الحاجة إلى الدين وإلى الإله.

لقد ألقت هذه الأسباب النفسية[1] بالمفكرين والعلماء والعامة من الناس فى القرن الثامن

---

(١) بالإضافة إلى العوامل العقلية والنفسية التى رَجَّحت كفة العلم فى الصراع مع الدين فى القرن الثامن عشر، نطرح هنا نوعًا من الخلل النفسى Neurosis الذى يؤدى إلى تبنى الإلحاد على المستوى الفردى، وذلك حتى نستكمل دراسة العوامل النفسية المختلفة وراء تبنى الإلحاد.

بعد دراسات تحليلية مستفيضة أجراها أستاذ الطب النفسى بجامعة نيويورك، بول فيتز Paul Vits، على شخصيات عديدة من ملاحدة العصر الحديث، توصل إلى أن تبنى الإلحاد قد يرجع إلى خلل نفسى عُصابى Atheism is a Neurosis تقف وراءه رغبة دفينة فى اللاشعور للتخلص من سيطرة الأب والحلول محله (كما يقول سيجموند فرويد).

لذلك طرح فيتز مفهومًا أسماه «منظور التقصير الأبوى Defective father Hypothesis» يربط فيه بين رفض سيطرة الأب البشرى ورفض الأب الذى فى السماء، ويضرب فيتز الأمثلة على ذلك. فهذا الفيلسوف الفرنسى الكبير فولتير، الذى يُصنَّف من كبار الشكاكين، يعانى بشدة من سوء معاملة أبيه، حتى إنه يلفظ أباه ويرفض أن يحمل اسمه. وتضم القائمة فرويد، وكارل ماركس، وتوماس هوبز، وآخرين.

كما يرى فيتز أن الطفل يعتبر موت أبيه خيانة حرمته من الدعم الأبوى، تترك آثارها فى نفسه وتعزز فيه الشعور بالاستغناء، ويضرب أمثلة لهؤلاء بـ جان بول سارتر وبيرتراند رَسِل.

وبالتالى ينظر بول فيتز إلى الإلحاد من خلال فرضيتين: الأولى، أن الدوافع الإلحادية هى فى الأساس نفسية وليست منطقية، والثانية أن لدى البشر جميعًا حرية إرادة فى الاختيار بين الإيمان بوجود الله ورفض ذلك. ويقسم فيتز تلك الدوافع النفسية للإلحاد إلى مستويين؛ دوافع سطحية، وتشمل الرغبة فى الانتماء إلى طبقة مجتمعية وعلمية أفضل وعدم التقيد بقواعد التدين. ثم الدوافع العميقة وأهمها منظور التقصير الأبوى.

وقد ظل بول فيتز ملحدًا حتى قارب الأربعين من عمره، ثم صار متدينًا ومهتمًا بالعلاقة بين الدين وعلم النفس. وطرح هذا المفهوم فى أشهر كتبه Fath of the fatherless. the Psychology of Atheism، صدر عام ١٩٩٩م.

ومن خلال محاوراتنا مع العديد من الملاحدة الشبان فى بلادنا، لاحظنا وجود عوامل نفسية عديدة أخرى وراء إلحادهم نعرضها فى الفصل الثانى عشر.

عشر فى مستنقع الشك، حتى صار القرن التاسع عشر يُعرف ـ بالمقارنة بما قبله ـ بعصر العودة إلى الإيمان بسبب النزعة الرومانسية التى ظهرت فيه. حتى يمكننا القول إن العقل العلمانى الحديث هو نتاج الثورة العلمية فى القرن السابع عشر، وليس القرن التاسع عشر أو القرن العشرين.

وبدخول القرن العشرين، ظهرت مقولة «الدين أفيون الشعوب» التى أطلقها كارل ماركس. ويقصد بها أن الأغنياء والأرستقراطيين يستغلون مفهوم الدين لتخدير الفقراء، وحملهم على قبول ما هم فيه من بؤس كأمر واقع، طمعًا فى الفردوس فى حياة بعد الموت.

نتيجة لذلك كله، شاعت مقولة فريدريك نيتشه[1] التى ألقاها آخر القرن التاسع عشر: هل مات الإله ؟ Is God Dead ?. وبدلًا من أن تظل قولًا لفيلسوف يمثل رأيًا يتبناه، أصبحت المقولة عنوانًا يتكرر فى الصحف اليومية.

الفكر الإلحادى المعاصر

يتبنى الفكر الإلحادى المعاصر عدة مفاهيم:

١- نشأ الكون تلقائيًّا، نتيجة لأحداث عشوائية، دون الحاجة إلى صانع.

٢- ظهرت الحياة ذاتيًا من المادة، عن طريق قوانين الطبيعة.

٣- الفرق بين الحياة والموت هو فرق فيزيائى بحت، سيتوصل إليه العلم يومًا ما.

٤- ليس الإنسان إلا جسد مادىّ، يفنى تمامًا بالموت.

٥- ليس هناك وجودٌ لمفهوم الروح.

٦- ليس هناك حياةٌ أخرى بعد الموت.

٧- من كل ما سبق، ليس هناك حاجة إلى القول بوجود إله.

وسنفصل هذه المفاهيم ونظرة الملاحدة إليها وتفنيد المؤمنين لها فى الفصول القادمة.

وينقسم الملحدون إلى أربع مجموعات:

١- علماء وفلاسفة، تبنوا الإلحاد، ثم وجدوا فى نظرية التطور الداروينى (تطور الكائنات الحية نتيجة لطفرات عشوائية تحدث بالصدفة) حجتهم العلمية الكبرى.

---

(١) Friedrich W.Nietzsche : (١٨٤٤ - ١٩٠٠م)، فيلسوف الإلحاد الألمانى الأشهر.

٢- الشيوعيون، الذين يريدون تحويل المجتمعات البشرية إلى مستعمرات من النمل والنحل، ولن يمكن تحقيق ذلك فى وجود المعتقدات الدينية، فينبغى القضاء عليها ولو بالقوة.

٣-أفراد غير متخصصين غير مأدلجين، وجدوا فى القول بالإلحاد هروبًا من قيود الدين أو إثباتًا لذواتهم أو تحقيقًا لمصالح أخرى.

٤- عدد لا بأس به من الصامتين! من كل الديانات والمجتمعات والأجناس، ممن لديهم شك، لكنهم لا يطرحونه للنقاش. ويمكن إرجاع شك هذه الفئة إلى عاملين:

- المظهر العلمى والفلسفى الذى يطرح به أصحاب الفكر الإلحادى القوى أفكارهم.

- الأسلوب المنغلق الذى تعلموا به دياناتهم، حيث يرفض معلموهم أى منطق أو علم يخالف ما يفهمون، وهو ما يُسمى بأسلوب «هُوَّا كده Just-so». كما يَدَّعى هؤلاء المعلمون الانفراد بالفهم عن الإله، وأن على الآخرين أن يُسَلِّموا لهم بذلك.

ويتميز الفكر الإلحادى إلى مستويين:

(أ) الفكر الإلحادى القوى Strong (Positive) Atheism

ويمثله هؤلاء الذين ينكرون وجود الإله، ويسوقون على ذلك الأدلة، ويبنون النظريات، ويروجون لفكرهم.

(ب) الفكر الإلحادى الضعيف Weak (Negative) Atheism

ويمثله الذين لم يجدوا أدلة كافية تقنعهم بوجود الإله، لكنهم لا يقومون بدور إيجابى فى نشر أفكارهم. ويمثله كذلك أولئك الذين لم يعيروا الأمر اهتمامًا كافيًا!

وتتردد فى مجال الإلحاد مصطلحات ينبغى إدراك الفرق بينها، وأهمها:

الملحد Atheist: هو المنكر للدين ولوجود الإله.

اللادينى: يفضل الملاحدة أن يُطلق عليهم اللادينيين، بينما لفظ اللادينى يعنى من لا يؤمن بدين وليس بالضرورة أن يكون منكرًا للألوهية.

ضد الدين Antitheist: هو الملحد الذى يتخذ موقفاً عدائياً من الإله والدين والمتدينين.

الربوبى Diest: هو الذى يؤمن بأن الرب قد خلق الكون، ولكنه ينكر أن يكون قد تواصل مع البشر عن طريق الديانات.

اللاأدرى Agnostic: هو الذى يؤمن أن قضايا الألوهية والغيب لا يمكن إثباتها وإقامة الحجة عليها (كما لا يمكن نفيها)، باعتبارها فوق قدرة العقل على الإدراك.

المتشكك Skeptic: هو الذى يرى أن براهين الألوهية لا تكفى لإقناعه، وفى نفس الوقت لا يمكنه تجاهلها.

العلمانى Secularist: العلمانية دعوة إلى إقامة الحياة على العلم المادى والعقل ومراعاة المصلحة بعيدًا عن الدين. ومن ثم فهو **اصطلاح سياسى لا علاقة له بعقيدة الفرد** الدينية. ولا شك أن كثير من العلمانيين لا دينيين، خصوصًا فى بلاد الغرب.

هل شاع الإلحاد؟

بعد مناقشة أسباب نشأة الإلحاد فى الغرب، والتى بدأت منذ الثورة العلمية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، نتساءل: إلى أى حد وصل الأمر الآن؟

فى استفتاء أجراه مذيع الإذاعة البريطانية BBC الشهير جون همفرى، وشارك فيه ٢٢٠٠ بريطانىّ، كانت النتيجة كالآتى:

٢٨٪ يؤمنون بالإله، ٢٦٪ يؤمنون بشىء لكن غير متأكدين من كنهه، ١٦٪ اعتبروا أنفسهم ملاحدة، ٩٪ لا أدريين (منهم همفرى نفسه). والباقون إما لم يفكروا فى الأمر أو لا يعرفون أو لم يجيبوا.

وفى دراسة أجرتها أيضًا الـBBC عام ٢٠٠٤ فى عشر دول أوروبية، كانت نسبة الملاحدة ٨٪. وفى الولايات المتحدة، أجرى معهد جالوب عام ٢٠٠٥ دراسة أظهرت أن نسبة الملاحدة تبلغ ٥٪. وهناك دراسات عديدة أخرى أظهرت نتائج قريبة مما سبق.

أما فى بلاد الشرق، فليس هناك إحصائيات دقيقة، لكن الانطباع العام أن المشكلة أقل من الغرب بكثير، وإن كان هناك مدٌ إلحاديٌّ ازداد بعد ثورات الربيع العربى وما أتاحته من جو الحريات، وسنناقش هذا الأمر فى الفصل الثانى عشر.

الفلسفة الإلحادية المعاصرة

لا شك أن العامل المهم فى ضعف الدين فى الغرب فى العصر الحديث هو شيوع الفلسفات التى ترفض الميتافيزيقيا (ما وراء الطبيعة) وتحصر العلم فى المنهج التجريبى، حتى فى العلوم الإنسانية!. وحتى نستطيع أن نتتبع مسيرة الإلحاد المعاصر، نعرض ما كانت عليه الفلسفة الإلحادية فى القرن العشرين ومدخل القرن الحادى والعشرين، وذلك من خلال طرح مفاهيم الفلسفة الوضعية المنطقية Logical Positivism والإلحاد الجديد New Atheism.

الفلسفة الوضعية المنطقية Logical Positivism

يُعتبر الفيلسوف الفرنسى أوجست كونت[1] هو مؤسس الفلسفة الوضعية Positivism التى تتعامل مع الظواهر والوقائع المادية وحسب، وتتبنى شعار «ما لا يمكن رصده، لا وجود له»، رافضة كل تفكير فى الغيبيات وعلى رأسها الإله.

ثم طرح الفيلسوف الإنجليزى سير ألفريد آير[2] عام ١٩٣٦ الفلسفة الوضعية المنطقية[3] Logical Positivism، كفرع من الفلسفة الوضعية. وتقوم هذه الفلسفة على «مبدأ التَثَبُّت The Verification Principle» الذى يرى أن قبول أى افتراض أو مسألة يتوقف على إثباتها أو نفيها عمليًا بالتجربة، أو رياضيًا، أو منطقيًا من خلال المدلول المباشر للألفاظ التى تشرح هذا المفهوم. ومن ثَمَّ، فلا معنى لأى افتراض أو مسألة تقع خارج نطاق العلم التجريبى أو الرياضيات أو المنطق المباشر.

ومن ثم، ترى الفلسفة الوضعية المنطقية أن مفاهيم مثل الإله و الروح و التدين والإلحاد لا تعنى شيئًا؛ إذ لا يمكن إثبات خطئها أو صحتها تجريبيًا أو رياضيًا أو منطقيًا. لذلك فإن مقولة مثل «الله موجود» لا معنى لها، ومن ثَمَّ يتساوى أمام العقل أن يكون الإنسان مؤمنًا أو ملحدًا.

(١) Auguste Comte: (١٧٩٨ - ١٨٧٥م)، الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسى الشهير.

(٢) A. J. Ayer: (١٩١٠ - ١٩٨٩م)، فيلسوف إنجليزى، ورئيس نادى سقراط الفلسفى بجامعة أكسفورد.

(٣) طرحها آير فى كتابه «اللغة والحقيقة والمنطق Language, Truth and Logic». وكان أول ظهور لهذه الفلسفة فى عشرينيات القرن العشرين، عند مجموعة من الفلاسفة الأوروبيين تُعرف بمجموعة فيينا Vienna Circle.

وينتهى عصر الفلسفة الوضعية المنطقية عندما يعلن مُنَظِّرها الأكبر (سير الفريد آير) فى خمسينيات القرن العشرين أن هذه الفلسفة ملأى بالتناقض، بالرغم من أنه قضى السنوات الطوال فى معالجة أخطائها. لقد تنبه آير إلى أنه لا يمكننا تطبيق قواعد البحث فى العلوم التجريبية التى تعتمد على الحواس (كالكيمياء والفيزياء) على العلوم الإنسانية (كالفلسفة والمنطق والأخلاق). كذلك لا يمكن دراسة المفاهيم الدينية بمقاييس المفاهيم العلمية؛ فلا ينبغى ـ مثلًا ـ محاولة فهم مقولة: «إن الله موجود فى كل مكان (كُلِّى الوجود)» بمفاهيم المكان فى فيزياء نيوتن أو فيزياء أينشتين. وبذلك قام آير بإعلان موت الفلسفة الوضعية المنطقية ودفنها[١].

عودة الوعى والتدين العقلانى Rational Theism

نفض الفلاسفة أياديهم من الفلسفة الوضعية المنطقية بعد أن فتح لهم سير أنتونى فلو[٢] الباب لمناقشة مفاهيم المتدينين، فظهرت فى الساحة التساؤلات حول معنى الوجود الإلهى، وإذا كان هناك إيمان فطرى بالألوهية داخل نفوسنا، و...

وظهر هذا التوجه إلى التدين جَليًّا فى غلاف مجلة تايم Time عدد أبريل ١٩٨٠، فجاء فى مقال الغلاف: «يقود بعض كبار الفلاسفة ثورة فكرية بيضاء، لم يكن يتوقعها أحد منذ عقدين من الزمان، وتهدف هذه الثورة إلى إعادة الإله إلى عرشه».

الإلحاد الجديد The New Atheism

الرِدَّة نحو الفلسفة الوضعية المنطقية

مرة أخرى يتفاقم الإلحاد ليطل برأسه تحت اسم الإلحاد الجديد The New Atheism، وقد أُستخدم هذا الاصطلاح لأول مرة فى مجلة شبكة المعلومات Wired Magazine[٣] عدد نوفمبر ٢٠٠٦.

(١) بنى ألفريد آير الفلسفة الوضعية المنطقية على كتابات الفيلسوف النمساوى الإنجليزى لودفيج ويتجنشتين Ludwing Wittgenstein (١٨٨٩ - ١٩٥١م)، وكذلك بنى رفضه لهذه الفلسفة على كتابات الفيلسوف العظيم نفسه، الذى سبقه أيضًا إلى رفضها، عندما وضع نظرية اللغة والألعاب Theory of language and games، التى ترى أن لكل لغة قواعدها ولكل لعبة قوانينها.

(٢) نُعَرِّف به ونناقش دوره فى قضية الإلحاد بعد قليل.

(٣) مجلة شبكة المعلومات Wired Magazine: مجلة أمريكية شهيرة، بدأ إصدارها عن طريق شبكة المعلومات Net فى سان فرانسيسكو فى مارس ١٩٩٣. وتهتم بطرح تأثيرات التكنولوجيا على الثقافة والسياسة والاقتصاد.

وقد لاقت الكتب التى تناولت هذا المفهوم رواجًا كبيرًا؛ إذ وجد فيها الإعلام مادة ثرية ساخنة مثيرة، بالرغم من تواضع ما طرحته من حجج[1]. وتهاجم هذه الكتابات جميع الديانات (السماوية وغير السماوية) باختلاف أماكنها وأزمانها. وبالرغم من ذلك فهى تتحدث بلهجة وَعْظية أصولية، يرتدى فيها المؤلفون ثياب الوعَّاظ الذين يَصِمون القراء بالجهل والسطحية، ويوجهون إليهم السُباب اللعين إذا لم يتوبوا عن إيمانهم الساذج بالربوبية والألوهية!

وعلى القارئ لهؤلاء المؤلفين (نتعرض لأشهرهم خلال الكتاب) أن يتبنى موقفًا محددًا: فمَن ليس معهم فهو ضدهم، إما أبيض وإما أسود، ولا مجال للمخادعة أو الغموض فى المواقف! حتى الفلاسفة الكبار الذين يُظهرون بعض التفهم لحجج المؤمنين، فقد تم ضمهم إلى قافلة الخونة سطحيِّى الفكر.

أنتونى فلو فى مسيرة الإلحاد

يمكننا القول، دون أن نجترئ على الدقة العلمية، إن سير أنتونى فلو[2] أستاذ الفلسفة البريطانى الشهير قد تَزَعَّم حركة الإلحاد فى العالم لما يزيد عن نصف قرن. فقد أَلَّف أكثر من ثلاثين كتابًا وبحثًا فلسفيًا كانت بمثابة جدول أعمال الفكر الإلحادى طوال النصف الثانى من القرن العشرين.

لذلك نزل خبر إقرار أنتونى فلو بأن «هناك إله» على الفلاسفة والمفكرين الملحدين كالصاعقة، فانبروا للدفاع عن إيمانهم المقدس بالإلحاد! وعبروا عن سخطهم وازدرائهم لهذا التحول، وكالوا للرجل كل ما لا يليق من التهم والنقائص.

وفى إطار الحديث عن الفلسفة الإلحادية المعاصرة نتساءل: ما هى إضافة أنتونى فلو إلى منهج معالجة فلسفة الإلحاد؟

(١) من أهم هذه الكتب:
The Blind watch maker, The God Delusion, Breaking the spell, Six Impossible things Befor Breakfast.

(٢) Sir Antony flew: ولد فى لندن فى ١١/ ٢/ ١٩٢٣ لأب من كبار رجال الدين المسيحى، تبنى الإلحاد منذ صباه وصار من كبار فلاسفته. وعندما تجاوز من العمر ثمانين عامًا (ديسمبر ٢٠٠٤) أعلن أنه بدافع من الأدلة والشواهد العلمية قد صار يؤمن بأن هناك إله. وفى عام ٢٠٠٧ أصدر كتابًا يشرح فيه أسباب إيمانه، والكتاب بعنوان: هناك إله: كيف عدل أشرس ملحد عن الإلحاد.
There is a god: How the world's most notorious atheist changed his mind.
وقد توفى فى لندن فى ٨/ ٤/ ٢٠١٠.

يمكن القول ـ دون أدنى مبالغة ـ إنه خلال المائة عام الماضية لم يعرض أى فيلسوف من ذوى الوزن الفكر الإلحادى بالأسلوب العميق المنظم كما فعل أنتونى فلو. فقد طرح الرجل حججًا جديدة ضد الإيمان بالله، كما رسم بأفكاره الأصيلة خارطة الطريق للفلاسفة الذين عارضوا الإيمان والتدين طوال النصف الثانى من القرن العشرين.

فإذا أخذنا كتابات فيلسوف عظيم مثل برتراند رَسِل[1]، كمثال لما كُتب عن الإلحاد فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين، وجدناها لا تخرج عن مقالات أدبية سطحية، لا تطرح فكرًا عميقًا، وفى أفضل حالاتها تلفت النظر إلى المشاكل النفسية للإنسان (مثل معاناة البشرية للشر والألم) دون معالجة جديدة[2].

يبدو أن الفلاسفة الكبار كانوا يترفعون عن أن «يلوثوا أياديهم الرقيقة وعقولهم الحكيمة بالخوض فى هذه القضية الشعبية السوقية المبتذلة!»، قضية التدين والإلحاد!

وأخيرًا نقول: إنه من الموافقات العجيبة، أن سير أنتونى فلو الذى وقف فى وجه الفلسفة الوضعية المنطقية الإلحادية منذ خمسين عامًا، ورفض ما تمارسه من تعالٍ متغطرس وازدراء تجاه المفاهيم الدينية، هو الذى تصدى للإلحاد الجديد. لقد كان هو الرجل القادر على أن يدحض حجج الملاحدة الأقدمين والمعاصرين، ويحلل ما يقدمه العلم الحديث فى هذا المضمار. وهذا ما سنتعرض له فى الفصل الثالث عشر ببعض التفصيل.

(١) Bertrand Russell: وُلد فى ويلز بالمملكة المتحدة (١٨٧٢ - ١٩٧٠م). وهو فيلسوف ورجل منطق عظيم، من علماء الرياضيات، ومن المهتمين بالتاريخ الإنجليزى، ومن المناهضين للحروب والتوسع الاستعمارى. حصل على جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٥٠ لكتاباته عن المُثل الإنسانية العليا ووقوفه بجانب حرية الفكر.

(٢) نشير هنا إلى ثلاث دراسات تُعتبر علامات بارزة وضعها أنتونى فلو فى مسار الفلسفة الإلحادية:

١- تزييف علم اللاهوت Theology and falsification: بحث قدمه أنتونى فلو عام ١٩٥٠، حاول فيه نسف قضية الإيمان من أساسها، بأن أكد خواء المقولات الدينية من أى مفاهيم وأفكار ذات معنى، ودعى فى الوقت نفسه إلى فتح باب الحوار بين الملاحدة والمتدينين. وقد صار هذا البحث من أكثر الدراسات الفلسفية انتشارًا فى القرن العشرين.

٢- كتاب «الإله والفلسفة God and Philosophy» (١٩٦٦م): يؤكد فيه فلو أنه لا ينبغى إصدار الحكم فى قضية «هل هناك إله ؟» قبل أن يطرح المتدينون تصورًا واضحًا لصفات هذا الإله، ويعتبر أنه لا معنى لوصف المتدينين للخالق بأنه (الروح، كلى الوجود، كلى العلم).

٣- كتاب «فرضية الإلحاد The Presumption of Atheism» (١٩٧٦م). وفيه يدير فلو الدفة تمامًا ليجعل الكُرَة فى ملعب المتدينين، فيضع على عاتقهم مهمة إثبات وجود الإله، بعد أن كان التناول الفلسفى السابق يطالب الملاحدة بإثبات عدم وجود الإله.

منهج الملاحدة الجدد

«إذا كانت القطط لم تمثل قطيعًا Herd بعد، فإن أعدادًا معقولة منها تستطيع أن تُصدر ضوضاءً مزعجة لا يمكن تجاهلها».

هكذا يحدد كبير الملاحدة الجدد ريتشارد روكنز[1] لطلائع قطيعه (كما وصفهم هو) فى كتابه «وهم الإله» منهج العمل فى الفترة القادمة؛ المزيد والمزيد من الصراخ والضوضاء فى مواجهة الديانات. لكن لماذا؟ ما الذى دفعهم لذلك؟ ما هدفهم؟

ويأتى وراء ريتشارد دوكنز (زعيم طلائع قطيع الملاحدة) ثلاثة من جنود الإلحاد الأقل منه سُمعة. أولهم البريطانى المولد الأمريكى الإقامة كريستوفر هتشنز Christopher Hitchens الكاتب والإعلامى وأستاذ الدراسات الحرة فى نيويورك، وقد اشتهر بكتابه «الإله ليس عظيًا God is not Great». ويأتى بعده الفيلسوف دانيل دينيت Daniel Dennett الذى يصف نفسه بأنه فيلسوف لا إله له، وهو صاحب كتاب «الخروج عن النص: الدين كظاهرة طبيعية Breaking The Spell:Religion as a Natural Phenomenon ». وأخيرًا يأتى أصغرهم، سام هاريس Sam Harris المتخصص فى علوم المخ والأعصاب، وصاحب كتاب «نهاية الإيمان: خطاب إلى أمه مسيحية The End OF Faith, Letter To A Christian Nation».

وبالإضافة لهذا الفريق من الملاحدة الأربعة، لمع فى السنوات الأخيرة نجم رئيس قسم الفيزياء النظرية الأسبق بكمبردج، ستيفن هوكنج[2] Stephen Hawking. فبعد أن ترك الباب

(١) Richard Dawkins: بريطانى وُلد فى نيروبى بكينيا عام ١٩٤١، يعيش الآن فى أكسفورد. وهو بيولوجى، كان يشغل منصب أستاذ تبسيط العلوم فى جامعة أكسفورد. وصل إلى الشهرة من خلال كتابه «الجين الأنانى The Selfish Gene» الذى صدر عام ١٩٧٦، وعرض فيه مفهومه للتطور من خلال دور الجينات. وهو من المعارضين لمفهوم الخلق الخاص ومفهوم التصميم الذكى كما ظهر فى كتابه «صانع الساعات الأعمى The Blind Watch Maker». وفى عام ٢٠٠٦ أصدر كتاب «وهم الإله The God Delusion» الذى ينكر فيه وجود أى قوى غيبية، وينظر إلى الإيمان باعتباره من الضلالات والأوهام، ويُعتبر هذا الكتاب أشهر كتبه الآن.

(٢) Stephen Hawking: عالم الفيزياء النظرية والرياضيات التطبيقية البريطانى، يشغل كرسى أستاذ الرياضيات الذى كان يشغله إسحق نيوتن بجامعة كمبريدج. وُلد عام ١٩٤٢. وهو مشهور بأبحاثه فى الكون وخاصة الثقوب السوداء. اهتم بتبسيط العلوم للعامة، وقد صار كتابه «تاريخ موجز للزمن» أكثر الكتب العلمية مبيعًا فى التاريخ، فقد بيع منه نسخة لكل ٥٠٠ إنسان على سطح الأرض. وقد أصيب فى بداية شبابه بمرض Amyotrophic lateral Sclerosis الذى أدى إلى شلل تام شمل عضلات العنق والرأس، وهو يتعامل مع المحيطين من خلال أجهزة يوجهها بحركات عينيه وشفتيه!! إذ أفقده المرض القدرة على الحركة والكلام.

مواربًا لسنوات طويلة، أعلن فى آخر كتبه «التصميم العظيم The Grand Desing» أنه لم يعد هناك مجال للقول بوجود الإله[1].

وسائل الإزعاج

ومن أجل أن يصدر طلائع قطيع القطط وقائدهم دوكنز ما يكفى من الصراخ والضوضاء فى مواجهة الأديان، فإنهم لم يكتفوا بالأساليب المعتادة؛ كتأليف الكتب والمقالات، وإلقاء المحاضرات، وعقد المناظرات، والظهور فى البرامج التليفزيونية والفضائيات، والحديث عبر شبكة المعلومات (نت)، وهى الطرق المعتادة لطرح الأفكار، بل إنهم ابتدعوا طرقًا جديدة.

ففى أثناء سيرك فى شوارع لندن، قد تقع عيناك على أحد أتوبيسات النقل العام الحمراء ذات الطابقين وقد عُلِّق عليها إعلانًا لمحاضرة أو مناظرة لدوكنز. وكثيرًا ما تقع عيناك على إعلان كُتب عليه: «فى الأغلب ليس هناك إله، لا تقلق، واستمتع بحياتك»[2]. هذا بالإضافة إلى ظهور مثل هذه الكلمات على مختلف السلع؛ كالبيرة مثلًا. ويتحمل دوكنز جزءًا كبيرًا من تكاليف هذه الحملات.

ومن إعلانات الأتوبيسات إعلان يشترك دوكنز فى دفع أجره مع الاتحاد البريطانى لحقوق الإنسان منذ عام ٢٠٠٩، ويُظهر الإعلان طفلين سعيدين يخاطب كل منهما والديه قائلًا: «من فضلكما لا تصنفونى (كمتدين)، دعونى أكبر لأختار لنفسى بإرادة حرة»[3]. إن هذا الإعلان يدعو إلى الإلحاد بدعوى حرية الإرادة، إن الملاحدة يطالبوننا بألا نُعَرِّض أطفالنا لتأثيرات تربوية تدعوهم إلى الإيمان، بينما يتهادون هم فى التأثير عليهم وتوجيههم إلى الإلحاد. كذلك يمثل إعلان «غالبًا ليس هناك إله، لا تقلق واستمتع بحياتك» سقطة تربوية خطيرة.

وفى ألمانيا، عجز الملاحدة عن الحصول على موافقة النقل العام على هذه الإعلانات،

(١) من غير المتحدثين بالإنجليزية، يقابلنا الفيلسوف الفرنسى مايكل أونفراى Michel Onfray صاحب كتاب «دفاع عن الإلحاد In Defence of Atheism» وقد اعتاد أن يحشد الجموع الهائجة ليخطب فيهم وهو يرتدى السواد من أم رأسه حتى أخمص قدميه. وفى إيطاليا، يقابلنا الرياضى بيير جيورجيو أوديفريدى Piergiorgio Odifreddi صاحب كتاب «لماذا لا نستطيع أن نكون مسيحيين Why we Can't be Christians»، الذى يسخر فيه من الكنيسة.
أما فى العالم العربى، فبالرغم من ظهور موجة إلحادية فى السنوات الأخيرة، زاد ارتفاعها وحدتها مع ثورات الربيع العربى، فما زال صوت الملاحدة منخفضًا، وما زال معظمهم مختبئين. وفى الفصل الثانى عشر من الكتاب سنتحدث عن بعض النماذج منهم وعن سمات إلحادهم.

(٢) There's probably no God, now stop worrying and enjoy your life

(٣) Please don'd label me, let me grow up and choose for my self

فاستأجروا أتوبيسات خاصة، وعَلَّقوا عليها أقوالًا مثل: «ليس هناك إله»[1]، «إن الحياة الممتعة لا تحتاج لإيمان». وفي مواجهة هذه الحملات، يُسَيِّر المسيحيون أتوبيسات عَلَّقوا عليها: «وماذا لو ثبت أن الإله موجود». وقد استغل الإعلام هذه المناظرات الأتوبيسية، وصار يصورها ويجعلها موضوعًا لبرامجه.

رسم الخطط: البديل عن الإله

من الطبيعي أن يلتقي الملاحدة لتوحيد كلماتهم ورسم الخطط لطلائع القطيع من أجل إصدار المزيد من الصراخ والضوضاء. ومن أهم لقاءاتهم كان هذا المؤتمر الذي عُقد عام ٢٠٠٦ في مؤسسة سالك Salk في كاليفورنيا. وكان عنوان المؤتمر: **ماذا بعد الإيمان: العلم - الدين - العقل - الحياة**[2]. وكان من المتحدثين من كبار الملاحدة ريتشارد دوكنز وستيفن وينبرج.

يبين عنوان المؤتمر أن الإلحاد الجديد لا يركز فقط على العلمنة الشاملة عن طريق محو الإله من الوجود، بل ويهتم أيضًا بوضع بديل عنه. ويؤكد العنوان أن الذي يقوم بذلك ليس المجتمع ولا الفلسفة، لكن العلم هو الوحيد القادر على طرح البديل، **إن العلم هو الملك**.

وكان المؤتمر يطرح ثلاثة أسئلة:

١ - هل يستطيع العلم إزاحة الدين من الحياة؟

٢ - ما الذي يطرحه العلم كبديل عن الدين؟

٣ - هل يمكن أن نكون فضلاء (Good) بدون الدين؟

يُظهر السؤالان الأولان أن الإلحاد جزء من هدف أكبر، هو **تتويج العلم على عرش الكون والإنسان**. ولما كان المؤتمِرون يدركون أن القيم المسيحية هي مصدر المفاهيم الأخلاقية في الغرب فقد وضعوا السؤال الثالث، بغية أن يزيحوا الدين عن ساحة الحياة تمامًا، وبذلك يثبتوا أن الدين ليس خطأً من الناحية العقلية والعلمية فقط، لكن أيضًا من الناحية القيمية والأخلاقية.

وقد انتهى المؤتمر إلى صياغة المفاهيم الأساسية التي ينبغي أن ينطلق منها **جدول أعمال الإلحاد المعاصر**، وهذه المفاهيم هي:

---

(١) لقد تمسك البريطانيون بكلمة «غالبًا» Probably ليس هناك إله، خشية المساءلة القضائية من قِبَل المتدينين إذ لن يستطيع الملاحدة إثبات أن الإله غير موجود.

(٢) Beyond Belief: Science, Religion, Reason And Survival

١ ـ الدين وهم خطير، يؤدى إلى العنف والحروب.

٢ ـ ينبغى التخلص من الدين، وسيقوم العلم بهذه المهمة.

٣ ـ لا نحتاج لإله لنكون على خُلُق، فالإلحاد يمكن أن يكون منطلقًا قويًّا للأخلاق.

وقد اعتبرت مجلة The New Scientist هذا المؤتمر ذو أهمية كبيرة، حتى إنها فى عددها الخاص بمناسبة مرور خمسين عامًا على إصدارها نشرت مقالًا عن المؤتمر بعنوان «البديل عن الإله In Place Of God»

هل من جديد عند الملاحدة الجدد؟

يطلق الملاحدة الجدد على أنفسهم اسم **The Brights** (اللامعون ـ الساطعون ـ المشرقون ـ الوضّائون ـ المتألقون ـ الأذكياء ـ ....)، مما يشير إلى أن الآخرين (المتدينين) هم الخافتون ـ المعتمون ـ البليدون ـ الداكنون ـ المظلمون ـ وربما الأغبياء. ويُعَرِّف الملاحدة الجدد أنفسهم بأنهم الذين يتبنون المفاهيم العلمية ويرفضون المفاهيم الغيبية. كما يعتبرون أنفسهم سلالة مرحلة الاستنارة Enlightenment التى ظهرت فى أوروبا فى بدايات العصر الحديث فى مواجهة ظلام وظلمات المفاهيم الدينية التى سادت فى العصور الوسطى.

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا: هل أثرى كُتّاب هذه الموجة المناقشات الفلسفية والعلمية التى استَعَرت طوال العقود السابقة حول قضية التدين؟

والإجابة بالنفى، وذلك لثلاثة أسباب:

أولا: لم يُدْلِ العلماء المتفلسفون الملاحدة الجدد برأى ذى قيمة فى القضايا الفلسفية المتعلقة بمفهوم الربوبية[١]، بل نجد منهم تهربًا عجيبًا من هذه القضايا. فهذا كبيرهم ريتشارد دوكنز يصف نشأة الحياة والعقل بأن ذلك كان «حادثًا عارضًا نتيجة لضربة حظ!». وهذا لويس ولبرت[٢] يقول: «لقد تعمدت تحاشى الخوض فى نشأة العقل؛ إذ إننا ما زلنا لا نفهم عنه شيئًا!». بينما يحل الفيلسوف والبيولوجى الأمريكى دانييل دينيت[٣] معضلة نشأة العقل بسذاجة شديدة؛ إذ يقول: «ثم حدثت المعجزة !!».

(١) سنعرض هذه القضايا خلال فصول الكتاب.

(٢) Lewis Wolbert: وُلد فى إنجلترا عام ١٩٢٩. يشغل منصب أستاذ البيولوجيا التطورية بقسم التشريح بجامعة لندن. وهو إعلامى ومؤلف شهير، وأشهر كتبه Six impossible things befor breakfast، صدر عام ٢٠٠٦.

(٣) Daniel Dennett: وُلد فى بوسطن عام ١٩٤٢. وهو فيلسوف ملحد مهتم بفلسفة العقل وفلسفة العلم، وبالبيولوجيا التطورية.

ثانيًا: لم يدرك الملاحدة الجدد نقاط الضعف الجذرية فى بنية «الفلسفة الوضعية المنطقية» البائدة التى يسعون لإحيائها، وأهم هذه النقاط تطبيق المنهج العلمى التجريبى على العلوم الإنسانية. ولا شك أن من يتجاهل الأخطاء المنهجية فى القضية التى يتعامل معها سوف يقع فيها لا محالة، وقد حدث.

ثالثًا: لم يَطَّلع الملاحدة الجدد على الكم الهائل من الدراسات الفلسفية الجديدة، ولا على البراهين القوية التى قدمها العلم وصارت تخدم قضية الإيمان.

لذلك فإن من يسمون أنفسهم بالملاحدة الجدد The New Atheists لم يقدموا مفاهيم أوحججًا جديدة بالمرة. الجديد فقط هو هذه النغمة العدائية العدوانية التى صاروا يستعملونها، فلم يعودوا يكتفون بأنهم «لادينين Atheists» ينكرون الوجود الإلهى، لكنهم يصفون أنفسهم بأنهم ضد الدين Antitheist. انظر إلى قول كريستوفر هتشنز: أنا لست لادينى بقدر ما أنا ضد الدين، فأنا لا أعتقد فقط أن كل الديانات كاذبة، بل اعتقد أن تأثير الكنيسة ضار. ثم لخص هتشنز فكره فى مقولته التى اشتهر بها «الدين يسمم كل شىء Religion Poisons Every thing». ويؤيد سام هاريس هذا المعنى فيقول: هدفنا أن نحطم كل مظاهر الاحترام للقيم والمفاهيم التى اشتهرت بها المسيحية.

ومن ثم فالجديد عند الملاحدة الجدد هو مهاجمة الإله والأديان بصفاقة ووقاحة، كجزء من فقدان احترامهم للمسيحية.

لذلك نقول، بمنتهى الموضوعية، إن الإلحاد الجديد ما هو إلا رِدة وقحة إلى الفلسفة الوضعية المنطقية التى تم رفضها ودفنها من قِبَل أشد المتحمسين لها.

ما كل هذا الحقد ضد الإله والدين، وضد الإسلام!

يُسَوِّد الملاحدة المعاصرون الصفحات تلو الصفحات بتفاصيل الشر والرعب الذى تسببه الديانات؛ ابتداء من الأصوليين المسلمين بعملياتهم الانتحارية واختطافهم الأبرياء، إلى ما يقوم به بعض القسس من اغتصاب للأطفال فيجردوهم من براءتهم ويسببون لهم مشاكل نفسية، إلى غسيل المخ الذى يمارسه رجال الدين الذين يسرقون أموال الناس، إلى التطهير العرقى فى البلقان، إلى المجازر بين البروتستانت والكاثوليك فى أيرلندا الشمالية، إلى الطبقية الدينية فى المجتمع الهندى...

ويعلن دوكنز أنه يحلم - كما يقول جون لينون (مطرب البيتلز) فى إحدى أغنياته - بعالم

بغير دين. عالم خال من الحرب بين الإسرائيليين والفلسطينيين وخال من هؤلاء الذين يجلدون النساء لأنهن أظهرن بوصة واحدة من أجسامهن.

وفي حوار مع دوكنز أجرته مجلة دير شبيجل الألمانية، أعلن أن أحداث ١١ سبتمبر[1] قد حولته إلى إنسان متطرف (راديكالي) Radicalised Him. ويقول في موضع آخر: لقد تلاشى بقايا ما في نفسي من احترام للديانات مع الدخان والتراب الخانق لانفجارات ١١ سبتمبر. وعلقت المجلة بأن هذا الحادث المروع هو الذي أدى إلى ميلاد الإلحاد الحديث. وكان عنوان المقال: الإله مسئول عن كل شيء.

وفي أحد اللقاءات الإعلامية، طفح كل ما بداخل دوكنز من كراهية للإسلام، فأعلن: «إن المسيحية قد تكون الحصن الأخير ضد شر أسوأ منها». إذن القضية لم تعد عداءً للدين على إطلاقه، بل عداء وكراهية للإسلام بشكل خاص. أخيرًا سقط القناع وظهرت الحقيقة.

ويروج الملاحدة أن العالم المتحضر لم يعد يطيق صبرًا على الدين - وعلى الإسلام بصفة خاصة - الذي صار متطرفًا وخطيرًا إلى حد بعيد، لذلك ينبغي القضاء عليه. ويقول ستيفن وينبرج الحائز على جائزة نوبل: ينبغي أن يفيق العالم من كابوس الديانات الذي طال، ينبغي علينا كعلماء أن نفعل أي شيء من أجل أن نخفف من قبضة الدين، ولا شك أن هذا سيكون عطاءنا الأكبر للحضارة! لاحظ كلمة أي شيء هذه، وإذا كان عطاء العلماء الأكبر للحضارة هو محاربة الأديان فمن يهتم بالعلم!

ويلخص دوكنز سبيل ذلك قائلًا: ينبغي رفع وعي الآخرين بإظهار جاذبية الإلحاد المعاصر، وبذلك نُثَبِّت أقدام الإلحاد في عالم التطرف.

يا الله ... ما كل هذا الحقد ضد الإله، وضد الدين، وضد الإسلام؟!

لا شك أن مثل هذه المقولات تجد صداها في عالم يضج بالإرهاب الذي يمارسه المتطرفون، فمن منا لا يحلم بعالم خال من هذا الرعب، ولا أحد ينكر أن هناك مشاكل يسببها المتطرفون الدينيون.

لكن هل التطرف قاصر على الدين فقط؟ ألم يُقتل المئات من البشر في صراعات بين مشجعي كرة القدم!

أإلى هذا الحد يبلغ تزوير التاريخ؟ هل كان أكثر قتلى الحروب ضحايا صراعات دينية؟ هل كانت الحربان العالميتان الأولى والثانية - أشد المجازر في تاريخ البشرية - حروبًا دينية؟

(١) إشارة إلى تفجير برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك عام ٢٠٠١م.

وهل كان الاتحاد السوفييتى الشيوعى الخالى من الديانات مدينة فاضلة؟ وكم كلف إقامة هذه الدولة الملحدة البشرية من خسائر؟

هل حياة الإنسان بدون دين حياة مطمئنة؟ انظر إلى قول جان بول سارتر: «**إن الإلحاد أمر أليم وقاس** Atheism is a Long, hard and cruel Business، **فثبوت غياب الإله أشد وطأة على النفس من ثبوت وجوده**». أما الملاحدة الذين توقفوا عن القلق فهم هؤلاء الذين توقفوا عن التفكير.

إن كل ما يذكره الملاحدة من صراعات إنما يرجع إلى نقائص نفوسٍ بشرية تتخذ من الدين - ومن غيره - ستارًا لأحقادها، ولو اختفى الدين فستمارس هذه النفوس الصراع تحت اسم آخر.

متتالية

الفكر المادى، الحضارة المادية، ثم الإلحاد[1]

ارتبطت نشأة الإلحاد المعاصر بظهور الفكر المادى ارتباطًا وثيقًا، حتى يمكن القول إن **الإلحاد هو الابن الشرعى لهذا الفكر**. ويُعتبر الدكتور عبد الوهاب المسيرى[2] من أفضل مَنْ عرضوا هذه العلاقة فى وضوح وتناسق وتراكب يصعب نقضه. لذلك لا يتكامل الحديث عن نشأة الإلحاد المعاصر وسماته دون طرح مفاهيم د. المسيرى حول الفكر المادى والحضارة المادية.

(١) عن كتاب: رحلة الدكتور عبد الوهاب المسيرى الفكرية، دراسة فى فكره وسيرته. تأليف د. عمرو شريف. الناشر الهيئة العامة للكتاب، الطبعة الثانية ٢٠٠٨.

(٢) الدكتور عبد الوهاب المسيرى: ولد بدمنهور بمصر عام ١٩٣٨ (توفى بالقاهرة عام ٢٠٠٨). تخرج من كلية الآداب - قسم اللغة الإنجليزية - جامعة الإسكندرية عام ١٩٥٥، ثم حصل على الماجستير من جامعة كولومبيا عام ١٩٦٤ والدكتوراه من جامعة رتجرز عام ١٩٦٩، حيث عمل بالتدريس عدة سنوات. ثم عمل مستشارًا ثقافيًا للوفد الدائم لجامعة الدول العربية لدى هيئة الأمم المتحدة بنيويورك قبل عودته عام ١٩٧٩ للعمل كأستاذ للغة الإنجليزية بجامعة عين شمس وجامعات السعودية والكويت.
أشهر مؤلفاته «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج معرفى جديد» صدرت فى ثمانية مجلدات عام ١٩٩٩، وهى من أعمق المراجع العالمية فى مجالها. وله العديد من الكتب حول سلبيات الحضارة المادية، مثل «نهاية التاريخ» و«إشكالية التحيز» و«العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة» و«الحداثة وما بعد الحداثة». بالإضافة إلى عدة كتب فى النقد الأدبى وأدب الأطفال، وديوان من الشعر.

الحضارة المادية

يقول د. المسيرى: الحضارة الحديثة - فى تصورى - حضارة عقلانية مادية (لا عقلانية وحسب)، فإنجازاتها الضخمة (التكنولوجيا - العلم - السيطرة على العالم) هى نتاج رؤيتها المادية، التى تطلبت استبعاد الكثير من العناصر الأخلاقية والإنسانية (العناصر غير المادية)، وذلك لتبسيط الواقع بهدف التحكم فيه (إذ لا يمكن التحكم إلا فيما هو بسيط).

أما إخفاقات الحضارة المادية الحديثة فلا تقل ضخامة عن إنجازاتها، ومن أهم تلك الإخفاقات: الأزمة البيئية - الحروب العالمية - فقدان الاتجاه (أى أن لا يعرف الإنسان أين هو ذاهب) - ظهور العَبَثِية (أى أن يتصور الإنسان أن العالم لا معنى له وأن الصدفة العمياء تتحكم فيه) - تَحَوُّل الوسائل إلى غايات...، وهـذه الإخفاقـات - مثل الإنجازات - من نتاج الرؤية المادية للحضارة الحديثة.

وتمثل الحضارة الحديثة «بناءً ماديًّا» ذا مستويين:

مستوى فلسفى (الأفكار المادية، التى هى نتاج العقل المادى).

ومستوى تطبيقى عملى، وهو المتمثل فى مظاهر الحضارة الحديثة، بإيجابياتها وسلبياتها.

العقل المادى

وفى وصفه للعقل المادى يقول د. المسيرى: والعقل المادى (الذى أنشأ هذه الحضارة) عقل محايد، لا علاقة له بالأخلاق أو بالأسئلة الكلية (الخاصة بمنشأ الإنسان ومآله، والغرض من وجوده فى الكون) أو بالمقدس أو بما يتجاوز عالم الحواس الخمس المباشر. ويتعامل العقل المادى مع ما يصله من معلومات ومعطيات ولا يمكنه تجاوزها. لذا فهو يفرز ما يمكن تسميته «منطق الأمر الواقع» أو «أخلاق الصيرورة»، أى أنه لا يعترف بوجود قيم أخلاقية أو إنسانية ثابتة مستقرة، ويرى أن كل شىء - بما فى ذلك تلك القيم - فى حالة تغير وتحول دائمين، ولذا يفرض هذا المنطق على الإنسان أن يستمد قيمه من واقعه المتغير.

والعقل المادى لا يهتم بالسمات الخاصة للظواهر أو بخصوصيات كل إنسان فرد، فهـو يركز عـلى الجـوانب العامـة. ويمكن تشبيهه بأشعة إكس، التى تعطينا صورة للهيكل العظمى للإنسـان ولكن لا يمكنها أن تنقل لنا صورة الوجـه الإنسانى فى أحـزانه وأفراحـه. وفى نفس

الوقت يهتم هذا العقل بالتفاصيل بشكل مبالغ فيه! لذلك يمكن تشبيهه أيضًا بالميكروسكوب الذى يُظهِر أدق تفاصيل الخلية دون أن ينقل لنا الصورة الكلية لهـذه الخلية.

ولما كان التاريخ بنية غير مادية، تتسم بالتركيب والإبهام، فلا يمكن للعقل المادى أن يتعامل معه بكفاءة، خاصة وأن التاريخ من صنع الإنسان ذى الجانبين (المادى والروحانى). لذلك فالعقل المادى يقدس الأمر الواقع على حساب الحق التاريخى (يشير الدكتور المسيرى بذلك إلى الصراع العربى الإسرائيلى).

نخلص من هـذا إلى أن مهمة العقـل المادى هى اختزال كـل شىء - بما فى ذلك الإنسان - فى جانبه المادى فقط، بهدف الاستفادة منه، لذلك فهو يقوم بهدم الإنسان وتفكيكه إلى عناصر مادية أولية. ويعتبر الفكر المادى أن العقل يفكر كما تهضم المعدة الطعام وكما تفرز الكبد الصفراء. وهذه الرؤية العقلانية المادية للإنسان ترده إلى طينته وتنزع عنه القداسة وتفقده مركزيته فى الكون.

الفكر المادى

كان طبيعيًّا أن يفرز العقل المادى فكرًا ماديًّا يعرض د. المسيرى أهم ملامحه فيقول: لعل «هوبز»[1] هو أول مفكر ساير المفاهيم المظلمة للعقلانية المادية، حين أعلن أن الإنسان ذئب لأخيه الإنسان، وأن التعامل الاجتماعى بين البشر لا يتم بسبب فطرة خَيِّرَة فيهم، وإنما من فرط خوفهم، ويتم بدافع غريزة حب البقاء. وقد اتفق معه «ماكيافللى»[2] حين أعلن أن الوسائل كلها مبرَرَة من أجل تحقيق السلطان السياسى.

أما «إسبينوزا»[3] و«نيوتن»[4] فقد قدما عالمًا آليًّا تمامًا، لا تُستثنى الذات الإنسانية من قوانينه المادية. وأكد هذا المعنى الفلكى «لابلاس»[5] حين قال لنابليون: إن تصوره لبنية الكون لا يحتاج لافتراض وجود إله.

وأَكَّدَ «جون لوك»[6] أن العقل صفحة بيضاء تتراكم عليها المعطيات المادية، وأن ليس هناك دور لفطرة خَيِّرَة توجهه. وبَيَّنَ الماركيز «دى صاد»[7] و«فرويد»[8] أن الإنسان يحوى

(١) Thomas Hobbes: (١٥٨٨ - ١٦٧٩م)، من كبار الفلاسفة السياسيين البريطانيين.
(٢) Niccolo Machiavelli: (١٤٦٩ - ١٥٢٧م)، فيلسوف إيطالى، اشتهر عنه قوله بأن الغاية تبرر الوسيلة.
(٣) Baruch Spinoza: (١٦٣٢ - ١٦٧٧م)، الفيلسوف الألمانى اليهودى، من الدعاة لمفهوم وحدة الوجود.
(٤) Isaac Newton: (١٦٤٢ - ١٧٢٧م)، عالم الفيزياء البريطانى الأشهر، صاحب قوانين الحركة والجاذبية.
(٥) Marquis de leplace: (١٧٤٩ - ١٨٢٧م)، عالم فلك ورياضيات فرنسى.
(٦) John locke: (١٦٣٢ - ١٧٠٤م)، فيلسوف السياسة الإنجليزى.
(٧) Marquis de sade: (١٧٤٠ - ١٨١٤م)، النبيل والفيلسوف والكاتب الفرنسى.
(٨) Sigmund Freud: (١٨٥٦ - ١٩٣٩م)، طبيب الأمراض العصبية النمساوى، مؤسس علم التحليل النفسى.

الذئب داخله (دوافع) وخارجه (سلوك)، وأن ذاته المتحضرة ما هى إلا قشرة واهية تخبئ ظلمة تعوى داخل الإنسان ومِنْ حوله. ويرى «دارون»[١] ضرورة الصراع من أجل البقاء، وأن البقاء للأصلح. وقد أعلن «نيتشه»[٢] أن ما تفرضه الذات الإنسانية من مُـثُل وهمية هى إحدى الحيل التى يحاول بها الضعفاء أن يخنقوا حقوق الأقوياء. ويرى «ماركس»[٣] أن الذات الإنسانية المستقلة وهْم ما بعده وهم، فوراء المُثل والقيم يوجد الصراع الطبقى ووسائل الإنتاج.

ويصل هذا الاتجاه إلى قمته فى فكر ما بعد الحداثة، الذى يُعتبر دريدا[٤] أشهر فلاسفته، فلا وجود فيه لذات إنسانية تميز الإنسان بما تحمله من قيم ومُثل عما حوله من الماديات، كما لا توجد غاية عُليا للوجود الإنسانى.

وقد انعكست هذه النظرة الفلسفية على بنية المجتمعات المادية، أى على المستوى التطبيقى العملى. ويمكن اعتبار أن القرن التاسع عشر قد شهد انتقالًا تدريجيًّا من الرؤية الآلية للإنسان إلى الرؤية العضوية. فإذا كان «نيوتن» قد جعل من الكون ساعة والإله هو صانع الساعات الماهر (الرؤية الآلية)، فإن عالَم «دارون»العضوى يختفى منه «الإله» تمامًا؛ فأصول الإنسان تعود لأسلاف القردة العليا ومن قبلها الزواحف. ثم يؤكد «فرويد» أن غابة القِرَدة تقع داخل الإنسان على شكل «لا وعى» مظلم وغرائز متفجرة. وقد أجرى العالم الروسى «بافلوف»[٥] تجاربه على الكلاب ثم طبق نتائجها على الإنسان، فقد كان يفترض أنه لا توجد فروق جوهرية بين كليهما. وأخيرًا يأتى «فوكوياما»[٦] (فليسوف ما بعد الحداثة) ليزيد الطينة بِله، إذ يقارن الإنسانية ببعض الأشكال التى خُطت على الرمال، ثم تمحوها الأمواجّ! أى أننا أصبحنا لا شىء.

انتهى كلام د. المسيرى.

(١) Charles Darwin: (١٨٠٩ - ١٨٨٢م)، عالم البيولوجيا البريطانى الأشهر، صاحب نظرية التطور.

(٢) Friedrich Nietzsche: (١٨٤٤ - ١٩٠٠م)، فيلسوف الإلحاد الألمانى الأشهر، الذى بَشَّرَ بالإنسان الأعلى (السوبر مان).

(٣) Karl Marx: (١٨١٨ - ١٨٨٣م)، الفيلسوف الاجتماعى الألمانى الشهير، أشهر آثاره كتاب «رأس المال».

(٤) Jacques Derrida: (١٩٣٠ - ٢٠٠٤م)، الفيلسوف الفرنسى اليهودى، وُلد فى الجزائر. اشتهر بمذهبه فى الفلسفة التحليلية الذى يُعرف باسم الفلسفة التفكيكية Deconstruction، التى لا تعترف إلا بالأصول المادية للأشياء والظواهر، وتتنكر لكل ما هو غيبى. له أكثر من أربعين كتابًا.

(٥) Ivan Pavlov: (١٨٤٩ - ١٩٣٦م)، عالم الفسيولوجيا الروسى الأشهر، مُنح جائزة نوبل فى الفسيولوجيا والطب عام ١٩٠٤.

(٦) Y.F.Fukuyama: أستاذ العلوم السياسية والاقتصاد السياسى، أمريكى الجنسية، ولد عام ١٩٥٢ - أشهر كتبه كتاب «نهاية التاريخ» الذى صدر عام ١٩٩٢.

. هكذا اختفى الإله، كما اختفى الإنسان المتسامى من عالم الفكر المادى، فصار الإلحاد إفرازًا مباشرًا لهذا الفكر.

القارئ الكريم

«الإلحاد المعاصر صناعة أوروبية»، رأينا فى هذا الفصل كم هى صواب هذه المقولة. وإذا كانت أوروبا قد شهدت أعتى موجة إلحادية فى أعقاب الثورة العلمية، فلا يعنى ذلك أن العلم أب روحى للإلحاد، إذ لا يتعارض أى من الاكتشافات العلمية العديدة مع الوجود الإلهى، لكن ترجع نشأة الإلحاد المعاصر إلى عوامل نفسية صاحبت تلك الثورة.

أما الأب الحقيقى للإلحاد فهو الفكر المادى، الذى أعاد إحياء الفلسفة الوضعية المنطقية بعد موتها! تلك الفلسفة التى تطلب لكل افتراض أو مسألة برهانًا تجريبيًّا أو رياضيًّا أو منطقيًّا مباشرًا، فكان طبيعيًّا أن ترفض تلك الفلسفة جميع العلوم الإنسانية والدينية التى لا تقوم على هذه البراهين!، وقد أفرزت هذه النظرة ـ بداهة ـ الفكر الإلحادى.

وفى الجانب الآخر، أفرز الفكر المادى الحضارة المادية المعاصرة، التى اختزلت الإنسان فى ثالوث الإنتاج والاستهلاك والاستمتاع، فكان بديهيًّا أيضًا أن يتوارى الفكر الدينى والإيمان بالإله.

وقد انطلق الإلحاد الجديد فى الغرب فى معارضته للدين من رفض الكثير من المفاهيم المسيحية التى تتعارض مع المنطق والعلم الحديث، ثم عمم نظرته على الديانات بصفة عامة. وقد اتخذت المعارضة للدين فى البداية شكل «الإنكار»، فأطلق الملاحدة على أنفسهم اصطلاح «اللادينيين Atheists»، ثم تطورت المعارضة إلى «العداء»، واتخذوا موقفًا «ضد الدين Antitheists». وأخيرًا فاجأنا الملاحدة فى الغرب والشرق بتخفيف العداء للديانات بصفة عامة وللمسيحية بصفة خاصة، وتحويل عدائهم وكراهيتهم كلها إلى الإسلام!.

والمُخزى أن يدعى الملاحدة الجدد أنهم يتبنون «إلحادًا علميًّا»، فى الوقت الذى ثبت فيه أن «على رأس أعظم اكتشافات العلم الحديث يأتى اكتشاف أن هناك إلهًا»! كما علقت مجلة تايم الأمريكية على تحول سير أنتونى فلو زعيم ملاحدة القرن العشرين إلى الإيمان بالإله بدافع من البراهين العلمية، وهذا ما سنناقشه فى فصول الكتاب القادمة، ونمهد له بدراسة «طبيعة العلم» فى الفصل القادم.

الفصل الثانى

طبيعـة العلـم

- العلم فى العصر الحديث
  - الغائية والآلية، الفلسفة والعلم
  - تعريف العلم وقيوده
  - أنواع العلوم
  - العلم عالمى محايد
  - البراهين العلمية
- المنهج الاختزالى وسلبياته
  - الاختزال المنهجى
  - الاختزال المعرفى
  - الاختزال الوجودى
  - الانبثاق
- مجال العلم وحدوده
  - هل العلم هو المصدر الوحيد للحقيقة والمعرفة؟
  - العلم لا يدرك الغاية: تورتة عمتى فضيلة
  - الآليات لا تلغى الغائية
  - من جوانب القصور الذاتى للعلم
- العلماء بين الحيادية والتحيز
  - نحن نقود الدليل إلى حيث نريد!
  - المنهج العلمى ليس مؤمنًا ولا ملحدًا ولا طبيعيًا
- تحرر العلم
- حاجة العلم إلى الإله الحق
  - نزع القداسة عن الكون
  - ليس إلهًا لسد الثغرات
  - الآلية تحتاج إلى سبب أول
  - قوانين العلم من آليات عمل الإله
- القارئ الكريم

«ها هو نهر الفلسفة تنساب إليه مياه جديدة باستمرار؛ ليتدفق عملاقًا صانعًا النماء فى شتى جنبات الحضارة الإنسانية، وقد بات العلم الآن على رأس هذه الروافد».

د. يمنى طريف الخولى[1].

«فى بداية رحلتى مع العلم كنت أجهل أنى جاهل، وبعد مشوارى العلمى الطويل بدأت أدرك مدى جهلى».

د. عمرو شريف

العلم فى العصر الحديث

منذ القرن السابع عشر أصبح للمعرفة سبيلٌ آخر، غير مفاهيم رجال الدين والفلاسفة، وهو العلم[2].

ويهدف العلم إلى التوصل إلى القوانين التى تربط بين وقائع معينة، وتكون قادرة على تفسير حدوث ظاهرة ما على نحو محدد، وليس على نحو آخر، بل والتنبؤ بتطور هذه الظاهرة مستقبلًا.

وتتميز المعرفة العلمية بأنها مقبولة عقليًا ولا يوجد فى داخلها تناقض منطقى، وأنها قابلة للاختبار من خلال الملاحظة والتجربة العلمية. وبذلك تختلف المعرفة العلمية اختلافًا جذريًا عن الاعتقاد الأعمى (الدوجماتى Dogmatic)، الذى هو التسليم المطلق بصحة موضوع ما، دون تأسيسه عقليًا أو التحقق منه تجريبيًا.

* لَمّا كان الإلحاد المعاصر يتمسح فى العلم، ويزعم أنه «إلحاد علمى»، وجب من أجل تفنيد هذا الادعاء أن نبدأ الكتاب بوقفة مع الإلحاد وسماته، وهذا ما قمنا به فى الفصل الأول، ثم نتبعها بوقفة مع طبيعة العلم ومجاله وحدوده، وهذا ما نخصص له هذا الفصل.

(١) د. يمنى طريف الخولى: أستاذة فلسفة العلوم ومناهج البحث، ورئيسة قسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة القاهرة. عضو اللجنة القومية لتاريخ وفلسفة العلوم بأكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا، وعضو لجنة الفلسفة بالمجلس الأعلى للثقافة بمصر. ولها العديد من المؤلفات والمترجمات فى مجال تخصصها. أسهمت فى نشر الثقافة العلمية وأصول التفكير العلمى. حفيدة الشيخ المجدد أمين الخولى.

(٢) اصطلاح العلم Science مأخوذ من اللفظ اللاتينى Scientia، ويعنى المعرفة.

الغائية والآلية، الفلسفة والعلم

يمر الطريق إلى تحصيل المعرفة (أى معرفة) من خلال الإجابة عن سؤالين:

السؤال الأول: لماذا (الغائية أو الحكمة) Why؟

لماذا خُلق الكون؟ لماذا خُلِقت الحياة؟ لماذا الشقاء والتألم؟....

أدرك العلماء أن التعرض لهذه الأسئلة، التى تبحث فى «الغاية» من الأشياء، يقع خارج نطاق العلم، فأنكر بعضهم الغائية، وقَبِلها البعض وتركوها لأهل السبق فيها، وهم الفلاسفة ورجال الدين.

السؤال الثانى: كيف (الآلية أو الكيفية) How؟

ذلك هو مجال العلم، بشرط إخراج المخادعين والأدعياء من الميدان.

ولتحقيق هذا الشرط، وضع العلماء للعبة أربع قواعد، ينبغى لمن يريد المشاركة أن يلتزم بها :

القاعدة الأولى: لدينا حواس خمس، هى أداة العلم عند دراسة أية قضية علمية. ولما كنا لا ندرك بالحواس أشياء دقيقة كالجسيمات تحت الذرية أو الثقوب السوداء وغيرها، فقد أضاف العلماء «الرياضيات» وحساباتها الأدق من الحواس، كمصدر للمعرفة.

القاعدة الثانية: ينبغى اتباع منهجٍ محدد فى تحصيل المعرفة العلمية، يُعرف بالمنهج العلمى التجريبى، ويشتمل على عدد من المراحل المتتالية :

١- جمع المعلومات وملاحظة الظواهر التى لها علاقة بالمشكلة المراد بحثها.

٢- صياغة الفروض التى يمكن أن تربط بين هذه المعلومات.

٣- إجراء التجارب التى تفحص هذه الفروض، وملاحظة النتائج، والخروج بالاستنتاجات.

٤- التوصل من الاستنتاجات إلى القوانين التى تحكم ظاهرة ما.

٥- الخروج من القوانين بالنظرية العلمية المنسجمة منطقيًا، والتى تفسر الوقائع المعروفة لنا من قبل، وتكون قادرة على التنبؤ بوقائع جديدة.

القاعدة الثالثة: استبعاد أى تفسير ميتافيزيقى (غيبى) لأية مشكلة علمية. ويعتبر العلماء هذه التفسيرات مُعَوِّقات للعلم، بل يمكن أن تجهض تقدم العلم تمامًا. فلو اكتفى العلماء، مثلًا، بأن مسبب الأمراض هو الله (أو الشيطان)، لما اكتشفنا الجراثيم وغيرها من أسباب الأمراض، ولتوقف الطب عند مرحلة ما قبل أبقراط[١].

القاعدة الرابعة: ينبغى أن تُطرح المعارف العلمية بأدلتها التجريبية والعقلية على الأقران والنظراء لتقييمها، ثم قبولها أو رفضها، وذلك من خلال المجلات العلمية والمؤتمرات والكتب وغيرها.

ونتيجة لهذا المنهج العلمى الحازم، نجد أن العلم يتخذ من قضاياه مواقف موضوعية، يستجيب فيها العالِـم لما تقوله الطبيعة. بينما تُعبِّر الفلسفة عن مواقف ذاتية ورؤى شخصية، كثيرًا ما تحمل تضاربًا بين آراء الفلاسفة.

وعلى الرغم من تعارضهما الظاهرى، يقدم كل من العلم والفلسفة للإنسان خدمات جليلة. وإذا كان الإنسان يحتاج إلى العلم الذى يُعنَى بجوانبه المادية والجسدية، فإنه يحتاج إلى الفلسفة التى تُعنَى بجوانبه العقلية والنفسية، حتى يمكن القول بأن الاثنين وجهان لعملة واحدة هى تاريخ الفكر البشرى. ويعمل الوجهان (العلم والفلسفة) فى ظل مناخ عام يسود المجتمع، إما مناخ دينى أو مناخ إلحادى، فالكون فى وجود الإله يختلف كثيرًا عن الكون دون إله[٢].

أنواع العلوم

عندما نسمع كلمة «علم» تتبادر إلى أذهاننا العلوم الطبيعية وحسب، ويسبب ذلك لبسًا شديدًا عند دراسة مناهج العلوم وأدلتها، وعند تأمل العلاقة بين الدين والعلم. فالعلوم تنقسم إلى مجموعتين كبيرتين؛ العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية. وتشمل العلوم الطبيعية الكيمياء والبيولوجيا، ويمكن إرجاع كليهما إلى الفيزياء، لذلك أُعتبرت الفيزياء هى أم العلوم الطبيعية، ويتوجه المنهج العلمى التجريبى الذى ذكوناه إلى هذه المجموعة من العلوم فقط[٣].

(١) Hippocrates: هو الطبيب اليونانى العظيم (٤٦٠ ق.م. - ٣٧٠ ق.م). يلقب بأبى الأطباء؛ لتأسيسه علوم الطب على المنهج العلمى. وقد صاغ قَسَمًا اشتهر باسمه، يُقسِم فيه الأطباء عند بداية ممارستهم للمهنة على الالتزام الأخلاقى تجاه المرضى وزملائهم ومهنتهم.

(٢) يردد ريتشارد دوكنز هذا القول، ونتفق معه فيه، بالرغـم من اختلافنا مـع معظم آرائه.

(٣) فى دراستنا هذه، نستخدم كلمة علم للإشارة إلى العلوم الطبيعية، ما لم نُخصص أنواعًا أخرى من العلوم.

والمجموعة الثانية، هى العلوم الإنسانية، وتشمل علومًا كثيرة؛ كالفلسفة، والأخلاق، والاجتماع، والقانون، والآداب، وغيرها. ولكل علم من هذه العلوم منهجه البحثى الخاص به.

حرصنا على طرح أنواع العلوم، كما سنطرح براهينها وأدلتها المختلفة، حتى نزيل من الأذهان أن العلوم هى فقط العلوم الطبيعية التجريبية، وما سواها ليس بعلم، وهذه هى السقطة الرئيسية للفلسفة الوضعية المنطقية وأتباعها الملاحدة.

البراهين العلمية

كذلك عندما يأتى ذكر البرهان العلمى يتبادر إلى أذهاننا «البرهان العلمى التجريبى» وحسب، بينما التجريب هو أحد البراهين العلمية وليس بأقواها. أما أقواها فهو «البرهان الرياضى» الذى كاد أن يستأثر وحده باسم «البرهان»، بينما يطلق الكثيرون على باقى البراهين اصطلاح «الدليل». كما يسبق الدليلَ التجريبى فى الحجية أيضًا «الدليلُ العقلى»، فعندما لاحظ العلماء مثلًا أن أعالى السفن تظهر فى الأفق قبل أسافلها استنتجوا أن الأرض كروية.

والدليل الرابع فى الحجية هو «الدليل الحسى» الذى يعتمد على إدراك الحواس، خاصة البصر والسمع واللمس، والذى يعتقد الماديون ـ خطأً ـ أنه أقوى الأدلة، لذلك طَالَبَ البعض رسول الله موسى عليه السلام ﴿... أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ... ﴿١٥٣﴾﴾[النساء]. وكنت أظن أن هذا الطلب عفا عليه الزمن، حتى طالبنى به كثير من الملاحدة فى مناظراتى معهم. سبحان الله، هاهم الملاحدة يرددون نفس حجج من سبقهم منذ آلاف السنين.

والدليل الحسى دليل ضعيف من الناحية العلمية. إذ يمكن تضليل الحواس بسهولة، فالبصر يعتبر السرابَ ماءً، كما أنك ترى الملعقة فى كوب الشاى كأنها منكسرة وليست مستقيمة. ولما كان الدليل التجريبى يعتمد على الحواس فى رصد النتائج فهو عرضة أيضًا للتضليل.

ولا شك أن حواس الإنسان عاجزة عن إدراك «حقيقة الوجود» المحيط بنا، فقدرة الحواس على الاستقبال محدودة للغاية؛ فإن مَثَّلنَا الموجات المحيطة بنا بخط يبلغ طوله ١٥٠ مليون كيلو متر فإن عيوننا تبصر منه ١,٥ متر فقط!! كذلك فإن كفاءة المخ البشرى فى التعامل مع ما يحيطه من معلومات محدودة إلى درجة هائلة!! هل تعلم أن المخ يتعرض لـ ٤٠٠ مليار معلومة فى الثانية الواحدة، ولايدرك منها سوى ٢٠٠٠ معلومة فقط!! يا الله ... ما أشد عجز مخ الإنسان وحواسه

عن إدراك حقيقة الوجود المحيط بنا. وبعد ذلك يندهش الملحدون عندما نخبرهم أن إلهنا «لا تدركه الأبصار» ويطالبون بأدلة حسية على وجود الله ﷻ الذى ليس بمادة ولا طاقة!!

وهناك منهـج خـاص للاستـدلال على الأحـداث غير القابلـة للتكرار ولا التجـريب، والتى تشمـل علوم التاريخ والتاريخ الطبيعى (البيولوجيـا)، ونشـأة الكون والحياة والإنسـان والتى تعـرف بعلوم البدايات، ويعرف هـذا المنهج بـ «اللجوء إلى أفضل التفسيرات Inference to the best explanation»

فما أفضل التفسيرات مثلًا للحملة الفرنسية على مصر؟، وما أفضل تفسير لقدرة بعض الأشخاص على تحريك صوان الأذن؟ وما أفضل التفسيرات لنشأة الكون من عدم؟... واللجوء إلى أفضل التفسيرات ليس بعيدًا عن المنهج التجريبى؛ فالعلماء يبحثون عن أفضل التفسيرات لنتائج تجاربهم.

ويشير البعض إلى «الحدس Intuition» أو «الحاسة السادسة»[1] كنوع من المعرفة التى لا تستخدم المنطق والاستدلال، وتبزغ فجأة فى العقل. ويختلف الفلاسفة فى ثقتهم فى حجية «الدليل الحدسى» ما بين واثق شديد الوثوق، ومشكك يعتبره أوهام.

ويرى الفيلسوف الفرنسى العظيم ديكارت[2] (ونحن نوافقه) أن العقل يمكن تضليله بما يعتنق الإنسان من أيديولوجيات وبما يصيب العقل من خلل، ومن ثم لا يثق ثقة مطلقة فى الأدلة التى تعتمد على العقل. لذلك يعتبر ديكارت أن «المفاهيم الأولية البديهية» التى يولد بها الإنسان هى المعصومة من الخطأ، مثل «أنا أفكر إذًا أنا موجود»، ومثل «أن لكل موجود حادث موجد»، ويبنى ديكارت على هاتين البديهيتين برهانه على الوجود الإلهى.

هذه هى أهم البراهين والأدلة العلمية التى يستخدم كل علم منها ما يناسبه. وتصبوا كل العلوم لأن تصبح علومًا كمية، من أجل إدخال البرهان الرياضى ضمن أدلتها، لذلك صرنا نسمع عن الفيزياء الرياضية، والكيمياء الرياضية، بل أن البيولوجين قد نزلوا بعلمهم أيضًا إلى ساحة الرياضيات.

ومع ذلك فإن تقديم «الدليل» الأقل حجية من «البرهان» لا يعنى أن القضية لا يمكن

(١) يعتبر أفلاطون وأرسطو أن الحدس انبثاق مباشر من المفاهيم الأولية البديهية، وترى الأفلاطونية الحديثة أنه نتيجة لمنطق السبب والنتيجة، أى عملية عقلية، لكنها تتم على المستوى اللاشعورى.

(٢) René Descartes: (١٥٩٦ - ١٦٥٠م)، الفيلسوف الفرنسى والرياضى والفيزيائى العظيم، يعتبر أبو الفلسفة الحديثة.

حسمها. فأنت تتخذ قرارًا خطيرًا بأن تُسلم حياتك للطيارين والجراحين بناء على «أدلة» تشير إلى كفاءتهم. كذلك فإننى لا أستطيع أن أقدم البرهان القاطع على أن زوجتى تحبنى، لكن قرابة ٣٥ سنة من الزواج تقطع لى بذلك نتيجة لتراكم الأدلة التى تصل إلى مستوى «**الدليل الذى لا يتسرب إليه الشك**» والذى له حجية البرهان. كذلك الإيمان الدينى، ينبغى أن يقوم على تراكم الأدلة Evidence Based حتى تصل إلى مرتبة لا يتسرب إليها الشك وبذلك **لا يكون إيمانًا أعمى**.

تعريف العلم وقيوده[1]

على عكس السائد بين العامة بل والمتخصصين، ليس هناك تعريف متفق عليه للعلم!، بالرغم من أن هناك اتفاقًا بين العلماء حول عدد من المفاهيم والمصطلحات التى تستخدم فى المنهج العلمى؛ مثل جمع المعلومات، وطرح الفرضيات، وإجراء التجارب، وتحليل الشواهد، وتعديل الفرضيات، وتوقع النتائج، ووضع النظريات، وتحكيم الأقران والنظراء،...

وبالرغم من صعوبة التعريف، علينا أن نختار تعريفًا ننطلق منه فى تحليلاتنا، وليكن تعريف مايكل روس[2] وهو: «**أن العلم منهج يتعامل مع ما يوجد ويتكرر فى الطبيعة بشكل طبيعى وتحكمه قوانينها**». لا شك أن لهذا التعريف جوانبه الإيجابية، فهو يعيننا مثلًا على التفرقة بين الفلك والتنجيم، وبين الطب والممارسات العلاجية الفلكلورية. ولكن لهذا التعريف بعض الجوانب السلبية، أهمها أنه يُخرج معظم علوم الفضاء الحديثة وكل علوم البدايات من حظيرة العلم، فهذه العلوم تتصدى لأحداث لا يمكن رصدها ولا يمكن تكرارها، كبداية الكون[3] وبداية الحياة.

العلم عالمى محايد

إذا أصبحتَ عالمًا، فذلك يعنى أنك قد انتميت إلى مجتمع عالمى يتجاوز كل التحديدات الأيديولوجية؛ العرقية والدينية والسياسية...، وكل ما يمكن أن يُقَسِّم البشر إلى فِرَق ومجموعات. إن كل هذه الاعتبارات تتساقط عندما يحاول العلماء كشف غموض القضايا

(١) ربما يعتبر بعض القراء أننا قد تأخرنا فى تعريف العلم بضعة صفحات، لكن الطرح السابق كان ضروريًا كتمهيد لنعرف الطبيعة المعقدة للعلم الذى سنحاول تعريفه.

(٢) Michael Ruse: فيلسوف العلوم البريطانى، من المهتمين بالعلاقة بين الفلسفة والبيولوجيا والدين. ولد عام ١٩٤٠.

(٣) لقد بدأ الكون فى العدم المطلق، قبل وجود الزمان والمكان والطاقة والمادة، لذلك فإن أى محاولة لمحاكاة تلك البداية - كما يحدث فى معامل أبحاث سيرن - ليست مطابقة للحقيقة، فهى تقع فى إطار الزمان والمكان ووجود طاقة الفراغ.

العلمية المختلفة ويضعون من أجل ذلك الفرضيات والنظريات، وعندما يصارعون الأمراض الفتاكة، وعندما يبحثون عن مصادر بديلة للطاقة بعد أن كادت الطاقة الأحفورية[1] أن تنفذ، وعندما... وعندما....

وسر حياد العلم تجاه كل التحديدات الأيديولوجية أن هذه التحديدات لا تؤثر في فهمنا لطبيعة العناصر، والثوابت الفيزيائية، وبنية الدنا DNA، وقوانين نيوتن، ونسبية أينشتين،... ونتيجة لاعتزاز العلماء بالمنهج العلمي الذي توصلوا إليه بعد جهد جهيد وتضحيات كبيرة، فقد أصبح بعضهم يشعر بالتوتر والعصبية إذا أطلت قضايا الغيب برأسها، أو إذا طُرح النقاش حول الإله.

لكن إذا كان العلم محايدًا، فهل العلماء محايدون؟ هذا سؤال مهم سنتعرض له بعد قليل.

المنهج الاختزالي وسلبياته

Reductionism

من المناهج العلمية التي أسهمت كثيرًا في تقدم العلم، ما يعرف بالمنهج الاختزالي الذي يحلل الظواهر إلى مكوناتها الأولية، فقد مَكَّنَ الإنسان من سبر أغوار الموجودات التي يتصدى لدراستها. وفي نفس الوقت يحمل هذا المنهج في بنيته الأساسية سلبيات كثيرة، تتضح عند دراسة عناصر الاختزال الثلاثة، وهي:

١ ـ الاختزال المنهجي Methodological Reductionism فلدراسة «موجود» ما يلجأ العلماء إلى تحليله إلى مكوناته الأبسط ثم دراسة هذه المكونات، فتعطينا إلمامًا بالموجود المتكامل. ومثال ذلك تحليل الغابة إلى مكوناتها، ثم دراسة صفات ما فيها من نباتات وحيوانات ومجاري مائية، فتعطينا تصورًا لخصائص الغابة كمنظومة بيئية.

ولا شك أن للاختزال المنهجي حدودًا، فدراسة أجزاء الساعة بشكل منفصل مثلًا لا تعطي تصورًا عن عمل الساعة، كذلك دراسة مكونات جزيء الماء (ذرات الهيدروجين والأوكسجين) لا تعطي تصورًا عن خصائص الماء، وهكذا. كذلك فنفس المكونات يمكن أن تُنتج منتجات مختلفة، كما في ألعاب اللوجو Logo.

٢ - الاختزال المعرفي Epistomological Reductionism: ويعني أن «الظواهر» الأعلى يمكن أن تُفَسَّر بعمليات تتم في المستوى الأدنى، وهو ما يُعرف بالتفسير من أسفل لأعلى. كأن نفسر ما نشعر به

(١) مثل الفحم والبترول والغاز الطبيعي، والتي مصدرها كائنات حية ـ نباتية في الأغلب ـ دُفنت في الأرض منذ ملايين السنين.

أحيانًا من مغصٍ بالبطن (حس) بزيادة الحركة الدودية للأمعاء (ميكانيكا)، وأن نفسر اختلاف ألوان ما نبصر (حس) باختلاف أطوال موجات الضوء (فيزياء الموجات)[1].

ولمنظور الاختزال المعرفى - بالرغم مما شارك به فى تقدم العلم - جوانب قصور شديدة. فقد أدى إلى اختزال ظواهر شديدة التعقيد (كسلوكنا الإنسانى وعملياتنا العقلية والحياة) إلى الفيزياء، وهو ما يسمى بالنظرة الفيزيائية Physicalism، وهى شكل من أشكال المادية المتطرفة. ولا شك أن هذه النظرة قاصرة وخطيرة! فعند دراسة الخلية الحية - مثلًا - يوصلنا الاختزال المنهجى إلى العناصر الأولية للخلية (ذرات الكربون والهيدروجين والأوكسجين والنيتروجين والكبريت والفوسفور). فإذا حاولنا تطبيق الاختزال المعرفى، أى فهم الحياة (الأعقد) بدراسة العناصر الأولية (الأبسط) لن نخرج بنتيجة، إذ ستكون ظاهرة الحياة قد اختفت تمامًا من الخلية. كذلك يؤدى اختزالنا لمادة المخ البشرى (اختزال منهجى واختزال معرفى) إلى أن يتساوى عقل أينشتين مع قطعة من الفحم التى يشعلها البعض لتدخين الشيشة!

معنى ذلك أن ما يحدث فى المستوى الأعلى لا يمكن تفسيره بما يحدث فى المستوى الأدنى فى كثير من الأحوال، مما يعنى قصورًا شديدًا فى منظور الاختزال المعرفى.

٣ - الاختزال الوجودى Ontological Reductionism: وهو اختزال خطأ كله، يقوم على «مفهوم الحصر» باستخدام أساليب مختلفة، أهمها اصطلاح «ليس إلا Nothing But» !. ويقع ريتشارد دوكنز كثيرًا فى هذا الخلل، انظر إليه يقول: «إن الكون «ليس إلا» مجموعة من الذرات المتحركة، والإنسان «ليس إلا» آلة للحفاظ على الجينات. إن المشكلة تكمن فى اصطلاح «ليس إلا»، الذى لو أزلناه صارت المقولة: إن الكون مجموعة من الذرات، والإنسان آلة للحفاظ على الجينات، وهذان المعنيان مقبولان علميًّا إذ إنهما جزء من الحقيقة (وليس الحقيقة كلها). إن إضافة «ليس إلا» تستبعد جوانب عديدة من الوجود الحقيقى للظاهرة، ويتركنا مع نظرة مادية/ طبيعية صرفة.

ويقع فرانسيس كريك أيضًا فى نفس الخلل حين يقول: «إن الإنسان بأفراحه وأطراحه وذكرياته وطموحاته وإحساسه بذاته وإرادته «ليس إلا» نتيجة لسلوك مجموعات هائلة من الخلايا العصبية وذراتها». إن هذه المقولة لا تهبط فقط بمفاهيمنا الجمالية والأخلاقية والدينية، ولا تخالف العلم فقط، لكنها تتجاوز المنطق؛ فما دليله على صحتها؟ وكيف نثق فى أحكام عقل انبثق تلقائيًّا من المادة؟ وكيف تحكم النشاطات الكهروكيميائية للمخ فى قضية الصواب والخطأ. إن ذلك يعنى أن الاختزال الوجودى يحمل داخله عناصر رفضه، حتى يمكن أن نسميه انتحارًا.

وعادة ما يقع الماديون فى أصناف الاختزال الثلاثة فى وقت واحد. فمثلًا، عند دراستهم للعقل البشرى يردونه لعناصر المخ الأولية (اختزال منهجى)، ويدعون أنه «ليس إلا» مجموعة من الذرات (اختزال وجودى)، وأن نشاطاتنا العقلية هى محصلة نشاطات هذه الذرات (اختزال معرفى). ومع ذلك فإن دارون نفسه كثيرًا ما تحير تجاه المخ البشرى، حتى قال: يثور الشك العاصف فى نفسى كلما

---

(١) تبعًا للاختزال المعرفى يتم تفسير الكيمياء بالفيزياء، والكيمياء الحيوية بالكيمياء، والبيولوجيا بالكيمياء الحيوية، وعلم النفس بالبيولوجيا العصبية، وعلم الاجتماع بعلوم المخ، وهكذا. وفى ذلك المعنى يقول فرانسس كريك: «إن الهدف الأعلى الذى يصبو إليه علماء البيولوجيا هو أن يفسروا البيولوجيا بالكيمياء والفيزياء».

تفكرت فى نشـأة المـخ البشرى، هـل حقًا نشأ تطورًا من الكائنات الأدنى؟ وهذا ما صرنا نصفه بشك داروين Darwin's Doubt. أما نظير داروين وصديقه ألفريد والاس، الذى توصل فى نفس وقت داروين إلى نظرية التطور، فيرى أن العقل البشرى لا يمكن تفسيره بهذا المنهج الاختزالى، ومن ثم لا يمكن إلا أن يكون هبة إلهية.

من ذلك نجد أن العلم قد حقق طفرة إلى الأمام عندما تبنى المنهج الاختزالى، لكنه فى نفس الوقت أدى إلى إهمال العناصر غير المادية من عدة ظواهر كالحياة والعقل الإنسانى، مما أكسب هذه الظواهر صبغة مادية صرفه تخدم قضية الإلحاد.

الانبثـاق

للخروج مما سببه المنهج الاختزالى من مشاكل، أهمها العجز عن تفسير ما يحدث فى المستوى الأعلى بما يحدث فى المستوى الأدنى، صـك العلماء والفلاسفـة الماديين اصطـلاح «الانبثاق Emergence»، ويعنون به «أن الصفات الأعلى تنشأ بطريقة تلقائية من الصفات الأدنى عند وصول المنظومة إلى درجة عالية من التعقيد، دون الحاجة إلى تنظيم إضافى أو مُدخَـلات إضافية»، ويطلقـون على الصفات الجـديدة اسـم «صفات منبثقة Emergent Properties». مثال ذلك انبثاق صفات الماء التى منها قدرته على إطفاء النار من صفات عنصرى الهيدروجين القابل للاشتعال والأوكسجين الذى يساعـد على الاشتعال!، وانبثاق الجمال من وضع ألوان زيتية على القماش!

ومن أكثر تطبيقات مصطلح الانبثاق فى علم البيولوجيا استخدامه لتفسير نشأة ظاهرتين شديدتا الأهمية؛ الحياة والعقل البشرى. فالعلماء الماديون يَدَّعون أن المادة ما أن بلغت قدرًا معينًا من التعقيد حتى انبثقت منها الحياة، وأن مخ الثدييات ما أن بلغ درجة هائلة من التعقيد فى المخ الإنسانى حتى انبثقت منه القدرات العقلية. إن القول بالانبثاق التلقائى لظاهرتى الحياة والعقل من المادة غير الحية غير العاقلة ادعاء شديد الغرابة، فذلك يعنى أن صفتى الحياة والعقل كامنتان فى المادة! إن الماديين بذلك يُضفون على المادة صفات لو قال بها الروحانيون لاتُهموا بالتطرف فى روحانيتهم(١).

إن القول بالانبثاق صحيح من حيث أنه «يصف» حدوث الظاهرة، لكنه خطأ بالمعنى الذى يقصده الماديون وهو أنه «يفسر» حدوثها، فهو لا يفسر شيئًا. إن الانبثاق الذى يتحدث

(١) ومن الاستعمالات الخطأ لكلمة الانبثاق، ما ادعاه ريتشارد دوكنز من أن قدرة الكمبيوتر على معالجة المعلومات هى خاصية انبثاقية! لا شك أن هذا تزوير ردىء، فقد احتاج ذلك إلى كم هائل من المعلومات التى أضافها المصممون لبرامج الكمبيوتر بعقولهم الذكية.

عنه الماديون ليس إلا عملية الخلق التى يتحدث عنها المتدينون. والمدهش أن فيلسوف العلوم الأشهر «كارل بوبر» يستخدم كلمة «الخلق Creation» كمرادف لكلمة «الانبثاق Emergence»[1].

مجال العلم وحدوده

قرأت فى صِبايا مقولة للفيلسوف الكبير برتراند رَسِل، يقول فيها: «إن أى معرفة لا بد أن تُحَصَّل بالعلم، وما لا يستطيع العلم اكتشافه لا يستطيع الإنسان معرفته». ويشارك بيتر أتكنز[2] برتراند رَسِل الرأى عندما يقول: «إن العلم هو الطريق الوحيد للحقيقة، إنه قادر على تفسير كل شىء، وليس هناك مبرر لاعتقاد أن هناك حدودًا لقدرات العلم». ولطالما تأملت هذا الرأى، مؤيدًا حينًا ومعارضًا أحيانًا، فهل هذا الرأى صحيح؟

هل العلم هو المصدر الوحيد للحقيقة والمعرفة؟

لا شك أن العلم يُمَكِننا من فهم الكثير مما لم نكن نفهمه قبلًا، ويكشف لنا أسرارًا عن الطبيعة مما يعيننا على التحكم فيها. ولكن، هل هناك حدود لما يمكن أن يكشفه ويفسره لنا العلم؟

يمثل الاتجاه الذى تبناه رَسِل وأتكنز نموذجًا لمنهج «العلمية Scientism» الذى عرضناه منذ قليل، والذى يعتبر أن أى حديث عن الإله أو الدين أو التجارب الروحية يقع خارج نطاق العلم، ومن ثم ليس حقيقيًا، وأن الحديث عن هذه المفاهيم وإن كان ممتعًا وربما مفيدًا فإنه لا يختلف عن الحديث عن الغول والتنين وبابا نويل ومصباح علاء الدين والجنيات! وقد رَوَّجَ ريتشارد دوكنز لهذا المفهوم فى تقديم كتابه «وهم الإله» بقوله: «ألا يمكن أن نستمتع بجمال الحديقة دون أن نعتقد أنها مسكونة بالجنيات الحِسَان؟!» ويقصد بذلك أن ما فى الوجود من جمال يمكن تفسيره تفسيرًا ماديًا ولا يعنى بالضرورة وجود إله!.

ونحن نوافق دوكنز فى أن القول بجنيات الحديقة (يشير بها إلى الإله) من التوهمات، ولكن

(١) Carl Popper: ولد فى ڤينا عام ١٩٠٢ ومات فى لندن عام ١٩٩٤. من أعظم فلاسفة العلوم فى القرن العشرين. والداه يهوديان، ويصف نفسه بأنه لا أدرِىّ Agnostic. درس الرياضيات والتاريخ وعلم النفس والفيزياء والموسيقى. حصل عام ١٩٦٥ على لقب سير، وعمل بين عامى ١٩٤٩ ـ ١٩٦٩ أستاذًا للمنطق والمناهج العلمية بجامعة لندن. جاء هذا القول فى كتابه الذات ودماغها The Self and its Brain

(٢) Peter Atkins: أستاذ الكيمياء الحيوية بجامعة أكسفورد. ولد عام ١٩٤٠.

لا شك أن هناك كائنات أخرى مسئولة عما فى الحديقة من جمال وإبداع! ما بالك بالبستانى ومالك الحديقة؟ فإذا لم يكن فى الحديقة جنيات فإن لها بستانيًا ومالكًا!

إن القول بأن العلم هو المصدر الوحيد للحقيقة والمعرفة يلغى الكثير مما تعلمناه فى المدارس والجامعات. ماذا عن الفلسفة والأدب والفن والموسيقى وعلم الأخلاق؟! كيف يحكم العلم بأن قصيدة ما سيئة أو إنها إبداع كبير؟ هل يمكن ذلك عن طريق إحصاء عدد الكلمات أو معرفة ترتيب الحروف؟. كيف يحكم العلم أن لوحة ما تمثل قطعة فنية ثمينة وليست مجرد تلويث للقماش بالألوان؟ لا شك أن ذلك لن يكون بالتحليل الكيميائى للأصباغ. يستطيع العلم أن يخبرك أن وضعك لسم الإستركنين فى شراب شخص ما سيقتله، لكن لن يقول لك أن من الخطأ أن تفعل ذلك مع جدتك من أجل أن ترث أملاكها.

إن مقولة برتراند رَسِل «إن أى معرفة ينبغى تحصيلها بالعلم، وما لا يكتشفه العلم لا يستطيع الإنسان معرفته» مليئة بالتناقض، إن هذه المقولة لا يمكن إثباتها بالأدلة العلمية، فكيف عرف رَسِل أنها صحيحة واعتقد فيها بشدة؟ معنى ذلك أن مذهب العلمية فيه من التناقض الداخلى ما هو كاف لتخطيئه، وليس بحاجة لعوامل خارجية لإفشاله.

العلم لا يدرك الغاية

تورتة عمتى فضيلة

سنضرب مثالًا يوضح أحد أهم جوانب قصور العلم:

أعدت عمتى فضيلة «تورتة» احتفالًا بمناسبة ما، ودعت إليها - مع أفراد العائلة - مجموعة من أكبر علماء مصر فى مختلف التخصصات. وانتهزتُ الفرصة، وطلبتُ من كل عالم أن يُعَرِّفنا بالتورتة من وجهة نظره. تحدث عالِم التغذية عن محتوى التورتة من السعرات الحرارية وقيمتها الغذائية، وتحدث عالِم الكيمياء الحيوية عن تركيبها من البروتينات والدهنيات والكربوهيدرات، وتحدث الكيميائى عن الروابط الكيميائية بين مكوناتها وعن تأثير عملية الإنضاج الحرارى على هذه المكونات، وتحدث الفيزيائى عن العناصر التى تتكون منها مكونات التورتة، وقدم الرياضى معادلات تصف سلوك هذه العناصر والجزيئات، وأخيرًا حدثنا عالم الاقتصاد عن تكلفة صناعة التورتة.

لا شك أن العلماء قد أحاطوا بـ«كيفية How» صناعة التورتة من كل جوانبها. بعد ذلك وجهتُ إلى هؤلاء العلماء سؤالًا؛ «لماذا why صُنعت التورتة؟ أى ما الغرض الذى من أجله صُنعت التورتة؟ وهو ما يُعرف بـ« الغائية»، لم يستطع أحد من العلماء أن يقدم الإجابة، وفى نفس الوقت لم ينقص ذلك من قدراتهم وكفاءاتهم. أما عمتى فضيلة فقد ابتسمت ابتسامة عريضة. هل وصلتك الرسالة؟

وإذا كان برتراند رَسِل يحيا معنا لسألناه: لقد عَجَزَ العلماء عن أن يعرفوا لماذا صُنعت التورتة، لكن هل من المستحيل معرفة السبب؟ كل ما علينا هو أن نسأل عمتى فضيلة. إذًا فادعاء رَسِل أن العلم هو السبيل الوحيد لمعرفة الحقيقة وتحصيل المعرفة ادعاء باطل، بل ومشين للعلم ذاته.

وبالرغم من هذا الادعاء الذى يعكس ثقة برتراند رَسِل المطلقة بالعلم، يقابلنا قول آخر له: «إن أكثر الأسئلة أهمية وإثارة تقع خارج قدرات العلم! مثل: إذا كان الوجود ينقسم إلى مادة وعقل، فما المادة وما العقل، وما العلاقة بينهما؟ هل للكون غاية وهدف؟ هل هُنَّاك قوانين حقيقية تحكم العالم، أم إنها من تصورات عقولنا التى تهوى النظام؟ ولِمَ تهوى عقولنا النظام؟ ما حقيقة الإنسان؟ هل هناك مسلك محمود فى الحياة ومسلك عكس ذلك، أم أن هذه افتراضاتنا؟ مثل هذه الأسئلة ـ وغيرها كثير ـ لا إجابة لها فى المعمل».

وفى كتابه: «نصيحة لعالِم مبتدء»[(١)]، يحدد سير بيتر مداور[(٢)] (الحائز على جائزة نوبل) قاعدة ذهبية لهذا العالِم، فيقول: «لا شيء يُفقد الثقة فى العالِم قدر تصريحه بأن العلم يعلم (أو سيعلم قريبًا) الإجابة عن كل الأسئلة التى تستحق أن تُسأل، وأن الأسئلة التى لا توجد لها إجابة علمية لا تستحق أن تُسأل وتُعتبر علم كاذب، ولا يسألها إلا الحمقى، ولا يحاول الإجابة عنها إلا السُّذج». ويضيف مداور: «لا شك أن للعلم حدودًا لا يستطيع تجاوزها؛ فالعلم لا يستطيع الإجابة عن الأسئلة البديهية التى يطرحها علينا أطفالنا: كيف بدأ هذا الوجود؟ كيف جئنا هنا؟ ما الغرض من حياتنا؟ وغيرها كثير». إن هذه الأسئلة ليس لها إجابة إلا عند الفلاسفة ورجال الدين.

---

(١) Advice to a young Scientist

(٢) Sir Peter Medawar: (١٩١٥-١٩٨٧م)، طبيب بريطانى من أصل لبنانى، حصل على جائزة نوبل فى الطب عام ١٩٦٠.

ويؤكد فرانسز كولنز[1] (رئيس مشروع الجينوم البشرى) هذا المعنى قائلًا: «**إن العلم عاجز عن الإجابة عن أبسط التساؤلات؛ لماذا نشأ الكون؟ لماذا نحن هنا؟ ماذا يحدث بعد أن نموت؟**

الآليات لا تلغى الغائية

إن ما نطرحه هنا حول برتراند رَسِل وعمتى فضيلة معلوم منذ أيام أرسطو والإمام الغزالى، فقد وصفا لكل موجود عللًا أربعة: **العلة المادية**، وهى المواد التى صُنعت منها التورتة. **والعلة الصورية**، وهى الهيئة التى شُكِّلت عليها. **والعلة الفاعلة**، وهى عمتى فضيلة. **والعلة الغائية**، وهى الغرض الذى من أجله صُنعت التورتة. إن العلة الغائية تقع خارج نطاق العلم، ولا يستطيع أن يطلعنا عليها إلا العلة الفاعلة.

ولما كان العلم لا يدرك العلة الغائية، فقد اعتبر الماديون/ الطبيعيون ألَّا حاجة للبحث عن الغاية! ولكن ذلك لا ينفى ـ رغم أنف المعارضين ـ **أن الغاية علة حقيقية للأشياء**. ولا ينفى ذلك **أن للعقل دورًا مع العلة الغائية**، فالعقل ـ وإن كان يعجز عن التوصل إلى الغاية بذاته ـ هو الذى يحكم على مصداقيتها. فإذا أخبرتنا عمتى فضيلة أنها صنعت التورتة احتفالًا بعيد ميلاد ابنتها إسراء، وكنا نعلم أن ليس لها ابنة بهذا الاسم، فسيرفض العقل قبول هذه الغاية.

ومن ثَمَّ، إذا أخبرنا المتدينون أن هناك إلهًا هو العلة الفاعلة لهذا الكون، وأنه أطلعنا على الغاية من خلقه للإنسان، ويقوم بالإجابة عن التساؤلات التى لا يستطيع العقل وحده أن يجيب عنها، **فإن العقل يقوم بفهم هذه المعلومات والحكم على مصداقيتها. إذًا فالقول بالإله لم يعطل الدليل Evidence ولا المنطق Rationality ولا العقل Reason**.

من جوانب القصور الذاتى للعلم

فى تحليلنا لجوانب محدودية العلم التجريبى، انتهينا إلى أنه لا يتعرض للعلوم الإنسانية ولا «للغاية» من الأشياء، وهو ما يُعرف بالغائية، والآن نتعرض لقيدين آخرين أكثر عمقًا مرتبطين جذريًّا ببنية العلم[2].

يخبرنا مفهوم اللاحتمية فى فيزياء الكم «أن قوانين الطبيعة التى نُعَبِّر عنها رياضيًّا لا تصف

(١) Frencis Collins: عالم البيولوجيا الجزيئية ورئيس مشروع الجينوم البشرى، يؤمن بالتطور الموجه، ألف عدة كتب أشهرها «لغة الإله». يشغل الآن منصب عميد كلية الدراسات العليا بالفاتيكان. ولد عام ١٩٥٠.

(٢) تحدثنا منذ قليل عند حديثنا عن البرهان الحسى عن قيد جذرى ثالث، وهو القدرة المحدودة للغاية للمخ والحواس على إدراك حقيقة الوجود.

الجسيمات تحت الذرية على حقيقتها، لكنها تُعَبِّر عن «نظرتنا» لتلك الجسيمات». إن ذلك يعنى أن للراصد دورًا فى تحديد ماهية المادة، ومن ثم فإن عدم الثبات وغياب المطلق من صميم طبيعة العلم. ولا يعنى ذلك أن معطيات العلم ذاتية تختلف من شخص لآخر، فالعلم يعطينا نظرة موضوعية للعالم مكنتنا من أن نتحدث عن نظريات جاليليو ثم نيوتن ثم أينشتين، وإن كانت هذه النظرة لا تعبر عن الحقيقة المطلقة للوجود.

ويتضح القيد الثانى عند تعاملنا مع قضية الألوهية، فكل علم من العلوم يلتقط جانبًا من الوجود ليدرسه ويكشف أسراره، ولما كان الإله ﷻ خارج وجودنا المادى ومن ثم لا يتبع أيًّا من علومنا المادية، فإن البحث فى ذاته وصفاته يكون خارج مجال العلم كله. وإذا كان المنطق البديهى يشير إلى أن «البعرة تدل على البعير»[1]، فهل الأصوب عقلًا أن نعتبر أن وجود الكون دليل على وجود خالقه؟ أم نعتبر أن ذلك وهم، ونصمم على طرح الألوهية للبحث العلمى التجريبى! ونركز على دراسة كيف تنتج البعرات (المادة الميتة) كائنات حية! كما يفعل الماديون؟!

العلماء بين الحيادية والتحيز

من المنطقى أن يأتى المذهب الفلسفى كإفراز للعلوم الطبيعية، فالعالِم يدرس الكون أولًا، ويضع نظرياته، فيجد أن المحصلة تشكل مذهبًا فلسفيًّا جديدًا، أو تندرج تحت مذهب فلسفى معين (مذهب طبيعى، أو مذهب وجودى، أو مذهب دينى خلقوى...) فيتبناه.

ولكن ما يحدث فى الواقع عكس ذلك تمامًا! فالعلم كثيرًا ما يتبع الأيديولوجية وليس العكس! ذلك أن العقل المحايد تمامًا فى حكم المستحيلات. فهذا عالم المناعة جورج كلين[2] يصارحنا بأن إلحاده ليس منطلقًا من العلم، بل كان إيمانًا مسبقًا اكتسبه فى صباه. ويؤكد نفس المعنى عالم الوراثة ريتشارد ليونتن[3] فى حديثه عن صديقه كارل ساجان[4] فيقول: من الواضح تمامًا أن القناعات المادية لساجان كانت عقيدة مسبقة، شكلت نظرته للعلم. ويتبنى ريتشارد ليونتن نفس القناعة التى نسبها إلى ساجان، ويقول: إن المادية هى المطلق، ولن نسمح للألوهية أن تقترب من الباب.

---

(١) قول استشهد به أحد البدو على وجود الإله حين دعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام.

(٢) George Klein: بيولوجى سويدى، مهتم بأبحاث السرطان. له كتب فى الإلحاد أهمها «الملحد والمدينة المقدسة». ولد عام ١٩٢٥.

(٣) Richard Lewontin: عالم وراثة أمريكى مهتم بالتطور. ولد عام ١٩٢٩.

(٤) Carl Sagan: (١٩٣٤ - ١٩٩٦م)، عالم فضاء أمريكى، كان مستشارًا لـ «ناسا»، اشتهر ببرنامج «الكون»، أكثر البرامج التليفزيونية مشاهدة فى التاريخ.

لذلك عندما يواجه أمثال هؤلاء العلماء موقفًا علميًا ليس له تفسير إلا التدخل الإلهى، فإنهم يبادرون إلى رفضه أو تشويهه أو تعميته، ويقبلون تفسيرات طبيعية مادية لا يمكن لعقل منصف أن يقبلها. وهذا من أكبر «مطبات» التحيز فى العلوم الطبيعية.

ويشبه ذلك عالِمًا صَمَّمَ جهازًا قادرًا على رصد موجات الضوء المرئى فقط، ثم يدعى أن ليس فى الكون موجات غير مرئية (كالأشعة فوق البنفسجية وتحت الحمراء)! لا شك أنك ستستقبح أن يفعل عالمٌ ذلك، لكن هذا ما حدث تمامًا فى الحقيقة. لقد وضع العلماء منهجًا للبحث العلمى لا يرصد إلا الطبيعة، ثم قال الماديون منهم أن العلم ينفى ما سوى الطبيعة!!.

نحن نقود الدليل إلى حيث نريد!

من المواقف المشرقة فى تاريخ الفلسفة المعاصرة موقف سير أنتونى فلو، الذى بدل عقيدته من الإلحاد إلى الإيمان بالإله بعد أن تجاوز الثمانين من عمره، وفسر ذلك بأن الدليل قاده إلى الإلحاد طوال ستين عامًا، ثم قاده إلى الإيمان[١].

أما المعتاد الذى يتردى فيه كثير من العلماء والفلاسفة، أن عقولهم تظل واقعة تحت أسر تحيزها لمفاهيمها المسبقة لفترة طويلة قبل أن تستطيع التحرر منها[٢]. وفى دراسة شهيرة، أوضح الفيلسوف بول كيرتس[٣] أن توترًا شديدًا يمكن أن يصيب المهتمين إذا أدت تجارب العلماء إلى نتائج تتعارض مع مفاهيمهم السائدة Paradigm. مثال ذلك ما أصاب رجال الكنيسة حين أدت أبحاث جاليليو إلى مخالفة مفاهيم أرسطو التى اعتنقوها. وكذلك رَفْض الماركسيين لاكتشافات مندل فى علم الوراثة، لأنها تتعارض مع مفاهيم ماركس السياسية!.

لقد انقلبت الأمور، فبدلًا من أن يقودنا الدليل إلى الحقيقة أصبحنا نحن الذين نقود الدليل إلى حيث نريد.

---

(١) إشارة إلى مقولة للفيلسوف العظيم سقراط، كانت هى الحكمة التى اتبعها سير أنتونى فلو طوال حياته: أن نتبع الدليل إلى حيث يقودنا To Follow The evidence Wherever it leads

(٢) لا شك أن العقول مستعدة لتبنى المفاهيم الجديدة بسهولة ما لم يكن هناك عائق أيديولوجى أو خلفيات تحول دون ذلك. فما أن اكتشف رادزفورد أن الذرة ليست مصمتة بل إن لها نواة تحيطها إلكترونات تدور فى فراغ هائل، حتى تخلص المجتمع العلمي من التصور القديم بسرعة وتبنى التصور الجديد. كذلك تم قبول الدنا DNA كحامل للشفرة الوراثية فى الخلية بدلًا من البروتين فى ليلة واحدة.

(٣) Paul Kertz: (١٩٢٥ – ٢٠١٢م)، فيلسوف أمريكى من الشكاكين، يعتبر أبو العلمانية الإنسانية، اشتهر بكتابه الفاكهة المحرمة.

المنهج العلمى ليس مؤمنًا ولا ملحدًا ولا طبيعيًّا

عند دراسة ظاهرة علمية ما، هل يختلف المنهج إذا كان الدارس ملحدًا أو مؤمنًا؟. نحن نطرح هذا التساؤل ـ الذى يبدو ساذجًا ـ لأن البعض بدأ يدعو إلى منهج علمى مؤمن، مما يعنى أن المنهج العلمى القائم منهج ملحد! إن هذه الدعوى تؤيد ادعاء الملاحدة أن العلماء المتدينين منحازيون، كما تثبت أن الإلحاد يقف وراء ما حققه العلم من نجاحات حتى الآن.

لإثبات خطأ أدلجة المنهج العلمى نتساءل: هل ستختلف نتائج الدراسة إذا كان الباحث الملحد يرى أن الكون وصل إلى ما وصل إليه بالصدفة وأصبح يبدو كأنه قد صُمِّم، بينما يرى الباحث المؤمن أن الكون قد صُمِّم بالفعل؟ لا شك أن كلًّا من الباحثين سيبحث بنفس المنهج ويعتبر أن الكون يتبع تصميما ما، سواء تحقق هذا التصميم بالصدفة أو بالقصد.

كذلك فإن اصطلاح «المنهج العلمى الطبيعى **Naturalism**» يشير إلى أن المؤمنين بالإله لا يطبقون المنهج العلمى. ومن ثم، من الأفضل أن نرفض كل هذه التصنيفات، فكلها يحمل خلفية أيديولوجية مميَّزة، وأن نتحدث فقط عن المنهج العلمى.

تحــــرر العلــم

فى هذا الجزء من الفصل نعرض أفكار كتاب يحمل هذا العنوان لعالم البيولوجيا البريطانى روبيرت شيلدريك[1]، وهو عرض نستكمل به فهمنا لطبيعة العلم. وقد وصف الإعلامى مايك آدمز[2] الكتاب بأنه أحسن ما كُتب فى موضوعه فى العقد الأول من القرن الحادى

(١) Rupert Sheldrake: عالم فسيولوجيا النبات والمشرف على مركز أبحاث بيولوجيا الخلية بكمبريدج، وأستاذ زائر بجامعة كونيكتيكت بالولايات المتحدة، ولد عام ١٩٤٢ ببريطانيا.
ومنذ عام ١٩٨١ ظهر اهتمام شيلدريك بالباراسيكولوجى حين طرح «فرضية الرنين Morphic Resonance»، التى ترى أن المنظومات الطبيعية (كمستعمرات البكتريا ونباتات الأوركيدا وأسراب الحمام وجزيئات الأنسولين ترث ذاكرة من الأشياء المماثلة السابقة عليها، وأن هذه الذاكرة مسئولة عن التواصل بين هذه الكائنات. وقد قوبلت الفرضية بمعارضة كبيرة فى الأوساط العلمية، وهذا لا يتعارض مع صحة أفكار شيلدريك التى نعرضها فى هذا الفصل.
وقد أصبح شيلدريك الآن كاتبًا وإعلاميًّا نشطًا، وله عشرة كتب فى مجال تجاوز النظرة المادية للعلم، وأهمها الكتاب الذى نعرض أفكاره فى هذا الفصل، والذى نشر فى بريطانيا عام ٢٠١٢ باسم Science Delusion ثم فى الولايات المتحدة باسم Science Set Free.

(٢) Mike Adams: مؤسس موقع Natural News على شبكة المعلومات، وقد اختير عام ٢٠١١ كثانى أشهر إعلامى فى الشبكة على مستوى العالم. وهو أيضًا مدير مؤسسة Consumer Wellness وموقع Spiritual Exploration. ولد عام ١٩٦٩.

والعشرين؛ حيث إنه يمثل ثورة استباقية فى العلم تعادل وتصحح تلك التى أحدثها كتاب أصل الأنواع لدارون الذى صدر فى منتصف القرن التاسع عشر.

ويتبنى الكتاب ـ ونحن نوافقه ـ أن العلم المعاصر ينطلق من عشر قواعد (افتراضات) أساسية ليس عليها أدلة علمية، أى أنها عقائد دوجماتيقية Dogmas استمدها العلم من مفاهيم فلسفية يونانية قديمة ترى أن المادة هى الحقيقة المطلقة الأزلية.

ويرى المؤلف ـ ونحن نوافقه ـ أن العلم طالما تمسك بهذه القواعد فلن يتجاوز مستوى معين من فهم الذات الإنسانية والكون، وهو الهدف الأسمى للعلم. ومن ثم إذا أراد العلم أن يغزو آفاقًا أوسع من الفهم والتقدم وأن يكتشف منظومات ما زالت مجهولة تتحكم فى الوجود فعليه التخلص من هذه المعتقدات الدوجماتيقية التى تخالف الحقيقة، وتلك العقائد العشر هى:

(١) الكون منظومة مادية[١]

ينطلق العلم المعاصر من أن الكون «ليس إلا مادة»، وأنه يمثل منظومة تتعامل بلغة الميكانيكا والكهرباء والكيمياء وفقط، وأن هذه المنظومة خالية من الوعى والعقل والروح. لذلك يسعى العلماء حثيثًا إلى الوصول إلى أدق جسيمات المادة وتوصيف آلياتها وتفاعلاتها، واعتبار أن هذا كل ما فى الوجود. وبذلك يتلاشى الاحتياج إلى إله/ خالق/ ذكاء أعلى، ويعنى ذلك أيضًا الفناء الكامل للإنسان بموته.

هل لدى العلم دليل على أن الكون «مغلق مكتفٍ بذاته» وليس خاضعًا لتدخلات إلهية؟ لم يقدم العلم دليلًا واحدًا على صحة هذه الفرضية!!

(٢) الطاقة والمادة لا تُستحدثان ولا تفنيان ولا تتغير كميتهما[٢]

أثبت العلم المعاصر أن طاقة ومادة الكون قد استحدثتا من العدم. وفى نفس الوقت علينا أن نقبل بقانون بقاء الطاقة/ المادة الذى يؤكد أنهما لا تُستحدثان!!

وعندما اكتشف العلماء أن مقدار الجاذبية بين المجرات أكبر من أن تفسره كتلة تلك المجرات، افترضوا (دون دليل) وجود «مادة سوداء» نعجز عن رصدها!. كذلك عندما اكتشف العلماء أن سرعة تمدد الكون فى تزايد، افترضوا (دون دليل) وجود «طاقة سوداء» لا يمكن رصدها كذلك!. وقد أظهرت الحسابات الرياضية أن مقدار المادة والطاقة السوداء المفْتَرَضة تبلغ ٩٦٪ من مجموع مادة وطاقة الكون!.

---

(١) The Universe is Mechanical. العناوين الإنجليزية التى نثبتها فى الهوامش فى هذا الجزء من الفصل هى عناوين فصول كتاب شيلدريك كما كتبها هو، ونحن نترجمها إلى العربية بالشكل الذى يُقَرِّب المعنى.

(٢) The total amount of matter and energy is always Constant وهو المعروف بقانونى بقاء المادة والطاقة.

لا شك أن افتراض وجود هذه الكميات الهائلة من المادة والطاقة (دون دليل) من أجل المحافظة على هذا المُعتقَد يعرقل التوصل إلى منظومات أخرى قد تكون أكثر صوابًا تؤثر فى الظواهر الكونية، مما يعرقل العلم عن الدخول فى آفاق جديدة.

(٣) الثوابت الطبيعية لا تتغير[١]

ينطلق العلم المعاصر من أن سرعة الضوء لا تتغير، وكذلك باقى الثوابت الطبيعية الأخرى؛ كشحنة وكتلة الجسيمات تحت الذرية (كالإلكترون والبروتون) ومقدار الجاذبية وغيرها.

وخلافًا لذلك، ترينا نظرة مقارنة بين كتب الفيزياء عبر عقود أن سرعة الضوء (كما سجلتها هذه الكتب) قد تناقصت من عام ١٩٢٦ إلى ١٩٤٥م بمقدار عشرة كيلو مترات فى الثانية، ثم بمقدار عشرين كليومتر بين عامى ١٩٤٦ - ١٩٦٥م!. كذلك نجد أن ثابت الجاذبية (G) قد نقص خلال العشر سنوات الماضية بمقدار ١,٣٪! فهل تغيرت هذه الثوابت الطبيعية حقًا؟. الإجابة أن لا! لكن العلماء غيروا من مقادير هذه الثوابت من أجل أن يحافظوا على معادلاتهم الفيزيائية متوازنة، حتى يحتفظوا بمفاهيمهم الفيزيائية دون تغيير وبعيدًا عن إعادة النظر!.

وينبغى هنا أن يأخذ العلماء درسًا من أحد كبرائهم؛ فعندما أظهرت معادلات أينشتين أن الكون إما يتمدد أو ينكمش، مما يتعارض مع المفهوم السائد حينئذ من أن الكون «ثابت أزلى»، أضاف أينشتين لمعادلاته ما أطلق عليه «الثابت الكونى» ليحافظ فيها على ثبات الكون وأزليته. وعندما أثبت إدوين هابل أن الكون يتمدد، اعترف أينشتين أن إضافته للثابت الكونى يُعَد أكبر خطأ فى حياته العلمية. يا ليت كل العلماء بموضوعية أينشتين.

(٤) الطبيعة وجود لاغائى[٢]

يتمسك العلم المعاصر بالتفسيرات الداروينية التى ترى أن النظم البيولوجية والسلوكية والاجتماعية بل والميكانيكية تتبع الانتخاب الطبيعى الذى لا قصد له ولا غاية.

وسنرى فى فصول الباب الثانى كيف أن الانتخاب الطبيعى العشوائى الخالى من الغاية يعجز عن تفسير نشأة الكون والحياة، وكذلك تفسير تطور الكائنات الحية ونشأة الذكاء الإنسانى. ولا شك أن هذا العجز يسلمنا إلى القول بالقصد والغائية التى يقف وراءها ذكاء مطلق.

(٥) الوراثة البيولوجية عملية مادية، تتم من خلال آلية الدنا DNA فقط[٣]

عندما توصل واطسون وكريك إلى بنية جزىء الدنا DNA وطريقة أدائه لوظائفه، ظن العلماء أنهم قد توصلوا إلى سر الحياة، وأصبح البيولوجيون يعتبرون أن الدنا (جيناتنا) مسئول عن بنيتنا وسلوكنا وشخصياتنا وقراراتنا.

---

(١) The Laws of Nature are Fixed

(٢) Nature is Purposeless, with No Goal or Direction

(٣) All Biological Inheritence is Material, Carried in DNA

ثم ثبت حديثًا وجود آليات شديدة التعقيد توجه نشاط الجينات، وأن هذه الآليات تشتمل على عوامل بيئية ونفسية عديدة. كما ثبت أن الإنسان يتمتع بحرية الإرادة، بل وقادر من خلال إرادته وتركيزه العقلى على تعطيل وتعديل نشاطاته الجسدية المختلفة التى تمارسها الجينات[1].

وبالرغم من أن البيولوجيا الحديثة أثبتت أن اعتبار الدنا هو المتحكم فى أجسامنا وحياتنا قد صار تصورًا عتيقًا عفا عليه الزمن، فما زال العلماء الماديون متمسكين بما أطلقوا عليه «الحتمية الجينية»، فغابت عنهم بذلك حقيقة الإنسان الذى هو محور أبحاثهم.

(٦) الإنسان - أيضًا - منظومة مادية غير واعية[2]!

ينكر معظم العلماء أن البشر مخلوقات واعية! ويعتبرون أن الإنسان ليس إلا روبوت بيولوجى/ حى، وأن الوعى الإنسانى ليس إلا توهمات ناتجة عن النشاط الكيميائى للمخ. والمدهش أن كثير من هؤلاء العلماء يعتبرون أن بعض الموجودات غير الحية (كالبللورات) على قدر من الوعى!!

والواقع أن ليس لدى العلماء أى دليل علمى على أن الوعى الإنسانى مجرد توهمات!

(٧) العقل ليس إلا اضطراب فى الوظائف المخية[3]

ما زال معظم علماء المخ والأعصاب يرفضون الإقرار بأن العقل هو إدراك واع لا مادى «مصاحب» للمخ لكنه غير مستمد من نشاطه الكهروكيميائى. ويصر هؤلاء على أن العقل ليس إلا اصطلاح لوصف توهمات المخ غير الحقيقية، وهم بذلك يستخدمون عقولهم لنفى أن هناك عقلًا!

سبب المشكلة أن العلماء يستخدمون لدراسة النشاطات العقلية وسائل مادية، ومن ثم لن يضعوا أياديهم إلا على المادة. تمامًا كما تحاول أن تقيس مقدار حيرتك وقلقك فى مواجهة موقف ما باستخدام ميزان الحرارة (الترمومتر)!!

(٨) تُختزن الذاكرة فى المخ فى هيئة كهروكيميائية، ومن ثم تتلاشى بالموت[4]

يعتبر العلماءُ الماديون أن الذاكرة يتم حفظها على هيئة دوائر كهربائية أو مركبات كيميائية فى المخ، بالرغم من أنهم عجزوا عن تحديد آليات ذلك، كما عجزوا عن تحديد موضع محدد للذاكرة، وبالرغم من أن هناك أشخاصًا يمارسون نشاطاتهم العقلية المرتبطة بالذاكرة بشكل طبيعى رغم استئصال أو ضمور ٧٥٪ من أمخاخهم.

إن طرح المتدينين هو الأقرب لحقيقة العقل (الوعى - النشاطات العقلية ومنها الذاكرة)، باعتباره محصلة نشاط جمعى Holistic يتفاعل فيه المخ المادى مع الروح غير المادية. وسنعالج هذا المفهوم بمزيد من التفصيل فى الفصل الثامن.

---

(١) نفصل هذا المفهوم فى الفصل الخامس.

(٢) All matter is unconcious

(٣) There is no such thing as a mind other than artifact of Brain Function

(٤) Memories are stored Chemically in the brain, and disappear at death

(٩) إدراكات خارج الحس ليست إلا توهمات[١]

يعتبر العلماء أن بعض ظواهر خارج الحس (كالتواصل عن بُعد والرؤى المُسبقة والرؤى الصادقة) التى يعجزون عن تفسيرها بنماذجهم المادية ليست إلا توهمات.

وقد قدمت الفيزياء الحديثة تفسيرًا لكثير من هذه الظواهر من خلال ما يُعرف بالتعالق الكمومى Quantum Entangelment بين كلّ مكونات الكون ومنها المخ البشرى، وقد أطلق أينشتين على هذا الظاهرة اسم التأثير الشبحى عن بُعد Spooky action [٢].

ولا شك أن توصل العلم لهذه التفسيرات يُعتبر مثالًا جيدًا لإعاقة المعتقدات الدوجماتيقية (إذا رضينا بها) تقدم العلم إلى آفاق أوسع، كما تبشر بأن الكثير مما نعتبره من الأمور الغيبية Metaphysics غير الطبيعية Para-normal يقع فى إطار العلم والحقيقة.

(١٠) الطب الحديث هو الوحيد الصحيح ذو الفاعلية[٣]

يتداوى مليارات البشر فى دول الشرق الأقصى والأوسط وأمريكا الجنوبية والوسطى بأشكال عن الطب التقليدى التى تجمع بين الفاعلية الحقيقية والفاعلية المتوهَّمة. وقد أصدرت الهيئة الأمريكية للغذاء والدواء FDA بيانًا أعلنت فيه أن العديد من أشكال الطب الصينى القديم (خاصة الإبر الصينية) لها فاعلية تشخيصية وعلاجية حقيقية بالرغم من عدم تمشيها مع معلوماتنا التشريحية والوظيفية لجسم الإنسان.

ألا يكشف إقرار الهيئة الأمريكية خطأ الاكتفاء بالنمط الغربى للممارسة الطبية والذى انفرد بالساحة خلال القرون الأخيرة، بل وصار أغلبية الأطباء ينظرون إليه باعتباره هو الطب وفقط. ألا يُفوِّت ذلك على البشرية فرص الاستفادة من أنماط علاجية عديدة استقرت فى حضارات عريقة عبر آلاف السنين!

التحـرر

يقدم لنا العملاق أينشتين وصفة العلاج (روشتة) للخروج من أسر هذه المعتقدات العلمية الدوجماتيقية التى تكبل العَلم وتعيق انطلاقه لآفاق أوسع، فيقول: «لا نستطيع أن نحل مشاكلنا بنفس أسلوب التفكير الذى أفرزها»، وهو الأسلوب المُعَوِّق الذى ينتهجه العلم المعاصر. ما تقول لو صمم أينشتين وماكس بلانك وغيره من علماء الفيزياء الحديثة على حل ما قابلهم من صعوبات فيزيائية عن طريق فيزياء نيوتن؟ لا شك أنهم كانوا سيفشلون فى

(١) Unexplained phenomena such as Telepathy are illusary

(٢) للمزيد عن هذا المفهوم، راجع كتابنا «أنا تتحدث عن نفسها» فصل «قوى الإنسان الخفية». مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الثانية، ٢٠١٣.

(٣) Mechamical Medicine is the only kind that Really works

حل هذه الصعوبات، بل وسيعتبرونها توهمات! وما كان للنظرية النسبية وفيزياء الكم أن تولدا ولتوقف العلم عند مستوى الفيزياء الكلاسيكية!!

لذلك يؤكد شيلدريك ـ ونحن معه ـ أن:

هناك فى الكون ما هو أكثر من المادة.

وهناك فى البيولوجيا ما هو أكثر من الدنا والانتخاب الطبيعى.

وهناك فى الوعى الإنسانى ما هو أكثر من كهرباء وكيمياء المخ.

إن الدرس الأكبر الذى نأخذه من الطرح السابق أن العلم لا يقدم حقائق مطلقة موضوعية، لكنه يلجأ ـ مثل الفلسفة والدين ـ إلى أفضل التفسيرات **Inference to the Best Explanation** التى تتمشى مع أيديولوجية الإنسان، وسنبين فى الفصل القادم أن العلم المعاصر قد صار ـ للأسف ـ يتبنى الأيديولوجية المادية.

ويبشرنا شيلدريك أن هذه المعتقدات الدوجماتيقية إلى زوال، فالعلم سيقبل فى المستقبل الكثير من المفاهيم غير المادية، بعد أن بلغ خريجو كليات العلوم فى الشرق الأقصى (الذى يؤمن بالأبعاد غير المادية) فى السنوات الأخيرة عشرة أضعاف عدد الخريجين فى أمريكا وأوروبا. إنها مقدمات تبشر بثورة الوعى The Concious Revolution التى لا تنزع الوعى عن عالم المادة.

حاجة العلم إلى الإله الحق

نزع القداسة عن الكون

اعتاد الإنسان القديم أن يسبغ القداسة على موجودات الكون وظواهره الطبيعية، ولا شك أن هذا كان مُعَوِّقًا معيقًا للعلم. فإذا تمسكنا بالتفسيرات القديمة مثل أن الرعد والأمراض والكوارث الطبيعية هى تعبير عن غضب الإله لتوقفنا عن دراسة تلك الظواهر، وما عرفنا آلياتها، ولتوقف تقدم العلم. المشكلة أن الماديون/ الطبيعيون قد قفزوا من هذه البديهية قفزة هائلة لا مبرر لها، فاعتبروا أن نزع القداسة عن الكون يعنى أن الإلحاد ضرورة لممارسة العلم الحقيقى!.

لقد وقع الملاحدة فى هذا الخطأ لتبنيهم فلسفات اليونان القديم، ففى هذا العصر بلغ الخلط بين كبار الآلهة والطبيعة أقصاه، حتى إن صفات الآلهة كانت انعكاسًا لصفات الإنسان

اليونانى بما فيها من نقائص[1]. ولم يتقدم العلم فى اليونان القديم إلا بعد أن قام مجموعة من مفكريه (طاليس، أناكيمينس، أناكسيماندر...) بنزع القداسة عن قوى الطبيعة ورفض المفاهيم التى روج لها شعراؤهم مثل هوميروس صاحب ملحمتى الإلياذة والأوديسا.

أما المصريون القدماء فلم يقعوا فى هذا اللبس؛ فبالرغم من أنهم جعلوا رمزًا مقدسًا لكل ظاهرة طبيعية (الفيضان ـ الرعد ـ ...) فإن ذلك لم يمنعهم من ابتكار العلوم الطبيعية والهندسية وتعليمها للبشرية.

ولا شك أن ديانات التوحيد الثلاث قد نزعت القداسة عن موجودات الكون، ويظهر ذلك بوضوح فى القرآن الكريم فى قصة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام حين استنكر أن تكون الأجرام السماوية آلهة[2]. كذلك نجد نفس المعنى فى السنة النبوية الصحيحة، فعندما تُوفى إبراهيم عليه السلام ابن رسول الله ﷺ وصاحَبَ ذلك الحدث خسوف القمر، وقال بعض المسلمين أن القمر قد خُسف حزنًا على موت ابن رسول الله ﷺ، قال لهم المصطفى ﷺ: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته، ...»[3].

وقد وقع الملاحدة فى تخليط شديد حين اعتقدوا أن نزع القداسة عن الكون وآلهة اليونان وآلهة المشركين يعنى نزع القداسة عن مفهوم الألوهية وعن الإله الواحد الأحد.

الآلية تحتاج إلى سبب أول

ربما كانت أخطر سقطات العلماء الماديين (وليس العلم) هى تصورهم أن فهمنا للآليات الفيزيائية التى يعمل بها الكون يعنى أن ليس هناك إله صمم وخلق الكون. إن هذا الاستنتاج يحوى سقطة منطقية كبيرة نبينها فى المثال التالى:

إذا استقدمنا إنسانًا بدائيًّا من منطقة نائية من العالم، وليكن اسمه (حور)، وأركبناه سيارة حديثة من ماركة فورد. الأغلب أن حور سيعتقد أن هناك إله (مستر فورد) يقبع داخل محرك السيارة

(١) مثال ذلك ما قاله زينوفانس Xenophanes (٥٠٠ ق.م): «إذًا كانت الأبقار والخيل والسباع تستطيع الرسم فإنها كانت سترسم آلهتها مثل الأبقار والخيل والسباع». وقد استمرت هذه النزعة حتى الآن! فما زلنا نجد دعاة التنصير يرسمون صورًا للسيد المسيح بهيئة زنجية حين يخاطبون الزنوج، وبهيئة هندية حين يخاطبون الهنود، وهكذا.

(٢) ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام].

(٣) حديث صحيح رواه البخارى ومسلم، عن ابن عباس.

ويدفعها للسير، وقد يتصور أن طالما كان مستر فورد راضٍ عنا فسيدفع السيارة فى يسر وهدوء، وإذا غضب علينا عطلها. ثم يلتحق حور بدراسة مكثفة لتعلم هندسة السيارات، ويكتشف أن محرك السيارة يعمل بآلية الاحتراق الداخلى، وأنه ليس هناك حاجة لوضع مستر فورد داخل المحرك. لكن، هل ينفى ذلك أن هنرى فورد هو الذى اخترع المحرك ووفر له ظروف عمله؟ ألا يكون استبعاد ذلك خطأً منطقيًّا ومنهجيًّا؟

إنه نفس الخطأ الذى يقع فيه الماديون/ الطبيعيون حين يعتقدون أن إدراك الآليات والمبادئ الفيزيائية التى يعمل بها الكون والحياة يستبعد الاحتياج لإله صممها وأنشأها، أى أنهم خلطوا بين الآلية والسبب الأول.

عندما اكتشف سير إسحق نيوتن قوانين الحركة والجاذبية، لم يقل: لقد اكتشفت الآليات التى تحرك الأجرام، إذًا لا داعى لوجود الإله. بل لقد زادته اكتشافاته إعجابًا بالإله الذى صمم هذه الآليات المحكمة.

وإذا كان لابلاس قد نفى الاحتياج إلى وجود الإله عندما سأله نابليون عن دوره فى منظومة الكون، فدعنا نتصور أن نابليون قد سأل لابلاس سؤالًا أكثر تخصصًا، وقال له: كيف وُجِدَت أجرام الكون المادية التى تنطلق تحت تأثير قوى الحركة والجاذبية التى يمكن التعبير عنها رياضيًّا بدقة؟ لا شك أن لابلاس كان سيجد نفسه فى مواجهة موقف محرج، فيجيب (مضطرًا) إنه الإله، أو يقول: لا أدرى. ويعلق أوستن فارير[1] على إجابة لابلاس الأصلية الخادعة لنابليون قائلًا: **إن الإله ليس قوة أو قانون داخل المعادلات الميكانيكية، لذلك لا يأتى ذِكره فى علوم الفيزياء والفلك والرياضيات.**

وقد لخص مايكل بوول[2] العلاقة بين الآلية والسبب الأول والغائية فى مناظرته مع دوكنز حين قال: «**ليس هناك تعارض بين وجود تفسيرات علمية لظاهرة ما، وبين مُنشئ هذه الظاهرة، وبين الغاية منها**». وكما ينطبق ذلك على ابتكارات الإنسان فإنه ينطبق على ابتكارات الإله، وهذه بديهية عقلية لا علاقة لها بكونك مؤمنًا أو ملحدًا.

ليس إلهًا لسد الثغرات

لا تخلو مناظرة بين المؤمنين والملحدين من الحديث عن مفهوم «**إله سد الثغرات God Of The Gaps**»، فيتهم الملحدون المؤمنين بأنهم عندما يعجزون عن تفسير شىء بأسلوب

(١) Austin Farrer: (١٩٠٤ - ١٩٦٨م)، فيلسوف دينى بريطانى.
(٢) Michael Poole: الفيلسوف الإنجليزى المهتم بالعلم والدين، حاصل على جائزة تمبلتون.

علمى فإنهم ينسبون فعله إلى الإله لتغطية جهلهم، وفى نفس الوقت ينطلقون من هذا الجهل للاستدلال على وجود الإله.

فلنعد إلى مستر فورد، هل كان الحديث عنه سدًا لقصور فى معلوماتنا عن آلية الاحتراق الداخلى التى تعمل بها المحركات؟! إن فورد لم يُطرَح فى أى خطوة لها علاقة بالآلية، بل إنه ليس آلية، لكنه مسئول عن وجود الآليات التى تحمل بصمات عقله وعمل يديه.

إن أكبر نجاحات العلم أنه يرينا أن العالَم الطبيعى منتظم ومتناسق. وفى ذلك المعنى يقول أينشتين: «**إن أعظم الأشياء استعصاء على الفهم فى الكون أنه مفهوم**»[١]، ويرى أن هذه القابلية للفهم لا بد أن يكون وراءها سبب أعمق وأقوى. ويشرح الفيلسوف المؤمن ريتشارد سوينبرن[٢] ذلك قائلًا: «عندما أتحدث عن الإله، فإننى لا أطرح إلهًا لسد الثغرات التى لم يجب عنها العلم حتى الآن، فأنا لا أنكر قدرة العلم على استكمال التفسير. لكننى **أطرح الوجود الإلهى لأفسر «لماذا» صار العلم قادرًا على التفسير**». معنى ذلك أن سوينبرن لا يشعر بالاحتياج إلى الإله لتفسير ما لا يفسره العلم، بل لتفسير ما يفسره العلم.

إذًا، فالقول بالإله ليس لتفسير ما نعجز عن تفسيره، وليس تفسيرًا بديلًا عن العلم، إنه وراء التفسيرات، سواء ما وصلنا إليها أو عجزنا. لذلك فإن ادعاء الملاحدة أن المتدينين يفسرون بالإله ما لم يفسره العلم بعد هو ادعاء مجحف خطأ من بدايته.

قوانين العلم من آليات عمل الإله

لقد أراد الله ﷻ أن يكون عمله فى الكون من خلال قوى وقوانين الطبيعة. وقد أساء الكثير من الملاحدة (ومن المتدينين) فهم معنى قول الله ﷻ فى القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس].

لقد ظن هؤلاء أن ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ تعنى التدخل الإلهى المباشر فى كل موقف. بينما يبين القرآن الكريم فى مواضع أخرى أن الله ﷻ يعمل من خلال الأسباب، ففى سبعة

(١) The most Incomprehensible Thing in the Universe is that it is Comprehensible

(٢) Richard Swinburn: أستاذ الفلسفة البريطانى بأكسفورد، مهتم بالديانات، ومُنَاظِر كبير ضد الإلحاد. له ثلاثة كتب حول الإله والدين. ولد عام ١٩٣٤.

مواضع[1] (على الأقل) من القرآن الكريم يذكر المولى ﷻ أنه قد استخدم الماء في إنبات أو إخراج النبات. ألم يكن الله ﷻ قادر على أن ينبت النبات بأمر مباشر؟

إن إعداد كوكب الأرض ليكون مسرحًا للحياة استغرق عشرة بلايين سنة، كما أن وجود كل منا في الدنيا احتاج إلى أن يتزوج والدينا وأن نمكث في الرحم تسعة أشهر، وهذه الأمور وغيرها والتي تخضع لقوانين الطبيعة قد تمت في الحقيقة بكلمة «كن».

ليس معنى ذلك أن دور الإله يقف عند الخلق والإمداد بالقوى ووضع القوانين التي تنظم موجودات الكون، ثم يترك المنظومة تسير، مثلما نملأ الساعة الزمبركية وندعها لتعمل، كما اعتقد أرسطو واعتقد الربوبيون Diests من بعده، وكما اعتقد كفار مكة أيام بعثة المصطفى ﷺ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... ﴿٢٥﴾﴾[لقمان]. إن عقيدة المتدينين أن الإله «قيوم» على الكون، أي يقوم بإمداده بالإيجاد وبتفعيل قوانين الطبيعة في كل لحظة ولا يغفل عنه[2] ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ... ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة].

إن القول بأن الله ﷻ يعمل من خلال قوى وقوانين الطبيعة لا يمنع أن تكون هناك مواقف يتدخل فيها الإله تدخلًا مباشرًا، مثل بداية البدايات (بدايات الكون والحياة...). ونحن عندما نقول بذلك لا ننطلق من «جهل وكسل وقصور معرفة»، بل ننطلق من «علم»، فالعلم قد أخبرنا مثلًا أن المادة لا تُستحدث، لكننا نجد عند دراسة بدايات الكون أن المادة قد نشأت من عدم، ذلك الأمر الذي يخبرنا العلم باستحالته، عند ذلك لا مفر من الإقرار بالتدخل الإلهي المباشر، لإيجاد المفردة Singularity التي بدأ بها الانفجار الكوني الأعظم الذي أنشأ الكون[3]. ولا شك

(١) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ... ﴿٩٩﴾﴾[الأنعام]، ﴿...فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ... ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف]، ﴿... وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [طه]، ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ... ﴿٦٠﴾﴾ [النمل]، ﴿...وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ [لقمان]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ... ﴿٢٧﴾﴾ [فاطر]، ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾﴾[ق].

ويرفض البعض مفهوم أن الله ﷻ يحقق أمره بالأسباب، ومن ثَمَّ يرفضون اعتبار أن «الباء» في كلمة «به» هي «باء السببية» التي تعني هنا أن الماء سبب في الإنبات، ويصفونها بأنها «باء المصاحبة»! حتى يدعموا فهمهم بأن «كن فيكون» تعني فعلًا مباشرًا دون أسباب، وهذا ما أثبتنا عدم صحته.

(٢) سنتحدث بالتفصيل عن هذا المفهوم في الفصل الرابع عشر.

(٣) نتحدث عن هذا المعنى بالتفصيل في الفصل الرابع.

أن المعجزات الإلهية من المواقف التى يتدخل فيها المولى ﷻ تدخلًا مباشرًا يقطع فيه منظومة الأسباب وربما يعمل عكسها، وذلك إظهارًا لقدرة الله ﷻ وتصديقًا لرسله.

القارئ الكريم

بالرغم مما وصلت إليه «فلسفة العلم» من عمق وتخصص فقد شاع العديد من المفاهيم الخطأ حول طبيعة العلم وعلاقته بالألوهية والتدين. ومن أجل تصحيح هذه المفاهيم جاء هذا الفصل عن العلم فى بدايات الكتاب، لنؤصل فيه عددًا من المفاهيم التى تغمض على الكثيرين حتى من المتخصصين، وأهمها:

- العلم عالمى محايد، والمنهج العلمى لا يوصف بأنه مؤمن ولا ملحد ولا طبيعى، إنه منهج علمى وحسب.
- يأتى الدليل الحسى على صحة القضايا العلمية بعد البرهان الرياضى والدليل العقلى والدليل العلمى التجريبى فى الحجية.
- أدى اتباع المنهج الاختزالى إلى قفزات واسعة فى مسيرة العلم، لكنه أسقط دور الجوانب غير المادية من نظرتنا إلى الظواهر المختلفة.
- يقوم العلم التجريبى بالتعامل مع آليات العلوم العملية والتطبيقية، وليس له القدرة على إدراك السبب الأول والغائية من الظواهر.
- العقل المحايد تمامًا فى حكم المستحيلات، لذلك صار العلم يتبع الأيديولوجيات بدلًا من أن يأتى المذهب الفلسفى كإفراز للعلوم الطبيعية، وهذا من أكبر مطبات التحيز فى العلم.
- أطلق العلماء والفلاسفة الماديون اصطلاح «الانبثاق» لتفسير ما يعجز العلم عجزًا مطلقًا عن تفسيره، كبديل لمفهوم «الخلق»، للتهرب من الإقرار بالإله الخالق.
- يخطئ الماديون حين يعتبرون أن ما تفسره قوانين الطبيعة لا يحتاج إلى إله، وأن كل ما يتوصل إليه العلم من آليات ينتقص من رصيد الألوهية. فالله ﷻ يستعمل السنن الكونية فى إدارة الكون، وهذه هى آلية الأمر الإلهى «كن».

وسبحان الله الخالق الذى وضع قوانين الطبيعة وألزم موجودات الكون بالالتزام بها، وكشفها تدريجيًّا للإنسان، ومكنه من استعمالها ليصبح قادرًا على ممارسة مهامه كخليفة من الله فى الأرض.

الفصل الثالث

صراعٌ مُتوَهَّم..

- بل علماءُ متدينين وعلماءُ ملحدين
- فهم قاصر للعلم يعادى الدين
- وفهم قاصر للدين يعادى العلم
  - لاهوت أُغسطين أَخَّرَ العلم ألف عام
  - كارثة الأشاعرة
  - صراع الكنيسة مع جاليليو
- الإيمان ليس موقفًا نفسيًّا بغير دليل
  - هل يتعارض الإيمان مع الدليل؟
  - أوهام فرويد أم أوهام الإلحاد!
  - الإيمان من أساسيات العلم
- إذا اختلف العلم مع معتقداتنا
  - طبيعة المفهوم العلمى المعارض للمعتقد
  - طبيعة الدليل على المفهوم المعارض للمعتقد
  - طبيعة المذهب الفلسفى الذى تعتنقه
  - طبيعة مفاهيمك الشخصية
  - أصالة المعتقد الدينى محل النقاش
- الصراع الحقيقى: المذهب الطبيعى فى مواجهة الدين
  - ما هو المذهب الطبيعى
  - المنهج الطبيعى وسلبياته
  - النظرة الدينية للوجود
  - المذهب الطبيعى والمنهج الطبيعى
- التوافق بين الدين وجذور العلم
  - ملامح انتظام الكون
  - الانسجام بين عقولنا وبين الوجود
  - التوحيد أساس العلم الحديث
- القارئ الكريم

«لا شيء يُفقد الثقة فى العالِم قدر تصريحه بأن العلم يعلم (أو سيعلم قريبًا) الإجابة عن كل الأسئلة التى تستحق أن تُسأل، وأن الأسئلة التى لا توجد لها إجابة علمية لا تستحق أن تُسأل وتُعتبر علمٌ كاذب، ولا يسألها إلا الحمقى ولا يحاول الإجابة عنها إلا السُّذج».

سير بيتر مداور[1]

«الملاحدة الجدد ليسوا علميين كما يدعون، بل إنهم إذا اقترب بهم الدليل من الشك فى المذهب المادى وترجيح القول بالألوهية تشنجوا، وصاروا لا علميين، بل ضد العلم، كأى دوجماتيقى[2]».

جون لينوكس[3]

يتردد بين الملاحدة الجدد أن كل تقدم علمى يسحب من رصيد الألوهية، ومن ثَمَّ يدق مسمارًا جديدًا فى نعش الإله. ويجسد بيتر أتكنز[4] هذا الرأى بقوله: «على البشرية أن تقبل أن العلم قد قضى على أى مبرر للاعتقاد بوجود غاية من الموجودات، إن ما تبقى من هذا الفكر ليس إلا أوهام تغذيها العاطفة.

ويذهب زعيم الملاحدة الجدد ريتشارد دوكنز خطوة أبعد من ذلك، فهو يعتبر أن الإيمان بالإله شر ينبغى أن يُزال، فيقول: «إذا كنا نعتبر أن مرض الإيدز ومرض جنون البقر من الأخطار التى تهدد البشرية، فإن الإيمان بإله هو أحد أكبر الشرور فى العالم، بل يفوق الجدرى الذى تم القضاء عليه. إن الإيمان هو رزيلة كل دين، فهو اعتقاد لا يقف وراءه دليل». وأحيانًا يخفف

(١) حائز على جائزة نوبل فى الطب، تم التعريف به فى الفصل السابق.

(٢) الدوجماتيقى Dogmatic: هو المتعصب لعقيدة دون برهان.

(٣) John Lennox: أستاذ الرياضيات وفلسفة العلوم البريطانى بجامعة أكسفورد. اشتهر بمؤلفاته وبمناظراته ضد الإلحاد خاصة مع ريتشارد دوكنز.

(٤) Peter Atkins: سبق التعريف به فى الفصل الثانى.

دوكنز من وطأة هجومه، فبدلًا من اعتبار الدين رزيلة فإنه يعتبره توهمًا، ويقول: «عندما يعانى شخص من التوهمات فإننا نعتبره مجنونًا، أما عندما يعانى أشخاص كثيرون من التوهمات فإننا نعتبرهم متدينين».(١)

كذلك يرى دوكنز أن كل إيمان دينى هو إيمان أعمى، ويعتبر أن متعة الإيمان تكمن فى ذلك! ونحن بالتالى نسأله، ما دليله على ذلك؟ وفى نفس الوقت نوافقه فى أن هناك من لا ينطلق إيمانه من دليل عقلى علمى، ومن سوء حظ دوكنز أنه قد تَعَثَّرَ فى الكثيرين منهم!

والعجيب أن زعماء الملاحدة يعتقدون أن المعركة بين العلم والإله قد انتهت بالفعل لصالح العلم! وأن الإله قد مات (كما قال نيتشة) وأن العلم قد دفنه! انظر إلى ما كتبه بيتر أتكنز: «إن العلم والدين لا يمكن أن يتعايشا، وعلى الإنسانية أن تُقَدِّر منزلة طفلها (يقصد العلم) وأن ترفض كل محاولات التوفيق، وأن تُعَرِّى فشل الدين فى مواجهة العلم، وأن تُنَصِّب الأخير ملكًا». يالها من لغة صفيقة مليئة بالزهو الكاذب.

هل ما يدعيه الملاحدة عن صراع مستعر بين العلم والدين صراع حقيقى؟

يرى أكثر المتدينين المهتمين بفلسفة العلم (وأنا أشاركهم الرأى) أن:

الصراع بين العلم والدين صراعٌ مُتَوهَّم،

يرجع إلى فهم قاصر للعلم يعادى الدين،

وفهم قاصر للدين يعادى العلم،

ومن ثَمَّ فما نراه ليس صراعًا بين العلم والدين،

لكننا نرى علماءً متدينين وعلماءً ملحدين.

أما الصراع الحقيقى فيكمن بين المذهب الطبيعى وبين الدين،

بل نؤكد أن هناك توافقًا حقيقيًا بين الدين وجذور العلم.

وسنقوم فى هذا الفصل بمناقشة كل من هذه المفاهيم على حدة وتأمُّل العلاقة بينها، حتى تتضح لنا العلاقة الحقيقية بين العلم والدين.

(١) مقولة نقلها دوكنز عن روبرت بيرسنج من كتابه: Zen And The Art Of Motor Cycle Maintenance

بل علماءً متدينين وعلماءً ملحدين

يقول جون هوت[١] «إن وجود غراب أبيض واحد يقضى على ادعاء أن كل الغربان سود»، وبالمثل فإن وجود مجموعة قليلة من البشر تنطلق فى إيمانها من العلم والمنطق يقوض ما يدعيه الملاحدة الجُدد عن التعارض بين العلم والدين. ونُصَعِّد قوة الاستشهاد ونتساءل: هل قولنا أن بعض الأدباء ملاحدة يعنى أن الأدب ملحد؟!.

لا شك أن الموقف فى الشرق وفى العالم الإسلامى يختلف كثيرًا عن الغرب المسيحى، ففى الحالة الأولى يمثل الملاحدة الغربان البيض، أما فى الغرب فيحتاج الأمر إلى نظرة أكثر تفصيلًا. فإذا نظرنا إلى شريحة العلماء، وجدنا أن ٩٠٪ من مؤسسى الجمعية الملكية[٢] فى إنجلترا مؤمنين. أما فى الولايات المتحدة، فقد أظهرت دراسة أجريت على ١٠٠٠ عالم ونُشرت فى مجلة Nature (أبريل ١٩٩٧) تساوى عدد العلماء المتدينين والملاحدة عام ١٩١٦، ثم زيادة الملاحدة على المتدينين بنسبة ٦٪ عام ١٩٩٦م أى أن بعد ثمانين عامًا من التقدم وما صاحبه من دعوة إلحادية شرسة لم تزدد نسبة الملاحدة إلا بقدر ضئيل.

وفى مقابل موقف الملاحدة أمثال دوكنز وأتكنز، نجد أن معظم كبار العلماء من مؤسسى فيزياء الكم والحاصلين جميعًا على جوائز نوبل كانوا من المؤلهة، وعلى رأسهم أينشتين، وماكس بلانك، وهيزنبرج، وشرودنجر، وبول ديراك. وكذلك أشهر الرواد من علماء المخ والأعصاب كانوا من المؤمنين، ومنهم روجر سبيرى، وويلدر بنفيلد، وتشارلس شرنجتون، وجون إكلز، وقد حصل الأربعة على جوائز نوبل أيضًا. ولا شك أن هذين المثلين يقضيان على الهراء الذى يملأ به الملاحدة الساحة مرددين أن معظم العلماء من الملاحدة، ويُزَوِّرون الإحصائيات من أجل إثبات ذلك.

انظر أيضًا إلى الرواد الفطاحل من العلماء المتدينين. هذا «جاليليو» يعلن أن وراء عقله المتسائل الباحث عن الحقيقة قناعته الداخلية بأن الخالق الذى أمدنا بالحواس والعقل والذكاء يريد منا أن نستخدمها لنتوصل إلى المعرفة. وهذا «كبلر» يعلن أن الهدف الرئيسى للبحث

(١) John Haught: رجل اللاهوت الأمريكى، مهتم بالعلاقة بين الدين والعلم.

(٢) الجمعية الملكية Royal Society: أكبر هيئة علمية فى إنجلترا. تتكون من ١٤٠٠ من أكبر العلماء فى مختلف العلوم التطبيقية. تأسست عام ١٦٦٠م.

فى العالم الخارجى هو اكتشاف النظام المنطقى الذى وضعه الإله، والذى كشفه لنا فى لغة الرياضيات. ويؤكد «أينشتين» أن هدفه الرئيسى أن يعرف كيف يفكر الإله، والباقى تفاصيل.

ويقول سير جون هوفتن[1] عالم المناخ الكبير: «إن علمنا يؤمن بالإله، إن الإله يقف وراء قصة العلم كلها؛ النظام المدهش، الانضباط، المصداقية، التعقيد المذهل، إن ذلك كله ليس إلا ممارسات الإله». وانظر أيضًا إلى قول سير جيليان برانس[2]: «لسنوات عديدة وأنا أعتقد أن الإله هو مصمم الوجود، إن كل دراساتى العلمية تثبت هذا الإيمان». وغير هؤلاء من الأسماء الكبيرة باسكال وبويل ونيوتن وفاراداى ومندل وباستير وماكسويل.

المحصلة أن لدينا علماء كبار يثبتون وجود الإله وقيوميته على الوجود، وآخرين يتنكرون له، إن ذلك يعنى أن العلاقة بين الإله والعلم ليست بسيطة، بل تحتاج لتأمل عميق.

فهم قاصر للعلم يعادى الدين

ذكرنا فى الفصلين السابقين أن ملامح المنهج العلمى قد تحددت فى ظروف الصراع بين رجال العلم المنطلق من القمقم وبين رجال الكنيسة المستميتين فى الدفاع عن أفكارهم الدوجماتيقية وسلطانهم. ورأينا أن هذا الصراع أدى إلى تركيز العلماء على «التفسيرات الآلية»، واعتبرها الماديون منهم كل الحقيقة، كما اعتبروا أن الآلية تغنى عن البحث فى الغائية والسبب الأول، وقد أدى هذا الفهم القاصر للعلم إلى أن تَنَكر هؤلاء تمامًا للدين وللإله.

وفهم قاصر للدين يعادى العلم

ما أكثر ما تحمل الدين من أوزار لا دخل له فيها، وما تحمله الدين نتيجة لفهم قاصر من رجال مخلصين أكثر مما تحمله من أفراد سيئى النية يقصدون الانتقاص منه. فكم خرج مخلصون عن الاعتدال والوسطية فى محاولاتهم لتنزيه الإله أو للرفع من شأن دينهم، فكانت النتيجة عكس ما يصبون إليه، وإليك ثلاثة أمثلة:

(١) John Houghton: عالِم وأستاذ فيزياء المناخ بأكسفورد. الرئيس المشارك لِلَجنة منح جائزة نوبل للسلام، المقولة من كتابه Our Science is God Sience. ولد ببريطانيا عام ١٩٣١.

(٢) Ghillean Prance: عالِم النبات والبيئة الكبير. ولد ببريطانيا عام ١٩٣٧.

لاهوت أُغسطين أَخَّرَ العلم ألف عام .

لا شك أن لاهوت أُغسطين[1] الذى ساد أوروبا لأكثر من ألف عام، وما طرحه عن فكرة فداء المسيح للبشرية، قد حَوَّلَ الأنظار عن الاهتمام بالدنيا إلى الاهتمام بالغيب، وشارك فى ذلك نظر أغسطين إلى الطبيعة نظرة مجازية تعتبر أن أحداثها تشير إلى مفاهيم دينية غيبية، فكانت المحصلة أن قل اهتمام الناس بالطبيعة وببناء الحضارة.

ويبين بيتر هاريسون[2] أستاذ تاريخ العلم والديانات بأكسفورد أن ظهور الاتجاه البروتستانتى[3] فى المسيحية فى القرن السادس عشر قد قضى على فكرتى فداء المسيح ورمزية الطبيعة كما فهمها أُغسطين من التوراة، فكان ذلك وراء انطلاق العلم من قيوده.

صراع الكنيسة مع جاليليو

لقد كان جاليليو على إيمان عميق بالله، وكان يعتقد أن الله قد كتب بيده قوانين الطبيعة بلغة الرياضيات، وأن العقل الإنسانى هو أعظم أعمال الإله. لذلك تَلَقَّى فى البداية دعمًا كبيرًا من العلماء والفلكيين المتدينين، بينما هوجم بشدة من قِبَل الفلاسفة العلمانيين فى الأكاديمية العلمية لمخالفته أرسطو والأرسطيين فأثاروا ضده رؤساء الكنيسة. وساعد على ذلك أن عصر جاليليو كان فترة شديدة الحرج للكنيسة الرومانية بعد أن ظهرت الدعوة البروتستانتية للإصلاح، فكانت النتيجة أن مُنِعَ تداول فكر جاليليو كما حُدِدت إقامته.

لقد كان اختلاف جاليليو مع أرسطو منهجيًا كما كان تفصيليًا. فمن ناحية المنهج، بدلًا من أن يبنى جاليليو تصوره عن السماوات على الفكر الفلسفى فقد وجه تليسكوبه إلى السماء، وقد أمده ذلك بالكثير من التفاصيل. فقد أثبت جاليليو ما طرحه كوبرنيكوس عن مركزية الشمس بدلًا من القول بمركزية الأرض. كذلك وصف جاليليو البقع الشمسية التى تتعارض مع مفهوم الشمس كنجم مثالى، كما وصف نجوم السوبر نوفا (المتفجرة) التى يتعارض وجودها

(١) Augustin: (٣٥٤ - ٤٣٠م)، ولد بالجزائر، ويعرف بالقديس أُغسطين. يُعَد أحد أهم الشخصيات المؤثرة فى المسيحية الغربية.

(٢) Peter Harrison: ولد عام ١٩٥٥.

(٣) الاتجاه البروتستانتى: اتجاه عقلانى فى المسيحية، يدعو إلى العودة إلى مفاهيم الكتاب المقدس الأصلية ونبذ ما أُدخل على المسيحية من معتقدات وتفسيرات، كما يدعو إلى إلغاء سلطة البابوات. ومن أشهر مؤسسى هذا الاتجاه الألمانى مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦م) والفرنسى جون كالفن (١٥٠٩ - ١٥٦٤م).

مع السماوات المستقرة، وكلاهما مفهومين يتعصب لهما الفلاسفة الأرسطيين الذين يرون فيهما نقصًا فى الكمال الواجب فى الخَلق الإلهى.

إذن كان الصراع فى قضية جاليليو صراعًا أداره رجال الكنيسة باسم الدين، بين بعض مفاهيمهم الفلسفية وبين العلم.

كارثة الأشاعرة[1]

لم يكن الفهم القاصر للدين - خاصة منزلة الطبيعة وعلاقتها بالإله - قاصر على اللاهوت المسيحى، لكن وقع فى نفس المطب فريق من علماء الكلام عند شرحهم للعقيدة الإسلامية. تأمل معى ما وصفته الدكتورة يمنى طريف الخولى بأنه «كارثة الأشاعرة»:

حرصًا من الأشاعرة على تنزيه الله ﷻ فقد اعتبروا أن طلاقة القدرة الإلهية تقتضى أن يكون الفعل الإلهى فعلًا مباشرًا بكلمة «كن»، لذلك أسقطوا فاعلية الأسباب، فاعتبروا - مثلًا - أن السكين لا تقطع لكن القطع يحدث عند حد السكين (مُلازَمة)، وكذلك الحرق يحدث عند النار وليس بالنار (مُلازَمة).

وترى د. يمنى الخولى (معبرة عن رأى الفلاسفة ونحن نشاركها الرأى) أن هذا الطرح للأشاعرة يتعارض مع ما أثبته الله ﷻ من فعله باستخدم الأسباب، مثال ذلك ما ذكرناه فى آخر الفصل السابق من أن الله ﷻ ينبت الزرع بالماء. ونحن نرى أن كلمة «كن» تثبت أن هناك واسطة للفعل الإلهى، ولا يتعارض ذلك مع طلاقة القدرة الإلهية.

كذلك يتعارض طرح الأشاعرة مع الواقع الذى يرصده كل إنسان من فاعلية الأسباب، وهو ما يقوم عليه العلم بل وتقوم عليه حياتنا اليومية. وقد أدى هذا الطرح إلى تراخى المسلمين فى الأخذ بالأسباب لمئات السنين، فكان سببًا فيما آلوا إليه من تأخر وهوان[2].

يوضح ما سبق من الفصل أن الصراع الحقيقى لم يكن بين العلم والدين، ولكن كان «بين بعض رجال العلم وبين الدين» و «بين بعض رجال الدين وبين العلم»، إذ أن آراء بعض العلماء ليست بالضرورة آراء العلم، كما أن آراء بعض رجال الدين ليست بالضرورة آراء الدين.

(١) الأشاعرة: من أهم فرق العقيدة الإسلامية، تُنسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى (٢٦٠ - ٣٢٤هـ)، وتنتهج أسلوب أهل الكلام فى تقرير العقائد والرد على المخالفين.

(٢) للمزيد عن موقف الأشاعرة من الأسباب، انظر الفصل الأخير من الكتاب.

الإيمان ليس موقفًا نفسيًّا بغير دليل

كثيرًا ما يردد الملاحدة أثناء المحاورات والمناظرات حجة يدعون صوابها، فيقولون إن قضية الألوهية لا يمكن إثبات صحتها، وأحيانًا يضيفون ـ مجاملة ـ كما لا يمكن إثبات خطئها، فهى قضية إيمانية. ويقصدون بقولهم إيمانية أنها موقف نفسى غير موضوعى ولا يمكن طرحه للاستدلال العلمى.

وفى دَفْع هذه الحجة نناقش سؤالين؛ هل الإيمان الدينى حقًّا موقف نفسى بغير دليل؟ وهل المفاهيم العلمية ـ بالرغم من موضوعيتها ـ لا يخالطها قدر من الإيمان الذاتى؟ قد يبدو السؤال الثانى غريبًا ومستهجنًا عند المهتمين بالمنهج العلمى، لكن دعنا نتأمل الموضوع بعمق.

هل يتعارض الإيمان مع الدليل؟

هناك سوء فهم كبير لمدلول كلمة «الإيمان»، عند كلا الملاحدة والمؤمنين[١]. وملخص موقف الملاحدة الجدد أن الإيمان العلمى **Belief** يقوم على البرهان، أما الإيمان الدينى **Faith** فلا يقوم على برهان. والمفارقة المخزية فى ادعائهم هذا أنهم يقولون: نؤمن بأن الكون ليس وراءه إله، ويعتبرون إيمانهم هذا إيمان علمى، دون أن يكون لديهم دليل عليه. كذلك حين يصم الملاحدة الإيمان الدينى بأنه إيمان أعمى لا دليل عليه فإنهم يتغاضون عن أن العديد من كبار العلماء بنوا إيمانهم الدينى على البرهان والدليل. وفى إحدى المناظرات مع جون لينوكس تمادى دوكنز فى إنكاره أن الإيمان الدينى **Faith** مبنى على الدليل، واعتبر أيضًا أن الإيمان بالأشخاص غير مبنى على دليل، فأفحمه لينوكس وسأله عن إيمانه بإخلاص زوجته، هل لا دليل عليه؟!

ويتمادى الملاحدة أكثر وأكثر، فيدعون أن البرهان يضعف الإيمان ولا يقويه. وفى ذلك يقول هتشنز[٢]: كلما ازداد إيمان إنسان بشىء ما، كلما تضاءَلَت فرصة أن يشتمل هذا الشىء على حقيقة. وفى إحدى المناظرات سأله لينوكس؛ هل تؤمن أنك موجود؟ إن قلت نعم تضاءَلَت فرصة أن يشتمل هذا القول على حقيقة، وكلما ازداد إيمانك بوجودك كلما قَلَّت صحة ما تقول! إنه منطق يناقض نفسه.

---

(١) الموقف أشد التباسًا عند الناطقين بالإنجليزية، حيث توجد كلمتان مختلفتان، وهما Faith و Belief، وتُزيد قواميس اللغة الإنجليزية من الحيرة بما تطرحه من معان وشروح للكلمتين.

(٢) Ch.Hitchens: أحد رجال الإلحاد الجديد المشهورين. نتحدث عنه بالتفصيل فى الفصل الحادى عشر.

ولا شك أن موقف الفيلسوف الكبير إيمانويل كانت[1] مسئول إلى حد كبير عن شيوع الدعوى الخطأ بتناقض الإيمان مع المعرفة. انظر إلى قوله[2]: «من أجل أن نترك مجالًا للإيمان ينبغى أن نتنكر للمعرفة»، لقد فهم الكثيرون من قوله أنه إذا كان هناك دليل على وجود الإله فلن يكون هناك مجال للإيمان.

لا شك أن القول بأن المعرفة تتعارض مع الإيمان مجانب للصواب تمامًا، فالمنطق وخبراتنا اليومية يؤكدان أننا كلما عرفنا شيئًا أو شخصًا كلما ازداد إيماننا به. ويبين الحق ﷻ أن إدراك الحق ينطلق من آيات (أدلة) الآفاق والأنفس ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]. إنه دليل قائم على إدراك الآثار، تمامًا مثل الاستدلال بالآثار على الجاذبية والثقوب السوداء والذرات، ويُعتبر الاستدلال بالآثار من أقوى الأدلة العلمية، ولا يقل ـ بل يزيد ـ عن إدراك الحواس.

وفى هذا المعنى قال أينشتين قولته الحكيمة: «لا أتصور العلم دون إيمان عميق. ويمكن تشبيه الموقف بصورة مجسدة: العلم دون الدين أعرج Lame والدين دون العلم أعمى Blind.»[3] وفى خطاب أرسله أينشتين لإحدى تلميذاته الصغيرات[4] يقول: «يشعرنا العلم بشعور دينى خاص يختلف عن الشعور الدينى الساذج عند كثير من الناس. بل إننى لا أتصور عالِمًا حقيقيًا لا يؤمن بذلك». إن أينشتين هنا لا يتحدث عن الإيمان الأعمى Blind Faith بل عن الإيمان العميق Profound Faith المنطلق من منطقية العالَم وانضباط الوجود[5]. وإذا كان دوكنز يصنف أينشتين ـ كاذبًا ـ بأنه ملحد، فإن أينشتين ـ بمقولته هذه ـ يصنف أمثال دوكنز بأنهم ليسوا علماء مالم يؤمنوا بالإله.

الإيمان من أساسيات العلم

يدعى الملاحدة الجدد أن الإيمان اصطلاح دينى (وهذا غير صحيح)، ويُعَرِّفونه بأنه التصديق دون برهان (وهذا أيضًا غير صحيح)، ومن هذين الخطأين يقعون فى خطأ أكبر، إذ

(١) Immanuel Kant: (١٧٢٤ - ١٨٠٤م)، أشهر فلاسفة ألمانيا فى القرن الثانى عشر، وآخر فلاسفة أوروبا المؤثرين فى نظرية المعرفة.

(٢) فى كتابه الأشهر (نقض العقل الخالص)، والذى يعد علامة بارزة فى الفلسفة الحديثة.

(٣) عن كتاب Einstein and religion تأليف Max Jammer من أقرب أصدقاء أينشتين، ص٤٨.

(٤) Phyllis Wright: تلميذة فى الصف الثالث أرسلت عام ١٩٣٦ تسأل أينشتين إن كان العلماء يُصَلّون.

(٥) ﴿ ... إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ... ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر].

يعتبرون أن كلًا من الإلحاد والعلم لا يشتملان على إيمان. بينما الحقيقة أن الإلحاد موقف إيمانى وأن العلم لا يخلو من إيمان!

إن ادعاء دوكنز «أن العلم لا إيمان فيه»(١) خطأ من جانبين. فكل العلماء فى ممارستهم للعلم ينطلقون من إيمانهم بأن الكون منطقى وقابل للتأويل، كما يؤمنون بأن أحكام العقل صحيحة وينبغى الانقياد لما يُقَدَّم من براهين وأدلة، وبذلك فالإيمان يقع فى قلب العلم.

ويؤكد الفيزيائى الكبير بول ديفيز(٢) (وهو لا يُصنف من المتدينين) هذا المعنى قائلًا: «إن التوجه العلمى الصحيح موقف دينى! فالعلم لا يعمل إلا من خلال نظرة تؤمن بانضباط الكون، وهذا موقف دينى. وبدون الالتزام بهذا الإيمان يتوقف العلم بل وينهار». ولذلك فإن هدف العلم الحديث ليس أن نطبق أفهامنا على المادة وعمل الكون، ولكن أن نكتشف قوانين الكون وما فيه من تصميم ومنطقية.

وقد وقع الملاحدة فى «خطأين تعميمين كبيرين(٣)»، صارا يمثلان أساسًا نفسيًّا لأفكارهم، ويحتاجان لجهدٍ هائلٍ لمحوهما. وهما: أن الإيمان الدينى فى كل حالاته أعمى، وأن العلم ليس فيه ذرة إيمان. ويفند جون هوت(٤) هذه المحنة العلمية النفسية بقوله: يمثل «الإيمان» ركنًا فى كل بحث علمى، وإذا شككتَ فيما أقول فذلك يرجع إلى «إيمانك» بقدراتك العقلية، ومن ثم فإن محاولات الإلحاد الجديد إلغاء دور «الإيمان» عند النظر فى القضايا العلمية مآلها إلى الفشل.

أوهام فرويد أم أوهام الإلحاد!

تعنى كلمة أوهام Delusions (٥) بالمعنى الاصطلاحى النفسى «تصديق خطأ ثابت Fixed False Belief يقف فى وجه براهين قوية معاكسة». وقد استقى الملاحدة الجدد مفاهيمهم عن

(١) The God Delusion,P.56

(٢) Paul Davies: عالِم الفيزياء البريطانى، متخصص فى علوم الكون وفيزياء الكم، حصل على جائزة تمبلتون عام ١٩٩٥، عمل أستاذًا فى العديد من الجامعات العالمية الكبيرة، مهتم بتبسيط العلوم وعلاقة العلم بالإله، وله العديد من الكتب فى هذا المجال. ولد عام ١٩٤٦.

(٣) من المشكلات الكبيرة فى الفلسفة ما يُعرف بـ«مشكلة التعميم Induction»، ويشرحها الفيلسوف الكبير برتراند رَسِل بمثال «الديك الرومى المُعَمِّم Inductivist Turkey»، الذى اعتاد أن يُطعَم ويُغَذَّى جيدًا لعدة أيام قبل الكريسماس، فاعتقد أن الحال سيستمر (تعميم)، فيأتى يوم العيد فيُذبح وتنهار كل تعميماته.
ولكن هذا لم يمنع أن يقوم العلم على بعض التعميمات! مثل شروق الشمس يوميًّا من المشرق. كذلك تحدى خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام النمروذ أن يأتى بالشمس من المغرب ﴿...قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ... (٢٥٨)﴾ [البقرة].

(٤) John Haught: سبق التعريف به فى بداية الفصل.

(٥) Delude من أصل لاتينى بمعنى يخدع أو يغش.

الإيمان الدينى عن سيجموند فرويد، الذى اعتبر الإيمان بالإله نوعًا من التوهم، وأرجعه إلى عجز الإنسان عن التعامل مع ما فى العالم من تحديات، فاحتاج إلى دعم غيبى قوى. إذًا فالألوهية ـ عند فرويد وعند الملاحدة ـ اختراع للتعامل مع مخاوف الإنسان التى تتصاعد لتبلغ أقصاها بالخوف من الفناء بالموت، إذًا فهى نوع من آليات الهروب.

ويرى فرويد أن الإيمان لا يمكن الوثوق به، لأنه نفسى بالإساس، فهو إسقاط للرغبات الشديدة اللاواعية «طفولية الأصل» فى الحماية والأمان. وينطلق فرويد فى تفسيره للعلاقة بالإله من النموذج المسيحى، الذى يرى فى الإله «الأب الذى يحمى» و«الأب المحب».

وتأييدًا لمفاهيم فرويد، يرى مايكل أونفراى أن الإيمان الزائف الذى يجلب الأمان للعقل خير عند الكثيرين من المنطق الذى يصيبهم بالقلق، حتى إن كان التمسك بهذا الإيمان يؤدى إلى حالة دائمة من الطفولة العقلية!. وبناء على ذلك يقول دوكنز: إن العلماء المؤمنين بالإله يكونون مثارًا للسخرية عند زملائهم فى الوسط العلمى!. إن المقولتين تقدحان فى عقول علمية هائلة دفعت البشرية للأمام، بل وصارت البشرية تفخر بها. كما إن دوكنز بمقولته يثبت أنه على غير دراية بأخلاقيات المجتمع العلمى الذى لا يشغل فيه أحد نفسه بعقيدة غيره.

ويفند عالم النفس بجامعة نيويورك «بول ڤيتز» تحليلات فرويد قائلًا: إذا كانت دوافع الإيمان نفسية فذلك ليس مبررًا لعدم الوثوق به، ذلك أن كل الإنجازات العلمية الحضارية دوافعها نفسية، فقد سعى الإنسان لتحقيقها لتدعمه ضد تحديات الطبيعة (كالدين عند فرويد) فهل معنى ذلك أنه لا يمكن الثقة بهذه الإنجازات؟! كذلك يرفض فريتز استشهاد فرويد بالنموذج المسيحى الأبوى للإله، فذلك النموذج لا وجود له فى معظم الديانات السابقة واللاحقة للمسيحية.

ويؤكد عالم النفس الألمانى مانفرد كيوتز[1] أن تفسير فرويد للإيمان بالإله صحيح تمامًا، إذا كان الإله حقًا غير موجود. أما إذا كان الإله موجودًا، فبنفس التفسير الفرويدى يصبح الإلحاد هو التوهم، إذ يُعتبر هروبًا من مواجهة الحقيقة المتمثلة فى مقابلة الإنسان للإله يوم القيامة خوفًا من محاسبته على ما فعله فى حياته. وبذلك يصبح الإلحاد آلية دفاعية هروبية خشية مواجهة الإنسان لنتائج أفعاله. وفى هذا المعنى يقول زيسلو ميلوز[2] الشاعر البولندى الحائز على جائزة

(١) Manfred Cutz فى كتابه A Brief History Of The Greatest One
(٢) Czeslaw Milosz: (١٩١١ - ٢٠٠٤م).

نوبل فى الأدب: «إن القول بالعدم بعد الموت مورفين قوى! يخدر نفوسنا ويجعلنا نشعر أننا لن نحاسب على ما نقترف من خيانات وسرقات واغتصاب وقتل وجشع وجبن».

لذلك فما يقول فرويد لا يصلح كدليل على وجود الإله أو عدمه، **إذ يمكن أن يُقرأ على الوجهين**. ومن ثم إذا أراد الملاحدة أن يرفضوا الدين أو الإله فعليهم أن يبحثوا عن مبررات أخرى غير فرويد!

إذا اختلف العلم مع معتقداتنا

إذا توصل العلماء إلى بعض المفاهيم العلمية التى لا تنسجم مع بعض معتقداتنا الدينية الصحيحة، فهل يعنى ذلك أن هناك تضادًا بين العلم والدين، **أم يمكن قبول قدرًا من عدم الانسجام بينهما؟**

تتوقف الإجابة عن هذا السؤال على عدة عوامل، تدور حول مدى **حُجِّية المفهوم العلمى الجديد** وأيضًا **مدى أصالة المعتَقَد محل التعارض**. وأهم هذه العوامل:

١- **طبيعة المفهوم العلمى المعارض للمعتَقَد**: إذا مررت بسيارتك بأحد المراعى، وشاهدت ما اعتقدت أنه خروف، ثم التقيت بصاحب المرعى الأمين، الذى أكد لك أن ليس فى حوزته خراف هذه الأيام وأن أحد كلاب الحراسة فى المرعى يشبه الخراف. إذا كنت منطقيًا فستُغَلِّب احتمالية الكلب على احتمالية الخروف، وتُعرف أطروحة الكلب بـ«المفهوم الداحض Rebutting defeater». بينما إذا نظرت من نافذة بيتك ورأيت جارك حسن يخرج من بيته ليعبر الشارع، وفيما بعد أخبرتُك أن حسين، أخو حسن التوأم الذى يشبهه تمامًا، قد عاد أمس من الخارج وأنه يقيم معه، عند ذلك سيعتريك الشك حول الشخص الذى رأيت، ويُطلَق على ما أخبرتك به عن حسين «المفهوم مقلل الاحتمالية Undercutting defeater»، وهذا المفهوم أقل حجية من المفهوم الداحض، فما زال احتمال أن يكون من رأيت هو حسن احتمالًا قائمًا بقوة.

٢- **طبيعة الدليل على المفهوم المعارض للمعتَقَد**: إذا كُنتَ ضابطًا للمباحث وكُلفت بالتحقيق فى جريمة قتل، واستطاع خادم القتيل أن يثبت أنه كان فى زيارة لأهله فى الصعيد على بعد ألف كيلو متر وقت وقوع الجريمة، فإن احتمال قيامه بالقتل يكاد يكون معدومًا. أما إذا كان هذا الخادم يسكن على بُعد عشرة كيلو مترات من بيت القتيل فإن احتمال ارتكابه للحادث يكون أعلى كثيرًا من الاحتمال السابق.

٣- **طبيعة المذهب الفلسفى الذى تعتنقه**: فإن كنت من أنصار المذهب الطبيعى، الذين ينفون تمامًا المفاهيم الغيبية والدينية، فلا شك أن المعتَقَد الدينى محل المقارنة سيكون محكومًا عليه بالرفض أو بالضعف قبل بدء المناقشة.

٤ - **طبيعة مفاهيمك الشخصية:** إذا فشلت فى صباح يوم بارد أن تدير محرك سيارتك، فسيخطر فى بالك عدد من الاحتمالات حول ما أصاب السيارة من عطب، ليس منها أن روحًا شريرة قد تَلَبَّسَت المحرك! أما إذا كنتَ أحد رجال الهنود الحمر، ورفض فرسك الانقياد لك، بل هاج ورفسك، فإن احتمال الروح الشريرة سيكون مطروحًا بقوة.

٥- **أصالة المعتقد الدينى محل النقاش:** يخلط الكثيرون بين الثوابت الدينية غير القابلة للدحض، وبين ما هو اجتهادات لتفسير نصوص مقدسة، قام بها المفسرون القدامى فى إطار ما توصل إليه العلم فى زمانهم، مثل استواء الأرض ودوران الشمس حولها، والخلق الخاص للكائنات الحية والإنسان، وغيرها...

وبالنظر إلى هذه العوامل الخمسة، لم نجد حتى الآن تعارضًا حقيقيًّا بين أى من حقائق العلم أو نظرياته العيارية[1] الراسخة وبين مفاهيمنا الدينية الأصيلة. وإذا وُجد مثل هذا التعارض، فما عليه المفسرون - ونحن نوافقهم - **أنه ينبغى تأويل النص الدينى ليتمشى مع العلم دون اعتساف لأى منهما.**

الصراع الحقيقى

المذهب الطبيعى فى مواجهة الدين

إذا كان الخلاف بين العلم والدين خلافًا مُتَوَهَّمًا، فإن هناك خلافًا «منهجيًّا» «حقيقيًّا»، نصفه بأنه صراع بين المذهب الطبيعى وبين الدين.

ما هو المذهب الطبيعى

يؤكد أستاذنا الدكتور عبد الوهاب المسيرى - رحمه الله - أن صفات «الطبيعة» فى الفكر المادى هى ذاتها صفات «المادة»، لذلك كلما وردت كلمة «طبيعة» يمكن أن نضع محلها كلمة «مادة»، لهذا يكتبها (الطبيعة / المادة)[2]. ويقف الاتجاه المادى/ الطبيعى Materialism /Naturalism فى مواجهة «ما فوق الطبيعة Supernaturalism»، ويرى أن الكون وجود مغلق مكتفٍ بذاته، لا يسمح بتدخلات عن موجودات غيبية من خارجه، سواء من

(١) النظرية العيارية هى التى استقرت فى الأوساط العلمية وأصبح يُقاس عليها، كنظرية الجاذبية.

(٢) جاء فى معجم أكسفورد الفلسفى: The Oxford Companion To Philosophy «عادة تستبدل المذاهب المادية اصطلاح المادة بآلية من آليات العلم الطبيعى. لذلك يمكن القول إن الماديين هم الطبيعيون»

أرواح أو آلهة. ومع تعدد أطروحات المذهب المادى/ الطبيعى[١]، فإن هناك مفهومًا واحدًا يجمعها، يصفه كارل ساجان[٢] قائلاً: «هذا الكون هو كل شيء، هكذا كان وسيظل هكذا أبدًا». ويقدم ستيرلنج لامبرخت[٣] تعريفًا محيطًا للمذهب الطبيعى، فيصفه بأنه «موقف فلسفى يعتبر أن كل الموجودات والحادثات نشأت وتنشأ نتيجة لعوامل موجودة فى الطبيعة، ولا شيء سوى الطبيعة التى تعمل بمنظومة السبب والنتيجة.

النظرة الدينية للوجود

فى مقابل النظرة المادية الطبيعية تقابلنا النظرة الدينية للوجود، التى ترى أن الكون له بداية، وأن الله ﷻ قد خلقه من عدم. وفى هذا المعنى يقول رسول الله ﷺ: « كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ، وَكَتَبَ فِى الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ»[٤]. وجاء فى بداية سفر التكوين فى التوراة: «فى البدء خلق الله السموات والأرض».

وترى النظرة الدينية أيضًا أن الله ﷻ قيوم على الوجود ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ ... ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة] لا يغفل عنه لحظة، وأنه يديره من خلال قوانين الطبيعة[٥]، وأنه قادر على أن يخرق هذه القوانين وأن يتدخل فى الكون تدخلًا مباشرًا سافرًا.

وينبغى هنا التأكيد على أن التفسيرات الغيبية والإلهية ـ وإن كانت خارج نطاق التفسيرات الطبيعية ـ فإنها بلا شك تفسيرات «منطقية»، فما هو غير المنطقى عندما نقول إن الإله قد خلق الوجود؟ وقد وجب هذا التنويه حتى لا يحدث خلط بين التفسير المنطقى والتفسير الطبيعى.

(١) ظهرت المادية/ الطبيعية على هيئتين؛ الأولى هى «السلوكية السياسية Political Behaviourism»، التى تمثلها الماركسية اللينينية الغاربة، وترى أن أمخاخنا عند الميلاد تكون بمثابة اللوح الأبيض الذى لا يحوى إلا حاجاتنا الجسدية الأساسية وانعكاساتنا العصبية، والباقى يأتى بالتعلم الذى تتحكم فيه الثقافة التى يوجهها التاريخ،ومن ثم فنحن نتاج ظروفنا السياسية والاقتصادية التى تُعتبر المنظومة الشيوعية أفضل صورها. وعلى أرض الواقع، كلفت التطبيقات السياسية لهذه المنظومة البشرية أكثر من تسعين مليونًا من القتلى بالإضافة إلى خراب اقتصادى هائل، مما يعكس فشلها المدوى.

والهيئة الثانية للمادية/ الطبيعية هى «الإنسانية العلمية Scientific Humanism». وهى تخالف السلوكية السياسية كما تخالف الدين، وتتبنى أن الإنسانية «حالة بيولوجية» نشأت عبر ملايين السنين، وأن الذكاء الإنسانى غير المسبوق هو محصلة تأثيرات ثقافية مكتسبة عملت على خلفية بيولوجية من المشاعر الغريزية المعقدة. أى أن الإنسانية هى محصلة استجابة مكتسبة على أرضية غريزية، وهى دون شك نظرة داروينية.

(٢) فى برنامجه التليفزيونى الأشهر عبر العالم: الكون Cosmos

(٣) Sterling Lamprecht: من كبار الفلاسفة الطبيعيين.

(٤) حديث بدء الخلق ـ صحيح البخارى.

(٥) استشهدنا على هذا المعنى فى ختام الفصل السابق، تحت عنوان «قوانين العلم من آليات عمل الإله».

من المقابلة بين المذهب الطبيعي والنظرة الدينية للوجود ندرك أن الصراع الحقيقى يكمن بين المادية/ الطبيعية وبين الدين وليس بين العلم والدين، لذلك فالسؤال الصحيح ينبغى أن يكون: أى النظرتين يتبنى العلم: النظرة الطبيعية أم الدينية؟

المنهج الطبيعى وسلبياته Methodological Naturalism

ذكرنا من قبل تعريف مايكل روس للعلم بأنه منهج يتعامل مع ما يوجد ويتكرر بشكل طبيعى وتحكمه قوانين الطبيعة. ويعنى مصطلح «طبيعى Natural» الذى جاء فى التعريف أن جميع الأشياء والموضوعات التى يدرسها العلم توجد فى الطبيعة، ويعنى كذلك أن تفسيراتنا للظواهر العلمية ينبغى أن تُقَدَّم بمفاهيم الفيزياء والكيمياء، دون اللجوء إلى المفاهيم الغيبية والإلهية.

ومنذ الثورة العلمية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، وضع العلماء منهجًا علميًّا يقتصر عند البحث فى الظواهر الطبيعية على الأسباب الطبيعية، وأصبح هذا المنهج يُعرف «بالمنهج الطبيعى». وبالرغم من أن التفسير «المنطقى» الغيبى ضرورى فى بعض المواقف (كعلوم البدايات) إلا أنه لا يُعتبر تفسيرًا علميًّا من وجهة نظر المنهج الطبيعى.

ومن أهم إيجابيات المذهب الطبيعى أنه يضع حدودًا واضحة بين العلم الحقيقى والخرافات، فهو يُفَرِّق بين علوم الفضاء وممارسات تلتبس معها كالتنجيم، وبين الكيمياء والخيمياء Alchemy [(١)]. كذلك دفع هذا المذهب إلى تحاشى الكسل العلمى بتفسير كل الظواهر بأنها من فعل الإله.

أما أخطر سلبيات (وأخطاء) المذهب الطبيعى، فهى اعتبار أن ما ليس له تفسير طبيعى من معلومات أو ظواهر ليس بعلم، ولا يأخذها العلماء مأخذ الجد وقد يقاومونها بشراسة، هذا بالرغم من عدم وجود دليل على هذه النظرة فى الفيزياء الكلاسيكية أو الفيزياء الحديثة. إن مجرد إطلاق وصف «العلمى» على هذا المنهج لا يعنى أنه قد صار علميًّا، تمامًا كما يطلق أحدنا على ابنه اسم طرزان!.

المذهب الطبيعى والمنهج الطبيعى

إذا كان المذهب الطبيعى (الفلسفة الطبيعية) فلسفة لا تؤمن بإله أو بأى وجود فوق طبيعى، فالمنهج الطبيعى «منهج علمى» لا يحتم الإيمان بالفلسفة الطبيعية التى هى نظرة إلحادية لطبيعة

(١) الخيمياء: محاولات تحويل المعادن الرخيصة كالنحاس إلى معادن نفيسة كالذهب.

الوجود، فالعالِم المؤمن بالإله يتبع المنهج الطبيعى فى دراسته للوجود. لذلك فالعلم الحقيقى وإن لم يتعامل مع الإله وما فوق الطبيعة فإنه لا يتنكر لهما.

وقد انعكس المنهج الطبيعى بشكل مباشر وقوى على بنية النظريات العلمية، فصارت تستقى معلوماتها من المصادر الرياضية والتجريبية والعقلية والمفاهيم البديهية الصحيحة وترفض الغيبيات، كما أصبحت مخرجاتها لا تشتمل على تفسيرات غيبية كوجود الإله.

والمحصلة أننا نتحدث عن منهج طبيعى يتبنى أصحابه المذهب الطبيعى الفلسفى، وهم الملاحدة، ومنهج طبيعى لا يتبنى أصحابه المذهب الطبيعى، وهم المؤمنون.

التوافق بين الدين وجذور العلم

بَيَّنَّا فيما سبق عدم وجود خلاف حقيقى بين العلم والدين، فهل هناك توافق بينهما؟

نحن ندعى أن هناك توافقًا عميقًا حقيقيًّا بين الدين وجذور العلم. وينطلق ادعاؤنا هذا من أن كل العلوم تقوم على قناعة محورية واحدة، وهى أن الكون «منظم»[1]، وقد عَبَّرَ أينشتين عن ذلك بمقولته المشهورة المعبرة: «إن أكثر الأمور استعصاء على الفهم فى الكون أنه مفهوم!»، وبدون هذه القناعة ما كان للعلم أن يقوم.

ملامح انتظام الكون

١ - الانتظام والمصداقية والقابلية للفهم وللتنبؤ فى الوجود

ذكرنا فى الفصل السابق أن قيام العلم بممارسة مهامه يتطلب قدرًا عاليًّا من الانتظام والمصداقية والقابلية للفهم وللتنبؤ فى الكون، تمامًا مثل أفعالنا المقصودة. فأنت مثلًا لا تستطيع أن تقود سيارتك إلى مكان ما فى ظل احتمال أن تتحول السيارة إلى شىء آخر فى أى وقت، كأن تصبح إبريقًا من الشاى أو صحبة زهور!

وحول مصدر هذه القناعة يقول بول ديفيز: إذا كانت الشمس تظهر من الشرق منذ أن وَعَيْنا، فليس لدينا دليل جازم على أنها ستفعل ذلك غدًا، إن مبدأ انتظام الطبيعة مبنى على الإيمان الذى لولاه ما قام العلم.

(١) ينطبق هذا المفهوم على الكون الدقيق (الذرة) والكون الشاسع.

٢- الثبات والقانونية[1]

ومن السمات الكونية المطلوبة أيضًا لقيام العلم أن يتسم هذا الانتظام والمصداقية والقابلية للفهم وللتنبؤ بـ«الثبات»، وأن تتخذ هذه السمات شكل القوانين الطبيعية. لذلك يقول ستيفن هوكنج: «كلما ازدادت معرفتنا بالكون كلما تأكد يقيننا بأنه محكوم بالقوانين». ويقول ريتشارد فينمان[2] (الحائز على جائزة نوبل فى الفيزياء): «إن وجود قوانين منضبطة أمر معجز، إن هذا الانضباط لا تفسير له، لكنه يُمَكّننا من التنبؤ، فهى تخبرك بما نتوقع حدوثه فى التجربة قبل أن تجريها». ويضع أينشتين يده على التفسير فيقول: «إن كل إنسان يهتم بالعلم بصورة جادة يدرك أن قوانين الطبيعة تعكس وجود روح كلى أسمى كثيرًا من روح الإنسان»[3].

٣ - الالتزام بالرياضيات القابلة للفهم

تقدمت الرياضيات مع تقدم العلوم الطبيعية خلال الثورة العلمية فى الغرب ذراعًا بذراع. وقد توصل العلم إلى أن بنية العالم وسلوكه ـ على تعقيدهما ـ قابلين للتوصيف بالمعادلات الرياضية. وتُعرف هذه السمة بفاعلية الرياضيات **Efficacy**. وفى ذلك يقول بول ديراك[4]: **إن الإله خالق حسيب، استخدم أرقى مستويات الرياضيات فى بناء الكون**

ومن السمات الأخرى للفيزياء والرياضيات ذات العلاقة بالعالم الطبيعى، **سهولة الفهم Accessibility**. فالعلم يعجز عن القيام بمهامه إذا كانت القوانين الطبيعية والرياضية شديدة التعقيد والعمق وتتجاوز قدرة العقل البشرى على الفهم. وقد لاحظ «كبلر»[5] ذلك منذ بدايات العلم الحديث، فقال: «**إن قوانين الطبيعة فى حدود قدرة الإنسان على الفهم**. لقد أراد الإله أن نعرفها من أجل أن نشاركه أفكاره بعد أن خلقنا على صورته». ونحن نضيف هنا: ومن أجل أن نسخرها للقيام بواجبات الخلافة فى الأرض.

(١) إذا كانت قوانين الطبيعة قد وُضعت لتحكم المادة غير العاقلة، فإن المادة لا تملك خيارًا فى الالتزام بها. كذلك الوظائف الحيوية لجسم الإنسان التى يؤدى اضطرابها إلى الموت، كانقباض القلب وعملية التنفس، لا يملك الإنسان خيارًا فى القيام بها أو التوقف عنها. هذا بخلاف القوانين الأخلاقية التى توجه سلوك الإنسان حر الإرادة، فله خيار الالتزام بها أو مخالفتها.

(٢) Richard Feynman: (١٩١٨ - ١٩٨٨م)، عالم فيزياء الكوانتم الأمريكى الشهير.

(٣) Spirit Vastly Superior to that of man

(٤) Paul Dirac: (١٩٠٢ - ١٩٨٤م)، عالم الفيزياء النظرية البريطانى الكبير، حائز على جائزة نوبل.

(٥) Johannes kepler: (١٥٧١ - ١٦٣٠م)، عالم الرياضيات والفلك الألمانى الشهير. وضع ثلاثة قوانين هامة تصف حركة الكواكب.

الانسجام بين عقولنا وبين الوجود

يتطلب إدراك الملامح السابقة لانتظام الكون تناغمًا وانسجامًا بين بنيته وقوانينه وبين قدرات عقولنا الإدراكية والمعرفية والمنطقية، ويتطلب أيضًا إيمان عقولنا بتمتع الكون بهذه الصفات. إن المذهب الطبيعي يواجه حرجًا شديدًا فى تفسير هذا التوافق الذى يفوق قدرة العشوائية والصدفة والقول بطبيعة الأشياء.

إن التفسير الوحيد للتوافق بين صفات الكون وبين قدراتنا العقلية (منطقية الوجود) هو منطقية الإله الخالق. لذلك لم يكن غريبًا أن توقعات الفيزياء الرياضية التى توصل إليها العقل البشرى مُسبقًا[١] قد انطبقت بدقة على الكون الذى صممه الإله ﷻ.

التوحيد أساس العلم الحديث

يُرجع ملفن كلفن[٢]، الحائز على جائزة نوبل فى الكيمياء الحيوية، ما وصفنا من انتظام الكون إلى الإله الواحد الذى أنشأه ويديره بنظام متناسق؛ حيث إن العشوائية أو آلهة متعددين يديرون الكون كلٌ بقوانينه كان سيؤدى إلى انهياره ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنبياء]. ونُرجع هذا الإيمان بالتوحيد إلى زمن المصريين القدماء، أما كالفن فيرجعه إلى العبرانيين الذين بُعث فيهم أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام. وعلى كلٍ فإن القول بالتوحيد كان الأصل التاريخى لإدراك أن الكون منظم، ومن ثم «فالتوحيد» هو أساس العلم الحديث.

كذلك كانت الثورة العلمية التى حدثت فى ظل الحضارة الإسلامية نتاج عنصرين أساسيين؛ الأول تأكيد القرآن الكريم على انضباط الكون، حتى إن العلماء المسلمين أطلقوا على قوانين الطبيعة اصطلاح السنن الكونية، والثانى دعوة القرآن الكريم للنظر إلى الآفاق، واعتبار ذلك من أرقى مستويات العبادة ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران].

(١) مثل النظرية النسبية والثقوب السوداء.

(٢) Melvin Calvin: (١٩١١ - ١٩٩٧م)، عالم الكيمياء الحيوية الأمريكى.

وقد كان فرانسس بيكون[1] أبو العلم الحديث مُطَّلِعًا على الفكر الإسلامى، ونقل عنه رأيه بأن الإله قد أمدنا بكتابين؛ كتاب الطبيعة والكتاب المقدس، وذكر أنه من أجل أن تكون متعلمًا حقيقيًّا ينبغى أن تستخدم عقلك لدراسة الكتابين. ويلخص اللاهوتى المعاصر ك.س. لويس[2] هذا الفهم بقوله: لقد تبنى الإنسان العلم عندما توقع أن الطبيعة تتبع قوانين، وقد حدث ذلك عندما آمن بالإله الواحد واضع القوانين.

وقد رأينا من قبل كيف أن المنهج الاختزالى يقضى على منطقية الكون، ومن ثم فإن أفضل التفسيرات لانتظام الكون هو القول بالإله الحكيم القادر، الذى أعطت أعماله العلمَ حجيته ومنطقيته. وإذا كان مايكل أونفراى[3] يقول ساخرًا: «إن الإله المتوهَم يقتل كل ما يقف فى طريقه: المنطق ـ الذكاء ـ العقل الناقد، وبعد انهيار حواجز المقاومة هذه تتداعى باقى الضحايا تباعًا: الفلسفة ـ الفن ـ الإبداع...»، فنحن نقول إن مايكل أونفراى محق تمامًا! فالآلهة المتوهمة عدوة للعقل، أما إله التوحيد الحقيقى فليس كذلك البتة.

القارئ الكريم

يُرَوِّج الملاحدة وكثير من المتدينين أن هناك تعارضًا وصراعًا بين العلم والدين، بل ويدعى الملحدون أن الصراع قد انتهى بالفعل لصالح العلم! وقد أثبتنا فى هذا الفصل خطأ تلك الادعاءات، ورأينا أن الخلاف الحقيقى إنما هو بين علماء متدينين وعلماء ملاحدة، نتيجة لقصور فى فهم كل من العلم والدين.

وإذا كان الملاحدة يتهمون المؤمنين بأنهم يبنون إيمانهم بالإله على دوافع نفسية ذاتية دون أى دليل عقلى أو علمى، فقد أثبتنا أن كلًا من الإيمان الدينى والقضايا العلمية ينطلقان من الأدلة الموضوعية والمسلمات النفسية البديهية على السواء. أليس من مسلمات العلم أن عقولنا أهل للثقة، وينبغى أن نصدقها عندما تخبرنا ـ مثلًا ـ أن الشمس ستشرق فى الغد من المشرق كما فعلت طوال آلاف الملايين من السنين! وهو افتراض ليس عليه دليل علمى!. بل إن الكثيرين

(١) Sir Francis Becon: (١٥٦١ - ١٦٢٦م)، فيلسوف ورجل دولة وكاتب إنجليزى، معروف بقيادته للثورة العلمية عن طريق فلسفته الجديدة القائمة على «الملاحظة والتجريب»، من الرواد الذين انتبهوا إلى عدم جدوى المنطق الأرسطى الذى يعتمد على القياس.

(٢) C.S.Lewis: (١٨٩٨ - ١٩٦٣م)، عالم اللاهوت المكسيكى الأمريكى الأشهر فى القرن العشرين.

(٣) Michel Onfray: فيلسوف ما بعد الحداثة الفرنسى، يسعى إلى إنزال الفلسفة من برجها العاجى إلى عوام الناس.

من كبار الملاحدة التزموا بالمفاهيم الإلحادية التى تربوا عليها حتى وإن خالفت العلم، مما يعنى أن الإيمان النفسى من أساسيات الإلحاد أيضًا.

وإذا كان فرويد ومَن تابعه من الملاحدة يعتبرون أن الإيمان بالإله نوع من آليات الهروب من المخاوف والتحديات التى تواجه البشرية، وأهمها الفناء بالموت، فالإلحاد هو آلية الهروب التى يلجأ إليها الإنسان خوفًا من مواجهة عواقب أفعاله الدنيئة فى حياة أخرى.

لذلك نقول إن الصراع الحقيقى ليس بين العلم والدين لكنه بين المذهب الطبيعى والدين. فالمذهب الطبيعى لا يقر إلا بالطبيعة والحس وينكر ما فوق الطبيعة والدين والألوهية، بل ويجر العلوم الإنسانية والدين إلى ساحة المنهج الطبيعى الذى تم وضعه ليتعامل مع العلوم التجريبية والتطبيقية فقط.

وقد خلصنا فى هذا الفصل ليس فقط إلى أن الخلاف بين العلم والدين صراع مُتَوَهَّم، بل أثبتنا أن هناك توافقًا عميقًا بين الدين وجذور العلم. ويتلخص هذا التوافق فى أن العلم ينطلق من أن الكون يتمتع بالانتظام والمصداقية والقابلية للفهم وللتنبؤ، وأن عقولنا قد شُكلت بحيث تدرك هذه السمات بشكل صحيح. وقد أقر الإنسان بهذا الانتظام فى السمات الكونية والعقلية وأقام عليها البناء العلمى بعد أن أدرك أن الوجود كله يقف وراءه إله خالق حكيم قادر واحد أحد.

﴿... سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون].

صدق الله العظيم

* * *

الباب الثاني

بين
الإله
والإلحاد

الفصل الرابع

الكـــون

بين الإله والإلحاد

- قصة خلق الكون: للكون بداية
  - أينشتين ومشكلة قِدَم الكون
  - إدراك الحدث الأول مستحيل علميًّا!
  - للكون بداية ... من الشك إلى اليقين
- الانفجار الكونى الأعظم
  - التطوير الذكى للكون
  - فوق طاقة العلم
  - حجية نظرية الانفجار الأعظم
- نظرة الفيزياء إلى الكون
  - الفيزياء الكلاسيكية
  - الفيزياء الحديثة
- موقف الملاحدة المعاصرين من الكون
  - دور قوانين الفيزياء
- البرهان الكونى
  - المعارضون للبرهان الكونى
- برهان الضبط الدقيق
  - كون مستقر منضبط قابل للفهم والتوقع
  - الضبط الدقيق تمهيدًا لنشأة الحياة
  - البنية المستقرة للكون
- المبدأ البشرى
  - كوكبنا المتميز
  - المعارضون للمبدأ البشرى
  - إما الإله وإما الأكوان المتعددة
    - دحض فرضية الأكوان المتعددة
    - ميكانيكا الكم والأكوان المتعددة
- نشأة الكون فى القرآن الكريم
- القارئ الكريم

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾

[العنكبوت: ٢٠]

«هذا النظام الأكثر روعة الذى يحتوى الشمس والكواكب والمذنبات، لا يُنشئه إلا موجد فائق الذكاء والقدرة، موجد يتحكم فى كل شىء، ليس كروح العالم ولكن كإله فوق الجميع».

إسحق نيوتن

كان الثلاثة الكبار من فلاسفة اليونان القديم (سقراط، وأفلاطون، وأرسطو)[1] من المؤمنين بوجود الإله مُنشئ الكون. ولما كان العقل الفلسفى فى ذلك الحين (وحتى الآن عند الكثيرين من الفلاسفة) عاجزًا عن تصور إمكانية «الخلق من عدم»، فقد لجأ أرسطو إلى القول بـ«موجود ليس كالمادة» (لم يتشكل ولم يكتسب أية صفات) وأسماه «الهيولا Heola» (أصل الوجود)، اعتبر أن هذا الهيولا قديم أزلى، شَكَّلَ الإلهُ منه الكون، ولم يبين أرسطو كيف وُجد هذا الهيولا الأزلى!

ثم كان الفيلسوف السكندرى جون فيلوبونس[2] فى القرن السادس الميلادى أول من قال إن الكون حادِث (له بداية) وساق على ذلك البراهين الفلسفية.

وقد وَجَدَت التساؤلات حول نشأة الكون والتى حيرت الفلاسفة أجوبتها ببساطة ووضوح فى «الوحى الإلهى» بعد أن تكفل الله ﷻ ببيان أمور الغيب للإنسان، فأخبرنا أن للكون بداية، وأنه خلقه من عدم ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

(١) سقراط: ٤٧٠ق.م - ٣٩٩ ق.م.
أفلاطون: ٤٢٨ ق.م. - ٣٤٧ ق.م.
أرسطو: ٣٨٤ ق.م. - ٣٢٢ ق.م.

(٢) John philoponus: (٤٩٠ - ٥٧٠م)، فيلسوف يُعرف باسم يوحنا السكندرى، اهتم بالتعليق على كتابات أرسطو، وألف العديد من الكتب فى اللاهوت.

﴿لَآيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران]، فالخلق هو الإيجاد من عدم على غير مثال سابق، كذلك قال رسول الله ﷺ: كان الله ولم يكن شيء غيره[1].

وفى المقابل، تبنى الملاحدة عبر التاريخ آراءً متعددة تركز على أزلية الكون (قديم لا بداية له)، وتُسقط الحاجة إلى إله خالق.

وتمر الأيام ويدلى العلم بدلوه - بجوار الفلسفة والدين - فى قضية نشأة الكون، فمع أى الجانبين يقف العلمُ الحديث؛ الألوهية أم الإلحاد؟

قصة خلق الكون

للكون بداية

يخبرنا «وليم لين كريج[2]» أستاذ فلسفة الأديان، أن العلماء المسلمين (وعلى رأسهم الإمام أبو حامد الغزالى، ١٠٥٨ - ١١١١م) قد أصَّلوا قضية حدوث الكون واحتياجه لإله خالق بشكل واضح، وأطلقوا على العلم المختص بشرح العقيدة اسم علم الكلام (يقابل علم اللاهوت عند المسيحيين). وقد احتفظ هذا العلم باسمه العربى Science of Kalam بعد أن انتقل إلى الغرب عن طريق إسبانيا، ثم نال الشهرة هناك على يد الفيلسوف الألمانى «إيمانويل كانت[3]» فى القرن الثامن عشر.

وفى إطار علم الكلام، ولإثبات أن للكون بداية، استند الإمام أبو حامد الغزالى إلى دليل الفلسفة والرياضيات، الذى يؤكد أن «من المستحيل أن يكون هناك قِدَم لا نهائى، أى أن الماضى لا بد أن تكون له بداية»[4].

(١) رواه البخارى.

(٢) William lane Craig: الأستاذ بجامعة تالبوت Talbot بالولايات المتحدة، وعالم اللاهوت المناظر ضد الإلحاد، وصاحب اصطلاح «دليل الكلام الكوزمولوجى Kalam Cosmological Argument». ولد عام ١٩٤٩.

(٣) Immanuel Kant: (١٧٢٤ - ١٨٠٤م)، أحد أعلام الفلسفة الحديثة.

(٤) لإثبات ذلك يطرح الإمام الغزالى هذه المحاجاة: تصور أن معى عددًا لا نهائيًا من الحصى، وإننى أريد أن أعطيك منه عددًا لا نهائيًا. إن ذلك يمكن أن يتم بإحدى الطرق:

١- يمكننى أن أعطيك كل ما معى، عند ذلك لن يتبقى معى شيء.

٢- يمكننى أن أعطيك الأرقام الزوجية من الحصى (٢، ٤، ٦،...) وهى عدد لا نهائى، عند ذلك ستتبقى معى الأرقام الفردية (١، ٣، ٥،...) وهى عدد لا نهائى أيضًا.

٣- يمكن أن أترك معى عددًا من الحصيات (ثلاث مثلًا) وأعطيك الباقى، وهو عدد لا نهائى كذلك.

فى الثلاث حالات السابقة، طرحنا عددًا لا نهائيًا (ما أعطيته لك) من عدد لا نهائى (أصل الحصى الموجود معى) =

أينشتين ومشكلة قِدَم الكون...

بالرغم من البرهان الفلسفى الرياضى الذى يرجع إلى ألف عام مضت على **أن للكون بداية**، ظل العلماء منذ الثورة العلمية ينظرون إلى الكون باعتباره **قديمًا أزليًا (لا بداية له)**. وحتى الثلث الأول من القرن العشرين كانت هناك عدة فرضيات تُـرَوِّج لأن الكون كان هناك دائمًا Steady State Universe، دون أى أدلة علمية.

وعندما وضع أينشتين نظرية النسبية العامة عام ١٩١٥، أظهرت حساباته أن الكون إما يتمدد أو ينكمش، مما يعنى أنه لا يمكن أن يكون أزليًا، **ولا بد أن تكون له بداية**[١]. وللخروج من ذلك المأزق، وضع أينشتين فى معـادلاته ثابتًا أسـماه «الثابت الكونى Fudge constant» ليتغلب به على تأثير الجاذبية، ليصبح حجم الكون ثابتًا ويصبح الكون أزليًا،بما يتمشى مع الفهم الخطأ السائد.

ثم سمع أينشتين أن إدوين هابل[٢]، قد توصل عام ١٩٢٩ إلى ظاهرة **الإزاحة الحمراء للمجرات**[٣] Red Shift، والتى تعنى أن المجرات تتباعد وأن الكون يتمدد، **مما يعنى أن له بداية**. وعلى الفور زار أينشتين هابل فى مرصده فى كاليفورنيا وتأكد بنفسه من صدق ما سمعه، فاعترف أن وضعه الثابت الكونى لتأكيد أزلية الكون يُعتبر **أكبر خطأ علمى فى حياته**.

للكون بداية .. من الشك إلى اليقين..

قبل انصرام القرن العشرين، أصبح علماء الكونيات يمتلكون **أربعة أدلة قاطعة على أن للكون بداية**، وهذه الأدلة هى:

= فحصلنا على نتائج مختلفة. بينما يؤكد الرياضيون أنا إذا طرحنا عددًا ثابتًا (لا نهائى فى هذه الحالة) من عدد ثابت (لا نهائى) ينبغى أن تكون النتيجة واحدة فى جميع الحالات، أما عند الحصول على نتائج مختلفة (وهو ما يتبقى معى) لعملية رياضية واحدة، فيعتبرون أن الرقم الأصلى رقم اعتبارى، أى غير حقيقى.

إذا طبقنا المثال على الزمن، وطرحنا سنوات لا نهائية من عمر الكون اللا نهائى (كما يفترض الملحدون) فسنحصل على إجابات متفاوتة، إن ذلك يعنى أن اعتبارنا أن عمر الكون لا نهائى اعتبار غير حقيقى؛ لذلك ينبغى أن يكون للزمن بداية.

(١) إن كان الكون يتمدد وكان أزليًا لكان قد تبعثر، وإذا رجعنا إلى الوراء لوصلنا إلى نقطة بداية لهذا التمدد. وإذا كان ينكمش وكان أزليًا لكان قد انهار كُلِّيَةً.

(٢) Edwin Hubble: أمريكى (١٨٨٩-١٩٥٣م)، أحد أشهر علماء الفلك فى القرن العشرين، صاحب الفضل فى الاهتمام بالمجرات الأخرى غير مجرتنا.

(٣) ظاهرة الإزاحة الحمراء: إذا تحرك مصدر ضوئى بعيدًا عن الراصد فإن ألوان طيف الضوء الصادر منه يعتريها زيادة فى اللون الأحمر. وقد لاحظ هابل هذه الزيادة فى الضوء الصادر من المجرات، فأدرك أن المجرات تتباعد عنا، واستنتج أن الكون يتمدد.

أولًا: أشرنا إلى ما أثبته هابل من أن المجرات تتباعد (ظاهرة الإزاحة الحمراء للمجرات)، أى أن الكون يتمدد. ولو عدنا بحساباتنا الرياضية للوراء، سنصل إلى اليوم الذى كانت فيه المسافة بين المجرات تساوى صفرًا، أى لحظة بداية الكون.

ثانيًا: من المفاهيم الأساسية فى «القانون الثانى للديناميكا الحرارية Second Law of Thermo - Dynamics» أن حرارة الكون تتناقص دائمًا من (وجود حرارى) حتى تصل إلى (عدم حرارى)، أى أن الكون يبرد (حرارته الآن ٣,٧ فوق الصفر المطلق). ولو كان الكون أزليًا، أى لا بداية له، لفقد حرارته كلها وفَنِى منذ زمن بعيد.

ثالثًا: عندما كان الفيزيائيان الأمريكيان فى معامل بل للتليفونات فى نيوجيرسى(آرنو بنزياس، وروبرت ويلسون) يختبران أحد المجسات الدقيقة والحساسة للموجات الميكروية Microwaves [(١)]، التقط المجس إشارات تشويش أكثر مما كان الباحثان يتوقعان، وظل التشويش ثابتًا ليلًا ونهارًا وعلى مدار السنة، على الرغم من دوران الأرض حول محورها وحول الشمس. كما وجد الباحثان أن التشويش يأتى من كل صوب وبالشدة نفسها، سواء من داخل مجموعتنا الشمسية أو من أماكن أخرى من مجرتنا أو من خارج المجرة. لقد برهن ثبات التشويش على أن الكون متماثل فى جميع الاتجاهات[(٢)].

رابعًا: تتشكل العناصر الثقيلة (كالحديد والنحاس والذهب) عن طريق اندماج العناصر الخفيفة، وقد توفرت الحرارة العالية المطلوبة لتحقيق هذا الاندماج فى النجوم المستعرات Supernova. أما العناصر الخفيفة (الهيدروجين والهيليوم) التى تتشكل من الجسيمات تحت الذرية فتحتاج إلى درجات حرارة أعلى كثيرًا، ولما كانت هذه العناصر موزعة بشكل متساوٍ فى مختلف أرجاء الكون فذلك يعنى وجود هذه الحرارة الهائلة فى جميع هذه الأرجاء، أى أن الكون نشأ بحادث واحد مهول مُنتج للحرارة وليس بأحداث متكررة متشابهة فى أماكن مختلفة، وهذا الحادث لا يكون إلا الانفجار الكونى الأعظم.

هكذا أجاب العلم على القضية الفلسفية المعقدة حول «هل الكون قديم أم حادث ؟»، فقال كلمته ـ التى اتفقت مع كلمة الدين ـ بأن الكون حادث، وقد أصبح هذا المفهوم بمثابة حقيقة وبديهة علمية.

وانتقلت القضية إلى السؤال التالى: كيف بدأت نشأة الكون ؟

---

(١) فرن الميكروويف الذى نستخدمه فى طهى الطعام تشبه موجاته موجات الضوء تمامًا إلا أن أطوالها أطول كثيرًا وتصل إلى نحو سنتيمتر واحد.

(٢) ما هو مصدر هذا التشويش الكونى الثابت؟: لقد كان الكون المبكر ساخنًا جدًا ومتوهجًا إلى درجة البياض نتيجة للانفجار الهائل الذى بدأت به نشأة الكون، وكان ينبغى أن يصلنا هذا التوهج (ضوء) من جميع أجزاء الكون. ولما كان الكون يتمدد، فإن الضوء اعترته إزاحة حمراء كبيرة، حتى وصل إلينا على هيئة أشعة ميكروية (التشويش) بدلًا من الضوء المرئى. إنه دليل «عملى» هائل لا يُدحض على أن الكون متماثل، يتمدد، يبرد. فاستحق عليه صاحباه جائزة نوبل عام ١٩٧٨.

إدراك الحدث الأول مستحيل علميًّا

يقول تشارلز تاونز[١]، عالم الفيزياء الأمريكى الحاصل على جائزة نوبل عام ١٩٦٤: لا شك أن السؤال عن بداية نشأة الكون سيظل دون إجابة علمية، لذلك أعتقد أن هناك حاجة إلى التفسيرات الدينية الغيبية، ومن ثم فإننى أؤمن بالإله الذى خلق الكون.

إن هذه المقولة تطرح سؤالين؛ هل إدراك بداية البداية أمر مستحيل علميًّا حقًّا؟ وهذا ما سنجيب عنه الآن. والسؤال الثانى: هل التفسير الوحيد المقبول لنشأة الكون هو القول بوجود الإله؟ وهذا ما سنطرحه للمناقشة طوال الفصل.

إذا أردنا أن ندرك الحدث الأول فى نشأة الكون علينا أن نفهم ما حدث فى أول $\frac{1}{10^{43}}$ ثانية من عمر الكون[٢]، وهذا أمر تعتريه صعوبة علمية يستحيل تجاوزها!. فقد كان الكون فى بدايته رهيب الكثافة رهيب الصغر!. فى هذا الحجم لا متناهى الصغر تكون فيزياء الكم هى العاملة، ومن ثم يحكمنا مبدأ اللاحتمية لهايزنبرج[٣]، أى أن الذى يحكمنا هو الاحتمالية وليس القَطْع، معنى ذلك أن تصبح قدرتنا على تحديد القياسات الفيزيائية (مثل طاقة الانفجار وسرعة تمدده وأبعاده) محدودة. ومن ثم يظل هناك غموض لا يمكن تحاشيه فى سلوك الكون الوليد فى ذلك الحين.

الانفجار الكونى الأعظم[٤] The Big Bang

يشرح ستيفن هوكنج[٥] فى كتابيه «تاريخ موجز للزمن[٦]» عام ١٩٨٨ و«تاريخ أكثر إيجازًا للزمن[٧]» عام ٢٠٠٥، سيناريو خلق الكون بالانفجار الأعظم، فيقول: فى لحظة ما من الماضى (منذ نحو ١٣,٧ بليون سنة ± ٢٠٠مليون سنة) كان الكون (تبعًا للحسابات الرياضية) محصورًا فى نقطة حجمها صفر! أطلق عليها العلماء اسم «المفردة

(١) Charles Townes: مكتشف الـ Maser الذى مهد لاكتشاف أشعة الليزر. ولد عام ١٩١٥.

(٢) مقام هذا الكسر يعنى (واحد) أمامه (٤٣) صفرًا، وهذا الوقت يُعرف بزمن بلانك Planck Time الذى يمثل أدنى فترة (نظريًّا) يمكن أن يقع فيه حدث. إذ إنه يمثل الزمن الذى يمكن أن يقطع فيه الضوء (أسرع الموجودات) أقصر طول ممكن نظريًّا، والذى يُعرف بطول بلانك.

(٣) نتعرض لمبدأ اللاحتمية بعد قليل.

(٤) الترجمة الحرفية هى «الانفجار الأعظم»، ونرى أن «الانفجار الأعظم» أكثر تعبيرًا عن المراد.

(٥) سبق التعريف به فى الفصل الأول.

(٦) A Brief History of time

(٧) A Briefer History of time

Singularity»، ثم اعتراها ما نطلق عليه «الانفجار الأعظم The Big Bang»، وهذه كانت البداية.

أما ماذا كان قبل الانفجار الكونى الأعظم، فيجيب ستيفن هوكنج بقوله: إذا كنا نعلم بعض ما حدث منذ الانفجار الأعظم (وتزداد معرفتنا مع تقدم العلم)، فإننا لا نستطيع تحديد ما كان قبل ذلك. إن ظروف ما قبل الانفجار الأعظم لا يجب أن تشكل أى جزء من تصورنا العلمى للكون! علينا أن نكتفى بأن نقول إن الانفجار الأعظم هو بداية الزمن، ويعنى ذلك أن الأسئلة التى تدور حول كيف تهيأت الظروف لهذا الانفجار ليست بالأسئلة التى يتناولها العلم!.

وبالرغم من وجود العديد من الثغرات والتساؤلات التى لم تُجب (حتى الآن) حول كيف نشأ الكون من هذه المُفردة، وبالرغم من أن الجديد الذى يكتشفه العلم كل يوم يُغَيِّر من التفاصيل، وقد يغير من نظرية الانفجار الأعظم ذاتها ويطرح بديلًا عنها، فإن هناك أربع حقائق أساسية لا تتغير فى سيناريو نشأة الكون؛ لقد اعترى الكون الوليد:

- تَمَدُّد Expansion
- تَبَرُّد Cooling
- تكثف Condensation
- تطور Evolution: طاقة ← جسيمات تحت ذرية ← تكوين الذرات.

التطوير الذكى للكون[1]..

نوجز هنا قصة خلق الكون التى تُظهر ملامح التطور فى الخلق، كما تُظهر بجلاء ما يتسم به هذا السيناريو من ذكاء وقصد:

فى اللحظة صفر، التى ترجع إلى ١٣,٧ مليار عام تقريبًا، وُجدت «المفردة Singularity» التى بدأ بها الانفجار الكونى الأعظم. وقد أخذت المفردة شكل نقطة ذات صفات تعجز قوانين الفيزياء، التى تحكم الكون الآن، أن تفسر وجودها: لا نهائية

(١) بتصرف عن كتاب «موجز تاريخ الكون من الانفجار الأعظم إلى الاستنساخ البشرى» للأستاذ الدكتور هانى رزق.

الصغر، لا نهائية السخونة، لا نهائية الكثافة، وقد توحدت فيها قوى الطبيعة الأربع فى قوة واحدة[1].

وفور حدوث الانفجار الكونى الأعظم (لحظة الخلق) تَمَدد الكون الوليد بسرعة تفوق سرعة الضوء مليار مليار مرة، وقد كانت هذه السرعة مضبوطة بإحكام بحيث لا تؤدى إلى تبعثر مكونات الكون، كما لا تؤدى إلى انهياره على نفسه (سرعة حرجة).

ثم تشكلت الجسيمات الأولية للمادة (الكواركات[2] والإلكترونات[3]) من الطاقة، نتيجة لتَبَرُّد الكون الوليد. وخلال أجزاء من الثانية غاية فى الضآلة تشكلت من الكواركات البروتونات[4] والنيوترونات[5]، التى شكلت بعد ذلك نويات ذرات الهيدروجين الثقيل والهيليوم. ثم أَسَرَت هذه النويات الإلكترونات فى مدارات حولها لتشكل الذرات.

لم يكن للخطوات السابقة أن تحدث دون ولادة قوى الطبيعة الأربع التى وجهت عملية الخلق؛ فبعد وقوع الانفجار الكونى الأعظم والانخفاض المتوالى فى درجة حرارة الكون الوليد وُلدت (قوة الجاذبية)، التى حالت دون تبعثر نواتج الانفجار. ثم هبطت درجة حرارة الكون إلى مستوى سمح بميلاد (القوة النووية الشديدة) فترابطت الكواركات ببعضها مُكونة البروتونات والنيوترونات، كما ربطت تلك القوة هذه الجسيمات لتُكَوِّن نويات ذرات الهيدروجين الثقيل والهيليوم. وعندما هبطت درجة حرارة الكون إلى مستوى سمح بميلاد (القوة الكهرومغناطيسية) قامت هذه القوة بأسر الإلكترونات حول النويات لتُشكل الذرات الخفيفة، ووُلدت معها (القوة النووية الضعيفة)، ثم انشطرت القوتان الأخيرتان مع المزيد من هبوط درجة حرارة الكون.

لقد انتشرت مادة الكون انتشارًا متجانسًا فى أرجاء الكون، ولأسباب لم يجد لها العلم تفسيرًا حتى الآن تكونت هنا وهناك جُزر صغيرة تزيد كثافة المادة فيها عن باقى نواحى الكون بفارق ضئيل جدًّا (جزء من مائة ألف جزء)، وقد شكلت هذه الجزر بذور مجرات المستقبل.

(١) هذه القوى هى: قوة الجاذبية، القوة النووية القوية، القوة النووية الضعيفة، القوة الكهرومغناطيسية. وسيأتى الحديث عنها بعد قليل.

(٢) جسيمات تحت ذرية، تختلف طبيعتها تبعًا لشحنتها ولونها وكتلتها ورائحتها!

(٣) جسيمات تحت ذرية، سالبة الشحنة تدور فى مدارات حول نواة الذرة.

(٤) جسيم موجب الشحنة يقع فى نواة الذرة ويتكون من ثلاثة كواركات.

(٥) جسيم متعادل الشحنة يقع فى نواة الذرة ويتكون من ثلاثة كواركات.

داخل هذه المجرات نشأ الجيل الأول من النجوم، وتمت فيه اندماجات نووية متسلسلة سمحت بتكوين العديد من العناصر الكيميائية، وقد انتثرت هذه العناصر فى الكون عندما انفجرت بعض هذه النجوم (السوبرنوفا). لذلك اشتملت نجوم وكواكب الجيل الثانى والثالث، ومنها شمسنا وأرضنا، على العديد من العناصر الثقيلة.

وبذلك تطور الخلق: المفردة ← الطاقة ← المادة (كواركات وإلكترونات) ← نويات الذرات ← ذرات الهيدروجين والهيدروجين الثقيل (ديتريوم) والهيليوم ← نشأة المجرات ← نشأة الجيل الأول من النجوم ← تكون عناصر الجدول الدورى ← نشأة الجيل الثانى والثالث من النجوم ← مولد المجموعة الشمسية ← استقرار كوكب الأرض.

لقد كان اتساع الكون الهائل أمر حتمى لنشأة العناصر الثقيلة التى يتكون منها كوكب الأرض، بالإضافة إلى نشأة عناصر الحياة (الكربون، الأوكسجين، النيتروجين)، إذ تكونت هذه العناصر فى الأفران النووية الهائلة والتى ينبغى أن تكون متباعدة جدًّا جدًّا والمعروفة بنجوم السوبرنوفا، معنى هذا أن أجسامنا تتكون من غبار كونى تم طهيه منذ بلايين السنين فى إحدى هذه المستعرات. فهل تم خلق الكون بهذا الاتساع الهائل ليكون معملًا لإنتاج عناصر الأرض، ومطبخًا لطهى عناصر الحياة؟!!

حُجية نظرية الانفجار الأعظم

هناك شبه اتفاق بين علماء الكونيات على صحة هذه النظرية، مع اختلاف فى التفاصيل. فبالإضافة إلى البراهين الفيزيائية الأربعة التى ذكرناها على أن للكون بداية، فإن كل أحداث الانفجار الكونى الأعظم التى طرحها العلماء يمكن الاستدلال على حدوثها فى الكون، كما يمكن ملاحظة وقوع انفجارات صغرى مشابهة حتى الآن، بل ويُمكن الحصول على بعض هذه الأحداث تجريبيًّا[1]، مثل:

- اندماج المادة ومضادات المادة.

---

(١) يُعتبر مشروع CERN أكبر مشروع فى العالم لدراسة فيزياء الجسيمات تحت الذرية. ويعرف باسم «الهيئة الأوروبية للدراسات النووية European Organization for Nuclear Research» ويقع على الحدود الفرنسية ـ السويسرية. ويحتوى المشروع على ستة مُسَرِّعَات للجسيمات تحت الذرية يبلغ مجموع أطوالها ٢٧ كيلو مترًا ويقع على عمق ١٠٠ متر تحت سطح الأرض. وقد أُسس المشروع عام ١٩٥٤، ويعمل به ٢٦٠٠ موظف بشكل دائم، بالإضافة إلى ٧٩٣١ عالمًا ومهندسًا ينتمون إلى ٥٨٠جامعة تمثل ٨٠ دولة من دول العالم بينهما مصر.

- تكوين نويات مستقرة لبعض الذرات.

- أسر الإلكترونات حول النويات لتكوين ذرات الهيدروجين والديتريوم والهيليوم.

إن الفترة الوحيدة التى لا نستطيع محاكاتها، أو معرفة ماذا حدث فيها بدقة هى أول ١×١٠ -٤٣ من الثانية من عمر الكون الوليد !! ويرجع ذلك إلى أن الانفجار الكونى الأعظم حدث حيث لم يكن هناك مكان ولا زمان ولا مادة ولا طاقة، وهو وضع لا يمكن محاكاته الآن.

فوق طاقة العلم

تَبَدَّت عند حدوث الانفجار الأعظم - أى بداية خلق الكون -خمسة معالم خارقة لا تخضع للقوانين الفيزيائية السائدة الآن، ولا يمكن للعلم وحده أن يفسرها:

١- صِغَر النقطة التى بدأ بها الانفجار «المُفردة Singularity»، وهى أصغر من طول بلانك[١]. ووفقًا لقوانين الفيزياء يستحيل وجود المُفردة بهذا الطول اللا متناهى فى الصغر.

٢- كانت المفردة لا نهائية الكثافة (تحوى كتلة الكون الحالى كله فى نقطة أصغر من طول بلانك). وهى بلا شك تفوق أعلى كثافة عُرفت فى الكون حتى الآن، وهى كثافة النجم النيترونى.

٣- حدث الانفجار الأعظم عند درجة حرارة تجاوزت درجة حرارة بلانك[٢]، تصل إلى عشرة مليار مليار مليار ($١٠^{٣٧}$) درجة مطلقة (كلفن)[٣].

٤- تجاوزت سرعة تمدد الكون الوليد سرعة الضوء بمقدار مليار مليار مرة.

٥- كانت القوى الطبيعية الأربع متوحدة فى قوة واحدة داخل المفردة اللامتناهية الصغر. وقد أثبتت الحسابات الرياضية أن الحصول على طاقة تُوَحِّد هذه القوى فى قوة واحدة،

(١) طول بلانك: أصغر طول يمكن نظريًا أن توجد عليه المادة، وإلا تحولت إلى ثقب أسود يبتلع كل شىء يقترب منه حتى الضوء، ويساوى $١٠^{-٣٣}$سم.

(٢) حرارة بلانك: درجة الحرارة التى لا يمكن تجاوزها فيزيائيًا ($١٠^{٣٢}$ درجة مطلقة). وينسب طول بلانك وحرارة بلانك إلى عملاق الفيزياء الألمانى ماكس بلانك مؤسس نظرية الكم؛ ولد عام ١٨٥٨ وحصل على جائزة نوبل عام ١٩١٨ وتوفى عام ١٩٤٧.

(٣) الصفر المطلق (كلفن): يقل عن الصفر المئوى بمقدار ٢٧٣ درجة مئوية.

يقتضى بناء مُسَرِّع Accelerator يعادل حجم المجموعة الشمسية، **فكيف توحدت القوى الأربع فى المُفردة ؟!.**

مما سبق نخرج بالاستنتاجات التالية:

أولًا: بدأت نشأة الكون فى «العدم المطلق Absolute Nothingness»:

لا مكان ـ لا زمان ـ لا مادة ـ لا طاقة.

ثانيًا: بدأت نشأة الكون بخمس ظواهر خارقة للقوانين الفيزيائية المعروفة الآن.

ثالثًا: سار الكون:

- من حالة اللاانتظام المطلق[1] وما يصاحبها من فقدان وتوزيع سيئ للطاقة، إلى حالة الانتظام والاستغلال الأفضل للطاقة (بناء المادة بدلًا من فقدان الطاقة كطاقة حرارية).
- ومن البنية الأبسط قليلة الفائدة، إلى البنية الأعقد المناسبة لغاية لاحقة.
- ومن المادة ذات الوظيفة الأقل أداءً وكفاءة، إلى وظيفة أفضل أداءً وكفاءة.

ولما كان القانون الثانى للديناميكا الحرارية يحدد أن اللاانتظام فى منظومة ما (System) يتجه إلى المزيد من التبعثر والفوضى وفقدان الطاقة ما لم ينظمه مؤثر خارجى، فإن الاتجاه إلى الأكثر انتظامًا والأعقد بنية والأكفأ أداءً ووظيفة يحتاج بشكل حتمى إلى تدخل ذكى فعال من خارج المنظومة، لا دور للمصادفة فيه، إذ إن المصادفة غير مرسومة المسار تطرح ملايين الاحتمالات التى لا يمكن التغلب على ما فيها من تبعثر وفوضى.

من ذلك نجزم أن المصمم الذكى (الله ﷻ) قد اختار آلية التطور الموجه، ليخلق هذا الوجود.

نظرة الفيزياء إلى الكون

مرت الفيزياء المعاصرة بمرحلتين أساسيتين؛ الفيزياء الكلاسيكية (التقليدية)، ثم تداخلت معها الفيزياء الحديثة (فيزياء الكم والنظرية النسبية)، فلنرَ كيف نظرت كلتاهما إلى الكون.

(١) يتم وصفها باصطلاحات «الشَوْش Chaos»، و«التبعثر Entropy».

الفيزياء الكلاسيكية

تتوج رأسَ الفيزياء الكلاسيكية قوانينُ نيوتن للحركة والجاذبية[1] وقوانين ماكسويل للكهرومغناطيسية وقوانين الحرارة. وتنظر الفيزياء الكلاسيكية إلى الكون باعتباره آلة ميكانيكية تعمل تبعًا لقوانين الفيزياء الثابتة. أى أن الكون هو: المادة + الطاقة + قوانين الفيزياء الكلاسيكية. و تعنى كلمة «ميكانيكية» أن قوانين الفيزياء وحدها كافية لوصف سلوك الكون، حتى أن ما فى الكون من قوانين كيميائية وبيولوجية يمكن رده لقوانين الفيزياء، لذلك تُعتبر قوانين الفيزياء متكاملة مكتفية بذاتها.

وقد مرت الفيزياء الكلاسيكية من المنظور الفلسفى بمرحلتين متعاقبتين.

أ ـ **منظور نيوتن**: بالإضافة للنظرة السابقة للفيزياء الكلاسيكية، احتفظ نيوتن للإله فى منظومة عمل الكون بدور يقوم على دعامتين؛ الأولى أن قوانين الطبيعة من خلق الإله، سواء بأن جعلها مكونًا ثابتًا فى بنية المادة، أو أنه حدد للمادة السلوك الذى ينبغى أن تتبعه وألزمها به. والدعامة الثانية؛ أن الإله لم يرفع يده عن الكون، وأنه مسئول عن حفظ الكون وتعديل أى خلل فيه (كالخلل فى مسارات الكواكب).

إن ذلك يعنى أن «الكون مفتوح» للفعل والإرادة الإلهية، ومن ثم لا تحكمه الحتمية. ولدوره الرائد فى الربط بين الفيزياء والدين أمر البابا ألكسندر أن يُكتب على قبر نيوتن: كانت قوانين الطبيعة ترقد فى ظلام الليل، ثم قال الإله فليكن نيوتن، فأضاء كُلُّ شىء.

ب ـ **منظور لا بلاس**: عندما سأل نابليون الفلكى لابلاس عن دور الإله فى نشأة الكون وعمله، وأجاب الأخير بأنه لا يرى مبررًا لهذا الافتراض (أى أن لا دور للإله فى الكون)، فإن لابلاس يكون قد أضاف إلى الفيزياء مفهومًا فلسفيًا غير خاضع للإثبات. وهو أن الكون خال من التدخلات الإلهية، أى أنه «كون مغلق» مكتف بذاته، وأن سلوك الكون وكل ما فيه حتمى، لذلك صرنا نتحدث عن «حتمية لابلاس» التى تلغى دور القدرة والإرادة الإلهية، لذلك فإن:

منظور لابلاس = منظور نيوتن + الكون مغلق وحتمى

---

(١) إنها فيزياء قوانين البقاء Conservation الشهيرة:
- قانون بقاء الزخم: يظل زخم (القوة الدافعة) نظام ما ثابت فى المقدار والاتجاه ما لم يؤثر فيه مؤثر خارجى.
- قانون بقاء المادة: المادة لا تفنى ولا تُستحدث.
- قانون بقاء الطاقة: تظل طاقة المنظومة ثابتة ما لم يؤثر فيها مؤثر خارجى.

وإذا نظرنا بعمق، نجد أن الفيزياء الكلاسيكية لا تتعارض مع النظرة الدينية، بل لا تتعارض مع حدوث المعجزات! ذلك أن القوانين الفيزيائية لا تحدد كيف يسلك الكون عندما يكون مغلقًا مكتف بذاته، وهو افتراض لا يمكن إثباته علميًا أو فلسفيًا.

الفيزياء الحديثة[١]:

من المفارقات المدهشة، أنه فى خضم الصراع من أجل فرض مفهوم الكون المغلق والحتمية الفيزيائية ظهرت فيزياء الكم، التى ظن البعض أنها ستؤكد هذين المفهومين، لكن جاءت الرياح على عكس ما تشتهى سفن الماديين.

ربما كان أهم مفاهيم فيزياء الكم التى تتعلق بقضيتنا هو مفهوم اللاحتمية[٢] Indeterminism or uncertainity الذى ينسف حتمية لابلاس. ففى الفيزياء الكلاسيكية إذا كان لدينا منظومة تتكون من مجموعة من الجسيمات، لكل منها موضعه وكتلته وسرعته عند الزمن «ن»، ففي اللحظة اللاحقة «ن + ١» سيتغير الموضع والكتلة والسرعة إلى قيم أخرى محددة يمكن التنبؤ

(١) فيزياء الكم Quantum Physics: تنظر الفيزياء التقليدية (الكلاسيكية) إلى المادة باعتبارها مكونة من أجسام يؤثر بعضها فى بعض طبقًا لقوانين نيوتن، كما تهتم بدراسة المجالات المغناطيسية والكهربائية من خلال معادلات ماكسويل، وتشمل كذلك الفيزياء الحرارية التى تخضع لقوانين الفيزياء الحرارية الثلاثة.

والسمة المشتركة بين مجالات الفيزياء الكلاسيكية المختلفة، هى امتثالها بشكل مطلق للقوانين الفيزيائية التى تحكمها، وهو ما يُعرف بـ«الحتمية المطلقة Complete Determinism».

أما فيزياء الكم فهى علم ظهر فى بداية القرن العشرين، ونجح فى تفسير العديد من الظواهر التى لم تستطع الفيزياء الكلاسيكية تفسيرها من قبل.

وتشتمل فيزياء الكم (الكوانتم) على مجموعة المبادئ التى تتعامل مع الأنظمة الفيزيائية الدقيقة: الجزيئات والذرات والبروتونات والنيوترونات والإلكترونات والكواركات وباقى الجسيمات تحت الذرية. وتدرس كذلك موجات أنواع الطاقة المختلفة.

(٢) مفهوم الارتياب (اللاحتمية) من المفاهيم الأساسية فى فيزياء الكم. ونضرب مثالين لتوضيح هذا المفهوم: إذا سقط مائة فوتون (وحدة جسيمات الضوء) على مرآة، فإن حوالى ٩٥٪ منها تنعكس تجاه أعيننا لنرى الصورة، بينما تنفذ ٥٪ منها خلال المرآة. لكن إذا سقط فوتون واحد على المرآة فلن نستطيع أن نجزم هل سينعكس هذا الفوتون أم سيرتد، لكن يمكننا القول إن هناك احتمالًا مقداره ٩٥٪ لأن يرتد واحتمالًا مقداره ٥٪ لأن ينفذ.

من المعروف كذلك أن ذرات العناصر المشعة كاليورانيوم تفقد نصف قدرتها على الإشعاع، وتتحول إلى عناصر خاملة فى فترة أطلق عليها الفيزيائيون «فترة نصف العمر». لكن أى نصف من الذرات هو الذى يتوقف عن الإشعاع، لا نعرف، أقصى ما نستطيع قوله، إن أمام كل ذرة فرصة مقدارها ٥٠٪ لأن تتوقف عن الإشعاع وتتحول لذرة خاملة (ذرة رصاص فى حالة اليورانيوم).

معنى ذلك أننا ندرس سلوك الجسيمات (وكذلك الموجات) بناءً على «احتمالات Probability». (وهذا ما يعرف بـ«مبدأ الارتياب أو اللاحتمية Uncertainty Principle» للفيزيائى النمساوى فيرنر هايزنبرج). وذلك فى مقابل الحتمية المطلقة التى تتعامل بها الفيزياء الكلاسيكية.

بها. أما فى الفيزياء الحديثة، وفى ضوء اللاحتمية لن يكون للجسيمات عند «ن» و «ن + ١» قيمًا محددة، بل سيكون هناك «احتمالية» (مجموعة لا نهائية من الاحتمالات لكل منها نسبته) لمختلف صفات كل جسيم.

لم تلغى الفيزياء الحديثة حتمية لابلاس وحسب، بل فتحت بمفهوم الاحتمالية الباب على مصراعيه للتدخلات الإلهية، **فالإله قادر على التدخل فى أى منظومة ليُرَجِّح أحد الاحتمالات على ما سواها، وبذلك يتغير المُخْرَج بشكل جذرى**[١].

يعارض أينشتين يعارض «مفهوم اللاحتمية» في فيزياء الكم، ويرى أن هناك قوانين دقيقة للغاية ـ لم ندركها بعد ـ تحكم سلوك الجسيمات تحت الذرية[٢]، وبذلك يردنا إلى ميكانيكية الفيزياء الكلاسيكية. لكن أينشتين يرفض حتمية لابلاس التى تعتمد على أن الكون مغلق، بل يرى للإله دورًا فى الكون، كما كان نيوتن يؤمن. ومن ثم، سواء بقيت فيزياء الكم على ما فيها من لاحتمية أو تبنت مفهوم الميكانيكية، فهى ميكانيكية نيوتن المؤمنة وليست ميكانيكية لابلاس الحتمية الملحدة.

موقف الملاحدة المعاصرين من الكون

بينما تعتبر الفلسفة وجود الكون من أهم قضاياها، وتطرح حوله أهم أسئلتها: لماذا وُجد الكون؟ لماذا ظهر الوجود بدلًا من أن يمتد العدم؟... نجد أن المفهوم الأساسى الذى ينطلق منه العلماء والفلاسفة الملاحدة هو **«أن الكون موجود وعلينا فقط دراسته! و إذا كان لأية سلسلة بداية فلنبدأ سلسلتنا بالانفجار الكونى الأعظم»**. ويساند بتراند رَسِل هذا الرأى بقوله: **«إن كوننا هو أحد الأشياء التى يمكن أن تحدث من وقت لآخر»!**

ويقدم بيتر أتكنز طرحًا ساذجًا آخر، يقول: **«إن الزمكان (الزمان والمكان) قد شَكَّل ذاته»**[٣] ويسخر كيث وورد[٤] من هذا الطرح ويبين أن هذا المفهوم يعارض نفسه، وأنه من المستحيلات المنطقية أن يمارس سبب ما تأثيرًا قبل أن يوجد، ومن ثم فإن أتكنز يدفعه لهذا التفسير ماديته وليس العلم. ويضيف كيث وورد: من المخزى أن يقوم العلم على أن هناك

(١) يؤيد هذا المفهوم من علماء فيزياء الكم Willian Pollard (عام ١٩٥٨) و The Ghirardi- Rimini - Weber (GRW Approach)

(٢) ينطبق نفس المفهوم على منظومات الشواش التى يعتبرها الكثيرون منظومات عشوائية، لكن الحقيقة أنها تتبع قوانين دقيقة للغاية تفوق قدرتنا على إدركها.

(٣) يُسمى بيتر أتكنز هذا الطرح «رباط الحذاء الكونى Cosmic Bootstrap، يشير بذلك إلى مَن يجذب رباط الحذاء لأعلى من أجل أن يرفع نفسه لأعلى!

(٤) Keith Ward: أستاذ كرسى الفلسفة واللاهوت بجامعة أكسفورد. ولد عام ١٩٣٨.

سببًا لكل شيء إلا أهم الأشياء، وهو وجود هذه الأشياء كلها، وجود الكون ذاته، إن نهم الإنسان الذى لا يشبع للمعرفة لن يدع هذا السؤال يمر دون بحث.

دور قوانين الفيزياء

يطرح بعض الملاحدة تفسيرًا ثالثًا لوجود الكون، وهو أن قوانين الفيزياء هى التى شكلت الكون. ويؤيد الفيزيائى الكبير بول ديفيز (وأنا أيضًا) هذا الطرح «بشرط» نسبته إلى الإله كسبب أول، فيقول: «إنى لا أرتاح لفكرة أن سمكرى سماوى أنشأ الكون، بل إن القول بأن بضعة قوانين رياضية استطاعت بدقة هائلة إيجاد الكون لهو أكثر إعجازًا وأكثر دلالة على وجود الإله.

ويقول ستيفن هوكنج فى كتابة تاريخ موجز للزمن[1] مستكملًا هذا الطرح: إن التوصل إلى معادلات تفسر وجود الكون Mathematical Model لا يفسر كيف أنشأت هذه المعادلات الكون ولا لماذا وُجد. حتى لو توصل العلماء إلى النظرية الجامعة لكل شيء[2]، فعلينا أن نفكر كيف وُجدت. وهل تحتاج لإله.

ومن أجل أن نضع أيدينا على دور قوانين الطبيعة الحقيقى فى نشأة الكون، نطرح هذين المثالين:

تستطيع قوانين نيوتن للحركة أن تصف مسار كرة البلياردو، لكن عصا البلياردو التى يدفعها اللاعب هى التى تحرك الكرة. إن القوانين تحتاج إلى موجود تؤثر فيه قوة، فى مكان وزمان ما، وبدون هذه العناصر الأربعة (المادة ـ الطاقة ـ المكان ـ الزمان) لا تستطيع القوانين أن تعمل، بل لن تكون هناك قوانين.

تأمل كذلك أبسط القوانين الرياضية؛ ١ + ١ = ٢. هل هذا القانون قادر على إيجاد أى شيء؟ هل يضيف إلى رصيدى فى البنك؟! أما إذا وضعتُ ألف جنيه فى البنك، وبعد أسبوع وضعت ألفًا أخرى، فهذا القانون يحدد أن رصيدى صار ألفين من الجنيهات، أما بدون ما قمتُ به سيظل رصيدى بالرغم من وجود القانون صفرًا.

من ثم، فإن ادعاء أن قوانين الطبيعة قد أوجدت الكون هو «خَبَل»، أما أن أصف ذلك بأنه علم فـ«احتيال رخيص». إن النظريات والقوانين تصف مسار الأمور بدقة، لكنها لا تُخرج شيئًا للوجود.

---

(١) كان ذلك قبل أن يتبنى هوكنج الإلحاد، وستظل هذه التساؤلات مطروحة سواء كان مؤمنًا أو ملحدًا.

(٢) النظرية الجامعة «Toe» Theory of Everything: نظرية يحلم بها الفيزيائيون، يجمعون فى قوانينها القوانين الحاكمة لقوى الطبيعة الأربع، ويظنون أنها ستفسر نشأة الكون.

بعد أن طرحنا موقف الملاحدة من الكون، يأتي دور موقف المؤمنين، وسنعرضه تحت ثلاثة مفاهيم رئيسية:

- البرهان الكونى Cosmic Argument
- برهان الضبط الدقيق Fine - Tunning Argument
- المبدأ البشرى Anthropic Principle

البرهان الكونى Cosmic Argument

«تدل نشأة الكون من عدم على وجود الإله الخالق»

تتصدى نظرية الانفجار الأعظم للإجابة عن التساؤلات حول «**الحادثة الأولى first event**» فى نشأة الكون، لكنها لا تتعامل مع «**السبب الأول first cause**»، ولا شك أن هناك فرق. **لذلك بعد أن عجز علماء الكون عن طرح أى تفسير مادى معقول لحدوث الانفجار الكونى الأعظم**، استحضر العديد من الفلاسفة والعلماء المعاصرين ما يُعرف بـ«**برهان الإيجاد أو برهان الخلق**» من علم الكلام، وأطلقوا عليه «**البرهان الكونى**»، الذى أصبح من أكثر البراهين (العلمية/ المنطقية) **دلالة على وجود إله خـالق للكون**. ويتكون هذا البرهان من **مقدمتين واستنتاج**:

(أ) كل موجود له بداية، لا بد له من مصدر سابق عليه (موجِد).

(ب) الكون له بداية.

إذًا: الكون له مصدر سابق عليه (موجِد).

وإذا كان هذا البرهان على وجود الإله الخالق قد بدأ **كبرهان فلسفى عند علماء الكلام المسلمين، فإن العلم الحديث قد أضاف إليه من الأدلة العلمية (أثبت أن للكون بداية) ما قفز به إلى مصاف الحقائق العلمية التى تخضع للتمحيص العلمى.**

المعارضون للبرهان الكونى

بالرغم من سلاسة ووجاهة البرهان الكونى، واعتماده على أرضية صلبة من الفلسفة والعلم، فما زال هناك من يحاول التهرب من القول بالإله الخالق للكون. ومن الأمثلة

الصارخة لذلك، الموقف المحزن لعالِم الفيزياء الكبير سير جون مادوكس[1] رئيس تحرير مجلة Nature. إن مادوكس يرفض أن يكون للكون بداية! لابأس، لكن ما دليله العلمى؟ إنه يرفض (كما يقول). لأن القول بوجود بداية للكون يُعطى حُجية لرأى المتدينين!!

ونظرًا لسلامة الاستنتاج فى البرهان الكونى، رَكَّزَ المعارضون الملحدون على مقدمتى البرهان (أ و ب)، وطرحوا عددًا من الاعتراضات عليهما، ويمكن إجمال هذه الاعتراضات ودحض العلم والفلسفة لها فى ست نقاط:

أولًا: كوننا قديم لا بداية له (أزلى)

كان هذا الاعتراض فى الماضى أقوى الحجج ضد البرهان الكونى، حتى أثبت العلم (وأقر الملاحدة) أن لكوننا بداية.

ثانيًا: كوننا له بداية من «مصدر أزلى» لذلك لا يحتاج إلى موجد

للخروج من المأزق السابق، لجأ المنكرون لقيام الإله بخلق الكون إلى طرح فرضيات تدور حول أن لكوننا بداية من مصدر أزلى، لذلك فإنه لا يحتاج إلى موجد أول.

وأهم هذه الفرضيات، فرضية «الكون المتذبذب Oscillating universe» التى تشبه نظرية «الانفجار الأعظم Big bang»، لكنها ترى أن الكون نشأ من «انفجار عظيم» أعقبه «انسحاق عظيم» أعاد الكون إلى حالة الـمُفرَدة، ثم أعقب ذلك انفجار عظيم آخر، ثم انسحاق عظيم، وهكذا إلى ما لا نهاية فى القدم، أى أن هذا التذبذب أزلى (قديم بلا بداية)[2]. وهـذا الافـتراض مرفـوض فى معظـم الأوسـاط العلـمية[3]. بـل إن العـالمين الروسـيين[4] اللذين قدما هذه

(١) Sir Hohn Madox: (١٩٢٥ - ٢٠٠٩م)، تخصص فى الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا، بدأ يكتب كمحرر علمى لمجلة Nature فى سن الثانية والعشرين، وأصبح رئيسًا لتحريرها لمدة عشرين عامًا.

(٢) هناك ثلاثة أسباب رئيسية لرفض العلماء لهذه النظرية:

١- أثبتت الفيزياء أن كوننا هذا بدأ بالانفجار الأعظم، وسيعقبه انسحاق عظيم، ولكن ليس هناك دليل علمى واحد على أن الانسحاق سيعقبه انفجار.

٢- لا يوجد دليل علمى واحد على أن كوننا هذا قد سبقه كون منسحق، ومن ثَمَّ لا يزيد الأمر عن كونه افتراضًا بدون دليل.

٣- فى نموذج الكون المتذبذب، تشير قوانين الديناميكا الحرارية إلى أن زمن حدوث كل دورة سابقة كانت أقصر من التالية لها، حتى نصل إلى دورة زمانها صفر، وستكون هذه هى بداية دورات التذبذب، أى أنه لا يمكن أن يكون التذبذب أزليًا.

(٣) تشبه هذه الفرضية عقيدة الهندوس بأن الكون يمر بدورات أزلية، فهل تم نقل هذه الفرضية عنهم؟!

(٤) العالمان هما Isaac Khalatnikov و Evgenii Lifshitz

الفرضية عام ١٩٦٣، قد رجعا عنها بعد سبع سنوات من طرحها لعدم استطاعتهما تقديم الدليل عليها، ومع ذلك ما زال المجادلون يستشهدون بها!

ويشبه مفهومَ الكون المتذبذب مفهومٌ آخر، يرى أن الـمُفردة التى بدأ بها الانفجار الكونى الأعظم يمكن أن تكون أزلية. ومن ثَمَّ يكون للانفجار الأعظم بداية، لكنه لا يحتاج إلى مُوجد باعتبار أن المفردة أزلية. إن هذا الافتراض يفتقر إلى الدليل العلمى على أزلية المفردة.

وكفرضية ثالثة، يطرح البعض أن هناك كونًا هائلًا «أزليًا» أنتج العديد من الأكوان، منها كوننا الحالى، أى أنهم ينسبون الأزلية إلى «كون أُم». ولا شك أن الملاحدة يعجزون عن إثبات أزلية الكون الأُم، كما عجزوا عن إثبات أزلية كوننا الحالى والكون المتذبذب والمفردة.

ويؤكد عالِم الكونيات البارز بيبلز P.J.E. Peebles [١] أن أطروحات المصدر الأزلى مجرد افتراضات وليست نظريات علمية تقف وراءها حقائق أو معلومات أو حتى ملاحظات مقبولة، إنها أقرب إلى الخيال العلمى منها إلى العلم.

ثالثًا: ليس ضروريًا ان يكون لكل موجود حادث مصدر سابق عليه!!

بعد أن عجز الملحدون عن التوصل إلى أصل مادى لكوننا، لم يعد أمامهم إلَّا القول بأن الكون يمكن أن ينشأ من لا شىء دون سبب!! حتى لقد أصبح هذا القول العجيب أكثر الاعتراضات التى يطرحها الماديون فى العصر الحديث!

وتُعتبر «فرضية تذبذب الفراغ الكمومى Quantum Vacuum Fluctuations» أشهر الافتراضات التى طرحها الفيزيائيون الملحدون فى هذا المجال. وترى هذه التخمينات أن الجسيمات تحت الذرية يمكن أن تنشأ وتختفى تلقائيًا فى الفراغ (أطلقوا عليه اسم «الفراغ الكمومى Quantum Vacuum» نسبة إلى نظرية الكم ـ الكوانتم). وبالمثل فإن كوننا يمكن أن ينشأ تلقائيًا كذلك فى الفراغ Vacuum

ويرفض عالم الفيزياء الكبير «بول ديفيز [٢]» هذه الافتراضات تمامًا، إذ إن تَشَكُّل الجسيمات فى الفراغ الكمومى لا يمثل خلقًا للمادة من لا شىء، لكنه يحدث نتيجة لتحوُّل طاقة موجودة فى هذا الفراغ إلى مادة، أى أن الفراغ ليس عدمًا مطلقًا، فما مصدر هذه الطاقة؟! وما مصدر

(١) جاء ذلك فى «مجلة العلوم الأمريكية Scientific American»، عدد فبراير، ٢٠٠٥.
(٢) سبق التعريف به فى الفصل الثالث.

القوانين التى تحكمها؟!. ويعتبر العلماء طاقة الفراغ طاقة غير متشكلة، إذ لا يمكن رصدها، وقَدَّروا أن ما يوجد منها فى فراغ حجمه ١سم٣ (حجم عقلة الأصبع الصغير) يساوى الطاقة الناتجة من تحول مادة الكون كله إلى طاقة!!

وقد وصل الأمر ببعض الفيزيائيين الماديين(١) إلى ادعاء أن جسيمات تحت ذرية يمكن أن تنشأ - ثم تفنى - من العدم المطلق الخالى من طاقة الفراغ!. وإذا أثبت العلم فيما بعد إمكانية ذلك، فسيظل السؤال المطروح هو: **كيف اكتسب العدم المطلق هذه الخاصية العجيبة؟ ألا يتعارض ذلك مع قانون بقاء المادة (المادة لا تفنى ولا تُستحدث)؟!**

كذلك طرح ستيفن هوكنج فى كتابه **الأشهر «تاريخ موجز للزمان» نموذجًا لكيفية نشأة الكون من العدم دون الحاجة إلى موجد**(٢). ولا شك أن ستيفن هوكنج هو رجل العصر لعبقريته ولأسباب أخرى، لكن ذلك لم يمنع نجاح الفيزيائيين النابهين الآخرين فى تفنيد نموذجه، إن اعتراضهم لم يكن على نظرته الرياضية، ولكن على **التضارب المنطقى داخل هذا النموذج.**

ويدحض الرافضون هذا الهراء **(أن ينشأ شىء من لا شىء دون سبب)** لأربعة أسباب:

١ - لم يقدم مُدَّعو هذه التخمينات أى دليل علمى على صحتها.

---

(١) من هؤلاء ليونارد ميلودنو Leonard Milodinow، الفيزيائى بجامعة كلتيك بالولايات المتحدة، والمشارك مع ستيفن هوكنج فى تأليف كتابه الأخير The Grand Design

(٢) يُعرف بنموذج هارتل - هوكنج، أو النموذج الكمومى للكون. ويعتمد هذا النموذج على مفهوم يطرحه هوكنج لأول مرة، وهو مفهوم «الزمن التخيلى Imaginary Time»، وهو تطبيق لمفهوم الرقم التخيلى.

فإذا بحثنا عن الجذر التربيعى لرقم مثل (-٤) فلن نجد رقمًا حقيقيًا (إذ إن -٢×-٢ = +٤). لذلك قام هوكنج بوضع رمز (X) ليشير إلى هذا الرقم الذى لا وجود له، ووضع X فى معادلاته الخاصة بحساب الزمن، فنتج زمن تخيلى، عندما استخدمه هوكنج فى حساباته أزال الحاجة إلى موجد أول.

يخبرنا سير هيربرت دِنجل Sir Herbert Dingle رئيس الجمعية الفلكية الملكية بإنجلترا، أن مفهوم الأرقام التخيلية إذا كان صحيحًا من الناحية الرياضية، **فلا اعتبار له من الناحية التطبيقية**، ويستدل على ذلك بمثال يعرفه كل التلاميذ الدارسين للرياضيات:

إذا كان عدد الرجال المطلوبين لوظيفة ما هو (X)، وكانت X فى بعض المعادلات لها عدد من الاحتمالات: موجبة، سالبة، عددًا صحيحًا، كسرًا، عددًا تخيليًا،عددًا مركبًا، صفرًا، لا نهاية، أو أى شكل آخر من الأشكال التى ولَّدتها عقول الرياضيين، فإننا بالتأكيد سنعتبر X (عدد الموظفين المطلوبين) رقمًا صحيحًا موجبًا، ونرفض باقى الاحتمالات. إن الرياضيات لا تستطيع وحدها الاختيار بين البدائل فى المثال السابق، وسنعتمد على المنطق، والخبرة، والتجربة.

ومن ثَمَّ، فإن الزمن التخيلى الذى نشأ عن وضع الأرقام التخيلية فى معدلات هوكنج لا اعتبار له، وسينقلب إلى زمن حقيقى إذا استُبدل الرقم التخيلى برقم حقيقى، عندما ستظهر الحاجة إلى «المسبب الأول».

٢- إن العدم المطلق «اللا شيء» الذى يدعى هؤلاء أن الكون قد صدر عنه لا يملك «موارد» ولا «دافعًا» لإنتاج شيء ما، ولو افترضنا حدوث ذلك فلن يكون العدم عدمًا مطلقًا.

٣- مشكلة الملاحدة الكبرى، هى تصورهم أن القول «بإله خالق» يتعارض مع «المنهج العلمى»، ولكن ألا يتعارض خروج شيء من لا شيء دون سبب مع المنهج العلمى؟! إن ذلك يدمر العلم الذى يقوم على البحث عن العلاقة بين الحَدَث والمسبِب. بل إن القول بأن هذا الشيء قد حدث وفقط، يقضى على التفكير والتحليل المنطقى.

٤- هناك إدراك عند البشر (عبر التاريخ وعبر الجغرافيا) ببداهة فكرة «أن كل حدث له سبب»، وهو ما يُسمى بقانون «العلاقة بين الحَدَث والمسبِب law of Cause and effect». لذلك فإن القول بوجود كون حادث (له بداية) دون مُحدِث ودون مصدر سابق عليه سيكون خبرة البشرية الأولى والوحيدة فى هذا الشأن !!

رابعًا: إذا كان لكل موجود حادث مصدر

إذن ينبغى أن يكون للموجد الأول (أو الإله) مصدر.

إن الملاحدة بهذا الاعتراض ينسفون أسس التفكير المنطقى! فنحن نقول: إن لكل موجود حادث (أى له بداية) مصدر، بينما الإله ليس حادثًا. إن الإله هو السبب الأول الذى يحتم المنطق وجوده ويعتبره واجب الوجود دون موجد. لذلك ينبغى على الملاحدة أن يُفَرِّقوا بين «الحدث الأول» وهو نشأة الكون بالانفجار الأعظم وبين «السبب الأول» وهو الإله الموجد.

بل إن بعض الملاحدة يقرون أنهم إذا سَلَّموا - جدلًا - بوجود السبب الأول، فإنهم يوافقون المتدينين على أنه ينبغى أن يكون سرمديًا (لا أول له، ولا آخر له)، وألَّا يكون له مُوجد.

خامسًا: إذا كان لا بد من مُوجد أول، هل ينبغى أن يكون إلهًا؟! الا يمكن أن يكون الطبيعة؟!

نجيب عن هذا التساؤل بأن نستعرض الصفات التى ينبغى أن تتوافر فى الموجد الأول، فكحدٍ أدنى ينبغى بداهة أن يكون الموجد الأول:

١ - واجب الوجود The Necessary Being: إذ إن تصور عدم وجوده وهو الموجد الأول يستتبعه ألا يكون لنا وللكون وجودا!

٢- وجوده لا يحتاج لسبب Uncaused: فلا يمكن أن نتدرج فى وجود مصدر للموجودات إلى مـا لا نهاية[١]. كذلك لا يمكن لخالق قانون السببية أن يخضع له.

٣- أزليًّا Eternal: إذا كان الزمان قد خُلق مع الانفجار الأعظم، فذلك يتطلب أن يكون الموجد الأول الذى خلق الزمان سابقًا للزمان (أزليًّا = لا بداية له).

٤- غير مادى، ولا يحده مكان: خُلِقَت المادة والمكان (مع خلق الزمان) عند حدوث الانفجار الأعظم، ومن ثَمَّ لا يمكن أن يكون السبب الأول الخالق للمادة والمكان مُحْتَوىً فيهما.

٥- مطلق القدرة Omnipotent: إذا كان الموجد الأول قادرًا على الخلق من عدم، فلا شك أنه قادرٌ على فعل كل شىء.

٦- مطلق المعرفة Omniscint: احتاجت نشأة الكون كما تحتاج إدارته إلى تنسيق هائل بين الموجودات، لذلك لا بد أن يكون الخالق للوجود وما فيه على معرفة تامة بموجوداته، وبما يحدث فيه.

٧- قادرًا على اتخاذ القرارات Decision Maker: إذا كان الملاحدة يقولون إن بداية خلق الكون كانت عملية تلقائية لظروف جَدَّت، فعليهم أن يفسروا لنا كيف تَجِدُّ ظروف فى العدم المطلق، ولِـمَ جَدَّت الظروف منذ ١٣,٧ مليار سنة فقط بعد أن تُرِكَ العدمُ أزليًّا (يعرف هذا الاستدلال ببرهان فترة الترك). إن وجود كون له بداية، نشأ منذ فترة معينة، بعد أن كان هناك عدم مطلق أزلى، يقتضى وجود «عامل مُرَجِّح» يتخذ قرار قطع فترة الترك، ويُخرج الكون إلى الوجود فى هذا التوقيت.

هذا هو الحد الأدنى من الصفات التى ينبغى أن تتوافر فى السبب الأول موجد الكون، ألا ترى أن هذه الصفات لا تتوافر إلَّا فى الإله الخالق، الحكيم، القادر، القديم الأزلى. وأنها لا تتوافر فى الطبيعة التى هى محصلة الزمان والمكان والطاقة والمادة، وكلها أمور حادثة احتاجت إلى موجد.

حسنًا، لماذا يكون إلـهًا واحدًا وليس عدة آلهة؟ هكذا يعلق بعض الملاحدة.

ربما كان هذا التساؤل مقبولًا قبل أن يثبت العلم الحديث وحدة بنية الكون من الذرة إلى المجرة، وأن الوجود كله تحكمه قوى الطبيعة الأربع، وتحركه قوانين واحدة. كذلك فإن

(١) يطلق علماء الكلام على هذا المعنى اصطلاح (التسلسل يمتنع).

القاعدة المنطقية[1] تقول إنه إذا كان يمكن تفسير الأمر بشكل أبسط، فلا ينبغى أن نلجأ إلى التفسير الأعقد. فلِمَ نرفض القول بإله واحد ونلجأ إلى القول بآلهة متعددة ينشأ عنها عبث وتداخل يدركه المؤمنون بالإله الواحد؟!

سادسًا: إله سد الثغرات God Of The Gaps

يرى الملحدون أن القول بوجود الإله الخالق للكون، كنتيجة لمقدمتى البرهان الكونى، هو استغلال خطأ لعدم استطاعة العلماء (حتى الآن) الإجابة عن بعض التساؤلات. ويدعم الملحدون وجهة نظرهم بأن العلم تتكشف أمامه يومًا بعد يوم تفسيرات لأمور كان الناس يعتبرونها من المهام الإلهية، مثلما اُكتشفت الجراثيم كمسببات للأمراض الـمُعدِية. ومن ثَمَّ لا ينبغى كلما ظهرت ثغرة لا يفسرها العلم أن نهرول إلى سدها ومِلْئها بالقول بالقدرة الإلهية.

ولدفع هذا الادعاء، ننبه مرة أخرى إلى أننا لا نتحدث عن «آلية» أو «حدث أول» يمكن أن يتوصل العلم لتفسيرهما، لكننا نتحدث عن «السبب الأول» وراء كل الآليات وكل الأحداث. كذلك فلنراجع الأعمدة الرئيسية التى يقوم عليها البرهان الكونى، لنرى إن كان يمكن للعلم أن يجد لها تفسيرًا ماديًّا فى المستقبل، أم إنها حقائق نهائية مطلقة. هل يمكن أن يكتشف العلم فى المستقبل:

١- أن الكون لا بداية له، وأنه موجود منذ الأزل؟! ... لا

٢- أن الكون الذى له بداية يمكن أن ينشأ ذاتيًّا من عدم مطلق؟! ... لا

٣- أن السبب الأول لوجود الكون يمكن أن يكون سببًا ماديًّا لا موجد له؟! ... لا

معنى ذلك أن القول بإله خالق ليس مجرد «سد ثغرات»، أو حل مؤقت لعجزنا عن تفسير بعض الأمور، أى ليس مبنيًّا على نقص فى المعرفة العلمية (جهل)، ولكنه رفض عن علم[2]. وقد سبق أن بينا فى الفصل الثالث أن القول بالإله ليس لتفسير ما لم يفسره العلم بعد لكن لتفسير ما فسره العلم.

سبحان الله؛ فى القرن السادس عشر وقف رجال فى وجه العلم لأنهم خشوا أن يتعارض مع وجود الإله، والآن تُرفَض النظريات العلمية الراسخة خشية أن تزيد من حجية وجود الإله!

---

(١) تعرف هذه القاعدة بشفرة (موسى) أوكام Occam's Razor.

(٢) لنبين معنى الرفض عن علم نضرب مثالًا فنقول: إذا توصلنا بعد دراسة شاملة لبنية الجسم البشرى ووظائفه إلى أن الإنسان لا يستطيع الطيران إلا إذا استخدم آلة تُعينه على ذلك، هل يمكن أن يأتى مُعترض ليقول لنا: لا.. ربما يكتشف العلم بعد فترة إمكانية أن يطير الإنسان دون الاستعانة بآلة. هل رفضنا لهذا القول راجع إلى نقص المعرفة العلمية (جهل) أم إنه رفض عن علم؟.

برهان الضبط الدقيق

The Fine Tunning Argument

«تدل دقة بنية الكون وقوانينه على وجود الإله الخالق»

عندما صحح كوبرنيكوس مسار علوم الفلك وأثبت أن الأرض ليست ثابتة وأنها ليست مركز الكون، وصف منظومته الجديدة قائلًا: «إن الأرض كوكب تقليدى، يدور حول نجم تقليدى، يقع فى إحدى ذراعى مجرة تقليدية». إن اصطلاح «تقليدى» الذى كرره كوبرنيكوس يعنى أن بنية الكون والقوى التى تحكمه وسمات كوكب الأرض أمور «بسيطة»!، فهل أصاب كوبرنيكوس الحقيقة؟

كون مستقر منضبط قابل للفهم وللتوقع

أستشهدُ كثيرًا بقول لأينشتين أثير لَدَىَّ، ولا ينبغى أن تغيب دلالاته عنا:

«إن أكثر الأمور استعصاء على الفهم فى الكون، أنه قابل للفهم Conprehensible»، ويعلق أينشتين على هذه «القابلية» قائلًا: «قد تندهش أنى أعتبر قابلية الكون للفهم بمثابة المعجزة Miracle الغامضة أبدًا. ذلك أن كونًا فوضويًا لا يمكن إدراك أحداثه أو مساره هو النتيجة البديهية التى ينبغى أن تتبع الانفجار الكونى الأعظم. فالنظام والقابلية للفهم والتوقع الذى تظهره نظرية الجاذبية لنيوتن - مثلًا - شىء مبهر تمامًا، ولا يمكن توقعه من سيناريو بداية نشأة الكون، إنها معجزة تتأكد لنا يومًا بعد يوم مع تقدم العلم والمعرفة».

ويضيف بول ديفيز إلى هذا المفهوم قائلًا: «**إن الأكثر إعجازًا أن قابلية الكون للفهم تخضع بدقة شديدة لعلاقات رياضية**». ولا شك أن البعض سيقولون إن قوانين الطبيعة منضبطة رياضيًا لأننا ببساطة لا نعتبر مفهومًا ما قانونًا طبيعيًا إلا إذا كان منضبطًا رياضيًا. ولهؤلاء نقول: يدفع أن الكثير من هذه القوانين والنظريات (كالنظرية النسبية) تم التوصل إليه بالحسابات الرياضية الدقيقة حجتكم قبل ملاحظتها فى عالم الواقع، ثم اكتشفنا أن الواقع يتطابق مع حساباتنا، إذًا فالعلماء لم يختاروا ما هو منضبط فى الواقع ليجعلوا منه قانونًا أو نظرية.

ويتأمل الفيزيائى العظيم سير روجر بنروز[1] مصدر العلاقة بين الفيزياء والرياضيات قائلًا: «لا أستطيع أن أقتنع أن هذه النظريات الرائعة نشأت نتيجة لعملية انتقاء طبيعى تلقائى Natural Selection للأفكار الأنسب من بين عديد من الأفكار، ذلك أن الأفكار الأنسب هى أنسب جدًّا! The Good Ideas are Too good بحيث لا يمكن نسبتها إلى التلقائية، ولا بد أن يكون هناك عقل شديد الذكاء يربط بين الرياضيات والفيزياء، ويُمَكِّنُنا من أن نفهم عالم الفيزياء رياضيًّا، حتى صار انضباط الكون من بديهيات العلم الأولية التى لا يُبحث لها عن تفسير، إنه نوع من الإيمان يمارسه العلماء».

ويؤكد نفس المعنى الفيزيائى الكبير الحائز على جائزة نوبل يوجين وينجر[2] قائلاً: «إن اتباع العالِمِ الفيزيائى للرياضيات بدقة أمر مدهش، يُعجز عن التفسير، ولا ينبغى إطلاقًا نسبته إلى الصدفة، وعلينا أن نتقبله كقضية إيمانية دينية.

ويقول آلان ساندِاج[3]، أبو الفلك الحديث؛ «أرى أنه غير محتمل بالمرة أن يكون نظام الكون نشأ تلقائيًّا من الفوضى، لا بد من منظم. وإذا كان الإله بالنسبة لى غامضًا فإنه التفسير الوحيد لَدَىَّ لهذا النظام، وأيضًا للإجابة عن سؤال لماذا انقطع العدم وبزغ الوجود.

ومن ثم، لقد تعارضت علوم الفضاء الحديثة كثيرًا مع وصف كوبرنيكوس لكل ما فى الكون بأنه «تقليدى بسيط» . لقد أثبتت هذه العلوم أن نشأة الكون وبقاءه على الصورة التى عليها، ثم ظهور الحياة فيه، قد احتاج إلى عمليات ضبط عديدة هائلة الدقة تحتاج إلى تفسير. وإليك بعض الأمثلة لهذا الضبط غير التقليدى:

البنية المستقرة للكون

فى كتاب «ستة أرقام فقط Just Six Numbers»، يحدد «البارون مارتن ريز[4] » (عالم الكونيات البريطانى الكبير) ستة ثوابت عددية مرتبطة بعدة صفات فيزيائية كونية، مسئولة عن نشأة وحفظ الكون ثم نشأة الحياة واستمراريتها فيه. ويوضح ريز أن أدنى تَغَيُّر فى هذه القيم يجعل

(١) Sir Roger Penrose: أستاذ الفيزياء الرياضية البريطانى بجامعة أكسفورد، ولد عام ١٩٣١ .

(٢) Eugene Winger: (١٩٠٢ - ١٩٩٥م) عالم الفيزياء والرياضيات المجرى الأمريكى.

(٣) Allan Sandage: (١٩٢٦ - ٢٠١٠م) عالم الفلك الأمريكى، مكتشف النجوم النابضة Quasars، والحائز على جائزة Crafoord Prize فى الفلك، المقابلة لجائزة نوبل.

(٤) Martin Rees: عالم الفيزياء الفلكية البريطانى الشهير، ولد عام ١٩٤٢ .

من المستحيل وجود الكون بصفاته الحالية[١]. وقد أكد مارتن ريز أن قيم هذه الثوابت الستة لا يتوقف بعضها على بعض. ومن ثَمَّ لا يمكن الادعاء بأن وجود أحد هذه الثوابت بالصدفة قد أدى تلقائيًا إلى وجود الثوابت الأخرى بقيمها المناسبة.

بالإضافة إلى الثوابت الستة التى طرحها ريز فى كتابه، طرح باحثون آخرون عشرات الثوابت الفيزيائية الأخرى التى لولاها ما كانت نشأة الكون والحياة أمرًا ممكنًا[٢].

(١) الثوابت العددية الستة التى يحددها البارون مارتن ريز هى:

أولًا: يُعتبر تمدد الكون عقب الانفجار الأعظم (وحتى الآن) المحرك الرئيسى لمراحل نشأته، إذ أدى ذلك إلى تَبَرُّد الكون وما تبعه من أحداث. ويتمدد الكون بمعدل يتم ضبطه بدقة متناهية (يُعرف بالحد الحرج) منذ عشرة بلايين عام، ولو بطأ التمدد عن هذا الحد بنسبة ١×١٠$^{-١٧}$ لتهدم الكون على نفسه، ولو زاد بنسبة ١×١٠$^{-١٠}$ لتبعثرت محتوياته وما تشكلت المجرات والنجوم.

فى هذا المعنى يقول ستيفن هوكنج: إن نقص معدل تمدد الكون بمقدار ١٠$^{-١٢}$ فى الوقت المبكر جدًّا عندما كانت درجة حرارته ١٠^{١٠} كلفن كان يؤدى إلى كون يبدأ فى الانكماش عندما يبلغ قطره ١/ ٣٠٠٠ القطر الحالى، وعندها تكون الحرارة ١٠,٠٠٠ كلفن. أى أن الكون يبدأ فى الانكماش قبل الوصول إلى الحرارة المناسبة لنشأة الحياة.

ثانيًا: نشأت المجرات نتيجة لزيادة كثافة مادة الكون فى بعض المناطق عن باقى أماكن الكون الوليد بمقدار ١: ١٠٠,٠٠٠، مما وَفَّر المادة المطلوبة لتكوين المجرات فى هذه المناطق. ولو قَلَّت هذه النسبة عن هذا المقدار، لظل الكون على حالته الغازية، ولو زادت لصارت مادة الكون أكثر كثافة، ولَتَحَوَّلت إلى ثقوب سوداء تبتلع مادة الكون كلها.

ثالثًا: إذا كان مقدار قوة الجاذبية التى تربط بين أجرام الكون أكبر من قدرها الحالى، لانهدم الكون على نفسه قبل أن تنشأ الحياة، وإن كان أضعف مما هى عليه الآن، لَما تكونت المجرات والنجوم. وإذا افترضنا أن طاقة الكون قد زادت بمقدار ضئيل للغاية، يبلغ ١×١٠$^{-٣١}$، فإن قوة الجاذبية ستزداد بمقدار بليون مرة، لكن قوة الجاذبية تم ضبطها بدقة أعلى من ذلك بكثير، دقة تبلغ ١: ١٠$^{-٤٠}$!!

رابعًا: مقدار الطاقة المتاحة للربط بين مكونات نواة ذرات الهيليوم داخل النجوم (القوة النووية القوية): إن مصدر الطاقة التى تصدرها النجوم (كالشمس) هو الاندماج النووى بين ذرات الهيدروجين. ويتم استغلال ٠,٧٪ من هذه الطاقة للربط بين مكونات نواة ذرة الهيليوم الناتجة عن هذا الاندماج. وإذا كان المتاح من كتلة ذرات الهيدروجين لإنتاج هذه الطاقة هو ٠,٦٪ أو أقل، لَـمَا أمكن للشمس أن تشع حرارتها وضوءها. وإذا بلغت النسبة ٠,٨٪ أو أكثر، لنفد الهيدروجين الموجود فى الكون والذى هو مصدر طاقته. باختصار، إذا كانت النسبة ٠,٠٠٦ بدلًا من ٠,٠٠٧ لن يتكون الهيليوم ولن يوجد فى الكون سوى الهيدروجين، ولو أصبحت ٠,٠٠٨ لن يوجد أى هيدروجين.

خامسًا: تبلغ «الروابط الكهربائية Electrical Bonds» (الرابطة الأيونية والرابطة التساهمية) التى تمسك الذرات ببعضها لتكوين الجزيئات مقدارًا أكبر كثيرًا من قوى الجاذبية بينها Gravitational force. إن أى خلل فى النسبة بين القوتين، يقلل بشكل كبير من عمر الكون، ويُقلص حجم أكبر الكائنات الحية إلى حجم الحشرات، أو يجعلها تتضخم وتنتفخ إلى حد الانفجار.

سادسًا: إن بنية الكون الفراغية ثلاثية الأبعاد، هى الملائمة لنشأة الحياة، إذ إن كونًا ثنائى الأبعاد أو رباعى الأبعاد ما كان يسمح بأن تنشأ الحياة فيه.

(٢) من هذه الثوابت: أولًا: فى اللحظات الأولى عقب الانفجار الكونى الأعظم، تَحَوَّل جزء من طاقة الكون الوليد إلى جسيمات المادة (الكواركات والإلكترونات) ومضادات هذه الجسيمات، وقد أدى التقاء جسيمات المادة مع مضاداتها=

الضبط الدقيق تمهيدًا لنشأة الحياة[1]

إذا نظرنا إلى حجية برهـان الضبط الدقيق وعلاقته بنشأة الحياة، وجدنا أنه ذو مستويين:

أ) الضبط الدقيق ذو الجانبين: فلننظر - مثلًا - إلى قوة الجاذبية الأرضية «X» كأحد الثوابت المهمة لنشأة الحياة. لو كان مقدار «X» يمكن أن يتراوح بين (٥ - ١٠٠)، بينما

= إلى فناء كليهما. وقد كانت جسيمات المادة تزيد على مضاداتها بمقدار جزء إلى بليون جزء، هذه الزيادة الضئيلة فى الكواركات والإلكترونات هى التى وفرت مقدارًا من المادة ملائمًا تمامًا لنشأة الكون.

ثانيًا: إذا كان مقدار شحنة الإلكترونات (التى تدور حول نويات الذرات) مغايرًا لما هى عليه الآن، لَما حدثت الاندماجات النووية بين ذرات الهيدروجين فى النجوم (ومنها الشمس)، ولَما انبعثت الطاقة من هذه النجوم.

ثالثًا: تبلغ كتلة البروتون ١٨٣٦ ضعف كتلة الإلكترون، ولو تغيرت هذه النسبة لَما نشأت ذرات وجزيئات المادة.

رابعًا: حدد «جون بارو John Barrow» أستاذ الرياضيات فى جامعة كمبريدج خمسة وعشرين ثابتًا أساسيًّا، تعتمد عليها بنية الكون (كسرعة الضوء - وثابت بلانك - والصفر الحرارى الـمُطْلَق...)، وأوضح أن أى خلل فى قيمة أحد هذه الثوابت ما كان ليسمح باستقرار الكون أو نشأة الحياة.

(١) إذا انتقلنا إلى حاجة نشأة الحياة للضبط الدقيق فى الكون، فبالإضافة للأمثلة السابقة نطرح نموذجين يعبران عن الدقة المطلوبة: لقد كان تَكَوُّن عنصر الكربون لا غنى عنه لنشأة الحياة. فالكربون يتميز بليونة الروابط بين ذراته، مما يسمح بالاتحاد مع ذرات الأوكسجين والهيدروجين والنيتروجين والفوسفور والكبريت لتكوين مركبات المادة العضوية الحية كالبروتينات والأحماض النووية. وإذا قارنَّا الكربون بأقرب العناصر إليه، وهو السيليكون، وجدنا أن الأخير لا يستطيع تكوين أى مركبات عضوية، وذلك لشدة الروابط بين ذراته.

ويتشكل عنصر الكربون بطريقتين؛ اتحاد ثلاث ذرات من عنصر الهيليوم، واتحاد ذرة هيليوم مع ذرة من عنصر البريليوم (الهيدروجين الثقيل) Beryllium. وقد توصل عالم الفلك والرياضيات الشهير سير فريد هويل إلى أن ذلك يتطلب وجود توازن بين مستويات الطاقة فى كل من المنظومتين، وإذا اختل هذا التوازن بمقدار ١٪ (بالزيادة أو النقصان) لَمَا توافر الكربون المطلوب لنشأة الحياة.

والنموذج الثانى يقدمه الفيزيائى النظرى الشهير بول ديفيز. فقد لاحظ ديفيز أن النسبة بين القوة الكهرومغناطيسية التى تحفظ إلكترونات الذرات حول نوياتها وبين قوة الجاذبية التى تجذب الذرات والجزيئات والأجرام بعضها لبعض نسبة حرجة. فلو زادت هذه النسبة بمعدل ١× ١٠^-٤٠ ستكون فقط النجوم الصغيرة، أما إذا قلت بنفس المعدل فستكون فقط النجوم الكبيرة. إن كلا الحجمين من النجوم كان أساسيًّا لنشأة الحياة، فالنجوم الكبيرة أنتجت فى أفرانها الذرية هائلة الحرارة عناصر المادة الثقيلة الضرورية لتكوين جزيئات المادة الحية، أما النجوم الصغيرة فهى القادرة على دعم الحياة فى الكواكب المحيطة بها. لكن هل معدل ١× ١٠^-٤٠ صغير إلى حد كبير؟!.
أعطيك مثالًا لتوضيح ذلك: إنها نفس فرصة أن يستطيع رامٍ يقف فى أحد أطراف الكون أن يصيب عملة معدنية تقع على الطرف المقابل؛ أى على بُعد عشرين بليون سنة ضوئية! مثال آخر يطرحه الفلكى روس Hugh Ross: إذا غطينا القارة الأمريكية بالعملات المعدنية لارتفاع يصل إلى القمر (تل ارتفاعه ٣٨٠,٠٠٠ كم) وكررنا نفس الشىء فى بليون قارة مماثلة، ثم طلينا أحد العملات بلون مغاير، فإن فرصة أن يلتقط رجل مغمض العينين هذه العملة بالصدفة هى ١× ١٠^-٤٠ !!

يشغل المقدار المطلوب لنشأة الحياة مدىً ضيقًا (٣٠ - ٣٥)، ثم نجد أن مقدار «X» الواقعى هو (٣٢)، فذلك يعنى أن هناك ضبطًا دقيقًا فى جانبين:

- مقدار «X» المناسب لنشأة الحياة (٣٠-٣٥) يقع داخل المدى المسموح للجاذبية الأرضية (٥ - ١٠٠).

- مقدار الجاذبية الواقعى (٣٢) يقع داخل المدى المسموح لنشأة الحياة (٥ - ١٠٠).

لذلك أطلقنا على هذا المثال الضبط الدقيق ذو الجانبين.

ب) **الضبط الدقيق أحادى الجانب**: إذا كان مقدار «X» المطلوب لنشأة الحياة هو (٣٢)، وكان الحد الأدنى لنشأة الحياة هو (٣٠)، بينما لم نعرف الحد الأقصى كما لم نعرف المدى المسموح للجاذبية الأرضية، فذلك ضبط أحادى الجانب.

ويعتبر الفيزيائيون الرياضيون أن الضبط أحادى الجانب دليل قوى على حجية برهان الضبط الدقيق، فما أدراك بالضبط ذى الجانبين، وهو واقع الحال فى الثوابت الفيزيائية.

وقد درس روبن كولنز[١] تأثير ثبات قيم هذه الثوابت الكونية مجتمعة على إمكانية نشأة الحياة فى الكون بالصدفة، فوجدوا هذه الإمكانية تبلغ ١×١٠^-١٢٣ وهو رقم بالغ الضآلة لا يمكن تصوره!! بل يستحيل أيضًا كتابته!؛ فلو وضعنا على كل جسيم فى الكون صفرًا فسنتوقف عند ١٠^٨٠ صفر فقط، وهو عدد الجسيمات فى الكون.

ويعلق سير فريد هويل على مفهوم الضبط الدقيق قائلًا: «لا شىء هز إلحادى مثل إدراكى أن ليس هناك قوى عمياء فى الطبيعة كما يظن الماديون، بل إن هناك ذكاءً علويًا يمتزج بكل من الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا».

إن ما طرحناه حول «مفهوم الضبط الدقيق» يقوم على حقائق علمية مقبولة بين معظم علماء الفيزياء والفلك، حتى وإن اختلف بعضهم فى أهم الاستنتاجات المنبثقة منه والتى تشير إلى وجود الإله.

هل ما زال هناك شك فى أن الكون قد تم ضبطه بحكمة وذكاء مطلقين حتى ينشأ ويستمر، وحتى يكون ملائمًا لنشأة الحياة؟!

---

(١) Robin Collins: أستاذ الفلسفة الأمريكى، ذكر ذلك فى أشهر كتبه Evidence for fine tunning

المبدأ البشرى Anthropic principle

«لقد تم بناء الكون على هيئة تجعله

ملائمًا تمامًا لنشأة الحياة وظهور الإنسان»

يؤكد الفيزيائيون المؤمنون أن ما فى بنية الكون من توافق مذهل مع متطلبات نشأة الحياة ثم احتياجات الإنسان دليل على «الغائية Teleology»، التى تعنى أن الإله الخالق قد صمم الكون على هذه الهيئة ليكون مناسبًا لنشأة الحياة بصفة عامة، وظهور الإنسان بصفة خاصة. ويُعرف هذا المفهوم بـ «المبدأ البشرى Anthropic Principle [1]».

وقد عَبَّر العلماء المؤمنون عن المبدأ البشرى بصياغات دالة، فقالوا: «كيف يستطيع كون خالٍ من الغائية أن يخلق إنسانًا تحركه الغائية والأهداف[2]».

وقالوا: «يبدو أن الكون قد تم تفصيله على مقاس الإنسان Tailor – made for man [3]». وقالوا: «يبدو أن الكون كان يعلم أننا قادمون[4]».

وكلما ازدادت معارفنا عن نشأة الكون وبنيته، تَكَشَّف لنا بشكل أكبر مدى مواءمة هذه النشأة والبنية ومواءمة قوانين الكون الفيزيائية لبزوغ الحياة وظهور الإنسان. حتى يمكننا القول إنه إذا لم يكن الإنسان فى المركز المادى للكون، فإنه بلا شك فى المركز الغائى منه[5].

كوكبنا المتميز

إذا كان الكون تم إعداده لنشأة الحياة وظهور الإنسان، فمن باب أولى أن «كوكب الأرض» تم إعداده أيضًا بشكل خاص ليكون محلًا لظاهرة الحياة ومأوى للإنسان. وإذا كان

(١) أول من استخدم هذا الاصطلاح هو «براندون كارتر Brandon Carter»، عالم الفيزياء البريطانى فى جامعة كمبردج ـ عام ١٩٧٣.

(٢) سير جون تيمبلتون Sir John Templeton (١٩١٢-٢٠٠٨م)، البليونير الإنجليزى، من كبار رجال المال والأعمال، أنشأ مؤسسة وجائزة تيمبلتون (تزيد على قيمة جائزة نوبل) لتشجيع الأبحاث التى تهتم بالجوانب الروحية للإنسان. كما أسس كلية تيمبلتون فى جامعة أكسفورد.

(٣) جاء ذلك فى كتاب «مادة الكون The stuff of the universe». تأليف عالِمَى الفيزياء الكبيرين جون جريبن John Gribbin، ومارتن ريز Martin Rees.

(٤) عالم الفيزياء فريمان ديسون Freeman Dyson .

(٥) عن كتاب The New story of science، تأليف «روبرت آجروس Robert Augros»، و«جورج ستانكيم George Stancium».

من العلماء من يساوى بين الأرض وبين ملايين وربما مليارات الكواكب فى الكون، ومن ثم يتنبأ بإمكانية وجود حياة عاقلة فى العديد منها، فالكثيرون منهم يرون أن كوكب الأرض شديد التميز والتفرد، سواء فى صفاته، أو فى جيرانه من الكواكب، أو تابعيته لنجم الشمس المتميز، أو فى وقوعه فى موقع متميز فى مجرة متميزة[١]. ويرى هؤلاء أن الأرض كوكب لا يكاد يوجد له مثيل فى الكون، فكان جديرًا بأن يتفرد بظاهرة الحياة[٢]، وحول هذا المعنى اقرأ معى هذه المقولات لبعض فطاحل علوم الكونيات:

«هناك كوكب واحد فى الكون يمكن أن يحتوى على الحياة الذكية، لعلكم تعرفون هذا الكوكب!» جون أوكيف[٣]، الأب الروحى لأبحاث الفضاء.

«إنه كوكب فريد، الكوكب الوحيد فى هذه المجرة، وربما فى الكون كله، الذى تعمره الحياة» بيتر ورد، ودونالد براونلى[٤]، الأستاذان بجامعة واشنطن – سياتل.

«ليس هناك موزارت آخر ولا بيتهوفن آخر» دون جونسون[٥]، مدير مركز دراسات أصل الإنسان بجامعة أريزونا.

ويتجدد كل فترة فى الساحة العلمية السؤال حول احتمال وجود الحياة فى أماكن أخرى من الكون، وللإجابة عن هذا السؤال طرح عالم الفضاء «فرانك دراك Frank Drake» معادلته Drake Equation (عام ١٩٦١، وعُدلت عام ٢٠٠٠) لحساب عدد الحضارات التى يمكن أن تنشأ فى مجرتنا وتتواصل معنا. توصل دراك إلى أن هذا الاحتمال يكاد يكون معدومًا. وإذا حدث هذا الاحتمال شبه المستحيل، هل يؤيد هذا المفاهيم الإلحادية؟! أيعجز الإله عن خلق وإدارة ومتابعة الحياة على بضعة كواكب؟!

---

(١) فى هذا المعنى راجع كتاب «الكوكب المتميز The Privileged Planet» صدر عام ٢٠٠٤. والكتاب تأليف أستاذ علوم الكون «جليرمو جونزاليز Guillermo Gonzalez» بجامعة Iowa state University، وأستاذ الفلسفة «جاى ويسلى ريتشارد Jay Wesley Richard» نائب رئيس مؤسسة Discovery المهتمة بمفهوم التصميم الذكى.

(٢) سير فريد هويل Sir Fred Hoyle

(٣) John A. O' Keefe، اشتهر بدراساته حول إمكانية نشأة الحياة فى أماكن أخرى من الكون. نشر نتائج أبحاثه فى كتاب God and the Astronomers

(٤) أستاذ الجيولوجيا Peter Ward، وأستاذ الكونيات Donald Brownlee، نشرا آراءهما فى كتابهما Rare Earth

(٥) Don Johanson مكتشف أشهر حفرية من حفريات أشباه الإنسان؛ لوسى Lucy

المعارضون للمبدأ البشرى

يرى المعارضون لوجود الإله الخالق أن مجرد وجودنا فى الكون دليل بديهى على أن بنيته مناسبة لنشأة الحياة ونشأتنا، وإلا لَمَا نشأنا، ومن ثَمَّ لا يعتبرون ملاءمة الكون لنشأتنا دليلًا على أى أمر غيبى. لذلك يرفض هؤلاء فكرة أن الكون قد تم تفصيله على مقاس الإنسان، ويرون بدلًا من ذلك أن قوانين الطبيعة قد فَصَّلت الإنسان ليتناسب مع بنية الكون[1].

كذلك يقع دوكنز عند حديثه عن المبدأ البشرى فى كتاب وهم الإله فى نفس الخطأ الذى يكرره دائمًا، وهو ادعاء أن توافر الظروف كاف لحدوث الظاهرة. إن ادعاء دوكنز ادعاء خطأ، فالمبدأ البشرى يقابله قولنا أنْ من أجل أن تكون الأول على طلبة كلية الطب بجامعة عين شمس ينبغى أن تلتحق بالكلية، لكن كيف تصبح الأول؟ فهذا أمر آخر.

ويجيب على هؤلاء الفيلسوف المؤمن «جون ليسلى[2]» بأن الإله يستخدم قوانين الطبيعة فى تشكيل الكون على الهيئة التى يريدها. ويفند ليسلى رأى القائلين «بما أننا موجودون إذًا الكون ملائم» بمثال صار مشهورًا: تصور إنسانًا حُكِم عليه بالإعدام رميًا بالرصاص، وقدْ تراص عشرة جنود ماهرين أمامه فى طابور لإطلاق النار، وأطلق كل منهم طلقته، لكنهم لم يصيبوه. هل يكفى أن نقول: من الطبيعى إنهم لم يصيبوه بدليل أنه لم يمت، أم لا بد أن نبحث عن أسباب فشل هؤلاء الجنود المهرة فى إصابة الرجل؟. إن الإقرار بوجود ظاهرة ما لا يلغى الاحتياج إلى تفسيرها.

كذلك فات المعارضين للمبدأ البشرى أمران:

الأول، أن العالم ليس مجهزًا لخروج الحياة وحسب، ولكن لخروج كائنات حية ذكية منطقية، ترصد وتفهم هذه المواءمة.

والأمر الثانى، هو غزارة ما فى الكون من توافق يفوق احتياجات الكائنات الحية ويحقق لها الرفاهية والاستمتاع، وخاصة الإنسان ذا الاحتياجات النفسية المتميزة، ذلك بالرغم من أن قدرًا أقل بكثير من هذا التوافق كان كافيًا لنشأة هذه الكائنات.

---

(١) طرح جون بارو هذا المفهوم فى كتابه «الكون البديع The Artful universe»، صدر عام ١٩٩٥.

(٢) John Leslie: أستاذ فلسفة العلوم فى كندا، من المؤمنين بمفهوم المبدأ البشرى. أشهر كتبه «العقل المطلق Infinite mind»، صدر عام ٢٠٠١.

بعد إدراك هذين الجانبين من التوافق، أصبح أنصار «المبدأ البشرى» يطلقون عليه «المبدأ البشرى القوى Strong Anthropic Principle»، وذلك مقابل اصطلاح «المبدأ البشرى الضعيف» الذى يشير فقط إلى مفهوم (إننا موجودون، إذن الكون ملائم).

إما الإله وإما الأكوان المتعددة:

يخبرنا جون ليسلى: إن ملاءمة الكون لنشأة الحياة وظهور الإنسان تضعنا أمام أحد احتمالين:

الأول: وجود الإله، الذى أعد الكون ليكون مهيأً لنشأة الحياة والإنسان.

الثانى: فرضية الأكوان المتعددة Multiverse، التى يطرحها ديفيد دوتش[1].وتعنى احتمالية وجود عدد لا نهائي من الأكوان، تسود فى كل منها ظروف فيزيائية مختلفة تصلح لقيام كون مختلف، ومن ثم يكون عندنا عدد من الأكوان بعدد كل الظروف الفيزيائية المحتملة، وبالتالى لن تكون هناك صعوبة فى تصور وجود كون ككوننا تتوافر فيه ظروف نشأة الحياة والإنسان[2]!

دحض فرضية الأكوان المتعددة

يدفع عالم فيزياء الكوانتم جون بولكنجهورن[3] فرضية الأكوان المتعددة باعتبارها من الخيال العلمى وليست من الفيزياء، إذ من المستحيل التأكد علميًّا من وجودها. كذلك يعترض الفيلسوف ريتشارد سوينبرن[4] بأن افتراض وجود تريليونات التريليونات من الأكوان بدلاً من القول بإله واحد خالق لهذا الانتظام فى كوننا هو أقصى درجات اللامنطقية. وهذا عالِم الفلك إدوارد هاريسون[5] يقول: عليك أن تختار؛ الصدفة العمياء التى تتطلب وجود مليارات الأكوان أو التصميم الذى يتطلب إلهًا واحدًا. كذلك يعترض آرنو بنزياس (الحائز على جائزة

(١) David Deutsch: الفيزيائى البريطانى، ولد عام ١٩٥٣. طرح هذه الفرضية فى كتابه The Fabric Of Reality

(٢) يرى أصحاب هذه الفرضية أن الأكوان المتعددة قد تكون متزامنة نشأت من كون أم، وقد تكون متعاقبة (مفردة ← انفجار أعظم ← انسحاق أعظم ← مفردة ← انفجار أعظم... وهكذا).

(٣) John Polkinghorne: عالم الفيزياء الرياضية البريطانى، ولد عام ١٩٣٠.

(٤) Richard Swinburn: أستاذ فلسفة الأديان البريطانى بجامعة أكسفورد، ولد عام ١٩٣٤.

(٥) Edward Harrison: (١٩١٩ - ٢٠٠٧م)، أستاذ الفلك البريطانى.

نوبل فى الفلك) بشدة قائلًا: من أجل أن يتهرب البعض من القول بكون مخلوق بحكمة، يخرجون علينا بطرح أبعد احتمالية ولا يمكن تمحيصه.

ويمكن تلخيص الاعتراضات السابقة بأن فرضية الأكوان المتعددة تعارض مبدأ شفرة (موسى) أوكام Occam's Razer Principle الذى يسعى عند اختيار النظريات إلى التفسير الأبسط. إذ إن فرضية وجود ما لا نهاية له من الأكوان دون تفسير لهو الطرح الأصعب مقارنة بالقول بإله واحد صمم الكون.

ويجارى جون ليسلى هؤلاء المخبولين القائلين بالأكوان المتعددة إلى آخر المشوار، فيقول: فى حالة ثبوت هذه الفرضية فما زلنا فى حاجة لتفسير كيفية وجود هذه الأكوان ولماذا ناسبت ظروف إحداها متطلبات نشأة الحياة. وسيظل وجود الإله مطلوبًا للقيام بالمهمتين. إن كل ما فعله هؤلاء المخبولون أنهم قد حركوا الاحتياج إلى الإله خطوة إلى الأمام.

وتوضيحًا للأمر نقول، إن طرح البعض لفرضية الأكوان المتعددة بعد أن أعجزهم تفسير ملاءمة كوننا لنشأة الحياة وظهور الإنسان، يشبه موقف التلميذ الذى لم يتم الواجب المدرسى، فأخفى كراسته، وتحجج لمدرسه بأن كلبًا قد اعترضه فى الطريق ومزق الكراسة، وعندما كَذَّبَه المدرس، قال التلميذ، بل هى مجموعة من الكلاب!!. لم يصدق المدرس حجة الكلب الواحد لفشل التلميذ فى تقديم الدليل عليها فتحجج بعدد من الكلاب!!

ميكانيكا الكم والأكوان المتعددة

يقدم علماء الفيزياء الحديثة طرحهم لفرضية الأكوان المتعددة تحت اسم: «تفسير ميكانيكا الكم للعوالم المتعددة[1]» الذى يرى «أن أى كون مُحتَمل الوجود منطقيًا لا بد أن يُوجَد». ويتماشى الفيلسوف الأمريكى الكبير ألفن بلانتنجا مع هذا التفسير ويقول: إن كونًا واحدًا به إله واحد من المحتملات المنطقية، إذًا فمثل هذا الكون ـ تبعًا لطرح ميكانيكا الكم ـ موجود. ومن ثم، ففرضية الأكوان المتعددة (كما أوضح بلانتنجا) تنسف نفسها وتصل بنا إلى كون واحد!. كذلك فإن الفرضية مليئة بالصعوبات المنطقية والعلمية، بل والأخلاقية، فتصور كونًا أكون فيه قاتلًا، وفى آخر زانيًا، وفى ثالث مرتشيًا، وفى رابع قديسًا، وفى خامس زاهدًا.... وكلها احتمالات منطقية.... أليس ذلك بعائق منطقى أخلاقى.

(١) The many worlds Interpretation of Quantum Physics

نشأة الكون فى القرآن الكريم[1]

تَنَـزَّل القرآن الكريم فى الوقت الذى ساد فيه الاعتقاد الخطأ بأن الكون الذى نحيا فيه قديم أزلى وسيبقى إلى الأبد، وأنه كون لا نهائى لا تحده حدود. كون ساكن ثابت فى مكانه لا يتغير. وتعتبر هذه المفاهيم أن الكون نشأ من العناصر الأربعة: التراب والماء والهواء والنار، وأن السماء تدور بنجومها الثابتة كقطعة واحدة حول الأرض، وغير ذلك من الخرافات والأساطير.

فى ظل هذه المفاهيم جاء القرآن الكريم، مؤكدًا أن الكون مخلوق وله بداية، وستكون له فى يوم من الأيام نهاية. ومؤكدًا أن جميع أجرام السماء فى حركة دائبة وجَرْيٍ مستمر، وأن السماء[2] ذاتها فى توسع دائب إلى أجل مسمى. كما أن السماوات والأرض كانتا فى الأصل جُرمًا واحدًا ففتقهما الله ﷻ، فتحولت مادة هذا الجرم الأول إلى الدخان الذى خُلقت منه الأرض والسماء.

كذلك يخبرنا القرآن الكريم أن هذا الكون سوف يُطوَى ليعود كهيئته الأولى جُرمًا واحدًا مُفرَدًا، ثم ينفتق هذا الجرم مرة أخرى إلى غُلالة من الدخان تُخلق منها أرض غير أرضنا الحالية، وسماوات غير السماوات التى تظلنا فى حياتنا الدنيا، وهنا تتوقف رحلة الحياة الأولى وتبدأ رحلة الآخرة.

وقد لخص ربنا (تبارك وتعالى) عملية خلق السماوات والأرض وإفنائها وإعادة خلقهما فى صياغة كلية شاملة منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة، وذلك فى ست آيات[3] من آى القرآن الكريم على النحو التالى:

١ – ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الذاريات].

تشير الآية إلى تمدد الكون منذ اللحظة الأولى لخلقه، وإلى أن يشاء الله.

٢ – ﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ ... ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء].

تشير الآية إلى:

- ابتداء خلق الكون من جرم أولىّ واحد (مرحلة الرتق[4] الأول).
- فتق هذا الجرم الأولىّ أى انفجاره (مرحلة الفتق[5] الأول).

(١) بتلخيص وتصرف عن موسوعة «تفسير الآيات الكونية فى القرآن الكريم»، للدكتور زغلول النجار.
(٢) لفظ «سما» فى اللغة العربية يعنى «ارتفع»، لذلك فالسماء هى كل ما نراه يعلو كوكب الأرض، والسماء الزرقاء فى الحقيقة ليست إلا انعكاسات الضوء فى الغلاف الجوى للأرض، أى أنها وجود مُدرَك وليست كرة مادية تحيط بالأرض كما كان الأقدمون يتصورون. لذلك يستخدم القرآن الكريم لفظ السماء للإشارة إلى الكون.
(٣) ذكر د. زغلول النجار خمس آيات ، أما آيات سورة يس ٣٧ – ٤٠ فقد أضافها مؤلف هذا الكتاب.
(٤) الرتق فى اللغة عكس الفتق؛ لأن الرتق هو الضم والالتحام والالتئام سواء كان ذلك طبيعيًا أو صناعيًا، يقال رتقت الشيء فارتتق أى فالتأم والتحم. ووصف السماوات والأرض بأنهما كانتا رتقًا عند بداية خلق كوننا يشير إلى أن هذه المرحلة أعقبت فتقًا سابق أى كونًا سابقًا.
(٥) الفتق: هو الفصل والشق والانشطار.

٣- ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [فصلت]. تشير الآية إلى:

- تحوُّل الجرم الأوليّ عند فتقه إلى الدخان (مرحلة الدخان).
- خلق الكون والأرض (للتخصيص) من الدخان الكونى (مرحلة الإتيان بكل من الأرض والسماء).

٤- ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس].

تشير الآيات إلى بعض سمات كوكب الأرض ونجم الشمس الذى نتبعه وجُرم القمر الذى يتبعنا، فى الفترة بين نشأة الكون وانهياره، ومن هذه السمات:

- الأرض كوكب كروى.
- الشمس نجم متحرك وليست مركزًا ثابتًا للكون.
- يخضع القمر لقوانين الطبيعة، وعلى الإنسان أن يقرأ حركاته ويستفيد منها.
- لكل من الشمس والقمر فلك مستقل يتحرك فيه.
- الأجرام السماوية مسخرة لخدمة الإنسان.

٥ - ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنبياء]. تشير الآية إلى:

- حتمية عودة الكون بكل ما فيه إلى جرم ابتدائى واحد مشابه للجرم الأوليّ الذى ابتدأ منه الخلق (مرحلة الرتق الثانى أو طى السماء أو الانسحاق الشديد للكون).
- حتمية فتق هذا الجرم الثانى أى انفجاره (مرحلة الفتق للجرم الثانى).
- حتمية تحول الجرم الثانى بعد فتقه إلى غلالة من الدخان الكونى.

٦ - ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم]. تشير الآية إلى:

- إعادة خلق أرض غير أرضنا الحالية وسماوات غير السماوات التى تظللنا اليوم، وبداية رحلة الآخرة[1].

(١) قد يحدث ذلك عقب انسحاق كوننا الحالى، أو عقب دورات من الانسحاق والانفجار، لكن فى النهاية ستبدأ رحلة الآخرة.

هذه الحقائق الكونية الكبرى فى خلق السماوات والأرض، لم يستطع الإنسان الوصول إلى إدراك شيء منها إلا فى منتصف القرن العشرين أو بعد ذلك، حين تبلورت «نظرية الانفجار الأعظم»، وهى النظرية الأكثر قبولًا عند علماء الفلك وعلماء الفيزياء الفلكية والنظرية فى تفسير نشأة الكون.

والقرآن الكريم هنا يعطى الصورة الكلية الجامعة لهذا الحدث الكونى العظيم، ويترك التفاصيل لجهود علماء الفلك والفيزياء النظرية والمفكرين الذين يتفكرون فى خلق السموات والأرض، والذين تجمعت ملاحظاتهم العلمية الدقيقة لتؤكد فى منتصف القرن العشرين صدق ما أنزله الله (تعالى) فى آخر كتبه، وعلى خاتم أنبيائه ورسله (عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى التسليم) من قبل ألف وأربعمائة من السنين. هذا السبق القرآنى الذى تتوافق معه تمامًا نظرية الانفجار الكونى الأعظم.

وسبحان ربى العلى الأعلى الوهاب.

القارئ الكريم...

استطاع العلماء فى القرن العشرين حل المعضلة التى حيرت الفلاسفة طوال آلاف السنين، عندما توصلوا بأدلة قاطعة إلى أن للكون بداية انطلقت من العدم المطلق (البرهان الكونى): كما كُشِفَت للعلماء الدقة الهائلة التى أُدير بها سيناريو نشأة الكون (برهان الضبط الدقيق).

لقد أدرك المنصفون أن ما أنشأ الكون لم يكن انفجارًا أعظم! فالانفجار حدث غير منضبط بالمرة تسوده الفوضى، أما ما حدث فشيء مغاير تمامًا يستحق أن نطلق عليه «**التخطيط الأعظم**»! الذى لا يقدر عليه إلا إله حكيم قادر.

كذلك تميز سيناريو نشأة الكون بتوفير الظروف الدقيقة الموائمة لنشأة الحياة وتطور الكائنات الحية وصولًا إلى الإنسان (المبدأ البشرى)، حتى ساد القول بأن الكون قد تم تفصيله على مقاس الإنسان.

وقد حاول الماديون تقديم الآليات والتفسيرات العشوائية التى تسمح بنشأة الكون من العدم على هذه الهيئة، تهربًا من إرجاعها إلى الإله الخالق، فخرجت أطروحاتهم ملأى باللامعقولية واللاعلمية، والكثير منها أقرب للخيال العلمى. ويكفينا لإثبات ذلك، أن نذكر مثالًا للدقة التى ينبغى أن تنتهجها العشوائية حتى تسمح بنشأة الحياة؛ فذلك يشبه أن تصوب من أحد أطراف الكون سهمًا إلى عملة معدنية تقع فى الطرف الآخر (على بُعد عشرين بليون سنة ضوئية) فتصيبها! إن وثقت فى قدرتك على فعل ذلك فلتثق فى قدرة العشوائية على إنشاء الكون الصالح لنشأة الحياة!

أما مطابقة قصة خلق السموات والأرض وتسخيرها للإنسان، كما جاءت فى القرآن الكريم، ومطابقتها للحقائق التى توصلت إليها علوم الفضاء وضَمَّنَتْها نظرية الانفجار الكونى الأعظم، فذات دلالتين: الأولى، أنها تؤكد ما أثبته العلم من أن الله ﷻ هو الخالق لهذا الكون، والثانية أن القرآن الكريم إنما هو تنزيل إلهى من الله العزيز الحكيم.

وسبحان القائل: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) ﴾ [فصلت].

صدق الله العظيم...

* * *

الفصل الخامس

الحيـــاة

بين الإله والإلحاد

- ماهية الحياة
  - الحياة عند الماديين
  - أكذوبة الخلية البدائية
  - بنية الكائن الحى
  - الإعجاز من خلال الأرقام
- السمات الوجودية للحياة
  - أولًا: الحياة = المعلومات
  - خامسًا: للكائنات الحية هدف متأصل فى بنيتها
  - ثانيًا: الحياة منظومة ذكية
  - سادسًا: ذاتية التحكم
  - ثالثًا: الحياة ونظام التشفير ومعالجة المعلومات
  - سابعًا: العمل كوحدة واحدة
  - رابعًا: القدرة على التشكيل
  - ثامنًا: القدرة على التكاثر
- نشأة الخلية الحية
  - مع نظريات نشأة الخلية الحية
  - معضلة البيضة والدجاجة.. أيها أولًا؟!
  - مع نشأة البروتينات
  - المحصلة
- أكذوبة الحتمية الجينية
  - البيولوجيا الجديدة
  - غشاء الخلية هو مخ الخلية
  - آلية التحكم فى الجينات
  - الإصرار على الخطأ
  - الجينات هى كبد الخلية وغددها التناسلية
- سر أسرار بيولوجيا الحياة: المكون المعرفى
  - وصفة صناعة الحساء
  - من أين جاءت المعلومات
  - قراءة فى الخلية المجمعة
    - المكون المعرفى والصفات المنبثقة
    - سبحان الخلاق العظيم
  - الشفرة الوراثية
    - مصدر المعلومات
    - المعلومات هى عدم الانتظام فى التكرار
- القارئ الكريم
  - الحياة والروح

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ... ﴿١٩﴾ ﴾
[الروم]

«مثلما كان الوجود ضيفًا جديدًا على العدم،
فإن الحياة ضيفٌ جديدٌ تمامًا على الوجود».

أنطونيو لازكانو [١]

تحمل ظاهرة الحياة من عناصر الإبهار والدهشة أكثر مما تحمل بنية الذرات والجزيئات والقوانين الفيزيائية، بل والكون بأسره[٢]. ويدور الخلاف فى النظر إلى ظاهرة الحياة بين من يتبنون القول بالألوهية ومن يتبنون الإلحاد حول أربع قضايا هى:

أولًا: تعقيد ظاهرة الحياة.

ثانيًا: كيفية نشأة الحياة.

ثالثًا: مصدر المعلومات المطلوبة لتشكيل الخلية ولكتابة الشفرة الوراثية (المكون المعرفى).

رابعًا: هل تفرض علينا جيناتنا سلوكًا محددًا؟ (الحتمية الجينية).

فالملاحدة يرون أن الحياة ظاهرة مادية، نشأت بمحض الصدفة، كما تراكمت المعلومات الضرورية لها بالصدفة، ويصرون على أن البشر عبيد لجيناتهم التى توجه حياتهم فى مسار محدد.

أما المؤمنون، فيرون استحالة أن تدب الحياة فى المادة غير الحية دون تدخل إلهى، كما أن غزارة المعلومات المطلوبة ودقتها وأسلوب تدوينها يحتاج إلى خالق ذكى، ويعتبرون أن الحياة ظاهرة غير مادية يحتاج استمرارها لتدخل إلهى بشكل مستمر، ، ويرى المؤمنون أن الإنسان يتمتع بحرية الإرادة وأننا سادة مصائرنا.

قارئى الكريم... تعال نتأمل هذه القضايا الأربع من منظور العلم، لنرى مع أى الجانبين يقف.

---

(١) Antonio Lazcano: رئيس الجمعية الدولية لدراسة أصل الحياة. ولد فى المكسيك عام ١٩٥٠.

(٢) هذا من وجهة نظرنا كبشر يستشعر تعقيد ظاهرة الحياة ويرى أن الكائن الحى يشتمل على سر الحياة بالإضافة إلى كل المنظومات الفيزيائية العاملة فى الكون (قوى الطبيعة الأربع وقوانين الطبيعة). لكن القرآن الكريم يخبرنا أن بنية الكون أعقد من بنية الإنسان ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ ﴾ [النازعات] ربما لأن الكون وقوانينه قد نشأ من العدم بينما نشأت الخلية الحية والإنسان من مادة الكون. وعلى كلٍّ، فليس هناك شىء أشد على الله من شىء آخر، لكن الخطاب موجه لتصوراتنا البشرية التى اعتادت على أن تقارن بين الأشياء.

ماهية الحياة

مثل كل المفاهيم الأساسية الأولية، لا يمكن وضع تعريف محدد للحياة، بل نتعرفها من خلال مظاهرها وسماتها. لذلك تتم دراسة الحياة على مستويين؛ الأول هو «المستوى البيولوجى **Biological**»، وهو مستوى سطحى نتعرف فيه بنية الخلية الحية والتركيب الكيميائى لها، كما نتعرف وظائف الكائن الحى، وكذلك نظريات نشأة الحياة. ويشبه ذلك وصفنا للوحة فنية بأنها عبارة عن ألوان زيتية وُضعت على قطعة من القماش ويحيط بها إطار مُذَهَّب، أو كما نُعَرِّف الصورة فى شاشة التليفزيون بأنها تتكون من Pixels [1].

أما المستوى الثانى لوصف الحياة فهو «المستوى الوجودى **Ontological**»، وهو يقابل المعانى والمشاعر التى تحملها لوحة الفنان أو الصورة فى التليفزيون، وهذا المستوى يختلف تمامًا عن المستوى البيولوجى، فهو يدرس السمات الأعمق لنشاط الخلية الحية والتى تختلف عن وظائفها البيولوجية المعتادة، كالذكاء والشفرة الوراثية والغائية، وهى السمات الأقرب لحقيقة الحياة.

وعندما نسأل المتخصصين عن أصل الحياة، يسارع معظمهم بالحديث عن المواد الكيميائية والظروف الفيزيائية التى سبقت ظهور الكائنات الحية ويطرحون النظريات لتفسير نشأتها (المستوى البيولوجى)، لكنهم لا يتعرضون لأصل الحياة بالمعنى الوجودى، وهو كيف اكتسبت جزيئات المادة غير الحية السمات الوجودية المميِّزة للخلية الحية.

الحياة عند الماديين

من أجل وضع تعريف لـ «ماهية الحياة»، عُقدت مئات المؤتمرات والندوات، منها الندوة الموسعة Symposium التى عُقدت فى جامعة «برانديز Brandeis» بالولايات المتحدة عام ١٩٩٣، وخرج المتحاورون فيها بتعريف بيولوجى طويل للغاية، لم يخرج عن عرض المظاهر البيولوجية للكائنات الحية [2]!

---

(١) البِكْسِل: أصغر عنصر منفرد يمكن تمثيله والتحكم فى خصائصه من مكونات الصورة على الشاشات الرقمية.

(٢) تعريف الحياة: الحياة هى مجموعة من العمليات الكهروكيميائية، التى تقوم بها الكائنات الحية (البسيطة والمعقدة) التى تتكون من خلايا. وتتكون الخلايا من جزيئات من ذرات متناسقة من الكربون والهيدروجين والأوكسجين والنيتروجين مع بعض العناصر الأخرى. وتقوم الخلايا بالتمثيل الغذائى (ميتابوليزم Metabolism) الذى تستهلك فيه الغذاء للحصول على الطاقة ثم إخراج النفايات. وقد يكون الغذاء والنفايات فى صورة صلبة أو سائلة أو غازية. ويستعمل الكائن الطاقة التى ينتجها فى النمو (إلى قدر محدد) وفى إصلاح ما يتعرض له من إصابات، كما يستخدمها فى الحركة. ويقوم الكائن الحى بالتكاثر مُنتجًا كائنات مشابهة له (مع اختلافات بسيطة). ويعيش الكائن الحى فى بيئته معتمدًا على نفسه دون الاحتياج إلى الكائنات الأخرى إلّا بقدر ضئيل. والكائن الحى قادر على تغيير بيئته إلى ما=

. ومن الأسباب الرئيسية لصعوبة فهم الحياة أن الفكر المادى عندما قام بدراسة هذه الظاهرة استخدم «المنهج الاختزالى Reductionism»، الذى يقوم بتحليل أية ظاهرة أو قضية إلى عناصرها الأولية، ثم دراسة كل عنصر على حدة. لذلك قام البيولوجيون عند دراسة ظاهرة الحياة بتحليل الكائن الحى إلى عناصره: أجهزة الجسم ثم الأنسجة ثم الخلايا ثم الجزيئات العضوية ثم الذرات ثم المكونات تحت الذرية (البروتونات ـ النيوترونات ـ الإلكترونات)، وقالوا لنا لم نعثر إلا على مادة، ليس هناك إلا المادة لتفسير الحياة. لقد فات هؤلاء أن ظاهرة الحياة التى يدرسونها بمنهجهم الاختزالى تكون قد اختفت تمامًا عندما قاموا بعملية الاختزال والتحليل، وأنهم بذلك قد حولوا البيولوجيا إلى فيزياء!

بنية الكائن الحى

تتميز بنية الكائن الحى بنمطين:

١ - «النمط الجينى Genotype» (التركيب الوراثى): وهو محفوظ داخل النواة، ويحدده ترتيب النكلوتيدات (القواعد النيتروجينية) المشاركة فى تكوين جزىء الدنا DNA [1] الحامل للشفرة الوراثية المشتملة على الكثير مما يحتاجه الكائن الحى من معلومات، ويقوم جزىء الدنا DNA من خلال هذه المعلومات بالوظائف الآتية:

=يفيده (وربما يضره). وفى النهاية تنتهى حياة الكائن بالموت عندما يتوقف إنتاج الطاقة. ويُستثنى من هذا التوصيف أطوار التكاثر (البيض والبويضات والحيوانات المنوية وحبوب اللقاح والبذور) إذ لا تستهلك غذاء من الخارج ولا تنتج فضلات. أما الفيروسات فتعتمد تمامًا على كائنات حية أخرى (الخلايا)، ومن ثَمَّ لا يعتبرها الكثيرون كائنات حية.

(١) تتكون المادة الوراثية (الجينات) الموجودة داخل نواة خلايا جسم الإنسان (وجميع الكائنات الحية حيوانية ونباتية) من سلاسل من جزيئات حمضية تسمى الأحماض النووية ـ لوجودها داخل النواة ـNucleic Acids، وهى جزيئات الدنا DNA (الحمض النووى الريبوزى منزوع الأوكسجين Deoxyribonucleic acid). ويتكون جزىء الدنا DNA من وحدات كيميائية متشابهة متتالية متصلة، كحلقات السلسلة، تُسمى الوحدة منها نكلوتيد Nucleotide)= قاعدة نيتروجينية. ويوجد جزىء الدنا DNA داخل النواة على هيئة سلسلتين متقابلتين مترابطتين بروابط هيدروجينية عَرَضية كقضبان القطار أو كالسلم الخشبى، ويحوى ستة آلاف مليون سِلَّمة (رابطة هيدروجينية) فى الإنسان، وتلتف السلسلتان طوليًّا فى شكل حلزونى Double Helical Structure، ثم تلتف هذه السلسلة الحلزونية حول نفسها بشدة آلاف المرات حتى يمكن أن تشغل حيز النواة الضيق، مكونة بذلك الصبغيات (الكروموسومات Chromosomes).

وتنتظم النكلوتيدات فى سلسلة الدنا DNA (أى فى الكروموسومات) على هيئة مجموعات تُعرف بالجينات. والجين Gene (المُوَرِّث) هو الجزء من سلسلة الدنا الذى يحمل التعليمات الخاصة ببناء جزيئات البروتين، وتحتوى الخلية البشرية على قرابة ٣٠ ألف جين.

وتحتوى نواة الحيوان المنوى (sperm) وكذلك نواة البويضة (ovum) على ٢٣ كروموسوم، وبالتالى تحتوى خلايا أجسامنا (الخلايا الجسدية Somatic cells) على ضعف هذا العدد؛ لأنها نشأت من اتحاد نواتى هاتين الخليتين التناسليتين (البويضة والحيوان المنوى).

١ - توجيه انقسام الخلية وتكاثرها.

٢ - تمرير الصفات الوراثية للأجيال التالية.

٣- توجيه «الريبوزومات Ribosomes» الموجودة بسيتوبلازم الخلية لبناء البروتينات المختلفة التى يحتاجها الكائن الحى.

ويُعَد جزىء الدنا DNA أصلب وأقوى جزىء بيولوجى عَرِفه علم البيولوجيا The strongest biological molecule.

٢ - «النمط الظاهرى Phenotype» : وهو عبارة عن:

- صفاتنا البنائية، كلون البشرة وطول القامة ونعومة الشعر.

- صفاتنا الوظيفية، كالحركة والإبصار وحرق السكر.

وتُعتبر جزيئات البروتين هى الوحدة البنائية والوظيفية لأنسجة الجسم، فهى تمثل الجزء الأكبر من بنية خلايا الجسم، وهى المكوِّنة أيضًا لمعظم المواد الفعالة المسئولة عن وظائفه كالهورمونات(١) والإنزيمات(٢). وتقوم كل خلية ببناء ألفى جزىء من البروتينات فى الثانية الواحدة !!.

ويتحكم التركيب الوراثى (النمط الجينى) فى المظهر (النمط الظاهرى) عن طريق تحديد أنواع البروتينات التى تقوم ريبوزومات الخلية ببنائها. وكما ذكرنا، يتم تكوين هذه البروتينات بناءً على التعليمات المسجلة بالدنا DNA، والتى ينقلها الرنا RNA (٣) من داخل النواة إلى الريبوزومات فى سيتوبلازم الخلية.

ومن ثَمَّ، يمكننا القول إن الكائن الحى يحتوى على ثلاثة جزيئات عضوية كبيرة Macromo-ecules (بالإضافة إلى آلاف الجزيئات الأخرى) تقوم بدور محورى فى بنائه ووظائفه وتكاثره: جزىء الدنا DNA - جزىء الرنا RNA - جزىء البروتين. والعلاقة بين هذه الجزيئات كالتالى:

التركيب الوراثى ←(RNA) بناء البروتينات ← المظهر

DNA — الريبوزومات

داخل النواة — فى السيتوبلازم

---

(١) الهورمونات: مواد تفرزها الغدد الصماء مباشرة إلى مجرى الدم، دون الاستعانة بقنوات. وتقوم الهورمونات بتنظيم النشاطات الداخلية للجسم، مثل النمو والتغذية وحرق السكر. ومثالها هورمون الإنسولين.

(٢) الإنزيمات: بروتينات ذات وزن جزيئى عال، يقوم بدور العامل المساعد لإتمام التفاعلات الكيميائية الحيوية. وتحوى كل خلية ما يقارب ١٠٠٠ إنزيم، كل واحد منها يساعد على إتمام تفاعل كيميائى محدد، ولكنه لا يدخل فى التفاعل. وبدون وجود الإنزيمات يحتاج إتمام التفاعلات الكيميائية إلى وقت طويل وإلى درجات حرارة مرتفعة، لا تتحملها أنسجة جسم الكائن الحى.

(٣) الرنا RNA: الحمض النووى الثانى، ويتكون من سلسلة واحدة من القواعد النيتروجينية، بخلاف الدنا الذى يتكون من سلسلتين.

أكذوبة الخلية البدائية

لا شك أن الخلية الحية هائلة التعقيد. ويخبرنا عالم الوراثة مايكل دينتون[١] أن النقلة من المادة غير الحية إلى الخلية الحية هى أهم وأعظم النقلات فى تاريخ الطبيعة، فالفرق بين أقرب الموجودات إلى الحياة، وهى البللورات، وبين الخلية الحية هائل. ويرى دينتون أن الشواهد كلها تشير إلى أن الخلية الحية قد ظهرت من البداية مكتملة، بل وقادرة على القيام بكل الوظائف التى تقوم بها أرقى الثدييات (عدا الإنسان) كالتكاثر والحركة والتنفس والاغتذاء والإخراج.... ومن ثم لا يمكن القول بوجود الخلية البدائية البسيطة Primitive Cell التى نشأت تدريجيًا ثم تطورت عنها الكائنات، بل إن الخلية الأولية بالمعنى الجينى (كالبكتريا التى لا نواة لها) أكثر تعقيدًا من الخلايا المتميزة التى تخصصت (كالخلايا العضلية والخلايا الجلدية).

ويؤكد هذا المعنى جاكو مونود[٢] البيولوجى الحائز على جائزة نوبل قائلًا: ليس عندنا أى تصور عن خلية بدائية كما يدعى الدراونة، إن أبسط الكائنات الحية بدأت مكتملة.

الإعجاز من خلال الأرقام

تحتوى أصغر خلية بكتيرية على ١٠٠ ألف مليون ذرة ($١٠^{١١}$)، بينما تحتوى الخلية المتخصصة فى الكائنات عديدة الخلايا (كالإنسان) على ١٠ مليون مليون ذرة ($١٠^{١٣}$).

ويبلغ طول سلسلة الدنا DNA فى الخلية البشرية الواحدة ٢,٠٤ متر، وبذلك يكون طول سلاسل الدنا DNA فى خلايا جسم الإنسان البالغ (عددها قرابة ١٠٠ ألف مليار خلية) = ٢,٠٤ × $١٠^{١٤}$ × $١٠^{-٣}$ = ٢,٠٤ مليار كيلومتر ! وهذه السلسلة تقطع المسافة من الأرض إلى الشمس قُرابة ١٣٦٥ مرة!

ويرث الإنسان من كل من الأب والأم ٦ بيكو جرام (الجرام = ١٠٠٠ مليار بيكو جرام) من الدنا، موجودة فى رأس الحيوان المنوى ومثلها فى البويضة. وهذه الكتلة الضئيلة جدًا من الدنا هى التى تتوارثها البشرية منذ نشأتها وحتى الآن، وهى المسئولة عن المحافظة على الجنس البشرى.

ويحمل الجرام الواحد من الدنا معلومات تعادل ما يحمله مليون مليون قرص مضغوط .C.D، ويحمل دنا كل خلية $١٠^{١٢}$ Bits من المعلومات (يتكون كل حرف من حروف اللغة من Bits ٨ تُسمى One Byte). كذلك فإن مقدار من الدنا فى حجم رأس الدبوس يمكن أن يحمل كمية من المعلومات تفوق بليون مرة فلاشة سعتها ٤ جيجا. ومن ثم فالدنا أكثر المنظومات المعروفة سعةً فى حفظ المعلومات.

---

(١) Michel Denton: عالِم البيولوجيا الأسترالى المهتم بالوراثة البشرية، ولد عام ١٩٤٣.
(٢) Jacques Monod: (١٩١٠ - ١٩٧٦م) عالِم البيولوجيا الفرنسى.

كذلك فإن الخلية ـ التى يشغل ٢٠٠ منها ما تشغله نقطة حرف الـ «ب» ـ تحوى ١٠٠ مليون جزىء بروتينى من ١٠٠,٠٠٠ نوع. وإذا نظرنا إلى جزىء واحد من البروتينات، وليكن الهيموجلوبين مثلًا، نجد أنه يحتوى على ٥٣٩ حمضًا أمينيًّا، تمثل تكرارًا للعشرين نوعًا من الأحماض الأمينية التى يحتوى عليها جسم الإنسان. وبحسبة رياضية بسيطة نجد أن عدد الترتيبات المحتملة التى يمكن أن تتراص فيها تلك المئات من الأحماض الأمينية لبناء جزىء الهيموجلوبين يعادل الرقم ١ وعلى يمينه ٦٢٠ صفرًا، غير أن ترتيبًا واحدًا هو المناسب كى يؤدى هذا الجزىء وظيفته بكفاءة فى نقل الأوكسجين فى دم الإنسان، بل إن وجود خطأ فى حمض أمينى واحد كفيل بأن يُنتِج جُزيئًا يعمل بطريقة معيبة خطيرة أو لا يعمل على الإطلاق.

بعد تراص الأحماض الأمينية لتكوين السلسلة الببتيدية، تأتى أهم عملية فى تخليق جزىء البروتين، وهى الطريقة التى تلتف بها هذه السلاسل. إن هذه العملية هائلة التعقيد، فإذا وضعنا المعلومات المطلوبة للف سلاسل جزىء من البروتينات (يتكون من مائة حمض أمينى مثلًا) فى سوبر كمبيوتر ليقوم بهذه العملية بمحاولات عشوائية، فإنه سيستغرق حوالى ١٠ ¹²⁷ سنة! بينما يتم ذلك فى الخلية فى جزء ضئيل من الثانية. ولو تمت هذه العملية على صورة غير صحيحة فقد تُنتج سمًّا قاتلًا، بدلًا من أن تُنتج مادة حية.

لذلك، فإن إمكان تَكَوّن جزىء البروتين بالصدفة يتطلب مادة يزيد مقدارها بليون مرة على المادة الموجودة فى سائر أنحاء الكون، حتى يمكن للتوافقات العشوائية المثمرة أن تحدث. وتستغرق هذه المحاولات مدة أطول من عمر الكون (تحتاج حوالى ١٠ ²³⁴ سنة !). وتحتاج تلك المحاولات لمسرح تتم فيه يبلغ امتداده ١٠ ⁸² سنة ضوئية (أكبر من حجم الكون الذى يبلغ قطره ٢×١٠ ¹⁰ سنة ضوئية).

ألا يحق لنا أن نسخر من الماديين القائلين بنشأة الحياة عشوائيًّا، ونقول لهم «يا محاسن الصُدَف!!».

السمات الوجودية للحياة

ذكرنا فى بداية الفصل، أن النظر إلى الخلية بالمنظور البيولوجى (على شدة تعقيده) كالنظر إلى لوحة الموناليزا ليوناردو دافنشى باعتبارها كمية من الأصباغ التى تلطخ قطعة من القماش ويحيطها إطار مُذَهَّب. ومن أجل الاقتراب من فهم حقيقة الحياة، ينبغى تجاوز هذه «النظرة البيولوجية»[1] إلى «المنظور الوجودى **Ontological**». فالحياة والكائنات الحية تميزها عدة سمات وجودية، تعجز النظرة البيولوجية عن تفسير نشأتها، وأهم هذه السمات:

(١) الصفات البيولوجية للحياة: مثل الحركة والاغتذاء والإحساس والإخراج...

أولًا: الحياة = المعلومات Life = Information

سنقوم بعرض وتحليل مفهوم «المعلومات» باعتبارها السمة الوجودية المحورية للحياة، بالتفصيل فى آخر الفصل، تحت عنوان: «سر أسرار الحياة: المكون المعرفى».

ثانيًا: الحياة منظومة ذكية Life is Intelligent

يصر الماديون على النظر إلى «الحياة» نظرة مادية، ويرفضون وصف العمليات الحيوية للكائنات الحية بالذكاء. وينطلق الماديون فى اعتراضهم من منهج الاختزال، الذى يرى أننا إذا حَللْنا الكائنات الحية إلى مكوناتها الأولية (أعضاء ← أنسجة ← خلايا ← جزيئات ← ذرات ← جسيمات تحت ذرية)، فإننا سنصل فى النهاية إلى الطاقة التى تحكمها قوانين فيزياء الكَم بما فيها من ارتياب ولاحتمية[1] Uncertanity، ولن نجد فى النهاية أى قصد أو غائية أو ذكاء أو جمال، هناك مجالات الطاقة العشوائية وفقط.

كيف تنتج مجالات الطاقة العشوائية تغريد الطيور وخبرتها فى بناء الأعشاش، وتشكيلاتها التى تتخذها أثناء الهجرة والتى تثير إعجاب الإنسان ؟ وإذا مات الطائر فلِمَ تختفى هذه الظواهر (وتختفى الحياة بكل ملامحها) بالرغم من أن نفس مجالات الطاقة تظل موجودة؟!

ربما تستطيع نظريات التطور الداروينى الحديثة Modern Darwinism أن تشرح لنا الخطوات التى تطورت بها الطيور ذات المناقير والأجنحة المزودة بالريش عن الزواحف ذات الأسنان والأجسام المغطاة بالحراشيف. ولكن كيف حدثت هذه التغيرات بالرغم من أن كلًّا من الطيور والزواحف (فى مستواها الكمومى[2]) تمتلك نفس مجالات الطاقة ؟!

كيف أمكن لمجالات الطاقة أن تتشكل لتُخرج لنا الكائن الحى بصفاته البيولوجية وسماته الوجودية التى نتحدث عنها؟ وكيف تتزايد هذه الصفات والسمات تعقيدًا من الكائنات الدنيا إلى الكائنات الأكثر رُقيًّا؟ وهل كانت مجالات الطاقة للمواد غير الحية تحمل بشكل كامن الصفات والسمات التى تميز الكائنات الحية، ثم ظهرت هذه الصفات والسمات وقت ظهور الحياة ؟ إذا كان الأمر كذلك فما الذى أظهرها؟! أم أن الصفات والسمات البيولوجية والوجودية أُضيفت إلى مجالات طاقة المادة غير الحية فدبَّت فيها الحياة؟!

أسئلة كَأْدَاء يناطحها الماديون فتُبلِى رءوسَهم.

(١) طرحنا فيزياء الكم ومبدأ اللاحتمية فى هوامش الفصل الرابع.
(٢) أدق المستويات الفيزيائية، ويُنسب إلى نظرية الكم.

إن النظر إلى ظاهرة الحياة من خلال المستوى الفيزيائى والكيميائى فقط هو الذى يسبب الخلط الشديد بين الأوراق، ويضللنا (بل يعمينا) تمامًا عن حقيقتها. إن الإلكترونات والبروتونات والنيوترونات تُنتج بخلطة معينة حفنة من الرمال، ونفس المكونات شكلت خلايا مخ أينشتين. إن خلايا أمخاخنا ترصد الواقع من حولها وتتفاعل معه بمشاعر مختلفة، وتتفجر فيها ظاهرة العقل الذى يستوعب كل ذلك ويتذوقه، فيسعد به أو يأنف منه، إنها نفس الإلكترونات والبروتونات والنيوترونات.

مما سبق ندرك أن نظرة الماديين إلى ظاهرة الحياة وإلى الطبيعة بصفة عامة باعتبارها وجودًا يخلو من الذكاء نظرة قاصرة للغاية. وإذا كنا نُعَرِّف الذكاء بأنه القدرة على معالجة وتخليق المعلومات، فإن ظاهرة الحياة وكذلك الطبيعة ليست إلا شبكات متصلة من النظم الذكية التى تظهر لنا فى أربعة مستويات:

١- **ذكاءٌ مُنطَمر (خفى) Embedded Intelligence**: وتمارسه النظم الذكية التى تتبع قوانين فيزيائية معينة، لكنها ليست ذاتية التصرف. ومثالها الذَرَّة وأمواج البحر.

٢- **ذكاءٌ ذاتى Autonomous Intelligence، أو ذكاء نشط Active Intelligence**: وتمارسه الكائنات الحية. فهى موجودات مستقلة، ترعى نفسها وتتكاثر، وتتفاعل مع الوجود وتتعلم منه وتؤثر فيه.

٣- **ذكاءٌ مدرِك لذاته Self-Aware Intelligence**: وهو خاص بالإنسان، الذى يتميز بأنه مدرك لنفسه، قادر على التفكير المجرد وله حرية واختيار.

٤- **الذكاءُ المطلق Infinite Intelligence**: وهو مصدر الثلاثة أنواع السابقة، وهو من صفات الإله الخالق ﷻ.

ويؤكد «سير جون مادوكس» رئيس التحرير السابق لمجلة «الطبيعة Nature»، أن الحياة قد خرجت منذ حوالى ٣,٧ بليون سنة فى أبسط صورها (البروكاريوتات) وهى تحمل كل الصفات البيولوجية والسمات الوجودية للحياة، لقد تفجرت الحياة، بكل ما فيها من ذكاء، هكذا فجأة. ويضيف مادوكس؛ يبدو أن طبيعة الحياة وكيفية ظهورها سيظل سر الخلق المحير.

ثالثًا: الحياة ونظام التشفير ومعالجة المعلومات

Coding System and Information Processing

أما السمة الوجودية الثالثة المرتبطة بالحياة فهى «نظام التشفير Coding System ومعالجة المعلومات Information Processing» الموجود فى جميع الكائنات الحية[١].

فالمعلومات الخاصة ببناء البروتينات وبكيفية عمل الخلية، وكذلك صفات الكائن الحى التى سيتم تمريرها إلى الأجيال التالية، تكون «مشفرة» فى دنا DNA جينات الخلية باستخدام أربعة أحرف[٢] تتراص بترتيب رياضى مختلف.

ويتم نقل المعلومات من الجينات الموجودة بنواة الخلية إلى الريبوزومات فى السيتوبلازم، ويقوم بهذه المهمة الحمض النووى الرنا المِرْسال m RNA (يقابل الأسلاك التى تنقل الشفرة فى نظام التلغراف). وتقوم الريبوزومات بفك الشفرة وفهم محتواها Translation = Decoding، واستعمال هذا المحتوى المعلوماتى فى ترتيب الأحماض الأمينية لتكوين البروتينات المختلفة التى تقوم بمعظم وظائف الخلية[٣].

---

(١) يشرح «ديفيد بيرلنسكى David Berlinski» (عالِم الرياضيات والفلسفة) المقصود بهذا النظام، فيقول:
إن نظم التشفير هى نظم تربط بين شيئين أو بين نظامين باستخدام الرموز. من أجل أن نفهم ذلك، فلنتأمل شفرة موريس Morse Code (التلغراف) التى تقوم على خطوات ثلاث: التشفير - نقل المعلومة - فك الشفرة.
فالمرسِل يُحَوِّل حروف الكلمات التى يريد إرسالها إلى رمزين (نقاط وشُرَط)، ويتم التعبير عن جميع الحروف بهذين الرمزين بطريقة رياضية (عملية التشفير Coding).
(أ =.ـ   ط =..   و =...   وهكذا).
ثم تُحَوَّل هذه الرموز إلى إشارات كهربائية يتم نقلها عن طريق الأسلاك إلى مكان المستقبِل، الذى يقوم بفك الشفرة وترجمتها إلى معناها الأصلى Decoding.

(٢) هذه الأحرف الأربعة هى أربعة مركبات كيميائية، من مجموعة تُعرف بـ «النكلوتايدات Nucleotides = القواعد النيتروجينية»، ويُرمز إليها بالحروف A - T - C - G.

(٣) نضرب مثالًا لنظام التشفير ومعالجة المعلومات، يُظهر ما فى هذا النظام من ذكاء، ويقربنا أكثر من فهم طبيعة الحياة:
يستعين العازفون لسيمفونية بيتهوفن الثالثة (البطولة) - كمثال - بشيئين أساسيين، الآلات الموسيقية التى صُنعت بمهارة عالية من خاماتها الأولية، والنوتة الموسيقية التى كُتبت بمهارة باستخدام لغة ابتدعها موسيقيون نبغاء. هل نقول إن الآلات الموسيقية والنوتة الموسيقية هى جوهر هذا العمل الموسيقى الفذ، أم أنه الذكاء والموهبة والقدرة التى تجلت فى عدد من المراحل:
١ - الفنان الموسيقار المعجزة «بيتهوفن» الذى أبدع السيمفونية.
٢- مبتكِر نظام النوتة الموسيقية، التى هى فى جوهرها تحويل النغمات التى فى عقل الفنان المبدع إلى رموز يُدَوِّنُها بين =

إن هذه الشفرة الوراثية الموجودة فى جميع الكائنات الحية، من أدناها (البكتريا) إلى أرقاها (الإنسان)، لا يمكن أن تكون «محصلة كَمِّية» للصفات الفيزيائية والكيميائية لعناصر مكوناتها، ليس فقط لما عليه هذه المكونات من تعقيد فى البنية والوظيفة، لكن لأن مكونات هذه الشفرة تعمل بصورة تكاملية متناغمة تحتم أن تكون قد انبثقت إلى الوجود متكاملة منذ الخلية الأولى، ولم يتم التوصل إليها تدريجيًا.

إنها «الحياة» الذكية وراء نظام التشفير المبهر، ويعبر الفيزيائى الكبير بول ديفيز عن ذلك فى دقة وبساطة بقوله: «إن استخدام نظام التشفير فى كتابة لُغَتَىّ الحياة (الأحماض النووية والبروتينات) ثم فى نقل المعلومات بينها يُعتبر أمرًا شديد الإلغاز، بل يُعتبر معجزة، إذ كيف تستطيع تفاعلات كيميائية لا بصيرة لها أن تقوم بذلك؟!».

رابعًا: القدرة على التشكيل Morphogenesis (١)

ليس الدنا فقط مستودعًا للمعلومات، بل إنه يقوم بتوجيه آلية بناء البروتينات (الدنا ـ الرنا ـ الريبوزومات)، أى تحويل المعلومات إلى وجود مادى ثلاثى الأبعاد. وتقوم نظم أخرى فى الخلية بتوجيه هذه البروتينات لإخراج الشكل النهائى للكائن الحى (٢)، عن طريق استخدام عائلة من البروتينات الفائقة التى تُسمى «المُشَكِّلات البروتينية Morphogenic Proteins».

ويمكن أن نوضح «عملية التشكيل Morphogenesis» بمثال يُقَرِّب الصورة: إنه نظام لتحويل كلمات نخطها على أوراق نَصِف فيها بدقة هيئة إنسان إلى إنسان حقيقى (من لحم ودم)! أليس هذا من أساسيات ظاهرة الحياة؟

=خطوط السلم الموسيقى «شفرة»، ليقرأها ويفك شفرتها العازف، ويُخرجها إلى الوجود على هيئة نغمات يجسدها لنا من خلال آلته الموسيقية.

٣- الصانع الماهر الذى صنع الآلات الموسيقية فى صبر وأناة، حتى إن بعضها يباع بمئات الآلاف من الجنيهات.

٤- العازف الماهر الذى تدرب لسنوات طويلة (تبدأ عادة من طفولته)؛ ليُطَوِّع الآلة الموسيقية لإخراج هذه النغمات الساحرة.

٥- مستمعون يمتلكون آذانًا موسيقية؛ ليتذوقوا النغمات التى تنساب من حولهم.

وبالقياس على هذا المثال، نجد أن الدنا DNA هو «المسودة الحية Living blue print» لنشاط الخلية، وهو فى ذلك يقابل النوتة الموسيقية. بينما تقابل الريبوزومات العازفين، فهى تقوم ببناء البروتينات التى تقابل اللحن المعزوف.

(١) الترجمة الشائعة لاصطلاح «Morphogenesis» هى «التصوير»، لكننا نعتقد أن الترجمة إلى «تشكيل» أقدر على توصيل المعنى.

(٢) كأن تحدد بنية كل عضو وهيئته وموضعه. مثلًا الكُلى تتكون من كذا وكذا، وهيئتها كشكل حبة نبات الفاصوليا، وتقع الكليتان فى موضع كذا من البطن. وهكذا كل أعضاء جسم الكائن الحى.

خامسًا: للكائنات الحية هدف متأصل فى بنيتها = الغرضية Purposefulness

من السمات الأساسية المميِّزة للحياة أن للكائنات الحية غرضًا أو هدفًا متأصلًا فى بنيتها وهو «المحافظة على وجودها»، وهو هدف لم يكن موجودًا فى المادة غير الحية التى نشأت منها هذه الكائنات. وعندما لاحظ أرسطو هذه العلاقة، عَرَّف الحياة بأن يكون الشىء حريصًا على وجوده.

ويعين على تحقيق هذا الهدفَ الأساسى أهدافٌ أخرى ثانوية تدفع الكائن الحى وتوجهه فى حياته، وأهمها بلا شك التكاثر الذى يخدمه الجنس، ثم هناك الاغتذاء والحركة والإخراج وغيرها. وقد جُعل هدف «المحافظة على الوجود» وكذلك الأهداف الثانوية التى تخدمه فطرة غريزية، حتى أصبحت الحياة سمة قوية هادرة تفرض نفسها فى الكائنات الحية!

سادسًا: ذاتية التحكم Autonomous

تحتاج السيارة الأتوماتيكية المزودة بكمبيوتر متقدم إلى من يصممها ويُصَنِّعها، ثم تحتاج إلى من يمدها بالطاقة، ومن يُشَغِّلها ويختار لها الوجهة ويقودها إليها. أما الكائن الحى فقد زوده مصممه الذكى (الله ﷻ) بالقدرة على التكاثر فلا يحتاج إلى من يُصَنِّعه، كما أمده بالآلية اللازمة للحصول على الطاقة من الغذاء والأوكسجين، ووضع أهدافًا متأصلة فى بنيته لتوجهه لفعل وتحصيل ما فيه منفعته، كل ذلك دون احتياج إلى عون خارجى.

كذلك إذا قارنا الكائن الحى بالروبوت (الإنسان الآلى) الذى يُتوهم فيه التحكم الذاتى، فسنجد أن هذه الآلة تحتاج إلى من يقوم بتصنيعها وبرمجتها وإمدادها بالطاقة وصيانتها. لذلك يصبح «التحكم الذاتى» سمة شديدة الخصوصية والدلالة على الحياة.

سابعًا: العمل كوحدة واحدة Unity

تقوم جميع الأنشطة البيولوجية والسمات الوجودية بخدمة الكائن الحى ككيان واحد. وإذا كان يسهل تصور حدوث هذا الأمر فى الكائنات وحيدة الخلية، فهو يصعب كثيرًا فى الكائنات عديدة الخلايا. فهذه الكائنات تنشأ كخلية واحدة (البويضة المخصبة = الزيجوت) تنقسم إلى ملايين وربما مليارات الخلايا، ثم تقوم كل مجموعة من هذه الخلايا بالتمايز لتصبح نسيجًا ثم عضوًا محددًا، وتعمل هذه الأنسجة والأعضاء فى تناغم لتشكل هذا الكائن الذى

يشعر أنه وحدة واحدة. ومهما بلغ العلم من تقدم، فستظل وحدة الكائن الحى على المستوى البيولوجى وعلى المستوى الوجودى مُحَمَّلة بالأسرار[1].

ثامنًا: القدرة على التكاثر[2] Replicable

التكاثر آلية أساسية للتطور؛ لأن حدوث الانتخاب الطبيعي يقتضي تكاثر الكائنات الحية، وبالتالى لا يمكن أن يكون التطور بالانتخاب الطبيعى هو الذى أوجد التكاثر كما يُرَوِّج الداروِنة! أى أن التكاثر هو الحصان الذى يجر عربة الانتخاب الطبيعي، وليس العكس.

ولا شك أن نشأة التكاثر الجنسي من الأدلة القاطعة على أن التطور قد حدث بتخطيط مُسبق، إذ يتطلب ذلك ظهور صفات جديدة متوافقة بدقة شديدة فى كل من الذكر والأنثى، فكيف تتم هذه التغيرات المتوافقة بالصدفة فى كل من الجنسين على حدة؟! كذلك فإن وجود التكاثر كسمة مصاحبة للحياة يؤكد أن ظهور الحياة لم يكن أمرًا عشوائيًّا، بل يؤكد أن هناك تخطيطًا مسبقًا يهدف إلى استمرار وجود الكائنات الحية من خلال صغارها.

هذه هى السمات الوجودية المميزة والمصاحبة لظاهرة الحياة، والتى ترينا أن الحياة ليست فقط بضع وظائف بيولوجية يمارسها الكائن الحى، بل هى ظاهرة بالغة التعقيد أحوج ما تكون لمصمم ذكى يقف وراء نشأتها ووراء استمرارها.

نشأة الخلية الحية

يعتبر ريتشارد دوكنز وأعضاء قطيعه من الملاحدة (كما يصفهم هو) أن الحياة ظاهرة مستقلة، يمكن دراسة نشأتها بمعزل عن نشأة الخلية الحية! ويعتبرون أن نشأة الحياة تتركز فى الحصول على جزىء الدنا القابل للانقسام، ويَدَّعون أن نشأة باقى الخلية أمر هين يستطيع هذا

(١) حتى ندرك مدى تعقيد هذه السمة، وأنها ليست أمرًا بديهيًّا، نشير إلى أن المرضى المصابين بتلف معين فى الفص الجدارى الأيمن من المخ قد يعانون من عدم القدرة على التعرف على أحد أعضائهم (ككف اليد مثلًا) باعتباره جزءًا من أجسادهم، وربما اعتبروها ثعبانًا مثلًا، وتُعرف هذه الحالة المرضية بـ «متلازمة الكف الغريبة» Allien hand Syndrome أو Hemineglect

(٢) بدأ تكاثر الكائنات الحية بأسلوب لا جنسى، يُنتج كائنات مماثلة تمامًا فى جيناتها للخلية الأصلية، وما زال هذا التكاثر سائدًا فى الكائنات الأولية كالبكتريا والفطريات. ثم ظهر التكاثر الجنسى الذى تختلط فيه جينات الأم مع جينات الأب، فتُخرج كائنات ذات بنية جينية جديدة.

الجـزىء توجيهه. وقد أثبتنا عند اسـتعراضنا للسـمات الوجودية للحياة خطأ هـذا المفهوم[١]، ورأينا أن الحياة ظاهرة تدب فى معظم أجزاء الخلية[٢].

ينظر العلم الحديث إلى أى موجود باعتباره مكونًا من شقين: مكون مادي ومكون معرفى. لذلـك ينبغـى عند التصدى لدراسـة نشـأة الخلية الحيـة أن نبحث عن مصـدر هذين المكونين. ويمكـن النظـر إلى نشـأة (المكـون المـادى)[٣] للخليـة باعتباره مثلـث، أحد أضلاعه هو نشـأة

(١) ستريد توضيح هذا المعنى فى الجزء القادم من الفصل.

(٢) باستثناء بعض المواد الغذائية المختزنة والأصباغ وما شابه ذلك.

(٣) من أرجح السيناريوهات التى طُرحت لتفسير نشأة الخلية، هو تراص النكلوتيدات على سطح بلورات الصلصال بفعل الشحنات الكهربائية، ثم اتصالها ببعضها لتكوين جزىء الرنا. ولبلورات الصلصال دور آخر فى نشأة الحياة، فالمركبات الكربونية حديثة التكون كان يتم امتصاصها على سطح الصلصال (خاصية الامتزاز adsorption)، مما يسمح باستمرار التفاعل فى اتجاه تكوين مركبات جديدة، ولا يصبح التفاعل عكسيًا.
ويشبه الرنا فى هذه المرحلة الفيروسات من ناحية تَكَوّنه من تتابع النكلوتيدات، وإن كان يختلف عنها فى عدم احتياجه إلى الخلية الحية التى يتكاثر الفيروس عن طريقها، لذلك أطلقت عليه النظرية اسم أشباه الفيروسات (الفيروسويد Virosoid)، وللحصول على الطاقة اللازمة لتكاثره قام جزىء الرنا بتحليل المواد العضوية الموجودة فى الحساء المحيط به. كذلك كونت بعض الفيروسويدات حولها غشاء لتختزن فيه المواد الغذائية، فنشأت بذلك أول بروكاريوتات (كائنات وحيدة الخلية وبدائية النواة) على الأرض (المرحلة الأولى فى خلق الخلية).
بعد ذلك تكونت الخلايا «اليوكاريوتية Eucaryotes» (ذوات النواة) منذ حوالى ٢,٧ بليون سنة. والسيناريو الأرجح لتكوُّن هذه الخلايا أن تكون قد انبثقت من اتحاد أنواع مختلفة من البروكاريوتات، وذلك تبعًا لنظرية التعايش الداخلى (Endosymbiotic theory) التى وضعتها عالمة البيولوجيا الأمريكية لين مارجوليس Lynn Margwlis، عام ١٩٦٧.
وتبعًا لهذا التصور، قامت بعض الخلايا البروكاريوتية اللاهوائية بالتهام الخلايا البروكاريوتية التى اكتسبت القدرة على التمثيل الضوئى، فأصبحت بداخلها بمثابة الكلوروبلاستات الموجودة بالخلايا النباتية. كذلك قامت بعض الخلايا اللاهوائية الأخرى بالتهام خلايا هوائية أصبحت بداخلها بمثابة الميتـوكوندريا الموجـودة بالخلايا الحيوانية. وبذلك اكتسبت الخلايا اللاهوائية القدرة على التعامـل مع الأوكسجين السـام بالنسبة إليها. وفى نفس الوقـت وجـدت الخلايا الملتَهَمَة الحماية والغذاء داخل الخلايا التى التهمتها، أى أن الفائدة متبادلة، لذلك سُميت النظرية بنظرية التعايش الداخلى.
كذلك جُمعت المادة الوراثية (الدنا ـ DNA) لبعض هذه البروكاريوتات داخل نواة واحدة من أجل تنظيم انقسام الخلية، باستثناء المادة الوراثية للميتوكوندريا والكلوروبلاست فقد بقيت خارج النواة.
وبذلك تَحَوّل عدد من البروكاريوتات إلى خلية واحدة من حقيقيات النواة (يوكاريوتات). وهذه هى (المرحلة الثانية فى خلق الخلية).
يرى المهتمون بدراسة نشأة الحياة أن الأرجح أن الكائنات الحية المبكرة ظلت تستخدم الرنا كشفرة وراثية فى كروموسومات خلاياها لفترة بلغت حوالى ٥٠٠ مليون عام (تُسمى كائنات هذه الفترة عالم الرنا RNA World)، ولكن هذا العالم بدأ فى الاندثار بسبب هشاشة جزيئات الرنا، وترك لنا بعض الجسيمات التى تحتوى على الرنا، وتُعتبر بمثابة العلامات الدالة على سيادة الرنا فى هذه الحقبة القديمة، ومن هذه العلامات الريبوسومات الموجودة فى خلايا أجسادنا.
أعقب ذلك حدوث تعديلات فى جزىء الرنا، فقد تم نزع ذرة أوكسجين من جزىء الرنا (والتى تجعله غير مستقر) مما سمح بتكون جزىء الدنا DNA – وهو أكثر ثباتًا من جزىء الرنا – الذى يتكون من سلاسل مزدوجة أطول=

البروتينات التى هى الوحدات البنائية لمعظم مكونات الخلية الحية، وضلعها الثانى هو نشأة الدنا وآلية التشفير التى يقوم بها، أما الضلع الثالث فهو نشأة غشاء الخلية المعجز الأعجوبة الذى يحيط بها. وسنقف فى هذا الجزء من الفصل بعض الوقفات التى تُظهر بجلاء استحالة نشأة الخلية الحية بشكل عشوائى، ثم تكون لنا فى آخر الفصل وقفة للحديث عن مصدر المكون المعرفى للخلية الحية، الذى يثبت بشكل أكبر الاحتياج إلى إله خالق حكيم قادر.

مع نظريات نشأة الخلية

تنقسم النظريات التى وُضعت لتفسير نشأة الخلية الحية إلى مجموعتين كبيرتين:

الأولى: الجينات أولًا Replicator First

يتبنى ريتشارد دوكنز هذا المفهوم، ويشرحه فى كتابه «الجين الأنانى» قائلًا: «فى مرحلة معينة بزغ «بالصدفة Accident» جزىء الدنا DNA «السحرى» المتميز، الذى له القدرة على إنتاج نسخ متماثلة من نفسه Replication، هذا الجزىء الذى يحمل «المعلومات» المطلوبة لبناء البروتينات. (أين هو الساحر الذى مارس هذا السحر؟! وما مصدر هذه المعلومات؟! يا سلام... بهذه البساطة، إنها عملية صدفة وسحر، أهذا علم؟!).

لا تظن أننى أتجنى على الرجل، فأنت تستطيع أن ترجع إلى مصدر هذا الخَبَل[1].

الثانية: الكيمياء أولًا - التنظيم الذاتى Self Organisation

يتبنى هذا السيناريو أن جزىء البروتين يمكن أن ينشأ تلقائيًا عن طريق تنظيم مكوناته دون الاحتياج إلى الشفرة التى يحملها الدنا. ويشبهون ذلك بتيارات الحمل الدائرية المنتظمة التى تحدث فى الماء قبيل غليانه، لقد تجاهلوا أن تيارات الحمل تحدث نتيجة لخواص فيزيائية لجزىء الماء، فهل من الخواص الفيزيائية لعناصر مكونات البروتين (الكربون والهيدروجين والأوكسجين والنيتروجين والفوسفور) أن تُنتج جزىء البروتين شديد التعقيد؟ إن أحدًا من الفيزيائيين لم يقل بهذا.

= كثيرًا (تصل إلى ملايين النكلوتيدات)، ويستطيع تخزين المعلومات بشكل أكثر إحكامًا وأكثر تحررًا من الأخطاء، كما أنه أقدر على التناسخ نظرًا لازدواجه.

ومن الدنا نشأت كروموسومات الخلية التى تحمل النمط الجينى لمعظم الكائنات الحالية (عالم الدنا DNA World).

وتجدر الإشارة إلى أن عمر أقدم حفريات لبكتريا تتألف مادتها الوراثية من الدنا DNA هو ٣,٧ مليار عام.

(١) كتاب Selfish gene الجين الأنانى - تأليف ريتشارد دوكنز Oxford, 1989.page 15

ولتفسير كيفية نشأة الخلية الحية (سواء تبعًا لمنظور الجينات أولًا أو الكيمياء أولًا) لجأ الماديون إلى أسلوب اتبعوه كثيرًا عند دراسة مثل هذه الظواهر، وهو أن يطلقوا على الظاهرة اسمًا ينشغل به الناس عن البحث عن التفسير الحقيقى للظاهرة. وقد لجأ الدراونة هذه المرة إلى اصطلاح «الفوضى الخلاقة والتنظيم الذاتى»[1]، ويُقصد بها انبثاق النظام من الفوضى. وعَرَّفوها بأنها العملية التى تُزيد بواسطتها أيه منظومة من درجة انتظامها، بدون تدخل أى عامل من خارجها ولا قيادة مركزية من داخلها[2]!

من أكبر الأخطاء التى يقع فيها الكثيرون هو اعتقادهم أن الفوضى الخلاقة والتنظيم الذاتى عملية عشوائية، والحقيقة أنها تخضع لقوانين شديدة الدقة والتعقيد بحيث لا يمكن للعلماء متابعتها.

إن أقصى ما يمكن أن تقدمه الفوضى الخلاقة (إذا سَلَّمنا بها جدلًا) هو إيجاد بعض «الانتظام **Order**»، كأن ترسم الرياح خطوطًا على رمال الصحراء (وإن كان هذا لا يخلو من قوانين تنظمها). أما خروج «المنظومات **Systems**» كبناء قصر من هذه الرمال، أو بناء البروتينات من الأحماض الأمينية وبناء الشفرة الوراثية من القواعد النيتروجينية فتعجز عنه الفوضى الخلاقة بلا شك.

مع نشأة البروتينات

عندما أدرك العلماء التعقيد المذهل للخلية لجأوا إلى تقسيم المشكلة إلى مراحل، أملًا فى أن يجدوا حلًّا لكل مرحلة على حدة. تبنى هذا الاتجاه العالم الروسى «ألكسندر أوبارين[3]»

---

(١) Creative Chaos and Self organisation

(٢) يستشهد المؤمنون بالفوضى الخلاقة بقول للفنان الكبير بيكاسو: «كما أنك لا تستطيع أن تصنع طبقًا من العجة دون أن تكسر بعضًا من البيض، فإنك لا تستطيع أن تقدم فنًا دون أن يسبق ذلك هياج وعدم استقرار». لقد تجاهل هؤلاء أن هناك عقلًا ينظم عملية صناعة العجة كما ينظم إبداع الفنان، ألا يحتاج إبداع الكون والحياة إلى مثل هذا العقل؟!.
وأثناء الحرب العراقية، استخدم الرئيس الأمريكى جورج بوش اصطلاح الفوضى الخلاقة ليبشرنا بأن ما سببته حربه من دمار شامل سيتمخض عنه مجتمع راق ديمقراطى مستقر. لو تجاوزنا عن كل ما فى هذا الادعاء من مغالطات، فهل سينشأ هذا المجتمع دون جهد وعرق وتضحيات العديد من أبناء العراق المخلصين؟
فى هذين المثلين (بيكاسو، وبوش)، هناك تدخل فى النظام من خارجه، هناك المُنَظِّم الفاعل.
وإذا جاز استخدام هذا الاصطلاح فى الفن والسياسة فهو استخدام مجازى لا يصح أن نسحبه على العلم. وإذا كان هناك علم تخصص لدراسة ظاهرة الفوضى الخلاقة (علم الشواش) فهو يدرس بمعادلاته الدقيقة احتمالات نشأة الظواهر ولا يدرس السبب وراءها.

(٣) Alexander Oparin (١٨٩٨ – ١٩٨٠م) أستاذ الكيمياء الحيوية بجامعة موسكو، وعضو الأكاديمية الروسية للعلوم.

فطرح عام ١٩٢٤ فرضية نشأة الخلايا الحية تدريجيًا من المادة غير الحية عبر عدد من التفاعلات الكيميائية، بدأت بتكوين مركبات عضوية بسيطة من الغازات التى كانت موجودة فى جو الأرض (الميثان والأمونيا والهيدروجين وبخار الماء)، وذلك تحت تأثير الطاقة الشمسية وطاقة البرق. ثم تراصت هذه المركبات وتفاعلت فيما بينها لتنتج مركبات أعقد وأعقد حتى تشكلت البروتينات التى كَوَّنت الخلية الحية.

وعندما تمكن ستانلى ميلر فى تجربته الشهيرة عام ١٩٥٣ (١) من الحصول على بضعة أحماض أمينية، رأى البعض فى ذلك إثباتًا لفرضية العالم الروسى أوبارين. ولكن قبل انقضاء القرن العشرين أثبت العلماء خطأ هذه الاستنتاجات، إذ تأكد أن جو الأرض يختلف تمامًا عن ذلك الذى أجرى فيه ميلر تجربته، فقد كانت الغازات السائدة هى النيتروجين وثانى أكسيد الكربون وبخار الماء، بالإضافة إلى كميات كبيرة من الأوكسجين كانت كافية لأكسدة وإتلاف المركبات التى تنتج أولًا بأول.

من الهواء إلى الماء

بعد ذلك جاء دور الخطوة التالية من «تقسيم المشكلة»، فانتقل العلماء من الهواء إلى الماء، وطرحوا فرضية اشتهرت باسم «الحساء البدئى **Primordial Soup**»، والتى تتبنى أن مياه المحيطات أصبحت مشبعة بالجزيئات العضوية (كالأحماض الأمينية والأحماض النووية والكربوهيدرات...) وغنية ببعض الأملاح وأهمها الفوسفات. ومن خلال بلايين التفاعلات الكيميائية العشوائية بين هذه المركبات على مدى ملايين السنين تكونت المادة الحية.

وبالرغم مما تبدو عليه فرضية الحساء البدئى من وجاهة، فقد فَنَّدَ العلماء هذه الفرضية. فهاهو الجيولوجى الكبير جيم بروكس يؤكد فى كتابه Origin of life (عام ١٩٨٥) أن طبقات الأرض المتشكلة من تَرَسُّباتِ مياه المحيطات فى العصر ما قبل الكمبرى (فترة الإعداد لظهور الحياة) كانت فقيرة فى عنصر النيتروجين(٢) المُكَوِّن الأساسى فى الأحماض الأمينية والبروتينات، ومن ثَمَّ فهذا الحساء البدئى لا وجود له إلا فى عقول من يتحدثون عنه!

(١) أراد ستانلى ميلر فى رسالته الدراسية اختبار فرضية أوبارين، فوضع خليط الغازات فى إناء زجاجى ومرر فيه شرارات كهربائية. وبعد بضعة أيام تَكَوَّنَ على جدار الإناء عدد من الأحماض الأمينية العشرين التى تشارك فى تكوين البروتينات. عندها هلل البعض واعتبروا ذلك دليلًا على إمكانية نشأة الحياة تلقائيًا!

(٢) لم يتجاوز مستواه ٠١٥, ٠٪.

بالإضافة لتفنيد العلماء لدور نتائج تجربة ستانلى ميلر فى نشأة الحياة، وأيضًا تفنيد فرضية الحساء البدائى، فقد طرحوا صعوبات أخرى تعترض تكوين جزىء البروتين من الأحماض الأمينية. أول هذه الصعوبات هى تكون السلاسل الببتيدية Peptide Chains بالصدفة من اتصال الأحماض الأمينية، ففرصة تَكَوّنْ سلسلة ببتيدية واحدة من ١٠٠ حمض أمينى بالعشوائية هى ١٠$^{-٦٠}$ وهى فرصة ضئيلة للغاية، كما أنها تتعارض مع القانون الثانى للديناميكا الحرارية الذى يرى أن المنظومات تسير إلى مزيد من الفوضى ما لم ينظمها منظم. ويخبرنا الفيزيائى بول ديفيز أنه فى ظروف نادرة للغاية يمكن أن تسير المنظومة إلى البناء بدلًا من الفوضى، لكن ذلك يحتاج محلولًا من الأحماض الأمينية يشغل الكون كله للحصول على سلسلة ببتيدية واحدة قصيرة!

أما الصعوبة الأكبر فى تشكيل جزىء البروتين فهى أن تلتف السلسلة الببتيدية بشكل متفرد شديد التعقيد لتُكَوِّن هذا الجزئ[١]. إن فرصة أن يحدث ذلك بالصدفة فى سلسلة طولها مائة حمض أمينى هى ١٠$^{-١٣٠}$، أما احتمالية تكون البروتينات المطلوبة لخلية واحدة فتبلغ ١ × ١٠$^{-٤٠٠٠٠}$.

ويُشَبِّه الفيزيائى الكبير سير فريد هويل فرصة حدوث ذلك عشوائيًّا بمرور إعصار على مخزن للخردة فتتبعثر محتوياته لتشكل طائرة نفاثة من طراز بوينج ٧٤٧!

وإذا وضعنا فى الاعتبار أن الفترة المتاحة بين تَبَرُّد الأرض بعد نشأتها وبين ظهور أول حفريات الكائنات الحية تبلغ حوالى مائة مليون سنة، فهل هذا الوقت كافٍ لتُكَوِّن بروتينات الخلية الحية بالصدفة؟[٢].

سبق أن أجبنا عن هذا السؤال، حين بينا استحالة تكون جزىء بروتين واحد بالصدفة

---

(١) يُشَبه عالم البيولوجيا الجزيئية آرنس سميث ذلك بكتابة ديوان من الشعر باستخدام حروف اللغة، بما يحتاجه ذلك من وضع كل حرف فى موضع معين تحكمه قواعد اللغة والشعر.

(٢) لاحظ أن تَكَوُّن جزىء البروتين يحتاج إلى:
- وجود الأحماض الأمينية المناسبة من النمط اليسارى Left Handed.
- تراص هذه الأحماض الأمينية بالترتيب المطلوب (كالحروف داخل الجملة).
- تكون الروابط بين هذه الأحماض الأمينية.
- التفاف السلسلة الببتيدية المتكونة لتأخذ هيئة شديدة التعقيد، و تُعرف بالبناء الثانوى.
- تَجَمُّع السلاسل ذات البناء الثانوى فيما يُعرف بالبنية الرباعية لجزىء البروتين، وذلك حتى يصبح قادرًا على القيام بوظائفه.

(الهيموجلوبين) خلال عمر الكون كله، فما أدراك بآلاف الجزيئات البروتينية التى تحتاجها الخلية الحية؟!

إن من يتمسك بمنظور العشوائية والصدفة فى تفسير نشأة الحياة لا يُثبت إلا جهله الشديد بقوانين الصدفة وأيضًا بعلم البيولوجيا. لذلك فإن معظم العلماء الماديين المهتمين بأصل الحياة (منذ ستينيات القرن العشرين) يرفضون منظور الصدفة ويعترفون بعجزهم عن التفسير، وإن كان عوام البيولوجيين ما زالوا يعتقدون أننا لو تركنا الأحماض الأمينية معًا لعدة ملايين من السنين فستبزغ الحياة!!

معضلة البيضة والدجاجة.. أيهما أولًا ؟!

فندنا فيما سبق الآليات المتوهَمة التى طرحها الداروينيون لتفسير نشأة الحياة بالصدفة، وأظهرنا جوانب الخلل فيها. وبالإضافة إلى ذلك تبقى معضلة البيضة والدجاجة التى تقف بصلابة فى وجه تصورات الماديين فى موضعين:

أ - التطور الكيميائى Chemical Evolution مرفوض

يَدَّعى أنصار الداروينية الحديثة أن الانتخاب الطبيعى قام قبل نشأة الخلية الأولى باختيار تراتيب القواعد النيتروجينية الأنسب لتشكيل جزىء قريب من جزىء الدنا السائد الآن فى الخلية الحية، ثم ظل المركب المختار يخضع لعمليات تحسين حتى وصل إلى الهيئة الحالية لجزىء الدنا، وأطلقوا على هذه العملية اصطلاح «الانتخاب الطبيعى قبل البيولوجى Prebiological Natural Selection» أو «التطور الكيميائى Chemical Evolution»، وهذا القول مرفوض تمامًا.

فإذا كان للانتخاب الطبيعى دور مهم فى تطور الكائنات الحية على المستوى البيولوجى (أى بعد ظهور هذه الكائنات إلى الوجود) فمن المستحيل أن يلعب دورًا قبل نشأة الحياة (على المستوى الكيميائى. ذلك أن التطور (حتى لو كان كيميائيًا) يتطلب تكاثر الكائنات حتى يُمَرِّر الانتخاب الطبيعى الصفات الوراثية الأفضل إلى أجيالها التالية، إذًا فحدوث الانتخاب الطبيعى يتطلب التكاثر الذى يحتاج وجود الشفرة الوراثية، فكيف يكون له دور فى نشأة هذه الشفرة، وكيف يكون له دور فى نشأة الخلية الحية؟!

لذلك فإن اصطلاح «الانتخاب الطبيعى قبل البيولوجى Prebiological Natural Selection» اصطلاح متضارب. إنها معضلة البيضة والفرخة، أيهما أولًا: من أجل حدوث

التطور الكيميائى للوصول إلى الشفرة الوراثية المناسبة لا بد من حدوث التكاثر، ومن أجل التكاثر لا بد من الشفرة الوراثية المناسبة!!

إن الأمر يشبه رجلًا سقط فى حفرة، ومن أجل أن يخرج من الحفرة يحتاج لسلم. ماذا تقول فى عقول قوم يقترحون أن يخرج الرجل من الحفرة ليُحضر إليها السلم ليصعد عليه!!

ب - أيهما أسبق؛ البروتينات أم الدنا

وتُقابلنا معضلة «**البيضة والدجاجة أيهما أولًا ؟!**» مرة أخرى عند مناقشة العلاقة بين الشفرة الوراثية (الدنا) والبروتينات، إنها واحدة من أكبر المشاكل التى تواجه المهتمين بأصل الحياة.

وتتلخص المعضلة هنا فى أن الشفرة الوراثية (الدنا) تحتاج إلى الإنزيمات من أجل أن تقوم بعملها، وما الإنزيمات إلا بروتينات، أى أن الشفرة الوراثية تحتاج إلى البروتينات. وفى الوقت نفسه، يحتاج بناء البروتينات إلى الشفرة الوراثية لتحديد تتابع الأحماض الأمينية التى تتكون منها وللربط بينها.

إذًا فالبروتينات لا تنشأ دون الدنا، والدنا لا يعمل إلا بالبروتينات. كيف ينشأ نظامان مختلفان بصفة مستقلة عشوائيًّا، بينما يحتاج كل منهما للآخر لوجوده ووظيفته!!.

من أجل التغلب على هذه المشكلة طرح الماديون العديد من التفسيرات المادية[1] التى لم تغير من الأمر شيئًا؛ فكلها يحتاج لمصدر ذكى للمعلومات كما سنرى لاحقًا.

---

(١) من أشهر هذه التفسيرات «فرضية الرنا أولًا RNA First Hypothesis»، التى ترى أن الحياة بدأت بكائنات شفرتها الوراثية محمولة فى الرنا RNA وهو حمض نووى مشابه للدنا؛ يحمل الشفرة الوراثية وينظم ترتيب الأحماض الأمينية فى البروتينات، وفى نفس الوقت لا يحتاج لإنزيمات للقيام بعمله. بعد ذلك ظهر جزىء الدنا (كحامل للشفرة الوراثية فى الكائنات الحية) نتيجة لالتفاف جزيئين من الرنا حول بعضهما.

إن فرضية «الرنا أولًا» لم تحل مشكلة نشأة الحياة، فما زال الكثير من التساؤلات مطروح:

١- كيف تَكَوَّن الرنا RNA فى البداية؟

٢- جزىء الرنا جزىء غير مستقر، فكيف صمد فى جو الأرض العاصف فى الأزمنة السحيقة؟

٣- إن أهم بنود الشفرة الوراثية هى وجود المعلومات، فمن أين جاءت المعلومات التى شُفِّرَت فى الرنا؟

٤- يحتاج الرنا من أجل تكاثره إلى وجود جزىء رنا مشابه له بجواره، مرة أخرى عدنا إلى مشكلة الصدفة وعجزها، إذ إن احتمال حدوث هذه الصدفة لن يتعدى 1×10^{-73}.

٥- كيف تحول جزىء الرنا إلى جزىء الدنا، الذى اشتهر بأنه أقوى جزىء عرفته البيولوجيا.

فى النهاية نقول: سواءً كانت الشفرة الوراثية محمولة على الدنا أو على الرنا فلن يغير ذلك من الأمر شيئًا، فوجود المعلومات فى الشفرة الوراثية وحده دليل كاف وقاطع على وجود الإله الخالق.

وحقيقة الموقف فى معضلتى البيضة أم الدجاجة يوضحه فرانسز كولنز[1] بقوله: «**إن الدنا لم ينشىء الحياة، بل الحياة هى التى أنشأت الدنا، فالدنا يعتمد على الحياة أكثر من اعتماد الحياة على الدنا**». إنها الحياة التى ليس لها مصدر إلا الإله الحى القيوم.

المحصلة

نلخص الموقف الذى وصلنا إليه حتى الآن حول نشأة الحياة بأقوالٍ لبعض كبار العلماء المهتمين بالقضية:

يحدد بول ديفيز جوهر الحياة بأن: «الحياة ليست مجرد تنظيم، بل إنها تنظيم ذاتى توجهه الخلية من داخلها». فإذا كانت تيارات الحمل عبارة عن تنظيم يحدث من تفاعل العوامل الخارجية (الطاقة الحرارية) مع خصائص الماء، فإن تنظيم الخلية الحية يتم من داخل الخلية (الجينات ـ العوامل المنظمة للجينات ـ غشاء الخلية ـ ...).

ويعبر فرانسس كولنز عن دهشته من ظهور الحياة خلال مائة مليون سنة فقط بعد أن بردت الأرض، ويقول: **إن كل ما طرح من آليات لا يفسر شيئًا**.

وبالرغم من عدم تعاطفه مع المعجزات، يقول سير فرانسس كريك: **يبدو أن الحياة قد نشأت بمعجزة، أو أنها جاءت إلى الأرض من كوكب آخر**[2]. لا تتعجب قارئى الكريم، ففرانسس كريك أحد العلماء الأمناء الذين لم يقتنعوا بإمكانية نشأة الحياة على كوكب الأرض بالعشوائية، ففضلوا ترحيل المشكلة برمتها إلى حيث لا نستطيع دراستها، وكأنهم يقولون لنا لا تتعبوا أنفسكم فى البحث. لكن فرانسس كريك كان أمينًا مع نفسه عندما ترك الباب مفتوحًا للتدخلات الإلهية حين وصف نشأة الحياة **بأنها قد تكون معجزة**.

ويضع ستيفن ماير[3] يده على كبد الحقيقة، فيقول: إن المطلوب لتفسير نشأة الحياة ليس مصدر مكوناتها المادية ولا مصدر النظام ولكن مصدر المعلومات المطلوبة لتشكيل الخلية. **فالحياة ليست ظاهرة كيميائية لكنها ظاهرة معلوماتية**. وهذا ما سنوضحه فى آخر الفصل.

---

(١) Francis Collins: تم التعريف به فى هوامش الفصل الثانى.

(٢) فَسَّرَ بعض العلماء ظهور الحياة على كوكب الأرض بأن الفضاء الخارجي مليء ببذور الحياة (من أين جاءت؟!!) التى تبدأ فى النمو عند الوصول إلى الكوكب المناسب. وادعى هؤلاء أن هذه البذور قد غزت الأرض محمولة على النيازك، متجاهلين أن الحرارة الهائلة والإشعاع الذى ستتعرض له هذه الكائنات الدقيقة كفيلة بالقضاء على جميع أشكال الحياة. لذلك قال آخرون: إن كائنات عاقلة من كواكب أخرى قد حملت معها هذه البكتريا داخل سفن الفضاء! وبعد ذلك بدأ التطور الداروينى! وتعرف هذه الفرضية بانتثار البذور **Panspermia Theories**.

(٣) Stephen Meyer: أستاذ فلسفة العلوم الأمريكى، من أعمدة مفهوم التصميم الذكى ومؤسسة ديسكفرى. ولد عام ١٩٥٨م.

أكذوبة الحتمية الجينية

عندما توصل جيمس واطسون وفرانسيس كريك إلى بنية وطريقة أداء جزىء الدنا DNA لوظائفه وإلى دوره فى نشاط الخلية اعتبر العلماء أننا قد توصلنا إلى سر الحياة، ونظروا إلى الدنا باعتباره الجزىء المحورى الذى يتحكم فى بيولوجيا الخلية وفى صفاتنا البنائية. ثم تَوَسَّعَت النظرة وساد الاعتقاد بأن الدنا يتحكم فى سلوكياتنا وانفعالاتنا كذلك، أى أنك إذا ورثت جين نقص السعادة، فستظل غير سعيدٍ فى حياتك!!

وفى هذا الطرح ثلاثة أخطاء فادحة. الأول، أن الجينات التى تتحكم فى صفاتنا البنائية لا تستطيع أن تتحكم فى نفسها! ولا بد لها من مُنظِّم يوجه نشاطها. والثانى هو اعتبار أن الجينات تتحكم فى جميع العمليات البيولوجية فى الخلية، ومن ثم فى حياتنا، وهذا يُعتبر تعصبًا غير منطقى لا يقل عن تعصب المتدينين المتطرفين! والخطأ الثالث هو اعتبار أن جينات قليلة تتحكم فى سلوكياتنا وانفعالاتنا، فالثابت الآن أن هذه الوظائف يتحكم فيها العديد من العوامل البيئية والنفسية بالإضافة إلى تواصل هائل بين العديد من المراكز المخية.

البيولوجيا الجديدة

ومع إعلان نتائج مشروع الجينوم البشرى عام ٢٠٠٠ جاءت المفاجأة، فقد ثبت أن عدد جينات خلايا جسم الإنسان لا يتجاوز خمسة وعشرين ألف جين، أى ٢٠٪ من العدد الذى سبق تقديره! إن ذلك يعنى ببساطة أن عدد الجينات ليس كافيًا ليفسر حياة الإنسان تبعًا لمفاهيمنا السابقة[1]، وعلينا أن نبحث عن آليات أخرى. وقد حدد عالِم البيولوجيا الكبير ديفيد بالتيمور[2] ـ الحائز على جائزة نوبل فى الطب ـ أهم النتائج الفلسفية لمشروع الجينوم بأنها «تلاشِى نظرة الحتمية الجينية Genetic Determinism»، والتى تعتقد أن الجينات تحدد مصائرنا. وقد تأكد خطأ ذلك بعد أن ثبت أن التغيرات البيئية، كالتغذية ودرجة الحرارة، وكذلك التغيرات الداخلية كالانفعال، يمكن أن تُغَير من نشاط الجينات دون تغيير فى بنية

(١) يرى التصور السابق أن خلايا جسم الإنسان التى تشتمل على مائة ألف نوع من البروتينات تحتاج إلى مائة ألف جين لبناء بروتيناتها، عملًا بالقاعدة السائدة حينها بأن «كل جين يُشَفِّر لبروتين واحد»، ذلك بالإضافة إلى قرابة عشرين ألف جين لتنظيم عمل الجينات السابقة، أى أن نواة كل خلية فى جسم الإنسان ينبغى أن تحتوى على مائة وعشرين ألف جين.

(٢) David Baltimore: عالم البيولوجيا الأمريكى. ولد عام ١٩٣٨.

الجينوم الأساسية، بل ويمكن أيضًا تمرير تلك التغيرات المكتسبة (فى النشاط) إلى الأجيال التالية. وبناء على هذه المفاهيم، تأسست البيولوجيا الجديدة New Biology التى تقوم على علم التحكم فى الجينات Epigenetics، والذى يهتم بدراسة آليات تأثير البيئة (الداخلية والخارجية) على نشاط الجينات (تنشيط، كبت، تعديل نشاط).

آليات التحكم فى الجينات

توجهت الأنظار إلى آلية التحكم فى الجينات عندما ثبت أن الدنا DAN يمثل فقط نصف محتوَى الكروموسومات، أما النصف الآخر فيتكون من بروتينات تنظيمية[1] Regulating Proteins تنظم عمل الدنا وتخضع لتوجيه المؤثرات البيئية.

وبعد أن كانت البطولة الأولى للجينات، وكانت معادلة الحياة هى:

الدنا ←—— الرنا[2] ←—— البروتينات.

صارت البطولة الأولى للعوامل البيئية، وأصبحت معادلة الحياة هى:

المؤثر البيئى ←—— البروتين المُنَظِّم ←—— الدنا ←—— الرنا ←—— البروتينات

كذلك ثبت أن العوامل البيئية التى تتحكم فى الجينات تؤدى إلى اختيار واحد من العديد من أنواع البروتينات التى يمكن أن يقوم كل جين ببنائها! هذا بعد أن كان المفهوم السائد «جين واحد لبروتين واحد». أليس هذا دور هائل للعوامل البيئية فى ظاهرة الحياة؟

وإذا كان الإنسان يتعلم من البيئة المحيطة فإن الخلايا أيضًا تتعلم من بيئتها المحيطة. ومن أهم أمثلة ذلك خلايا المناعة، التى تُكَوِّن ذاكرة خلوية تُسَجِّل فى جيناتها وتجعلها قادرة على التعرف على البكتريا الغازية إذا هاجمت الجسم مرة أخرى، ويتم تمرير هذه المعلومات المكتسبة عن طريق الجينات إلى الأجيال الجديدة من الخلايا. وهذا ينفى ما يتمسك به المتحمسون للحتمية الجينية من أن الصفات المُكتَسَبَة لا تُسَجَّل فى الجينات ومن ثم لا تُوَرَّث، ويُعَد بحق ثورة فى معلوماتنا البيولوجية.

(١) كان الباحثون يلقون هذه البروتينات فى صناديق القمامة أثناء شغفهم الزائد بدراسة الدنا. وتُشكل هذه البروتينات غلافًا يحيط بالدنا ويمنع قراءة ما به من المعلومات؛ ومن ثم يمنعه من ممارسة مهامه. وهنا يأتى دور المؤثرات البيئية، فهى تغير من شكل الغلاف البروتينى، فينفصل عن الدنا، مما يسمح بقراءته وتنفيذ ما يحمل من معلومات.

(٢) الرنا RNA، ثانى الأحماض النووية فى نواة الخلية، وهو أبسط تركيبًا من الدنا DNA، ويقوم بالدور الرئيسى فى نقل المعلومات من نواة الخلية إلى خارجها، ثم يقوم بتوجيه عملية بناء البروتينات.

الجينات هى كبد الخلية وغددها التناسلية!

إذا كان المخ هو العضو المسئول عن التحكم فى وظائف أعضاء وسلوك الكائن، وإذا كان تلفه يعنى الموت، فهل تمثل جينات نواة الخلية نفس الأهمية، أى هل الجينات هى مخ الخلية؟

للإجابة عن هذا السؤال المحورى، قام علماء الخلية بعدد من التجارب أزالوا فيها نواة الخلية Enucleation. كانت النتائج مذهلة، لقد عاشت كثير من الخلايا لمدة شهرين بدون نواتها (بدون جيناتها). لقد احتفظت الخلية بقدرتها على الحركة، وابتلاع الطعام، والتمثيل الغذائى، والتنفس، والهضم، والإخراج، والتواصل مع الخلايا الأخرى، والتفاعل تجاه المتغيرات البيئية. فقط لم تستطع الخلية الانقسام والتكاثر، بالإضافة إلى عدم القدرة على تجديد ما يَنفد من بروتيناتها، وهذا هو سبب موتها فيما بعد. إن ذلك يعنى أن مخ الخلية ظل موجودًا ويعمل فى غياب جيناتها. لذلك نعتبر ـ مع بعض التجاوز ـ أن النواة ليست مخ الخلية، بل هى كبدها الذى يبنى البروتينات وغددها التناسلية (المناسل) التى تقابل المبيضين والخصيتين فى الحيوانات!

غشاء الخلية هو مخ الخلية

إذا كانت الجينات ليست هى مخ الخلية وسر الحياة، فما هو أقرب مكوناتها لأن يستحق هذا الوصف؟

من أهم وظائف المخ إدراك (استشعار) الوسط الداخلى والوسط المحيط للكائن الحى، ثم توجيه نشاطات الجسم المختلفة للتعامل مع المتغيرات فى هذين الوسطين. وإذا نظرنا إلى الخلية، نجد أن الذى يقوم بتلك المهمة التى تتوقف عليها حياتها هو غشاء الخلية، الذى إذا أُتلف ماتت، وإذا تم إعطاب ما به من «مستقبلات ومستجيبات» دخلت الخلية فى غيبوبة تشبه حالة الموت الدماغى فى الإنسان! لذلك استحق غشاء الخلية أن يُعتبر هو مخ الخلية وسر الحياة.

ومن أجل أن يقوم غشاء الخلية بمهامه الذكية، تم تزويده بـ«مستقبلات **Receptors**» تعمل كهوائيات أو قرون استشعار تدرك ما حولها خارج وداخل الخلية. كما تم تزويد غشاء الخلية بـ«مستجيبات **Effectors**» تتلقى التعليمات من المستقبلات، فتفتح بواباته أو تغلقها، لتسمح أو تمنع مرور المواد المختلفة إلى داخل وخارج الخلية، وذلك تبعًا لما ترصده المستقبلات من ظروف بيئية داخل الخلية وخارجها.

وهناك مئات الآلاف من المستقبلات والمستجيبات فى غشاء كل خلية، تعمل معًا فى تناغم

وتنسيق، وهو ما يُسمى بـ «الأسلوب الجَمعى Holisitic» الذى يعتمد على فيزياء وكيمياء الكوانتم. ويمكن تشبيه أداء غشاء الخلية بأداء رقائق الكمبيوتر Computer Chips التى تعمل بنفس الأسلوب الجمعى، فتقوم باستقبال المُدخَلات ومعالجتها ثم تمرر التعليمات إلى تراكيب أخرى لتقوم بالتعامل معها، وهذه إحدى وظائف غشاء الخلية. كذلك فإن كليهما تتم برمجته من الخارج؛ المبرمِج فى حالة الكمبيوتر، والبيئة ـ وليس الجينات ـ فى حالة غشاء الخلية. لذلك ينبغى النظر إلى جينات الخلية باعتبارها أسطوانة الذاكرة Memmory Disc التى تحمل وصفة بناء البروتينات، وليس باعتبارها المبرمِج، والدليل على ذلك ـ كما ذكرنا ـ أن إزالة نواة الخلية يؤدى إلى فقدان القدرة على بناء البروتينات، وليس إلى فقد برامج الخلية.

وقد اكتشف العلم عددًا من الآليات شديدة التعقيد[1] التى ليس للجينات دور فيها،

---

(١) من أهم هذه الآليات:

١ - ما ذكرناه من أن الجين الواحد يمكن أن يُشَفِّر لإنتاج عدد كبير من البروتينات، يتم اختيار إحداها تبعًا للظروف السائدة داخل الخلية وحولها.

٢ - إذا أخذنا فى الاعتبار أن كلًا من هذه الجينات يكون على إحدى حالتين (خامل أو نشط) تبعًا للظروف السائدة، فإن الفرق فى نشاط الجينات بين كائنين يزيد أحدهما عن الآخر بـ ٢٠٠٠ جين ـ مثلًا ـ يبلغ ٢ ^٢٠٠٠^ وهو فرق رهيب. كذلك لا تكون الجينات إما خاملة أو نشطة، بل هناك درجات ومستويات لنشاط كل جين مما يضاعف الاحتمالية السابقة بمئات المرات!. وإذا أخذنا فى الاعتبار أن كل نشاط أو صفة تتحكم فيها مجموعة من الجينات، لكل منها درجات متفاوتة من النشاط، أدركنا عِظم الفوارق بين الكائنات وفى الكائن الواحد تحت ظروف مختلفة.

٣ - تصحيح الأخطاء Error - Correction: إن مجرد وجود الدنا فى النواة ليس كافيًا وحده لعمل نسخة منه يتم نقلها إلى الريبوزومات لبناء البروتينات، فأثناء عملية النسخ تحدث أخطاء تقوم أنزيمات متخصصة بإصلاحها. ويعنى ذلك أن الخلية لا تقف مكتوفة الأيدى أثناء هذه العملية الحيوية، بل إنها تنفق جزءًا كبيرًا من طاقتها لتصحيح هذه العيوب.

٤ - التبديل بالقطع والتوصيل Alternative Splicing: بينما تكون الشفرة المحمولة على الرنا فى طريقها من الدنا (فى نواة الخلية) إلى الريبوزمات لتقوم ببناء البروتين المقابل لها، يتم أحيانًا تعديلها بآليات القص واللصق لتصبح رسالة مختلفة تمامًا، وتؤدى إلى بناء بروتين مغاير تمامًا!. وبهذه الآلية يؤدى أحد جينات ذبابة الفاكهة إلى بناء ٣٨٠١٦ نوع من البروتينات! لا شك أن هذه الآلية لا دور للجين فيها، فهو مفعول به، فمن الفاعل؟ لا ندرى بعد.

٥ - البنية الثلاثية للبروتين Geometry of Protein: إن تكوين سلسلة الأحماض الأمينية تحت إشراف الدنا غير كاف لبناء البروتين. إن أهم خطوة هى أن تنثنى هذه السلسلة فى شكل ثلاثى الأبعاد تحت توجيه بروتينات أخرى تسمى Chaperone، وهذه العملية لا دخل للجينات فيها.

رأينا من الآليات الخمس السابقة أن بناء بروتينات الخلية، وهى أخطر عملية فى بنية وعمل الخلية، لا يقف عند حمل شفرة هذه البروتينات فى الجينات، فهذه الآليات لا علاقة للجينات بها. لذلك تَشَكَّلت مجموعة جديدة من العلوم (البروتيوم Proteome) لدراسة بروتينات الخلية.

كذلك تشكلت علوم (الإنترأكتوم Interactome) التى تعنى بدراسة التفاعلات والعلاقات بين مختلف الجزيئات الكيميائية فى الخلية الحية، ومن ثم فهى المسئولة عن دراسة أدق مستويات الحياة، ودراسة كيف تخرج الحياة من جزيئات المادة غير الحية. وهذه العلوم أعقد كثيرًا من علم الجينوم المختص بدراسة الجينات، حتى أصبحت أكبر التحديات العقلية التى تواجه العلماء.

والتى تسمح للشفرة الوراثية الواحدة فى الكائن الواحد (أنت مثلًا) بإنتاج مليارات من الاحتمالات من المخرجات! تبعًا للعوامل المحيطة داخل وخارج الخلية والتى يستشعرها غشاء الخلية، ومنها العوامل النفسية والروحية!. كما تسمح هذه الآليات بوجود العديد من الفوارق فى النمط الظاهرى (بنية ووظيفة الأنسجة) بين كائنين يوجد بينهما فوارق بسيطة فى النمط الجينى؛ كالذى بين الإنسان والشمبانزى مثلًا.

لذلك نعتبر أن المسئول عن التعامل مع المتغيرات داخل وخارج الخلية بل والتعامل مع مختلف مشاعر الإنسان هو غشاء الخلية، مما جعله جديرًا بأن يوصف بأنه (وليس النواة) مخ الخلية الحقيقى.

الإصرار على الخطأ!

بالرغم من كل ما كشفه العلم حول الدور الحقيقى للجينات، ما زال الكثير من علماء البيولوجيا وعلى رأسهم ريتشارد دوكنز ينظرون إليها باعتبارها المسئولة عن حياة الخلية وعن برمجتها، ويعتبرون أن هناك حتمية جينية، أى أنه لا يمكننا الفرار مما تم برمجته فى جيناتنا. ودحضًا لهذا الهُراء، يقول ستيف جونز[1] عالم الوراثة: «يشترك الشمبانزى مع الإنسان فى ٩٨,٧٪ من الدنا النشط، لكنه ليس ٩٨,٧٪ من الإنسان، إنه شمبانزى. وقس الأمر أيضًا على الفئران وأصابع الموز، فلسنا أصابع موز بنسبة ما. إن القول بأن الجينات تحدد طبيعتنا ادعاء سخيف، إن هناك الكثير جدًّا من الناحية البيولوجية يقف وراء الحياة ووراء كوننا بشرًا».

إن التخلص من مفهوم الحتمية الجينية يضع مصير حياتنا فى أيدينا، فنحن قادرون على برمجة الخلية من خلال غشائها (عن طريق ظروفنا البيئية وحالتنا النفسية والروحية)، وقد آن الأوان لأن نرسم خطًّا يفصل بين عالمين؛ العالم الداروينى الذى يصورنا كروبوتات حية متصارعة، وعالم البيولوجيا الجديدة التى تنظر إلى الحياة باعتبارها رحلة يتعاون فيها إناس أقوياء من أجل الحياة فى سعادة وحب. ولقد آن الأوان لأن نعرف أننا لسنا عبيدًا لجيناتنا، لكننا سادة لمصائرنا.

(١) Steve Jones: عالم البيولوجيا البريطانى، ولد عام ١٩٤٤.

سر أسرار بيولوجيا الحياة

المكون المعرفى

قَرَّبنا ستيفن ما ير من سر الحياة حين ذكر أن الحياة ليست «ظاهرة كيميائية»، لكنها «ظاهرة معلوماتية». فما معنى ذلك؟

نجمل القول فى أن المعلومات مطلوبة لنشأة الخلية الحية وقيامها بوظائفها على مستويين:

المستوى الأول: المعلومات اللازمة لتشكيل مكونات الخلية الحية ثم ربطها ببعضها.

المستوى الثانى: المعلومات التى تحملها الشفرة الوراثية وتشارك بشكل كبير فى نشاطات الخلية المختلفة[١].

ولنقترب الآن من فهم المعلومات.

وصفة صناعة الحساء...

فى كتاب «المعلومات وأصل الحياة»[٢] يلفت برند أولاف كوبر (أستاذ الفلسفة الطبيعية الألمانى) نظرنا إلى أنه من أجل أن نصنع حساءً جيدًا لا يكفى أن يكون لدينا مكونات الحساء ومصدر الطاقة فقط، لا بد أن يكون عندنا وصفة الصنع بتفاصيلها. لذلك فإن الاقتراب من معرفة أصل الحياة لا يتحقق إلا إذا عرفنا مصدر المعلومات التى يحتاجها بناء الخلية والتى تحملها الشفرة الوراثية.

وفى مقال بمجلة العلوم (ديسمبر ٢٠٠٣) يقربنا جاكوب بنكيمستين[٣] من القضية بطرح مثير للاهتمام فيقول: إذا سألت معظم الناس عن أصل العالم المادى لقالوا (المادة والطاقة)، لكن إذا كنا قد استوعبنا ما تعلمناه فى المدرسة والجامعة عن الفيزياء لأدركنا أن العالم يتكون فى المقام الأول من «معلومات»، وأن المادة والطاقة عنصران إضافيان. انظر إلى الروبوت الذى يقوم بتجميع القطع المختلفة بمصنع السيارات، لا شك أن ما يمدونه به من قطع معدنية ولدائن سيصبح بلا قيمة ما لم يوجد برنامج الكمبيوتر الذى يغذى الروبوت بالمعلومات.

(١) ذكرنا فى بداية الفصل دور المعلومات المحمولة فى الشفرة الوراثية فى بناء البروتينات.

(٢) كتاب Information and the Origin of Life لمؤلفه Bernd- Olaf küpper

(٣) Jacob D. Benkemstein عالم الفيزياء النظرية المكسيكى، من مؤسسى مفهوم الثقوب السوداء. ولد عام ١٩٤٧.

ويخبرنا ستيوارت كوفمان[1] العالِم المهتم بأصل الحياة «إذا أخبرك أى إنسان أنه يعرف كيف نشأت الحياة على كوكب الأرض منذ حوالى ٣,٧ بليون سنة فإنه إما جاهل غبى أو محتال. فلا أحد يعلم من أين جاءت المعلومات اللازمة لنشأة الحياة حين كانت الظروف المناخية سيئة للغاية. ولا أحد يعلم كيف جاءت المعلومات التى أحدثت هذا التنوع الهائل للكائنات أثناء الانفجار الأحيائى الكمبيرى[2].

لقد تبدلت النظرة الآن إلى الحياة، فلم يعد أحدٌ من البيولوجيين المحترمين يعتقد أن المادة والطاقة يمكن أن تعطيان حياة! بل هى المعلومات. إن مشكلة الدراونة أنهم ما زالوا يطرحون مفاهيم دارون (منتصف القرن التاسع عشر) ـ التى تجهل أهمية المعلومات ـ فى القرن الحادى والعشرين. لا شك أن دارون لو كان معنا لَمَا قال بالتطور العشوائى لتفسير تنوع الكائنات، ولا بالتطور الكيميائى لتفسير ظهور الحياة.

من أين جاءت المعلومات...

والسؤال المعجز فى صعوبته (والمذهل فى بساطته فى نفس الوقت) الذى يواجه التطوريين هو: كيف استطاعت الطبيعة، دون توجيه ذكى، أن توفر المعلومات الهائلة المطلوبة لنشأة الحياة، والتى تبلغ ملايين الـ Bits[3] فى أبسط الكائنات (البكتريا)؟ من أين جاءت هذه المعلومات إذا كانت العشوائية قد عجزت تمامًا عن الحصول على مقولة شكسبير To be or not to be that is the question (التى تحتوى على ٤٠٠ Bits فقط) أثناء إجراء التجارب على مفهوم الصدفة باستخدام الكمبيوتر؟

ويجيب عن هذا التساؤل سير أنتونى فلو[4]، أستاذ الفلسفة البريطانى بقوله: مهما اختلف سيناريو الحياة، فستظل هناك الحاجة إلى مصدر فائق الذكاء لكل ما يوجد فى الخلية الحية من معلومات. ويضيف «دين كينيون[5]» (حُجة البيولوجيا الجزيئية): «لقد أصبحنا الآن فى مواجهة أعظم الدلائل فى الوجود على وجود الإله الخالق».

(١) Stuart Kauffman: أستاذ البيولوجيا الأمريكى الشهير. ولد عام ١٩٣٩.

(٢) نتحدث عنه فى الفصل القادم.

(٣) Bit = الوحدة الأساسية لقياس المعلومات. والـ Byte تساوى ٨ Bits.

(٤) تزَعَّم حركة الإلحاد طوال النصف الثانى من القرن العشرين، ثم أعلن إيمانه بدافع من البراهين العلمية بأن هناك إلهًا، بعد أن بلغ من العمر ثمانين عامًا.

(٥) Dean Kenyon: أستاذ البيولوجيا بسان فرانسيسكو، كان من الدراونة المتحمسين، ثم أصبح من أكبر أنصار مفهوم التصميم الذكى. عرض قناعاته الأخيرة فى كتابه: Biochemical Predestination، الذى صدر عام ١٩٦٩. ولد عام ١٩٣٩.

وعندما استشهدت بهذين القولين فى إحدى المناظرات، سألنى مناظرى: ما القول إذا توصل العلماء إلى تشكيل الحياة صناعيًا داخل المعمل؟ أجبته من فورى: سيكون ذلك دليلًا قويًا على وجود الإله الخالق للحياة! إذ إن الأمر قد حدث فى المعمل بجهود العلماء الذين يتوفر لهم الذكاء والمعلومات والإمكانيات، ولم يحدث عشوائيًا بالصدفة!!

لأهمية مفهوم المُكَوِّن المعرفى الذى يقدم الدليل الذى لا يدحض على وجود الإله، وفى نفس الوقت لم يسمع عنه الكثيرون، فسأعرضه بأسلوب آخر مرتبط بإنجاز علمى أقام الدنيا ولم يقعدها.

قراءة فى الخلية المُجَمَّعَة

فى العشرين من مايو عام ٢٠١٠، أعلن عالم البيولوجيا الجزيئية الأمريكى الكبير كريج فنتر[١] أن فريقه البحثى قد حقق (بعد خمسة عشر عامًا من الجهد) إنجازًا علميًا كبيرًا[٢]، يتلخص فى أنهم تمكنوا لأول مرة من تجميع الشفرة الوراثية (الدنا DNA) لإحدى الخلايا البكتيرية من مكوناتها الأولية (النيكلوتايدات = القواعد النيتروجينية)، ثم وضعوا هذه الشفرة فى جسم خلية بكتيرية حية من نوع آخر (ومن نفس الجنس) بعد نزع شفرتها الوراثية، فإذا بالخلية تنقسم وتمارس وظائفها الحيوية وتقوم ببناء البروتينات تبعًا للشفرة الجديدة.

لقد أثار هذا الإنجاز الكبير ردود أفعال متضادة هائلة (عن علم أو غير علم)، بين فريق أصابته النشوة، وتعالت صيحاته فى الإعلام: أول خلية صناعية، حياة صناعية، خَلَّقوا الخلية، خَلَّقوا الحياة، أضافوا كائنًا جديدًا إلى قائمة الكائنات الحية، وغيرها وغيرها... إذ اعتبر أن العلم قد خَلَّقَ الحياة فى المعمل، وفريق آخر أصابه الحزن والقلق إذ رأى فى هذا الإنجاز خطرًا على معتقداته الدينية، فأخذ يهون منه قدر استطاعته!

من أجل أن نصل إلى حقيقة الأمر ينبغى أن ننظر إلى هذا الحدث نظرة علمية محايدة، بالإضافة إلى نظرة معرفية فلسفية.

يمكن توصيف ما قام به العلماء فى أنهم «استبدلوا» مُرَكبًا كيميائيًا معينًا (دنا الخلية C)[٣]

---

(١) Craig Venter: عالم البيولوجيا الجزيئية الأمريكى الشهير، ولد عام ١٩٤٦.
(٢) جاء هذا الإعلان فى مؤتمر صحفى كبير، عُقد فى نفس يوم نشر البحث فى المجلة العلمية الشهيرة Science.
(٣) Mycoplasma Capricolum

بمركب كيميائى آخر مُصَنَّع، وهو دنا الخلية (M)[1] الذى قلدوه فى بنيته وفى ترتيب قواعده النيتروجينية. إنه تمامًا كما تقلد تايوان منتجات اليابان، إنه نوع من «**الهندسة الرجعية reverse engineering**»، التى يقوم فيها أحد المصانع بتفكيك أحد الأجهزة التى ابتكرها وأنجزها مصنع آخر، ويقوم بدراسة مكوناته ثم صناعة هذه المكونات قطعة قطعة وتجميعها تبعًا لنفس المواصفات، فيحصل على نفس الجهاز. إنه نوع من «**التقليد**».

وإذا تأملنا قليلًا، نجد أنه أقل من التقليد، إنه نوع من «**التجميع**» كالذى تقوم به الدول فى مجال صناعة السيارات مثلًا. فنحن نستورد قطعًا جاهزة لسيارة (لا نصنعها) ونقوم بتجميعها تبعًا للمواصفات. وهذا ما فعلوه، فقد قاموا بتجميع القواعد النيتروجينية تبعًا لترتيبها فى جينوم البكتريا (M).

إن الدنا الذى استبدلوه ليس هو مصدر الحياة، إنه فقط المعلومات المطلوبة لبناء بروتينات الخلية ولانقسامها، أما الخلية الحية فقد جاءوا بها كاملة بجميع مكوناتها[2]. لكن، إذا افترضنا جدلًا أن العلماء قد تمكنوا من تصنيع كل مكونات الخلية فهل ستدب الحياة فيها؟ وإذا افترضنا أن الخلية المُصنعة مارست وظائفها البيولوجية؛ كالاغتذاء والتكاثر والإخراج، فهل ستمارس الوظائف الوجودية للحياة، كالذكاء والغائية، والتى ذكرنا أنها لا تنتمى لعالم المادة؟ للإجابة عن هذا السؤال نطرح مفهوم المكون المعرفى والصفات المنبثقة.

المكون المعرفى والصفات المنبثقة

تحدثنا فى الفصل الثانى عن الصفات المنبثقة **Emergent Properties**، والتى تعنى أن المنظومة ما أن تصل إلى مستوى عال من التعقيد حتى تنبثق منها صفات جديدة.

وإذا أخذنا موتور السيارة كمثال، وجدنا أنه يتكون من مئات القطع، ولا شك أن محصلة عمل هذه القطع (التى هى حركة الموتور) تختلف تمامًا عن حاصل جمع وظائف كل قطعة على حدة. **إن التفاعل بين مكونات الموتور يُخرج لنا وظيفة جديدة تمامًا**، وبذلك تصبح الحركة صفة منبثقة من مكونات الموتور.

(١) Mycoplasma Mycoides

(٢) إن الخلية الحية التى استعانوا بها كان لها غشاؤها شديد التعقيد الذى يستشعر التغيرات داخل وخارج الخلية، والمزود ببوابات تسمح باختيار المواد المختلفة التى تمر إلى داخل وخارج الخلية، بالإضافة إلى محطات الطاقة (الميتوكوندريا) ومصانع بناء البروتينات (الريبوزومات)، وغيرها... وهذه مكونات لم يستطع العلماء تصنيعها.

وإذا تأملنا «موتور السيارة» بعمق أكثر، وجدنا أن السر الذى يجعله يعمل بكفاءة يكمن فى تصميم وصناعة كل جزء من مكوناته العديدة. فكل جزء من الموتور تمت صناعته من سبيكة ذات مواصفات معينة، وله هيئة وقياسات محددة بدقة تبلغ جزءًا من الألف جزء من المليمتر؛ وقد صُنعت أجزاء الموتور بناء على مواصفات يسميها أصحابها «المُكَوِّن المعرفى» أو «سر الصنعة The Know How»، كل ذلك من أجل أن تتناسق وتتناغم كل قطعة مع القطع الأخرى فى عملها. وما أن نزود الموتور بكارت المعلومات (إذا كان موتورًا إلكترونيًّا) ثم نمده بالطاقة حتى يدب فيه النشاط. إن هذا السر هو ما يرفع قيمة الموتور الذى لا يزيد ثمن ما فيه من مواد عن بضعة عشرات من الجنيهات ليباع بعشرات الآلاف من الجنيهات.

هل يمكن تطبيق هذا المثال على الخلية الحية؟ إن مكونات الخلية (بروتينات، وأحماض نووية، ودهون، وكحوليات، وسكريات و...) قد صُممت بدقة هائلة بحيث يتناغم عملها مع بعضها بشكل مذهل. فهل خلق الله ﷻ كلًّا من هذه المكونات بحيث إذا جُمعت إلى بعضها على هيئة معينة وبنسب معينة ومدت بالمعلومات وبالطاقة دبت فيها الحياة؟ إن معنى ذلك أن الحياة كامنة فى كل جزء من المادة غير الحية!

إذا كان الأمر كذلك، فهل هذا هو سر الحياة؟ أيكمن فى تصميم الخلية ككل، وفى تصميم كل جزء من أجزائها، وفى إخراج هذه الأجزاء إلى الوجود، وفى تجميعها بالنسب المطلوبة، وفى إيجاد التناسق بين هذه الأجزاء وبين مصدر المعلومات ومصدر الطاقة؟

نحن الآن أمام مفهومين لتفسير معجزة الحياة. الأول هو مفهوم «المكون المعرفى» والثانى هو مفهوم «النفخة الغيبية» كسرٍ للحياة. ولا شك أن المفهوم الثانى لن يمارس دوره إلا فى خلية استوفت بنيتها المادية ومكونها المعرفى. إننى أرى فى كلا الاحتمالين كمالًا للإعجاز الإلهى، فليست النفخة الغيبية بأكثر دلالة على الإله الخالق من بعث الحياة فى الخلية من خلال مكونها المعرفى.

سبحان الخلاق العظيم

ولنسترسل مع طرحنا قليلًا؛ إذا استطاع العلماء أن يُصَنِّعوا أجزاء الخلية الدقيقة، ويجمعوها إلى بعضها فقامت الخلية بمهامها الحيوية، هل نقول إنهم قد خلقوا الحياة.. ألا يتعارض ذلك مع قولنا بأن الله ﷻ هو الخالق وهو المحيى؟

للإجابة عن هذا الطرح الافتراضى نعود لموتور السيارة. إن من يفكك أجزاء الموتور ويقلدها ويجمعها (الهندسة الرجعية) لا يكون قد اخترع الموتور، لكنه قلده. ومن باب أَولَى

نقول إن المصانع التى تقوم بتجميع الأجزاء المستوردة للموتور قد جَمَّعَت الموتور، ولا نقول إنهم اخترعوه، فالموتور قد تم اختراعه مرة واحدة وانتهى الأمر.

على من يريد أن يخترع موتورًا أن يُنشئ شيئًا جديدًا بآليات جديدة. فمثلًا كان هناك الموتور البخارى الذى يمد الآلة بالطاقة من الخارج، ثم أُخترع موتور الاحتراق الداخلى الذى يقوم بإنتاج الطاقة فى داخله، ثم أُخترع الموتور النفاث. كل من هذه الأشياء اختراع جديد تمامًا، أو شبه جديد.

كذلك الحياة، فإن مكونات الخلية الحية بتفاصيلها وآليات عملها وشفرتها الوراثية قد تم خلقها وانتهى الأمر. فإذا قام العلماء بتجميع هذه الأجزاء (المخلوقة بالفعل بجميع خصائصها) فدبت الحياة فى الخلية، فسنقول إنهم قاموا بتجميع الخلية الحية، ولا ينبغى أن نقول إنهم قد خلقوا الخلية.

ولكن، ألم يتحدَ الله ﷻ الكفار مجتمعين أن يخلقوا ذبابًا؟ ألا يعنى ما ذكرنا أنهم قد يستطيعون ذلك؟

وصلنا إلى أن ما يحاول العلماء القيام به هو تجميع الخلية الحية، وليس خلق الخلية ولا حتى تقليدها. فإذا أرادوا أن يخلقوا ذبابًا (والخلق هو الإيجاد من عدم على غير مثال سابق) عليهم أن يخترعوا منظومة جديدة تمامًا للحياة، مثل أنواع الموتورات التى تحدثنا عنها. عليهم أن يُنشِئوا موادًا أولية جديدة من العدم، عليهم أن يخترعوا ويُفَعِّلوا القوانين التى تحكم هذه المواد الأولية وهذه المنظومة الجديدة. عند ذلك يكونون قد خلقوا منظومة حية، ولا أظنهم يفعلون.

ولنضرب مثالًا آخر يوضح المقصود. فلننظر إلى القصيدة الشعرية. إن بنية اللغة هى الحروف التى تتكون منها الكلمات، ثم تُكَون الكلمات أبيات القصيدة. كذلك تحكم اللغة قواعد من النحو والصرف وبنية الجملة، كما يحكم الشعر ما نعرفه عنه من بحورٍ وعروضٍ وقوافٍ وغيرها.

إن ما يقوم به الشاعر أنه يستخدم كل هذا ليُخرج لنا إبداعه الشعرى الجديد. إن ما يفعله العلماء الآن أقل من ذلك بكثير، إنهم لم يخترعوا لغة جديدة، ولم يستخدموا اللغة الموجودة بالفعل لتأليف قصيدة جديدة، إنهم يحاولون نسخ قصيدة مكتوبة بالفعل.

بل إذا استطاع العلماء ـ جدلًا ـ صياغة شفرة وراثية جديدة تمامًا، فإن ذلك يعنى أنهم قد صاغوا قصيدة جديدة مستخدمين نفس لغة الحياة. سيكونون قد استخدموا نفس المواد

(الطوب ـ الأسمنت ـ الحديد ـ الرمل) لبناء فيلا بطراز جديد، مستخدمين نفس قوانين البناء. إن العالَم أصبح الآن ملىء بأصناف جديدة من النباتات والحيوانات التى توصل إليها العلم عن طريق التهجين وعن طريق الهندسة الوراثية مِن أجل الحصول على إنتاج أفضل، ولم يُثر ذلك اندهاشنا.

وقد صرح كريج فنتر نفسه بذلك فقال: «إن طموحنا فى المستقبل ليس أن نفهم وأن نستخدم الدنا بشفراته الحالية، لكن طموحنا هو تخليق أشكال جديدة من الحياة تخدم البشرية، ليس عن طريق التطور الداروينى، ولكن عن طريق الذكاء الإنسانى».

هل لاحظت قول فنتر «تخليق أشكال جديدة من الحياة»؟ إنها هى الحياة، هى هى، لكنه يبحث عن طُرُز جديدة من الفيلات!

لا شك أن كلمة «تخليق» تثير حفيظة المتدينين. والحقيقة أن الكلمة ليست مشتقة من «خَلْق Creation»، لكن المقصود منها تصنيع وبناء Synthesis. لذلك فالعالَم يتحدث اليوم عن «البيولوجيا البنائية Synthetic Biology» وليس البيولوجيا الخَلقية.

الشفرة الوراثية

ذكرنا أن المعلومات مطلوبة للخلية للقيام بوظيفتين أساسيتين. الأولى هى بناء مكونات الخلية وتشكيلها لإنشاء الخلية الحية، والثانية هى الشفرة الوراثية التى يحملها الدنا. وقد انتهينا من عرض الوظيفة الأولى، والآن نقترب من أحد أهم أسرار الخلية الحية، وهو مصدر آلية التشفير التى يمارس بها الدنا وظيفته، ومصدر المعلومات التى يحملها.

ذكرنا أن الريبوزومات فى خلايا أجسامنا تستعمل الطاقة فى جمع الأحماض الأمينية لتشكيل البروتينات، لكنها لن تستطيع القيام بتلك المهمة دون المعلومات التى توفرها لها الشفرة الوراثية (الدنا) فى نواة الخلية. كذلك فإن دور الدنا لا يقف عند تخزين المعلومات، لكنه يمتد إلى توجيه استغلال هذه المعلومات فى عملية البناء والتشغيل، وهو ما يعرف بـ«معالجة المعلومات **Information processing**».

لذلك منذ تم اكتشاف بنية الدنا وطريقة أدائه لوظائفه عام ١٩٥٣، و ما تبعه من تأسيس علم البيولوجيا الجزيئية، أدرك العلماء أنهم يتعاملون مع علم معلوماتى يقوم على أربعة حروف

تحمل المعلومات المطلوبة للكائن الحى، ومن ثم صار فهم نشاط الخلية الحية يتم من خلال النظرية المعلوماتية Information Theory [(١)].

يقول بل جيتس[(٢)] مؤسس شركة ميكروسوفت للكمبيوتر: إذا كان هناك جوانب من الشبه بين الدنا وبرامج الكمبيوتر، فإن الأول يفوق كثيرًا أقصى ما استطعنا ابتكاره. ويقول ڤيرنر لوڤنشتين[(٣)]: يا لها من آلية عجيبة، ٤ حروف تستعملها الكائنات جميعًا، ابتداء من البكتريا منذ أكثر من ثلاثة بلايين سنة إلى الإنسان. ويلخص دوجلاس هوفستادر[(٤)] «جزء» من قضية نشأة الحياة قائلًا: إن كل دارس لبرنامج عمل الدنا ذو العقيد المذهل يلح على عقله سؤال بديهى: كيف نشأت هذه الآلية، إن كل نظريات نشأة الحياة تُعتبر قاصرة ما لم تجب عن هذا السؤال.

مصدر المعلومات

إذا كانت المعلومات التى يحملها الدنا تتوقف على ترتيب حروفه الأربعة (القواعد النيتروجينية)، فالسؤال البديهى والمحورى هنا هو: كيف يتم ترتيب هذه الحروف؟. يجيب الدراونة كعادتهم «إنها الصدفة». ثم أدرك هؤلاء سخف ما يقولون، فحاول الكثيرون منهم تعميم فكرة التجاذب بين العناصر والمركبات غير العضوية (كما يحدث بين الصوديوم والكلورين لتكوين بللورات ملح الطعام) على المركبات العضوية، فافترضوا وجود «قابلية كيميائية» للأحماض الأمينية لأن تتجمع لتكوين البروتينات، وكذلك قابلية للقواعد النيتروجينية لأن تتجمع لتكوين الأحماض النووية (الدنا والرنا) بما تحمل من معلومات.

ومن أشهر العلماء الذين تبنوا فرضية القابلية الكيميائية «دين كينيون»[(٥)]، لكنه عاد وتبرأ منها كما سبق وتبرأ من مفهوم الصدفة والعشوائية. ذلك أن القابلية الكيميائية لن تنتج إلا تكراريًّا يشبه بلورات ملح الطعام (كلوريد الصوديوم)، فنحصل مثلًا على A-T-A-T-A-T فى السلسلة الواحدة من جزىء الدنا، ولا شك أن هذا التكرار لا يحمل أى شفرة وراثية. ويشبه ذلك تمامًا أن تجد كتابًا مكتوب فى كل صفحاته تكرار لحرفى (م) و(ن) مثلًا. ويشبه ذلك أيضًا السهولة التى يجدها الطفل (عند بداية تعلمه الكلام) فى أن يربط بين حرفى (م) و (ا) فنجده يكرر كلمة ماما، وهكذا.

---

(١) نطرح نظرية المعلومات فى الفصل السابع.

(٢) Bill Gates: رجل الأعمال والمخترع والمبرمج الشهير، مؤسس شركة ميكروسوفت للكمبيوتر، ولد عام ١٩٥٥.

(٣) Verner Loevenstein: أستاذ الفيزياء الحيوية بجامعة كولومبيا، المهتم بالعلاقة بين فيزياء الكوانتم ووظائف المخ.

(٤) Douglas Hofstader: أستاذ العلوم المعرفية الأمريكى، ولد عام ١٩٤٥.

(٥) Dean Kenyon: سبق التعريف به فى هذا الفصل.

فى اللغات المنطوقة، يتطلب الحصول على معانى وضع حروفٍ مختلفة بجوار بعضها البعض لتكوين الكلمات والجمل، مع مراعاة قواعد النحو والصرف، إذًا يتطلب الحصول على معان عدم الانتظام فى تكرار الحروف مع مراعاة قواعد اللغة. وهذا هو الحال تمامًا فى الشفرة الوراثية، فالحصول على المعلومات يتطلب «عدم الانتظام فى تكرار القواعد النيتروجينية Irregularity in Sequencing» مع مراعاة القوانين.

محصلة الأمر أن «التكرار البسيط Simple Order» لا يحمل معلومات، لكن التركيب Complexity هو الذى يحمل المعلومات[١].

وإذا كانت قوانين الطبيعة تتعامل مع الظواهر التى تتسم بالانتظام (Regularity) والتكرار (Repetition)، مثل قوانين الجاذبية والحركة، فإن ذلك يعنى أن قوانين الطبيعة لن تستطيع أن تُملى المعلومات التى تشترط عدم الانتظام وعدم التكرار كالشفرة الوراثية.

ويبقى العقل كمصدر وحيد للمعلومات، لا الصدفة ولا الانتخاب الطبيعى ولا القابلية الكيميائية ولا القوانين الطبيعية.

ويضع «جورج جونسون» (فى كتابه هل كان داروين مصيبًا؟[٢]) الماديين أمام مفارقة قوية الدلالة فيقول: إذا هبطت علينا من الفضاء الخارجى أسطوانة مُدمَجة CD تحمل المعلومات المسجلة فى شفرة أحد الكائنات الوراثية، فسيجزم الجميع على الفور أن هذا دليل قاطع (بنسبة ١٠٠٪) على وجود ذكاء فى الكون[٣] خارج كوكب الأرض. لكن عندما نقابل هذه المعلومات مسجلة فى الشفرة الوراثية للإنسان يصمم الدراونة على أنها نتاج العشوائية والصدفة!!

لذلك عندما تم الانتهاء من قراءة الجينوم البشرى[٤]، وملأ ما تم التوصل إليه من المعلومات ما يساوى ٧٥,٤٥٠ صفحة من صفحات جرائدنا اليومية، عندها أعلن فرانسز كولنز مدير مشروع الجينوم: «الآن، عَلِّمنَا الله اللغة التى خلق بها الحياة».

(١) والمقصود بالتركيب هنا هو:

التنوع	Variability
المخالفة	Irregularity
لا يمكن التنبؤ به	Unpredictability

(٢) Did Darwin Get it Right? George Johnson، صدر عام ١٩٩٨.

(٣) تعنى كلمة كوزموس التى أُطلقت على الكون فى اليونانية القديمة الترتيب والانتظام. أما نقيضتها فهى كيوس Chaos، التى تعنى الفوضى وغيبة الترتيب والانتظام.

(٤) المقصود بقراءة الجينوم البشرى خرطنة الثلاثة بلايين ونصف زوج من حروف الشفرة الوراثية للإنسان، أى معرفة نوع وترتيب القواعد النيتروجينية الأربع المكونة لدنا الإنسان، وتقسيمها إلى جينات، ومعرفة دور كل جين فى الخلية الحية.

يواجه البيولوجيون والفلاسفة الماديون عند دراستهم لأصل وماهية الحياة مأزقًا علميًا فلسفيًا لا يُـحسدون عليه، وهو مأزق ذو جوانب متعددة لم يقدموا تفسيرًا لأى منها:

١ - التعقيد الهائل فى بنية أجزاء الخلية (غشاء الخلية ـ الميتوكوندريا ـ الريبوزومات...).

٢ - التعقيد المبهر فى بنية ووظيفة جزيئات الحياة (الدنا ـ الرنا ـ البروتينات). وحتى لو تمكن العلم من تصنيع هذه الجزيئات فى المعمل، فالعلم يقوم بذلك تبعًا لبنية هذه الجزيئات كما خلقها الله ﷻ.

٣- مصدر المعلومات فى الخلية. وهذه تشتمل على طريقة تشكيل كل جزىء من جزيئات المادة الحية، وتوجيه عمله وتحديد تفاعله مع باقى الجزيئات، وكذلك الشفرة الوراثية التى يحملها الدنا.

وهذا التعقيد المبهر وهذه المعلومات هى سر الصنعة للخلية الحية The Know How.

وحتى نتصور صعوبة الموقف الذى يواجهه الماديون عند محاولة تفسير هذه المعضلات، فلنطالع آراء أقطاب البيولوجيا والفيزياء فى العالم:

- يقول «آندرو كنول»[١] (الأستاذ بجامعة هارفارد):

إذا أردنا تقييم آخر ما توصل إليه العلم حول نشأة الحياة، وجدنا أننا:

١- ما زلنا لا نعرف متى بدأت الحياة بالتحديد !

٢- ما زلنا لا نعرف تحت أى ظروف ظهرت الحياة !

٣- ما زلنا لا نعرف كيف بدأت الحياة على هذا الكوكب !

هذا بخصوص الجوانب المادية لنشأة الحياة، فكيف نفسر السمات الوجودية الأعقد منها؟ وما مصدر «المكون المعرفى» الهائل الذى هو السر البيولوجى للحياة؟

- ويقـول عـالم الفيزياء النوويـة «جيرالد شرويـدر»[٢]: إن مجرد وجود الظـروف الملائمة

(١) Andrew Knoll: تولى منصب أستاذ التاريخ الطبيعى والحفريات بجامعة هارفارد وهو فى الثلاثين من عمره. من أشهر كتبه كتاب «الحياة على كوكب حَدَث: الثلاثة بلايين سنة الأولى من الحياة Life on a young planet». ولد عام ١٩٥١.

(٢) Gerald Schroeder: أمريكى، حصل على الدكتوراه فى الفيزياء النووية والكونيات عام ١٩٦٥ من MIT. ويعمل أستاذًا بالجامعة العبرية فى القدس. وهو من المهتمين بالعلاقة بين العلم والروحانيات، ومن أشهر كتبه God of Science

لنشأة الحياة، لا يفسر لنا كيف نشأت. نستطيع أن نقول (على أحسن تقدير): إن هذه الظروف «سمحت» بنشأة الحياة واستمرارها على كوكبنا. ولكن كل قوانين الطبيعة التى نعرفها مجتمعة لا يمكن أن تفسر نشأة الحياة من المادة غير الحية.

- ويقول «أنطونيو لازكانو»[1] (رئيس الجمعية الدولية لدراسة أصل الحياة): من الأمور المنطقية والعلمية التى ينبغى أن نقر بها، أن الحياة ما كانت لتنشأ دون «الآلية الوراثية Genetic mechanism» التى هى فى حقيقتها نظام للتشفير ومعالجة المعلومات، تلك الآلية المسئولة عن اختزان المعلومات ونقلها إلى الأجيال التالية، مع إمكانية حدوث بعض التغيرات فيها (تطور) والقادرة كذلك على تحويل المعلومات إلى وجود مادى ثلاثى الأبعاد. كيف اكتسبت المادة غير الحية هذه الآلية؟ لا ندرى.

وفى مقابل هذه الأمانة العلمية، نجد البعض يدعى أن الفكر المادى قد قدم شيئًا ذا قيمة لتفسير نشأة الحياة، وفى الحقيقة إنه لم يقدم شيئًا يحترم العقل. انظر إلى بعض أقوال إمام الملاحدة الجُدد ريتشارد دوكنز، لترى مدى تهربه وتهافت استدلالاته وعجزها عن طرح أى تصور علمى حقيقى، بخصوص معضلة نشأة الحياة وماهيتها.

يقول دوكنز، فى مناسبات مختلفة:

- بدأت الحياة نتيجة حدوث تفاعلات كيميائية، أدت إلى توافر الظروف الحيوية التى سمحت بالانتخاب الطبيعى!
- ما أن تَكَوَّن الجزىء الوراثى «الدنا DNA»، حتى بدأ التطور بالانتخاب الطبيعى!
- كيف حدث هذا؟ يؤمن العلماء بالقدرة السحرية للأرقام الكبيرة (عدد الجزيئات، والزمن الممتد) على إنتاج أى شىء!
- كل ما نحتاجه جزىء سحرى وفسحة من الوقت!

ألا ترى معى أنه بهذا الهُراء السحرى يمكن أن نَدَّعى حدوث أى شىء فى أى مكان وزمان.

ويرفض عالم الفسيولوجيا الكبير «جورج والد»[2] (الحائز على جائزة نوبل) هذا الهُراء ويقربنا من الحقيقة حول أصل الحياة فيقول:

---

(1) Lazcano Antonio: أستاذ البيولوجيا المكسيكى، ومن أشهر كتبه The orign of life

(2) «George Wald»: أمريكى (١٩٠٦ - ١٩٩٧م). عمل أستاذًا لوظائف الأعضاء بجامعة هارفارد. حصل على جائزة نوبل عن أبحاثه فى شبكية العين.

بالرغم من أنها كانت صدمة لتفكيرى العلمى فى البداية، إلّا أنه **ينبغى أن أقر بوجود «الذكاء والتصميم intelligence and design» وراء بناء الكون حتى يكون ملائمًا لظهور الحياة واستمرارها على كوكبنا.** والأعقد من ذلك، **نشأة الحياة نفسها،** ثم خروج الكائنات الحية، التى تتدرج فى الترقى حتى تصل إلى المخلوق العاقل القادر على التوصل إلى الاكتشافات العلمية وابتكار الفن والتكنولوجيا وعلى طرح التساؤلات. أما **إذا أنكرنا الذكاء والتصميم، واعتبرنا إن الحياة قد نشأت بالصدفة، فقد اخترنا التفسير الأصعب.**

كذلك أدرك عالم البيولوجيا الكبير «جورج تشيرش[1]» الإعجاز الإلهى فى الخلق فقال: **تشبه إنجازات البشرية منذ العصر الحجرى وحتى الآن ضوء الشمعة إذا ما قارناه بأكبر النجوم المتفجرة فى الكون. أين نحن مما فعله الإله الخالق؟** نحن لم نوجِد الطاقة والجسيمات تحت الذرية من العدم، نحن لم نصمم الانفجار الأعظم، نحن لم نصمم الحياة والكائنات الحية والمخ البشرى. كل ما نفعله أننا نحاول تقليدها.. لا، **نحن نحاول التعامل معها.**

إذا أردنا أن نوجز نظرة العلم لماهية الحياة لندرك جوانب الإعجاز الإلهى فى خلق الكائنات الحية، نقول:

يُرجع العلم الحديث الحياة للتوافق المذهل والتناغم بين بنية وسمات مختلف جزيئات المادة الحية، وكذلك القوانين التى تحكم سلوك هذه الجزيئات. ويغذى هذه المنظومة مصدر للطاقـة، ويوجـه ذلك كله أرشيف هائل من المعلومات تحمله الشفـرة الوراثية للخلية الحية. إن العلم ينظر إلى الحياة باعتبارها المُكوِّن المعرفى (سر الصنعة) فى ذلك كله.

ولم يستطع العلم حتى الآن إثبات أو نفى وجود «سر غيبى» يمازج المكون المادى والمكون المعرفى للخلية الحية. وحتى إذا ثبت عدم وجود هذا السر، **فإن جوانب الإعجاز الإلهى فى خلق الحياة** ستظل على إعجازها وتحديها.

الحياة والروح

لا ينبغى أن ننهى هذا العرض لمفهوم الحياة دون أن نبين مفهومًا مهمًا، وهو أن **«الحياة غير الروح»** التى يخبرنا القرآن الكريم فى مواضع متعددة أن الله ﷻ قد نفخها فى آدم وفى

(١) George Church: عالم الوراثة الأمريكى والأستاذ بجامعة هارفارد، ابتكر العديد من تقنيات البحث فى مجال البيولوجيا الجزيئية. ولد عام ١٩٥٤.

مريم بل وفى أجنة الإنسان جميعًا. إن هذه النفخة هى الروح وليست الحياة! نعم هناك فرق بينهما. فالروح خصوصية للإنسان تَمَيَّز بها عن جميع الكائنات واستحق بها الخلافة من الله ﷻ فى الأرض. أما الحياة فهى ما تحدثنا عنه فى هذا الفصل، وهى سمة جميع الكائنات الحية، تختلف بها عن المواد غير الحية؛ لذا يجب أن ننتبه إلى هذا الفرق جيدًا عند النظر فى آيات القرآن الكريم.

إذن يمكن القول أن لدى الإنسان روحين[1]؛ روح حيوانى وهو الحياة التى تشاركنا فيها جميع الكائنات الحية، وروح مدرِك وهو نفخة إلهية نتميز بها عن سائر مخلوقات الله ﷻ، ولهذين الروحين علاقة بالموت. انظر إلى قول الحق ﷻ: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر].

نفهم من الآية أن التَوَفِّى عملية تحدث للإنسان فى حالتين؛ عند النوم وعند الموت، أى: أن التوفى شىء آخر غير الموت. وفى ضوء هذا الفهم نرى أن الإنسان عند النوم تفارقه الروح المدركة مع استمرار الحياة فى جسده، أما عند الموت فتجرى عليه عمليتان، عملية بيولوجية هى الموت الذى يجرى على سائر الكائنات الحية، وعملية التَوَفِّى التى يقوم فيها المولى ﷻ عن طريق ملك الموت باسترداد وديعته (الروح المدرك) التى شَرَّفَ بها الإنسان.



(١) هذا الطرح للإمام أبى حامد الغزالى، فى كتاب إحياء علوم الدين، باب العلم.

الفصل السادس

التطور الداروينى

بين الإله والإلحاد

- دارون ونظرية التطور
  - فلنبدأ القصة من أولها
  - نقبل التطور ونرفض الداروينية
  - الأدلة العلمية على حدوث التطور
  - الداروينية أيام دارون
  - الداروينية بين الحقيقة والإجماع العلمى
- جعلوا الداروينية ديانة لا إلهية
  - كله إلا الداروينية!
  - لماذا هذا التعصب الشرس؟
- معاول هدم الداروينية
  - قصور الداروينية
- أولًا: أسرار سجل الحفريات
  - ندرة الكائنات الانتقالية
  - لم يكن تطورًا شديد البطء: الانفجار الكمبيرى
  - كائنات لا سلف لها
- ثانيًا: عجز آلية التطور الداروينى
  - خدعة الطفرات العشوائية
  - خدعة الانتخاب الطبيعى
- ثالثًا: حدود التطور الداروينى
  - ظواهر بيولوجية فوق طاقة الداروينية
  - تهرب مخز
  - محدودية دور التطور العشوائى
  - أبحاث مايكل بيهى
- القارئ الكريم

«يبدو أن العالم كان يستعد منذ زمن طويل لقدوم الإنسان، إن هذا بمعنى ما أمر صحيح تمامًا؛ لأن الإنسان يدين بظهوره إلى خط طويل من الأسلاف، لو أن حلقة واحدة من هذه السلسلة لم تتحقق لما أصبح الإنسان مثلما هو الآن».

تشارلز دارون

«كان دارون يؤمن أن الخلية الحية الأولى وراءها خالق عظيم، ثم تولت الطبيعة تطويرها إلى ما نشهده الآن من تنوع الكائنات. انظر ماذا فعل تلامذة دارون ومريدوه بنظريته، حتى صَيَّروه رمزًا للإلحاد».

د. عمرو شريف[1]

ما أن يَرِدْ ذِكر «نظرية دارون» فى الأوساط الفكرية حتى تثور عاصفة من اللجاج، بين من يرى أن «التطور البيولوجى» حقيقة علمية محورية يقوم عليها علم البيولوجيا[2]، وربما اتخذه دليلاً وحجة لإنكار وجود الإله، وبين من يستنكر التطور تمامًا ويعتبر القول به خروجًا من دائرة الإيمان والدين. ويمكن تحديد جوانب الخلاف فى نقطتين أساسيتين:

١ - هل التطور البيولوجى حقيقة علمية أو على الأقل نظرية راسخة ينبغى الأخذ بها؟

٢ - هل القول بمفهوم التطور يعنى بالضرورة إنكار وجود الإله، أم يمكن الجمع بين المنظورين؟

إن المفهوم الذى نتبناه ونسعى من خلال هذا الفصل لإثباته هو قبول القول بتطور الكائنات من الأدنى إلى الأرقى، مع رفض أن تكون العشوائية هى آلية ذلك، بل ينبغى أن يكون وراء التطور إله حكيم قادر.

وسنبحر فى هذا الفصل مع العلم لاستطلاع حقيقة الأمر.

---

(١) من كتاب رحلة عقل، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الثامنة، ٢٠١٣.

(٢) يعتبر الكثيرون أن «مفهوم التطور» من الأهمية لعلم البيولوجيا كمفهوم كروية الأرض ودورانها حول الشمس بالنسبة لعلم الفلك. ولنا تحفظ كبير على هذا الوصف، فدوران الأرض حول الشمس حقيقة ثابتة بالأدلة العلمية المباشرة، ولا ينبغى تسويته بمفهوم غير خاضع للملاحظة على الإطلاق، كقولنا إن الطيور والثدييات نشأت من الزواحف، إن التسوية بين المفهومين طرح غير علمى بالمرة، يقف وراءه موقف أيديولوجى رافض للتفسيرات الأخرى.

داروين ونظرية التطور

فلنبدأ القصة من أولها[1].

بعد رحلة دامت خمس سنوات حول العالم (١٨٣١-١٨٣٦م) على السفينة بيجل The Beagle (كلب الصيد)، وبعد دراسة متأنية (على مدى ربع قرن) لعينات الحيوانات والنباتات التى جمعها من جميع قارات العالم، نشر عالِم البيولوجيا البريطانى «تشارلز روبرت داروين Charles R. Darwin» (١٨٠٩-١٨٨٢م) فى عام ١٨٥٩ كتابه: «أصل الأنواع وتطورها بالانتخاب الطبيعى On the origin of species by means of natural selection».

ويبين الكتاب أن الكائنات الحية قد نشأت بشكل تطورى من أصل واحد، أو من عدد بسيط من الأسلاف المشتركة. وقد حرص داروين على أن يتجنب أى ذكر عن تطور الإنسان، إذ لم يُرِد إثارة زوبعة من الجدال، ولكن الكتاب أثار الزوبعة بطبيعة الحال. وفى العام ١٨٧١، أحس داروين أن ليس هناك ما يخسره، فنشر كتابه «ظهور الإنسان The descent of man»، الذى تناول فيه نشوء الإنسان بالتطور.

وقد توصل داروين إلى نظريته رغم من قلة الأدلة العلمية المتاحة وقتها. ومنذ نَشْر الكتابين وحتى الآن حقق العلم قفزات هائلة فى مجالات عديدة، ساعدت على تمحيص وتعزيز مفهوم التطور.

هذا ولم يتطرق داروين فى نظريته لنشأة الحياة، فقد كان يعتقد بضرورة التدخل الإلهى لخلق الخلية الأولى، على أن يقوم التطور بعد ذلك بإحداث التنوع الهائل فى الكائنات الحية. وبالرغم من ذلك قام مؤسسو الداروينية الحديثة[2] بتوسيع مفهوم التطور ليشمل التطور على

---

(١) ورد مفهوم التطور فى كتابات الكثيرين من العرب قبل داروين بما يقرب من ألف عام. منها كتابات ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦م)، وابن مسكويه (٩٣٢ - ١٠٣٠م)، ورسائل إخوان الصفا (القرن التاسع الميلادى)، والجاحظ (٧٧٦ـ٨٦٨م) الذى ذكر فى كتابه الحيوان أن الكائنات تتصارع فيما بينها من أجل البقاء، وأن البيئة تؤثر فى الكائن الحى، فتحدث فيه تحولًا وتجعله نوعًا آخر، أى أن بعضها يُشتق من بعض.

لقد توصَّل هؤلاء إلى «مفهوم التطور» من تأمل آيات القرآن الكريم وتأمل ما فى الكائنات الحية من آيات. وقد كان طرح هؤلاء لهذا المفهوم واضحًا قويًا مصحوبًا بالاستدلالات المقنعة، مما حدا العالم والكيميائى والفيلسوف والمؤرخ الأمريكى «جون ويليام درابر John William Draper» (١٨١١ - ١٨٨٢م) المهتم بالتطور البيولوجى إلى الحديث عن «نظرية التطور المحمدية Mohammedian Theory of Evolution» التى سبقت نظرية داروين بأكثر من ألف عام، وقد طرح فهمه هذا فى كتابه «تاريخ الصراع بين الدين والعلم History of Conflict Between Religion and Science».

(٢) تعتمد الداروينية الحديثة على تفسير مفاهيم داروين فى ضوء قوانين مندل للوراثة.

المستوى الكيميائى[١]، حتى يستطيعوا من خلاله تفسير ظهور الخلية الأولى دون الحاجة إلى تدخل إلهى[٢].

نقبل التطور ونرفض الداروينية

يُعتبر الاتحاد الأمريكى لتقدم العلوم AAAS[٣] أكبر تجمع علمى فى العالم، وفى التاسع عشر من فبراير عام ٢٠٠٦ أصدر الاتحاد بيانًا جاء فيه:

«لا يوجد فى الأوساط العلمية خلاف ذو بال حول قبول مبدأ تطور الكائنات الحية، بل إن التطور يُعتبر الآن أقوى وأكثر المبادئ قبولًا فى علم البيولوجيا».

وبيان الاتحاد الأمريكى يتحدث عن «مبدأ أو مفهوم التطور»، أما عندما يُطلق اصطلاح «الداروينية أو نظرية التطور»، فهو يشير إلى منظومة من ثلاثة عناصر:

أولًا: الأصل المشترك أو السلف المشترك Common Ancestor، ويعنى أن جميع الكائنات الحية حيوانية ونباتية تطورت عن أصل واحد (وهو الكائن وحيد الخلية) وربما عن أصول قليلة، أى بضعة خلايا. وأحيانًا يُقصد بالأصل المشترك أن الكائن الأول كان موجودًا فى مكان واحد فى العالم، ومنه تطورت الكائنات وانتشرت فى باقى أنحاء الأرض.

ثانيًا: الطفرات العشوائية Random Mutations، ويشير إلى أن الترقى من كائن إلى آخر أكثر تعقيدًا حدث نتيجة لتغيرات عشوائية فى الشفرة الوراثية للكائن (على مستوى

(١) أثبتنا فى الفصل السابق استحالة حدوث ذلك.

(٢) يشتمل اصطلاح «التطور» على معنيين متفق عليهما ولم ينكرهما أحد من منكرى الداروينية، وهما التطور الدقيق Microevolution الذى يعنى حدوث تغييرات محدودة فى الكائنات، كاكتساب بعض الميكروبات مناعة ضد بعض المضادات الحيوية. والمعنى الثانى هو الانتخاب الصناعى Artificial Selection، ومثاله عمليات التهجين التى أنتجت لنا أنواعًا جديدة من الزهور والثمار والحيوانات من أصول مختلفة.
وللتطور معنيان آخران هما مجال الخلاف، سواء فى حدوثهما أو فى تفسير آلياتهما. الأول هو التطور الظاهر (الجَسيم ـ الكبير) Macroevolution، ويشير إلى ظهور أعضاء أو كائنات جديدة نتيجة لتَكَوُّن شفرات وراثية جديدة، ويُرجع الدراونة حدوثه إلى تراكم خطوات عديدة من التطور الدقيق. والنوع الثانى هو التطور الكيميائى (الجزيئى) Chemical Moleular Evolution، ويقصد به أصحابه ظهور الخلايا الحية من المادة غير الحية. وقد أثبتنا فى الفصل السابق استحالة ذلك الادعاء. وسنستخدم فى هذا الفصل اصطلاح «التطور» للإشارة إلى «التطور الظاهر ـ الجَسيم ـ الكبير»، ونقصد به الانتقال من نوع من الكائنات الحية لنوع آخر أكثر رقيًا، ما لم ننص على غير ذلك.

(٣) American Association for the advancement of Science :AAAS
بلغ عدد أعضائه عام ٢٠٠٦ أكثر من ١٢٠,٠٠٠ عالم من مختلف دول العالم ومختلف التخصصات العلمية. وهو المسئول عن إصدار مجلة «العلوم Science».

الكروموسومات أو الجينات). وترى الداروينية أن المفيد من هذه التغيرات يتراكم ببطء شديد مع تتابع الأجيال، حتى يحقق تغيرًا ملحوظًا فى الكائن وترقيًا إلى آخر.

ثالثًا: الانتخاب الطبيعى Natural Selection، وهو آلية تنتقل بها الطفرات العشوائية المفيدة إلى الأجيال التالية، ومن ثم يتم المحافظة عليها. أما الكائنات التى تحتوى على طفرات ضارة فتموت وتندثر وتفنى. ويُعتبر الانتخاب الطبيعى قانونًا علميًّا، إذ يعنى أن الأنسب والأصلح للحياة يبقى بينما يندثر غير المناسب، وهذه بديهة عقلية.

ويقدم العلم الأدلة المقنعة على «مفهوم التطور» عن أصل مشترك (العنصر الأول)، أما ادعاء الداروينية أن «آلية» التطور هى الانتخاب الطبيعى من بين طفرات عشوائية (العنصرين الثانى والثالث) ففرضية تفتقد الدليل، فالعلم لا يستطيع أن يثبت عشوائية الطفرات وأنها ليست موجهة من قِبَل إله خالق!! بل أثبت العلم عجز العشوائية عن تقديم طفرات مفيدة، ومن ثم فنحن نرفض تلك الآلية. أى أننا نقبل التطور ونرفض الداروينية.

لا تعنى المفاهيم الدارونية أن دارون كان ملحدًا كما يدعى الكثيرون، انظر إلى قوله: «لا أرى مبررًا لأن يهز مفهوم التطور عقيدة المتدينين». كما ننقل عنه بعض ما ذكره فى سيرته الذاتية، عسى أن تُبَرِّئ هذه الكلمات ساحته وتكون حجة على الملاحدة: «من الصعب جدًّا، بل من المستحيل، أن نتصور أن كونًا هائلًا ككوننا، وبه مخلوق يتمتع بقدراتنا الإنسانية الهائلة، قد نشأ فى البداية بمحض الصدفة العمياء، أو لأن الحاجة أُم الاختراع. وعندما أبحث حولى عن السبب الأول وراء هذا الوجود أجدنى مدفوعًا إلى القول بعقل ذكى. ومن ثَمَّ فإنى أؤمن بوجود الإله»[1].

الأدلة العلمية على حدوث التطور

لما كنا نتفق مع الملاحدة الجدد على حدوث التطور، فلسنا فى حاجة هنا لتفصيل أدلته العلمية، ولسنا بحاجة لإقناع المعارضين للتطور فلهذا مجال آخر من الخطاب[2]. لذلك نذكر هذه الأدلة من باب السرد وهى:

(١) «Reason tells me of the extreme difficulty or rather impossibility of conceiving this immense and wonderful universe, including man with his capability of looking far into futurity, as the result of blind chance or necessity. When thus reflecting I feel compelled to look to a First Cause having an intelligent mind in some degree analogous to that of man; and I deserve to be called a Theist»

حرِصتُ على إثبات «نص» إقرار دارون فى سيرته الذاتية «أنه من المؤلهة»، وأثبتُ أيضًا المصدر بالتحديد:

Charles Darwin, The Autobiography of Charles Darwin, ed. Nora Barlow (London: Collins, 1958), 92 – 3

(٢) يمكن مراجعة الأدلة على حدوث التطور فى كتابنا «كيف بدأ الخلق» ـ الفصل الخامس ـ مكتبة الشروق الدولية ـ الطبعة الثالثة ٢٠١٣م.

١ - أدلة البيولوجيا الجزيئية (الجينات): وهى أقوى الأدلة فى العصر الحديث.

٢ - أدلـة التشريـح المقـارِن بين الكائنات: وهى الأدلة الرئيسـية التى اعتمـد عليها دارون عندما وضع نظريته.

٣ - أدلـة النشـأة الجنينيـة: لم يكـن دارون متخصصـًا فى علـم الأجنـة، لذلك اسـتعان فيه بالمتخصصين.

٤ - أدلة سجل الحفريات: كانت نادرة وقت دارون، لكنه توقع أن يكتشف المتخصصون المزيد من الحفريات بمرور الوقت، وقد حدث بعض ما توقعه.

وينبغى التأكيد على أن هذه الأدلة ليست قاطعة الدلالة على حدوث التطور، لكنها مُرَجِّحة يؤازر بعضها بعضًا، ويُعتبر القول بالتطور «أفضل التفسيرات» لوجودها. وسيكون لنا وقفات تحليلية مع مختلف الأدلة فى هذا الفصل بقدر ما يخدم مذهبنا فى قبول مفهوم التطور مع رفض أن يكون عشوائيًّا.

الداروينية أيام دارون

يعتبر الملاحدة المعاصرون أن الداروينية هى الركيزة الأساسية لادعائهم عدم وجود إله، حتى كاد الإلحاد والداروينية أن يصبحا مترادفين، فهل كان ذلك رأى دارون والمجتمع العلمى والفلسفى فى عصره؟ بالقطع لا...! وقد استشهدنا فى هذا الفصل والفصل السابق بمقولات لدارون تثبت أنه كان مؤمنًا بوجود الإله.

كذلك لم يكن توماس هكسلى[1]، التلميذ الأول لدارون وأشد المتحمسين لنظريته، من الملاحدة. ففى مناظرته الشهيرة التى سجلها التاريخ مع القس ولبرفورس عام ١٨٦٠ قال هكسلى: إن هناك عللًا أعلى تحكم التطور، لم تقترب منها النظرية. وأضاف، إن التطور مفهوم علمى فلسفى لا يقترب من الديانات. بل لقد كان هكسلى يرى أن قضية الوجود الإلهى لا يمكن أن تُحسَم من خلال علم البيولوجيا، فكتب يقول[2]: إن العلم «لا أدرىّ Agnostic»[3]، فليس لديه الأدوات لدراسة الوجود الإلهى، لذلك ينبغى ألا يلجأ إليه الملحدون لإثبات وجهة

(١) T.H.Huxely: (١٨٢٥ - ١٨٩٥م)، عالم الأحياء البريطانى الذى لُقب بكلب دارون البولدوج لشدة دفاعه عنه.

(٢) فى خطاب وجهه عام ١٨٨٣ لصديقه Charles Watts

(٣) هكسلى هو أول من استخدم هذا الاصطلاح.

نظرهم، كما ينبغى ألا يلجأ إليه المتدينون كذلك[١]. وكان هكسلى يؤكد فى مناظراته أن التطور يتطلب كونًا منضبطًا بدقة، يحتوى على مواد مناسبة نوعًا وكمًا، وتنظمه قوانين معقدة. ومن ثم تظل براهين الضبط الدقيق التى تقدمها الكيمياء والفيزياء والفلك على حجيتها لم تتأثر بنظرية التطور. وقد طرح هكسلى تفسيرًا محتملًا لوقوع التطور، وهو أن الإله قد صمم الأمور من البداية بحيث تنشأ الطفرة المناسبة فى الوقت المناسب (معنى ذلك أنها طفرات موجهة كما نؤمن نحن).

وقد نظر الكثيرون من العلماء الكبار المعاصرين لداروين إلى آليات التطور باعتبارها وسيلة الإله لتحقيق تنوع الكائنات، ومن هؤلاء صديقه عالم النبات الكبير فى هارفارد آسا جراى[٢] الذى كان أول من أطلعه داروين على نظريته خارج بريطانيا.

كذلك ما أن أصدر داروين كتابه أصل الأنواع، حتى كتب له الروائى الفيلسوف تشارلس كنجزلى[٣] خطابًا جاء فيه: إن نظريتك فى الانتخاب الطبيعى تثبت نبل وقدرة الإله الذى منح الكائنات القدرة على إيجاد ذاتها. وبالرغم من أن كنجزلى لم يكن بيولوجيًا، فإن داروين أثبت مقولته فى الطبعة الثانية من كتابه، ربما ليخفف مما تعرض له من ضغوط المتدينين.

الداروينية بين الحقيقة والإجماع العلمى

لاقت النظرية الداروينية قبولًا واسعًا بعد طرحها عام ١٨٥٩، ثم رفض معظم البيولوجيين مفهوم الانتخاب الطبيعى بحلول عام ١٩٠٠. وعادت النظرية للشيوع منذ ثلاثينيات القرن العشرين بعد أن ربطت الداروينية الحديثة بين مفاهيم داروين وقوانين مندل للوراثة، ومنذ أواخر القرن اعترى مفهوم العشوائية الأفول بعد أن استبدله الكثيرون من البيولوجيين بالعوامل المناخية التى كانت سائدة فى الأرض كمحرك لقاطرة التطور.

وفى عام ٢٠٠١، أنشأت مؤسسة Discovery موقعًا على النت لينشر فيه العلماء المعارضون للداروينية آراءهم[٤]. وخلال خمس سنوات وضع أكثر من ٧٠٠ من كبار العلماء فى الجامعات

(١) نحن نختلف مع هكسلى فى هذا المعنى، ونؤمن بما جاء فى القرآن الكريم ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]، أى أن العلم يجب أن يُستخدم لإثبات وجود الإله، وجميع فصول هذا الكتاب تؤكد هذا المفهوم.

(٢) Asa Gray: (١٨١٠ – ١٨٨٨م)، أشهر علماء النبات الأمريكيين فى القرن التاسع عشر.

(٣) Charles Kingsley: (١٨١٩ – ١٨٧٥م)، الروائى والفيلسوف البريطانى، كان صديقًا لداروين.

(٤) www.dissentfromdarwin.org

الشهيرة فى العالم آراءهم المعارِضة. ولا شك أن عشرات وربما مئات غيرهم سينضمون للقائمة إذا اطمئنوا إلى سلامة مستقبلهم العلمى الذى يتهدده الدراونة بشدة إذا صرحوا باعتراضاتهم! كما حدث فى فيلم «المطرودون» الذى يروى حادثة حقيقية

Expelled: No Intelligence Allowed [1]

ومع ذلك، ما زال معظم البيولوجيين فى الغرب يؤيدون الداروينية، لكن هل **«الإجماع العلمى** science consensus» يكون دائمًا فى جانب الحقيقة[2]؟! **إن دعوى الإجماع ليست مفهومًا علميًّا**، بل أسلوبًا حواريًّا يستغله السياسيون ورجال الدين للترويج لما يؤمنون به. إن العلم ينطلق من البرهنة على دعاوينا بالمنهج العلمى الصحيح، ثم المناقشة الأمينة لما يوجّه لدعاوينا من نقد، بل إن العلماء الكبار فى تاريخ العلم (مثل ابن الهيثم ونيوتن وأينشتين) قد احتلوا مكانتهم لأنهم خرجوا على الإجماع السائد.

لقد أصبح القول بالإجماع العلمى طريقة لإيهام الآخر بأن الرأى فى هذه القضية قد استقر، وأن معارضته لا تعدو إلا أن تكون جهلًا بما اتفق عليه العلماء!

خلاصة القول، إذا كان هناك علم فلا إجماع، وإذا كان هناك إجماع فليس هناك علم.

جعلوا الداروينية ديانة لا إلهية

أفهم أن يعتبر الأصوليون الدينيون أن القول بالتطور يعارض الدين، أما أن يتصور الدراونة أن القول بالتطور يحتم الإلحاد، فذلك يحتاج إلى تأمل وتحليل وتفنيد.

يقول الفيلسوف الأمريكى اللاأدرى إنجرسول[3]: ينبغى اعتبار القرن التاسع عشر **«قرن دارون** Darwin Century» **إذ أزالت نظريته فى التطور من العقول كل بقايا المسيحية**

(١) يدور الفيلم حول عشرات من أساتذة الجامعات الأمريكية الذين فُصلوا من عملهم الأكاديمى لاعتراضهم على الداروينية وتبنيهم لمفهوم التصميم الذكى!

(٢) انظر إلى ما حدث فى علم الجيولوجيا منذ أربعين عامًا. فبعد أن حدث إجماع علمى فى مؤتمر دولى موسع عام ١٩٦٠ على أن نشأة الهضاب ترجع إلى حدوث ترسبات هائلة Geosynclinal Theory ، تبدلت النظرية عام ١٩٧٠، وحلت محلها تمامًا النظرية التى تُرجع نشأة الهضاب إلى حركة القارات والطبقات الجيولوجية فى قاع البحر Plate Tectonics بعد أن كان يُعتقد أن طبقات الأرض ثابتة.

(٣) Robert Green Ingersoll: (١٨٣٣ - ١٨٩٩م)، من كبار السياسيين الأمريكيين الداعين لحقوق الإنسان.

الأرثوذكسية. كذلك أعلن سير جوليان هكسلى[1] فى كلمة ألقاها عام ١٩٥٩ فى شيكاغو بمناسبة مرور مائة سنة على النظرية، أنه «لم يعد هناك احتياج ولا مكان فى المنظومة التطورية للحديث عن الإله، فالأرض لم تُخلَق لكنها تطورت، وكذلك كل الحيوانات والنباتات التى تحيا عليها، حتى وصل الإنسان بمخه وعقله وروحه» بذلك أَحَلَّ هكسلى الطبيعة محل الإله، ولم يبق أمامنا إلا المادية/ الطبيعة لتفسير كل شىء؛ حتى الحياة والوعى البشرى والإبداع الإنسانى والمشاعر الروحية.

وحديثًا يقابلنا موقف الملاحدة الجدد الذين يصرون على الترويج لنفس الفكرة وادعاء (دون أدنى دليل) أن التطور حدث على خطوات عديدة بسيطة لا تحتاج كل منها لمصمم، ثم تجمعت الخطوات المتتالية وشكلت الآلية الفاعلة، أى أن الانتخاب الطبيعى يُصمِّم دون أن يكون له عقل أو دافع، أى يُصَمِّم دون أن يدرى، ودون أن يُصَمَّمْ!

لا شك أن الداروينية مثلت زلزالًا فى الفكر البشرى فى الغرب، وأن أثرها امتد لجميع جوانب الحياة. فإذا كانت الحياة وتنوع الكائنات الحية نتاج عملية تطورية طبيعية، فكذلك أيضًا الأخلاق والقيم الإنسانية، ومفاهيم الصواب والخطأ والعدالة والحق، والمشاعر الروحية! وفى هذا المعنى يقول ويليام بروفن[2]: إن المفاهيم الهدامة للبيولوجيا التطورية تجاوزت تأثيرها على الديانات، لقد وصلت إلى المفاهيم الإنسانية الأعمق. ويصف دانيل دينيت[3] هذا التأثير بأن نظرية دارون تمزق الأعماق وتصل إلى مصدر مفاهيمنا الإنسانية الأساسية، لذلك يطلق عليها ـ شامتًا ـ «فكرة دارون الخطيرة Darwin's Dangerous Idea».

كذلك يؤمن ريتشارد دوكنز أن النظرية كانت ثورة جذرية فى عالم الأفكار، وأنه لم يعد هناك مبرر لأن تحيرنا الأسئلة الفلسفية المحورية مثل: ما معنى الحياة؟ لماذا نحن هنا؟ ما حقيقة الإنسان؟... ويؤكد هذا المعنى عالم الحفريات جـ.جـ. سيمبسون[4] قائلًا: إن كل المحاولات للإجابة عن السؤال حول حقيقة الإنسان قبل عام ١٨٥٩ أصبح لا لزوم لها، وعلينا الآن أن نتوقف عن التفكير فى الأمر!

(١) Sir Julian Huxley: (١٨٨٧ - ١٩٧٥م)، عالم البيولوجيا البريطانى الكبير، حفيد توماس هكسلى الذى لقب بكلب دارون البولدوج.

(٢) William Provine: المؤرخ الأمريكى المهتم بتاريخ العلوم والتطور ووراثة الأجناس.

(٣) Daniel Dennett: أحد أقطاب الإلحاد الجديد، وسنعرض فكره فى الفصل الحادى عشر.

(٤) G.G.Simpson: (١٩٠٢ - ١٩٨٤م)، من أشهر العلماء الأمريكيين المتخصصين فى الحفريات وعلم الإنسان.

ولم تعد هذه النظرة قاصرة على الأوساط الفلسفية والكتب العلمية العامة، بل وصلت إلى كتب ومراجع العلوم والبيولوجيا فى المدارس والجامعات، انظر إلى هذه المقولة فى أحد الكتب المدرسية: «إن المخاوف من أن تزيح الداروينية الإله عن عرشه لها ما يبررها»، ثم يطرح الكتاب سؤالًا: «هل هناك غاية من خلق الإنسان؟ ويجيب: التطور يقول لا، فنشأة الأجناس وتكيف الإنسان يقف وراءها الانتخاب الطبيعى وليس التصميم.

كله إلا الداروينية!!

إذا كنت من الدارسين للداروينية فى الغرب، فحذار أن يخطر ببالك تساؤل برىء حول قدرة التطور الداروينى العشوائى على القيام بالمهمة! إن طرح هذا السؤال (العلمى) هناك يثير بركانًا من الضجة والهجوم ويفتح عليك طاقة من جهنم لا يفتحها أى سؤال علمى آخر.

فلو شككت فى سرعة الضوء أو فى نظرية النسبية مثلًا، لن تقوم الدنيا ولا تقعد مثلما لو شككت فى الداروينية الحديثة! انظر إلى وقاحة دوكنز حين قال: «إذا قابلت شخصًا لا يؤمن بالداروينية فلا شك أنك أمام إنسان جاهل غبى أو مجنون لا يعى ما يقول، ولا أريد أن أقول شرير مؤذٍ Wicked». إن ذلك يضعنا فى موقف محرج إذا ناظرنا دوكنز؛ أى الصفات نختار؟!. ويضيف دوكنز: «لا ينبغى أن نشكك فى التطور الداروينى إطلاقًا»! مع أن العلماء قد شككوا فى نظريات نيوتن وأينشتين، وبالرغم من أن الشك هو الباب الواسع لتقدم العلم. بل إن كل العلوم تقدمت من خلال فتح الباب كل فترة لإعادة النظر فى مسلماتها. لماذا هذا الهجوم الشرس ولماذا هذه القداسة والتحريم Taboo مع الداروينية؟!

وفى عام ١٩٩٩، زار عالم الحفريات الصينى الكبير جن يوان شن Jun-Yuan Chen الولايات المتحدة، وألقى بعض المحاضرات حول حفريات اكتشفها فى منطقة شانج جيانج تثير عددًا من التساؤلات حول صحة الداروينية. لقد قوبلت محاضراته بفتور شديد، مما أثار دهشته، فسأل أحد مُضَيِّفيه عن سر ذلك، فأجابه بأن العلماء فى الولايات المتحدة يغضبون إذا سمعوا نقضًا للداروينية. فقال قولته الشهيرة: فى الصين تستطيع أن تنتقد داروِن ولا تستطيع أن تنتقد الحكومة، وفى أمريكا تستطيع أن تنتقد الحكومة لكن لا تستطيع أن تنتقد داروِن!

لماذا هذا التعصب الشرس؟

يقول مايكل روس[1] وهو فيلسوف تطورى منصف شهير : يكمن الصراع فى محاولة استغلال الكثيرين نظرية التطور لنفى وجود الإله، **لقد صار التطور بالنسبة لهم ديانة لا إلهية.** ويوصل هذا المعنى فيلسوف العلوم الأشهر كارل بوبر[2] قائلًا: «حتى النظريات العلمية يمكن أن تصبح موضة، يمكن أن تحل محل الدين، **يمكن أن تصبح مُسَلَّمَة غير قابلة للنقاش، وهذا** ما حدث مع نظرية التطور».

ولتفسير هذا التعصب يقول د.م. واتسون[3]: «لقد تم قبول الداروينية ليس لقوة الأدلة عليها، ولكن لأن البديل الآخر الذى كان مطروحًا وقت ظهور النظرية، وهو الخلق الخاص، بديل «**غير قابل للتصديق** Incredible»! هل حقًا البديل الآخر غير قابل للتصديق؟ نعم! عند الماديين الذين يبحثون عن آليات مادية للظواهر، وأيضًا، عند الملاحدة الذين وجدوها فرصة عمرهم، فاستماتوا فى نشر الداروينية والدفاع عنها.

ويشرح دونالد ماكاى[4] الخبير فى علوم المخ والأعصاب التسلسل الذى أدى إلى وقوع هذه المصيبة! قائلًا: بدأت الداروينية كنظرية بيولوجية رأى فيها الكثيرون بديلًا عن الإله بالنسبة لعالم الأحياء، ثم تساءلوا: ولماذا ليس فى باقى المجالات؟ **ومن ثم بعد أن كانت فرضية علمية بيولوجية أصبحت مبدأ غيبيًّا إلحاديًّا يعم الكون كله، ويرفع عن الإنسان أى التزامات دينية. بذلك أصبحت** «الداروينية Darwinism» أو «**التطورية Evolutionism**» **فلسفة ضد الدين، بل صارت كإله متجسد يعتبره مريدوه قوة حقيقية فى الكون.**

ونستكمل سيناريو ميلاد التعصب للداروينية مع ك.س. لويس[5] عالم اللاهوت الأشهر فى القرن العشرين، فنجده يقول: «**ساد مفهوم التطور كأسطورة شعبية ونظرة فلسفية قبل**

---

(١) Michael Ruse: الفيلسوف البريطانى الكبير، مهتم بفلسفة البيولوجيا، والعلاقة بين العلم والدين. المقولة من محاضرة ألقاها أمام الاتحاد الأمريكى لتقدم العلوم، عام ١٩٩٣. ولد عام ١٩٤٠.

(٢) Carl Popper: (١٩٠٢ - ١٩٩٤م)، فيلسوف العلوم الأشهر فى القرن العشرين، بريطاني الجنسية من أصل نمساوى.

(٣) D.M.S.Watson: (١٨٨٦ - ١٩٧٣م)، أستاذ علم الحيوان والتشريح المقارن البريطانى.

(٤) Donald Mckay: (١٩٢٢ - ١٩٨٧م)، أستاذ الفيزياء بجامعة كيل بانجلترا، مهتم بالعلاقة بين الفيزياء وعلوم المخ والأعصاب.

(٥) C.S. Lewis: (١٨٩٨ - ١٩٦٣)، عالم اللاهوت البريطانى الشهير، كما كان أديبًا وناقدًا. المقولة من مقالة بعنوان جنازة أسطورة شهيرة.

طرحه كفرضية علمية. وبدلًا من أن تؤدى النظريات العلمية إلى نشأة التصورات الفلسفية، فإن الفلسفة المادية/الطبيعية التى ظهرت فى البداية كانت تحتاج لآليات مادية لتفسير كل الظواهر، من هنا كان الشبق إلى فرضية كفرضية التطور».

لقد كان شغف الماديين بنظرية التطور نموذجًا فريدًا فى تاريخ العلم! فليس ثمة نظرية أخرى فى التاريخ كان لها هذه الانعكاسات فى كل المجالات. لقد صرنا نسمع عن الفلسفة الداروينية، والاقتصاد الداروينى، وعلم الاجتماع الداروينى، والمفاهيم الأخلاقية الداروينية، والسياسة الداروينية، و... ما هذا العبث؟! تصور محاولة استخلاص فلسفة مادية أو غير مادية أو إلهية من نظرية كنظرية نيوتن أو أينشتين أو الكوانتم! إننا لا نسمع عن النيوتونية أو الأينشتينية أو الكوانتمية!

وما أشبه موقف الدراونة المعاصرين تجاه المعارضين لهم بموقف الكنيسة فى العصور الوسطى تجاه جاليليو. لقد دفع جاليليو ثمنًا غاليًا لمعارضته ثم ثبت أنه كان محقًا، بالرغم من أنه ظاهر لكل ذى عينين أن الأرض ثابتة وأن الشمس تدور حولها! ألا نتعلم درسًا من ذلك، هل نمضى فى الدفاع عن كل ما قاله دارون دون تمحيص كما دافعت الكنيسة عن كل ما قاله بطليموس وأرسطو؟!

معاول هدم الداروينية

قصور الداروينية

يُشعرنا خطاب الدراونة أننا أمام نظرية متكاملة، تطرح التفاصيل المطلوبة عن نشأة كل كائن؛ متى وكيف ظهر، الطفرات التى حدثت فيه وكيف نجحت فى تحويله لكائن آخر. إنهم يوهموننا أن هناك أسفارًا تحوى كل شىء وتُكَوِّن ما يمكن أن نطلق عليه مكتبة الحياة. إذا كان ينبغى أن تتكون هذه المكتبة من مئات الآلاف من الصفحات، ففى الحقيقة ليس لدينا ولا صفحة واحدة مكتوبة، إذ ليس لدينا تتبعًا لأصل وتفرعات كائن واحد! كل ما هناك هو بعض التخيلات والافتراضات!

كذلك هناك تعارض كبير بين ما يقوله الدراونة حول أساسيات نظريتهم، ونضرب هنا

مَثَلَين لهذا التعارض. أولهما خاص بمسار التطور، فريتشارد دوكنز يقول: ما إن بدأت الحياة حتى صار من الحتمى أن تصل إلى ما وصلت إليه الآن (**نظرة حتمية مطلقة**)، ويختلف ستيفن جاى جولد[1] مع دوكنز، إذ يرى أننا إذا أعدنا شريط التطور مرة أخرى فإن المصادفات يمكن أن تُنشئ عالمًا مختلفًا تمامًا عما نحن عليه الآن (**نظرة احتمالية مطلقة**). والمثال الثانى لتعارض الدراونة يدور حول **الانتخاب الطبيعى**؛ ما الذى يستطيع تفسيره؟ ما الذى لا يستطيع أن يفسره؟ ما الذى ينبغى تفسيره بآليات أخرى؟ ... إن ما بين المذاهب المتعددة للداروينية الحديثة من التضارب ما يكفينا مئونة تفنيدها، **فهى تفند بعضها بعضًا**.

ويقول الفيزيائى روبرت لوجلن[2] الحاصل على جائزة نوبل، وهو ليس من المؤلهة، «إن الكثير من المفاهيم البيولوجية السائدة **تحركها الأيديولوجية**، فالدراونة مثلًا يطرحون من التفسيرات ما هو **غير قابل للاختبار** (مثل القول بالانتخاب الطبيعى بعد طفرات عشوائية). لا يكفى أن نصف هذا السلوك بأنه لا علمى بل إنه ضد العلم، فهو يغلق الباب أمام التفكير. لذلك أصف نظرية دارون بأنها فى الحقيقة **ضد النظرية Anti-theory**، وُضعت من أجل أن تغطى قصورًا تجريبيًا، وتُستدعَى كلما دعت الحاجة لسد فراغ ما: كيف تَشَكَّل جزىء الدنا؟ التطور فعلها .. كيف تحولت التفاعلات الكيميائية إلى دجاجة؟ التطور فعلها .. العقل البشرى لا يستطيع أى كمبيوتر أن يحاكيه؛ التطور فعلها... **لقد صار التطور إلهًا لسد الثغرات!!**».

ونحن فى هذا الفصل ـ وباقى فصول الكتاب ـ نتبنى مفهوم **«التطور الموجه»، الذى يقبل أدلة العلم على حدوث التطور، ويرفض ادعاءات الداروينية بأن التطور كان عشوائيًا.** وتعتمد استدلالاتنا على صحة هذا المفهوم على محورين أساسيين:

المحور الأول: إثبات خطأ الداروينية (التطور العشوائى)، وسنعالج ذلك فيما تبقى من هذا الفصل من خلال تناول ثلاثى يشتمل على:

أولًا: قراءة فى سجل الحفريات كأحد أدلة الداروينية؛ نثبت فيها خطأ الادعاء بعشوائية التطور.

---

(١) Stephen Jay Gould: (١٩٤١ - ٢٠٠٢م)، عالم الحفريات والبيولوجى التطورى الأمريكى الكبير، مهتم بتاريخ العلم، ومن أشهر الكُتاب العلميين فى جيله.

(٢) Robert Laughlin: أستاذ الفيزياء الأمريكى بجامعة ستانفورد. ولد عام ١٩٥٠.

ثانيًا: إثبات عجز آلية التطور الدارويني (الطفرات العشوائية + الانتخاب الطبيعي) عن إحداث التنوع الهائل في الكائنات الحية.

ثالثًا: إثبات أن للتطور العشوائي حدودًا لا يستطيع أن يتجاوزها. فهو قادر على إحداث التطور الدقيق وغير قادر على إحداث التطور الظاهر.

بهذه الثلاثية ينهار مفهوم التطور الدارويني العشوائي وينفتح الطريق أمام القول بالتطور الموجه.

المحور الثاني: إثبات أن عملية خلق الحياة والكائنات الحية عملية شديدة التعقيد لا غنى فيها عن التصميم، ومن ثم تحتاج إلى المصمم الذكي الذي يقوم بتوجيه خلق الحياة وتطوير الكائنات، وسنفرد لهذا المحور الفصل القادم.

أولًا: أسرار سجل الحفريات

عند الحديث عن سجل الحفريات، يتهرب الدراونة من مناقشة عدد من سماته التي أظهرتها عمليات التنقيب الحديثة، وأهمها ندرة الحلقات الانتقالية، وحدوث تنوع الكائنات بسرعة كبيرة، وكذلك وجود كائنات لا سلف لها، وكلها أمور تتعارض بشكل أساسي مع القول بالعشوائية. وسنقوم هنا بمناقشة هذه السمات الثلاث:

أ) ندرة الكائنات الانتقالية

اعتبر دارون أن أكبر تحد يواجه نظريته هو نقص الكائنات (الحلقات) الانتقالية التي ينبغي أن توجد نتيجة للانتقال من كائن لآخر، فدارون لم يضع يده في سجل الحفريات على سلسلة تطورية واحدة تحوي ما يكفي من الكائنات الانتقالية. وبعد مضي أكثر من ١٥٠ عامًا على طرح النظرية، ما زال الحال على ما هو عليه، بالرغم من أن سجل الحفريات الحالي يتميز بثراء كبير (أكثر من ٢٥٠ ألف كائن) بعد الجهود الحثيثة في التنقيب، بل إن الحلقات الانتقالية الآن أقل مما كانت عليه أيام دارون[١]! ومن ثم فإن الندرة الشديدة في الحلقات الانتقالية تعتبر أهم أسرار علم الحفريات التي تم إغفالها والسكوت عنها قصدًا.

(١) هذا القول لعالم الحفريات دفيد روب David Raup في متحف التاريخ الطبيعي بلندن. ويقصد به أنه كلما عثرنا على حفريات لكائنات جديدة كلما ظهرت حاجتنا إلى الحلقات الانتقالية التي أدت إلى ظهورها.

بل إن عالِم الحفريات البريطانى كولن باترسون[1] (المشرف على حفرية الأركيوبتيركس[2] الشهيرة فى متحف التاريخ الطبيعى)يعلن أنه **لا توجد «حفرية انتقالية Transitional» واحدة تصلح كأصل لكائن متطور آخر**، وأن ما يتحدث عنه الدراونة باعتباره حفريات انتقالية مثل الأركيوبتيركس ما هو إلا **«حفريات وسطى Intermediate»** بين كائنين، أى أنها تتمتع بصفات وسط بين كائنين (أ، ب) دون «أدلة» على أنه قد نتج من (أ) وأنه سلف لـ (ب) كما ينبغى أن يكون فى الكائنات الانتقالية، **بل إن العلم حتى الآن ليس لديه الآليات التى تحدد هذه العلاقة.**

ب) لم يكن تطورًا شديد البطء: الانفجار الكمبيرى

يؤكد دارون أن **التطور العشوائى ينبغى أن يكون شديد البطء**، بل ويضيف أن بدون هذه الصفة تصبح نظريته غير مقبولة.

وقد فاجأ العالم التطورى ستيفن جاى جولد الدراونة بنتائج أبحاثه المستفيضة التى أظهرت أن سجل الحفريات **لا يكشف تطورًا شديد البطء**، لكنه يتسم بصفتين أساسيتين تعارضان ما يتوقعون، وهما:

١ ـ **الظهور المكتمل المفاجئ**: فالكائنات لا تظهر فى السجل الأحفورى ناقصة ثم تكتمل، بل تظهر مكتملة تمامًا.

٢ ـ **الثبات والركود Stasis**: تظل الكائنات فى السجل الأحفورى على هيئتها مع بعض التعديلات الضئيلة حتى تصل إلينا أو تنقرض.

وانطلاقًا من هاتين الصفتين، وضع جولد مع صديقه نيلز إيلدريدج[3] **نظرية التوازن ذى الفواصل** The Punctuate Equilibrium Theory، التى تبين أن التاريخ الطبيعى يمر بفترات طويلة من الركود تتخللها انبثاقات كبيرة مفاجأة من التطور الظاهر Macroevolution. ومن أهم الانبثاقات التى وصفها جولد فى كتابه الشهير Wounderful Life أن معظم الشُّعَب

---

(١) Colin Patterson: (١٩٣٣ - ١٩٩٨م).

(٢) تم اكتشاف حفرية الأركيوبتيركس (تعنى الجناح القديم) عام ١٨٦١، بعد أن نشر دارون كتابه أصل الأنواع بسنتين. وهو كائن صغير فى حجم الدجاجة، يغطى جسمه ريش الطيران كالطيور، ويشبه الزواحف فى وجود المخالب فى أطراف أجنحته وفى امتلاكه فكًا ذا أسنان وذيلًا عظميًّا.

(٣) Niles Eldredge: عالم البيولوجيا والحفريات الكبير. ولد عام ١٩٤٣.

Phlyla الموجودة الآن (٣٤ من ٣٦) من الكائنات الحيوانية ـ بالإضافة لعدد كبير من تلك التى انقرضت ـ قد ظهر خلال فترة قصيرة تبلغ ٥ - ١٠ ملايين سنة، وذلك فى العصر الكمبيرى منذ ٤٥٠ مليون سنة، فعُرف هذا الظهور المفاجئ باسم **الانفجار الكمبيرى Camberian Explosion**، وقياسًا على الانفجار الكونى الأعظم صار يُعرف باسم **الانفجار الأحيائى الأعظم**[١].

إن نظرية التوازن ذى الفواصل تقف فى تعارض كامل وصراع مستمر مع أنصار الداروينية الحديثة الذين يُعرفون **بالتدريجيين** Gradualists، إذ يتمسكون برأى داروين بأن التطور بالطفرات العشوائية ثم الانتخاب الطبيعى قد تم ببطء شديد، وينبغى أن يترك بصماته فى السجل الأحفورى على هيئة الكائنات الانتقالية، بالرغم من أن نظرة واحدة للسجل ترينا **أن الكائنات تظهر فجأة ثم تبقى كما هى ولا تتغير حتى تصل إلينا أو تنقرض.** ويتهم واضعا نظرية التوازن ذى الفواصل الدراونة بأنهم ينسبون إلى سجل الحفريات ما لا يقوله ويَدَّعون ما ليس عليه دليل علمى.

إن ما يُظهره السجل الأحفورى من توازن ذى فواصل يتمشى تمامًا مع التطور الموجه، فالتدخل الإلهى يُحدث النقلات التطورية من حين لآخر دون الاحتياج لكائنات انتقالية.

جـ) كائنات لا سلف لها

فى دراسته العظيمة «حول أصل الشُّعَب»[٢]، يبين جيمس ڤالينتين [٣] **أن الكثير من فروع شجرة الحياة مقطوعة الأصل**[٤]، أى لا يمكن العثور على أسلافٍ لكائناتها، كأنها قد بزغت فجأة (إما بالخلق الخاص أو بتعديلات جينية غزيرة موجَّهة).

ويبرر الداروينيون انقطاع الأصل بأن أسلاف هذه الكائنات كانت طرية لا تترك أجسامها حفريات. ثم تَلَقَّى هذا الطرح ضربة قاصمة عندما تم العثور مؤخرًا (فى شيانج جيانج بالصين) على حفريات من العصر قبل الكمبيرى لأجنة الإسفنج، حينئذ طرح عالِم حفريات البحار

(١) Biological big Bang

(٢) On The Origin Of Phyla

(٣) James Valentine : أستاذ البيولوجيا التطورية بجامعة كاليفورنيا.

(٤) شجرة الحياة: تصور وضعه داروين، تمثل الخلية الأولى فيه (الأصل المشترك) جذع الشجرة، وتمثل فروعها الكائنات التى تطورت من هذه الخلية.

بول شين[1] تساؤلًا شديد الإحراج للدراونة: إذا كانت طبقات العصر ما قبل الكمبيرى قد حفظت أجنة الأسفنج الطرية فلماذا لم تُحفَظ حفريات أسلاف الكثير من الكائنات الكاملة، وهى أيسر حفظًا من الأجنة الطرية.

لقد أدت الأبحاث الحديثة إلى كشف هذه الأسرار لسجل الحفريات، فصار السجل دليلًا على التطور الموجه بعد أن أراد منه الدراونة أن يكون دليلًا على تطورهم العشوائى.

ثانيًا: عجز آلية التطور الداروينى

الطفرات العشوائية + الانتخاب الطبيعى

يدعى أنصار الداروينية الحديثة أن التطور البيولوجى **لا تصميم فيه ولا تخطيط**، وفى نفس الوقت **ينفون عنه العشوائية**!. ويعتبر هؤلاء أن التطور نتاج لقانون الانتخاب الطبيعى ويتجاهلون تمامًا دور الطفرات الوراثية، فيدعون أن الطفرات مهما كانت هيئتها فإن الانتخاب الطبيعى ينتقى منها المفيد ويدفع بقاطرة التطور إلى الأمام، فهل هذا صحيح؟

لا شك أن هذا الادعاء خطأ جملة وتفصيلًا، فإذا لم يكن هناك قدر كاف من التغيرات المفيدة فى الشفرة الوراثية (طفرات مفيدة) فلن يجد الانتخاب الطبيعى ما يختاره، ومن ثم لن تحدث التغيرات التطورية. **إن الانتخاب الطبيعى هو جامع الثمار الذى يقطف الأصلح، فإذا لم يوجد هذا الأصلح فلن يتجمع لدينا محصول جيد.**

والآن إلى المزيد عن الطفرات وعن الانتخاب الطبيعى:

خدعة الطفرات العشوائية

ليست الطفرات العشوائية إلا «أخطاء» تحدث فى تتابع الحروف (القواعد النيتروجينية = النكلوتيدات) التى تتكون منها الشفرة الوراثية (الدنا DNA)، وينبغى لهذا التعديل أن يقع فى الخلايا التناسلية (الخلايا التى تُنتج الحيوانات المنوية والبويضات) وليس فى أىٍّ من خلايا الجسم الأخرى.

(1) Paul Chien: عالم البيولوجيا والحفريات، صينى الأصل أمريكى الجنسية. من أنصار مفهوم التصميم الذكى. ولد عام ١٩٤٧.

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا هو: هل يمكن لهذه الأخطاء العشوائية أن تُحدث تغيرًا فى الشفرة الوراثية يؤدى إلى تعديلات مفيدة تظهر فى ذرية الكائن الحى، ويؤدى تراكمها إلى ظهور كائن من نوع جديد؟.

يقدر علماء البيولوجيا أن معدل حدوث الطفرات يبلغ ٤ طفرات فى كل ١٠٠,٠٠٠ حيوان منوى أو بويضة، كما يُقَدِّرون أن ٩٩٪ من هذه الطفرات تكون ضارة، و«ربما» تكون ذات فائدة فى ١٪ من الحالات. لذلك يستحيل لهذه النسبة الضئيلة جدًّا من الطفرات المفيدة أن توجه تطور الكائنات الحية، خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار أن أى تعديل فى وظيفةٍ ما يحتاج إلى العديد من التغيرات الجينية التى تعمل فى تآزر وتوافق[١]، كما يحتاج إلى تعديلات لازلنا نجهلها فى آليات التحكم فى الجينات Epigenetics.

لذلك يَلقَى مفهوم «العشوائية Randomness» كعامل مسئول عن التطور رفضًا من العديد من الداروينيين أنفسهم! فأخذوا يشيرون إلى دور «الظروف المناخية والكيميائية» التى سادت الأرض عند نشأة الحياة والتى تبدلت كل فترة باعتبارها المسئولة عن تحديد طبيعة التغيرات الوراثية (الطفرات) فى الكائنات فى كل مرحلة[٢]، ويُعلق هارولد مورووتز[٣] (حجة الديناميكا الحرارية فى الكائنات الحية) على هذا المفهوم بأننا ينبغى أن نستبدل العشوائية المطلقة كعامل مؤثر فى التغيرات الوراثية بالقوانين العلمية المنضبطة كمحرك لقاطرة التطور.

(١) يوجه عالم الميكروبيولوجيا والوراثة السويسرى «فرنر آربر Werner Arber»، الحائز على جائزة نوبل عام ١٩٧٨، نظرنا إلى أن التجارب التى قام العلماء فيها بإحداث تغيرات فى الشفرة الوراثية لذبابة الفاكهة أنتجت أشكالًا مشوهة من الذباب (بعضها بدون أجنحة وبعضها تخرج أرجله من رأسه) لا تصلح لأن تكون دليلًا على دور مفيد للطفرات العشوائية. بل تُعتبر هذه التجارب دليلًا على عجز هذه الطفرات، إذ لم يحصل العلماء فى معاملهم على تَغَيُّر واحد للأفضل فى ٨٠٠ جيل من ذبابة الفاكهة.

(٢) مثال للظروف الطبيعية التى أحدثت تغيرات فى الشفرة الوراثية للكائنات:
- أعان الجو الخالى من الأوكسجين على ظهور البكتريا اللاهوائية.
- عندما قامت البكتريا بانتزاع الهيدروجين من الماء وتحرير الأوكسجين، أعانت نسبة الأوكسجين فى الجو على ظهور الخلايا ذات النواة.
- أعانت الظروف المناخية السائدة بعد ذلك على نشأة الكائنات عديدة الخلايا.
- بدأت الحياة الحيوانية فى الماء، ثم انتقلت إلى اليابسة عندما رفع التمثيل الضوئى للنباتات نسبة الأوكسجين فى الهواء.

(٣) Harold Morowitz: وُلد بنيويورك عام ١٩٢٧. عمل أستاذًا للفيزياء البيولوجية الحيوية بعدد من الجامعات الأمريكية.

ويؤكد جيرالد شرويدر في كتابيه الرائعين[1] «علم الألوهية» و«الوجه الخفي للإله» أننا إذا تغاضينا عن كل جوانب عجز الطفرات العشوائية عن إحداث تغيرات مفيدة، فسيتبقى أمام الدراونة عائق كبير لا يمكن تجاوزه، وهو أن «الوقت» المتاح لظهور هذا التنوع الهائل في الكائنات الحية عشوائيًا غير كاف على الإطلاق، خاصة بعد ما أظهره سجل الحفريات من أحداث الانفجار الأحيائي الكمبيري.

ومن نفس المنطلق (الوقت القصير جـدًا) يرفض بيتر براون[2] (رئيس اتحاد رؤساء تحرير المجلات العلمية) أن تكون الطفرات العشوائية مسئولة عن حدوث التطور.

خدعة الانتخاب الطبيعي

يشرح عالم البيولوجيا كولن باترسون في كتابه «التطور»، الذي صدر عن متحف التاريخ الطبيعي بلندن، آلية الانتخاب الطبيعي قائلًا: عندما تتكاثر الكائنات تحدث فيها اختلافات جينية (طفرات وراثية)، منها ما هو مفيد بالنسبة للتكاثر فيبقى وينتقل للأجيال التالية وقد يؤدي إلى تغيرات في كائناتها، والضار من هذه الطفرات يؤدي إلى تلاشي الكائنات الحاملة لها.

إن الانتخاب الطبيعي بهذا المفهوم ليس خلاقًا، فهو يتم من بين أفراد موجودين؛ فيزيل الذرية الضعيفة، ويستبقي الذرية القوية الموجودة بالفعل، والتي استحدثتها الطفرات الوراثية. إنه عملية «تثبيت» أو «محو» للموجود، وليس له قدرة على تغيير الكائنات أو استحداث أي جديد كما يدعي الدراونة، وقد أدرك دارون هذا المعنى في أيامه الأخيرة فغَيَّرَ اصطلاح الانتخاب الطبيعي إلى «المحافظة الطبيعية **Natural Preservation**».

ويعتمد الانتخاب الطبيعي على أن الموارد الغذائية محدودة، ومن ثم يكون البقاء للأقدر (للأصلح) على تحصيل الغذاء. لكن ماذا لو كانت الموارد كافية للجميع كما هو الحال في الغابات والمحيطات التي تطورت فيها الحياة؟ لا شك أن كل الكائنات (الأصلح وغير الأصلح) ستتكاثر وتبقى، ومن ثم يتلاشى دور الانتخاب الطبيعي ولا يتبقى إلا دور العشوائية في الطفرات. لا شك أن هذه الحقيقة تصيب ريتشارد دوكنز بالإحباط، فهو يُعَوِّل على نقص

(١) Science of God. 1997- The hidden Face of God. 2002.

(٢) Peter Brown: كان يشغل منصب رئيس تحرير مجلة «التاريخ الطبيعي Natural History»، ورأس قبلها تحرير «مجلة العلوم science».

المواد الغذائية من أجل أن يدفع الانتخاب الطبيعى للعمل، ويُهَوِّن كثيرًا (بل ويلغى) دور الطفرات العشوائية.

إن النظر إلى الانتخاب الطبيعى باعتباره محدود الدور وغير خلاق ليس فكرة جديدة، فقد طرحها عالم النبات الشهير سير جوزيف هوكر[1] فى خطاب أرسله إلى داروِن عام ١٨٦٢، قال فيه: «أؤكد بشدة على دور الطفرة فى التطور، التى لولاها ما كان للانتخاب الطبيعى أن يعمل. افترض أن هناك شخصين قادرين على التكاثر وأن هناك وفرة فى الموارد، لا شك أن بعد عدة من أجيال سنجد ذرية لكلا الشخصين، وتتوقف صفات الذريتين على الاختلافات بين الشخصين، بينما لن يمارس الانتخاب الطبيعى أى دور».

ويضيف هوكر فى خطابه لداروِن؛ إذا اعتقدت أن الانتخاب الطبيعى قادر على استحداث فوارق فإن كل فرضياتك لا قيمة لها. انظر إلى أبنائك الثمانية، لا شك أنهم مختلفون فى أشياء كثيرة جدًّا، قد تقول إنهم يحملون فوارق انتقلت إليهم بالوراثة من أسلافهم، أجيبك بأننا إذا صعدنا أعلى وأعلى ووصلنا إلى أول ذكر وأنثى للجنس البشرى، فلا شك أنهما لم يكونا يشتملان على كل ما فى ذريتهما وذريتك من فوارق؟ ولا شك أن التغيرات العشوائية التى حدثت فى ذريتهما هى المسئولة عن التنوع والاختلاف دون دور يُذكر للانتخاب الطبيعى فى ظهور هذه الفوارق؛ إن الدور كله للطفرات.

أجاب داروِن على هوكر بخطاب جاء فيه؛ إن إشارتك إلى أن الفوارق بين أفراد الذرية إنما ترجع إلى الطفرات وأن الانتخاب الطبيعى لا دور له قد قلبنى رأسًا على عقب! ولا شك أننى صرت أوافقك على أنى قد أسقطت دور الطفرات لحساب الانتخاب الطبيعى.

إن ما طرحه هوكر وصار يعرف بـ«حجة هوكر Hooker's Argument» فى منتهى الأهمية، ويؤكد ما ذكرناه من أن دور الطفرات يفوق كثيرًا دور الانتخاب الطبيعى.

ألا ترى معى أن آلية التطور الداروينى (الانتخاب الطبيعى من بين طفرات عشوائية) آلية عاجزة، تم فرضها لتتكامل النظرة المادية لعالم الأحياء على حساب الإله الخالق محرك آلية التطور الموجه؟

---

(١) Joseph Hooker:(١٨١٧ - ١٩١١م)، من أشهر علماء النبات البريطانيين فى القرن التاسع عشر، مؤسس علم الجغرافيا النباتية، وأقرب الأصدقاء إلى داروِن.

ثالثًا: حدود التطور الداروينى

ظواهر بيولوجية فوق طاقة الداروينية

يقابلنا فى عالم الأحياء عدد من الظواهر البيولوجية المبهرة التى تعجز عن تفسيرها آلية (الانتخاب الطبيعى من بين طفرات عشوائية)، وهى ظواهر لن يجد لها العلم تفسيرًا ماديًّا مهما تَكَشَّف له من معارف فى المستقبل، ومن هذه الظواهر:

أ- إبهار فى البنية: إشكالية الهيموجلوبين[1] والكلوروفيل

الهيموجلوبين جزىء بروتينى يتركب من أربع سلاسل تتكون كل منها من ١٤٦ حمضًا أمينيًّا، وتصل فرصة تكوين سلسلة واحدة من خلال تراص عشوائى لهذه الأحماض الأمينية إلى ١٠^-١٩٠. والمشكلة الأكبر أنه ينبغى أن يخرج الجزىء فى إحدى هذه المحاولات صحيحًا كاملًا، إذ إن الجزىء المشوه لن يسمح للكائن بالحياة والتكاثر، ومن ثم لن يستطيع الانتخاب الطبيعى تحسين وإصلاح الجزىء المعطوب[2].

أما الكلوروفيل، فهو أساس الحياة النباتية (والحيوانية أيضًا)، إذ يقوم بتصنيع جزيئات السكر من طاقة الشمس والماء وثانى أوكسيد الكربون، وفى نفس الوقت يمد الحياة بغاز الأوكسجين!! كل ذلك من خلال عملية التمثيل الضوئى، ولم تستطع التكنولوجيا البشرية حتى الآن القيام بهذه المهمة، إنه حقًّا معجزة فى هيئة جزىء كيميائى.

ب- إبهار فى الوظيفة: إشكالية الحواس الدقيقة

يتوهم الداروينيون أن نشأة الحواس الخمس[3] أمر سهل، باعتبار أن الاستقبال وظيفة سلبية فى الكائن الحى! لذلك يُسَوِّدون مئات الصفحات يشرحون فيها كيف تتحول بعض خلايا الجلد عشوائيًّا إلى عين مبصرة مثلًا. إن دراسة أمينة متعمقة للتعقيد المذهل لهذه الحواس ومدى ما فى أعضائها من توافق مبهر بين البنية والوظيفة تثبت دون أدنى شك سذاجة وانحياز مثل هذا التفكير.

جـ- إبهار فى السلوك: هجرة الطيور والأسماك

أثبت العلم أن الطيور تعرف طريقها فى رحلة الهجرة السنوية إلى أماكن تكاثرها والعودة منها، والتى تمتد لآلاف الكيلومترات عبر المحيطات والصحارى والغابات، عن طريق تتبع المجال المغناطيسى للأرض.

أما ثعابين السمك فحكايتها أكثر عجبًا، فبعد وضع البيض تموت الأمهات فى المهجر، بينما تعود الصغار إلى موطن الأمهات عبر نفس الرحلة، وتصل إلى نفس الترعة الصغيرة المتفرعة من نهر النيل

---

(١) الهيموجلوبين هو أساس الحياة الحيوانية، إذ يقوم بحمل غاز الأوكسجين من الرئتين إلى الأنسجة، وحمل ثانى أكسيد الكربون بعيدًا عنها.

(٢) تُعرف هذه الظاهرة بالتعقيد غير القابل للاختزال، وسنناقشها بالتفصيل فى الفصل القادم.

(٣) الإبصار - السمع - الشم - الذوق - اللمس.

العظيم لتحيا فيها. كيف وُضعت المعلومات فى الشفرة الوراثية للطيور والأسماك؟ هل تظن أنها التجربة أو الصدفة؟!

د- إبهار التوافق بين الذكور والإناث، وإشكالية نشأة التكاثر الجنسى: لِمَ؟ وكيف؟

ظلت الكائنات وحيدة الخلية التى تتكاثر بالانقسام الثنائى (التكاثر اللاجنسى) هى النوع الوحيد من الكائنات على كوكبنا طوال ثلاثة بلايين سنة. وما زال سبب وكيفية الانتقال من هذا النمط من التكاثر إلى التكاثر الجنسى سر من الأسرار البيولوجية. والأشكل كثيرًا من ذلك؛ كيف تحدث بالصدفة التغيرات الملائمة المتوافقة فى كل من الجنسين على حدة[1].

أتدرى كيف يفسر الداروينيون هذا التوافق المذهل؟

يقول البيولوجى الداروينى مات رايدلى[2] فى كتابه «الملكة الحمراء The Red Queen»: إن نشأة التكاثر الجنسى وما يحتاجه من توافق كان مجرد حادثة تطورية عَرَضية، تمامًا كأن تقود السيارة على الجانب الخطأ من الطريق! لِمَ نعطيه أهمية خاصة؟! أنا شخصيًا لا أعتبر هذا تفسيرًا علميًا بل تحايلًا ساذجًا، فهل تقبله أنت؟!

هـ- إبهار التعايش[3] بين نوعين Symbiosis: التعايش بين الحيوانات آكلة العشب والبكتريا

تحتاج الحيوانات آكلة العشب لبكتريا معينة للقيام بهضم مادة السيليولوز التى تتكون منها ألياف غذائها النباتى، وتحصل الحيوانات على هذه البكتريا التى تجد لنفسها المأوى فى معدة الحيوان مع أول وجبة عشب تأكلها.

ماذا يحدث لو انقرضت هذه البكتريا؟ حتمًا ستموت الحيوانات آكلة العشب، وبالتالى ستموت الحيوانات اللاحمة التى تتغذى عليها، وفى النهاية ستكون حياة الإنسان فى خطر حقيقى. كيف تم تنسيق هذا الأمر ووضع شروطه فى الشفرة الوراثية لكلا الكائنين؟!

و- إبهار التوافق بين عدة أنواع Interspecies Coordination

إشكالية ظاهرة التطفل: Parasitism

تحيا ١٠٪ من الكائنات الحية متطفلة على كائنات أخرى. وتُتم الكثير من هذه الطفيليات دورة حياتها من خلال عائلين، عائل أساسى يحيا داخله الطور البالغ من الطفيل، وعائل

---

(١) إن الأمثلة على ذلك تفوق الحصر، منها:

- كيف تتكون الكروموسومات المتماثلة فى كل من الذكر والأنثى على حدة، بحيث يلتقيان عند إخصاب البويضة ليكوّنا زوج الكروموسومات المتماثل؟!
- كيف تتكون فى رأس الحيوان المنوى الإنزيمات المناسبة لاختراق جدار البويضة الذى لا يعرف الذكر عن تركيبه شيئًا؟!
- كيف يتشكل جسم الأنثى على الهيئة التى تثير الذكر الذى يوجه مزاجه هورمون جنسى ذكورى ليس له ملكات تذوقية جمالية؟!

(٢) Matt Raidley: عالم البيولوجيا والإعلامى البريطانى، ولد عام ١٩٥٨.

(٣) المقصود بالتعايش أن يحيا كائن مع كائن من نوع آخر يتبادلان المنفعة.

وسيط يتم فيه جزء مكمل من دورة الحياة. ومن ثم يمثل هذا النوع من التطفل علاقة بين ثلاثة كائنات[1]. كيف تم هذا التنسيق بين الكائنات الثلاثة؟

تهرب مخز

يمكن تقسيم ما ذكرنا من ظواهر بيولوجية مبهرة تُعجِز الدراونة إلى مجموعتين؛ تعكس الأولى إعجازًا هائلًا فى بنية جزيئات الحياة (الهيموجلوبين والكلوروفيل) وفى دقة قيام الكائنات بوظائفها (الحيوانات المهاجرة)، والمجموعة الثانية تعكس توافقًا هائلا بين ذكور وإناث الكائن الواحد، وبين كائنين وبين ثلاثة كائنات. فكيف يفسر الداروينيون هذا التوافق؟

عندما يريد بعض العلماء والفلاسفة إقناع الآخرين بفكرة ليس عليها دليل علمى أو عقلى، فإنهم يطلقون عليها مصطلحًا Give-it-a-name فيبدو الأمر كأنه حقيقة!. وبدلًا من أن يتوجه الحوار لصحة أو خطأ الفكرة، يَقْنَع المتحاورون بالمصطلح!. وقد استخدم الداروينيون هذا الأسلوب ليفسروا لنا التوافق المدهش الذى عرضناه، فقالوا إنه يرجع إلى «تطور متوافق بين الكائنات Co-Evolution»، وخلاص!

أسلوب آخر يلجأ إليه الدراونة ليقنعونا بأمر يعجزون عن تفسيره، إنهم يقولون عن الأمر «هكذا قد حدث Just_so» وخلاص.

وحتى لا تظن أننى أقول هذا مازحًا أو متجنيًا، وحتى لا تعتقد أن ما فى الأسواق من مئات الكتب التى تشرح التطور الداروينى العشوائى تطرح كلامًا منطقيًا، أعرض عليك نصوص بعض حججهم:

جاء فى دائرة المعارف الأمريكية طبعة ١٩٨٢ [2]: «اكتشفت» الطفيليات «بالمصادفة! By accident» أو «بالتجربة! Experiment» فوائد أن تحيا على حساب كائنات أخرى. وفى طبعة ١٩٩٤ من الموسوعة اختفت كلمتا «اكتشفت» و«بالتجربة»، وبقيت المصادفة!!

(١) إذا أخذنا دورة حياة طفيل البلهارسيا كمثال، وجدنا توافقًا هائلًا بين الكائنات الثلاثة: دودة البلهارسيا (ذكر وأنثى) والعائل الوسيط (نوع محدد من حيوانات القواقع) والإنسان (العائل الأساسى). لا شك أن فى كل مرحلة من دورة حياة ديدان البلهارسيا جوانب من التوافق تحتاج إلى إدراك كلٍّ من الكائنات الثلاثة لكيمياء وبيولوجيا وفيزياء الكائنين الآخرين، بل وعاداته المعيشية والاجتماعية.

(٢) الجزء ٢١ الصفحة ٢٨٨.

وتذكر موسوعة جنس للكائنات الحية[1] أن «ذلك يرجع إلى تطور متوافق Co-Evolution»

وفى كتاب «هل يلعب الإله النرد؟ ـ Does God Play Dice?»، الذى صدر عام ١٩٩٧، يقول المؤلف[2]: من الأمور المعقدة التى تَغَلَّب عليها التطور ظاهرة الحشرات ماصة الدماء (كالبعوض). إن وجود الدماء فى الثدييات وامتلاك البعوض للإبرة القادرة على اختراق الجلد وامتصاص الدماء قد حدثا نتيجة لـ«تطور متوافق Co-Evolution»، وليس نتيجة لتطور منفصل لكل كائن على حدة! وعندما سُئل المؤلف فى أحد الحوارات عن معنى ما يقول، تهرب من الإجابة وقال: دعونا ننتقل لموضوعات أكثر أهمية!!

فيما سبق أثبتنا عجز آلية التطور الداروينى (الانتخاب الطبيعى من بين طفرات عشوائية) عن إحداث التنوع الهائل الذى نرصده فى الكائنات الحية، والآن جاء دور تأمل «حدود التطور الداروينى» لنتبين قدراته وإمكاناته.

محدودية دور التطور العشوائى:

نناقش تحت هذا العنوان سؤالين

- يُحدث التطور الدقيق تعديلات فى الكائن الحى، فهل يمكن إذا تراكمت هذه التعديلات أن تحوله إلى كائن آخر (تطور ظاهر)؟
- هل لإمكانيات التطور الداروينى حدود، أم أنه قادر على أن يُحدث كل ما نرصد من تنوع فى الكائنات؟

يعارض الدراونة وضع حد فاصل بين التطور الدقيق Microevolution والتطور الظاهر Macroevolution، ويعتبرون أن الثانى يحدث نتيجة لتراكمات الأول، ومن ثم يعتبرون أن التطور الظاهر لا يحتاج لآليات خاصة به. وفى المقابل، يرى فريق كبير من البيولوجيين المتخصصين فى الوراثة [3] أن آليات التطور الدقيق التى نعرفها غير كافية مهما تراكمت لإحداث التطور الظاهر، وأن الأخير حدث بآليات أخرى لا نعرف عنها شيئًا.

(١) طبعة ١٩٩٢ الصفحة ١٧.

(٢) كتاب للرياضى إيان ستيوارت Ian Stewart صدر عام ١٩٨٩، يشرح فيه الأسس الرياضية لمفهوم الفوضى Chaos.

(٣) منهم: Goodwin - Richard Goldschmidt - John Maynard Smith - E.S Zathmary - Siegfried Scherer

ويبين بول إيربرخت (عالم البيولوجيا والفيلسوف) أن آلية الانتخاب الطبيعى من بين طفرات عشوائية لا تشكل شيئًا جديدًا، لكنها آلية تضبيطية فعالة. فهى تُمكِّن نظامًا موجودًا بالفعل من التأقلم مع المتغيرات البيئية، تمامًا كما يُعَدِّل كمبيوتر السيارة من عمل الموتور مع ضغطك المتزايد على دواسة البنزين، ومن ثم فإن الآليات التى نعرفها تؤدى إلى بقاء الأصلح Survival of Fittest وليس ظهور الأصلح فى الساحة Arrival of Fittest.

من العلماء الكبار الذين يرفضون آليات الداروينية الحديثة «بيير جراسيه»[1]. فقد أجرى تجارب شيقة على آلاف الأجيال من ذبابة الفاكهة (الدروسوفيلا) وأحدث فيها كل ما يمكن من الطفرات. لم يحصل جراسيه على أى طفرات مفيدة، بل إن الطفرات الضارة كانت تحدث فى حدود معينة لا تتجاوزها، كما أن الحشرات المعيبة كانت تختفى سريعًا نتيجة لعملية «التنظيم الوراثى Genetic Homeostasis» إذ تصبح عقيمة لا تتكاثر. كل ذلك أثبت استحالة أن يؤدى التطور الدقيق إلى تطور ظاهرى.

أبحاث مايكل بيهى:

يُعتبر مايكل بيهى[2] من علماء البيولوجيا الجزيئية الكبار الذين اهتموا بدراسة قدرات التطور، وقد أجرى العديد من الأبحاث فى هذا المجال وضمنها فى كتاب ذاعت شهرته بعنوان «حدود التطور The Edge of Evalution». وقد لاحظ بيهى فى تجاربه أن التغيرات التى أحدثتها الطفرات العشوائية فى الكائنات لم تكن تطورية Evolution (لم تستحدث شيئًا) بل كانت انتكاسية Devolution نتيجة للتضحية بأجزاء من الآليات الحيوية للكائن. كما أثبت بيهى عجز الانتخاب الطبيعى من بين طفرات عشوائية عن تكوين جزىء بروتين جديد واحد[3].

(١) Pierre Grassé: كان أستاذًا للبيولوجيا فى السوربون ورئيسًا للأكاديمية الفرنسية للعلوم ورئيس تحرير العمل الموسوعى الكبير فى علوم الحيوان Traité de Zoologie (٢٨) مجلدًا. ويوصف جراسيه بأنه موسوعة فى علوم الحياة وبأن كتابه «تطور الكائنات الحية» هو خط الهجوم الأول ضد الداروينية.

(٢) Michael Bohe: التعريف به الفصل القادم.

(٣) من أشهر تجارب بيهى استكثاره لأكثر من ٣٠,٠٠٠ جيل من بكتيريا E.Coli، وهى تعادل مليون سنة من عمر الإنسان. لقد أدت الطفرات التى أحدثها فى البكتريا إلى تعطل بعض العمليات الحيوية الهامة الخاصة ببناء أجزاء من الرنا RNA المطلوبة للتكاثر، وقد ضحت البكتريا بهذه الخطوة بالرغم من أهميتها لأنها تتطلب قدرًا كبيرًا من الطاقة. من ذلك استنتج بيهى أن التطور العشوائى يحطم الكائنات ولا يستحدث شيئًا مفيدًا.

ومن تجارب بيهى المهمة تلك التى أجراها على طفيل الملاريا، وعنها يقول: لقد دخل طفيل الملاريا فى صراع طويل مع العقاقير القاتلة التى توصل إليها الإنسان، وأشهرها عقار كلوروكين Chloroquine. لقد اكتسبت بعض أفراد =

وكما هو متوقع، ظهرت عشرات الدراسات للاعتراض على طرح بيهى، لكنها لم تكن موضوعية بتاتًا، بل كانت عدائية بأسلوب وقح كاف وحده لإفقادها المصداقية. ولعل أشهر النقد الفارغ ما وجهه دوكنز وجيرى كوين، حيث اعترضا على ما طرحه بيهى من حقائق بأن الانتخاب الصناعى قد استطاع على مدى بضعة مئات من السنين إنتاج أنواع (Species) مختلفة من الكلاب! وقد فاتهم أن فى هذه الأنواع لم يظهر بروتينان جديدان صالحان للعمل معًا فى تناغم[1]. وقد فَنَّد بيهى فى كتابه هذا الاعتراض (قبل أن يُطرح!) حين ذكر أن التطور الداروينى يمكن أن يُنشئ فصائل جديدة Familles، ومن باب أولى يمكن أن يُنشئ أنواع مختلفة من الفصيلة الواحدة، لكنه يعجز عن إنتاج الرتب Orders والطوائف Classes والشُعَب Phyla.

ونلخص نتائج أبحاث بيهى فى أن للتطور حدود لا تستطيع الطفرات والانتخاب الطبيعى تجاوزها. وفى نفس الوقت يؤكد بيهى أن أدلة الأصل المشترك لا يمكن إغفالها، لذلك يطرح التدخلات الإلهية السافرة كتفسير لإحداث التطور الظاهر والتنوع بين الكائنات.

القارئ الكريم

رأينا فى هذا الفصل أن:

الداروينية = التطور البيولوجى + العشوائية

وقد عرضنا باختصار **أدلة العلم على الأصل المشترك للكائنات**. كما عرضنا الأدلة على **عجز العشوائية عن قيادة قاطرة التطور، والتى تمثلت فيما أُكتشف من أسرار سجل الحفريات**

=الطفيل مناعة ضد العقار من خلال التضحية بأجزاء من شفرته الوراثية، لقد كانت المناعة نتيجة لعمليات تكسير وليس بناء. وبالرغم من ميلاد حوالى مائة بليون طفيل فى مناطق الملاريا الموبوءة على مدى الخمسين عامًا الماضية، لم يحدث أن ظهر بروتين جديد واحد فى هذه الطفيليات من أجل التغلب على هذه العقاقير. أى أن فرصة نشأة بروتين واحد جديد تقل عن 10^{-20}.

وينتقل بيهى إلى دراسة فيروس الإيدز AIDS وصراعه ضد العقاقير التى يستعملها الإنسان، ويخبرنا أنه خلال عقود من الصراع نشأت قرابة 10^{20} سلالة من الفيروس، دون تكوين بروتين واحد جديد. كذلك فإن احتمالية تَكَوّن بروتينين صالحين للتفاعل سويًا أقل من 10^{-40}، وهو رقم يفوق عدد الكائنات التى ظهرت على الأرض طوال تاريخها، فما أدراك بـ ٣ بروتينات تتناغم سويًا، وما أدراك بالآلة البروتينية (الكائن الحى) التى يحتاج التفاعل الكيميائى الواحد فيها إلى التناغم بين عشرة جزيئات من البروتينات على الأقل، وما أدراك بالعشرات والمئات والآلاف من الجزيئات؟!.

(١) New Protein - Protein Interaction Sites

التى قلبت تمامًا النظرة إليه؛ من دليل على العشوائية إلى دليل ضدها، وكذلك ما يكتنف مفهوم الانتخاب الطبيعى من بين طفرات عشوائية من خداع، وأيضًا إثبات أن التطور الداروينى محصور فى التطور الدقيق ويعجز عن إحداث التطور الظاهر. كل ذلك لا يدع مجالًا لغير القول بالتطوير الإلهى الموجه.

وبالرغم من ذلك، يتعصب الدراونة لمذهبهم أكثر من تعصب الأصوليين الدينيين لدياناتهم! حتى صارت الداروينية عند الماديين بمثابة قدس الأقداس الذى لا ينبغى لذوى العقول الناقدة وُلُوجَه، بعد أن وجدوا فى الداروينية فرصة عمرهم لرفض القول بالإله الخالق. ومن ثم، بعد أن كانت الداروينية فرضية علمية بيولوجية أصبحت مبدأً غيبيًّا إلحاديًّا يعم الكون كله، ويرفع عن الإنسان أى التزامات دينية. وبذلك أصبحت «الداروينية» أو «التطورية» فلسفة ضد الدين، بل صارت كإله متجسد يعتبره مريدوه قوة حقيقية فى الكون.

ويطرح الفيلسوف الأمريكى الكبير ألفن بلانتنجا فى كتابه المدهش: أين يكمن الاختلاف؟[1] مفهومًا شديد الأهمية، يطعن فى مقتل ارتكاز الملاحدة على الداروينية لإنكار وجود الإله، انظر إليه وهو يقول: «إن هناك تناقضًا عميقًا بين الإلحاد وبين سيناريو التطور البيولوجى كما تصوره نظرية دارون!».

ويشرح بلانتنجا هذا المفهوم قائلًا: « من أجل أن ندرك هذا التناقض تعال نتأمل ما تقوله نظرية دارون بالتحديد حتى نَفْصِل بين مفاهيمها العلمية وبين توابعها الفلسفية والدينية التى انحرف بها الكثيرون عن الحقيقة. تنص النظرية على أن العديد من الطفرات المفيدة قد حدثت فى وقت ملائم تمامًا فأدت إلى حدوث تطور رائع يفوق التصور، وأن الشفرة الوراثية للخلية الأولى كانت مناسبة جدًّا لأن تكون سلفًا لكل التنوع الهائل فى الكائنات الحية، كذلك وقعت بعض الأحداث الطبيعية الهائلة التى سمحت بانقراض أجناس معينة لتتيح الفرصة لظهور أجناس أخرى[2]. إن ما ذكرنا يبين أن لدينا نظرية علمية محترمة عليها أدلتها، تؤكد التصميم والتخطيط والقصد والغائية وتتبع سيناريو محدد، وبالرغم من ذلك أتى أقوامٍ وأضافوا إليها استنتاجات فلسفية تَدَّعى عشوائية الأحداث (خاصة الطفرات) دون دليل علمى على ذلك».

---

(١) Where the Conflict really lies. Oxford University Press,2011

(٢) كسقوط نيزك هائل على الأرض منذ ٦٥ مليون سنة، وأدى إلى انقراض الزواحف الضخمة (الديناصورات) مما سمح بنشأة الثدييات.

. ويُعَبِّر عالِم الحفريات والبيولوجى الكبير ستيفن جاى جولد عن ورطة الدراونة بأسلوب ساخر قائلًا: إما أن أحد نصفَىّ زملائى أغبياء بشدة أو أن الداروينية مليئة بالمفاهيم التى تتمشى مع الدين وأيضًا بالمفاهيم التى تتمشى مع الإلحاد.

وخلاصة القول أن ما يعتقده الملاحدة وأيضًا المتدينون الأصوليون من أن التطور يتعارض مع الألوهية يرجع إلى خطأ منهجى أساسى، فهم يعتبرون أن الإله والتطور البيولوجى بدائل متنافية Mutually Exclusive Alternatives، أى أن القول بأحدها ينفى القول بالآخر، إن ذلك غير مقبول إلا إذا كان كل من الإله والتطور ينتسبون إلى نفس المستوى من التفسيرات، وهذا خطأ بَيِّن. فالتطور «آلية بيولوجية»، أما الإله فـ«فاعل أول له وجود حقيقى»، يقوم (بالإضافة لمهام أخرى) بتصميم وخلق الآليات.

لذلك فإن قولنا بأن الإله قد وجه عملية التطور هو المفهوم الوحيد القادر على الجمع بين الآلية (وهى التطور الذى أثبته العلم) وبين الفاعل الأول الذى أنشأ هذه الآليات.

***

الفصل السابع

التصميم والتطوير

بين الإله والإلحاد

- ملامح التصميم فى عالم الأحياء
- نظرية المعلومات
  - المعلومات هى الأصل
  - النظرية اللوغاريثمية للمعلومات
  - ما هى المعلومات وكيف نقيسها
  - التعقيد المتفرد
  - نوعية المعلومات
  - عدم الحتمية
- المعلومات سر الحياة
  - العشوائية لا تُوَلِّد معلومات
  - والقوانين لا تُوَلِّد معلومات
- التعقيد غير القابل للاختزال
  - المسمار الأخير فى نعش الداروينية
  - حدود التطور - مرة أخرى
  - دفاع الدراونة
  - فوز بالضربة القاضية
- برهان التصميم إدراكٌ وليس استنتاجًا
  - حقيقة برهان التصميم
- تصميم قاصر أم تصميم ذكى
- التصميم الذكى والتطوير الإلهى
  - التصميم الذكى والخلق الخاص
  - التصميم الذكى والتطوير الإلهى
    - التصميم الذكى والتدخل الإلهى
    - آلية التطوير الإلهى
    - التصميم الذكى والتطور الموجه
- هل التصميم الذكى علمٌ؟
  - التصميم الذكى فى المحكمة
  - الداروينية - وليس التصميم الذكى - تُعيق العلم
  - أبا جهل: التصميم الذكى أم الداروينية؟
- القارئ الكريم
  - من التصميم إلى المُصَمِّم

﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾

[يس: ٨٢]

«فى البدء كانت الكلمة»

(سِفْر التكوين)

«فى البداية كانت المعلومة Bit»

(نظرية المعلومات)

منذ قرابة العشر سنوات، أصبح مفهوم «التصميم الذكى» نظرية علمية تتصدى لتفسير نشأة الكائنات الحية. وتطرح النظرية أن هذه الكائنات والجزيئات العضوية التى تتكون منها تحتاج فى نشأتها وفى بقائها وفى عملها إلى ذكاء، وأنه لا يمكن للعشوائية أن تفسرها. وقد امتد هذا المفهوم ليشمل العلوم المختلفة، كنشأة الكون والذكاء الإنسانى. ويرتبط بالتصميم الذكى مفهوم «التطوير المُوَجَّه»، الذى يعنى أن تطور الكائنات الحية من الخلية الأولى إلى ما عليه الآن عالم الأحياء من تنوع قد تم بتوجيه ذكى قادر، إذ تعجز العشوائية عن القيام به.

وقد حرص أنصار مفهوم «التصميم الذكى» فى الغرب على ألَّا يتعرضوا إلى «المصمم الذكى» الذى هو الله ﷻ؛ إذ سينتقل ذلك بطرحهم (هل الكون والحياة والكائنات الحية تحتاج إلى ذكاء أم أن العشوائية قادرة على تفسير نشأتها؟) من طرح علمى يمكن أن يخضع للتدقيق العلمى إلى مجال الدين والإله الخالق، الذى يعتبره الماديون خروجًا صريحًا على العقل والعلم ودخولًا تحت مظلة الغيبيات!

وسنقوم فى هذا الفصل بمناقشة مفهومى التصميم الذكى والتطوير المُوَجَّه، وتفنيد حجج الملاحدة ضدهما، ومعرفة مدى حجيتهما على الوجود الإلهى.

إذا سافرت فى رحلة، ونظرت حولك فى كل مكان تذهب إليه، فستلاحظ أن عقل الإنسان وذكاءه وقدرته على التصميم تقف وراء أشياء كثيرة:

الفندق الذى تنزل فيه، وكل ما فيه: غرفه ـ مطاعمه ـ قاعاته ـ بِرَك السباحة فيه...

المحال التى تزورها لشراء الهدايا، والهدايا ذاتها.

الطرق والأنفاق والكبارى التى أُنشئت بتصميم وتقنية تكفل أقصى درجات الأمان.

وأيضًا، وسائل الانتقال التى تستخدمها؛ الطائرة ـ السفينة ـ القطار ـ السيارة، ووسائل التواصل كالتليفونات والشبكة العنكبوتية.

كل شىء، كل شىء، كل شىء.

ولكن هل تتوقف ملامح التصميم على ما يبدعه الإنسان فقط؟

ألا ترى ملامح التصميم فى الطبيعة من حولك؟

قد لا تستشعر هذه الملامح فى صخور جبل المقطم أو فى أمواج البحر الهادرة أو فى تلال رمال الصحراء الممتدة أمامك إذا قارنتها بالزهرة الملونة ذات الرائحة الزكية أو بجدول الماء الجارى وسط المروج الخضراء. لا، إن هذه وتلك تتمتع بملامح التصميم والذكاء التى يمكن أن ندركها إذا تأملناها بعمق وفهمنا القوانين التى شكلتها.

ولكن لِمَ حكمنا بوجود التصميم فيما عرضنا من مصنوعات الإنسان ومظاهر الطبيعة؟ لقد جَدَّ المهتمون بمفهوم «التصميم Design» فى البحث عن ملامح وعلامات التصميم فى كل ما حولنا، حتى ينتقلوا بالمفهوم من كونه مجرد ذوق وانطباع إلى أن يكون مفهومًا علميًّا قابلًا للتمحيص. وقد خرجوا بعدد من السمات التى إذا توافرت فى موجود ما وجب القول بأن فيه ملامح وعلامات التصميم المقصود.

ملامح التصميم فى عالم الأحياء

تلفتنا آيات القرآن الكريم إلى أن عالم الأحياء ملىء بالعجائب التى لا تنتهى[1]. وقد امتلأت كتابات الفلاسفة الإسلاميين بالتأملات حول ما فى هذا العالم من أعاجيب، مثل كتاب الحيوان للجاحظ ورسائل إخوان الصفا وكتابات ابن خلدون وابن مسكويه. وقبلهم أدرك فلاسفة اليونان خاصة أفلاطون وأرسطو نفس المعنى. وكلما تقدم العلم يتزايد إدراكنا لتلك العجائب التى لا تنتهى.

(١) ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت].

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [النحل].

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾ [الغاشية].

بل إن كبير الملاحدة المعاصرين ريتشارد دوكنز لا ينكر علامات التصميم فى عالم الأحياء، حتى إنه يُعَرِّف علم البيولوجيا بأنه «دراسة الأشياء الحية المعقدة التى تعطى انطباعًا بأنها قد صُممت لغاية»[١]، كما قال فى إحدى محاضراته: «إن الكائنات الحية تبدو إلى حد بعيد كأنها قد تم تصميمها»[٢]. لاحظ كيف يؤكد دوكنز وغيره من الملاحدة على كلمة «تبدو» Strong Inpressing of Design . كذلك يحذرنا سير فرانسس كريك أن نتوهم أن الانطباع بالتصميم يعكس الحقيقة! فيقول: على البيولوجيين أن يُذَكِّروا أنفسهم دائمًا أن ما يرونه ليس مُصَمَّمًا، لكنه نتاج التطور الداروينى!

سبحان الله!! إذا بدا شىء فى شكله كالبطة، وكان يسير مترنحًا كالبطة، ويُصدر صوتًا كصوت البطة، لماذا لا نعتبره بطة؟! ولماذا يصر الماديون على أنه يشبه البطة؟ ولماذا يصرون على أن آلية التطور العشوائى العمياء الخالية من أى ذكاء قادرة على إيجاد التعقيد الرهيب الذى نراه فى عالم الكائنات الحية؟

إن الكائنات «تبدو مُصَمَّمَة» لأنها «بالفعل مُصَمَّمَة».

لا شك أن إنكار الإدراك البديهى بأن البطة بطة يقف وراءه خلفية أيديولوجية ملحدة. ويتبدى ذلك فى قول الملحد دانيل دينيت[٣]: «لقد قدم لنا دارون عالمًا مليئًا بالشك، قدم آلية لخلق التصميم من الفوضى دون الاحتياج إلى عقل». ويعتبر دينيت فكرة دارون بمثابة الأحماض الكاوية التى تحرق ما كان قبلها من أفكار، فبدلًا من اعتبار أن مادة الكون وما فيه من إنتاج عقل حكيم طرح أن العقل من إنتاج مادة الكون ! عن طريق عملية لا عقل لها، غير موجهة ولا غاية لها!

وإذا كان برهان التصميم قد طُرح منذ أكثر من ألفى سنة[٤]، واتخذ عددًا من الأشكال عَبْرَ مختلف الحضارات والعصور، فإننا سنطرح فى هذا الفصل كيف قدم العلم الحديث من خلال «نظرية المعلومات» البراهين النهائية التى لا تُدحض على احتياج الخلق إلى المصمم الذكى.

---

(١) فى كتابه Blind Watchmaker, Longman 1986 P. 1

(٢) محاضرة Royal Institution Christmas Lectures.1991

(٣) Daniel Dennett فى كتابه Darwin's Dangerous Idea.

(٤) شَبَّه الفيلسوف والسياسى الرومانى سيسيرو Cicero (١٠٦ – ٤٣ ق.م) انتظام حركة النجوم والكواكب بالآلة الدقيقة المصممة بذكاء، واستنتج من ذلك احتياج السماوات بكل ما فيها من إحكام لمصمم سماوى مُتقِن.

نظرية المعلومات

Information Theory

اعتدنا فى حياتنا اليومية كلما قابلنا شخصًا غزير وعميق المعلومات أن نصفه بالذكاء، وقد اعتبر المتخصصون أن المعلومات (كميتها وعمقها وكيفية التعامل معها) دليل على الذكاء، ومن خلالها صمموا لقياسه الاختبارات المتعددة.

لقد ظلت الأدلة التى تقدمها نشأة الحياة (والتى ذكرناها فى الفصل الخامس) تثبت بشكل غير مباشر وجود الذكاء والتصميم والقصد فى خلقها. ثم كانت الثورة المعلوماتية، التى أظهرت أن ما فى ظاهرة الحياة من معلومات يثبت بشكل «مباشر» ما فيها من ذكاء وقصد وتصميم، ومن ثم يشير بشكل مباشر إلى الإله الخالق(١).

المعلومات هى الأصل

يقول بول ديفيز فى كتابه New Scientist: لقد اعتدنا أن ننظر إلى العالم باعتبار أنه يتكون من جزيئات المادة، وأن نعتبر المعلومات ظاهرة ثانوية مرتبطة بتلك الجزيئات. وحديثًا تبدلت النظرة، فصرنا ننظر إلى الوجود باعتباره معلومات جاءت المادة لتجسيدها. لذلك بعد أن كنا ننظرإلى الكون باعتباره ظاهرة فيزيائية وإلى الحياة باعتبارها ظاهرة كيميائية، صرنا ننظر لكليهما باعتبارهما ظاهرتين معلوماتيتين. وقد كان الفيزيائى الكبير جون ويلر(٢) أول من طرح هذا المفهوم عام ١٩٨٩ حين قال: غدًا ستتعلم كيف نفهم الفيزياء بلغة المعلومات.

إن هذا المفهوم ليس جديدًا، فالقرآن الكريم يخبرنا أن الله يخلق كل شىء بـ «بكلمة» «كن» كما تخبرنا التوراة أن الأصل كان «الكلمة». إن الكلمة شفرة للمعنى، تواصُل، أمر، معلومة لها قدرة خَلقية. إن الكلمة هى الأصل، فإذا كانت المادة/ الطاقة تتبع المخلوق، فالكلمة تتبع الخالق. لذلك فنحن نؤمن أن الوجود فى الأصل كان وجودًا معلوماتيًا فى علم الله، ثم تجسد بكلمة «كن»

---

(١) نعتبر أن هذا الفصل الذى نعالج فيه «مفهوم المعلومات» من أقوى (وربما أصعب) فصول الكتاب، فأدلته هى أحدث وأقوى وأقطع ما قدم العلم فى مجال الاستدلال على الألوهية.

(٢) John Archibald Wheeler: (١٩١١ـ ٢٠٠٨م) عالم الفيزياء النظرية الأمريكى الذى أحيا الاهتمام بالنظرية النسبية بالولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية.

فى الوجود المادى المحسوس[1]، وبذلك أصبحت المادة تجسد الوجود المعلوماتى غير المادى. إن ذلك يعنى أن الإنسان موجود «حادث» فى الكون المحسوس، لكنه فى نفس الوقت موجود «أزلى» فى علم الله القديم، فحاشا أن يَجِدَّ على علم الله علم.

ما هى المعلومات وكيف نقيسها

اعتدنا فى استخدامنا الدارج أن نقول: استقبلنا معلومات، وأخذنا معلومات، وأعطيته معلومات. لذلك تصف كلمة المعلومات أمورًا لم نكن نعرفها من قبل ثم صرنا نعرفها، من ثم **تُوصف المعلومات بأنها تقلل من مقدار (درجة) عدم يقيننا.**

ولعل أصعب مشكلة تقابلنا عند التعامل مع المعلومات هى **كيفية تقسيمها وقياسها.** وقد اهتمت نظرية المعلومات بذلك، حتى صار من أعظم إنجازاتها وضع آلية لتكميم (من كم، أى مقدار) المعلومات. دعنا نوضح تعريف المعلومات وأقسامها وطريقة قياسها بمثالين:

إذا وصلنا إلى فندق صغير (بنسيون) يحوى ثمان غرف، ولم نكن قد حجزنا غرفة مسبقًا، فإن احتمالية أن نقيم فى غرفة بعينها هى ١/ ٨، وهذه الاحتمالية مقياس مباشر لعدم يقيننا. أما إذا كنا قد أُخبرنا قبلًا أننا سنقيم فى غرفة رقم «٥» فإن هذه المعلومة تكون قد قضت على عدم يقيننا.

ويمكن تحديد مقدار المعلومات اللازمة للقضاء على عدم اليقين بأمر ما بعدد الأسئلة المباشرة (التى يُجاب عليها بإحدى إجابتين نعم أو لا) التى ينبغى أن نسألها لمعرفة هذا الأمر. وفى مثالنا نجد أن المعلومة (رقم الغرفة) ستتأكد من طرح ثمانية أسئلة (بعدد غرف البنسيون) لكل منها إحدى إجابتين (نعم أو لا). وبلغة الرياضيين نقول:

من أجل أن نحدد احتمالية فى أى الغرف (من الثمانية) سنقيم، فى حالة وجود احتمالين لكل غرفة (نعم أو لا) فإن ٨=$٢^{٣}$ حيث اثنين (نعم أو لا) هى الأساس Base، و٣ هى قوة الأساس Power، من أجل أن نحصل على ٨. ولأسباب رياضية معقدة نعتبر أن قوة الأساس (٣) هى كمية المعلومات المطلوبة، ونصفها بأنها ٣ بت (Bit هى اختصار لـ Binary digits = أرقام مزدوجة). وبأسلوب رياضى آخر نقول: «٣» هى لوغاريثم Logarithm (عدد مرات المضاعفة) للحصول على «٨» إذا كان الأساس «٢». وتكتب هكذا: $Log_2 8$ =٣، وتُقرأ «٣» هى لوغاريثم الرقم «٨» للأساس «٢».

دعنا نطبق هذا الفهم على المثال الآخر:

إذا استقبلنا على هاتفنا المحمول رسالة باللغة الإنجليزية التى تحوى ٢٦ حرفًا + مسافة =

---

(١) يمكن تشبيه ذلك ببيئة بناء موجودة فى عقل المهندس، هذا هو الوجود المعلوماتى. ثم يجسد المهندس البناء فى مستويات متعددة، تبدأ بالرسم الهندسى (اسكتش)، ثم نموذج (ماكيت) ثم يتم تنفيذه فى أرض الواقع المادى.

٢٧ رمزًا، فإن احتمال أن يصلنا أىٌّ من هذه الرموز (وليكن الحرف A) هو ١ / ٢٧، وأمام كل حرف احتمالين (أن يكون جزءًا من الرسالة أو لا يكون)، بذلك تكون المعلومات التى يضيفها لنا كل حرف = Log_2 ٢٧ أى لوغاريثم الرقم «٢٧» للأساس «٢» ويساوى ٤,٧٦ تقريبًا. وبالتالى فإن رسالة طولها عدد m من الرموز تنقل لنا معلومات مقدراها m Log_2 ٢٧

وإذا كانت الرسالة تحمل بالإضافة إلى حروف الأبجدية أرقامًا، عندها سيكون لدينا ٣٧ رمزًا (٢٧ حرف + ٩ أرقام + صفر). عند ذلك ستصبح المعلومات التى تنقلها لنا الرسالة m Log_2 ٣٧

فى هذين المثلين يلعب رقم «٢» دورًا رئيسيًّا (نعم أو لا).

وفى لغة الكمبيوتر نستخدم للدلالة على أى حرف لغوى رمزين «٠، ١»، لذلك فإن خمسة رموز منها كافية للتعبير عن الـ ٢٧ رمزًا التى تحويها اللغة الإنجليزية. بذلك تكون مثلًا: المسافة = 00000، A= 00001، B= 00010، C = 00011 ....

نوعية المعلومات:

معلومات رمزية[١] Semantic، ومعلومات تركيبية[٢] Synthetic

افترض إنك قد استقبلت على تليفونك المحمول هذه الرسالة التى طولها ١٦ رمزًا: ZXXTRQ NJOPW TRP، إن المحتوى المعلوماتى لهذه الرسالة يبلغ ١٦ Log_2 ٢٧ بت Bits . قد تقول؛ لكنى لم أفهم من الرسالة أى معلومات، أجيبك: ربما كانت مشفرة، وهذا هو بيت القصيد. فإن كان للرسالة معنى ولو من خلال شفرة فهى تحمل معلومات رمزية تشير إلى معنى. وإن لم يكن للرسالة معنى إطلاقًا فهى تراكيب لا ترمز لشىء، وبالرغم من ذلك فهى من منظور نظرية المعلومات تحوى نفس القدر من المعلومات، وهو أمر يثير الدهشة، فقد وصفنا المعلومات بأنها تقلل مقدار عدم يقيننا، أما المعلومات التركيبية فهى لا تفعل شيئًا من ذلك بالمرة.

فكر فيما يمكن أن تستقبله فى يومك عبر خط التليفون الأرضى، فى كل لحظة يمكن أن تستقبل أنواعًا مختلفة من المعلومات الصوتية والفاكس والمعلومات الرقمية بل وشوشرة التليفون، بعض هذه المعلومات يحمل معانى لبعض الأفراد ولا يحمل معانى للبعض الآخر، فمن لا يفهم اللغة الصينية لن تمثل له الكلمات الصينية أى معنى[٣].

(١) Semantic مشتقة من اليونانية بمعنى رمز، وبالتالى تعنى «ترمز إلى معنى».

(٢) Synthesis فى اليونانية بمعنى بناء أو تركيب. وتعنى هنا أنها «تركيب أو بنية لا ترمز لمعنى».

(٣) إن مهندس الاتصالات لا يعنيه معنى ما يصلك عبر التليفون، إنه يهتم بكفاءة الخط، أى كم من الرموز فى الثانية يقوم بنقلها، وكم معلومة تركيبية تُرسَل عن طريق الخطأ مثل الشوشرة!

مثال آخر: إذا ذهبتُ إلى المكتبة لأبحث عن كتاب فى علم أمراض الكلى Nephrology. ربما كانت أمينة المكتبة لم تسمع بهذا العلم، لكن ما أن أخبرتها عن فرع الطب الذى أريده فإننى أكون قد نقلت لها معلومات مقدارها $10 \ Log_2 27$ [1]، وعندما تبحث الأمينة عنه فى فهرس الكمبيوتر فإنها ستتوصل فورًا إلى أسماء الكتب وأماكنها وأرقامها. لقد عملت الموظفة كوسيط لنقل المعلومات (تركيبية غير ذات معنى بالنسبة لها) إلى الكمبيوتر، بالرغم من أن الكلمة لها معنى عندى (معلومات رمزية)[٢].

النظرية اللوغاريثمية للمعلومات[٣]

Algorithmic Information Theory AIT

لا شك أن من أعظم إنجازات العلم الحديث هو التوصل إلى النظرية اللوغاريثمية للمعلومات، تلك النظرية التى يستخدمها الكمبيوتر، وهى ذاتها المستخدمة فى الخلية الحية منذ نشأة الحياة منذ ٣,٧ مليار سنة! لذلك صار لِزامًا على المهتمين بدراسة أصل الحياة أن يفهموا أُسس هذه النظرية.

ولشرح النظرية، نطرح القاعدة العامة التى تحكمها: تصور تتابعًا من ثنائيات (0 ، 1) على هيئة ثلاثيات متكررة، ويشتمل على ٦ بليون رمز موزعة فى ٢ بليون ثلاثية..... 001001001. إن هذا التتابع يحتوى على ٦ بليون بت من المعلومات.

إن هذه العملية المتكررة هى ما يسميه الرياضيون «لوغاريثم Algorithm» وعليها يعتمد عمل الكمبيوتر، فتستطيع بجهد بسيط أن تجعله يقوم بهذه العملية المجهدة للغاية بأن تعطيه التعليمات: .For n=1-2 billion. Write 001. Stop

اعتبر n = ١ -٢ بليون، أكتب 001، توقف.

إن كتابة هذا الأمر يحتاج ٣٩ دقة على مفاتيح الكمبيوتر، عندها سيكتب الكمبيوتر ٦ بليون رمز. ما أعقدها (أو أبسطها) عملية.

---

(١) (١٠) هى عدد حروف الكلمة، و(٢٧) عدد حروف الأبجدية الإنجليزية + مسافة.(٢) هو احتمال أن يكون الحرف موجودًا أو غير موجود فى الكلمة.

(٢) إن القياس الكمى للمعلومات التركيبية (التى لا معنى لها) عملية بسيطة تتوقف عند الحسابات الرياضية. أما بالنسبة للمعلومات الرمزية (التى ترمز إلى معنى) فتقييمها أكثر صعوبة. فالمعنى يتوقف على المحتوى؛ فإذا استقبلت رسالة تقول «نعم»، فإن المزيد من المعلومات مطلوب لفهم هذه الرسالة، هل «نعم» هى إجابة عن سؤال: هل تتزوجيننى؟ أم هل توافق على بيع المنزل؟ أم هل ما زلت غاضبًا منى؟....

(٣) أشتقت كلمة Algorithm من اسم الرياضى محمد بن موسى الخوارزمى، الذى عمل فى بيت الحكمة الشهير فى بغداد فى القرن التاسع الميلادى.

وقد قام بوضع النظرية العالِمين Chaitin (الأرجنتينى الأمريكى) & Kolmogorov (الروسى)، للتعامل مع التعقيد الذى يميز المعلومات ذات التتابع الخاص (مثل I Love You).

وانطلاقًا من هذه القاعدة، نطرح ثلاثة أمثلة تعيننا على فهم دور النظرية فى ظاهرة الحياة.

المثال الأول: تصــور تتابعًا من ٣ كلمات يتكرر ٢ بليون مرة ...ILoveyouILoveyouILoveyou

إذا كان التتابع السابق (... 001001) يحمل معلومات تركيبية لا معنى لها، فهذا المثال يحمل معلومات رمزية (ذات معنى). والمعنى تحمله الثلاث كلمات الأولى ثم يتكرر. ويمكن إعطاء الأمر : .For n =1 - 2 billion. Write ILoveyou. Stop

وليس هناك حاجة لبذل الجهد لكتابة الـ١٦ بليون رمز (٢بليون × ٨ حروف).

إن اختصــار هــذا الكم الهائل مـن الرمـوز إلى رمـوز قليلة (حـوالى ٤٠ رمزًا) باستخدام برامج الكمبيوتر يقف وراء النظرية اللوغاريثمية للمعلومات.

ويمكن تعريف اللوغاريثم بأنه «طريقة» لإنجاز شىء عن طريق خطوات محدودة[1]، لذلك فإن برامج الكمبيوتر Software هى اللوغاريثمات التى تمكن الكمبيوتر Hardware من معالجة المعلومات.

وتبعًا للنظرية اللوغاريثمية للمعلومات AIT، إذا أخذنا تتابعًا متكررًا من رموز مثل ILoveyou (لها معنى) أو تتابعًا متكررًا لا معنى له مثل #-/~x8@ فإن الكمبيوتر يقوم بإنجاز المهمة بسهولة مهما تعددت مرات تكرار هذا التتابع (حتى ٦ بليون رمز مثلًا كما فى خلايا جسم الإنسان).

المثال الثانى: إذا أخذنا تتابعًا آخر، عبارة عن ٦ بليون رمز مثل المثال السابق، لكنه نتج عن دقات قرد على مفاتيح الكمبيوتر (تتابعًا عشوائيًّا غير متكرر)، فسنجد أنه لا يمكن كتابة برنامج مختصر (لوغاريثمى) لتنفيذ هذا التتابع من المعلومات، وأى برنامج لحساب ذلك سيكون بطول الـ ٦ بليون رمز كلها. ونَصِف هذا التتابع بأنه لا يمكن ضغطه لوغاريثميًّا، لذلك تُعتبر عدم القابلية للانضغاط لوغاريثميًّا (Algorithmic Incompressibility) طريقة ممتازة لتعريف العشوائية. ويُعتبر هـذا التتابع الذى دقـه القـرد معقـدًا إلى أقصى مدى ـ Maximally Complex رجوعًا إلى مقاييس التعقيد[2].

المثال الثالث (بعد مثالى ILoveyou ودقات القرد): تأمل أحد كتب الأدب الإنجليزى التى تحوى ستة بلايين رمز أيضًا. إننا لا نستطيع أن نحصل على قدر ذى بال من الانضغاط اللوغاريثمى، ولا شك أن أى برنامج لتنفيذه سيكون شديد التعقيد كمثال القرد، لكنه يختلف عنه فى أن مثال القرد يحمل معلومات تركيبية (لا معنى لها) أما تتابع الكتاب فمعلوماته رمزية (ذات معنى)، وترجع قدرتنا على فهمه إلى أننا قمنا بتعلم اللغة الإنجليزية، لذلك نصف هذا التتابع بأنه ذو تعقيد متفرد Specified Complexity. أما تتابع ILoveyou فهو معلومات رمزية (ذات معنى) قابلة للانضغاط اللوغاريثمى بشدة.

لذلك يمكننا تعريف التتابعات غير المنضغطة لوغاريثميًّا (مَثَلى القرد والكتاب) بأنها لا يمكن أن تنبثق تلقائيًّا من عمليات لوغاريثمية أبسط منها كما فى مثال (ILoveyou).

ولمزيد من الفهم للفرق بين مثال دقات القرد ومثال الأدب الإنجليزى، نقول: إذا سقطت

---

(١) A way of Getting something done in a finite number of Steps

(٢) سنقوم بطرحها فى هذا الفصل بعد قليل.

نقط من الحبر على ورقة فإنها ترسم بقعًا يستحيل أن تشبه إحداها الأخرى، ومن ثم فكل بقعة تتميز بنمط خاص (Specified) ومع ذلك يمكن أن تُنسب إلى الصدفة كمثال القرد. أما إذا كتب شخص بالقلم الحبر على الورق موضوعًا ما فإن ذلك يعتبر «تعقيدًا منفردًا ذا معنى وراءه ذكاء» ولأهمية هذا المفهوم سنخصه بمزيد من الشرح:

التعقيد المتفرد[1] Specified Complexity

ما علاقة ما ذكرنا عن النظرية اللوغاريثمية للمعلومات وأمثلة الحب والقرد وكتاب الأدب بوجود التصميم والذكاء فى الكون والحياة؟

عندما يبدع الذكاء عملًا من الأعمال تظهر فيه علامات «التصميم **Design**»، التى يصفها المتخصصون بأنها بصمات أو توقيع الذكاء على هذا العمل.

من هذه البصمات ما يُعرف بـ«التعقيد المتفرد Specified Complexity» ويُرمَز إليه بالحرفين SC. وقد نجح الفيلم الشهير «التواصل Contact»[2] فى تقريب هذا المفهوم من عقولنا، ويدور الفيلم حول جهود عالمة الفضاء «إيلى آرواى Ellie Arroway» للعثور على حياة ذكية خارج الأرض[3].

ومن بين آلاف الإشارات التى استقبلتها إيلى من الفضاء الخارجى إشارة اعتبرتها صادرة من كائنات ذكية؛ لأنها كانت تحمل إحدى بصمات التصميم؛ فقد كانت تتسم بـ«التعقيد المتفرد».

كانت الإشارات عبارة عن تكرار للأرقام الأولية[4] الواقعة بين (٢) و (١٠١). كانت الإشارة على هيئة: ١١ - ١١١ - ١١١١١ - ... وهكذا.

لقد اعتبرت إيلى وزملاؤها الباحثون أن هذه الإشارات لا تصدر بالصدفة، وذلك لخاصيتين فيها:

١- هذه الأرقام ليست مجرد تكرار رياضى مباشر، فهى ليست مثل (٦، ٨، ١٠، ...) التى هى تكرار للرقم (٢)، ولا مثل (٢، ٤، ٨، ١٦، ...) التى هى مضاعفات للرقم (٢).

---

(١) طرح هذا المفهوم عالم الرياضيات William Dembski، وهو من أعمدة حركة التصميم الذكى.

(٢) للمخرج العالمى Robert Zemeckis وقصة عالم الفضاء الكبير كارل ساجان. والفيلم من إنتاج عام ١٩٩٧.

(٣) تخبرنا القصة أن إيلى تعمل فى مؤسسة حقيقية مهتمة بالبحث عن الذكاء خارج الأرض The Search for Extraterrestrial Intelligence تُعرف باسم «برنامج سيتى SETI Programme»، وقد أنفقت فيه وكالة أبحاث الفضاء الأمريكية ASAN ملايين الدولارات لاستقبال رسالة من الفضاء الخارجى تدل على الذكاء.

(٤) الأرقام الأولية Prime numbers هى الأرقام التى لا تقبل القسمة إلّا على نفسها أو على (١) مثل ٢، ٣، ٥، ١١، ....، ٩٧، ١٠١، ...

إن الأرقام الأولية لا يعتمد بعضها على بعض رياضيًا Independent؛ إنها «متفـردة Specified».

٢- كانت الإشارة «تكرارًا» لتتابع «طويل» من الأرقام لا يمكن وقوعه مرة أخرى بالصدفة، ليست تكرار لـ ٢، ٣، ٥ فقط مثلًا، ولهذا فهو تكرار «معقد Complex»، والمقصود بالمعقد هنا أنه غير مُحتَمَل الحدوث بالصدفة Improbable.

إن اجتماع «التفرد» مع «التعقيد» هو «التعقيد المتفرد» SC، وهو من بصمات «التصميم Design»، الذى لا يوجد إلا من خلال «الذكاء Intelligence»[1].

ونضع هذا المعنى على هيئة معادلة:

لا يعتمد بعضه على بعض + غير مُحتَمَل بالصدفة = تعقيد متفرد= تصميم = ذكاء

«متفرد» «معقد»

Independent + Improbable = Specified Complexity=

Design = Intelligence

تصور أن إيلى وزملاءها فى مركز أبحاث SETI قد استقبلوا تكرارًا لتتابع قصير (غير معقد) من الأرقام الأولية (٢، ٣، ٥) مثلًا. هل تستطيع إيلى أن تدعى أن هذه الإشارات صادرة من ذكاء

(١) وبالأمثلة تتضح الأمور.
تأمل هذه المجموعات الثلاث من الحروف:

* THE THE THE THE THE THE THE THE THE THE THE THE THE
* XGOENAODIWGTNHPLXCVWQIZIDLRETPTRMNSTEJKI
* THIS SENTENCE CONTAINS VALUABLE INFORMATION

حروف المجموعة الأولى: تشبه مثال ILoveyou السابق:
١- لها «نمط متفرد Specified pattern»، إذ ليس بين T، H، E علاقة رياضية.
٢- وهى «غير معقدة Not complex»، إذ يمكن تكرارها بالصدفة.
٣- وتحمل معنى بسيطًا.

حروف المجموعة الثانية: تشبه مثال دقات القرد على الكمبيوتر.
١- إنها متفردة: ليس بين الحروف علاقة رياضية.
٢- وهى معقدة: لا يُتوقع تكرارها بالصدفة.
٣- ولا تحمل أى معنى.

حروف المجموعة الثالثة: تشبه مثال قصة الأدب الإنجليزى:
١- متفردة .
٢- معقدة: إذًا فهى تتميز بالتعقيد المتفرد، من ثم فهى تعكس ذكاءً.
٣- تحمل معنى مُركبًا.

خارج الأرض؟ بالتأكيد لا، فهذه الإشارات ليست معقدة بالقدر الذى يمنع تكرارها بالصدفة. وقد حدث بالفعل أن رصد العلماء مثل هذه الإشارات عدة مرات، ولم يَدَّعِ أحد منهم أن ذلك يعكس ذكاء. أما تكرار تتابع طويل من الأرقام الأولية من ٢-١٠١ فشىء آخر.

لذلك عندما استقبل علماء SETI الرسالة فى فيلم Contact صاحوا قائلين:

«إنها ليست تشويشًا، إنها ذات بنية ما This is not noise;This has structure».

إن هذه البنية من علامات التصميم، وهى بصمة للذكاء.

وإذا كان مؤلف قصة الفيلم عالم الكونيات كارل ساجان يرى أن رسالة واحدة بهذه الصفات كافية لأن تثبت أن هناك ذكاء فى مكان ما خارج الأرض فلم لا نستخدم نفس المقاييس فى تقييم الظواهر الموجودة فى كوكبنا؟!

إن فيلم «التواصل Contact» يستبعد تمامًا دور الصدفة فى تفسير الظواهر التى تتسم بـ«التعقيد المتفرد»، لكن استبعاد الصدفة غير كاف وحده للقول بوجود التصميم والذكاء والقصد، بل ينبغى أن نستبعد أيضًا «الحتمية Necessity» كما استبعدنا الصدفة. ما معنى ذلك؟

عدم الحتمية No Necessity

يعرض البعض مفهوم التصميم الذكى بأسلوب خاطئ، فيقولون: إن بنية الأشياء الطبيعية تبلغ من التركيب درجة لا يمكن إرجاعها للصدفة، ومن ثم ينبغى أن يكون وراءها تصميم ذكى. أى أنهم يستدلون من وجود التركيب على وجود التصميم.

إن هذا الطرح خطأ لسببين:

أولًا: تُنشِئ «الصدفة» أحيانًا أشياء «شديدة التركيب» بل و«رائعة الجمال». انظر مثلًا كيف تَكَوَّن المنظر الطبيعى الذى تراه أمامك: ما إن هطل المطر حتى أنبتت البذور التى سقطت على الأرض مصادفة، فخرجت الأشجار والحشائش والأزهار، ثم جذبت هذه النباتات الفراشات بديعة الألوان. إن تَشَكُّل هذا المنظر شديد التركيب والجمال لم يتم بالتصميم عن قصد.

ثانيًا: هناك أشياء مُرَكبة رائعة حولنا هى النتاج المباشر الحتمى لقوانين الطبيعة. فبلورات الثلج التى تتكون فى الليالى الباردة تتميز بنظام بديع هو نتاج الخصائص الفيزيائية للماء. إن هذه البلورات نتاج القوانين، وهو ما نصفه هنا أنه نتاج «الحتمية Necessity».

لقد وضع الخالق ﷻ فى قوانين الطبيعة القدرة على التشكيل، لكن التصميم الذى نعنيه يشبه عمل المهندس الذى يصمم بناية أو يخترع آلة، نحن نعنى التصميم المباشر المقصود وليس القوانين التى يستعملها المصمم فى تنفيذ أفكاره. لذلك بالرغم مما فى المناظر الطبيعية (وليدة الصدفة) وبلورات الثلج (وليدة الحتمية) من تركيب وجمال وتصميم إلهى فلا يكفى الاستدلال بها عند مناظرة الملاحدة، فمن أجل أن نجزم أن شيئًا ما تم تصميمه عن قصد لا بد أن نستبعد كلًّا من «الصدفة Chance» (التى استبعدها التعقيد المتفرد) و«الحتمية Necessity»، حتى لا يحتج بهما الملحدون.

المعلومات سر الحياة

والآن فلنطبق ما عرفنا من مبادئ النظرية اللوغاريثمية للمعلومات على الشفرة الوراثية للكائنات الحية (الدنا DNA).

لا شك أن من أعظم إنجازات العلم فى القرن العشرين كان تَوَصُّل علماء البيولوجيا الجزيئية إلى أن حروف الدنا الأربعة (القواعد النيتروجينية ـ النيكلوتايدات الأربعة التى يُرمز إليها بالحروف A, T, C, G) تتراص فى مجموعات هى الجينات المسئولة عن التشفير لبناء البروتينات. ويحوى الجينوم البشرى الذى يبلغ طوله ٧ بليون حرف حوالى ٧ بليون بت من المعلومات، ويمثل هذا التراص بالنسبة للمتخصصين معلومات رمزية ذات معنى، أما لغير المتخصص فتُعتبر معلومات تركيبية لا معنى لها.

وتلتزم حروف الدنا الأربعة بترتيب معين فى الجين حتى يكون فاعلًا، بالرغم من أنها يمكن أن تحتل أى موضع فيه، أى أنها ليست تكرارًا مثل 001 أو ILoveyou، من ثَمَّ تُعتبر عشوائية Random بالمنظور الرياضى، وبالتالى تمثل لوغاريتمًا غير قابل للانضغاط، مما يجعلنا نظن أن تسلسلها اعتباطى تمامًا. أما الحقيقة فغير ذلك بالمرة، فهذه التتابعات المتناثرة من القواعد الأربع فى الدنا تحمل شفرة بناء البروتينات، أى تحمل معنى شديد التعقيد (أضعاف ما فى دائرة المعارف البريطانية). وما تحمله هذه الشفرة من تعقيد متفرد Specified Complexity يفوق تعقيد كل ما نعرفه من اللغات[1].

---

(١) تقابل مثال كتاب الأدب الإنجليزى الذى ضربناه منذ قليل.

العشوائية لا تُوَلد معلومات

يطرح ديريك بيكرتون[1] (عالِم اللغويات الكبير) مثالًا من عالم اللغة يوضح مقدار التعقيد المتفرد فى الشفرة الوراثية، فيقول: اكتب جملة ذات معنى تتكون من عشر كلمات. إن كلمات هذه الجملة يمكن إعادة ترتيبها فى ٣,٦٢٨,٨٠٠ نمط، لكن الجملة التى كتبتها فقط هى التى تكون ذات معنى وصحيحة لغويًا، بخلاف ٣,٦٢٨,٧٩٩ جملة أخرى! ياالله؛ كيف تم الاختيار الصحيح[2]؟

وإذا قسنا على هذا المثال ما يحدث فى عالم الدنا، وجدنا أن أصغر بروتين (يحتوى على ١٠٠ حمض أمينى تقريبًا) يحتاج لتتابع من القواعد النيتروجينية (الحروف الأربعة) يمكن أن يأتى فى 10^{130} بديل، أحدها فقط هو القادر على التشفير لهذا البروتين، إن هذا الاختيار يكاد يبلغ حد الاستحالة[3]، مع ملاحظة أن استبدال حمض أمينى واحد بآخر يمكن أن يؤدى إلى كارثة تهدد حياة الكائن. الملحوظة المحورية هنا هى أن هذا التتابع من الدنا لا يشكل إلا هذا البروتين، أى أنه (كما ذكرنا منذ قليل) يمثل تعقيدًا متفردًا Specified Complexity ذا معنى، وإن كان يُعتبر عشوائيًا من وجهة نظر الرياضيات.

والقوانين لا تُوَلِّد معلومات

ومن هذا المفهوم يتسلسل بول ديفيز ليصل إلى الاستنتاج الحاسم فيقول: هل يمكن أن يكون التعقيد المتفرد فى عالم البيولوجيا نتاج لحتمية الآلية الميكانيكية التى مارستها الفيزياء والكيمياء على الحساء البدئى الذى ينسب إليه الماديون بداية الحياة؟ ويجيب ديفيز: لا، لا يمكن لقوانين الفيزياء الآلية الثابتة أن تملى شفرة متغيرة. ويضيف، إن الجزيئات البيولوجية الكبيرة (البروتينات والدنا والرنا) تتسم بثلاث سمات رئيسية؛ الثراء المعلوماتى، والتعقيد المتفرد ذو المعنى، واللاميكانيكية[4]. وإذا كانت العشوائية قادرة على إنتاج الصفة الثالثة فهى عاجزة عن

(١) Derek Bickerton: أستاذ اللغويات الأمريكى الشهير بجامعة هاواى. ولد عام ١٩٢٦، ودرس بجامعة كمبريدج.

(٢) لا شك أن آباءنا ومدرسينا لم يعلمونا ذلك، لكن فى عقولنا آلية فطرية شديدة التعقيد تقوم بتلك المهمة. ولما كانت هذه الآلية تعمل على كل ما يعرفه البشر من لغات، فإنها تستبعد جملًا يفوق عددها كل ما فى الكون من ذرات! ألا يثير ذلك الاندهاش عند تأمل أصل اللغات البشرية؟!

(٣) نصل إلى استحالة الحصول على شيء بالصدفة إذا قلت احتماليته عن 1×10^{-150}، وهو ما يُعرف بـ «الحد الأقصى للاحتمالية Universal Probabitity Bound».

(٤) المقصود هنا باللاميكانيكية أنها خارج قدرة القوانين الطبيعية.

إنتاج الصفتين الأولى والثانية (الثراء المعلوماتى والتعقيد المتفرد ذو معنى)، ومن ثم لم يعد لدينا تفسير لنشأة الحياة إلا وجود مصدر ذكى للمعلومات.

وتأكيدًا لذلك المعنى، يخبرنا جريجورى شاتين[1] أحد آباء نظرية المعلومات أن للوغاريثمات حدودًا معلوماتية. فمثلًا، لا يمكن لبرنامج لوغاريثمى ما أن يُنتج تتابعًا متفردًا أعقد منه، ومن ثم لا يمكن لبرنامج تَكَوَّن بالصدفة أن يُنتج كل ما يحمل الدنا من تعقيد. كذلك ليست هناك آلية يمكنها أن تُوَلِّد معلومات تخالف بنيتها المعلوماتية، فالمادة تُوَلِّد مادة ولا تُوَلِّد حياة أو عقل.

وفى كتابه عن نظرية المعلومات يقول ليونارد بريلوين[2]: إن الخلايا الحية (بالمنظور المعلوماتى) آلات بيولوجية قادرة على معالجة المعلومات Digital Processing بكفاءة رائعة، لكنها تعجز عن إنتاج أنواع جديدة من المعلومات. ويوافقه فى ذلك العالم الكبير الحائز على جائزة نوبل بيتر آجر[3].

بذلك لم تعد النظرية اللوغاريثمية للمعلومات طرحًا رياضيًا فحسب، بل تبناها تمامًا كبار البيولوجيين، ومنهم عالم أصل الحياة الكبير برند أولاف كوبر[4]، الذى يلخص حل معضلة نشأة الحياة فى كلمات قليلة، فهو يكمن فى «معرفة أصل المعلومات العضوية».

التعقيد غير القابل للاختزال

Irreducible Complexity (IC)

المسمار الأخير فى نعش العشوائية

يدور فيلم «الجسد[5] The Body» حول احتمال التوصل إلى جسد المسيح ﷺ. والفكرة تضع عقيدة المسيحيين فى الميزان، إذ يؤمنون أن الله قد رفع المسيح إلى السماء بعد ثلاثة أيام من دفنه، ومن ثَمَّ فإن العثور على الجسد يعنى خطأ هذه العقيدة.

وبالمثل، وضع دارون نظريته فى الميزان عندما أعلن تحديه فى كتابه أصل الأنواع قائلًا: «إذا

(١) Gregory Chaitin: عالم الرياضيات والكمبيوتر الأمريكى من أصل أرجنتينى، ولد عام ١٩٤٧.

(٢) Leonard Brillouin: (١٨٨٩ - ١٩٦٩م)، عالم الفيزياء والرياضيات الفرنسى الأمريكى بجامعات فرنسا ثم هارفارد ثم كولومبيا.

(٣) Peter Agre: الطبيب الأمريكى وعالم البيولوجيا الجزيئية والحاصل على جائزة نوبل فى الكيمياء عام ٢٠٠٣.

(٤) Bernd - Olaf Kuppers: عالم الفيزياء البيولوجية والكيمياء والفيلسوف الألمانى، ولد عام ١٩٤٤

(٥) الفيلم من إنتاج عام ٢٠٠١ للمخرج Jonas McCord، والقصة من تأليف Richard Sapir

ثبتت استحالة الوصول إلى بنية أى عضو فى أى كائن حى عن طريق تعديلات بسيطة متتالية شديدة البطء (طفرات) فإن نظريتى ستنهار، إذ يعجز التطور عن إحداث قفزات كبيرة، ولن يكون هناك مفر من الإقرار بأن قوى غيبية تعاونه». وقد تبنى ريتشارد دوكنز نفس التحدى.

إن تحدى دارون تحدٍ ملتوٍ، ظن أنه سيكون لصالحه. إنه يشبه تحدى القائلين بأن الحياة جاءت إلى الأرض من كوكب آخر محمولة على سفينة فضاء، وعلى المنكر أن يثبت خطأ الافتراض! لا شك أن هذا أسلوب خطأ، فالعلم يقوم على تقديم الدليل على ما نقول، وليس على إثبات خطأ جميع الاحتمالات الأخرى[١]. ومن ثَمَّ، ينبغى على الدراونة أن يقدموا الدليل على عشوائية التطور.

ومع ذلك، قَبِل «مايكل بيهى»[٢] التحدى، ووضع حججه فى كتابه الرائع «صندوق دارون الأسود Darwin's Black Box»[٣]. وتُركز حجج بيهى ضد عشوائية التطور على أن الدراونة عجزوا عن أن يفسروا بالصدفة والعشوائية نشأة الآليات الجزيئية شديدة التعقيد فى الكائنات الحية، والتى لا يمكن أن تنشأ عن طريق التعديلات البسيطة المتتالية شديدة البطء التى يعمل من خلالها التطور الداروينى.

ولإثبات ذلك، طرح بيهى تحديًا بالغ الأهمية أمام التطور العشوائى، وهو مفهوم «الأنظمة ذات التعقيد غير القابل للاختزال Irreducible Complexity»، وهى الأنظمة التى تتركب من عدة جزيئات بيولوجية تتضافر وظيفيًا لتنفيذ مهمة أساسية معينة، وفى نفس الوقت إذا غاب أحد هذه المكونات يتوقف النظام عن العمل تمامًا.

وقد وصف بيهى «مصيدة الفئران Mouse Trapper» كنموذج للأنظمة ذات التعقيد غير القابل للاختزال (شكل: ١). فالمصيدة تتكون من خمسة أجزاء أساسية (قاعدة خشبية ـ خطاف

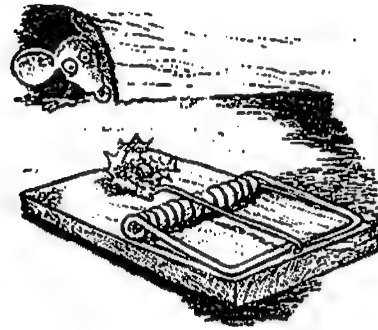
(١) الصواب ما قام به لويس باستير عندما أثبت أن الحياة لا تتولد ذاتيًا. لم يقم باستير بدراسة كل أشكال الحياة ليثبت خطأ هذا المفهوم، فهذا ليس أسلوب العلم. ما قام به باستير أنه درس نوعًا واحدًا من البكتريا وتوصل إلى آلية تكاثره، وبذلك أثبت خطأ فرضية التولد الذاتى، ثم عمم نتائجه على باقى أشكال الحياة.
لقد أدار باستير الدفة وجعل البينة على من ادعى، فعلى من يقول بالتولد الذاتى للحياة أن يقدم الدليل. والمدهش أن الماديين أصبحوا الآن يؤمنون بالتولد الذاتى للحياة عند نشأتها لأول مرة ثم يرفضونه بعد ذلك!!

(٢) Michael Behe : أستاذ البيولوجيا الجزيئية فى Lehigh University بالولايات المتحدة، ومن أعمدة حركة التصميم الذكى. ولد عام ١٩٥٢.

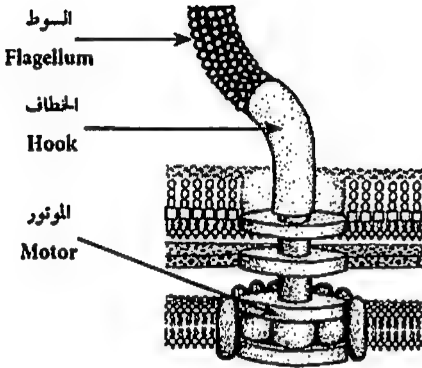
(٣) يستخدم العلماء اصطلاح الصندوق الأسود للإشارة إلى الأنظمة التى نستخدمها ولا نعرف طريقة عملها. فالكمبيوتر مثلًا بالنسبة لمعظمنا صندوق أسود، فنحن نستعمله لكن لا نعرف كيف يعمل. كذلك كانت الخلية أيام دارون، تبدو تحت الميكروسكوب كقطرة من مادة جيلاتينية ولم يكن يدرك شيئًا عن تعقيدها المذهل.
وقد وصفت المجلة العلمية المحترمة National Review الكتاب بأنه أهم كتاب غير قصصى صدر فى القرن العشرين (صدر الكتاب عام ١٩٩٦).

الطُعم ـ سوستة ـ عمـود معدنى - ماسِك الفأر). وكل من هذه الأجزاء الخمسة لا غنى عنه لوظيفة المصيدة، فإذا أُزيل أحدها لن تنقص وظيفة المصيدة بمقدار ٢٠٪، بل ستتوقف تمامًا عن العمل. لذلك يجب عند صناعة المصيدة تركيب الأجزاء الخمسة جميعها فى وقت واحد حتى تصبح صالحة للعمل.

ومثال بيهى الأشهر والمحبب فى عالم البيولوجيا هو «سوط البكتريا Bacterial Flagellum» الذى يدفع بحركته البكتريا إلى الأمام مثل موتور القارب (شكل:٢). وقد وصف أستاذ البيولوجيا بجامعة هارفارد «هاورد بيرج»[١] سوط البكتريا بأنه أكفأ آلة فى الكون The most Efficient Machine in the Universe[٢].



(شكل:١)
مصيدة الفئران



(شكل:٢)
سوط البكتريا ـ أكفأ آلة فى الكون!

ويشتمل السوط على ثلاثة أجزاء رئيسية (السوط -الخطاف- الموتور) تتكون من مائتى جزىء بروتينى، يشكل أربعون منها الموتور الذى يعمل فى تناغم وتكامل كمكونات الساعة (وكمصيدة الفئران)، وإذا غاب أحد هذه البروتينات توقف النظام كله عن العمل، لذلك لا بد أن ينشأ النظام متكاملًا من البداية إذا أُريدَ له أن يعمل وأن يُوَرِّث. ومن ثم، يستحيل أن ينشأ السوط بخطوات عديدة متتالية شديدة البطء، يضاف فى كل منها

(١) Howard Berg: أستاذ الفيزياء والبيولوجيا الجزيئية بجامعة هارفارد، ولد عام ١٩٣٤.

(٢) يتحرك السوط بمعدل ١٠ آلاف دورة فى الدقيقة، وقادر على عكس اتجاه حركته خلال ربع دورة. ويبلغ حجم المؤتور المحرك للسوط ....,,,/' بوصة (كل ٣٥,٠٠٠ موتور تشغل ١مم)، ولم يستطع الإنسان صناعة موتور بحجمه وكفاءته، بل إن أقوى موتورات سيارة الهوندا (Honda S٢٠٠٠) تبلغ سرعة دورانه ٩٠٠٠ دورة فى الدقيقة فقط! وقد تم وصف السوط لأول مرة عام ١٩٧٣م.

جزىء بروتينى أو أكثر كما يدعى التطور العشوائى، ولن يقوم بذلك إلا المصمم الذكى القادر. وقد قام الرياضيون بحساب احتمالية أن ينشأ سوط البكتريا بالصدفة فوجدوها ١×١٠ -١١٧٠ !!

والمثال الثانى الذى يطرحه بيهى هو الإبصار، فسقوط فوتونات الضوء على شبكية العين يؤدى إلى سلسلة من التفاعلات الكيميائية الحيوية، التى لو تعطل أحدها لَمَا أبصرنا. وقد اهتم بيهى بالإبصار لأن تشريح العين كان من الأمثلة التى يستشهد بها الدراونة على إمكان حدوث التطور العشوائى، وبالرغم من عدم حجية استشهاداتهم فقد أدار بيهى الدفة عن تشريح العين واتجه إلى بنيتها الجزيئية ووظائفها الحيوية.

والمثال الثالث الشهير من عالم البيولوجيا للتعقيد غير القابل للاختزال هو «آلية تخثر الدم Blood Clotting Mechanism» التى تنقذ حياة الكثيرين من الموت. إنها تتكون من تتابع Cascade من عشر خطوات، تستخدم عشرين مركبًا بيولوجيًّا شديدة التعقيد[١]. وهذا النظام أيضًا إما أن يبزغ دفعة واحدة ليكون صالحًا للعمل أو لا يعمل على الإطلاق.

ألا ترى فى هذه الأنظمة الثلاثة (سوط البكتريا وشبكية العين وآلية تخثر الدم) سمات التعقيد غير القابل للاختزال الذى طرحه مايكل بيهى، وكذلك سمات التعقيد المتفرد الذى طرحه وليم ديمبسكى، واللذان يدلان بلا شك على التصميم والذكاء والقدرة؟

دفاع الدراونة...

تعالت صرخات الدراونة ضد بيهى؛ كيف يجرؤ عالم حقيقى أن يقول هذا الكلام، واتهموه بالخداع والازدواجية واللعب على الحبل والنفاق. هجوم من ماديين متطرفين فى عدائهم للدين، يذكرنا بهجوم رجال الدين المتطرفين فى عدائهم للعلم فى العصور الوسطى!. ولحسن الحظ كان هناك بعض الطرح الأقل هستيرية الذى يمكن مناقشته[٢]، وقد حاول هؤلاء التملص من قبضة مفهوم «التعقيد غير القابل للاختزال» بوصف آليات تسمح بنشأة الأنظمة المعقدة تدريجيًّا عن طريق الانتخاب الطبيعى. وقد طرحوا لذلك ثلاث آليات دحضها بيهى بكفاءة:

الآلية الأولى، الطريقة المباشرة: يقوم الانتخاب الطبيعى بتحسين نظام أبسط يقوم

(١) كذلك فإن آلية تخثر الدم نظام متكامل، ذو خطة ترتبط بالزمان والمكان! فإذا تخثر الدم فى مكان غير ملائم (كالمخ والقلب) ربما يموت الإنسان، وإذا لم يتخثر عند الحاجة ربما يموت الإنسان، وإذا تخثر الدم ولم تتوقف عملية التخثر فى الوقت المناسب ربما يموت الإنسان!!. وتحتاج آلية تخثر الدم لتمام فائدتها إلى تناغم كامل فى العمل بين الكبد ونخاع العظام والأوعية الدموية.

(٢) من هذه الأطروحات المعتدلة مقال للفيلسوف Paul Draper بعنوان Irreducible Complexity and Darwanian Gradualism نشره فى مجلة Faith and Phylosophy - 22.2002

بالفعل بنفس الوظيفة. أى أن سوط البكتريا كان موجودًا بصورة أبسط، ثم يأتى الانتخاب الطبيعى ليُحَسِّن من مكونات هذا النظام حتى يصل إلى درجة التعقيد التى نراها، مع بقاء الوظيفة كما هى (وهى دفع البكتريا فى الماء). هناك مشكلتان تعجز هذه الآلية عن تفسيرهما:

- كيف ظهر النظام الأبسط إلى الوجود؟

- ما الحاجة لإجراء تعقيدات فى نظام أبسط يقوم بنفس الوظيفة؟!

الآلية الثانية، الأسلاف المتحورة: اختار الانتخاب الطبيعى آلية أبسط تُستخدَم فى وظيفة أخرى وأجرى عليها تعديلات وتعقيدات لتنتج سوط البكتريا بوظيفته الحالية.

وقد اختاروا لذلك المضخة التى تستخدمها بكتريا الطاعون فى ضخ بعض السموم فى خلايا الضحية، وتتكون هذه المضخة من عشرة أنواع فقط من البروتينات موجودة أيضًا فى سوط البكتريا. إن على الدراونة أن يقدموا تصورًا لكيفية إضافة عشرات الأنواع الأخرى من البروتينات التى يحتوى عليها السوط، ذلك بالإضافة إلى وضع آليات ومراحل تغير الوظيفة حتى تتحول المضخة إلى سوط، وقد أثبتنا فى الفصل السابق أن الانتخاب الطبيعى عملية سلبية لا تقوم باستحداث آليات جديدة.

ويرى بيهى أن العكس هو الأرجح؛ أن تكون بعض أجزاء سوط البكتريا (الأعقد) قد أُستخدمت لإنتاج المضخة (الأبسط)، إنه «انحدار Devolution» وليس «تطورًا Evolution». وقد أثبت بيهى ذلك فى تجاربه التى أجراها على بكتريا الـ E.Coli.

الآلية الثالثة، التجميع: يقوم الانتخاب الطبيعى بتجميع أجزاء كانت موجودة فعلًا وتخدم وظائف أخرى من أجل القيام بوظيفة جديدة، تمامًا كما نأخذ أجزاء من سيارة وقارب ودراجة لنصنع منها طائرة.

وإذا كانت هذه الآلية ممكنة عقليًا فإنها مستحيلة عمليًا. ولو حصلنا على الطائرة فلن يعود الفضل إلى الصدفة، ولكن إلى ذكاء المهندس المصمم أولًا، ثم إلى ذكاء صانع القطع الأولية ثانيًا! ونفس الشيء ينطبق على السوط البكتيرى ذى الأجزاء شديدة التعقيد مذهلة التناغم.

وتُقَيِّم «لين مارجوليس[1]» (عالمة البيولوجيا التطورية الشهيرة والمهتمة بنشأة الحياة) هذه الآليات الثلاث وتقول: «إن الدراونة لم يقدموا تصورًا مقبولًا لنشأة سوط البكتريا. إنهم لم يجدوا مفرًا من استخدام ألفاظ مثل «وفجأة ظهر»، و«وُلد»، و«طفا»، و«قفز»، و«بزغ»..، كيف؟... لا تفسير.

ومن دفاعات الدراونة الأخرى ضد أفكار بيهى، ما يمكن وصفه بأنه «ضرب تحت

(١) Lynn Margulis: (١٩٣٩ - ٢٠١١م)، عالمة البيولوجيا الأمريكية بجامعة ماساشوستس ولها نظرية شهيرة باسمها لتفسير نشأة الخلايا ذات النواة.

الحزام»! فإن لبيهى ثمانية أبناء، الرابع منهم اسمه «ليو Leo». وفى عام ٢٠١١ أعلن ليو إلحاده، وكان لم يلتحق بالجامعة بعد. وفى الحوارات الإعلامية التى أجريت مع ليو، أعلن أنه ألحد بعد أن قرأ كتاب «وهم الإله» لريتشارد دوكنز. يالنشوة دوكنز وشماتته، ويالنشوة الملاحدة ومن يطالع كتابى هذا منهم. لكن صبرًا... لقد أعلن ليو أن إلحاده لم يكن بسبب أفكار والده العلمية وانعكاساتها الفلسفية! لكن لأنه اقتنع بتفنيد دوكنز للكتاب المقدس للمسيحيين! مرة أخرى الإله يتحمل وزر ما أصاب المسيحية من انحراف وما أصاب كتابها من تحريف.

حدود التطور - مرة أخرى

للرد على الاعتراضات والهجوم الذى وُجه إلى كتاب صندوق داروين الأسود أصدر بيهى كتابه التالى: حدود التطور The Edge of Evolution، يرد فيه على المعارضين ويؤكد أن مكونات الخلية على المستوى الجزيئى لا يمكن أن تنشأ بالانتخاب الطبيعى غير الموجه، أى أن للتطور الداروينى حدود، ويقدم على ذلك أدلة مفحمة بأسلوب كمى، هى من أحسن ما قُدِّم فى هذا المجال[١].

يبين بيهى فى كتابه أن المنظومات المعقدة غير القابلة للاختزال تحتاج إلى تصميم ذكى ومصمم ذكى، يعرف ما ينبغى أن تكون عليه المنظومة عندما تكتمل ويحدد كيف يُنشأها بشكل متكامل. ويستشهد بيهى فى ذلك برأى بروس ألبرتز[٢] (الرئيس الشرفى للأكاديمية القومية للعلوم)، وهو ليس من أنصار التصميم الذكى، إذ يقول: إن الكيمياء التى تجعل الحياة ممكنة تُعتبر أكثر تعقيدًا من أى شىء درسه الإنسان، فكل تفاعل هام فى الخلية توجهه مركبات (الإنزيمات) تتكون من أكثر من عشرة جزيئات من البروتين، وتلك المركبات تتفاعل مع مركبات أخرى ليست أقل تعقيدًا، وهكذا. لذلك يمكننا اعتبار أن الخلية مصنع كبير يتكون من العديد من خطوط الإنتاج المتناغمة التى هى تلك السلاسل المعقدة من جزيئات البروتين.

ليس ذلك رأى بيهى وحده، فها هو عالم الكيمياء الحيوية جيمس شابيرو[٣] يؤكد أن التطور الجزيئى لا دليل عليه، ولا يستند إلى قواعد علمية ولم تنشر عنه دراسة واحدة فى مجلة علمية محترمة! كذلك لا توجد دراسات حول نشأة الأعضاء أو المنظومات المركبة عن طريق

(١) عرضنا بعض هذه الأدلة الفصل السابق.
(٢) Bruce Alberts: عالم الكيمياء الحيوية الأمريكى، ولد عام ١٩٣٩م.
(٣) James Shapiro: أستاذ البيولوجيا الأمريكى بجامعة شيكاغو.

التطور الجزيئى. وهناك عالم البيولوجيا التطورية ستيفن جاى جولد ـ بالرغم من معارضاته المتكررة لبيهى ـ يعلن أن العلم قد فسر عددًا من المنظومات البسيطة كحركة الكواكب وجدول العناصر، أما نشأة المنظومات ذات التعقيد غير القابل للاختزال فلم يقترب العلم من تفسيرها، بل إننا نحتاج لذلك إلى نظرات فلسفية جديدة (لم يقل آليات علمية).

فوز بالضربة القاضية...

لا شك أن مفهوم التعقيد غير القابل للاختزال (IC) قد أصاب الداروينية فى مقتل. فهو برهان مزدوج، سلبى إيجابى، فى وقت واحد. فقد بدأ بيهى بعرض تحدى دارون بأن العجز عن تفسير نشأة أى نظام معقد عن طريق خطوات متتابعة شديدة البطء يعنى خطأ نظريته فى التطور العشوائى، ثم أثبت أن جميع أنظمة IC لا يمكن تفسيرها بالتطور الدارويني. ولم يقف بيهى عند ذلك الحد، بل تقدم خطوة إيجابية، فطرح تصورًا لبزوغ هذه الأنظمة، وهو تصور يتمثل فى كلمة واحدة وهى «التصميم»، إنه طرح علمى يمكن أن يخضع للتمحيص العلمى، كما طرحنا عند حديثنا عن النظرية اللوغاريثمية للمعلومات.

لذلك إذا كان دليل الضبط الدقيق للكون يُعتبر الدليل الأكبر على أن الكون قد تم تصميمه، فإن ما قدمه مايكل بيهى يُعتبر الدليل الأكبر لإثبات التصميم فى مجال البيولوجيا.

برهان التصميم «إدراكٌ» وليس «استنتاجًا»

ينظر ريتشارد دوكنز وطلائع قطيعه من الملاحدة، ومن قبلهم ديفيد هيوم وغيره من فلاسفة الإلحاد، إلى «برهان التصميم»[1] باعتباره «دليلًا قياسيًّا Inductive- Analogical» يتكون من مقدمتين واستنتاج:

١ - إن ما فى الطبيعة من تنظيم يشابه ما فى ابتكارات الإنسان من تنظيم.

٢ - إن ابتكارات الإنسان مُصَمَّمَة قصدًا.

---

(١) ينطلق برهان التصميم فى إثبات الألوهية من إدراك أن الطبيعة مُصَمَّمَة. وكان علم الكلام الإسلامى أول من طرحه، وفى اللاهوت المسيحى يُعتبر دليل صانع الساعات الذى قدمه وليام بيلى (١٧٤٣ - ١٨٠٥م) أفضل صوره. وفى العلم الحديث، يقابلنا دليل التصميم فى الكون فى برهان الضبط الدقيق، وفى البيولوجيا فى برهان التعقيد غير القابل للاختزال وحدود التطور لمايكل بيهى. كما يقابلنا برهان «التعقيد المتفرد» لوليام ديمبسكى فى مجال الكون والبيولوجيا معًا.

إذًا فالطبيعة مُصَمَّمَة قصدًا، أى أننا قسنا الطبيعة على ابتكارات الإنسان. ويعتبر بعض فلاسفة العلم أن القول بالتصميم المقصود فى الطبيعة هو من باب اللجوء إلى أفضل التفسيرات، وليس دليلًا قياسيًا.

وعبر التاريخ، وجد الكثيرون أن برهان التصميم مقبول للغاية. وقد كان دارون أثناء دراسته فى كمبردج أحد هؤلاء، فقد كان من المؤمنين ببرهان صانع الساعات لويليام بيلى، الذى يُشَبِّه فيه الكون بالساعة، ومن ثم لا بد له من خالق كما أن للساعة صانع، بل كان دارون يعتبر بيلى مَثَلَه الأعلى فى العقل. ثم تبدلت نظرة دارون، فأصبح يعتقد أن قانون الانتخاب الطبيعى هو الفاعل وليس الإله[1].

وقبل دارون كان فيلسوف العدمية ديڤيد هيوم من المعارضين لصحة القياس فى برهان التصميم. فكان يرى أن البرهان يقوم على تشبيهات قاصرة؛ فإذا قلنا أن البيت له مهندس وصانع ومن ثم فالكون له مهندس وصانع، فمن قال إن الكون يشابه البيت؟. كذلك يرى هيوم أننا لم نشاهد عالمًا آخر لنقارنه بعالمنا لنستنتج أن الأخير مُصَمَّم، إنه بذلك يعتبر أن علامات التصميم باهتة وتحتاج لمقارنة لتظهر. لا شك أن اعتراضات هيوم خطأ، فالعلاقة بين الكون والبيت قائمة، باعتبار أن كليهما وجود حادث فى المكان يتكون من مادة ويحتاج إلى طاقة لإنشائه وتشغيله. كذلك فعلامات التصميم فى كوننا من الوضوح بحيث لا تحتاج لمقارنة بكون آخر، كما أن هناك من العلوم ما لا يقوم على المقارنة أو التكرار، فنحن لا نستطيع تكرار الانفجار الأعظم ولا بداية الحياة ولا أى أحداث تاريخية.

حقيقة برهان التصميم

وحقيقة الأمر، أن «برهان التصميم» يعتمد على «الإدراك المباشر» لكشف التصميم، وليس من أدلة القياس (كما يقول هيوم ودوكنز) وأيضًا ليس من أفضل التفسيرات (كما يقول بعض الفلاسفة)، وإن كانت هاتان الجزئيتان موجودتين فيه[2].

(١) من سلبيات برهان وليام بيلى أنه ركز على أمثلة محددة من التأقلم فى عالم الكائنات الحية، واستخدم كثيرًا اصطلاح Just-so لتفسير نشأة هذه الكائنات والظواهر، ومن ثم عندما قدم علم البيولوجيا التفسيرات لهذه الظواهر انهار البرهان. كذلك ركز بيلى على جوانب رحمة الطبيعة متجاوزًا عما فيها من شرور وآلام، لذلك ركز معارضوه على هذه الجوانب لنفى وجود إله رحيم. بل إن المتدينين أنفسهم اعتبروا أن التناول العلمى للدين لا يتمشى مع المسيحية، ورأوا أن طرح بيلى عن فاعلية وديمومة قوانين الطبيعة يتعارض مع مفهوم المعجزات فى المسيحية ويدعم موقف القائلين بالديانة الطبيعية التي ترفض تدخل الإله فى الكون. وبذلك تلقى برهان صانع الساعات لبيلى الضربات من الملاحدة ومن المتدينين الأصوليين فى وقت واحد.

(٢) قدم هذا الطرح الفيلسوف الأمريكى ألڤين بلانتنجا.

ولتقريب الصورة نضرب مثالًا: إذا هبطْتَ على أحد كواكب مجرة مجاورة، ولم تجد عليه أى مظهر من مظاهر الحياة أو الحضارة، ثم عثرت على آلة معقدة لا تعرف لها استخدامًا لكنها تحمل مظاهر التصميم، لا شك أنك «ستدرك» مباشرة أن الآلة قد تم تصميمها. إنه «إدراك مباشر» وليس دليلًا عقليًا له مقدمات يمكن طرحها للتفنيد، وله نتائج يمكن التشكيك فى أسلوب التوصل إليها.

ويلفت الدوق جورج كامبل[1] نظرنا إلى أن دارون كان على دراية بأهمية «الإدراك المباشر» لما فى الكائنات الحية من جمال وتصميم، فينقل لنا الحوار الذى دار بينه وبين دارون قبل موته بعام[2]. يقول الدوق: «قلت للسيد دارون معلقًا على دراسته العظيمة التى تُظهر (من وجهة نظر الدوق) وجود قصد وغاية فى الطبيعة: إنه من المستحيل النظر إلى هذه الموجودات والنشاطات فى الطبيعة، مثل تكاثر زهور الأوركيدا، دون إدراك أنها نتاج عقل حكيم. ولن أنسى ما حييت إجابة مستر دارون، فقد نظر إلى بعينيه المنهكتين وقال: هذه الفكرة كثيرًا ما تعصف بعقلى[3]، ثم هز رأسه وأضاف: وفى أوقات أخرى فإنها تتلاشى» إن مقولة دارون لم تكن استنتاجًا منطقيًا يقوم على المقدمات، لكنها كانت تعبيرًا عن الإدراك المباشر.

ويشرح الدوق حقيقة برهان التصميم ببساطة قائلًا: «من قال إن برهان التصميم يقوم على المشابهة؟! إن القول باحتياج الكائنات الحية إلى تصميم لا يقوم على المقارنة بمصنوعاتنا، إنه طرح يقوم بذاته، سواء كانت الكائنات تشبه الساعات أو لا، وسواء كان الكون يشبه البيت أو لا، أما التشبيه بمصنوعاتنا فلتسهيل التصور بالنسبة لعقولنا».

وتكمن قيمة ما قدمه مايكل بيهى ليس فى أنه أمدنا بدليل قياسى عقلى على وجود التصميم، بل فى أنه لفت أنظارنا إلى أشياء تجعلنا «ندرك التصميم».

ونشير هنا إلى أن القرآن الكريم حين يوجهنا إلى تأمل آيات الآفاق والأنفس ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت] لا يدعونا إلى دليل قياسى عقلى، لكنه يستخدم المنهج الأقوى دلالة، وهو لفت النظر لإدراك «سنريهم آياتنا»، حتى يتبين ما فى الوجود وما فى الأنفس من أدلة على الألوهية.

(١) George Cambell: (١٨٢٩ - ١٩٠٠م)، الملقب بدوق أرجيل الثانى، كان سياسيًا لامعًا وكاتبًا متخصصًا فى العلوم والدين.

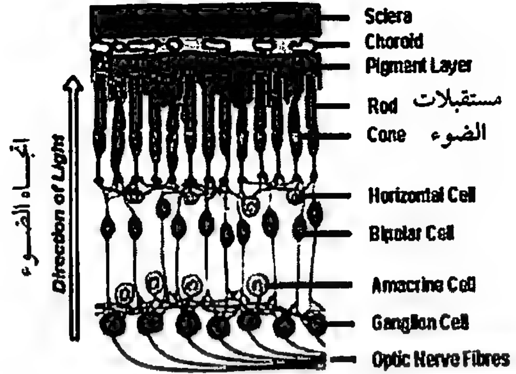
(٢) من كتاب الدوق: What is Science? 1885 فصل بعنوان Perceiving Design

(٣) نص كلمات دارون: Well. That is Often Comes Over Me With Overwhelming Force

تصميم قاصر أم تصميم ذكى...

وحتى يكتمل استشهادنا على وجود التصميم الذكى فى منظومة الحياة ينبغى أن ندفع حجة يستشهد بها الدراونة على عشوائية التطور، وهو ما يسمـونه بدليل «التصميم القاصر Imperfect Design»، ويعنون به أن هناك تصميمات لبعض الأعضاء فى الكائنات الحية كان يمكن أن تكون أفضل مما هى عليه، وأن الإله إذا كان هو المصمم لخرج التصميم فى غاية الكمال.

ويقدم الدراونة كمثال للتصميم القاصر «شبكية العين فى الإنسان[1]» (شكل:٣). فمستقبلات الضوء فى الشبكية تقع قرب سطحها الخلفى، ويعتبر الدراونة ذلك قصورًا فى التصميم، إذ إن طبقات الشبكية التى أمامها تشتت الضوء قبل أن يسقط على هذه الطبقة الحساسة، كذلك أدى هذا الوضع إلى وجود بقعة على الشبكية غير حساسة للضوء على الإطلاق، سُميت بـ«البقعة العمياء»[2]. ويرى الدراونة أن الأفضل أن تكون مستقبلات الضوء فى الشبكية على السطح الأمامى، حتى تكون فى مواجهة الضوء وحتى نتحاشى وجود البقعة العمياء.



(شكل:٣)
شبكية العين
مستقبلات الضوء أعمق
طبقات الشبكية العشر

ويجيب أنصار التصميم الذكى بأن هذا هو الوضع الأمثل للشبكية. فالوضع الحالى

(١) تتكون شبكية العين Retina التى فى سمك ورقة السجائر على رقتها من عشر طبقات من الخلايا العصبية، يواجه سطحها الأمامى الضوء بينما يواجه سطحها الخلفى الطبقة التالية من العين، وهى طبقة معتمة غنية بالأوعية الدموية، تعرف بـ«مشيمة العين Choroid».

(٢) البقعة العمياء Blind Spot، هى الموضع الذى يخرج منه عصب الإبصار من الشبكية، وتكون خالية من مستقبلات الضوء.

لمستقبلات الضوء يجعلها ملاصِقة للأوعية الدموية فى الطبقة التالية، مما يسمح لها بتغذية دموية كافية، خاصة أن خلايا المستقبلات تُعتبر أكثر خلايا الجسم احتياجًا للأوكسجين. أما وجود البقعة العمياء فقد تم تعويضه بمجال إبصار شبكية العين الأخرى.

ولتعزيز هذا المفهوم نضرب مثالًا من الطبيعة؛ ربما من الأفضل للأرنب أن يكون أسرع عَدْوًا حتى يستطيع الهرب من الثعالب التى تطارده، لكن ألا يؤدى ذلك إلى هلاك الثعالب من الجوع؟ إن الوضع الحالى هو الأمثل للسلسلة الغذائية وللتوازن البيئى ككل.

وعندما صمم المهندسون جهاز «اللاب توب Lap Top» ، قاموا بمراعاة عدة عناصر، مثل الحجم والوزن والسعر والصيانة... ولم يعتبروا أن الشاشة الأكبر هى الأفضل إذا جاء ذلك على حساب الحجم والسعر، ولم يتمسكوا بالتقنية العالية جدًّا إذا أدى ذلك إلى تَعذُّر الصيانة، وهكذا..

إن التصميم الأمثل ليس بوضع كل عنصر فى النظام على أفضل ما يكون لنفسه، ولكن بأن يكون العنصر على أفضل وضع يخدم النظام. من أجل ذلك قد يبدو تصميم أحد العناصر أقل كمالًا لنفسه، لكنه يخدم المنظومة بشكل أفضل. إذًا التصميم الذكى هو النظام المتكامل، وليس الأكمل فى كل التفاصيل. هكذا تنهار حجة التصميم القاصر.

التصميم الذكى والتطوير الإلهى

يتصدى مفهوم التصميم الذكى لدراسة الظواهر البيولوجية التى تعجز الطبيعة العمياء عن إيجادها بالعشوائية والصدفة، وأهم هذه الظواهر:

١ - نشأة الحياة من المادة غير الحية:

وقد ناقشنا مفهوم الحياة ونشأتها فى الفصل الخامس، كما عرضنا فيما سبق من هذا الفصل الأدلة التى لا تُدحض على وجود التصميم فى نشأة الحياة، وذلك من خلال نظرية المعلومات التى قدمت برهان التعقيد المتفرد، وأيضًا برهان التعقيد غير القابل للاختزال.

٢- إحداث التنوع الهائل فى الكائنات الحية:

وهذا ما سنناقشه فيما تبقى من هذا الفصل.

٣- ظهور ما يميز الإنسان من عقل وملكات تفوق (نوعًا وكمًّا) ما يميز غيره من الكائنات... لذلك سنفرد الفصل القادم للاقتراب من فهم العقل البشرى.

وفى مجال تنوع الكائنات الحية (التطور) تتبنى مفهومَ التصميم الذكى مدرستان:

أ - التصميم الذكى والخلق الخاص.

ب - التصميم الذكى والتطوير الإلهى: وتنقسم هذه المدرسة إلى اتجاهين:

١ - التصميم الذكى والتدخل الإلهى.

٢ - التصميم الذكى والتطور الموجه.

(أ) التصميم الذكى والخلق الخاص

تركز هذه المدرسة عند تعريفها بنفسها على مفهوم «التصميم الذكى» دون التطرق إلى «أسلوب الخلق»، وإن كانت تؤمن بالخلق الخاص لكل كائن على حدة. ويتبنى هذا الاتجاه فى الغرب مؤسسة ديسكڤرى (اكتشاف) Discovery Institute [١]، باستثناء مايكل بيهى (أحد أعمدة المؤسسة)[٢].

وترى هذه المدرسة أن القول بالتطور يدعم المفاهيم الإلحادية، ومن ثم تطالب المؤمنين بالوقوف فى وجهه. بذلك يُعتبر هؤلاء قريبين جدًّا من «الخلقويين» المتمسكين بالتفسيرات التراثية لآيات الخلق فى القرآن الكريم وفى التوراة.

(ب) التصميم الذكى والتطوير الإلهى

يرى القائلون بالتطوير الإلهى أن الله ﷻ استخدم آلية التطور فى خلق الكائنات الحية، ومن ثم فهم يؤمنون بفكرة الأصل المشترك، باعتبار أن الأدلة العلمية على حدوث التطور لا تُدحض[٣]. ويرى هؤلاء أن ليس هناك عشوائية ولا حتمية مادية مطلقة، بل إن إرادة الله ﷻ وقدرته وراء عملية الخلق. وبعد هذه القاعدة المشتركة، ينقسم هؤلاء إلى فريقين:

(١) ليس هذا مستغربًا، فمؤسس Discovery Institute (المروج الأول لمفاهيم التصميم الذكى فى الغرب) وهو فيليب جونسون كان محاميًا يهدف إلى الدفاع عن الإله أمام المفاهيم المادية، ولم يكن رجل علم تحركه الرغبة فى فهم الحياة ومصدرها. لذلك فإن هذه المؤسسة تضع هذا الهدف الدينى نصب عينيها باستمرار.

(٢) سنرى رأى مايكل بيهى بعد قليل.

(٣) يتبنى هذا الرأى فى الشرق د. هانى رزق (أستاذ البيولوجيا) من سوريا، ود. عمرو شريف (أستاذ الجراحة ومؤلف هذا الكتاب) من مصر، ود. محمد باسل الطائى (أستاذ الفيزياء) من العراق. كما تبنى هذا الرأى د. أحمد مستجير (أستاذ الوراثة بمصر) ود. مصطفى محمود (المفكر الإسلامى المصرى) رحمهما الله ﷻ.
وجدير بالذكر أن المفكر الكبير د. مصطفى محمود طرح هذا المفهوم فى كتاباته وفى برنامجه التليفزيونى الشهير «العلم والإيمان» منذ أكثر من ثلاثين عامًا. ولخص ذلك فى أحد تعليقاته، بأن إضافة حرف واحد إلى كلمة «تطور» يجعلها «تطوير»، وبذلك تنحل المشكلة (من ناحية التوضيح والصياغة على الأقل).

ب -١- التصميم الذكى والتدخل الإلهى: يرى هؤلاء أن الخالق ﷻ تدخل من حين لآخر لإحداث التغييرات الجينية اللازمة لإخراج كائنات جديدة، ويمكن وصف هذه التغييرات بأنها طفرات موجهة. ويتمسك أنصار هذا المفهوم بأن الموجودات تبلغ من التعقيد درجة تتطلب أن يظل المصمم الذكى متدخلًا بشكل مباشر (ليس من خلال القوانين الطبيعية) فى نشأتها خطوة خطوة حتى تكتمل. ويُعتبر هذا الطرح مفهومًا وسطًا بين الطرح العلمى والطرح الدينى الأصولى، ويتبناه من مؤسسة ديسكڤرى Discovery Institute بالولايات المتحدة عالم البيولوجيا الكبير د. مايكل بيهى.

ب -٢- التصميم الذكى والتطور الموجه: ويرى هؤلاء أن الخالق ﷻ وضع الشفرة الوراثية (الجينوم) فى الخلية الأولى بشكل متناغم مع قوانين الطبيعة، بحيث يسمح لها بتوجيه عملية التطور. ويتزعم هؤلاء عالِم البيولوجيا الجزيئية «فرانسز كولنز Francis Colins»، الذى وضع نتائج عمله كرئيس لمشروع الجينوم البشرى فى كتابه الفذ «لغة الإله The Language of God» الذى أصدره عام ٢٠٠٦، وقد اخترت أن أعرض آراء هذه المدرسة من خلال مقتطفات من هذا الكتاب، يقول فرانسز كولنز(١):

«أقول بكل التواضع إننا أمسكنا بأول الخيط لقراءة كتاب الحياة الذى لم يكن معروفًا من قبل إلا للإله».

«أتاح لى عملى فى مشروع الجينوم البشرى الفرصة لمقارنة الشفرة الوراثية لمختلف الكائنات، ابتداءً من الإنسان وحتى أدنى الكائنات الحية. وقد أطلعنى ذلك على كنز من الأدلة التفصيلية التى تشير إلى انحدار الكائنات المختلفة عن «أسلاف مشتركة Common ancestors».

«لقد تملكنى الخشوع عندما اطَّلعت على التصميم المبهر للخالق العظيم الذى وضع بحكمته القوانين الطبيعية وضوابطها، بحيث تسمح بنشأة المجرات والنجوم والكواكب وعناصر المادة، والحياة نفسها، بل والإنسان».

«لقد وجدتنى منبهرًا ومدفوعًا إلى تصور لا أرى له بديلًا فى هذه الأيام التى يكشف فيها العلم فى كل لحظة الغموض عن معضلة من المعضلات، إن هذا التصور هو مفهوم «التطور الموجه **Directed Evolution**».

«ليس هذا المفهوم من ابتداعى، بل يتبناه العديد من المتدينين المخلصين المقتنعين

(١) أطلق فرانسس كولنز على مذهبه اصطلاح Biologos، أى التطوير من خلال الكلمة الإلهية.

بالتطور[1]. كذلك فهو عقيدة العديد من الهندوس والمسلمين واليهود والمسيحيين، بل وبعض بابوات الفاتيكان المعاصرين».

وبين كولنز أن منظور التطور الموجه يقوم على المفاهيم التالية:

١- خرج الكون إلى الوجود من العدم المطلق منذ حوالى ١٣,٧ بليون سنة. وتتميز بنية الكون بقدر هائل من الضبط الدقيق Fine Tunning الذى سمح بخروج الكون ووصوله إلى هيئته الحالية.

٢- بالرغم من الاحتمالات اللامتناهية لعدم التوافق، فإن بنية الكون وقوانينه متوائمة تمامًا مع متطلبات نشأة الحياة وتطور الكائنات.

٣- لا تزال آليات نشأة الحياة مجهولة تمامًا بالنسبة لنا، لكن ما إن ظهرت الحياة حتى استطاعت آليات التطور والانتخاب الطبيعى تحقيق التنوع الهائل الذى نشهده فى الكائنات الحية. وذلك نتيجة للتوافق الهائل بين جينوم الخلية الأولى وبين قوانين الطبيعة.

٤- ما أن بدأ التطور الذى تحكمه القوانين الطبيعية (التى هى من خلق الله وإمداده المستمر) حتى تسلسل دون الاحتياج إلى تدخلات إلهية سافرة خارقة للقوانين.

٥- الإنسان (كجسد) جزء من العملية التطورية، ويشترك مع الرئيسيات[2] فى سلف مشترك.

٦- يتفرد الإنسان بالجانب العقلى الذى يشمل الوظائف العقلية العليا، وبالجانب الروحى الذى يتمثل فى المنظومة الأخلاقية والفطرة الباحثة عن الإله، ولم يخضع هذان الجانبان للعملية التطورية، بل هما عطاء إلهى مباشر.

ويؤكد كولنز أن الإنسان إذا قَبِلَ هذه المفاهيم الستة، فسيخرج بتصور منطقى متماسك، نلخصه فى الآتى[3]:

(١) من هؤلاء عالم النبات الشهير Asa Gray، وبعده بخمسين عامًا عالم الحفريات الشهير Charles D. Walcott، وبعده بخمسين عامًا أكبر عالمين تطوريين فى العصر الحديث G.G. Simpson و D. Theodosius

(٢) الرئيسيات تمثل رتبة من طائفة الثدييات تشمل الإنسان والقردة العليا والقردة.

(٣) ويشارك كولنز رأيه هذا عالم الحفريات الكبير فى كمبردج سيمون كونواى Simon Conway Morris، فهو يرى أن الكون تم ضبطه بدقة تسمح بقيامه واستمراره وبظهور الحياة وتطور الكائنات، ووصف ذلك بقدرة الحياة على الإبحار إلى غاياتها Navigation

«لقد خلق الإله (الذى لا يحده المكان ولا الزمان) الكون، ووضع فيه القوانين الطبيعية التى تحكمه، وبذلك يكون قد أعد المسرح لنشأة الحياة.

اختار الإله آلية التطور ليخلق التعدد الهائل فى الكائنات الحية، ابتداءً من الكائنات الدقيقة حتى النباتات والحيوانات بجميع أنواعها.

كذلك استخدم الإله نفس الآلية فى تشكيل جسد الإنسان، هذا الكائن الذكى الذى أُعطى الملكات العقلية والفطرة الدينية والأخلاقية».

ولا شك أن التطور الموجه يتمشى تمامًا مع العلم ومع النصوص الأصلية للكتب السماوية، دع عنك التأويلات والتفسيرات التراثية.

آلية التطوير الإلهى

من أجل أن تتكامل أى نظرية ينبغى تقديم الآليات التى تفسرها، لذلك يأتى دور سؤال شديد الأهمية؛ ما هى الآلية التى استخدمها المصمم الذكى فى توجيه التطور؟

كانت النظرة التقليدية فى بناء البروتينات (المسئولة عن بنية ونشاط الخلايا وأيضًا هيئة الكائن) هى «جين واحد لبروتين واحد»، وقد مَثَّل هذا المفهوم عائقًا كبيرًا أمام تفسير تحول كائن إلى كائن آخر، إذ يتطلب ذلك إدخال كم كبير من الجينات الجديدة. ثم ظهرت نتائج مشروع الجينوم البشرى وأعقبتها اكتشافات مثيرة أخرى فى علم البيولوجيا الجزيئية أظهرت خطأ النظرة التقليدية وشاركت فى وضع التصور المبدئى والخطوط العريضة لآلية التطوير الإلهى[1]. وأهم هذه الاكتشافات:

(١) أظهرت الاكتشافات أن نفس الجينات (كمًّا ونوعًا) قادرة على إحداث تنوع رهيب فى البروتينات ومن ثم فى بنية وهيئة الكائنات[2]. مثال ذلك أن جينًا واحدًا فى ذبابة الفاكهة قادر على إنتاج أكثر من ٣٧,٠٠٠ نوع من البروتينات!.

(١) لم يستوف العلماء المهتمون بمفهوم «التطور الموجه» الإجابة عن هذا السؤال بعد. ويرجع ذلك (فى تصورى) إلى أسباب أهمها: أن الأمر شديد التعقيد ويتداخل مع المفاهيم الغيبية. كما أن هؤلاء العلماء ما زالوا فى مرحلة طرح «مفهوم التطور الموجه» على الأوساط العلمية وإقناعها به، وكذلك الرد على المعارضة الشرسة للنقيضين (الخلقويين والدراونة!) الذين يدركون توابع الإقرار بهذا المفهوم.

(٢) عرضنا فى هوامش الفصل الخامس خمس آليات يمكن بها تحقيق هذا التنوع.

(٢) شاركت فيزياء الكوانتم بما تطرحه من لاحتمية فى توجيه آليات إحداث هذا التنوع بدلًا من إخراج نمط واحد تبعًا للحتمية الفيزيائية الغاربة.

(٣) ثبت حديثًا أن التعديلات التى تحدث فى نشاط الجينات يتم توارثها ومن ثم نقل الصفة الجديدة إلى ذرية الكائنات، مما يسمح بالتطوير البيولوجى. وهذا يخالف ما كان متفقًا عليه من قبل من أن الصفات المكتسبة لا تُوَرَّث!

وعلى خلفية هذه العوامل (آليات تنويع البروتينات، ولاحتمية فيزياء الكوانتم، وتوريث الصفات المكتسبة) يمكن للمصمم الذكى أن يتدخل إما بشكل مباشر لترجيح أحد الاحتمالات العديدة (التدخل الإلهى)، أو من خلال العوامل الفيزيائية والكيميائية (التطور الموجه) كالإشعاع ونقص أو زيادة الأوكسجين أو الحرارة المرتفعة أو المواد الكيميائية وغيرها. ولا شك أن هذه التغييرات تحدث بإحكام شديد، حتى تُنتج هذا التنوع الهائل فى الكائنات الحية، وتُنتج كذلك هذا التوافق الذى ذكرناه بين جنسى النوع الواحد وبين كائنين وثلاثة كائنات من أنواع مختلفة[١].

وبناء على هذه الآلية، نرى أن الخلية الأولى كانت تحتوى على الجينات المطلوبة لنشأة هذا التنوع الهائل من الكائنات الحية، حتى يمكن تشبيهها بخلية الزيجوت Zygot (تتكون من إخصاب البويضة بالحيوان المنوى) التى تحمل كل الجينات المسئولة عن نشأة جميع أنسجة وأجهزة الكائن الحى على اختلافها وتباينها فى أطوار الجنين المختلفة. ويقدم لنا علم البيولوجيا العديد من الأمثلة التى تؤكد ذلك[٢].

---

(١) يطرح الدكتور حسين أحمد أمين أستاذ جراحة المسالك البولية فى مصر، نظرية جديدة بالتأمل، تتبنى هذا الطرح ويُطلِق عليها اسم «نظرية تثبيط وتحفيز الجينات» Gene Suppression – Activation Theory = G – SAT ونشرها فى كتاب له بعنوان: Genes and Human Nature عام ٢٠٠٧، وقد لخصناها فى كتابنا «كيف بدأ الخلق» الفصل السابع، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الثالثة، ٢٠١٣.

(٢) من أمثلة ذلك:

١- الانتقال من طور إلى طور أثناء نشأة الكائنات. ففى دودة القز، تكون الحشرة فى طور اليرقة على هيئة دودة، ثم تتحول إلى طور آخر يختلف عنها كلية فى الشكل، وهو الفراشة.
كذلك نجد فى البرمائيات أن أحد الأطوار (مثل أبو ذنيبة فى الضفادع) يتنفس بالخياشيم كالأسماك، ثم يتحول إلى الضفدعة الكاملة التى تتنفس بالرئتين مثل باقى الحيوانات البرية.

٢- تغيرات تفرضها الظروف المحيطة. مثال ذلك ما يحدث فى أسماك «الجوبى اليابانية Japanese Gobby». ففى أسراب هذه الأسماك توجد أنثى واحدة، وإذا أخذت بعيدًا تحول أحد الذكور إلى أنثى، وإذا أعيدت إلى السرب عادت الأنثى الجديدة إلى ذكوريتها!

ويدعم هذا الطرحَ وقوعُ «الانفجار الأحيائى الكبير Biological Big Bang»، الذى حدث فى العصر الكمبيرى منذ حوالى ٥٤٠ مليون سنة، وفيه ظهرت معظم الكائنات الحية الموجودة على سطح الأرض الآن خلال ٥-١٠ ملايين سنة. إن ظهور هذه الكائنات على تنوع شفراتها الوراثية فى فترة وجيزة جدًّا، تقارب لمح البصر بمنظور التاريخ التطورى المغرق فى القدم، يتطلب سهولة الحصول على جينات هذه الكائنات بسرعة، وهو ما تسمح به الآلية التى شرحناها.

ويشرح الفيلسوف المعاصر الكبير ريتشارد سوينبرن التطور الموجه بالمنظور الفلسفى قائلًا: تشبه آليات التطور التى وضعها الإله فى الطبيعة لتطوير الكائنات الحية الآلات التى صنعها الإنسان لتصنع آلات أخرى. إن اكتشاف آليات التطور حَرَّكَ المصمم خطوة إلى الوراء، فبدلًا من أن يكون الإله هو الخالق المباشر صار خالقًا من خلال آليات. وتشير إلى ذلك المعنى مقولة فرانسس كولنز الشهيرة؛ مَنْ الذى يحجر على الإله فى أن يستخدم آلية التطور فى الخلق.

إن الحديث بصوت عال عن آليات التطور الداروينى ووصفها بأنها تلقائية وعمياء ولا غاية وراءها، وتكرار الملاحدة ذلك فى كتاباتهم، يُشعر الإنسان أن الدارسين قد توصلوا بعد بحث إلى أن ليس وراء الطفرات والانتخاب الطبيعى عقل مصمم، وهذا فى الحقيقة وهم واحتيال، فلم يدرس أحدٌ منهم من أين جاءت هذه الآليات!!

وقد تنبه الفيزيائى الكبير سير جون هوفتون لذلك المعنى فقال: إن فهمنا لبعض الآليات التى يعمل بها الكون والمنظومات الحية لا يلغى أن وراءها مصممًا. فمهما كانت الساعة أوتوماتيكية لا يلغى أن وراءها مصممًا ذكيًّا.

هل التصميم الذكى عِلْم؟

لا شك أن من أهم أهداف العلم التوصل إلى كيف ظهرت الأشياء فى الوجود وكيف تعمل، فالعلم يسعى للبحث عن الحقيقة حتى وإن خرجت عن التفسيرات المادية. لقد كان هذا هو منظور العلماء الكبار فى التاريخ، مثل أمحوتب والزهراوى وابن الهيثم ونيوتن وأينشتين. ولم ينحرف هذا المنظور إلّا فى العقود الأخيرة، بعد أن أصبح الكثيرون يَدَّعون أن «المنظور المادى هو الطريق الوحيد للوصول إلى الحقيقة». ولا شك أن هذا قول منافٍ للعلم! لأنهم لم يختبروه بأسلوب علمى، ولا حتى بالمنطق!

إن التعريف الذى صاغه العلماء المحدَثون للعلم يستوعب الداروينية ويطرد ما سواها من ساحته! لذلك حرص أنصـار التصميم الذكى على أن يحفظوا مفهومهم داخل حدود عالم الفيزياء حتى لا يدفعهم الآخرون إلى عالم الميتافيزياء، ومن ثم ركزوا طرحهم على تساؤل واحد: هل وراء هذا الوجـود والحياة وتنوع الكائنات والعقل الإنسانى «تصميم Design» أم أن «الصدفة والعشوائية» قادرتان على إيجاد هذه الموجودات تلقائيًا؟ ويطالب أنصار هذه المدرسة بأن تُطرَح قضيتهم الأساسية (تصميم أم لا تصميم) للتمحيـص العلمى. ولا تطرح هـذه المدرسة للبحث التساؤل عن مصـدر هـذا التصميم، حتى لا يصبح التصميم الذكى بحثًا فلسفيًا دينيًا يخرج عن حـدود العلم كما رسمهـا العلماء.

ويستند أنصار التصميم الذكى إلى أن المنهج العلمى يكتفى فى بحثه بالسبب المباشر للظاهرة أو السبب السابق له، بينما ينبغى أن يمتد البحث إلى السبب الأول. فإذا وجد علماء الحفريات مثلًا إناءً فى منطقة ما، بحثوا عن الحضارة وعن الإنسان الذى صنع هذا الإناء، ولا يخوضون فى مصدر هذه الحضارة ومنشأ هذا الإنسان. كذلك عند البحث فى سقوط الأجسام، يقف العلم عند قانون الجاذبية ولا يبحث فى المصدر الأعلى لهذا القانون. وبالمثل، عندما يتحدث الداروينيون عن فاعلية الطبيعة وعن الانتخاب الطبيعى، فهم لا يبحثون عن أصل الطبيعة ولا مصدر قانون الانتخاب الطبيعى.

إن إثبات خطأ التصميم الذكى كمفهوم علمى يتطلب إيجاد تفسير لمصدر الكم المعلوماتى الهائل الذى تحمله الشفرة الوراثية، وكذلك إثبات إمكانية بزوغ نظام معقد غير قابل للاختزال دون اللجوء إلى الذكاء، وقد تمت هذه المحاولات بالفعل وثبت استحالة أن تقوم الطبيعة بذلك.

وبالرغم من ذلك، أعلنت «الأكاديمية القومية للعلوم National Academy of Science» بالولايات المتحدة أن مفهوم التصميم الذكى ليس علمًا! إذ لا يمكن إخضاعه للتقويم بالطرق العلمية، فرد مايكل بيهى لهم الصاع صاعين ووصف موقف علماء الأكاديمية بأنه مثير للسخرية، إذ أنفقوا سنوات طويلة من أعمارهم فى محاولة إثبات خطأ مفهوم التصميم الذكى، ألا يعنى ذلك أنه خاضع للتقويم العلمى؟!

التصميم الذكى فى المحكمة

بالرغم من أن العلماء الماديين يقرون بوجود الذكاء فى الطبيعة، فإنهم يرفضون الإقرار بمفهوم «التصميم الذكى»! إنهم يتخوفون من الخطوة التالية، وهى الإقرار بـ«المصمم الذكى»،

ثم الإقرار بالديانات، وما قد يترتب على ذلك من عودة الظلام الذى سيطر على أوروبا فى العصور الوسطى. ومن أجل تحاشى كل هذه التوابع، يختار الماديون من تعريفات العلم ما يحفظ القول بالتصميم الذكى خارج نطاقه! فهل هم مصيبون فيما اختاروه من تعريفات؟

للإجابة عن هذا التساؤل، فلنتأمل القضية الشهيرة التى رُفعت عام ١٩٨٢، فى ولاية «آركانساس Arkansas» بالولايات المتحدة، والتى دارت حول إمكانية تدريس البيولوجيا فى المدارس من خلال منظور التصميم الذكى بجانب تدريسها من خلال المنظور الداروينى[١].

لقد حَكَمَ القاضى بأن منظور التصميم الذكى منظورٌ دينى وليس منظورًا علميًّا، ومن ثم لا ينبغى تدريسه فى المدارس. هل كان القاضى مصيبًا فى حكمه؟

فى حيثيات الحكم، حدد القاضى سمات العلم وقارنها بسمات منظور التصميم الذكى، وخرج بحكمه السابق. ونعرض مقارنة القاضى من خلال الجدول التالى:

سمات العلم والقضايا العلمية	سمات منظور التصميم الذكى
١- الظواهر العلمية خاضعة للملاحظة Observable	غير خاضع للملاحظة Unobservable
٢- يتعامل مع الظواهر والأشياء المتكررة Repeatable	يتعامل مع موقف لن يتكرر (عملية التصميم) Unique event
٣- الظواهر العلمية خاضعة للاختبار Testable	غير خاضع للاختبار Untestable
٤- يدرس عالم الطبيعة Natural	يدرس ما وراء الطبيعة Super-Natural

(١) بالإضافة لقضية ولاية أركانساس التى حُكم فيها ضد مفهوم التصميم الذكى، اشتهرت فى الولايات المتحدة قضيتان أخريان. قضية ولاية أريزونا عام ١٩٨٧، وقضية مقاطعة ووفر بولاية بنسلفانيا عام ٢٠٠٥ التى اشتهر فيها القاضى جون جونز. وقد صدر فى القضيتين حكم مشابه لقضية ولاية أركانساس.

والآن مع نظرة تحليلية لهذه السمات لنرى ما فى هذه المقارنة من عَوَار:

١- الخضوع للملاحظة: كثيرًا ما يقبل العلماء تصورات **لا تخضع للملاحظة على الإطلاق** (كالكواركات ونظرية الأوتار) **إذا كانت قادرة على تفسير الظواهر العلمية، كذلك** اعتبر الدراونة أن **التطور من نوع إلى نوع Macro Evolution** علم، بالرغم من أنه غير خاضع للملاحظة! ومن ثَمَّ **فالخضوع للملاحظة لا يعتبر شرطًا للقضية العلمية.**

٢- تكرار الظاهرة: لا ينبغى اعتبار هذه السمة شرطًا للظاهرة العلمية، **فالعلماء يعتبرون** الكثير من الظواهر غير المتكررة (وغير القابلة للتكرار) ظواهر علمية، **كالانفجار الكونى الأعظم وبداية الحياة على الأرض.**

٣- الخضوع للاختبار: استبعد القاضى أن يكون مفهوم التصميم الذكى علمًا بدعوى أنه غير قابل للاختبار، بالرغم من استشهاده بقول الدراونة إن **هذا المفهوم ثبت خطأه بعد أن تم اختباره! كيف يكون المفهوم غير قابل للاختبار، ويكون قد تم اختباره؟!**

٤- الطبيعة وما وراء الطبيعة: يدرس مفهوم التصميم الذكى **أشياءً طبيعية كالدنا وقوانين الطبيعة**، أما ما هو وراء الطبيعة فهو الإله الخالق الذى لا يطرحه مفهوم التصميم الذكى للبحث، فلهذا مجال آخر.

لقد اختاروا تعريفات على المقاس

لقد وضع القاضى فى قضية آركانساس **العربة قبل الحصان! فماذا ننتظر إذا انطلقنا فى حكمنا من تعريف للعلم يقصره على الأسباب الطبيعية؟ لا شك أننا إذا بدأنا بحثنا بأن العلم لا يبحث إلّا فى المادة والطاقة فلن نحكم إلّا برفض ما سواهما. لقد اختار القاضى من تعريفات العلم تعريفًا يفرض علينا النتيجة**، ويسمى هذا المنهج المعيوب بـ«**المنطق الدائرى** Circular Reasoning».

أبا جهل: التصميم الذكى أم الداروينية

بعد أن أظهرنا ما وقع فى عقول الكثيرين (ومنهم القضاة الأمريكيين) من لبس حول مفهوم التصميم الذكى، بل وحول العلم! نقول ببساطة **إن الوجود يبدو مُصَمَّمًا Designed لأنه بالفعل مُصَمَّم Designed**، وعلى من ينكر ذلك أن يقدم الدليل على خطأ ما هو ظاهر أمامنا. عليهم أن يثبتوا أن الكائن الذى ينبح ويهز ذيله ويبدو ككلب ليس كلبًا، وليس علينا أن نثبت أنه كلب، يكفى أنه يبدو هكذا!

إن التصميم الذكى يمكن إخضاعه للتقويم العلمى بشكل أكبر من التطور الداروينى؛ ألم يعجز الدراونة عن طرح تصور معقول (مجرد تصور) لخطوات نشأة سوط البكتيريا دون اللجوء للتصميم الذكى؟

ومن المثير للسخرية، أن الدراونة يتهمون أنصار التصميم الذكى بأنهم ينطلقون من منطلقات أيديولوجية، بينما العكس هو الصحيح! فإن معظم من يؤيدون الداروينية لا يتمسكون بها لقوة أدلتها العلمية (بل ربما لا يعرفون هذه الأدلة!)، لكن لموقفهم الرافض للدين، ولإدراكهم للتبعات الفلسفية والدينية لمفهوم التصميم الذكى. هذا ما يجعل الرافضين ينفعلون ويتشنجون وتحمر وجوههم ويقفزون هنا وهناك عند الحديث عن التصميم الذكى!

ويصف الدراونة الاستدلال بوجود التصميم على وجود الإله الخالق بأنه دليل مبنى على العجز عن تفسير بعض الظواهر الطبيعية (إله سد الثغرات) أى أنه «دليل مبنى على الجهل». ويستندون فى ذلك إلى القاعدة المنطقية بأنه «لا ينبغى أن نتخذ من غياب الدليل دليلًا»

Absence of evidence is not evidence of absence.

ونجيب على هؤلاء بما ذكرناه فى الفصل الثالث، من أننا نقول بالإله كسبب أول وليس كحدث أول، أى لتفسير ما فسره العلم وليس ما عجز العلم عن تفسيره. كذلك فإن رفض أنصار التصميم الذكى للوقوف عند التفسيرات المادية ليس رفضًا مبنيًّا على نقص فى المعرفة العلمية (رفض عن جهل) ولكنه (رفض عن علم).

ولنبين الفرق بين الرَفْضَين نضرب مثالًا: إذا توصلنا بعد دراسة دقيقة لبنية الجسم البشرى ووظائفه إلى أن الإنسان لا يستطيع الطيران إلّا إذا استخدم آلة تُعينه على ذلك، هل يمكن أن يقول مُعترض: لا.. ربما يكتشف العلم بعد فترة إمكانية أن يطير الإنسان دون الاستعانة بآلة. هل رفضنا لهذا القول راجع إلى نقص المعرفة العلمية (جهل) أم أنه رفض عن علم؟.

إن الدراونة يبحثون عن التفسير المادى لنشأة الظواهر ذات التعقيد غير القابل للاختزال وذات التعقيد المتفرد (مثل سوط البكتريا)، وكلما عجزوا عن تفسيرها، أخذوا يعشمون أنفسهم بأن العلم سيتوصل للتفسير المناسب فيما بعد، لقد جعلوا العلم أداة لسد الثغرات!

ويمضى الزمن، ويكتشف العلم يومًا بعد يوم حقائق كثيرة تزيد من حيرة العلماء، حتى

قيل بحق «إن العلم يتضاعف بمتوالية حسابية بينما يتضاعف الجهل بمتوالية هندسية!!»[(١)] ولن يجد الماديون عاجلًا أو آجلًا مفرًّا من الإقرار بمفهوم التصميم الذكى ليفسر لهم الكثير مما أُغلق عليهم.

لذلك يخبرنا جيمس شابيرو (أستاذ البيولوجيا بجامعة شيكاغو) أن الدراونة لا يقدمون أى تفسير لنشأة الحياة على المستوى الخلوى أو البيوكيميائى، كل ما يقدمونه «تصورات مبتورة لا معنى لها». ويطرح شابيرو تحديًا كاسحًا فيتساءل: إذا أردنا أن نوزع كلًّا من «العلم» و«الجهل» على كلٍّ من الداروينية والتصميم الذكى، فكيف نوزعهما؟ مَن يستطيع أن يجيب عن التساؤلات حول:

- مصدر المعلومات فى الشفرة الوراثية (الدنا).
- مصدر «التعقيد المتفرد».
- كيف يبرز «التعقيد غير القابل للاختزال» فجأة؟
- من صاغ قوانين الطبيعة؟

هل تستطيع الداروينية الإجابة؟

لا شك أن مفهوم التصميم الذكى يستطيع.

فمن هو الجاهل؟

الداروينية - وليس التصميم الذكى - تعيق العلم!

يردد الدراونة أن القول بالتصميم الذكى يعيق العلم، والحقيقة أن الداروينية هى التى تعيق العلم، ولنضرب على ذلك مثالًا:

انظر إلى اصطلاح الدنا المُهمَل (سقط الدنا) Junck DNA الذى صكه البيولوجيون بعد أن وجدوا أن الشفرة الوراثية للإنسان محمولة على ١,٢٪ فقط من الدنا، باعتبار أن

(١) المتوالية الحسابية والمتوالية الهندسية: المتواليات هى مجموعة من الكميات المتتالية، يطلق عليها الرياضيون أسماء مختلفة حسب العلاقة بين الحدود التى تتكون منها. فمثلًا تُسمى المتوالية ٢، ٤، ٦، ٨ متوالية حسابية؛ حيث يزيد كل حد فيها بمقدار ثابت عن الحد الذى يسبقه، ويعرف هذا المقدار بأساس المتوالية.

أما فى المتوالية الهندسية فيتم ضرب الحد فى مقدار ثابت (أساس المتوالية) لنحصل على الحد الذى يليه. مثل: ٢، ٤، ٨، ١٦ ... وهكذا.

وبالتالى يكون معدل التزايد فى المتوالية الهندسية أكبر كثيرًا من المتوالية العددية، وهذا هو المقصود بالاستشهاد فى هذا الموضع. ويرجع ذلك إلى أن العلم كلما أجاب عن سؤال فتحت الإجابة الباب لتساؤلات عديدة.

الباقى (٩٨,٨٪) لا وظيفة له!، وأرجعوا وجود هذه الكميات الهائلة من الدنا إلى الطفرات العشوائية. وانتهز الدراونة الفرصة، فقالوا إنه إذا كان وراء نشأة الخلية مصمم ذكى لَوَضَع فى النواة كميات الدنا المطلوبة فقط.

أما القائلون بالتصميم الذكى، فرأوا استحالة أن يكون المصمم الذكى قد قام بهذا العبث وسوء الاستخدام، ورفضوا القول بأنه وضع هذه الكميات الهائلة التى لا لزوم لها من المادة الحية فى نواة الخلية. وهذا ما ثبت بالفعل، إذ تبين أن للدنا الذى سُمى مُهمَلًا أو سقطًا وظيفة حيوية لا تقوم حياة بدونها، إنه المسئول عن توجيه عمل جينات الكائن الحى، حتى لقد أصبح هذا الدور يمثل مجموعة من العلوم القائمة بذاتها، تُعرف باسم «علوم التحكم فى الجينات Epigenetics». هكذا أصبح إدراك مفهوم التصميم الذكى دافعًا (وليس معوقًا) للبحث عن التفسيرات العلمية الصحيحة لواحدة من أكبر المعضلات التى تواجه عقل الإنسان، وهى الحياة.

إن إحدى أكبر مشكلات الدراونة أنهم لم يدركوا ما فى ظاهرة الحياة من تعقيد مبهر، فتمشت تصوراتهم البسيطة للحياة مع قولهم بعشوائية مصدرها. وإذا كان لداروين العذر فى تبنى هذا الموقف، فليس هناك عذرٌ للدراونة المعاصرين بعد كل ما تَكَشَّف من تعقيد فى بنية ووظيفة المادة الحية والشفرة الوراثية.

القارئ الكريم..

إذا كانت ملامح التصميم تتضح بجلاء فيما يبدعه الإنسان، فإنها تتضح أيضًا عند التأمل العميق فى الطبيعة من حولنا وفى عالم الحياة داخلنا وخارجنا.

وبعد أن كان علم البيولوجيا ينظر إلى الحياة باعتبارها ظاهرة كيميائية، صار ينظر إليها باعتبارها ظاهرة معلوماتية، ومن ثَمَّ على الباحثين عن أصل الحياة أن يركزوا فى بحثهم على مصدر المعلومات فى الخلية الحية.

وقد أثبتت النظرية اللوغاريتمية للمعلومات استحالة أن تقدم الصدفة والعشوائية الكم الهائل من المعلومات المطلوب لنشأة واستمرار ظاهرة الحياة، وبذلك قدمت البرهان القاطع على وجود التصميم والذكاء والقصد من خلال كشف ما يميز الحياة من «تعقيد متفرد» يستحيل أن يتشكل بالعشوائية.

كذلك طرحت البيولوجيا الحديثة مفهوم «التعقيد غير القابل للاختزال»، الذى أثبت استحالة نشأة العديد من المنظومات الحياتية الدقيقة وكذلك أعضاء الكائنات الحية شديدة التعقيد بالأسلوب التدريجى المرحلى شديد البطء الذى تتطلبه الداروينية، مما لا يدع تفسيرًا آخر لنشأتها إلا القول بأنها قد أُستحدثت فى الكائنات الحية بشكل متكامل.

ولا شك أن القول بوجود التصميم والذكاء فى ظاهرة الحياة (وأيضًا الظواهر الكونية والطبيعية) لا يُخرج الطرح من دائرة العلم، فذلك ظاهر لكل ذى عينين، وعليه يركز القائلون بمفهوم «التصميم الذكى» دون أن يقحموا أنفسهم فى الحديث عن «المصمم الذكى» حتى لا يوصف طرحهم بأنه طرح غيبى دينى.

من التصميم إلى المُصَمِّم

لكن، هل هناك حرج فى أن ننتقل من القول بـ «التصميم الذكى» باعتباره مفهومًا علميًّا إلى القول «بالمصمم الذكى»؟ أليس من البديهى أن يحتاج التصميم إلى مُصمم؟

لا شك أن الانتقال من المفاهيم العلمية إلى المفاهيم الدينية يمثل حرجًا شديدًا فى الغرب، بل فى الحضارة المادية الحديثة بصفة عامة، إذ يعتبرون أن العلم الحديث لم يقف على قدميه إلا بعد أن تم فصله تمامًا عن المفاهيم الدينية.

أما فى الشرق، فلا نجد (بصفة عامة) مثل هذا الحرج. بل إن معظم الشرقيين يتبنون مفهوم الخلق الخاص، الذى يعتبر الربط بين الدين والتصميم الذكى أمرًا بديهيًّا، ويجعل الانتقال من مفهوم «التصميم» إلى البحث عن «المُصمم» أمرًا بديهيًّا أيضًا.

لا شك أن ما فى الكون والحياة من تصميم (انتظام وانضباط وتعقيد) يقف وراءه سبب أول، ويتطلب ذلك أن يتسم هذا السبب بالذكاء والقدرة. وإذا كان المتدينون يؤمنون بحكمة الله ﷻ وقدرته، فإن الملاحدة يؤمنون بقدرة الطبيعة! لقد أصبح كلٌّ منهما يؤمن بقدرة خالقه، ولكلٍّ منهما دينه[1]. وبدلًا من أن يشكر الإنسان الإله الخالق فإن الداروينى يشكر الطبيعة. انظر إلى قول «ستيفن جولد» فى تعليقه على انقراض الديناصورات: إن بنية الديناصورات (كزواحف ضخمة) لا تتناسب مع ظهور العقل المفكر، لذلك فنحن ندين بوجودنا «كلية» لها

---

(١) ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون].

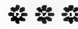
المُذَنَّب الذى ارتطم بالأرض وتسبب فى انقراض الديناصورات منذ ٦٥ مليون سنة، مما سمح للثدييات بالتطور والارتقاء، حتى نشأ الإنسان!!

لذلك فنحن نرقى (دون أن نفارق الموضوعية أو نعادى العلم) من القول بالتصميم الذكى إلى القول المصمم الذكى.

وينقسم القائلون بالتصميم الذكى إلى مجموعتين رئيسيتين؛ الأولى هم القائلون بالخلق الإلهى الخاص، وتشمل الثانية القائلين بالتطوير الإلهى، سواء من خلال التدخل الإلهى المباشر لإحداث الطفرات المطلوبة للتطور، أو من خلال استجابة الشفرات الوراثية للكائنات للتغيرات البيئية بناء على تناغم مسبق بينهما وضعه الإله الخالق. وإذا كان العلم الحديث قد قدم لنا الخطوط العريضة لآليات التطور الموجه، فما زال أمامه الكثير والكثير حتى يتوصل إلى بناء مقبول لهذه الآليات.

ولعل من أحكم ما قيل لوصف التطوير الإلهى قول عالِم البيولوجيا الجزيئية الكبير فرانسز كولنز «مَنْ الذى يحجر على الإله فى أن يستخدم آلية التطور فى الخلق».

فسواء خلق الله خلقًا خاصًا أو خلقًا تطوريًا، فهو الخالق فى الحالين.



الفصل الثامن

العقــل

بين الإله والإلحاد

- المخ والعقل
- بالعقل صرنا بشرًا
  - نظرية العقل
  - معضلة الوعى
  - الإدراك - الفهم - التفكير
  - حرية الإرادة والقدرة على الاختيار
  - كائن خيالى يتنقل عبر الزمن
  - الإيمان بالسببية
  - حب الاستطلاع والبحث
  - السلوك الاجتماعى الإنسانى
  - ابتكار الآلات
  - الإدراك خارج الحس
- العقل واللغة
  - نشأة اللغة
  - اللغة مبرمجة جينيًا فى أدمغتنا
  - الانفجار اللغوى الأعظم
  - اللغة الإنسانية وتواصل الحيوانات
- العقل وتذوق الجمال
  - للعقل قوانينه لتذوق الجمال والفن
- العقل والمشاعر الروحية
  - الوجود الغيبى وجود حقيقى
  - المخ/ العقل والدين فى تكامل
  - المخ/ العقل والعبادات
- الماديون والعقل
  - تناقض والاس بين الألوهية والداروينية
  - التعقيد والصفات المنبثقة
  - الانبثاق ليس إلا الخلق
  - هل يُعَد الكمبيوتر عقلًا؟!
- العقل قتل الفلسفة المادية، والآن يدفنها
  - أ- قدرة عقولنا على فهم ما يحيطنا
  - ب- مصدر مفاهيمنا الأولية
  - جـ- لماذا نصدق عقولَنا؟!
- القارئ الكريم

«عندما نرجع بخطوات الإنسان إلى الوراء نتبين أن منحة العقل السليم الواعى كانت من خصائصه منذ أول عهده، وأن القول بإنسانية متدرجة من أعماق البهيمية هو قول لا يقوم عليه دليل».

ماكس موللر[1]

يتلخص المنظور الإسلامى للعقل فى وجود ركيزتين محوريتين تُميزان الإنسان عن باقى الكائنات. الركيزة الأولى؛ ما يتمتع به الإنسان من قدرات عقلية وما يتبعها من حرية إرادة ومشاعر روحية، والركيزة الثانية هى نفخة الروح الغيبية التى أُختص بها. بالربط بين هاتين الخصوصيتين نرى أن هذه النفخة الغيبية هى المسئولة عن تلك القدرات العقلية.

أما المنظور المادى الداروينى، فيُرجع كل ما يتمتع به الإنسان من خصوصية عقلية تميزه عن باقى الكائنات إلى فوارق كَمّيَّة، أى أنها زيادة فى «مقدار» الوظائف التى تمارسها تلك الكائنات بالفعل. ويُرجع الماديون هذه الزيادة لعمليات تطورية عشوائية أدت إلى زيادة حجم وتعقيد القشرة المخية، ومن ثم يعتبرون أن العقل نشاط مباشر للمخ يقوم به كما تقوم الكُلى بإفراز البول وكما يفرز الكبد الصفراء!

وفى هذا الفصل نُقَوِّم كلا المنظورين، الدينى والمادى، لنصل إلى الحقيقة، من خلال الإجابة عن ثلاثة تساؤلات:

١ - هل الفوارق بين النشاطات العقلية للإنسان وباقى الكائنات (خاصة الرئيسيات) فوارق كَمِّية فقط، أم أنها فوارق كيفية نوعية؟

٢ - هل يستطيع التطور الداروينى أن يفسر بزوغ نشاطات الإنسان العقلية؟

٣ - هل تحتاج القدرات العقلية للإنسان إلى تصميم من مصدر ذكى حكيم؟

والآن إلى مناقشة هذه القضية الشائكة الشيقة.

---

(١) Max Moller: (١٨٢٣ - ١٩٠٠م) من أشهر علماء اللغويات فى القرن التاسع عشر، ألمانى المولد إنجليزى الجنسية. ويحدثنا موللر فى هذه المقولة عن إنسانية الإنسان التى تنطلق من عقله، والذى نرى خلال الفصل استحالة نشأته بالتطور - بخلاف الجسد - عن كائنات أدنى منه.

المـخ[1] والعقـل

اهتم العلم المعاصر فى ضوء نظرية التطور الداروينى بالبحث عن «التشابهات» الشديدة بين الإنسان وبين الحيوانات، خَلْقًا وخُلُقًا، وتوسّع فى التأكيد على هذه التشابهات، بينما أغفل «التناشزات» الجَمَّة بينهما، حتى صار يُنظر إلى الإنسان باعتباره حيوانًا!.

إن الإنسان ظاهرة غامضة، يقف العلم الحديث عاجزًا حيال معظم مفرداته الإنسانية التى نرصدها ملاحظةً وتجريبًا. إن كلًّا من التشابه والتباين الشديدين بين الإنسان وبين الحيوان له دلالته الهامة فى فهم حقيقة العقل الإنسانى. وتشهد الدراسات المتخصصة كل يوم بوجود أصول أخرى لـ «الظاهرة الإنسانية» غير الأصل الحيوانى، وفى نفس الوقت يعجز العلم المعاصر عن تحديد تلك الأصول.

---

(١) بم تتميز أمخاخنا؟: لعل كِبَر حجم المخ، خاصة الفص الأمامى، هى أهم السمات المميِّزة للإنسان والتى تمثل فرقًا كبيرًا بينه وبين أسلافه، وبينه وبين باقى الرئيسيات، فهل يرجع عقل الإنسان وإنجازاته الحضارية إلى حجم مخه الكبير؟

إذا جعلنا بدايتنا مع دارون ورفيقه هكسلى، نجدهما يؤكدان أن الفوارق بين الإنسان وباقى الرئيسيات إنما هى فوارق كَمِيَّة (أى المقدار) وليست نوعية.

وفى منتصف ستينيات القرن العشرين، عارَض رالف هولواى (أستاذ الأنثروبولوجيا الكبير بجامعة كولومبيا) هذا التبسيط المخل، وأرجع قدرات الإنسان العقلية المتميزة إلى إعادة تنظيم بنية المخ ووظائفه أكثر من مجرد زيادة الحجم. ويستشهد هولواى على قلة شأن حجم المخ بالنسبة للقدرات العقلية بأن وزن مخ الإنسان يبلغ قرابة ٢٪ من وزن جسمه، بينما يبلغ وزن مخ فأر الجيب Pocket Mouse ١٠٪ !

ولا يمكن دراسة القدرات العقلية دون الحديث عن القشرة المخية. وقد وجد المتخصصون أن الحجم النسبى (العلاقة بين حجم منطقة ما وحجم المخ) للقشرة المخية ولقشرة الفص الجبهى متساوٍ تقريبًا فى الإنسان وفى الرئيسيات. وتُرجع الكثير من الدراسات الحديثة تفوق الإنسان العقلى إلى تغير فى «بنية القشرة المخية» فى مقدمة الفص الجبهى Pre- Frontal Cortex (لهذه المنطقة دور مهم فى الجانب الواعى المنطقى من اتخاذ القرار، وتثبيط الاستجابات الشعورية اللا إرادية تجاه بعض المواقف). وتبلغ المساحة النسبية لهذه المنطقة فى مخ الإنسان ضعف مساحتها فى مخ الشمبانزى.

وتتكون هذه القشرة فى الثدييات السابقة للرئيسيات من منطقتين مسئولتين عن الجانب الانفعالى للكائن، بينما تزيد فى الرئيسيات بمنطقة ثالثة تُعرف بالمنطقة العاشرة.

كذلك تتميز هذه المنطقة الأمامية فى مخ الإنسان عن باقى أجزاء الفص الجبهى بوجود طبقة إضافية من الخلايا العصبية، تعرف باسم الطبقة الحُبيبية الداخلية الرابعة Internal Granular Layer IV، ويُرجع المتخصصون العديد من قدرات الإنسان العقلية إلى هذه الطبقة.

لماذا كبرت أمخاخ أسلافنا، وبقى مخ الشمبانزى على حجمه؟

مع بداية القرن الحادى والعشرين، وجد بروس لان وفريقه البحثى فى شيكاغو أن نسبة الجينات المسئولة عن تشكل المخ فى الإنسان أعلى من الشمبانزى. وأرجع الباحثون ذلك إلى أن السلف المشترك للإنسان والشمبانزى اعترت جينات تشكيل المخ فى بعض أفراده طفرات أكثر، أدت إلى ظهور أشباه الإنسان، بينما حدثت فى أفراد آخرين طفرات أقل، أدت إلى ظهور الشمبانزى.

ويؤكد هذا التصور أن عدد «الجينات الفاعلة» فى أعضاء جسم الإنسان والشمبانزى (كالكبد والكلى) متساوٍ، بينما عددها فى مخ الإنسان يبلغ ٣ ـ ٤ أضعاف عددها فى مخ الشمبانزى.

يمكننا أن نعتبر أن «التعقل» هو السمة الجامعة التى تميز الإنسان عما سواه من الكائنات. وإذا كان الماديون يعتبرون أن التعقل هو النشاطات العقلية التى تُمارَس عن طريق المخ، فإننى أوافقهم فى أن للمخ دورًا فى هذه النشاطات، وأضم إليها أيضًا المشاعر الروحية، بعد أن أثبت العلم الحديث دور المخ الرئيسى فى تذوق تلك المشاعر.

وإذا كان المخ جهازًا ماديًا يتكون من شبكات من الخلايا العصبية بالغة التعقيد والتفاعل[1]، تتعامل كلها بلغة واحدة وهى النبضة الكهروكيميائية، فهل يرجع النشاط العقلى وشعورنا بذواتنا (الواعى) إلى كهرباء وكيمياء المخ، التى هى فى النهاية أيونات صوديوم وبوتاسيوم فى حركة دائبة عبر جدار الخلية العصبية؟! كيف تُمَكِننا حركة هذه الأيونات من أن نبنى الحضارة المعاصرة بما فيها من إنجازات علمية وإبداعات فنية هائلة، بل كيف تُمَكِننا حركة هذه الأيونات من أن ندرك «المفاهيم المجردة Concepts»، مثل قولنا «إن الإنسان هو ذلك الكائن السامى الباحث عن المَعنَى، المُحِب للجمال، المنبهر بالمجهول، والمتطلع إلى الحق والحقيقة والخير والعدل»؟!

إن الفرق بين المخ والعقل كالفرق بين نُطق الكلمة ومعنى الكلمة. فالنطق آليه من عالم الطبيعة المادية، إنه عبارة عن صوت مستمر تُخرجه الحنجرة على هيئة ذبذبات واهتزازات فى الهواء، ثم يُحدِث الحلق واللسان والشفتان تَقَطُّعات فى هذا الصوت لتُشَكِّله على هيئة حروف وكلمات، إن الأمر كله فيزياء، هذا هو نطق الكلمات. أما المعنى فهو شىء آخر، فقد يكون تعبيرًا عن الحب أو إعلانًا للحرب أو أى مفهوم آخر، إن معنى الكلمات شىء خارج عن هذه الآليات المادية وعن تركيب الكون المادى.

بالعقل صرنا بشرًا...

عندما يقارن الدراونة بين العمليات العقلية التى يمارسها الإنسان وتلك التى تمارسها باقى الرئيسيات، يخرجون علينا بأن بين هذه العمليات وتلك فوارق كَمِّية (فى حدود قدرة التطور الداروينى) وليس فوارق نوعية (تفوق قدرة التطور الداروينى، ومن ثَمَّ تصبح دليلًا مباشرًا على التصميم الذكى الذى يحتاج لإله خالق)، فهل هذا الادعاء صحيح[2]؟

(١) يتكون المخ من مائة مليار خلية، يربط بينها مليارات المليارات من الوصلات!

(٢) كمثال لتقريب المقصود بالسؤال نقول: إن السلحفاة تتحرك والإنسان يتحرك والنسر يتحرك، إذًا فالثلاثة تجمعهم عملية (نشاط) الحركة. ولا شك أن بين حركة النسر وحركة الإنسان والسلحفاة فوارق نوعية؛ فالأول يطير والآخران يمشيان، بينما الفرق بين حركة الإنسان و حركة السلحفاة فارق كمى؛ فالإنسان أسرع.

من أجل الإجابة عن هذا السؤال سنطرح - عبر باقى الفصل - أهم العمليات العقلية التى يمارسها الإنسان، ونرى إذا كانت الرئيسيات تمارس مثلها. فإن كانت العملية العقلية مستجدة تمامًا فى الإنسان فلن يكون هناك مجال لطرح السؤال، وإن كانت الرئيسيات تمارس بعض هذه العمليات، فهنا يمكن السؤال عما إذا كانت هناك فوارق بين ممارستهما؟ وهل الفوارق نوعية أم كمية؟

يحدثنا المتخصصون عن «نظرية العقل» باعتبارها تعبر عن النشاط العقلى للإنسان وتَمَيُّزه عن أقرب الرئيسيات إليه وهو الشمبانزى، ويقف وراء هذا النشاط ملكات عقلية عديدة، تنطلق من أن الذات الإنسانية ذات واعية، فبغياب الوعى تتعطل قدرات العقل الإنسانى. لذلك نتعرض فى طرحنا التالى لنظرية العقل، ويتلوها معضلة الوعى، ثم نعرض أهم الملكات العقلية للإنسان. بعد ذلك نناقش ثلاثة من أخَص النشاطات العقلية التى يمارسها الإنسان، والتى تُظهر بشكل جلى الفرق بيننا وبين من دوننا من الكائنات، وتلك النشاطات هى اللغة، وتذوق الجمال، والقدرة على التسامى الروحى.

نظرية العقل Theory Of Mind

هناك شبه اتفاق بين علماء النفس والتربويين على أن «**نظرية العقل**[1]» (**القدرة على تصور ما يدور فى عقل الآخر**) تُعتبر الفرق العقلى الجوهرى بين الإنسان وغيره من الكائنات.

وهناك اتفاق بين المتخصصين على أن معظم الحيوانات (خاصة العليا منها) تشارك أطفالنا الصغار فى أنها تدرك ما يدور فى عقولها، ويُعرف هذا فى فلسفة العقل بـ «**المستوى الأول من الإدراك (الانتباه)** First Order Intentionality». وحول سن الرابعة يبدأ أطفالنا الصغار فى إدراك بعض ما فى عقول الآخرين، وهو ما لا تقدر عليه باقى الرئيسيات، ويمكن تسمية ذلك «**المستوى الثانى من الإدراك**». فتبدأ الطفلة فى وضع سيناريوهات تخيلية تفكر فيها بعقلية الآخر، فتدعى أن عروستها قادرة على شرب فنجان الشاى، فتقدمه لها وإن كان فارغًا. وعندما يخبرنا أطفالنا بشىء غير حقيقى (يكذبون) يكون فى داخلهم شعور بأن الآخر قد لا يصدقهم، لقد انتبهوا إلى أن للآخر عقلًا يقبل ويرفض[2].

وبعد وصول الإنسان سن البلوغ، يمكن أن تمتد به القدرة على الإدراك إلى **سبعة مستويات متصاعدة**، يدرك فيها أن الآخر يدرك ما يفكر فيه شخص ثالث، وأن هذا الثالث يدرك ما

---

(١) الأصح أن تُسمى «نظرة حول العقل».

(٢) يعتقد روبن دنبر Robin Dunbar (رئيس مركز أبحاث علم النفس التطورى والسلوك البيئى بجامعة ليفربول ببريطانيا) أن الشمبانزى قادر على بعض ممارسات المستوى الثانى من الإدراك (كأن يعرف أن الذكر الآخر يريد أن يهاجمه)، لذلك يعتبر البعض أن قدرات الشمبانزى العقلية فى مستوى عقل طفل فى الرابعة من عمره. ولا شك أن فى هذا القول كثيرًا من التجاوز، فكل الكائنات مهما كانت بدائية يمكنها أن تستشعر تهديد الآخر.

يفكر فيه شخص رابع، وهكذا[1]. ويعتقد الباحثون أن الإنسان ذا القدرات العقلية المتوسطة يستطيع أن يدرك حتى المستوى الخامس، بعدها، يفقد القدرة على التسلسل مع مدركات الآخرين العقلية تجاه قضية ما.

وإذا تأملنا برهان القِرَدَة الذى يستشهد به الدراونة على إمكانية بزوغ الحياة عشوائيًّا، فيدَّعون أن عشرة من القردة لو جلست لبلايين السنين تدق على حروف آلة كاتبة، فإن إحا ١٠ا تستطيع (بلا شك) كتابة مسرحية عطيل!، وإذا افترضنا أن هذا المستحيل قد وقع، فلن يكون ذلك إلا حادث عشوائى لايصل إلى المستوى الأول من الإدراك، فالقردة لا تدرك ما تفعل!.

معضلة الوعى

يشعر كل منا أن هناك ذاتًا تمثله شخصيًّا، تقبع داخل جمجمته وتنظر إلى العالم، وكأن هناك قزمًا صغيرًا يتربع فى أدمغتنا ويرصد الوجود من حولنا. ولا شك أن هذا القزم سيحتاج إلى قزم أصغر يقبع داخل دماغه ليرصد له الوجود، وهذا القزم سيحتاج لقزم ثالث، وهكذا...!

إن الوعى هو القدرة على التأمل فيما حولنا وفيما بداخلنا. إنه يقف وراء الأحاسيس والأفكار والمشاعر والرغبات والمعتقدات وحرية الاختيار؛ إنه ما يجعلنا نشعر بأننا أحياء.

إن الوعى ببساطة هو الفرق بين الإنسان المستيقظ والإنسان النائم. عندما تستيقظ من النوم، ألا تشعر أنك كنت غائبًا أو معدومًا، ثم بدأت تدرك ما حولك: تتعرف على من يوقظك، أين أنت، فيم كنت تفكر قبل النوم، الالتزامات التى عليك القيام بها هذا الصباح. لقد عدت إلى مسرح الحياة، لقد أصبحت واعيًا.

ويمكن تشبيه الوعى بالتيار الكهربائى الذى لا يعمل الكمبيوتر إلا به؛ إذ تتلاشى قدرات الكمبيوتر إذا تم فصل التيار الكهربائى عنه.

---

(١) لنتأمل مثالًا مع «عطيل» شكسبير: تصور شكسبير وهو جالس يكتب مسرحيته «عطيل». إنه يريد أن يقنع مشاهدى مسرحيته أن «الشرير إياجو يريد» أن يجعل غريمه «عطيل يقتنع» أن زوجته «ديدمونة تحب» شخصًا آخر. ومن أجل الحبكة الدرامية، أضاف شكسبير شخصية كاسيو، الذى يدعى إياجو أن ديدمونة تحبه، ومن أجل استكمال الحبكة، صور إياجو بخبثه لعطيل أن «كاسيو يبادل ديدمونة حبًا بحب، وأنهما ينويان الهرب سويًّا»، وهذا ما دفع عطيل لقتل حبيبته وزوجته المحبة ديدمونة.
حتى الآن نحن أمام أربع حالات عقلية تخص أربع شخصيات (إياجو ـ عطيل ـ ديدمونه ـ كاسيو). نضيف إليها عقليتين أخريين؛ إنهما عقلية «شكسبير الذى يريد» أن «يقنع عقلية المشاهد» بالحبكة الدرامية، وإلا لسقطت المسرحية.
إن شكسبير يتعامل مع المستوى السادس من الإدراك. «فهو يريد» أن يجعل «المشاهد يصدق» أن «إياجو أراد» أن يجعل «عطيل يصدق» أن «ديدمونة أحبت كاسيو» وأن «كاسيو قد أحب ديدمونة».
لقد نجح شكسبير بجدارة فى أن يدفع المشاهد إلى أعلى قدر من الإدراك يستطيع أن يمارسه (المستوى الخامس ـ بعد استبعاد إرادة شكسبير)، لذلك فقد استحق أن ينال ما نال من مجد وشهرة.

المعضلة الكبرى التى تواجه العلماء والفلاسفة هى؛ **كيف ننتقل من نظام كهروكيميائى كالذى يمارس به المخ نشاطاته، إلى استشعارنا الذهنى غير المادى بذواتنا وبما حولنا؟** كيف يترجم الدماغ موجات ذات أطوال معينة تسقط على شبكية العين إلى الوعى باللون الأزرق مثلًا؟...

يُبَسِّط الماديون الأمر ليحتفظوا به داخل الإطار المادى، فيدعون أن ازدياد التعقيد فى بنية المخ قد أدى إلى انبثاق وعينا بذواتنا وبما حولنا[1].إن هؤلاء يُشْبهون مَن يبحث فى إجراء تعديل تكنولوجى يُمَكِّن جهاز تشغيل الـD.V.D من أن يصبح «واعيًا» و«مستمتعًا» بما يذيع من موسيقى؟!

الفلسفة تُدْلى بدلوها

لا شك أن ظاهرة العقل الواعى تجد الإجابة عنها فى سلاسة ويُسر فى الديانات، وتتمثل فى كلمة واحدة هى «الروح». ولكن هل تتفق الفلسفة والعلم مع الدين فى وجود مثل هذا الجوهر غير المادى للإنسان؟

يخبرنا الفيلسوف «دافيد شالمرز David Chalmers»[2] أنه قد تصدى لهذه القضية اتجاهان رئيسيان: الاتجاه المادى الفيزيائى الذى يعتبر أن الوعى ظاهرة مادية من نَتَاج المخ، وأن كهرباء وكيمياء المخ يمكن أن يُفَسِّرا عمليات التعقل وما يمارسه الإنسان من وعى ومشاعر وأفكار مجردة، ومن ثم فليس هناك شىء آخر خارج المخ.

أما الاتجاه اللامادى، فيرى أن الوعى وباقى عمليات التعقل غير فيزيائية غير مادية، وإن كانت على اتصال بالظواهر الفيزيائية. ويرى هذا الاتجاه أن هناك عقلًا مسئولًا عن هذه الظواهر يختلف تمام الاختلاف عن المخ، فالمخ ينتمى إلى عالم المادة، بينما ينتمى العقل إلى عالم غير مادى لا ندرك حقيقته. وبالرغم من أنه من «الشكاكين» فإن شالمرز يرفض الاتجاه المادى الفيزيائى.

وقد أخذ بعض كبار العلماء يتحدثون عن العجز الكامل للنشاط الكهروكيميائى لخلايا المخ عن تفسير العقل الإنسانى. ومن ثَمَّ يطالبون بتوسيع تصوراتنا العلمية، لتشتمل على نوع

(١) ناقشنا مفهوم «الانبثاق» فى الفصل الثانى.

(٢) أستاذ الفلسفة الشهير ومدير مركز أبحاث العقل فى أستراليا، فى بحث قيم بعنوان: الوعى ومكانته فى الطبيعة «consciousness and its place in nature»، نُشر لأول مرة فى كتاب فلسفة العقل (عام ٢٠٠٢) Phylosophy of mind. classical and contemporary readings

من «المجالات فوق المادية **Supernatural Fields**»، تكون هى المسئولة عن العقل. لذلك يؤكد فرانكلين هارولد أن «الفكر المادى الطبيعى **Naturalism**» قد فشل فى تفسير أو فهم الظواهر الثلاث الكلية، وهى: الكون ـ الحياة ـ العقل، ويرى أنه ينبغى النظر إلى هذه الظواهر باعتبارها ظواهر فوقية Epiphenomena.[١]

الإدراك ـ الفهم ـ التفكير

عندما كنت طالبًا فى المرحلة الثانوية، سَألَنا مدرس الفيزياء ذات يوم:

إذا سقطت شجرة فى غابة ليس فيها إنسان ولا حيوان، هل تُصدِر الشجرة صوتًا؟! وبعد أن احترنا فى إجابة هذا السؤال المخادع، أجابنا قائلًا: لا، لن تصدر الشجرة إلا موجات، أمّا إدراك هذه الموجات كأصوات، فيحتاج إلى أمخاخنا، ففيها المراكز التى تُحَوِّل الموجات إلى أصوات وإلى صور وإلى روائح وهكذا. وقد أُعجب المدرس بذكائى حين عَلَّقت على إجابته قائلًا: إذا لم يكن هناك إنسان ولا حيوان يُدرِك وجود الموجات كغابة فلن تكون هناك غابة!

ونكرر هنا ما ذكرناه عند حديثنا عن البرهان الحسى فى الفصل الثانى، من أن المخ البشرى تطرقه قرابة ٤٠٠ مليار معلومة فى الثانية الواحدة، ولا يتعامل إلا مع ألفى معلومة منها فقط!. كذلك فإن العين البشرية تدرك ما يعادل ١,٥ متر من أطوال الموجات الكهرومغناطيسية الموجودة فى الأرض إذا مثلناها بخط طوله ١٥٠ مليون كيلو متر! ما أشد محدودية قدرة المخ البشرى على إدراك ما حولنا.

لا شك أن وظيفة «الإدراك» التى يقوم بها المخ ليست قاصرة على الإنسان، لكنها تحدث فى معظم الحيوانات. أما خصوصية المخ البشرى فتتجلى فيما يعقب الإدراك من فهم وتفكير.

الفهـم

بالرغم من المقدار بالغ الضآلة الذى يدركه المخ مما يطرقه من معلومات، وبالرغم من عِظَم المُشتِتات حولنا، يقوم المخ بتكوين تصور متناسق للعالم المحيط بنا[٢]. ومن أجل الوصول إلى

(١) كتاب «مسار الخلية ـ The way of the cell» (نشر عام ٢٠٠٣) تأليف «فرانكلين هارولد ـ Franklin Harold»، أستاذ الكيمياء الحيوية والبيولوجيا الجزيئية بجامعة كلورادو.

(٢) لتصور مدى صعوبة هذه المهمة تأمل هذه المقارنة الطريفة: إذا نَظَرَت طفلة إلى قطة بيضاء ذات بقع برتقالية، ثم عُرِضَت عليها وسادة بيضاء بها بقع برتقالية، وكلب أسود، فإن الطفلة ستدرك أن الكلب أقرب إلى القطة، بينما سيُرَجِّح الكمبيوتر أن الوسادة أقرب إلى القطة لتشابه ألوانهما!. كيف فهم مخ الطفلة العلاقة بين القط والكلب متجاوزًا التشابه اللونى الظاهر بين القط والوسادة؟!

هذا التصور، زُوِّدَ المخ بعدد من «الآليات» الفطرية (الغريزية) التى تعمل فى تجانس تام من أجل أن نظل الكائن الواعى المدرك، الذى يفهم ويحلل ويُؤَوِّل العالم من حوله(١).

التفكير

تؤدى بعض الكائنات أنشطتها بدقة كبيرة، تبدو منها أنها «تفكر»، فهل هى تفكر بالفعل؟

للإجابة عن هذا السؤال ينبغى أن نُعَرِّف التفكير. ربما كان من أفضل تعريفاته أنه «قدرة المخ على التعامل مع الرموز (بشكل مفتوح) مع الالتزام بالقواعد»، ولكن ما معنى (بشكل مفتوح)؟ فلنجب بمثال؛ يلتزم العنكبوت عند نسج شباكه بقانون توتر الأوتار المشدودة(٢)، لكن هل يعرف العنكبوت هذا القانون؟! إن مخ العنكبوت لا يعرف القانون أصلًا، لكنه يلتزم بتطبيقه بخطوات عملية ثابتة عند نسج شباكه، ولا يستطيع أن يستخدمه فى أغراض

(١) من أهم هذه الآليات «آلية التجميع»، التى تمكننا من النظر إلى العديد من الأشجار ومجارى المياه والحيوانات كغابة واحدة. وفى المقابل، تمكننا «آلية التفكيك» من اختزال الموجودات إلى أبسط عناصرها، فبها نرى النظام البيئى الواحد المتكامل (كالطبيعة) كمجموعة من المنظومات البيئية المتعددة (مناخ ـ نباتات ـ مرتفعات...). ومن تلاقى التجميع والتفكيك تنطلق المفاهيم العامة، فنرى الذئاب والثعالب والكلاب كمجموعة واحدة أسميناها «ذوات الأنياب»، وتقوم بهذه المهمة «آلية التجريد». وقد مكنتنا هذه الآلية أن نتعامل أيضًا مع المفاهيم المجردة (التى تتجاوز الحواس الخمس) وأن نضع النظريات العلمية والأفكار الفلسفية والأيديولوجيات السياسية، وأن نفهم العقائد الدينية.
وهناك «آلية التوليد»، القادرة على إنشاء عدد غير محدود من التعابير من رموز محدودة؛ ككتابة الكلمات من الحروف، وتسلسل النغمات فى القطع الموسيقية.
وتقوم «آلية الكم» بتوجيه تعاملنا مع الكِميَّات (الوقت ـ المسافة ـ الأوزان...) فى حياتنا اليومية، حتى صار «تكميم العلم» (أن يُقاس كميًّا) هو هدف كل العلوم، فما نضجت الفيزياء والكيمياء إلا بعد أن تم تكميمها، وإلى هذا يصبو علم البيولوجيا، وبهذا يحلم المتخصصون فى العلوم الإنسانية.
ومن أجل تعميق فهمنا للأشياء، تقوم أمخاخُنا بوضعها فى وجودين متضادين؛ أعلى وفى مقابله أسفل ـ داخل وخارج ـ سالب وموجب ـ عالَم الغيب وعالَم الشهادة، وتقوم بتلك المهمة «آلية الشِّق الثنائى».
إن ما مضى من آليات الفهم لم يكن لها أن تعمل لولا «آلية الترميز» التى أعطت كل شىء اسمًا، وأعطت كل نغمة موسيقية علامة. إن هذه الرموز قد مكنتنا من أن نحتفظ بمعارفنا وأن نتبادلها وأن نُوَرِّثها للأجيال التالية. بل إن الرموز قد مكنتنا من أن نفكر!.
وبعد ذلك، فإن ما فى عقولنا من معارف ومعلومات ما كان له أن يخرج إلى الوجود إلا «بآلية الإيجاد»، التى تحولها إلى وجود حسى أو مادى، فبها يحول المهندس أفكاره إلى بنايات وأجهزة.
وإذا كانت الآليات السابقة تمدنا بالقدرة على تحليل وفهم الوجود من حولنا، فإنها لا تمدنا بالدافع النفسى لفعل الشىء أو تركه، إذ يحتاج ذلك إلى المشاعر؛ كالخوف من شىء، والتعلق بشىء، ويحتاج ذلك كله إلى «آلية الانفعال»، التى لولاها لما صرتَ الكائن الذى هو أنت.

(٢) Tension of stretched strings Law = Hook's Law

أخرى. هذا بخلاف الإنسان، فالمهندس يدرس قانونًا ما فى علم الفيزياء، ويستطيع تطبيقه فى استخدامات لا حصر لها (وهذا معنى بشكل مفتوح)، وهذا من أهم نشاطات التفكير. وربما تلاحظ أن معظم المعارف الإنسانية تقع بين هذين الطرفين؛ الإدراك العنكبوتى المحدود، والفهم المجرد القابل للتطبيق المتعدد المفتوح.

وإذا كان المخ الواعى يقوم بوظيفتين عقليتين فى تتابع متلاحق؛ إدراك ما حولنا، ثم فهم ما نُدرك، فإن هذه الأنشطة الثلاثة المتتابعة (الوعى ـ الإدراك ـ الفهم) هى أعمدة عملية التفكير التى هى أهم خصوصيات الذكاء الإنسانى. هل ما زال أحد يعتقد أن هذه العمليات العقلية عمليات عشوائية؟!

حرية الإرادة والقدرة على الاختيار

من الغريب أن بعض المدارس الدينية والفلسفية تَدَّعى أن الإنسان مُجْبَر فى جميع تصرفاته. وهى بذلك تتفق مع بعض البيولوجيين الذين يرون أن هناك حتمية بيولوجية، أى أن السلوك الإنسانى تفرضه جيناتنا، وتتفق كذلك مع المدرسة التربوية التى ترى أن السلوك محصلة لأسلوب التربية والتنشئة، وفى النهاية يرى كل هؤلاء ألا إرادة للإنسان ولا حرية اختيار.

إن قضية «هل الإنسان مُسَيَّر أم مُخَيَّر» التى شغلت الفكر البشرى كثيرًا ـ وما زالت ـ ما كان ينبغى لها أن تُطرح! فسلوكنا اليومى تجاه ما يمر بنا من مواقف خير شاهد على حرية الإرادة؛ فأنت ببساطة تستطيع أن تستكمل قراءة هذا الفصل من الكتاب أو أن تغلقه، لذلك نعتبر أن حرية الاختيار هى إحدى أهم السمات المميزة للجنس البشرى. ولا شك أن نفى الاختيار يعنى أن كل الديانات هُراء، فهى تقوم على الثواب والعقاب تبعًا لاختياراتنا الحرة، لذلك حرص الإسلام على تأكيد حرية الإرادة الإنسانية(١).

ويمكن تعريف حرية الإرادة بأنها قدرة الإنسان على الاختيار بوعى بين بدائل، فى الوقت الذى يمكنه فيه أن يقوم باختيار آخر(٢).

---

(١) يخبرنا القرآن الكريم: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس].
﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان]. ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد].
﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ... ۝٢٩﴾ [الكهف].
(٢) انطلاقًا من قناعة علم النفس بإرادة الإنسان الحرة، يشترط القانون الجنائى لإدانة متهم بارتكاب جريمة ما توافر أربعة شروط: أن يكون قادرًا على تخيل بدائل أخرى للفعل المطروح، وأن يكون قادرًا على الامتناع عن الفعل، وأن يكون واعيًا بنتائج فعله على المدى القريب والبعيد، وأخيرًا أن يكون راغبًا فى النتائج التى ينتج عنها الفعل. هل هناك تأكيد لأهمية حرية الإرادة أكثر من ذلك؟!

فإذا كنت سائرًا فى أحد طرق مدينتك فى إحدى ليالى الشتاء، وفجأة هطلت الأمطار الغزيرة، فلا شك أنك ـ إن لم تكن راكبًا سيارتك أو حاملًا مظلة المطر ـ ستهرول إلى أقرب مبنى للاحتماء من هذه السيول. إن فعلك هذا نتيجة طبيعية لمقدمات الحدث، حتى إن القطط فى الطريق ستجرى أيضًا لتحتمى من الأمطار تحت أقرب سيارة. أما إذا آثرت ـ بالرغم من هذه الظروف ـ إن تظل واقفًا تحت المطر، على عكس ما تفرضه المقدمات، فأنت هنا تكون قد مارست نوعًا من حرية الاختيار الذى لا تحكمه المقدمات.

كذلك نجد أفرادًا يُقْدمون «بإرادتهم» على التضحية بحياتهم من أجل الآخرين، كما يحدث فى المعارك العسكرية أو أثناء الأوبئة الفتاكة. قد تقول إن هؤلاء يُقْدِمون على مثل هذا السلوك طلبًا للاستشهاد فى سبيل الله ﷻ، فيدخلون الجنة، أى أن إيمانهم قد دفعهم لذلك. لكننا نجد من هؤلاء من لا يكون على دين، قد يقول الملحد ربما يكون إيمانهم بالمُثل العليا ـ كالإيثار ـ هو الذى دفعهم لهذا الفعل. حتى وإن اتفقنا معه فى هذا التفسير، فلا شك أن قرار هؤلاء عندما اختاروا الموت (الذى يعنى الفناء بالنسبة لهم) من أجل الآخرين قد تغلب على حب البقاء (الذى هو أقوى غرائز الإنسان)، وبذلك يكونون قد مارسوا قدرًا هائلًا من حرية الاختيار[1].

كائن خيالى يتنقل عبر الزمن

هناك كائن واحد لديه القدرة على تصور البدائل، وتوقع الأفضل والأسوأ، وتقدير النتائج مُسبقًا والتخطيط لتحقيق أفضلها، وهذا الكائن هو الإنسان القادر على انتزاع نفسه من الواقع وطَرْح التساؤل: كيف يبدو الحال لو كان الأمر على غير ما هو عليه الآن؟. إن ذلك يتطلب أن يكون الإنسان قادرًا على تصور عالم خيالى، وقد تمكن الإنسان بذلك من بناء الحضارات وتحقيق التقدم التكنولوجى والعلمى والفكرى.

ويقف هذا الخيال وراء العلم والأدب والفلسفة والدين. فالعلم يقوم على التساؤل؛ لماذا صار العالم على ما هو عليه الآن، بينما كان يمكن أن يكون غير ذلك؟ إن العلم يقوم على البحث عن إجابة لهذه الـ «لماذا؟». كذلك يقوم الإبداع الأدبى على تصور أحداث خارج حياتنا اليومية، سواء كانت من نفس نمط هذه الحياة أو كانت حياة افتراضية مختلفة. كذلك فإن القدرة على تصور عالم مختلف تمكننا من وضع التصورات حول عالم روحى متسام، وحول وجودنا قبل

(١) لا شك أن وجود خُلُق الإيثار فى النفس البشرية من المعضلات التى تُعجز الملاحدة وسنتناولها فى الفصل القادم.

النشأة الإنسانية وحياتنا بعد الموت؛ إن هذه القدرة تعين على الإجابة عن الأسئلة الوجودية المحورية التى شغلت الفلسفة ونزلت الديانات لتجيب عنها.

الانتقال العقلى عبر الزمن Mental time travel

وترتبط بكون الإنسان كائنًا خياليًا مَلَكة أخرى مهمة، وهى «الانتقال العقلى عبر الزمن»، وتعنى القدرة العقلية على استرجاع أحداث مضت، وكذلك تصور ما يمكن أن يحدث فى المستقبل. وقد ثبت أن هذه الملكة ـ مثل الخيال ـ صفة إنسانية لا تتمتع بها الحيوانات.

ويرى ناعوم تشومسكى أن الانتقال العقلى عبر الزمن عنصر أساسى فى نشأة واستخدام اللغة، فالإنسان يتنقل أثناء استعماله للغة بين أزمانها، التى تبلغ حوالى ثلاثين زمنًا فى اللغة الإنجليزية. وللانتقال العقلى عبر الزمن دور فى العقائد الدينية، فهو يسمح لنا بالتنقل لبناء التصورات العقائدية المختلفة؛ عن نشأة الكون، وماذا كان قبل الميلاد، وما يكون بعد الموت.

الإيمان «بالسببية»

لا يحتمل الإنسان أن يقف عاجزًا كالأبله تجاه الأحداث الهامة التى تمر به فى حياته؛ كالموت والمرض، بل وتجاه كل ما يقع حوله، كهبوب الرياح وسقوط المطر واشتعال النار وخمودها. لذلك كان الإيمان بأن وراء كل حدث سببًا أمر ضرورى من أجل تفسير الأحداث، جليلها وبسيطها، لإشباع نهم الإنسان العقلى، وليصبح للعالم من حولنا معنى. كذلك أصبح الإيمان بالسببية الدافع الأكبر للبحث عن السبب الأول وراء الوجود، وهو ما يعرف «بدليل الإيجاد» أو «البرهان الكونى» الذى نستشهد به على وجود الإله.

ويعتبر علماء النفس أن الإيمان بالسببية مرحلة أساسية فى نشأة الأطفال وتشكيل سلوكهم. فالرغبة فى تفسير الأحداث (وهو ما يُعرف بالغريزة التفسيرية Explanatory Drive) تقع فى محور البنية النفسية للأطفال، كغريزة الاغتذاء تمامًا، فيظهر شغفهم لأن يفهموا ما يدور حولهم خلال الأشهر الأولى من حياتهم. وإذا كان الأطفال يدركون غريزيًا (جينيًا) أن الأشياء تحكمها علاقات سببية، فبالتعلم يدركون أيضًا أن الأشياء تسلك لتحقيق هدف.

حب الاستطلاع والبحث

إن البحث فى الوسط المحيط ليس سمة قاصرة على الإنسان، فكل الكائنات تبحث. النباتات تبحث عن الضوء، والحيوانات تبحث عن الغذاء، والميكروبات يبحث بعضها عن

الضوء والبعض الآخر عن الأوكسجين، وكلها تتحرك بعيدًا عن العوامل الضارة. ومع ذلك اقترح بعض البيولوجيين تسمية الإنسان بـ«الإنسان الباحث Homo quaevens» قياسًا على اسمه البيولوجى الحالى «الإنسان العاقل». فبماذا نحن متميزون فى البحث عن باقى الكائنات؟.

إن الفرق بين بحث الإنسان ومَنْ سواه من الكائنات الحية فرق شاسع؛ فبحث الإنسان ليس بدافع الضرورة والفائدة المباشرة (كباقى الكائنات)، ولكن من باب حب الاستطلاع والشغف بالمعرفة وغريزة الإيمان بالسببية[1].

وفى دراسة شيقة قام بها عام ٢٠٠٦ فريق من الباحثين فى جامعة لندن، وجدوا أن مناطق معينة تتنشط فى المخ عند اتخاذ قرارات المخاطرة والمغامرة، بينما تتنشط مناطق أخرى عند اتخاذ القرارات المحافظة. وقد وجدوا أن مناطق المخاطرة مقارنة بمناطق الالتزام أكبر فى مخ الإنسان عما سواه من الرئيسيات. وذلك يفسر لماذا يُفَضِّل الإنسان جمع معلومات جديدة (استكشاف) على الاكتفاء والالتزام بما عنده من معلومات تكفل له السلامة[2]؟

السلوك الاجتماعى الإنسانى

إذا كان العقل البشرى قد جعل الإنسان أكثر الكائنات ذكاءً، بكل ما ترتب على ذلك من مهارات عقلية، فلا شك أنه قد أمده بصفة أخرى لا تقل أهمية، وهو أنه أكثر الكائنات اهتمامًا بالسلوك الاجتماعى.

ويعترض أندرو ويتن[3] (أستاذ علم النفس التطورى ببريطانيا) على الذين يعتبرون أن أممًا كالنحل والنمل أكثر اجتماعية منا نحن البشر، مستدلين على ذلك بأن تجمعاتها أكثر عددًا، وأن كثافة مجتمعاتها أعلى وتعاملاتها ألصق، وأن توزيع المسئوليات بينها أكثر صرامة. ويعتبر أندرو ويتن أن أهم سمة للنشاط الاجتماعى الإنسانى هى «العمق»، ويُرجعه إلى ما يُطلق عليه

(١) ليست هناك فائدة عملية مباشرة لاستكشاف منابع النيل، أو إنزال رجل على القمر، أو... كذلك ما الذى دفع أسلافنا للخروج من أفريقيا إلى آسيا وأوروبا، منذ فترة تراوحت بين ١,٩ مليون - ١٠٠,٠٠٠ سنة. وما الذى دفعهم للارتحال من آسيا جنوبًا وعبور المحيط الهندى للوصول إلى أستراليا منذ حوالى ٥٠,٠٠٠ سنة. وما الذى دفع آخرين منذ ١٢,٠٠٠ - ١٦,٠٠٠ سنة لعبور سيبريا والوصول إلى آلاسكا ثم الأمريكتين. لماذا تَحَمَّل أسلافنا مخاطر تلك الهجرات؟.

(٢) من السلوكيات المهمة عند الأطفال، أنهم ينظرون بتركيز أكبر ولمدة أطول إلى الأشياء الجديدة، وبتكرار ذلك يعتادون هذا الجديد ويقل اهتمامهم به، فإذا حدث تَغَيُّر فى هذا الشىء عاد اهتمامهم به، وهذا ما يُسمى بتتالى الاعتياد والتجديد.

(٣) Andrew Whiten: أستاذ بجامعة St Andrews

اسم «العقل الاجتماعى العميق»، ويحدد سماته التى يختلف بها عن السلوك الاجتماعى لباقى الكائنات فى أربع نقاط:

١ - قراءة العقول: **Mind Reading**: تشير إلى فهم كيف يفكر الآخرون وفيما يعتقدون وماذا يريدون. وإذا كانت الحيوانات تتوقع تصرفات الحيوانات الأخرى، كالهجوم و ...، فهذه سمات سلوكية فطرية، أما الإنسان فيُعتَبر كائنًا عقلانيًّا أكثر منه سلوكى، لذلك يُطلَق على فهمنا لعقول الآخرين من البشر اصطلاح «نظرية العقل Theory of mind».

٢- الفوارق الحضارية: إذا كانت البيئة مسئولة عن بعض الفوارق السلوكية بين أفراد نفس النوع من الحيوانات[1]، فإن الفوارق الحضارية تشكل عقول البشر بشكل أعمق من ذلك بكثير. حتى إن بعض المتخصصين يصفون التأثيرات الحضارية بأنها (التأثير الوبائى Epidemic of Representation)، ويعنون بذلك أن التأثيرات الحضارية والثقافية تنتقل (ثم تتكاثر) من عقل لآخر فى البيئة الواحدة، ويتم تحليلها واستيعابها ضمن مفاهيم المُستقبِل. لا شك أن تلك سمة فريدة للإنسان.

٣- اللغة والتواصل: لا شك أن اللغة وسيلة مُثلى للتواصل، وتسمح بنقل ما فى عقولنا للآخرين (النوايا - الأفكار - المعلومات)، وبالإضافة لذلك فهى الأداة لتحقيق العنصرين السابقين (قراءة العقول والفوارق الحضارية). ومن خلال هذه الجوانب، تجعل اللغة للعقل الاجتماعى البشرى عمقًا لا مثيل له فى باقى الكائنات.

٤- التعاون: تمارس المجتمعات البشرية نوعين من التعاون :

(أ) المساواة الاجتماعية التى ظلت سائدة حتى ظهر النظام الطبقى منذ حوالى عشرة آلاف سنة.

(ب) التنسيق من أجل توزيع المهام، وساعد على ذلك تبادل المعارف من خلال اللغة.

وإذا كان المثال الأوضح للسلوك الاجتماعى الغريزى هو مملكة النمل، التى يُنظَر إليها ككائن واحد ضخم، فكذلك يمكن اعتبار أن المجموعات البشرية تسلك ككائن واحد، لكل فرد فيها دوره (كما أن لكل عضو فى جسم الإنسان دوره) من أجل تحقيق أهداف المجموعة، لذلك فإننا نوصف ـ مثلًا ـ بأننا «الشعب المصرى». وبالرغم من ذلك يبقى الفرق الجوهرى بين الحيوانات وبين البشر هو الوعى العقلى العميق لكل إنسان بدوره فى خدمة الجماعة.

ابتكار الأدوات

لا شك أن تحديد النشأة الزمانية للملكات العقلية أمر بالغ الصعوبة، فليس لدينا حفريات للكلام تدلنا على توقيت نشأة اللغة، وكذلك غيرها من نشاطاتنا العقلية. وقد وجد الباحثون

(١) مثل استئناس بعض الحيوانات البرية، كالكلاب والقطط.

فى «حفريات الأدوات المصنوعة» ما يعينهم فى هذه المعضلة، فهى تكشف الكثير عن بزوغ القدرات العقلية.

إدراك السببية وابتكار الأدوات

فمثلًا، يستدل المتخصصون باستخدام الإنسان للأدوات على إدراكه للعلاقة السببية بين الأداة وبين الغرض الذى تُستخدم لأجله. ولا يدخل فى هذا الباب استخدام القردة العليا البدائى للأدوات، فليس لديها القدرة على استخدام الأداة لغرض آخر غير ما تعلمته، أو إعداد الأداة (كغصن شجرة) للاستخدام بشكل أفضل، أو استخدام أكثر من أداة لتحقيق الغرض.

كذلك لا تربط قردة الشمبانزى بين أفعالها وبين ما يحدث حولها، فمثلًا إذا كان هناك حجر تحت صندوق يجعله غير مستقر ويمنع قرد الشمبانزى من الوقوف فوقه، فإن الشمبانزى لا يفكر إطلاقًا فى إزاحة الحجر. ويمكن تجسيد الفرق بين نظرة الإنسان ونظرة الشمبانزى للسببية بمثال؛ فالشمبانزى الذى يجد الريح تهز فروع الأشجار فتُسقط الثمار، لن يتعلم أبدًا أن يهز بيده فرع الشجرة ليُسقِطَ الثمرة، كما يتعلم الإنسان.

وإذا كان أسلاف الإنسان قد انتصبوا على أقدامهم منذ قرابة أربعة ملايين سنة، فإن استخدام الأدوات فى الصيد والزراعة يرجع إلى ٢ ـ ٣ مليون سنة فقط. ويبدو أن مخ الإنسان قد احتاج لهذه الفترة لينمو ويتخصص ويكتسب القدرة على تصميم الأدوات وفهم الخواص الفيزيائية للمواد التى تتشكل منها[١].

ويستدل العلماء على إدراك أشباه الإنسان للسببية من استخدامهم لما يُعرف بـ«الأدوات المركبة» (التى تتكون من أكثر من قطعة) كصناعة قادوم من يد ورأس، وكذلك استخدامهم لـ«الأدوات الثانوية»؛ والتى تعنى استخدام أداة لصناعة أداة أخرى، كاستخدام حجر لتشكيل حجر آخر لاستخدامه كسكين. وذلك دون شك يختلف عن الأدوات الأولية التى تحتاج لفهم بدائى للسببية، كاستخدام الشمبانزى حجرًا ليكسر جوزة.

ولا شك أن هناك علاقة كبيرة بين إدراك السببية وظهور اللغة، فما كان للغة أن تنشأ ما لم يدرك الإنسان العلاقات بين الأشياء (السبب والنتيجة) وهذا ما سندرسه ببعض التفصيل بعد قليل.

---

(١) احتاج إتقان الإنسان للعمل اليدوى (بالإضافة إلى الزيادة فى حجم المخ) إلى تغيرات فى مراكزه الحسية والحركية، فزاد التواصل بين الفص الجبهى ومناطق الترابط والتحكم الحركى، حتى صارت هذه المناطق هى المتخصصة فى الإبداع الحركى خاصة فى حركات اليد.

الإدراك خارج الحس[1]:

يتمتع الإنسان بالقدرة على إدراك أشياء خارج قدرة حواسه الخمس، يخرق فيها حدود الزمان أو المكان! وليس لذلك من تفسير مادى. ومن هذه الظواهر:

١ - ظاهرة الرؤية المُسْبَقَة = ظاهرة الشعور بالألفة Deja Vu Phenomenon

إنها ظاهرة معروفة فى علم النفس، بل لقد عشناها كلنا أو معظمنا.

تعنى الرؤية المُسبَقة، أننا قد نَمُر فى حياتنا بموقف ما، ونشعر تجاهه بالألفة، وبأننا قد عايشنا هذا الموقف بملابساته وتفاصيله من قبل، وغالبًا ما نشعر أنه قد سبق واطَّلَعنا فى أحد أحلامنا على ما سوف يحدث من تفاصيل الموقف !!

لقد بَسَّطَ الماديون الأمر ليخرجوا من هذا المأزق، فعَلّلوه بأنه مجرد «تَوَهُّم Illusion» نشعر به فى لحظتها. كما فسر آخرون الظاهرة بأن أحد نصفى المخ قد أدرك الموقف قبل النصف الآخر بجزء ضئيل جدًّا من الثانية، وعندما أدرك النصف المُتأخر الموقف، شعر الإنسان بالأُلفة تجاه ما يجرى.

ولتقييم هذه التأويلات المادية يقوم البعض، ومنهم كاتب هذه السطور، بتدوين أحلامهم المُفَصَّلة، حتى إذا مر بهم موقف استشعروا فيه وجود «رؤية مُسْبَقة» رجعوا إلى ما دَوَّنُوه، وكثيرًا ما وجدت تطابقًا كاملًا بين هذه المواقف التى أعايشها وبين أحد الأحلام المُدَوَّنَة،إذًا فهى ليست توهمات.

٢ - ظاهرة الرؤيا الصادقة

ظاهرة أخرى لا شك أنها مرت بالكثيرين منا أيضًا، أسجل هنا أحد أمثلتها:

روت لى زوجتى أنها رأت فى أحد أحلامها أن الجزء الأيمن من مؤخرة رأس ابننا حليق، بعدها بيومين، كنت وزوجتى عائِدَين إلى المستشفى التى أعمل بها، فإذا بالأطباء يخيطون لابننا جرحًا أصابه فى رأسه، وقد حلقوا له هذا الجزء بالتحديد من فروة الرأس!. لا شك أن الحادثة تتجاوز فى تفاصيلها إمكانية الحدوث بالصدفة، كما يدعى الماديون.

ألا تثير هاتان الظاهرتان التساؤل حول كيف يُدرك المخ المادى أمرًا لم يحدث بعد، بتفاصيله! هل تستطيع النبضة الكهروكيميائية للخلايا العصبية اختراق الزمان إلى المستقبل؟!

٣ - ظاهرة التواصل عن بُعد Telepathy

قد تشعر الأم (أو أى إنسان) فى لحظة ما بقلق شديد وبأن قلبها قد انقبض تجاه ابنها المسافر عبر البحار، ثم تعرف فيما بعد أن حادثًا وقع لذلك الابن فى تلك اللحظة. ألم يحدث مَرَّة أن فكرت فى شخص معين، وبعدها ببرهة دق جرس الهاتف وإذا به يتحدث إليك؟ إن مثل تلك الحوادث أكثر من أن يحصيها عد، فما تفسير اختراق حاجز المكان واطلاع عقولنا على واقعة تحدث بعيدًا عنا؟.

---

(١) Extra-Sensony Perception

٤ – خبرات الذين اقتربوا من الموت Near Death Experiences

أظهَرت بعض الدراسات الموثَّقة حول هذا الموضوع أن إدراك الإنسان يستمر بعد خمود المخ عن العمل! ويمتد إدراكه إلى بعض المجالات الغيبية!

اشتملت إحدى أهم هذه الدراسات[(١)] على ٦٣ مريضًا أُصيبوا بنوبات قلبية شديدة أُعلن إثْرها وفاتهم إكلينيكيًّا، لكنهم تماثلوا للشفاء، وحكوا أمورًا عجيبة. ذكر البعض أنهم شعروا أنهم مفارقون لأجسادهم ويطوفون فوقها ويشاهدون الأطباء والممرضات وهم يتعاملون مع جسدهم المُسَجَّى، ثم إذا بهم يهبطون ليدخلوا مرة أخرى فى أجسادهم! وذكر بعضهم أنه شاهد نفقًا طويلًا مظلمًا وفى آخره دائرة من النور. وذكر أحدهم أنه رأى حذاءً رياضيًّا لونه أحمر مُلقى فوق سطح المستشفى، وقد ثبت صحة ذلك!

لقد ذكروا أمورًا شاهدوها وانطبعت فى ذاكرتهم، فى فترة اعتقد الأطباء فيها أن عمل المخ قد توقف!

هل تعنى خبرات الذين اقتربوا من الموت أن هناك ذاتًا مستقلة عن المخ، لها قدرات إدراكية عالية، وهى مصدر شعور الإنسان بذاته، وهى مصدر العقل، وأن هذه الذات تظل على وعيها عندما يكاد عمل المخ أن يتوقف.

إن كل ما يقدمه العلماء الماديون من تفسيرات لظواهر الإدراك خارج الحس لا يروى ظمأً[(٢)]، بل إن المنصفين منهم يُقِرُّون بعجزهم عن تفسير كيف تنبثق القدرات العقلية والشعور بالذات عن المخ المادى، فما بالك بالإدراك خارج الحس. لا شك أن هذه الظواهر التى يتم فيها خرق الزمان أو المكان تضع العلم المادى فى موقف حرج، فكيف تفسر النبضة الكهروكيميائية التى هى لغة المخ هذه الظواهر غير المادية التى حيرت العلماء والفلاسفة، ولا شك أن ذلك يدفعنا لأن نستدعى لها تفسيرات غير مادية غير تقليدية.

فى سياحتنا السابقة مع الملكات العقلية للإنسان اخترنا من السمات المعرفية والسلوكية ما يُظهر أن الفوارق العقلية بين الإنسان وباقى الكائنات فوارق نوعية وليست كَمية، ومن ثم يثبت استحالة أن تكون نشأة العقل عملية مادية عشوائية، بل تتطلب اللجوء إلى تفسيرات غيبية.

---

(١) نُشرت هذه الدراسة فى المجلة العلمية المحترمة Resuscitation. وقُدمت نتائج الدراسة عام ٢٠٠١، أمام اجتماع علماء المخ والأعصاب والرعاية المركزة فى The California Institute of Technology

(٢) يتحدث علماء الفيزياء الحديثة عن «ظاهرة التعالق Entangelment»، التى تعنى حدوث تبادل لحظى للطاقة بين المنظومات المرتبطة ببعضها. ويلجأ بعض الماديون لهذه الظاهرة لتفسير الظواهر فوق الحسية التى يتم فيها قطع المسافات الكبيرة، كالتواصل عن بعد، لكن تظل الظواهر التى يتم فيها اختراق الزمان خارج إطار التفسيرات الفيزيائية.

لقد أصبح الإنسان يتميز بطفرة معرفية «نوعية» عن باقى الكائنات. لقد صار إنسانًا عندما أصبح قادرًا على أن يصيغ معارفه على هيئة تساؤل منهجى:

«مَنْ» «فعل» «ماذا» «لمن»، و«متى» و«أين» و«لماذا»؟

who did what to whom; when,where and why?

ومن هذه السمات العامة للعمليات العقلية ننتقل إلى مناقشة ثلاث من أهم خصوصيات العقل البشرى، وهى اللغة وتذوق الجمال والتسامى.

وباللغة نبدأ...

العقل واللغة...

تمثل «اللغة» فرقًا جوهريًا بين الإنسان وغيره من الكائنات، فهى تضع داخل المخ مقابلًا للوجود، فتُمكن الإنسان من أن يكون له تاريخ وأن يعيش الحاضر وأن يخطط للمستقبل. كما تُعتبر اللغة وسيلة أساسية للتفكير خصوصًا فيما يتعلق بالمفاهيم المجردة، ذلك بالإضافة طبعًا إلى دورها كأهم وسائل الاتصال. ومن ثَمَّ، فإن تخلف لغة أمة ما عن مواكبة العصر يؤدى إلى تخلف مواز فى الفكر والحضارة.

وينبغى أن نميز بين مفهوم التواصل بصفة عامة وبين اللغة بصفة خاصة. إن التواصل هو نقل المعلومات عن طريق الكلام أو الكتابة أو الإشارات أو السلوك، و تستطيع الحيوانات التواصل مع أفراد جنسها بوسائل مختلفة، كرقصات النحل وروائح الحيوانات وغيرها... أما اللغة، فهى مهارة (أوفعل أو القدرة على) التعبير عن الأفكار والمشاعر والمدركات، وكذلك التواصل مع الآخرين عن طريق نطق أو كتابة الكلمات، أو عن طريق الإشارات.

نشأة اللغة:

احتاجت نشأة اللغة عند الإنسان إلى ثلاث ملكات[1]:

١ - الترميز: تسمية الأشياء والمفاهيم.

(١) خلال القرن العشرين، اهتمت دراسات «علوم اللغويات Linguistics» بجوانب الكلام الثلاثة؛ «الصوتيات أو إخراج الأصوات phonetics» و«معانى المفردات Semantic» و«تركيب العبارات أو بناء الجملة Syntax».

٢ - تحديد القواعد، التى تحكم بناء الجملة.

٣ - نشأة آلية إخراج الأصوات.

وسنناقش فيما يلى نشأة هذه الملكات:

تعتبر «القدرة على الترميز» أول المهارات التى تحتاجها اللغة وتميز الإنسان عن غيره من الكائنات، وبها يطلق الإنسان اسمًا على كل موجود أو مُدرَك، سواء كان ماديًّا أو غير مادى. وإذا كانت بعض الحيوانات تقوم بالترميز، فإن لرموزها علاقة مباشرة بما تشير إليه، فالتكشيرة على وجه القرد مثلًا تشير إلى الغضب. أما ترميز الإنسان المستخدَم فى اللغة فلا علاقة له (إلا نادرًا) بما يشير إليه من أشياء أو أفعال أو صفات، فما العلاقة مثلًا بين كلمة نار والنار الحقيقة، وبين صفة الكرم وكلمة كريم؟ ولكن كيف ومتى ربط الإنسان بين الرموز (الكلمات) والعالم الواقعى؟ لا ندرى.

أما «تركيب العبارات أو بناء الجمل»، فهو النمط الذى تتصل به الكلمات مع بعضها. وللغات البشرية القدرة على تكوين أعداد هائلة من الجمل، سواء تم صياغتها من قبل أو جمل جديدة تمامًا. وبدون قواعد تركيب العبارات تتحول اللغة إلى كلمات مبعثرة ليس لها دلالة.

باختصار؛ اللغة عبارة عن الكلمات (الرموز) بالإضافة إلى القواعد التى تحكم استخدامها.

ولكن متى نطق الإنسان بالكلام[1]

إن معرفة متى تعلم الإنسان الكتابة أمر سهل، فهناك «**حفريات كتابية**» يرجع عمرها إلى حوالى عشرة آلاف سنة. أما الإجابة عن سؤال «**متى تكلم الإنسان؟**» ففى منتهى الصعوبة، إذ لا توجد «**حفريات كلامية**» تمكننا من تحديد وقت ظهور هذه المقدرة.

وقد وُجدت علامات داخل جماجم «الإنسان الصَنَّاع»[2] تثبت وجود أهم مراكز المخ اللغوية (منطقة بروكا) فى أمخاخ هذه الكائنات، مما يشير إلى أن إعداد المخ لنشأة القدرة على الكلام قد حدث منذ حوالى خمسة ملايين عام.

وقد بدأ الإنسان التواصل مع الآخرين عن طريق «الإشارات» باليد والوجه، وقد يصحبها إصدار بعض الأصوات. ثم تلت ذلك مرحلة الكلام، التى تتطلب - إلى جانب مراكز المخ - موقعًا معينًا للحنجرة، يتمثل فى انخفاض مستواها فى العنق مما يسمح بفراغ كاف أعلى منها لنطق مختلف حروف اللغة. وقد توصل الباحثون إلى أن هذا الموضع المنخفض للحنجرة موجود فى الإنسان الحديث فقط،

---

(١) تلخيص مقال من مجلة «العلوم الأمريكية Scientific American»، عدد ديسمبر ٢٠٠١، لمؤلفه عالم البيولوجيا والأنثروبولوجيا الأمريكى أيان تاتيرسل Ian Tattersell، أمين متحف الأنثروبولوجيا فى المتحف الأمريكى للتاريخ الطبيعى بمدينة نيويورك. والمقال بعنوان: كيف صرنا بشرًا How we came to be Human

(٢) Homo-habilis، من أشباه الإنسان، وأحد الخطوات التطورية قبل الوصول إلى الإنسان العاقل.

ولم يكن موجودًا فى الإنسان السابق عليه (إنسان نياندرتال)[١]، مما يعنى أن المقدرة على إخراج الكلام لم يكتمل تشكلها إلا بظهور الإنسان الحديث.

وفى أطفالنا تكون الحنجرة فى موضع مرتفع (مثل إنسان نياندرتال)، ومع نمو الطفل ينخفض مستوى الحنجرة، فيزداد طول البلعوم مما يسمح بتعديل الأصوات المنطوقة وتزداد القدرة على إخراج الكلام الواضح. ويلى ذلك تشكيل الجمل ثم بناؤها الصحيح بعد بلوغ سن العامين تقريبًا. والأرجح أن نشأة اللغة مع تطور الإنسان قد مرت بمراحل مشابهة لما يحدث فى الأطفال.

وكما ثبت ظهور مراكز المخ اللغوية فى أشباه الإنسان منذ خمسة ملايين عام، فقد أظهرت الحفريات أن أشباه الإنسان اكتسبت الممر الصوتى القادر على إخراج الكلام الواضح قبل نحو نصف مليون سنة، أى قبل أن يصبح أسلافنا قادرين على ممارسة اللغة وعلى التكلم. وهذان مثالان للتكيف المسبق، الذى يعنى ظهور تغيرات بيولوجية معينة (مراكز المخ الكلامية والممر الصوتى) فى مرحلة ما، تمهيدًا لاستغلالها للقيام بوظائف جديدة فى مرحلة لاحقة.

وهنا يطرح عالم الأنثروبولوجيا إيان تاتيرسل سؤالًا محرجًا للانتخاب الطبيعى العشوائى؛ كيف يتثنى وجود مراكز المخ الكلامية والممر الصوتى البشرى لمئات الآلاف من السنين قبل أن ننطق كلماتنا؟

ويجيب تاتيرسل: لا شك أنه «التصميم الذكى والتطوير الإلهى».

اللغة مبرمجة جينيًّا فى أدمغتنا!

يستخدم الإنسان اللغة بشكل مرتجل وبلا وعى، حتى يبدو التفكير فى ماهيتها أمرًا لا معنى له. ولكن منذ ستينيات القرن العشرين اعترى فهمنا للغة البشر تغييرات ثورية، فقد ثبت أن ملكة اللغة البشرية مبرمجة فطريًّا (جينيًّا) فى بنية أدمغتنا Hard-wired[٢]. ويقف وراء

---

(١) Homo-neandertalis: أحد أفراد جنس الإنسان (Homo)، يعتبر ابن عم الإنسان العاقل المعاصر، ظهر منذ ٣٥٠,٠٠٠ سنة وانقرض منذ قرابة ٢٤,٠٠٠ سنة. ترك بعض المصنوعات والمشغولات التى تُظهر تمتعه ببعض القدرات العقلية.

(٢) كان عدم التصديق هو رد الفعل الأولىّ لأغلب المتخصصين تجاه هذا المفهوم. فالبشر يتحدثون آلاف اللغات المختلفة، وأى مَلَكة تتنوع بهذا القدر تكون عادة نتيجة للتعلم الاجتماعى وليس بفعل برمجة فطرية فى الدماغ مُتحَكَّم فيها جينيًّا. ولكن تمعن، إن شئت الملاحظات التالية التى استشهد بها تشومسكى:

١- يبدأ الأطفال فى العالم أجمع اكتساب اللغة عند العمر نفسه. فهم يبدءون فى المناغاة عند سن سبعة أو ثمانية أشهر، مستخدمين الأصوات نفسها بغض النظر عن اللغة التى يتحدث بها مَن حولهم.

٢- يكتسب الأطفال اللغة فى تسلسل واحد تقريبًا. على سبيل المثال، المتحدثون الإنجليزية يكتسبون الصوت a قبل الصوتين i وu، وأصوات p وb وm قبل صوت t. وقرب عيد ميلادهم الأول، يبدأ الأطفال فى استخدام الكلمات الكاملة. ويحدث هذا بغض النظر عن بيئة الطفل أو اللغة التى يتعرض لها. =

هذه المدرسة أبو علم اللغويات الحديث فى جامعة إم آى تى MIT ناعوم تشومسكى[١]، فقد أثبت أن اللغات البشرية ـ بالرغم من تباينها الظاهرى الكبير تشترك فى نفس القواعد النحوية العميقة. وانطلاقًا من هذا المعنى، أضاف تشومسكى مفهومين جديدين لعلوم اللغويات:

المفهوم الأول هو «الأجرومية (النظام) الخلاقة Generative Grammar». لقد أثبت تشومسكى (ما أكدته دراسة خرائط المخ فيما بعد) أن الطفل يولد ومخه مُعَد لتكوين جمل صحيحة ذات معنى. فبمجرد تلقيه بعض المفردات وبعض العبارات يصبح قادرًا (بالقياس عليها) على تكوين ما لا نهاية له من الجمل صحيحة التركيب. وتتم هذه العملية فى مرحلة مبكرة من العمر وتصبح هذه اللغة هى «اللغة الأم».

والمفهوم الثانى هو «الأجرومية (النظام) العالمية Universal Grammar». فقد أثبت تشومسكى أن الجنس البشرى بأكمله يتفاعل مع اللغة بطريقة متماثلة على اختلاف أصوله ولغاته، وأن البشر يصنعون جُمَلَهم بطريقة متشابهة تُطَوِّع وتخضع جزئيًّا للظروف المحيطة[٢]. ومن هذا التشابه، أن الجملة تتركب من فعل وفاعل ومفعول به، وأن للأحداث زمنًا ماضيًا أو مضارعًا أو مستقبلًا، وغيرها.

وقد عَبَّر أحد كبار علماء اللغة عن هذا التشابه بقوله: «إذا زار عالم لغويات من كوكب المريخ الأرض، فسيستنتج أنه ما عدا بعض الكلمات غير ذات المعنى، فإن أهل الأرض جميعًا يتكلمون لغة واحدة»[٣].

= ٣- اكتساب اللغة سريع جدًا، فمع سن السادسة تحدث نقلة نوعية هائلة، فنجد أغلب الأطفال يتحدثون بلغتهم الأم بجمل سليمة القواعد. والأطفال الذين لا يكتسبون اللغة مع سن السادسة يعانون كثيرًا فى التحدث بها فيما بعد. فالخريج المتوسط من الثانوية الأمريكية يستخدم حوالى ٤٥ ألف كلمة، وإذا افترضنا أن عمر المتخرج ١٨ عامًا وأنه بدأ تعلم الكلمات عند سن سنة، فإن المتوسط سيكون حوالى ٢٦٠٠ كلمة متعلَّمة فى كل سنة، سبع كلمات كل يوم، أو كلمة جديدة كل ساعتين من اليقظة، ولمدة سبع عشرة سنة متواصلة! هذا تعلم سريع، ويصعب تخيل اكتسابه دون نوع من الأساس الوراثى.

(١) Noam Chomsky: ولد فى ديسمبر عام ١٩٢٨، وشغل منصب أستاذ كرسى اللغة فى جامعة إم آى تى، وتعد أعماله الأكثر أهمية فى مجال «نظرية اللغة» فى القرن العشرين، بل وامتد تأثيرها إلى علم النفس. وتشومسكى، إلى جانب تخصصه، عالم فى الرياضيات والفلسفة وعلم النفس، وهو أيضًا إنسان مثقف صاحب اتجاه سياسى يتسم بالتعاطف مع بلاد الجنوب عمومًا (خصوصًا مع القضية الفلسطينية) وبمهاجمة الرأسمالية الأمريكية المتوحشة بصفة خاصة.

(٢) ينطبق هذا أيضًا على لغات القبائل البدائية التى لم تختلط بغيرها فى جنوب شرق آسيا، وعلى لغات أطفال العبيد المختطفين من أماكن مختلفة من أفريقيا والذين يضطرون لاختراع لغة خاصة بهم، وتنطبق أيضًا على لغة الإشارات للبكم.

(٣) كاتب هذه الجملة هو الباحث ستيفن بنكر Steven Pinker من إم آى تى، فى كتابه الرائع فطرة اللغة The language Instinct

الانفجار اللغوى الأعظم:

بذل الداروينيون جهودًا مضنية لتفسير نشأة اللغة الإنسانية من خلال تطوير آليات التواصل التى يُفترض وجودها فى السلف المشترك الذى جمعنا بالشمبانزى[1]، فاعتبرها بعضهم تطويرًا لحركات اليدين، وبعضهم دمجًا لحركات اليدين مع تعبيرات الوجه، وأرجعها آخرون إلى تقطيع صرخات سلف الإنسان فصارت مقاطع الكلام! كما ادعى الدراونة أن منطقتى الكلام فى مخ الإنسان (بروكا، ڤيرنك) نشأتا تطويرًا عن منطقة مقابلة فى مخ الشمبانزى وهى منطقة F5.

إن الآليات التى طرحها الداروينيون لتفسير ظهور منطقتى بروكا وڤيرنك ثم نشأة اللغة لا تتجاوز الهُراء الذى اعتدنا عليه منهم لتفسير مختلف المواقف التطورية بآليات عشوائية، وهى أقوال لا يقبلها باحث عن الحقيقة[2].

وينفى ناعوم تشومسكى، حجة علوم اللغة فى القرن العشرين، كل دعاوى الدراونة، ويؤكد استحالة أن تكون اللغة تطورًا عشوائيًا لأى من وسائل التواصل عند الرئيسيات، بل هى شىء جديد تمامًا ظهر عند الإنسان. وقد أسمى نظريته فى نشأة اللغة نظرية الانفجار اللغوى الأعظم The Big Bang Theory Of Human Language، محاكاةً لنظرية الانفجار الكونى الأعظم الذى أوجد الكون من عدم.

ويلجأ تشومسكى لتفسير نظريته إلى اصطلاح يستخدمه التطوريون كثيرًا لتفسير ما يستحيل تفسيره ماديًا (كظاهرة الحياة)، وهو الانبثاق **Emergence**، فيقول إن المخ البشرى ما أن وصل إلى تعقيده الهائل حتى «انبثقت» منه اللغة. وإذا كنا نتفق مع تشومسكى فى أن اللغة شىء جديد تمامًا ظهر فجأة عند الإنسان، فنحن نختلف معه فى اعتباره أن الانبثاق حدث تلقائيًا، وسنطرح سبب ذلك فى آخر الفصل.

اللغة الإنسانية وتواصل الحيوانات

لا شك إن معظم تقنيات الاتصال بين الحيوانات تكون فطرية، ولا تتطلب تعلمًا. فنحلة العسل لا تحتاج إلى دروس للقيام برقصة يفهمها باقى أفراد الخلية، بل تنتقل هذه اللغة من جيل

(١) تتواصل قردة الشمبانزى عن طريق دمج عدد من الآليات؛ النظرات، تعبيرات الوجه، الإيماءات، وضع الجسم، المغازلة، وإصدار الأصوات.

(٢) من هذا الهُراء، أن القدرات اللغوية كانت موجودة بشكل خامل فى منطقةF5 ثم تم تنشيطها، كما قالوا إن حركات النطق ظهرت تطويرًا لابتسامات الرئيسيات. ولم يبين لنا الدراونة لماذا وكيف وُجدت قدرات لغوية خاملة فى مخ الشمبانزى، ولا كيف تطورت الابتسامات إلى كلمات. لقد تم الأمر (هكذا وخلاص).

من النحل لآخر عبر المورثات (الجينات)، ولا يمنع ذلك وجود تأثير من البيئة المحيطة[١]. وإذا كان من الثابت أن هناك عاملًا وراثيًا لأية قدرة تواصلية فى الحيوانات، فلماذا يندهش الكثيرون عندما نتحدث عن عامل وراثى مشابه فى اللغة البشرية!

وقد ثبت دجل كل الادعاءت بتعلم بعض الحيوانات مهارات تحتاج للتواصل اللغوى مع الإنسان، وهى الادعاءات التى استغلها الدراونة لترويج أن الفوارق بين ذكاء الإنسان وغيره من الكائنات فوارق كمية، يمكن التقليل منها بالتدريب[٢].

وإذا كان للشمبانزى (وغيره من الكائنات) آلياته للتواصل، ومنها إصدار الأصوات التى قد تتشابه مع الأصوات التى يصدرها أطفالنا من صراخ وضحك ومناغاة، فإن استعمال القردة للرموز الصوتية يختلف عن اللغة الإنسانية فى عدة تباينات نوعية جوهرية:

- اللغة الإنسانية ليست أداة للتواصل وحسب، بل هى أيضًا أداة للتفكير، ففى أغلب المواقف يفكر الإنسان باستخدام اللغة. كذلك تستخدم اللغة الإنسانية آليات الفهم (التى ذكرناها فى هوامش بداية الفصل) بثراء مذهل.

- تتميز لغات الإنسان بثراء شديد فى المفردات، وكلماتها عبارة عن رموز عقلية تجريدية؛ فكلمة طعام مثلًا لا علاقة لرسمها أو نطقها بالطعام! أما القرد إذا أراد أن يُعَبِّر عن الطعام حَرَّك فمه بصوت كأنه يأكل، كما أن رموزه الصوتية قليلة جدًا، ولا يجمع أكثر من رمزين سويًّا.

- رموز الحيوانات مجرد منعكسات استثارية تدل على أشياء أو أحداث حقيقية حاضرة ليس للخيال فيها نصيب، أما الإنسان فلغته قادرة على التعبير عن الماضى والمستقبل أو عن معنى افتراضى تخيلى.

- الرموز (الكلمات) التى يستخدمها الإنسان تحكمها قواعد، ويعتبر معظم اللغويين هذه السمة أهم مميزات اللغات الإنسانية.

- تستخدم اللغة الإنسانية المجاز والاستعارة والتشبيه بشكل شديد التركيب، أما مجاز الحيوانات فهو بدائى وبديهى، كأن يشير القرد الذكر إلى عضوه التناسلى أمام ذكر آخر قاصدًا إهانته.

- تتفرد لغات الإنسان بوجود كلمات وظيفية (function words) لا قيمة لها خارج الجملة، مثل «ثم» و«عندما» و«And» و «If».

(١) فى التجارب التى أجريت على طير البقر الأمريكى Cowbird، نُشِّئت أفراخ من ولاية شمال كارولينا فى وجود طيور بالغة من تكساس؛ لقد نشأت الأفراخ لتغنى بلهجة تكساسية قوية!

(٢) تحدثت الأوساط العلمية لفترة طويلة عن الحصان هانز Hans الذى كان يجيب على بعض عمليات جمع الأرقام البسيطة بدقات من حافره. ثم ثبت أن هانز كان يستمر فى الدق بحافره حتى يشير له مدربه إشارة محددة بالتوقف!. كذلك تم دحض كل ما قُدِّم من أدلة حول الادعاءات بتعلم القرد كانزى (أحد أفراد قردة الشمبانزى من نوع البونوبو، وهو أذكى القردة العليا) لغة البشر، وأن أداءه صار يقارب مستوى أداء طفل بشرى عمره سنتان ونصف السنة!

- يمكن إدراك اللغة الإنسانية بثلاث حواس (السمع - البصر - اللمس)، أما الببغاء - مثلًا - إذا فقد صوته فقد لغته.

من كل ذلك تثبت استحالة أن تكون اللغات الإنسانية تطورًا عشوائيًّا لأى من وسائل التواصل بين الرئيسيات، بل إنها ظاهرة جديدة تمامًا ظهرت عند الإنسان. نعم، لقد كانت انفجارًا لغويًّا أعظم، لا نجد له تفسيرًا مقبولًا إلا القول بالتصميم الذكى.

العقل وتذوق الجمال

قرأت حكمة هندوسية قديمة، تثير الكثير من التساؤلات حول علاقة الإحساس بالجمال بالألوهية، تقول الحكمة: «لقد أُعطى الإنسانُ الحسّ الجمالى، الذى يجعله يتفاعل مع الجمال، ويرى اللمسة الإلهية فى كل ما حوله». فهل معنى ذلك أن الحس الجمالى خصوصية إنسانية، احتاجت إلى تصميم ذكى يدل على الإله الخالق، أم أن هذا الحس ظاهرة يشترك فيها الإنسان مع الحيوانات ولا تعجز العشوائية عن تحقيقها؟

لقد شغل هذا التساؤل عقول الفلاسفة عبر قرون، حتى جعلوا «مبحث الجمال» مبحثًا قائمًا بذاته فى الفلسفة، يهتم بالإجابة عن التساؤلات الفلسفية حوله:

- كيف مُنِح الإنسان الحسَ الجمالى وكيف يستجيب مخه للجمال؟ ومتى نَصِفُ شيئًا أنتجه الإنسان بأنه فن؟
- هل للإحساس بالجمال وللتجربة الفنية عنصر فطرى وآخر مكتسب من البيئة؟
- إذا كان هناك مدارس فنية عديدة، ولكل منها سماته المميِّزة، فهل هناك سمات عامة تَعْبر الحدود والحضارات وتميز الفن بصفة عامة؟

من هذه التأملات والتساؤلات تبزغ أسئلة أخرى محورية: هل هناك آليات عصبية مخية تمكننا من الإحساس بالجمال ومن تذوق الفن؟ هل يمكننا وضع نظرية علمية لإدراك الجمال، وبصياغة أخرى نظرية علمية للتجربة الفنية؟ باختصار، هل يمكن أن نتحدث عن الفن كعلم، ومن ثم نتحدث عن علم الفن Science of art؟

لقد أثبتت الشواهد الحديثة أن الحس الجمالى ليس أمرًا مكتسبًا وليس إفرازًا للحضارة الإنسانية، ولكنه ملكة فطرية غريزية تجمع بيننا وبين الكائنات الأخرى. وإذا كنا نُعجَب بتناسق الزهرة وألوانها، وتُشجينا زقزقة العصافير، ونستشعر الجمال والكبرياء فى ذكر الطاووس، فلا تنس أن النحلة تدرك جمال الزهور، وأن إناث الطيور تنجذب إلى زقزقة ذكور العصافير وجمال

ذكور الطواويس. فهل الفوارق بين تذوقنا للجمال وتذوق الحيوانات فوارق كَمّية أم فوارق نوعية؟ وهل نستعمل نفس الآليات فى التذوق؟

للعقل قوانينه لتذوق الجمال والفن [1]

لم يول العلم التساؤلات الفلسفية حول الجمال قدرًا كافيًا من الاهتمام، بالرغم من قناعة الكثير

(١) توصل راماشاندران (حتى الآن) إلى عشرة من القوانين (السمات) التى تحكم الحس الجمالى والتذوق الفنى، وهى:

١- قانون التجميع The law of Grouping: إذا نظرت إلى السماء التى تزينها قطع متناثرة من السحاب، قد تستطيع أن تربط بين بعض هذه القطع وتتصورها على هيئة قطة مثلًا، عندها قد تُخرج زفرة من صدرك وتقول معجبًا متعجبًا: «آه».
لقد «جُبِلَت = فُطِرَت» أمخاخنا على التوصيل بين الأجزاء المنفصلة لتشكل أقرب الصور المتكاملة المعروفة لديها (القط)، عندها ترسل المراكز البصرية إلى مركز الشعور (اللوزة) إشاراتها فتثير ما يرتبط بالصورة من مشاعر الارتياح أو الخوف.

٢- قانون بلوغ الحد الأقصى Peak Shift: عندما يريد فنان الكاريكاتير أن يُعَبر فى رسمه عن أنوثة امرأة، ضَخَّمَ السمات المميزة للمرأة والتى تختلف بها عن الرجل (الثديين - الأرداف - الفخذين - الخصر النحيل - انحناءة الجذع - استدارة الكتفين - اكتناز الشفتين - اتساع العينين..). وبالرغم من أن نِسَب الرسم تكون مخالفة للحقيقة وربما مثيرة للضحك، إلا أنك قد تُعَلِّق: «يالها من امرأة!». ويقوم الفنانون التجريديون بنفس العمل؛ فهم يستخلصون السمات المميِّزة للعمل الذى يريدون تجسيده ثم يظهرونها ويضخمونها؛ ربما على هيئة خطوط مستقيمة أو متعرجة أو دوائر أو مربعات أو بقعًا من الألوان، إنهم بذلك يُنَشِّطون بشكل مبالغ فيه المراكز المخية عند المُشاهد.

٣- قانون التباين Contrast: إن وجود التباين بين مكونات العمل الفنى أمر ضرورى لإدراكه وتذوقه، حتى إننا لا نلتفت إلى الثمار الخضراء غير الناضجة داخل الشجرة ذات الأوراق الخضراء، لكن قد يسيل لعابنا إذا نضجت الثمرة وتحولت إلى اللون الأحمر أو الأصفر. وقد فُطِرَت عقولنا على تذوق بعض أشكال التباين أكثر من البعض الآخر، فالأزرق مع الأصفر أمتع من الأصفر مع البرتقالى.

٤- قانون الإبراز (العزل) Isolation: كثيرًا ما تبدو بعض الرسوم التخطيطية (كرسوم الحمام لبيكاسو) أكثر جمالًا وتعبيرًا من صورة فوتوغرافية ملونة للشىء المرسوم. ويرجع ذلك إلى أن مراكزنا البصرية تهتم فى أول مراحل الإبصار بالحدود الخارجية للشىء وليس بتفاصيله الداخلية وألوانه، وهذا ما يُرَكز عليه الرسم التخطيطى.

٥- قانون الغموض الممتع Perceptual problem solving: تبدو عَيْنَىّ امرأة وقد غطت نصف وجهها الأسفل بحجاب أكثر جاذبية منها إذا كشفت وجهها تمامًا إذ يترك ذلك «مجالًا للخيال». لذلك تقول القاعدة الفنية: إنك تستطيع أن تجعل الشىء أكثر جاذبية بأن تجعله أقل ظهورًا.

٦- قانون المجاز Metaphor: تأمل مئذنة المسجد، وكيف تنتصب فى شموخ تعلو كل ما حولها مُعَبِّرَةً عن التوحيد. أما الشرفات الثلاث المتتالية فيراها البعض كأنها تشير إلى مستويات: الإسلام والإيمان والإحسان، ويرى آخرون أنها تشير إلى مقامات اليقين الثلاثة؛ علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين. وفى قمة المئذنة هناك الهلال المنفتح على السماء كذراعين ممدودتين بالدعاء، وإذا كان الهلال هو نصف دائرة يشير إلى عالم الشهادة فإن باقى الدائرة (الغائب) يشير إلى عالم الغيب، وبذلك تكتمل دائرة الوجود.

٧- قانون كراهية التصادف Abhorrence Of Coincidences: تَصَّور فنانًا يرسم مكانًا فيه أشخاص ذوو قامات متساوية وتفصل بينهم مسافات واحدة، إن نفْسَ المُشاهد لن ترتاح لهذا المنظر، بل ترتاح أكثر لأفراد مختلفى الطول، وعلى مسافات متفاوتة من بعضهم البعض. إن أمخاخنا تسعد أكثر بما هو شائع، وتُعافِى الاحتمالات القليلة التى لا تتواجد إلا بالمصادفة. =

من العلماء أن الحس الجمالى من أكثر النشاطات العقلية خصوصية للإنسان. ولحسن الحظ أولى خبير علوم المخ والأعصاب (وأيضًا الفن) العالِم الفذ راماشاندران القضية اهتمامه مؤخرًا، فلنرجع إليه للبحث عن أجوبة للأسئلة المهمة التى طرحناها. يقول راماشاندران:

لقد شغلتنى قضية الإحساس بالجمال وتذوق الفن، وعلاقة ذلك بنشاط المخ، فى الفترة الأخيرة. ومفتاح الإجابة عن هذه التساؤلات هو كلمة «رازا Rasa» التى تتردد كثيرًا فى الفن الهندى، وهى كلمة باللغة السنسكريتية يصعب ترجمتها، لكنها تعنى تقريبًا «التوصل إلى جوهر الشىء، وعرضه بأسلوب يثير مشاعر ومزاج المشاهد»، فكيف يتوصل الفنان إلى ذلك الجوهر ليعبر عنه؟ وكيف يضع المشاهد يده عليه عند تأمل العمل الفنى ليتذوقه؟

ليست مهمة الفن نقل نسخة مماثلة تمامًا للوجود، وإلا لكفانا أن نسير فى الدنيا نتأمل ما حولنا. بل على العكس؛ إن مهمة الفن هى تغيير صورة الوجود، أو التركيز على إحدى جزئياته، لتحقيق الإمتاع (وأحيانًا القرف!) للمشاهد، وكلما حقق الفنان ذلك تصاعدت رجفة الاستمتاع بالجمال وكان الفنان قديرًا. وأضاف راما؛ لقد توصَلْتُ إلى عدة سمات (أو

= ٨- قانون الانتظام والتوقع Orderliness: لا شك أن مَيْل برواز الصورة ينتقص من استمتاعنا بها، وكذلك درج المكتب غير المغلق جيدًا، أو بعض الخيوط البيضاء أو قشر الشعر على كتف البدلة السوداء. إن هذا كله خروج على ما اعتدنا عليه ونتوقعه فى مثل هذه المواقف. =

لذلك يتحدث الفنانون والمتخصصون فى الرياضيات عن «النسبة الذهبية Golden Ratio» ويقدرونها بـ ١,٦١٨٠ والمقصود بها العلاقة الرياضية بين موجود جزئى بالنسبة إلى الموجود الكُلى، فمثلًا علاقة طول الأنف بالنسبة لطول الوجه، أو مساحة مربع صغير داخل مربع كبير، ويعتبرون أن توافر هذه النسبة الذهبية يعطى العلاقة بين الجزئى والكلى بُعدًا جماليًا. لكن لا شك أننا ما زلنا بعيدين عن التوصل إلى الأسس الرياضية التى تحكم الجمال.

٩- قانون التماثل Symmetry ترتاح العينان لمنظر المئذنتين على جانبى بعض أبواب الحرم الشريف فى مكة، كما ترتاح لتماثل جانبى المحراب فى المساجد. لذلك نعتبر أن التماثل فى بنية وخطوات الإنسان والحيوانات أثناء السير دليل على الصحة الجيدة.

١٠- قانون الصدى البصرى (Visual Resonance (Echo: أحيانًا يعطى الشكل العام للشىء إيحاء بمعناه، فتجد المصممين يكتبون كلمة «مائل» بحروف مائلة، ويكتبون كلمة «رعب» بخط متذبذب مرتعش ينقل الإحساس بارتعاشاتك الداخلية الخائفة.

ولا شك أنه كلما اجتمع فى العمل الفنى قدرٌ أكبر من هذه القوانين العشر كلما زاد استمتاعنا به وقدرتنا على تذوقه. إن ذلك يشبه الطبخة التى يستعمل فيها الطباخ العديد من العناصر، حتى يتذوق فيها آكلها العديدَ من الطعوم.

هذا وقد ثبت أن المخ يستخدم نفس المناطق المخية تقريبًا فى إبداع الفن وعند تذوقه. وهناك قدر من التخصص فى مناطق المخ يتناسب مع نوع الفن، ويتراكم الإحساس بالجمال حتى يصل إلى ذروة تجتاح مركز الإثابة، فيستشعر الإنسان كمالَ الرضا والانتشاء.

قوانين) لا بد أن يلتزم بها الفنان (أو مصمم الأزياء) من أجل أن يحقق للمشاهد من الإمتاع والإثارة الجمالية مالا تحققه الرؤية الواقعية.

ولا يعنى التوصل إلى هذه القوانين والآليات فقدان البعد النفسي والروحي للجمال والفن. فإدراكنا لآليات الحب وممارسة الجنس لا يلغى البعد النفسي والروحي لهما، كذلك فإن تعمقنا فى دراسة دقائق علوم اللغة لا ينتقص من استمتاعنا بقصائد الشعر وإبداعات الأدب، كما أن إدراكنا أن الماس يتكون من الكربون وتَوَصُّلْنا إلى خطوات تكوينه فى باطن الأرض عبر ملايين السنين لا ينتقص من استمتاع النساء به. كذلك لا يعنى وجود قوانين وآليات فطرية غياب دور التنشئة والحضارة فى تذوقنا للفن وفى تعبيره عن مدرسة معينة.

والمدهش أن عالم الفيزياء العبقرى المسلم «الحسن بن الهيثم»[1] حدد مقاييس موضوعية لتذوق الجمال قبل راماشاندران بألف عام. انظر إليه وهو يقول:

«يدرك النظر الجمال من خلال كل صفة من صفات الإبصار، بل «إن كل صفة تُشعر بنوع مختلف من الجمال»، ويؤدى «امتزاج هذه الصفات» إلى استشعار أنواع أخرى من الجمال أكثر تركيبًا:

«فموضع الأشياء» يضفى عليها جمالًا، كما أن «ترتيبها» يضفى عليها جمالًا آخر. ومثال ذلك حروف الكتابة التى يبزغ جمالها من موضعها وترتيبها، فصارت بذلك فنًا من الفنون.

كذلك فإن «انفصال الأشياء» يعطيها جمالًا، لذلك فالنجوم المتناثرة تبدو أكثر جمالًا من نجوم مجرة درب التبانة المتزاحمة، لذلك أيضًا فإن البراعم والأزهار المنتشرة فى المروج تكون أكثر جمالًا من تلك المجتمعة فى باقات.

وفى الوقت نفسه فإن «الامتداد» يعطى جمالًا، لذلك فالمروج الخضراء الممتدة أمام البصر (وكذلك مياه البحر) أجمل من تلك التى تقطعها المنازل والطرقات. وفى الوقت نفسه فإن «امتداد اللون الأخضر» لتلك المروج أجمل من المناطق التى تتباين ألوانها».

انتهى كلام ابن الهيثم الذى كتبه منذ ألف عام عن تذوق الجمال.

بذلك أجاب راما شاندران (ومن قبله الحسن بن الهيثم) عن تساؤلاتنا، بأن الحس الجمالى وكذلك تذوقنا للفنون تحكمهما قوانين وآليات، وتختلف تمامًا عن الإدراك الغريزى الحيوانى للجمال. فسبحان الخالق الذى شكل المخ البشرى وزوده بالآليات التى تمكنه من تذوق ما أودع فى الكون من جمال.

وإذا كانت الرئيسيات تتمتع بحس جمالى بدائى، فهل يستطيع التطور الداروينى تشكيل قوانين وآليات تذوق الجمال فى المخ البشرى؟ إن الدراونة يدعون أن ذلك ممكن، بل ويحددون

---

(١) الحسن بن الهيثم: (٩٦٥ - ١٠٤٠م)، من أعظم العلماء قاطبة فى علم البصريات، وكانت أعماله هى الأساس الذى بنى عليه علماء الغرب جميع نظرياتهم فى هذا الميدان، سواء فى اكتشاف المجهر والتليسكوب أو فى فسيولوجيا الإبصار.

آلية حدوثه!؛ إنهم يقولون: هكذا حدث Just So!، هل نقبل هذه الآلية؟! ولفهم ما يقصدون بشكل أوضح، نسأل الدراونة: ما هو الدافع التطورى لإكساب المخ البشرى هذه القدرة على التذوق المرهف للجمال والفن؟ وما هي الفائدة التطورية التى تحققها هذه القدرة؟

لم يجبنا الدراونة إجابة شافية.

أما نحن فنقدم لذلك تفسيرًا شافيًا جامعًا مانعًا، وهو أن نشأة الحس الجمالى للإنسان بشكل شديد التعقيد ويخضع لقوانين دقيقة، ومغاير تمامًا لما عليه غريزة تذوق الجمال فى الحيوانات، لدليل قاطع على التصميم الذكى الذى لا يقدر عليه سوى إله خبير حكيم قادر.

العقل والمشاعر الروحية

يدهشنى كثيرًا ادعاء الماديين أن الديانات ابتداع إنسانى! لجأ إليه الإنسان لتحقيق فوائد مادية ومعرفية ونفسية، أهمها الشعور بالأمان لوجود قوة غيبية تدعمنا عند الضرورة. ومن ثم يعتبرون ما نستشعره من طمأنينة نفسية ومشاعر روحية وشعور بالتسامى أوهامًا نفسية أو هلاوس مسئول عنها نشاط غير سَوِى لبعض مراكزنا المخية.

وإذا كان الماديون يعتبرون الدين ابتداعًا إنسانيًّا وظاهرة تبريرية، فيحق لنا أن نتساءل؛ ما هو «التحدى التطورى» الذى واجه الإنسان حتى يكسبه آليات بيولوجية عصبية تشعره بتضاؤل الشعور بالذات بل وبفنائها وبتوهم وجود عالم علوى غيبى غير حقيقى والتواصل معه![1] مما يتعارض تمامًا مع هدف التطور الأساسى، وهو المحافظة على الذات؟ إن ذلك يعنى انعدام «الفائدة التطورية»، بل يعنى انتكاسة تطورية. وإذا كان الدين أكبر الكوارث التى مُنِىَ بها الإنسان (كما يدعى الماديون أمثال ريتشارد دوكنز)، فلِمَ لم تَقم آليات الانتخاب الطبيعى بالتخلص منه مبكرًا؟!

الوجود الغيبى وجود حقيقى

أجرى الدكتور آندرو نيوبرج[2] العديد من الدراسات على مجموعات من العُبَّاد من مختلف الديانات، استخدم فيها أحدث تقنيات التصوير الإشعاعى للمخ[3]. وقد أثبتت هذه الأبحاث

(١) إشارة إلى مفهوم وحدة الوجود ووحدة الشهود الذى نطرحه بعد قليل.

(٢) Andrew Newberg: أستاذ الأشعة التشخيصية ورئيس مركز الأبحاث الروحية بجامعة بنسلفانيا، وأحد مؤسسى علم البيولوجيا العصبية للتدين Neuro-Theology المتخصص فى دراسة الأسس العصبية البيولوجية للمشاعر الروحية.

(٣) FMRI - PET - SPECT Camera

أن ما يستشعره الإنسان من طمأنينة، ومن مشاعر روحية، ومن وجود غيبى علوى يستوى على عرشه إله حق، إنما هى إدراك لوظائف مخية سوية، وليست مجرد هلاوس وتوهمات. كذلك أثبتت تلك الدراسات أن تقسيم ما ترصده عقولنا إلى «وجود مادى حقيقى» و«وجود غيبى غير مادى غير حقيقى» تقسيم غير علمى، فالوجود المادى ترصده أدمغتنا بآليات الإدراك فى المخ، شأنه فى ذلك شأن الوجود الغيبى الذى يدركه بعضُنا تمامًا[1].

المخ/العقل والدين فى تكامل[2]

ومن أهم ما يتميز به المخ/ العقل الإنسانى وجود العديد من الآليات التى تخدم المنظومة الدينية. أولها، أن للعقل الإنسانى رغبة فطرية فى تجسيد الأفكار والمشاعر، رغبة تقف وراءها مراكز ودوائر عصبية. فنحن نرى الموسيقيين، مثلًا، يحركون أصابعهم باللحن الذى يتخيلونه، كما نتمايل نحن عند الاستماع إلى قطعة موسيقية تُطربنا. من هنا جاءت رغبة المخ/ العقل فى تجسيد المعتقدات الدينية على هيئة طقوس، خاصة المفاهيم المهمة للإنسان؛ كالموت والبعث والتواصل مع عوالم الغيب.

وعادة ما تكون الطقوس الدينية مصحوبة بشحنات انفعالية، نتيجة لتأثير الإيقاع الحركى والصوتى للطقوس على الجهاز الحوفى والجهاز العصبى اللاإرادى والقشرة المخية[3]. ويشارك فى هذا التنشيط ـ مع الإيقاع ـ طقوس أخرى، كالركوع والسجود وحركات اليدين فى الصلاة، وكهيبة المكان والصوم، والتنفس المنتظم أثناء الذِّكر، ورائحة البخور، وغيرها، وكلها عوامل تُشعر الإنسان بالرهبة التى يمازجها السكون والشعور بالورع والنشوة الدينية.

أما دور القشرة المخية فى هذا السيناريو فحيوى للغاية؛ إذ يمتزج ما فيها من أفكار ومعتقدات مع الانفعالات السابقة. بذلك تصبح الطقوس أداة لتحويل المعتقدات النظرية إلى تجربة شعورية ذاتية.

المخ/ العقل المتسامى

كذلك تم إمداد المخ البشرى بآليات تعين العقل على التسامى الروحى، فمن أهم مراكز

(١) للمزيد عن هذه المفاهيم راجع كتابنا «ثم صار المخ عقلًا»، الفصل العاشر ـ مكتبة الشروق الدولية ٢٠١٢.

(٢) هذا المفهوم نقلًا عن نتائج أبحاث أندرونيوبرج، التى تحدثنا عنها منذ قليل.

(٣) الجهاز الحوفى limbic system هو المسئول عن نشاطاتنا الانفعالية، والجهاز العصبى اللاإرادى ANS هو المسئول عن وظائفنا اللاإرادية، والقشرة المخية Cerebral Cortex مسئولة عن نشاطاتنا العقلية وأفكارنا ومعتقداتنا.

قشرة مخ الإنسان المنطقة المعروفة بـ «منطقة تربيط التشكيل OAA»[1] المسئولة عن إدراكنا لذواتنا وللوجود من حولنا[2]. وتقوم الطقوس الدينية بتسكين العقل الواعى وتَسْكين الحـواس، فتقل المُدْخَلات المُنَشِّطةِ لمنطقة تربيط التشكيل OAA ممـا يؤدى إلى خمود نشاطهـا، ويُعـرف ذلك بـ «الإغلاق Deafferentiation»، مما يؤدى إلى فقدان التمييز بين «أنا» و «الوجود». ومع استمرار الطقوس تنشط آليات الإغلاق بشكل أكبر، حتى يتلاشى الإحساس بالذات وبالوجود من حولنا[3]، فيصل المرء إلى ما يسميه العُبَّاد بـ«الفناء»، وعادة ما يصحب ذلك مكاشفات لعوالم غيبية، وشعور بالتوحد مع تلك العوالم، وأحيانًا مع الإله المستوىِ على عرشها، وهو ما يُعرف بـ«وحدة الشهود/ الوجود»[4].

مما سبق نجد أن بنية المخ البشرى مجهزة تمامًا للتعامل مع بنية الدين، ويظهر ذلك فى عدة مستويات، تبدأ بالقدرة على الفهم العقلى للوحى السماوى، ثم وجود الشوق الفطرى إلى مفاهيم

(١) Orientation Association Area

(٢) تُعتبر منطقة تربيط التشكيل Orientation Association area = OAA الواقعة فى الجزء الخلفى من الفص الجدارى للمخ أهم المناطق التى لها دور فى المشاعر الروحية. وتوجد هذه المنطقة فى كلٍ من نصفى المخ، وهما مختلفتان فى الوظيفة لكنهما متكاملتان؛ فالمنطقة اليسرى مسئولة عن تحديد وإدراك صورة ثلاثية الأبعاد لجسدنا المادى، واليمنى مسئولة عن تحديد موضع جسمنا وعلاقته بالوجود المحيط. وبالتالى فالمنطقتان تحولان المعلومات الحسية الخام إلى صورة حية لأجسامنا (الذات) وللوجود من حولنا (المحيط). وإذا كان إدراكنا لـ«الذات» و«الوجود» إنجازًا مخيًّا، تقوم به منطقة تربيط التشكيل، فإن ذلك لا يعنى أن ليس للذات والوجود من حولها وجود حقيقى، بل يعنى ذلك أن هذه المنطقة تستقبل صورة الواقع وتجعلنا نستشعره، وأنها لا تُشَكِّل الذات والوجود من عدم.

(٣) يمكن أن نحصل على نفس التأثيرات من أى إيقاع رتيب يصاحب التركيز على شىء نقوم به، كسماع الموسيقى وقراءة الشعر، وهدهدة الطفل، والصلاة. كذلك فإن الإيقاعات المنتظمة السريعة؛ كالجرى لمسافات طويلة وممارسة الجنس والهتاف مع آلاف الأشخاص فى مباراة لكرة القدم مثلًا، يمكن أن تؤدى إلى تنشيط عملية الإغلاق والشعور بالتوحد مع الآخرين.

(٤) يختلف المتدينون فى قبول تلك المعانى الصوفية البليغة، والتى تدور حول أن العابد قد تمر عليه أحوال يتلاشى فيها شعوره بذاته (الفناء)، وقد يشعر كأن كل ما فى الوجود قد تلاشى، وأنه لم يعد ثَمَّ إلا الله ﷻ. عند ذلك يستشعر «كأن» الوجود هو الله، والله هو الوجود (وحدة شهود). وقد يشعر أن الله ﷻ قد حل فى هذا الوجود، أى تلبس به (حلول)، أو أنه قد اتحد به (اتحاد).

أُصَدِقك القول، قارئى الكريم، كانت هذه المفاهيم (فى مرحلة من حياتى) تنشينى، فقبلتها، باعتبار أنها مشاهدات لقوم من الخواص المتميزين غاب عنهم إدراكُهم للوجود، فى لحظات سُكر وفناء، فلم يعودوا يشاهدون إلا الله. أما حقيقة الأمر فنأخذها من العقيدة والشريعة التى تؤكد على مفهوم الإثنينية: «رب» و«عبد» ـ «خالق» و«مخلوق».

ويوضح الإمام عبد الحليم محمود (شيخ الجامع الأزهر الأسبق، والقطب الصوفى الكبير) أن الخطأ الذى جعل للكثيرين مآخذ على الصوفية، هو أن بعض الفلاسفة المتصوفين قد اعتبروا أن ما يشاهده الصوفية (وهم فى حال سكرهم) من غياب لذواتهم وللوجود المادى، هو حقيقة الوجود (أى لا موجود «بحق» إلا الله، فالله هو الوجود والوجود هو الله)، فقالوا «بوحدة الوجود» التى يقول بها الهندوس، وصاغوا فى ذلك النظريات الفلسفية التى هى خروج عن العقيدة والشريعة الإسلامية، فالوجود ليس ذات ﷻ، لكنه خلق من خلقه.

الألوهية والدين، والرغبة الفطرية فى تجسيد المفاهيم العقلية، وتحويل المفاهيم النظرية العقلية للعقيدة إلى تجارب شعورية ذاتية، ثم القدرة على إغلاق دوائر الشعور بالذات وبالوجود المادى مع استحضار مشاعر التسامى والتواصل مع العوالم الغيبية.

والسؤال المحورى هنا هو؛ كيف تم إعداد المخ بهذه الهيئة ليكون ملائمًا تمامًا لبنية الديانات، أو كيف تم صياغة الديانات لتكون ملائمة تمامًا لبنية المخ البشرى؟

ليس لدى الدراونة الماديين إجابة عن هذا التساؤل.

وقد أظهرت أبحاث نيوبرج، أن العبادات (بما فيها من صلاة وذكر وتأمل وصيام وقراءة للكتب المقدسة) تشتمل على الكثير من الآليات التى وصفها العلماء المتخصصون لتحسين صحتنا الجسدية والعقلية والنفسية، ولتحقيق السكينة والسمو الروحى. كذلك فإن التوجه إلى الله ﷻ بصفته الرحمن الرحيم يؤدى إلى المزيد من السكينة والسمو. أما العبادة التى تُـرَكِّز على الخوف من الله ﷻ ذى البطش الشديد، وكذلك التطرف الدينى، فيؤديان إلى تلف الكثير من الدوائر العصبية المخية، ومن ثم إلى الشقاء النفسى والأمراض العضوية والشيخوخة المبكرة.

المخ/العقل والعبادات

أُنهى حديثى عن المشاعر الروحية والتسامى بسؤال سألنى إياه ابنى الأصغر عام التحق بالجامعة، قال:

لماذا تشتمل الديانات السماوية على عبادات؟ ألا يكفى أن تكون هناك عقيدة فى الإله نؤمن بها، ثم نلتزم بمكارم الأخلاق وحسن معاملة الآخرين، وكفى، مثل كثير من ديانات الشرق الأقصى؟

وقتها، أجبت ابنى بما كان فى جعبتى، وقلت له: إن أهمية العبادات بالنسبة للديانات ترجع إلى أنها:

أولًا: دليل على طاعة المؤمن لأوامر الله ﷻ، حتى وإن لم نعرف لها تفسيرًا. مثل عدد الركعات فى كل صلاة، وأن يكون بعضها سرًّا وبعضها جهرًا. ومن ثَمَّ فهى دليل على صدق العبودية لله ﷻ.

ثانيًا: للعبادات فوائد شخصية واجتماعية هامة. فالصلاة - مثلًا - تنهى عن الفحشاء والمنكر، والصوم ترقية للنفس وإشعار بمعاناة الفقراء، والزكاة تكافل اجتماعى....

هاتان الفائدتان من أهم مقاصد الشريعة، وكنت أعرفهما منذ صباى. ولكنى بعد أن اطلعت على نتائج أبحاث أندرونيوبرج وغيرها استشعرت أن ما قلته لابنى كان قاصرًا، فنقلت إليه الإضافات التالية:

ثالثًا: العبادات تجسيد لمعتقداتنا ومشاعرنا، وهذه فطرة لها آلياتها فى المخ/ العقل، وتُعتبر خطوة هامة لتعميق معتقداتنا.

رابعًا: العبادات ـ بما تحويه من طقوس ـ تُحَول العقيدة من مفاهيم عقلية نظرية إلى تجارب ذاتية ومشاعر وأحاسيس.

خامسًا: عندما تؤدى ممارسة العبادة إلى إغلاق مناطق الشعور بالذات وبالمحيط، يستشعر الإنسان قدرًا كبيرًا من التسامى، قد يصل إلى التواصل الحقيقى مع الوجود الغيبى المتوحد المطلق.

لقد جَعَلَتنى تلك الحقائق فخورًا بأننى من المتدينين الحريصين على ممارسة طقوس دينهم.

الماديون والعقل

«تناقض والاس» بين الألوهية والداروينية

نستهل عرضنا لطرح الماديين لنشأة الملكات العقلية للإنسان، بوقفة مع عبقريين من عباقرة البيولوجيا، إنهما تشارلس دارون وألفريد والاس، اللذان توصلا إلى نظرية التطور منفصلين فى وقت واحد[١].

يُرجع دارون نشأة الذكاء البشرى والقدرة على الإبداع والعبقرية إلى آلية التطور الداروينى التقليدية، وهى الانتخاب الطبيعى من بين طفرات عشوائية، وفقط. بينما يرى والاس أن ذلك التفسير غير قادر على تفسير العقل البشرى، ويؤكد أن الذكاء الإنسانى منحة إلهية.

ما مبررات والاس لهذا الطرح الذى يصدم الماديين؟

يعطى والاس أهمية كبيرة لما أسماه بالذكاء الكامن Potential Intelligence. فإذا أخذنا إنسانًا من قبيلة بدائية وألحقناه بمدرسة متميزة فى مدينة متحضرة، فسيتعلم الرياضيات واللغات والكمبيوتر وغيرها من العلوم بنفس كفاءة أطفال المدرسة الآخرين، أى أن الطفل لديه ذكاء كامن يفوق بشكل كبير ما يحتاجه للتعامل مع بيئته الأصلية. فكيف نشأ هذا الذكاء الكامن؟

إن الانتخاب الطبيعى يمكن أن يفسر ظهور القدرات التى يحتاجها الكائن فى بيئته وقت تطوره، لكنه لا يفسر نشأة صفات تصبح كامنة ولا يحتاجها الإنسان إلا بعد عشرات الآلاف من السنين، فالانتخاب الطبيعى ليس له رؤية مستقبلية. لقد صار هذا الموقف يُعرف بـ«تناقض

(١) المدهش أن كلًا منهما لم ينكر فضل الآخر، حتى إن والاس كتب كتابًا عن النظرية وأسماه «الداروينية»، وما أن علم دارون بذلك حتى كتب له قائلًا: ما كان يجب أن تسميه «الداروينية»، فهى أيضًا «والاسية».

والاس Wallace's Paradox» ويدور حول أن ما يملكه الإنسان من ذكاء يتجاوز كثيرًا مهامه الوظيفية الحياتية وجاذبيته الجنسية، فكيف يؤدى الانتخاب الطبيعى إلى ظهور وتوريث ملكات لا تُستخدم و لا تفيد فى البقاء، بينما ينقرض الأفراد الذين لا يملكون هذه الملكات. وبلغة أخرى، ما الذى يدفع جينًا ما ليتخصص فى المهارات الرياضية أو الموسيقية الرفيعة دون الاحتياج إليها، ويتم توريثه للأجيال المتتالية؟ يجيب والاس نفسه بأن المخرج الوحيد من هذا التضاد هو القول بأن الذكاء الإنسانى الكامن منحة من «الذكاء الإلهى».

ولكن، كيف تفسر الداروينية المادية «تناقض والاس»؟

يعتبر الدراونة الملكات العقلية المتقدمة إحدى مظاهر وتطبيقات ما أسموه بـ«الذكاء العام General Intelligence»، والذى أرجعوه إلى تراكم قدرات المخ التى اكتسبها كلما كبر فى الحجم وازداد فى التعقيد طوال ثلاثة ملايين عام. لقد استخدم الإنسان هذا الذكاء فى الصيد والزراعة والحرب والعلاقات الاجتماعية، وعندما ظهرت الحاجة استخدمه فى المعارف الأعقد، كالرياضيات والموسيقى وتصميم الآلات واختراع الأجهزة. ويضرب الدراونة على ذلك مثالًا بأن المخ قد استخدم حركات اليد فى الصيد والإمساك بفروع الأشجار، ثم استخدمها ـ عند الحاجة ـ فى الكتابة وعزف الموسيقى وتحريك العرائس والجراحة.

إن تهرب الدراونة من «تناقض والاس» بطرح فكرة «الذكاء العام» لا يحل المشكلة. فـ«الذكاء العام» يواجه نفس المشكلة التى واجهها «الذكاء الكامن»؛ فالماديون لم يخبرونا لِمَ وكيف يعطى التطور العشوائى الإنسان ملكات عقلية لن يستخدمها إلا بعد مئات الآلاف من السنين. ويُعَبِّر عبقرى علوم المخ والأعصاب راما شاندران عن رفضه لهذا الرأى بقوله: لا أتصور أن الذكاء الذى يُستخدم لتوجيه حربه لصيد ظبى، هو الذى يُستخدم فى حساب المثلثات والرياضيات المتقدمة.

كذلك ثبت أن الذكاء البشرى أنواع مختلفة (نظرية الذكاء المتعدد لهاورد جاردنر)[1]، كل منها يضطلع بمهام محددة، وقد أمكن تحديد المراكز المخية لهذه الأنواع من الذكاء. إذًا ليس هناك ذكاء عامٌ كامن، ولا يصمد لتفسير الذكاء الكامن إلا قول والاس بأنه منحة إلهية..

(١) نتعرض لهذه النظرية فى الفصل القادم.

التعقيد والصفات المنبثقة[1]

آخر ما فى جعبة العلم المادى

> إذا وضعنا حبة رمل على منضدة، ثم وضعنا حبة أخرى ملاصقة لها، فإن كلًّا من الحبتين ستمارس ضغطًا على جارتها، وفى نفس الوقت تتأثر بقوى أخرى كالجاذبية الأرضية، والمحصلة النهائية هى تعادل القوى الفاعلة فتستقر كل حبة فى موضعها. وكلما أضفنا حبة أخرى زاد تعقيد العلاقة بين القوى فى كومة الرمل، لكن ستظل الكومة فى حالة استقرار.
>
> وأخيرًا، عند إضافة حبة رمل تالية، سينساب سيل من الرمل على جانب الكومة. قد لا يحدث ذلك إلا بعد أن أصبحت الكومة تحوى مليون حبة رمل (مثلًا)، ومع ذلك فإننا لم نحصل على واحد من المليون من السيل عند وضع حبة الرمل الأولى!

هذا مثال لما صار يُعرف بـ«النظام المعقد Complex System»، الذى يتميز بتفاعل عدد من القوى داخل النظام بحيث تظل هذه القوى متعادلة، وعند الوصول إلى مستوى معين من التعقيد تظهر سلوكيات جديدة فى النظام (مثل سيل الرمل)، وتُعرف هذه السلوكيات بـ«الصفات المنبثقة Emergent Properties للنظام المعقد»[2]. وينظر علماء الأعصاب إلى المخ باعتباره أشد النظم تعقيدًا فى الكون.

الملكات العقلية «كخواص منبثقة» عن المخ

إذا نظرنا إلى الخلية العصبية الواحدة، وجدناها قادرة على القيام بعدد محدود من الأنشطة مثل توليد جهد كهربائى، وفى غياب خلايا عصبية أخرى لا يوجد شىء يمكن توصيل هذا الجهد الكهربائى إليه. بهذا المنظور، تشبه الخلية العصبية حبة الرمل فى مثالنا السابق.

وإذا أضفنا للمنظومة خلايا عصبية واحدة تلو الأخرى ووصلناها ببعضها، فسيضاف إلى المنظومة الجهد الكهربائى لكل خلية جديدة، وقد تنبثق فجأة قدرات جديدة تمامًا فى هذه المنظومة التى صارت شديدة التعقيد. ويدعى الماديون أن هذا ما يحدث فى القشرة المخية الحديثة للإنسان العاقل ذات المليارات من الخلايا العصبية وتريليونات الوصلات، فلا تستغرب ظهور وظائف عقلية هائلة التعقيد، بالرغم من أن أمخاخنا وأمخاخ الكائنات الأدنى منا كثيرًا (كالفأر) متطابقة تمامًا على المستوى الكيميائى والكهربائى.

هذا هـو رأى القائلين بالتعقيد والصفات المنبثقة، كآخر ما فى جعبة العلم لتفسير كيف

---

(١) اخترت أن أعرض هذا المفهوم من خلال كتاب «هل نحن بلا نظير؟ Are we Unique?» تأليف جيمس تريفل، أستاذ الفيزياء بجامعة جورج مايسون، ترجمة ليلى موسوى - سلسلة عالم المعرفة، يناير ٢٠٠٦.

(٢) تحدثنا فى الفصل الخامس عن رأى الماديين حول ظاهرة الحياة باعتبارها إحدى الصفات المنبثقة.

يُنتج النشاط الكهروكيميائى للمخ ملكاتنا العقلية. وإذا كان هذا التفسير «**يصف ما يحدث بالفعل**» (وجود الملكات العقلية فى المخ شديد التعقيد) إلا أنه لم يبين «**كيف**» ينبثق العقل عن هذا التعقيد، أى أنه وصفٌ وليس تفسير، إنه قول لسد الثغرات التى يعجزون عن تفسيرها.

لم يقف الماديون عند هذا الحد من الخطأ، بل لقد أساءوا فهم الانبثاق؛ انظر إلى تلك العبارة التى ذكرها كارل ساجان فى كتابه «ظلال الأسلاف المنسيين»، يقول: إذا كان دماغ العنكبوت واحدًا على مليون من كتلة دماغنا، فهل سننكر عليه واحدًا على المليون من وعينا ومشاعرنا. نقول لكارل ساجان «لا»، إن قولك هذا يشبه القول بأن حبة الرمل الواحدة تحوى واحد على مليون من سيل الرمال (فى مثالنا السابق) وهذا قول مردود.

الانبثاق ليس إلا الخلق!!

يَعتبر كارل بوبر، فيلسوف العلم الأكبر فى القرن العشرين، أن الحياة والخبرات الواعية للحيوانات، ثم العقل والوعى الإنسانى بالذات وبالوجود، وما ترتب عليه من إبداع، هى ظواهر جديدة كل الجِدَّة على الوجود، ويصف ذلك بأن تطور العالم كان «**تطورًا انبثاقيًا Emergent**»، بل يستخدم أحيانًا اصطلاح المتدينين بأنه كان «**تطورًا خالِقًا Creative**».

لكن ما هو المقياس الذى يحتكم إليه بوبر ليعتبر أن وجودًا ما عمل إبداعى انبثاقى؟

يجيب بوبر: «عندما أقول ـ مثلًا ـ أن نشأة الإنسان عمل إبداعى فالدليل على ذلك أننا «**كنا غير قابلين للتنبؤ بنا قبل ظهورنا**»، مثلما كان يتعذر التنبؤ بانبثاق الحياة على الأرض من إدراك خصائص عناصر المادة الحية. ومن ثم فإن (عدم القابلية للتنبؤ) هو المقياس الذى نحكم به على الانبثاق والإبداع الجديد»[1].

(١) ونحن نضيف إلى أمثلة بوبر بعض الأمثلة:
- إذا وُجد عالِم فيزياء فى الكون الوليد بعد اللحظات الأولى من الانفجار الكونى الأعظم، هل يستطيع من معرفته بحالة الكون وقتها والقوانين التى تحكمه أن يتنبأ بما سيؤول إليه الكون بعد ١٣,٧ مليار سنة (الآن)؟ بالقطع لا... إذًا نشأة الكون الحالى عمل انبثاقى
- هل يستطيع هـذا العالِم من معرفة خصائص جزىء الهيدروجين (القابل للاشتعال) وأيضًا الأوكسجين (المساعد على الاشتعال) أن يتنبأ بنشأة جزىء الماء (الذى يُطفئ النار) والذى يتكون من هذين العنصرين؟ بالقطع لا...
- هل يستطيع إنسان مُلم بحروف اللغة العربية وقواعدها وأوزان الشعر وبحوره أن يتنبأ بقصائد ديوان شعر أحمد شوقى؟ بالقطع لا...

إذًا ظهور هذه الموجودات (الكون ـ الماء ـ شعر أحمد شوقى) عمل انبثاقى إبداعى.

إذا كان بوبر يتفق مع المتدينين فى استحالة التنبؤ بظواهر الحياة والوعى والعقل من خلال معرفة بنية العالم المادى، واعتبرها ظواهر جديدة تمامًا، وبالتالى طرح فكرة «التطور الخالق أو التطور الانبثاقى» وهى مجرد وصف لما حدث دون تفسير كيفية حدوثه، فلماذا لا يقبل التفسير البسيط والمباشر الذى يؤمن به المتدينون، وهو أن الإله قد خلق هذه العوالم الجديدة تمامًا على عالم المادة؟

يجيب بوبر عن هذا التساؤل بأن الفلسفة عندما تسعى لتفسير الظواهر قد ألزمت نفسها بما تحت أيدينا من أسباب، ولا تلجأ إلى الأسباب الميتافيزيقية مهما عجزت عن العثور على تفسيرات من عوالمنا الملموسة. أى أن الفلسفة تحرص على أن تظل نظرتها إلى الكون باعتباره كونًا مغلقًا مكتفيًا بما فيه، وليس كونًا مفتوحًا للتدخلات الخارجة عنه.

لا شك أن هذا التبرير لكارل بوبر غير مقبول، فأساطين الفلسفة اليونانية الثلاثة (سقراط - أفلاطون - أرسطو) وكذلك الديكارتيون[1] وكثير غيرهم من الفلاسفة كانوا من المؤمنين بوجود الإله وبدوره فى عملية الخلق.

هل يُعَد الكمبيوتر عقلًا ؟!

فى محاولاتهم للانتقاص من تفرد المخ والعقل الإنسانى والاحتفاظ بهما فى إطار المنظومة المادية، يقوم الماديون بترديد القول بـ«أن الدماغ مجرد كمبيوتر»، مستندين إلى قدرة الكمبيوتر على القيام بعمليات رياضية شديدة التعقيد بسرعة مذهلة، مقارنة بقدرة الإنسان. وقد بدأ تشبيه الدماغ بالكمبيوتر فى خمسينيات القرن العشرين، حين بدأ الناس فى التفكير فى الآلات الحاسبة، وحين كانت المعرفة المتوافرة عن الخلايا العصبية تعتبرها وحدات تعمل بالكهرباء، وفقط. ولو كان الناس يعرفون عن آليات المخ فى ذلك الوقت ما يعرفونه الآن لما ادعى أحد منهم ذلك القول[2].

---

(١) تشمل هذه المدرسة ديكارت، وسبينوزا، ولايبنتز،........

(٢) أعجبنى مثال يجسد هذا الخطأ طرحه أستاذ الفيزياء جيمس تريفل James Trefil فى كتابه «هل نحن بلا نظير؟»، يقول تريفل: تصور أن كائنًا فضائيًا زار كوكب الأرض وكان مهتمًا فى كوكبه بحركة السير والنقل، ورأى مدينة مزدحمة فى ساعة الذروة؛ أشخاص يقودون سيارات وشاحنات وقطارات ودراجات، وأراد أن يحاكى هذه المدينة، فصمم روبوتات تشبه البشر واشترى بعضًا مما رأى من وسائل الانتقال، وجعل هذه الروبوتات تقودها. ثم عقد الزائر مؤتمرًا صحافيًا أعلن فيه أنه قد صار يمتلك مدينة!.
لقد اختزل الكائن الفضائى المدينة فى «نظام المواصلات والنقل»، لا شك أن هذا خطأ بَيِّن. ففى المدينة الحقيقية توجد العديد من الأنشطة؛ ينتخب الناس الحكومات، يتعلمون فى المدارس والجامعات، يقعون فى الحب ويتزوجون، يتصارعون، يتسامحون... كل هذه الأنشطة هى التى تفرز نظام المواصلات والنقل.
يبين هذا المثال أن قيام الكمبيوتر بأحد الأنشطة المخية العديدة، وهى العمليات الرياضية، ليعيننا فى مختلف جوانب حياتنا، لا يضعه إطلاقًا فى مقارنة مع الدماغ البشرى.

إن القول بأن الدماغ يشبه الكمبيوتر قريب إلى حد بعيد جدًا من القول إنه يشبه الدراجة! فليس هناك سبب حقيقى مطلقًا يدفع أى شخص إلى الاعتقاد بأن الدماغ والكمبيوتر يمكن أن يكونا متشابهين، حتى لم يعد أحد من المتخصصين يدعى ذلك. ومع ذلك ظلت العبارة تتردد بين الكُتاب غير المتخصصين، ومنهم انتقلت إلى عوام الناس.

ويعجبنى استشهاد عبقرى الرياضيات والفيلسوف البريطانى سير روجر بنروز (الأستاذ فى جامعتى كمبريدج ثم أكسفورد) فى رفضه لهذا الادعاء؛ انظر إلى قوله:

إن من يدعى أن الكمبيوتر يشبه الدماغ كمن يدعى أن جهاز تشغيل DVD يفهم ويعى ما يذيع من أفلام وأغنيات وموسيقى، إن الفرق الكبير هنا هو الوعى والإحساس بما يفعل. وهناك فرق جوهرى آخر، هل تعلم أن «معامل ذكاء .I.Q» الكمبيوتر يعادل (صفر Zero)! ما أبسط وأقوى هذين الاستدلالين.

العقل قتل الفلسفة المادية والآن يدفنها

رأينا فيما مضى من الفصل كيف تعجز التفسيرات المادية عن تقديم آليات مقبولة لبزوغ كل ما ناقشنا من ملكات عقلية يتمتع بها الإنسان، ومع ذلك تظل بعض المفاهيم العقلية الأولية التى ينطلق منها العلم أشد استعصاء على التفسير بالنسبة للنظرة المادية/ الطبيعية وأكثر دلالة على الإله الخالق، وأهم هذه المفاهيم[1]:

أ- قدرة عقولنا على فهم ما يحيطنا

أشعر بالنشوة كلما قرأت مقولة أينشتين المشهورة: «إن أكثر الأشياء استعصاء على الفهم فى الكون أنه مفهوم».

فإذا كان العقل البشرى لم يشكل الكون، كما لم يحدد هذا العقل قدرتنا على الفهم، فمن هاتين المقدمتين يبزغ سؤالان يُعجزان العلم المادى:

كيف يدرك النشاط الكهروكيميائى لأدمغتنا حقيقة ما يحدث حولنا؟

وكيف تستطيع معادلة رياضية تدور فى عقل عالم رياضيات أن تصف وتتنبأ بما يحدث فى الكون خارج أدمغتنا؟

(١) ناقشنا هذه المفاهيم فى الثلاثة فصول الأولى من الكتاب، ونقوم بتجميعها هنا أثناء حديثنا عن العقل.

فلنُبَسِّط الأمر بمثال: إذا زار كائن فضائى كوكبنا، واستمع إلى عالم فى الفيزياء يتحدث عن درجات الحرارة فى المنظومات المختلفة (الجو المحيط، السوائل، جسم الإنسان ـ وهذه تقابل الكون) ثم شاهد فى أحد معامل الأبحاث جهازًا أُعد بدقة لقياس الحرارة (ترمومتر ـ وهذا يقابل أدمغتنا)، ألن يربط الزائر بين هذه المنظومات وبين وجود وتصميم ميزان الحرارة، أم سيعتبر أن كلًّا منهما وجود قائم بذاته ليس له علاقة بالآخر؟

ما سر هذا التناسق والتناغم والتكامل بين أدمغتنا وبين الكون؟!

ب ـ مصدر مفاهيمنا الأولية

- لا يستطيع الإنسان أن يتواجد فى مكانين فى وقت واحد.
- الجزء أصغر من الكل.
- النقيضان (مثل النور والظلام، والسخونة والبرودة) لا يجتمعان.
- لكل نتيجة سبب.

لقد اختلف المتخصصون ما بين منكر لفطرية مثل هذه المفاهيم ويعتبر أنها مكتسبة، وبين من يرى أنها فطرية بديهية ولا تحتاج لتفسير. ولا شك أننا نتفق مع الطرح الثانى فى فطرية بعض المفاهيم، لكننا نرفض ـ من منظور قانون السببية ـ ألا يكون لوجودها فى عقولنا تفسير كما يدعى الماديون. إن المنظور الدينى يقدم فى سلاسة ويسر التفسير المقبول، ومع ذلك لا بأس عندنا من قبول أى تفسير مادى معقول لو قدمه لنا الطبيعيون!

جـ. لماذا نُصَدِّقُ عقولَنا ؟!

يقوم العلم على الثقة فى قدرة عقولنا على التوصل إلى الحقيقة، فهل تم تصميم عقولنا قصدًا لتمكننا من معرفة الحقيقة ثم الإيمان بها؟

تمهيدًا للإجابة عن هذا التساؤل، نطرح ما يقدمه الملاحدة الجدد: يعتبر دوكنز أن الدافع التطورى لنشأة العقل ليس تحصيل المعرفة والوصول إلى الحقيقة إطلاقًا، ولكن المساعدة فى المنافسة من أجل البقاء، لذلك يعتبر الملاحدة أن الأفكار والمعارف التى ليس لها علاقة مباشرة

بالبقاء مفاهيم جانبية مصاحبة لوظائف العقل التى تخدم البقاء، ويعتبرونها «ظواهر عضوية عصبية تكيفية»(١) مثل إشاراتنا العفوية بأيدينا عندما نتحدث فى موضوع!

وقد طرح عالِم الوراثة البريطانى هالدون(٢) سؤالًا جوهريًّا حول هذا المفهوم منذ زمن طويل قائلًا: إذا كانت الأفكار فى عقولنا نتيجة لآلية غير موجهة غير عاقلة وهى حركة الذرات فى أمخاخنا (نشاط كهروكيميائى)، فلماذا نثق فيما تخبرنا به؟!

ويوجه الفيلسوف الأمريكى الشهير ألفن بلانتنجا طعنة نافذة لطرح دوكنز الأخير حين يقول: «إذا كان دوكنز مصيبًا فى أننا نتاج عملية طبيعية عشوائية لا عقل لها، فإنه بذلك يعطينا مبررًا قويًّا للشك فى كفاءة قدراتنا العقلية المعرفية، ومن ثم الشك فى أى معارف تنتجها عقولنا بما فيها علم دوكنز وإلحاده. إن دوكنز بذلك يضع علمه وإيمانه بالمذهب الطبيعى فى دائرة الشك وفى صراع عقلى ليس له علاقة بالإله». إن الإلحاد بذلك يفقدنا تمامًا الثقة فى أى برهان أو دليل على صحته، ويسمح لنا بأن نعتبره مجرد توهمات متعارضة.

ونختم الفصل بحقيقة دامغة يطرحها الفيلسوف الألمانى الكبير روبرت سبينان(٣) إذ يقول: إن الإلحاد الجديد لا يضعنا فى خيار بين الإله والعلم كما يدعى، بل بين الإيمان بالإله وبين التخلى عن قدرتنا العقلية على فهم الكون. فببساطة إذا لم يكن هناك إله (كمصدر عاقل حكيم لأمخاخنا العاقلة الحكيمة) فلن يكون هناك أساس منطقى للثقة بعقولنا، ومن ثم لا ثقة فى العلم، بل لا ثقة فى الحقيقة . بذلك يفقد العلم والحقيقة مصداقيتهما وضمانتهما.

القارئ الكريم...

يتبنى المنظور الإسلامى أن النفخة الغيبية التى نسبها الله ﷻ إليه (الروح) هى المسئولة عن القدرات العقلية التى يتمتع بها الإنسان. بينما يُرجع المنظور المادى هذه القدرات إلى زيادة حجم وتعقيد القشرة المخية للرئيسيات نتيجة للانتخاب الطبيعى من بين طفرات عشوائية، لذلك يعتبر أن العقل نشاط مباشر للمخ يقوم به كما تقوم الكلى بإفراز البول.

وقد أثبتت علوم النفس والتربية أن الفرق الجوهرى بين النشاطات العقلية للإنسان ولغيره من الرئيسيات يتركز فيما يُعرف بـ«نظرية العقل»، وتعنى القدرة على تصور ما يدور فى

(١) Adaptive Neurophysiological Phenomena

(٢) J.B.S. Haldone: (١٨٩٢ - ١٩٦٤م).

(٣) Robert Spaenann: من كبار الفلاسفة الألمان المسيحيين الداعين لحقوق الإنسان. ولد عام ١٩٢٧.

عقل الآخر. كذلك أصبح الإنسان يتميز بـ«طفرة معرفية» نوعية تتمثل فى قدرته على أن يصيغ معارفه على هيئة تساؤل منهجى: «مَنْ» «فعل» «ماذا» «لمن»، و«متى» و«أين» و«لماذا»؟

ولا شك أن الإنسان يتمتع بقدرات عقلية تفصيلية ميزته عن غيره من الرئيسيات، أهمها الإدراك والفهم والتفكير، وحرية الإرادة والقدرة على الاختيار، وأنه كائن خيالى له القدرة على الانتقال العقلى عبر الزمن، يؤمن أن وراء كل ظاهرة سببًا، وله القدرة على ابتكار الأدوات، ويحركه حب الاستطلاع والبحث، كما أنه كائن اجتماعى أكثر من أى كائن آخر، وبالإضافة إلى ذلك كله له القدرة على خرق حدود المكان والزمان لإدراك أحداث خارج قدرات حواسه الخمس!

ولا شك أن استعمال الإنسان للغات الإنسانية (نطقًا وكتابة) من أهم سمات البشرية، وقد ثبت أن اللغة لم تنشأ تطورًا عن وسائل تواصل الرئيسيات، فما أوسع البون بين كليهما، بل كان ظهور اللغة الإنسانية انبثاقًا مفاجئًا حدا حجة علوم اللغة نعوم تشومسكى لأن يطلق عليه الانفجار اللغوى الأعظم.

وكذلك تذوق الجمال، فهو ملكة إنسانية تخضع لقوانين شديدة التركيب، تتناغم بشكل مذهل مع قدرة العقل على الإدراك والفهم، ومن ثم فهى أيضًا (كاللغة) تختلف جذريًا عن التذوق الجمالى الغريزى البسيط الذى تتمتع به بعض الحيوانات.

ويتهاوى ما يدعيه الماديون من أن الألوهية والدين ابتداع إنسانى وظاهرة تبريرية وكذلك اعتبارهم المشاعر الروحية أوهام نفسية وهلاوس، يتهاوى ذلك أمام ما أثبته العلم الحديث من أن الوجود الغيبى وجود حقيقى وأن ما يستشعره الإنسان من مشاعر روحية مسئول عنها وظائف مخية سوية. كما أثبت العلم وجود تكامل بين بنية المخ البشرى وبين منظومة الدين، يعجز التطور الداروينى عن تفسيره.

ولا شك أن ما يتمتع به العقل من مفاهيم أولية، وأهمها قدرة عقولنا على فهم ما يحيط بنا، وما نتمتع به من ثوابت بديهية، وميل لتصديق ما تتوصل إليه عقولنا، من الأعمدة الأساسية التى يقوم عليها العلم، بالرغم من عجزه تمامًا عن تفسير نشأة هذه المفاهيم!

وإذا كان آخر ما فى جعبة العلم المادى لتفسير بزوغ العقل البشرى هو مفهوم «الانبثاق»،

الذى يعنى أن المخ البشرى ما أن وصل إلى تعقيده الهائل حتى تحلى بالعقل، فإن الانبثاق ليس إلا وصف لما حدث ولا يقدم تفسيرًا لآلية ذلك.

ومن العوائق الكبرى أمام التفسيرات المادية/ الطبيعية لبزوغ العقل أن ما يمتلكه الإنسان من ذكاء يتجاوز كثيرًا مهام العقل الوظيفية والحياتية والجنسية، مما يعنى أن نشأته تقع خارج قدرات التطور الداروينى العشوائى، إذ إن هذا التطور لا يعطى الإنسان قدرات احتياطية كامنة وليس له رؤية مستقبلية..

والأخطر من هذا كله، أن الإلحاد الجديد لا يضعنا فى خيار بين الإله والعلم كما يدعى، بل بين الإيمان بالإله وبين التخلى عن قدرتنا العقلية على فهم الكون. بذلك يفقد العلم والحقيقة مصداقيتهما وضمانتهما.

لذلك يبقى القول بالتصميم الذكى الذى وراءه إله حكيم قادر هو التفسير الأبسط والأنسب لكل الشواهد العلمية عن ملكات الإنسان العقلية.



الفصل التاسع

الألوهية ـ والدين ـ والأخلاق

بين الإله والإلحاد

- ـ الألوهية ـ الدين ـ الأخلاق، فى المنظور الإسلامى
- ـ العلم ينطق بالحق
  - ـ كائن عاطفى، خلوق، متدين
  - ـ مع علم النفس
  - ـ والآن إلى كلمة البيولوجيا
  - ـ مراكز التدين فى المخ
- ـ الألوهية ـ الدين ـ الأخلاق، فى المنظور المادى/ الإلحادى
  - ـ الداروينية الاجتماعية
  - ـ علم النفس التطورى
  - ـ البيولوجيا الاجتماعية
  - ـ التفسيرات المادية فى الميزان
- ـ المسألة الأخلاقية
  - ـ الأنانية، الإيثار، الضمير
  - ـ نشأة الدوافع الأخلاقية عند الدراونة
  - ـ أخلاق بلا أخلاق
  - ـ هل تصلح البيئة مصدرًا للأخلاق؟
- ـ ليسوا لا دينيين، إنهم ضد الدين
  - ـ بل ضد الإسلام
- ـ مصائب دين الإلحاد
  - ـ الإلحاد المسالم!
  - ـ الإلحاد الأصولى أشد خطرًا
  - ـ جهل أم تزوير: تاريخ الماركسية والنازية
  - ـ التشخيص النهائى
  - ـ إلحاد الاستنارة مصدر العنف
- ـ القارئ الكريم

«إذا لم يكنْ الإلهُ موجودًا ... فإن كلَّ شيءٍ مباح»

دستوفسكى

«الأخوة كرامازوف»

تمثل الألوهية والدين والأخلاق فى المنظور الإسلامى متتالية، تبدأ بالإيمان بالله ﷻ الذى أنزل الدين، وجعل من أساسياته استكمال المنظومة الأخلاقية للإنسان. ولتأصيل هذه المنظومة فى النفس الإنسانية استخدم الإسلام منهجًا من **ثلاث آليات تعمل بشكل متتال:**

الفطرة ـ الرسالة ـ العقل

أما الفكر الإلحادى، فيرفض هذه الآليات الثلاث، ويرى أن الإنسان قد اكتسب الحس الإلهى والحس الدينى والحس الأخلاقى بنفس الطريقة التى اكتسب بها سماته الأخرى، وهى التطور لتحقيق المصلحة، أى أن «الحاجة أم الاختراع». ويقصدون بذلك أن الإنسان فى مواجهة قوى الطبيعة والشرور والآلام بحث عن قوة كبرى يستشعر فى وجودها الدعم والأمان، فاخترع على المستوى العقلى والنفسى مفهوم الألوهية ومفهوم الدين. وهذا ما يقصده نيتشه بقوله: «**إن الإنسان هو الذى خلق الإله !**».

ويرى الملاحدة كذلك أن الإنسان قد ابتكر **المنظومة الأخلاقية** عندما وجد أن الالتزام الأخلاقى يحقق له حسن السيرة وخلود الذكر فى الحياة، ويشعره بالرضا عند مقاومته للشر! ويضيف البعض أن الإنسان يفعل الخير لذات الخير! وأخيرًا وقبل كل شىء أدرك الإنسان أنه إن لم يستمسك بالأخلاق فسنغرق جميعًا!

والآن إلى كلمة العقل والعلم لتكون الحَكَم فى هذه القضية.

الألوهية ـ الدين ـ الأخلاق
فى المنظور الإسلامى

يعتمد الإسلام فى بناء المنظومة الإيمانية على آليات ثلاث، هى «**الفطرة والرسالة والعقل**». وبالرغم من أننا لا ننطلق فى تفنيدنا لحجج الملاحدة من الدين، فقد فضلنا أن نبدأ طرحنا بعرض هذه الآليات وإظهار منزلتها فى القرآن الكريم، ثم نسترشد عليها بالأدلة العلمية والفلسفية، حتى نتيح للقارئ الفرصة أثناء إبحاره فى هذا الفصل ليوائم بين كلمة العلم ومنهج الإسلام.

يخبرنا القرآن الكريم أن الله ﷻ قد وضع «**فطرة**» الدين والإيمان به فى النفس البشرية ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ... ﴿٣٠﴾ ﴾[الروم]، وقد كان وضع الفطرة فى نفوس البشر بغير واسطة من مَلَك مُقَرَّب أو نبى مُرسل، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ .... ﴿١٧٢﴾ ﴾[الأعراف]. وهذه الفطرة تقف وراء شوق الإنسان وشغفه للبحث عن الإله الحق والدين الحق.

ويشير القرآن الكريم إلى أن الفطرة تكاد تصل بالإنسان إلى الهداية وإن لم تصله الديانات السماوية ﴿ ... يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ... ﴿٣٥﴾ ﴾[النور] أى أن نور الوحى يضاف إلى نور الفطرة لتكتمل إنارة طريق الهداية للإنسان.

وبالنسبة «**للرسالات السماوية**»، يخبرنا القرآن الكريم أن الله ﷻ لم يترك أمة دون أن يرسل لها من يُعَرِّفها دينها ﴿ ...وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر]. وقد جاءت الرسالات السماوية لتُعَرِّف الإنسانَ بربه وبدينه، وتُذَكِّره بالميثاق الذى وضعه الله ﷻ فى فطرته، لذلك يكرر القرآن الكريم كثيرًا فى آياته قول الحق ﷻ : ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

وبعد الفطرة والرسالة يأتى دور «**العقل**»، فنجد القرآن الكريم يكرر الدعوة إلى التعقل قُرابة الخمسين مرة، ويؤكد فاعلية العقل بقوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ... ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]. ويبين القرآن أن من يعطل مَلَكة العقل ويحرم نفسه من عطائها يصير كالأنعام أو أضل.

العلم ينطق بالحق

تصف كارين أرمسترونج[1] الإنسان فى كتابها «تاريخ الإله» A History of God بأنه كائن روحى، وتقترح للجنس البشرى اسمًا آخر، ليصبح **Homo-religious (الإنسان الدَّين) بدلًا من Homo-sapiens (الإنسان العاقل)**. وتؤكد د. أرمسترونج بذلك أن المفاهيم الدينية فطرية عند الإنسان، ومن ثم من المستحيل استئصال شأفة الدين من النفس الإنسانية كما يطمع الملحدون، أى أن الأمر ليس «وهم الإله The God Delusion» كما يَدَّعى ريتشارد دوكنز.

فما هى صفات الإنسان ومستجدات العلم التى تقف وراء رؤية كارين أرمسترونج؟:

كائن عاطفى، خَلوق، متدين

يخبرنا إدوارد ويلسون[2] (أستاذ البيولوجيا الاجتماعية فى جامعة هارفارد) أن الإنسان عاطفى بطبعه، وأن هذا الحس مُسَجَّل فى جيناتنا.

كما يخبرنا جيمس واطسون [3] فى كتابه DNA، أن المفاهيم الأخلاقية Moral Codes مدموغة فى جينات الإنسان منذ نشأته، وقبل وجود الديانات.

كذلك يخبرنا روبرت وينستون[4] رئيس الاتحاد البريطانى لتقدم العلوم فى كتابه «الفطرة البشرية» أن الحس الدينى جزء من بنيتنا النفسية، وأنه مسجل فى جيناتنا، وأنه يتراوح قوةً وضعفًا من إنسان لآخر.

---

(١) Karen Armstrong: مفكرة إنجليزية مهتمة بالأديان، تدور كتاباتها حول اتفاق الأديان الرئيسية فى نفس المفاهيم، وتعتبر أن الحل الجذرى لجميع مشاكل الإنسانية هو «أن تعامل الناس كما تحب أن يعاملوك». ودعت فى فبراير ٢٠٠٨ إلى تشكيل مجلس عالمى للتوفيق بين المسلمين والمسيحيين واليهود. وهى شديدة الاهتمام والاحترام للإسلام، وقد أصدرت عنه عدة مؤلفات عقب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١. ولدت عام ١٩٤٤.

(٢) Edward O.wilson: من المهتمين بالفلسفة والأديان وحقوق الإنسان. حصل على جائزة بوليتزر العالمية مرتين. يُعتبر كتابه وحدة العلوم Consilience من أحسن ما كُتب عن العلاقة بين البيولوجيا والطبيعة الإنسانية. ولد بالولايات المتحدة عام ١٩٢٩.

(٣) James watson: ولد بالولايات المتحدة عام ١٩٢٨، والتحق بجامعة شيكاغو وعمره ١٥ عامًا. حصل على الدكتوراه فى علم الوراثة عام ١٩٥٠. حصل على جائزة نوبل عام ١٩٦٢ (مشاركة مع فرانسيس كريك وموريس ويلكنز) لتوصله إلى اكتشاف تركيب جزىء الدنا DNA، وما زال يعمل فى مختلف مجالات الأبحاث البيولوجية.

(٤) Robert Winston: إنجليزى، يعمل كأستاذ وعميد معهد أمراض وجراحة النساء والتوليد بلندن، وله أبحاث مشهورة فى مجال أطفال الأنابيب والحيوانات المنوية والخلايا الجذعية. وهو كاتب وإعلامى شهير. ولد عام ١٩٤٠.

ويؤكد مايكل شيرمر[١] (رئيس تحرير مجلة الشَّكَّاك) أن الشعور بثنائية الجسد والروح أمر فطرى مزروع فينا منذ ولادتنا. ويؤيد نفس المعنى بول بلوم[٢] (أستاذ علم النفس بجامعة ييل بالولايات المتحدة) قائلًا: «إننا كائنات ثنائية (جسد وروح)، دُمِغَ فى جيناتنا (HardWired) الإيمان بحياة أخرى تحيا فيها الروح بعد مغادرة الجسد الفانى. إن هذا الإيمان هو أصل الفطرة الدينية»[٣].

ولا شك أن هناك علاقة فطرية قوية بين عناصر هذا الثالوث: كَوْن الإنسان مخلوق عاطفى، وتبنيه للمفاهيم الأخلاقية، واستجابته للمشاعر الدينية.

والآن إلى كلمة البيولوجيا

توصل دين هامر[٤] (رئيس وحدة أبحاث الجينات بالمعهد القومى للسرطان بالولايات المتحدة) إلى أن الإنسان يرث مجموعة من الجينات التى تجعله مستعدًا لتقبل مفاهيم الألوهية والدين **God Gene Hypothesis**.

وقد خرج هامر بهذا المفهوم بناء على الأبحاث التى أجراها على جينات السلوك، وعلى دراسات بيولوجيا الأعصاب وعلم النفس، ونشر نتائج هذه الأبحاث فى كتابه «جين الألوهية The God Gene: How faith is Hardwired in our genes»، عام ٢٠٠٤ [٥].

وكما تتوقع، واجه كتاب دين هامر «جين الألوهية» معارضات من بعض الأوساط العلمية. وربما يرجع ذلك إلى اسم الكتاب الذى استفز الماديين، بالرغم من أن ما يطرحه من مفاهيم علمية ليس بجديد!، فقد طرحها من قبل علم النفس وعلوم المخ والأعصاب[٦].

(١) Michael Shermer: أمريكى، أستاذ الاقتصاد بجامعة كلاريمونت، مهتم بالفلسفة والعلوم. يرأس تحرير مجلة Skeptic التى تصدرها جمعية Skeptics التى تضم ٥٥,٠٠٠ عضو، وتهتم بتنقية العلم مما يحيط به من ضلالات. ولد عام ١٩٥٤.

(٢) Paul Bloom: يعمل كأستاذ لعلم النفس بجامعة ييل، مهتم بكيف نتعرف على العالم المحيط. ولد عام ١٩٦٣ بكندا.

(٣) جاء هذا الطرح فى كتابه: Descartes baby: How the Science of child development explains what makes us Human الذى نُشر عام ٢٠٠٤.

(٤) Dean Hamer: ولد عام ١٩٥١ بالولايات المتحدة.

(٥) من أهم الجينات المسئولة عن هذا الاستعداد هو الجين المعروف بـ VMAT2. هذا الجين مسئول عن تكوين ناقل كيميائى بالمخ يُعرف باسم Vesicular monamine transporter، ومسئول عن تحديد مستوى عدد من الناقلات الكيميائية التى تنظم عمل المخ (السيروتونين - الدوبامين - النورأدرينالين). كما أن له دورًا فى توجيه نشأة مراكز المخ المسئولة عن المشاعر الروحية والمفاهيم الغيبية.

(٦) كرد فعل للكتاب، طرحت مجلة تايم Time فى عدد ٢٥ أكتوبر ٢٠٠٤ موضوعًا مهمًّا بعنوان «جين الألوهية»، تؤكد فيه أن الشعور بالإله، والرغبة فى التوجه إليه بالعبادة، وكذلك الشعور بوجود النعيم والعذاب فى حياة أخرى بعد الموت، أمور فطرية عند البشر، فى كل الحضارات عبر التاريخ وعبر الجغرافيا. =

وإذا كان الماديون يؤمنون أن كل سلوكيات ومشاعر الإنسان تحكمها الجينات (الحتمية الجينية)، فلماذا يستبعدون ذلك مع السلوكيات والمشاعر الدينية؟! إن ما فعله دين هامر (وهو ليس متدينًا) أنه توصل إلى الجينات المسئولة عن التوجهات الدينية، وهو ما يتمشى مع منظومة الماديين، فما وجه اعتراضهم؟!

مع علم النفس

قبل كتاب دين هامر بعشرين سنة، طرح د. كلود كلوننجر[1] (أستاذ علم النفس والطب النفسي وعلوم الوراثة بجامعة واشنطن) «**نظرية المزاجات والأخلاق الوراثية Temperament And Character Inventory**» والتي صارت من المفاهيم الثابتة في الأوساط العلمية. في هذه النظرية، طرح كلوننجر **ثلاث مجموعات من الأخلاق الوراثية** (تمهد جيناتنا للتخلق بها) **تحدد** ميول البشر الإنسانية والأخلاقية والروحية. وهذه الأخلاق هي:

١- **مصداقية الذات** Self-Directedness: وتشمل وضوح الأهداف Purposefulness، وكَوْن الإنسان أهلًا للثقة Reliable (وهي صفات خاصة بذات الإنسان).

٢- **التعاون** Cooperativeness: ويشمل استعداد الإنسان لمساعدة الآخرين Helpful وتَحَمُّلهم Tolerant والعزوف عن الانتقام Non-Revengeful (وهي صفات **تحكم** تعامل الإنسان مع الآخرين).

٣- **تجاوز الذات** (السمو النفسي) Self-Transcendence: ويشمل الميول الروحية Spiritualness والإبداع Creativity **وإنكار الذات** Self - forgetfulness **والبعد عن المادية** Non-Materialism (وهي صفات خاصة بالمفاهيم العلوية).

وإذا تأملنا هذه المجموعات الثلاث من الأخلاق، وجدنا أنها تمثل «**الأساس النفسي**» **لفطرة التدين وفطرة المنظومة الأخلاقية في الإنسان، ثم تقوم «التربية» بتنمية هذه التوجهات.**

= ومن أوضح الأمثلة على ذلك، اهتمام الفراعنة الشديد بالموت والتحنيط وما بعد الموت. ويظهر ذلك في المعابد الضخمة وفي رسوم المقابر الفرعونية، وكذلك البرديات مثل كتاب الموتى. وقد أظهرت الدراسات اهتمامًا مشابهًا عند القدماء في الهند والصين وأمريكا الجنوبية وإسبانيا وفرنسا وبريطانيا والسويد.

(١) Claud Robert Cloninger: وُلد في الولايات المتحدة عام ١٩٤٤. وهو رائد في أبحاث الجينات وبيولوجيا الأعصاب والطب النفسي والأمراض النفسية، وقد شغل منصب الأستاذية في هذه التخصصات، وشغل أيضًا منصب مدير مركز الصحة النفسية في جامعة واشنطن. وهو الناشر الرئيسي لعدد من المجلات العلمية المحترمة في الطب النفسي والوراثة، واشترك في تأليف أربعة كتب وأكثر من ٤٠٠ بحث علمي.

وقد كُرِّم كلوننجر بالعديد من الجوائز ، منها العضوية مدى الحياة في الأكاديمية الأمريكية للعلوم، وحصل عام ٢٠٠٩ على جائزة اتحاد الأمراض النفسية الأمريكي لجهوده لفهم الإنسان بشكل متكامل (جسم - عقل - نفس - روح).

وتقوم جينات معينة (فى الجنين وفى مرحلة الطفولة) بتكوين الدوائر العصبية المسئولة عن هذه الصفات فى المراكز الخاصة بالتعلم وبالمفاهيم المُسْبَقة فى القشرة المخية الحديثة **Neocortex**، التى يتميز بها الإنسان عن باقى الثدييات.

الذكاء الروحى (الوجودى)

تَطَرَّق اهتمام علماء النفس فى السنوات الأخيرة إلى أنواع من الذكاء غير تلك المسئولة عن القدرات العقلية للتحصيل الدراسى، فظهرت عدة نظريات فى هذا المجال، أهمها نظرية الذكاء المتعدد **Multiple Intelligence Theory** [1] لهاورد جاردنر. وقد أثبتت نظرية جاردنر وجود عدة أنواع وليس نوعًا واحدًا من الذكاء الإنسانى، يشكل كلٌّ منها نَسَقًا مستقلًا خاصًا به، ويشغل كلٌّ منها مركزًا مستقلًا فى المخ تم تحديده بالفحوصات الإشعاعية الحديثة.

طرح جاردنر فى نظريته ثمانية أنواع من الذكاء[2]، ثم أَتْبعها بما أطلق عليه اسم «الذكاء الروحى Spiritual Intelligence»، وقد وجد هذا الاصطلاح معارضة كبيرة ممن يعتبرون أن كل ما ينسب إلى الروح ليس بعلم، فاستبدله جاردنر باصطلاح «الذكاء الوجودى Existential Intelligence» ووصف فيه كل ما نسبه إلى الذكاء الروحى، وهو يهتم بالقضايا فوق الحسية وبالقضايا الأساسية للوجود الإنسانى[3].

(١) قدّم هذه النظرية هوارد جاردنر Howard Gardner الأستاذ بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة لأول مرة عام ١٩٨٣ فى كتاب بعنوان «أطر العقل»، واستمر فى تطويرها لما يزيد على عشرين عامًا.

(٢) أنواع الذكاء الثمانية هى: الذكاء اللغوى ، الذكاء المنطقى - الرياضى، الذكاء المكانى، الذكاء الموسيقى، الذكاء الجسمى - الحركى، ذكاء العلاقة مع الآخرين، ذكاء فهم الذات، الذكاء التصنيفى.

(٣) مكونات الذكاء الروحى:

١- الوعى بالذات: معرفة معتقداتى، وموقعى من الوجود، ودوافعى العميقة.
٢- إدراك أن العالم المادى جزء من حقيقة أكبر، تربطنا بها علاقات.
٣- القدرة على طرح الأسئلة المعرفية النهائية، والقدرة على فهم الإجابة عنها.
٤- القدرة على التسامى على المفاهيم المادية، إلى مستوى أرقى وأسمى وأعمق.
٥- الحياة تبعًا للمبادئ والعقائد والـمُثُل.
٦- أخذ المفاهيم الروحية فى الاعتبار فى تعاملاتنا اليومية.
٧- امتلاك قناعة شخصية تجاه الأمور، وإن اختلفت مع الأغلبية.
٨- التواضع، وإدراك حجمنا الحقيقى فى العالم، والشعور بأننا أفراد من فريق.
٩- قبول الآخر المختلف عنا.
١٠- الاستجابة لنداء الفطرة لمساعدة الآخرين.
١١- الاستقامة الأخلاقية، والتمسك بالعفة والطهر.
١٢- الشعور بأن سعادتى تنبع من داخلى، وليس من الإنجاز العملى أو المادى.
١٣- نفاذ البصيرة وقوة الحدس.

مراكز التدين فى المخ

فى كتاب «أشباح فى المخ Phantoms in the Brain» يبين د.راماشاندران[١] (أستاذ ورئيس مركز أبحاث بيولوجيا المخ والأعصاب بجامعة كاليفورنيا) أن الإيمان بأمور ما وراء الطبيعة منتشر فى جميع الحضارات القديمة والحديثة، مما يحتم علينا أن نبحث عن أصوله البيولوجية فى المخ، فلا شىء يميز الإنسان عن باقى الكائنات مثل هذا الأمر. ولدراسة ذلك تم تأسيس علم جديد باسم **Neuro - Theology** [٢]، ويختص بدراسة الأسس البيولوجية العصبية للروحانيات.

ومن المهتمين بهذا العلم د. آندرو نيوبيرج و د. يوجين داكويلى[٣]. وقد أجرى العالِمان أبحاثهما على الرهبان البوذيين والراهبات الفرانسيسكان أثناء تأملاتهم وصلواتهم، وتوصلا إلى أن المشاعر الروحية تصحبها تغيرات حقيقية (أمكن ملاحظتها وتسجيلها وتصويرها) فى نشاط الجهاز الحوفى Limbic System المسئول عن الانفعالات، وكذلك فى القشرة المخية فى المنطقة المسئولة عن الاستيعاب والإدراك Oriention Association area [٤]. وفى المقابل فإن تنشيط هذه المراكز من الخارج يؤدى إلى الإحساس بمشاعر روحية فياضة. معنى ذلك أن المشاعر الروحية ليست مجرد أوهام أو تخيلات بل إن لها مراكزها العصبية فى المخ. لذلك يؤكد الباحثان، أن المخ البشرى قد تم تشكيله بحيث يستجيب للمشاعر الدينية[٥].

بذلك أصبح الاستنتاج الذى لا مفر منه، هو أن المخ البشرى وكذلك جيناتنا قد تم إعدادهما للتعامل مع المنظومة الإلهية والدينية.

(١) V. Ramachandran: ولد فى الهند عام ١٩٥١. يوصف راما شاندران بأنه ماركوبولو علوم المخ والأعصاب (الرحالة والمستكشف الشهير فى العصور الوسطى) وبأنه بول بروكا العصر الحديث (مؤسس علوم المخ والأعصاب).

(٢) كذلك تم تأسيس علم Geno-Theology لدراسة الأسس الجينية للروحانيات. ويجمع العلمين علم Bio-Theology الذى يدرس الأسس البيولوجية للروحانيات.

(٣) Andrew Newberg: أستاذ الأشعة التشخيصية ومدير مركز أبحاث المخ والدراسات الروحية بجامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة. و Eugene D'Aquili أستاذ الأمراض النفسية بنفس الجامعة. وسُجلت نتائج الأبحاث فى كتابَىْ «لماذا يأبى الإله أن يختفى؟» Why God Won't go away? 2001، و«كيف يُغَيِّر الإيمان بالله المخ؟» How God Changes your Brain? 2009

(٤) تقع عند التقاء فصوص المخ: الجدارى والصدغى والخلفى.

(٥) إن هذا التوافق بين بنية الدين وبنية المخ البشرى يمتد إلى بيولوجيا الجسم الإنسانى، وينعكس بشكل إيجابى على صحته الجسدية والعقلية والنفسية. وحول هذا المعنى يقول أندرو سيمز Andrew Sims، عالِم الفيزياء بمركز «الطب الخلوى Cellular Medicine» بنيو كاسل بإنجلترا: إن «الآثار الإيجابية» للإيمان الدينى والروحانيات على الصحة الجسدية والعقلية والنفسية من أهم أسرار علم النفس والطب بصفة عامة. وإذا كانت الأبحاث العديدة والمكثفة التى أجريت فى هذا المجال قد أشارت إلى نتائج سلبية على الصحة لوجَدْتَ الأخبار تملأ الصفحات الأولى فى جميع صحف العالم.

يتضح مما سبق توافق كلمة العلم مع كلمة الإسلام بخصوص الأصول الفطرية لمتالية (الألوهية ـ الدين ـ الأخلاق) فى النفس البشرية، فما هو الطرح المادى/ الإلحادى لتفسير هذه المتالية؟

الألوهية ـ الدين ـ الأخلاق
فى المنظور المادى/الإلحادى

يرفض الملاحدة القول بأسس فطرية للحس الإلهى والحس الدينى والحس الأخلاقى. كما يرفضون القول برسالات سماوية تُعَرِّف الإنسان بالإله وبالدين وتنبهه إلى هذه المشاعر الفطرية التى كثيرًا ما يطمسها الشق المادى فى بنيته. ولا شك أن الملاحدة يرفضون كذلك دلالة العقل على هذه المنظومة.

ويعتبر الملاحدة بزوغ ثلاثية (الألوهية ـ الدين ـ الأخلاق) **أحد نتائج التطور الداروينى** أثناء صراع الإنسان فى مواجهة قوى الطبيعة والشرور والآلام. وقد تطورت نظرة الفكر المادى إلى نشأة هذه الثلاثية، لكنها ظلت أسيرة لفكرة واحدة، وهى أن **«الحاجة أم الاختراع»**! وكانت النتيجة مزيجًا من العلوم المتداخلة التى **تتفق فى رفض المفاهيم الدينية**:

الداروينية الاجتماعية Social Darwinism [1]

فى كتابه الأول «أصل الأنواع» لم يتعرض داروين للجانب الاجتماعى لنظريته، لكنه طرحه فى كتابه الثانى «أصل الإنسان». فسر داروين نشأة الأخلاق بالمبدأين المتكاملين؛ **«الصراع من أجل البقاء»** و**«البقاء للأصلح»**، أى اعتبر أن الأخلاق الإنسانية (ثم القول بالألوهية والدين) قد تطورت ثم استقرت تبعًا لما يحقق للإنسان المصلحة والتفوق.

وانطلاقًا من هذين المبدأين، قال داروين (ومريدوه) بتفوق الأجناس الأعلى (القوقازى) على الأجناس الأدنى (التركى)! ومن ثَمَّ ادعاء تفوق الجنس الآرى Eugenics. وبالرغم من أن هذه العنصرية البغيضة تعتبر من أكبر الأكاذيب فى تاريخ علم الاجتماع، فقد أدت إلى ميلاد اثنين من أسوأ النظم الاجتماعية والسياسية وأكثرها كُلفة فى التاريخ؛ الشيوعية فى الاتحاد السوفيتى والنازية فى ألمانيا.

(١) رغم أن الداروينية الاجتماعية استمدت اسمها من داروين، إلا أن الأفكار التى تشير إليها سابقة لكتاباته، وتعتمد على العديد من مؤلفات باحثين آخرين، أمثال هربرت سبنسر، وتوماس مالتوس، وفرنسيس جالتون.

فهل مثل هذه الآلية الصراعية العنصرية هى بحق مصدر مفاهيمنا الأخلاقية والإلهية والدينية؟!

أما ألفريد والاس (نظير دارون) فقد رفض المنظور الداروينى، وكتب عام ١٨٦٤ يتساءل: «كيف أفرز الانتخاب الطبيعى المفاهيم الأخلاقية الجيدة، كالمنطقية والإيثار؟!». ويرى والاس أن مبدأى «الصراع من أجل البقاء» و«البقاء للأصلح» قد أديا إلى تفوق الإنسان الحديث على حساب الإنسان البدائى، الذى انقرض نتيجة لعدوانية أجدادنا، أى أن بقاء الأول كان على حساب فناء الثانى. ولما كانت هذه النتيجة لا تتمشى مع منظومتنا الأخلاقية، فذلك يعنى أن لأخلاقنا مصدرًا آخر غير «الصراع»، ويرى والاس أن هذا المصدر ليس إلا الإله الخالق للعقل البشرى خلقًا مباشرًا.

البيولوجيا الاجتماعية Sociobiology

بعد أن توصل واطسون وكريك إلى بنية جزىء الدنا DNA وطريقة أدائه لوظائفه، بدأ الاهتمام بالانعكاسات الأخلاقية لهذا الاكتشاف.

يُعتبر إدوارد ويلسون أبو البيولوجيا الاجتماعية، وفى عام ١٩٧٥ أصدر كتابه «البيولوجيا الاجتماعية»(١)، الذى تبنى فيه أن الأخلاق «تكيف بيولوجى تطورى»، وأنها مجرد «أوهام» تصورها لنا جيناتنا لتنظم عملية التكاثر الذى يخدم بقاءنا. وقد واجه الكتاب هجومًا عنيفًا، إذ اعتبره البعض يبرر الاغتصاب ويروج للتمييز الجنسى للذكر على حساب الأنثى ولغيره من الأخلاق الدنية، وفى النهاية فهو يدعو إلى تلاشى المسئولية الفردية، ويقوض أسس محاسبة الإنسان على أخطائه. إنها أخلاق عجيبة هشة، تلك التى تخدعنا بها جيناتنا، ويتبنى ريتشارد دوكنز هذا المفهوم ويذهب به إلى أقصاه فى كتابه «الجين الأنانى»(٢).

علم النفس التطورى Evolutionary Psychology

ومع تقدم علم البيولوجيا الجزيئية (الجينات) وعلم النفس وامتزاجهما بمفاهيم التطور الداروينى ظهر علم النفس التطورى، الذى تبنى معظم مفاهيم الداروينية الاجتماعية والبيولوجيا الاجتماعية.

ويمثل تفسير نشأة الديانات التحدى الأكبر لعلم النفسى التطورى، فوضع لتفسير نشأتها

(١) Sociobiology: The New Synthesis

(٢) تعرضنا لآراء دوكنز عن الحياة فى الفصل الخامس، ونطرح المزيد منها فى الفصل العاشر.

العديد من الفرضيات المتشابهة إلى حد بعيد[١]، وتتبنى جميعها أن الديانات «أوهام تكيفية ذات وظيفة»، تعين الإنسان على مواجهة ما يعانيه من ضغوط وتهديدات فى هذا العالم الملىء بالشرور والمعاناة والقلق وأخيرًا الموت، وفى نفس الوقت تعين فى تنظيم المجتمع. لذلك ابتكر الإنسانُ الأبَ الذى فى السماء ليدعمه بما يملك من القوة والمعرفة والمحبة والرعاية. وقد جمع ديفيد ويلسون معظم الفرضيات التى تدور حول هذا المعنى فيما يُعرف بالتفسير الوظيفى للدين Functional Interpretation of Religion

التفسيرات المادية فى الميزان

لا شك أن كل ما طرحه الماديون لتفسير مصدر الألوهية والدين والأخلاق يقف وراءه رفض المفاهيم الغيبية، أكثر من كونه نظرات علمية أو شبه علمية. إن «الخطأ المزرى» الذى يقع فيه الماديون هو تصورهم أن وجود فوائد من وراء فكرة الإله والدين، يعنى أن الإنسان قد اخترعها لتحصيل هذه الفوائد. ومن ثم اعتبروا أنهم إذا أثبتوا وجود هذه الفوائد فقد أثبتوا أن الألوهية والدين من اختراع الإنسان! وكأن الإله إذا خلق لا ينبغى أن يحقق فائدة!!

> تأمل هذا المثال الذى يبين سخف تصور الماديين: انقطع التيار الكهربائى عن المكان الذى تسير فيه، ثم تنبهت أن معك التليفون المحمول، فاستخدمته لإضاءة الطريق، لقد كانت الفكرة مفيدة حقًا. هل يعنى ذلك أن التليفون المحمول مجرد وهم اخترعته لحاجتك إلى وجود الضوء! أم أنه وجود حقيقى؟! إن وجود الفائدة لا ينفى وجود الشىء بل يؤيده.

سبحان الله... لقد قلبوا الحقائق؛ عندما وجدنا علة للشىء تبرر وجوده ادَّعوا أن العلة دفعتنا إلى توهم الوجود! لقد جعلوا من وجود الغاية مدعاة لافتراض التوهم!!

المسألة الأخلاقية

الأنانية، الإيثار، الضمير[٢]

عندما يجلب أمر ما لأنفسنا اللذة والسرور فإننا نشعر تجاهه برغبة تحملنا على البحث

---

(١) يُعتبر فرويد من أشهر من تعرض لنشأة الديانات، واعتبرها «أوهامًا تهدف إلى تحقيق غاية» Wish Fulfillment. ويصف رودنى ستارك Rodney Stark نشأة الديانات بأنها «نتيجة منطقية» لحلم الإنسان بحياة فاضلة خالدة. ويرى باسكال بوير Pascal Boyer أن الأوهام الدينية من «توابع = الآثار الجانبية» تطور أمخاخنا إلى هيئتها الحالية، فصارت تحلم بعوالم غيبية تحقق فيها السعادة الأبدية. أما سكوت أتران Scott Atran فيرى أن الدين «عبء ذو فائدة اجتماعية» وأخيرًا وليس بآخر، يرى ستيفن بنكر Steven Pinker أن «الدين تكيف من أجل البقاء».
القارئ الكريم... أصدقك القول، أنى لا أجد فرقًا يُذكر بين هذه الفرضيات! فلا تنتظر منى المزيد من الإيضاح!

(٢) عن كتاب المشكلة الأخلاقية والفلاسفة، تأليف أندريه كريسون، وترجمة الشيخ د. عبد الحليم محمود. دار المعارف.

عنه والقيام به، وعندما يسبب لنا المعاناة أو الألم فإننا نشعر نحوه ببغض يدفعنا إلى الفرار منه وتحاشيه. وتُسمى هذه الدوافع «**بالميول الأنانية**»، وشعارها «**كل شيء لي ولو كان ذلك على حساب الآخرين**».

ومن الناس من يتصفون برقة العاطفة فيتألموا لآلام الآخرين ويُسَرّوا لسرورهم، ويسعوا للتخفيف من آلامهم وجلب السرور لهم، ويُسمى ذلك بـ «**المشاركة الوجدانية**». وإذا وصل الأمر إلى التضحية كان ذلك إنكارًا للذات، وأُطلق عليه «**الإيثار**». وهؤلاء يكون شعارهم: «**كل شيء للآخرين ولو كان ذلك على حسابي**».

وعندما نبلغ سن الرشد، يتشكل لنا «ضمير» يشعرنا أن عملًا ما واجب التنفيذ، وآخر واجب الترك، وثالث مباح. فإذا فعلنا (أو تركنا) ما هو واجب شعرنا بلذة الرضا الأخلاقي، وإذا قصرنا في ذلك شعرنا بألم تبكيت الضمير. ومن ثم يصبح «**وحي الضمير**» هو المصدر الثالث للسعادة والشقاء. وهؤلاء يكون شعارهم: «**إرضاء الضمير أولًا وقبل كل شيء**».

والإنسان المتزن تحكمه الدوافع الأخلاقية الثلاثة: الأنانية، والإيثار، والضمير. وتمثل هذه الدوافع أساس ما يُعرف عند الفلاسفة بـ «**المسألة الأخلاقية**»، التي تتلخص فيما يلي: تنبعث فينا طموحات مختلفة، فكيف نسلك تجاهها؟ أنتبع الميول الأنانية، أم نستجيب لعاطفة الرحمة والإيثار أم نسعى إلى طمأنينة الضمير؟

وتأتي الديانات لتنظم العلاقة بين هذه الدوافع التي وضعها الإله في فطرة البشر؛ تحثنا على الفاضل منها، وتنهانا عما هو دنيء. والديانات في حكمها على الشيء بين فضل ودناءة تخضع لمقاييس «مطلقة» يحددها الإله.

وفي المقابل، ترى النظرة الإلحادية أن هذه الدوافع قد شَكَّلَها التطور البيولوجي وليس الخَلق الإلهي، ويهدف التطور في ذلك لتحقيق الفائدة التي تخدم تكاثر الكائن وبقاءه، ومن ثم تصبح «**الأخلاق نسبية**»، تتشكل في إطار أن الغاية تبرر الوسيلة. وإذا كان يسهل تفسير نشأة دافع «**الأنانية**» بآلية الغاية تبرر الوسيلة، فمن الصعب تفسير نشأة دافع «**الضمير**»، أما دافع «**الإيثار**» فسيظل الصخرة الكؤود في مواجهة التطور الداروينى.

نشأة الدوافع الأخلاقية عند الدراونة

يرى داروين أن الحيوانات التي تتمتع «بحس اجتماعي» (ومنها الإنسان)، ما أن تصل إلى درجة معقولة من الذكاء حتى «تكتسب» «دوافع أخلاقية» تعينها على الحياة في الظروف

الاجتماعية السائدة. أى أن الظروف الاجتماعية هى التى تشكل الأخلاق، عكس المنظور الدينى الذى يعتبر أن الأخلاق توجه حياتنا ومن ثم تشكل ظروفنا الاجتماعية. ويشرح دارون وجهة نظره بمثال: إذا نُشِّئ إنسان تحت الظروف الاجتماعية التى تُنَشَّأ فيها جماعة النحل (هذه الجماعة التى تعتبر فيها شغالات النحل قتل إخوتها الذكور واجبًا مقدسًا لخدمة الخلية، كما تقتل الأمهات بناتها القادرات على وضع البيض دون أى شعور بالذنب) فإن هذا الإنسان سيتبنى نفس المفاهيم الأخلاقية ونفس السلوك.

ويعرض علينا دارون أمثلة واقعية من عالم الإنسان، يعتقد أنها تخدم فكرته، فيقول: من أسوأ حقائق الداروينية الاجتماعية أن الهنود الحمر يتركون رفاقهم الضعفاء فى العراء ليموتوا، وكذلك قبائل الفيجيانز Feegeans الذين يدفنون والديهم المسنين ومرضاهم أحياء من أجل الحفاظ على موارد الطبيعة القليلة للأفراد الأصحاء الأقوياء المفيدين للمجتمع، وهو ما يتمشى مع مفهوم الانتخاب الطبيعى.

الداروينية وخُلُق التعاطف

ثم يتنبه دارون لمفارقة لا يجد لها تفسيرًا، كانت كفيلة بأن تبدل مفاهيمه. يقول دارون: ومع تقدم الحضارة، أصبح «التعاطف **Sympathy**» أنبل ما فى طبيعتنا البشرية، فصارت الأغلبية العظمى من البشر يبذلون أقصى الجهد فى رعاية والديهم المسنين ومرضاهم وضعفائهم، وإن كلفهم ذلك ثرواتهم المتواضعة بل وحياتهم. بل صار الناس يُشَيِّدون المصحات ويسنون القوانين لحماية حياة من يعرفون ومن لا يعرفون. وامتد هذا التعاطف لاستئناس الحيوانات المنزلية بكل ما يمثل ذلك من مخاطر صحية للجنس الإنسانى[1].

ويجتهد دارون فى تفسير ظهور خُلُق التعاطف (شعورًا ثم فعلًا)، فيفترض أن ذلك كان من أجل التخفيف من شعورنا بالضيق والألم عندما نرى معاناة الآخرين، وكلما تقدم الإنسان حضاريًا مَدَّ حسه التعاطفى إلى من لا يعرفهم من أفراد مجتمعه. ويمنع حاجز الأنانية الإنسان من أن يمد تعاطفه إلى المجتمعات الأخرى، وقد يتجاوز الإنسان هذا الحاجز ليشمل بتعاطفه الإنسانية جمعاء، ثم ليشمل الحيوان وكل الكائنات. ونحن نسأل دارون؛ لماذا يشعر الإنسان بالضيق والألم تجاه معاناة الآخرين؟ وما هو الدافع التطورى لأن يمد الإنسان تعاطفه إلى من لا يعرفهم وإلى الحيوانات؟ ألا يتعارض ذلك مع الانتخاب الطبيعى؟

(١) Descent of Man. Princeton university press. 1981. P. 168

ويعترف دارون أن رعاية الإنسان لمرضاه وضعفائه، وأيضًا للأغراب والحيوانات، تهدد دون شك الجنس البشرى، إذ تعيق الانتخاب الطبيعى والبقاء للأصلح. ويبحث دارون عن تبرير واحد للارتباط القوى بين ذيوع التعاطف (عمقًا وانتشارًا) وبين تقدم الحضارات، فيقول: حين يتنافس مجتمعان، فإن الأكثر تعاطفًا يكون قادرًا على تشكيل جيش أكثر تماسكًا، فيستطيع أن يقهر المجتمع الآخر، بذلك ساد خلق التعاطف وانتشر فى العالم[١]!

يتعارض هذا الطرح مع طرح آخر قدمه دارون، إذ يرى أن المتوحشين سيسودون ويفتكون بالإنسان المتعاطف المتحضر خلال قرون قليلة، فهم الأكثر شراسة، والأقدر على الفتك بالمتحضرين المُرَفَّهين[٢]. وإذا كان التعاطف بهذا الضرر، فلِمَ ظهر، ولِمَ تبناه الإنسان؟! إن المتابع لموقف دارون فى هذا الموضوع يجده يتأرجح بين المادية المطلقة للتطور وبين الرغبة فى المحافظة على ما وصفه بأنه أنبل ما فى طبيعتنا الإنسانية! ولا ندرى لِمَ اعتبر دارون أن التعاطف هو أنبل صفاتنا؟ أليس التعاطف مثل لون عيوننا واسترسال شعورنا كما يردد التطوريون؟!

إنسان فاضل رغم أنف الدراونة

إذا تركنا دراسات دارون، وقطعنا قرنًا ونصف من الزمان، وجدنا من الدراسات الحديثة ما يقلب المائدة على الدراونة. فقد ثبت أن الإنسان لا يلتزم بـ «الصراع من أجل البقاء» بل يسلك فى المقام الأول بناءً على دوافعه الأخلاقية حتى فى أحلك الظروف. ولعل من أقوى الدراسات تلك التى قام بها «صامويل مارشال» المؤرخ الرسمى للجيش الأمريكى[٣]، والتى أظهرت أن ثلاثة من كل أربعة جنود أمريكيين (٧٥٪) لم يطلقوا نيران أسلحتهم بشكل مباشر لقتل أحد الأعداء حتى وهم معرضون للخطر، بل كان رادعهم الأخلاقى الرافض للقتل يجعلهم يترددون، وقد عُرفت هذه النسبة بـ«معدل مارشال لإطلاق النار فى الحروب».

وقد مثل هذا الرادع الأخلاقى مشكلة كبيرة للجيش الأمريكى، فَبدَّلَ المسئولون من أسلوب التدريب على إطلاق النار أثناء الحروب بحيث يصبح أمرًا تلقائيًا وعشوائيًا عند مجرد التعرض للخطر، كما احتاج الأمر إعداد الجنود نفسيًا من أجل تشجيعهم على القتل. بذلك

(١) Descent of Man, Princeton university press, 1981 P. 162 - 163

(٢) Descent of Man, Princeton university press, 1981 P. 201

(٣) Samuel Lyman Atwood Marshall: (١٩٠٠ - ١٩٧٧م)، المؤرخ الرسمى للجيش الأمريكى أثناء الحرب العالمية الثانية وما بعدها من حروب. ألف أكثر من ٣٠ كتابًا عن سلوك الجنود أثناء الحرب، وأشهرها Men Against fire.

انخفضت هذه النسبة عن الحرب الكورية وحرب ڤيتنام حتى وصلت إلى ١٠٪ فى حرب العراق. سبحان الله؛ الأصل فى الإنسان هو الالتزام الأخلاقى وليس الصراع الداروينى من أجل البقاء، حتى وهو فى أشد لحظات المواجهة.

الدراونة والإيثار

إذا كان الدراونة قد عجزوا عن تفسير نشأة التعاطف بين البشر، فلا شك أن تفسير نشأة خُلق «الإيثار Altruism» سيكون أصعب، **فهو يعمل ضد هدف التطور الرئيسى، وهو المحافظة على النوع.**

فعلى المستوى الفردى، ما الذى يدفعنى للتضحية بذاتى من أجل المجتمع والجنس البشرى؟ ما الذى يدفع جيناتى الأنانية[1] للتضحية بذاتها؟ وما الذى يدفع جينات كرات الدم البيضاء للتضحية بذاتها فى صراعها ضد الميكروبات لدفع المرض عن الجسد؟!. وعلى المستوى الأكبر، ما الذى يدفع المجتمع للتضحية بموارده وجهد أفراده من أجل العناية بالضعفاء والمرضى والمعَوَّقين والمسنين؟. أليس ذلك ضد البقاء للأصلح؟ ألا يزيد ذلك من فرصة بقاء الأقل صلاحية؟

يفترض الدراونة إننا نفعل ذلك من أجل أن يفعله معنا الآخرون عندما نمرض أو نهرم، بالرغم من أن هذا التفسير مرفوض داروينيًّا!! فالتطور ليس له بصيرة مستقبلية، ومن ثم لا يفرض علينا التزامًا أخلاقيًّا تجاه ضعفائنا حتى يساعدنا الآخرون فيما بعد. إن التطور لا يعرف مَثَلَنا الشعبى «مَن قَدِّم السبت يلقى الحد (يوم الأحد) قُدَّامُه».

وفى مقالة لهربرت سيمون[2] لاقت قبولًا واسعًا بين الدراونة، يقول: يخبرنا علم النفس التطورى أن الإنسان يسلك بطريقة تزيد من لياقته (صلاحيته) فى مختلف المجالات، وأهمها المحافظة على جيناته ونقلها للأجيال التالية. وإذا كان سلوك الإيثار يتعارض مع مصلحة الإنسان، فإن نشأة هذا السلوك ترجع إلى آليتين تعملان سويًّا؛ اللين والدماثة Docility، والمحدودية العقلية Bounded Rationality. فالشخص اللين الدمث يتجاوب مع ما يريده منه الآخرون، ولا يفرق بين ما يزيد من صلاحيته وما ينتقص منها! ولو كان هؤلاء أذكياء بالقدر الكافى لَمَا أقدموا على هذا السلوك!

---

(١) هذا الوصف إشارة إلى كتاب (الجين الأنانى) تأليف كبير الملاحدة ريتشارد دوكنز.

(٢) Herbert Simon: حاصل على جائزة نوبل فى الاقتصاد، أصبح فيما بعد أستاذًا للكمبيوتر وعلم النفس بجامعة بطرسبرج. والمقال بعنوان: A Mechanism for Social Selection of Altruistic Behaviour

إن سيمون هنا يُرجع خُلُق الإيثار إلى سلوك الأفراد على عكس ما يفرضه التطور الداروينى، فيتصارعون من أجل الفناء وليس البقاء! وتفسيره لذلك أنهم أغبياء وضعفاء الشخصية!. لا شك أن هذا الطرح السيمونى يتعارض تمامًا مع الحقيقة، فالذين يُؤْثرون الآخرين عادة ما يكونون شخصيات قوية ذكية حاسمة حازمة. ما أسوأه من طرح، يتغافل عما نرصده بأعيننا، ويقلب فضائل الأخلاق والإعمال إلى نقائص غبية، من أجل إثبات فكرة مسبقة.

ويفسر دوكنز هذا التصور السيمونى الشاذ لنشأة خلق الإيثار - فى ضوء مفهومه عن الجين الأنانى - تفسيرًا لا يدرك عواقبه على موقفه الإلحادى! يقول دوكنز: «بالرغم من أن الإنسان ليس إلا جيناته، فإنه يستطيع بطريقة ما التمرد عليها والقيام بغير ما تمليه عليه. فبرغم من أننا آلات جينية فلدينا القدرة على التمرد على خالقينا، الإنسان فقط هو القادر على التمرد على طغيان جيناته»[1].

لكن كيف نتمرد على جيناتنا؟! أين هى الحتمية الجينية؟

من أين لنا حرية الإرادة والقدرة على التمرد؟

دوكنز لا يجيب، وإلا اضطر لمشاركة المؤمنين قولهم بحرية الإرادة وإيمانهم بالله.

أخلاق بلا أخلاق

رأينا كيف يعتبر دارون الأخلاق من نتائج الانتخاب الطبيعى فى المجال السلوكى، مثلها مثل أى صفات بيولوجية أخرى؛ مثل منقار الطائر، هل يوصف المنقار بأنه خير أو شر؟ إنه فقط مفيد للقيام بوظائفه لهذا الطائر بالتحديد تحت هذه الظروف فى هذه الفترة من الزمن. لذلك فاستخدامنا لاصطلاح جيد أو سيئ يكون من منطلق الفائدة المادية وليس القيمة الأخلاقية، أى ليس هناك أخلاق فاضلة وأخرى شريرة، ولكن هناك سلوكيات ومفاهيم تعين بشكل مباشر أو غير مباشر فى الصراع من أجل البقاء.

وفى حديثه عن الآثار الجانبية لمفهوم التطور قرب ختام كتابه «أصل الإنسان»، يقول دارون: إن الإنسان، مثل كل الحيوانات الأخرى، وصل إلى وجوده الحالى من خلال التكاثر. وأثناء صراعه من أجل البقاء قام الانتخاب الطبيعى بدوره، لولا ذلك لتساوى الرجال الأقدر

(١) The Selfish Gene oxford press, 1976, P.215

مع الرجال الأقل قدرة، ولضعفت البشرية كثيرًا. لذلك يجب أن يُترك هذا التنافس مفتوحًا بين الرجال، ولا ينبغى أن يُمنع الرجال الأكثر قدرة بحكم العادات والقوانين من إنجاب أكبر عدد من الذُّرية[١].

من هذا المفهوم نخرج بقيمة أخلاقية؛ وهى أن «الرجل الأفضل» لا بد أن يُعطى فرصة أكبر للتكاثر. بذلك يصبح منع الزنا وتشجيع الزواج الفردى خطر على الإنسانية؛ لأنه يعيق تزايد الأفضل. أى أن ما هو أَلْيَق من المنظور الدينى والإنسانى والأخلاقى هو أسوأ فى المنظور الداروينى. كذلك ينبغى أن نُدين داروين بخداع البشرية! لأنه كان شديد الإخلاص لزوجته إيما Emma!

يطرح هذا الموقف البيولوجى صدامًا بين خُلُق «العفة» الذى نعتبره قيمة فاضلة، وبين ما تعتبره الطبيعة فى مصلحتها ومصلحة البشرية، وهو «الإباحية». يا ترى أى الخُلُقين خُلُق حسن وأيها خُلُق ردىء؟ لقد أجاب الفلاسفة الملحدون عن هذا التساؤل قبل أن يطرح داروين نظريته بفترة طويلة، إذ تبنوا نظرة مادية إلى الأخلاق تنزع عنها أى فضائل. وقد عبر عن هذا المعنى بوضوح فى القرن السابع عشر الفيلسوف المادى توماس هوبز[٢]، إذ اعتبر أن الطبيعة ليست إلا مادة متحركة، وبالتالى فهى ليست فاضلة أو غير فاضلة، إنها فقط لا تبالى بالفضائل. لذلك لا ينبغى أن نتحدث عن خير وشر مجردين، تمامًا مثلما لا نتحدث عن تفاعل كيميائى خَيِّر وآخر شرير، إنها أمور تحدث بالضرورة. ومن ثم فالخير والشر ليسا إلا انعكاس لرغبات الإنسان، ما يحب وما يكره، ومن ثم فهى مفاهيم نسبية، فإذا كان إفلاس خصمك شر له فإنه خير لك. ومن ثم فأخلاق الإنسان (عند الماديين) ليست إلا تفاعلات مادية.

بعد ثلاثة قرون، طرح نيتشه، فيلسوف النازية، نفس الفكرة قائلًا: «إن كونًا بدون إله يكون خاليًا من مفاهيم الخير والشر، بل إن هذه المفاهيم تصورات إنسانية نفرضها على الكون الذى لا يبالى بنا».

ويتبنى ريتشارد دوكنز آراء هوبز ونيتشه وداروين، فيقول: «إن الطبيعة ليست شريرة، لكنها للأسف غير مبالية، وهذا من أصعب الدروس التى ينبغى أن يستوعبها الإنسان. فمن الصعب علينا الإقرار بأن كل الأمور ليست خيرة أو شريرة، ليست رحيمة أو شرسة، إنها لا مبالية بكل آلام الإنسان، إذ ليس لدى الطبيعة أى هدف»[٣].

(١) Descent of man, Princeton university press, 1981,p.409.

(٢) Thomas Hobbes: (١٥٨٨ - ١٦٧٩م)، الفيلسوف البريطانى المادى الشهير.

(٣) River out of Eden New York: Basic Book,1995, p.95- 96

هل تصلح البيئة مصدرًا للأخلاق؟

فى حديثه عن مصدر الأخلاق، يقول ريتشارد دوكنز: «**لسنا محتاجين للإله لنكون جيدين**، فأنت لا تكاد ترى اختلافًا كبيرًا فى ردود أفعال المتدينين والملاحدة، بل وبين البشر جميعًا، تجاه مواقف أخلاقية معقدة». كيف لم يتنبه دوكنز إلى أن قوله يعنى **أن البشر جميعًا لديهم مصدر مشترك للمفاهيم الأخلاقية** بغض النظر عن الاختلافات الجنسية والحضارية والعقائدية؟! إن ذلك الاتفاق ليس له إلا أحد تفسيرين؛ إما **أن المفاهيم الأخلاقية فطرية فى الطبيعة الإنسانية**، وإما أن تكون هناك **رسالة سماوية واحدة** وصلت إلى شعوب الأرض جميعًا[1].

ونحن نقول بالرأيين معًا (الفطرة والرسالة) كما ذكرنا فى بداية الفصل.

لكن، هل يقبل الملاحدة الجدد أى من هذين الرأيين؟ بالطبع لا...

إنهم لا يقبلون الدين ولا الفطرة، ولم يبق أمامهم إلا البيئة **(الطبيعة والمجتمع) كمصدر للمنظومة الأخلاقية الموحدة**. هنا يقع الملاحدة فى تناقض، فدوكنز يحدثنا عن عالمية الأخلاق، ويرجعها إلى عوامل طبيعية ومجتمعية «متشابهة» تَعَرَّض لها الجنس الإنسانى الواحد، بينما يعتبر التطوريون أن هذه العوامل «متباينة» وأن تباينها عنصر هام فى التنوع البشرى!

ويدعى الدراونة أن **الثورة العلمية** قد شاركت فى تشكيل منظومتنا الأخلاقية المعاصرة، باعتبار **أن العلم** جزء من المنظومة البيئية للإنسان، فما مدى صحة ادعائهم؟

يجيب أينشتين عن هذا التساؤل فى حوار عن العلم والدين، جرى فى برلين عام ١٩٣٠، **قائلًا**: لا شك أن هناك أُسسًا أخلاقية للعلم، لكننا لا نستطيع أن نتحدث عن أسسٍ علمية للأخلاق. لقد فشلت وستفشل كل محاولات إخضاع الأخلاق لقوانين العلم ومعادلاته، ومن ثم **لا يمكن أن يكون العلم مصدرًا للأخلاق**[2]. ويشارك ريتشارد فينمان[3] (الفيزيائى الحائز على جائزة نوبل) أينشتين رأيه **قائلًا**: إن أكبر القوى والقوانين الفيزيائية لا تستطيع أن تبين لنا كيف نستخدمها، إن العلم لا يعلمنا الخير والشر، لذلك **فالقيم الأخلاقية تقع خارج مجال العلم**.

---

(١) ﴿...وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر].

(٢) Max Jammer: Einstein and Religion. Princeton University Press,1999, P. 69

(٣) Richard Feynman: (١٩١٨ - ١٩٨٨م)، عالم الفيزياء النظرية الأمريكى، متخصص فى فيزياء الكم.

ويطرح هولمز رولستون[1] جانبًا نفسيًّا للمشكلة بقوله: لقد جَعَلَنا العلم أكثر معرفة وأكثر قوة، لكنه تركنا فى الوقت نفسه أقل ثقة بالصواب والخطأ. إن ماضينا التطورى غير منسجم مع حاضرنا الأخلاقى، ليس هناك طريق واضح يصل بين البيولوجيا والأخلاق، إن مصدر الأخلاق مشكلة كبيرة.

ويلخص عالم الأخلاق الشهير بيتر سنجر[2] مخاطر إخراج الإله من الصورة واللجوء إلى البيئة كمصدر للأخلاق، فيقول: لقد وَضَعَنَا التطور الداروينى فى موقف حرج بعد أن أزال الحاجز بيننا وبين باقى الكائنات، وبعد أن قام بالإطاحة بالدين كمؤسسة مسئولة عن أخلاقنا السامية؛ فلم يعد ممكنًا أن نبنى أخلاقنا على أن الإنسان مخلوق متفرد شُكِّل على صورة الإله وزُوِّد بروح خالدة. لا شك أننا سنعجز فى المستقبل عن استعادة مفاهيمنا الأخلاقية السامية، ولا بد أن نقر بهذه الحقيقة.

ليسوا لا دينيين Atheists

إنهم ضد الدين Antitheists

لم يكتف الملاحدة الجدد بعدم الإقرار بوجود الإله، ولا بالإقرار بعدم وجود الإله، ولا بدعوة الآخرين لذلك، وكلها بدائل متاحة لإنسان لا دينى. لكنهم أخذوا يوجهون قذائفهم «ضد» الإله، ليس فقط على مستوى القضايا العلمية بل أيضًا على المستوى الأخلاقى. فالملاحدة الجدد يصرحون بأنهم ليسوا ضد الأخلاق بصفة عامة، لكنهم ضد الأخلاق بالمفاهيم التى يطرحها المتدينون، ويؤكدون أن البشرية ستكون أحسن حالًا دون هذه المفاهيم.

لذلك نجد كريستوفر هتشنز (من أقطاب الإلحاد الجديد) يرعد ويزمجر ضد كوابيس العهد القديم وشرور العهد الجديد من كتاب المسيحيين المقدس، ويعلن عداءه للإله الطاغية المتغطرس المستبد الذى يراقبنا دائمًا، ذلك الإله الذى ليس عظيمًا God is not great [3] كما يدعى المتدينون. ولا يكتفى الملاحدة الجدد بنفى صفة «السمو» عن الديانات، بل يَدَّعون أنها قد «سممت» حياة البشر. وإذا كان ما يطرحه هتشنز على قدر من الصواب بخصوص نصوص العهد القديم، فقد وجدها حُدَاة الإلحاد فى الغرب والشرق فرصة لمد هذه الحملة ضد القرآن الكريم! فأخذوا يعملون بهمة وحماس للى النصوص وتفسير آياته بما يخدم اتجاههم المعادى للإله والدين.

(١) Holmes Rolston: أستاذ الفلسفة بجامعة كلورادو بالولايات المتحدة. ولد عام ١٩٣٢.
(٢) Peter Singer: أستاذ الفلسفة بجامعة برنستون باستراليا، مهتم بفلسفة الأخلاق. ولد عام ١٩٤٦.
(٣) اسم أحد كتب هتشنز.

ويعلن وينبرج[1] أن الدين أساء لكرامة وكبرياء الإنسان، فبه أو بدونه ستجد إناسًا خَيِّرِين يقومون بأمور خَيِّرَة وإناسًا سيئين يقومون بأمور سيئة، أما أن تجد إناسًا خيرين يقومون بأمور سيئة فهذا يحتاج للدين!. ومن المثير للعجب، أن الملاحدة الجدد الذين يستنكرون التوجهات الروحية للبوذية لم يكتبوا كلمة واحدة ضدها! أما إنكارهم لإله التوحيد فقد جعلهم يُسَوِّدون آلاف الصفحات في الانتقاص منه ﷻ! لذلك قلنا إن الملاحدة الجدد ليسوا فقط لا دينيين بل إنهم ضد الدين وضد الإله.

بل ضد الإسلام

تارة يعلن ريتشارد دوكنز (وباقي شراذمه) أن موقفه المعادي يتوجه ضد الديانات كلها، وتارة أخرى يركز على المسيحية التي درس عقائدها جيدًا، وأثاره (كما يقول)[2] ما فيها من عدم منطقية ومجافاة للعلم. وأخيرًا ينكشف القناع، ويصرح دوكنز في محاولة لعقد هدنة مع المتدينين في الغرب (بعد أن عَرَّوه تمامًا) قائلًا: بقدر علمي، ليس هناك مسيحيون فجروا المباني، لم نسمع عن مسيحي انتحاري واحد، لا أعرف داعيًا مسيحيًّا واحدًا يؤمن أن للردة حد هو القتل. إن لَدَيَّ مشاعر متباينة تجاه المسيحية، لقد صرت أعتقد أن المسيحية ربما تكون حصنًا ضد شيء أسوأ منها (يقصد الإسلام)[3]. ويتناسى دوكنز المجازر التي قام بها المسيحيون في الحروب الصليبية، والتطهير العرقي في الأندلس والبوسنة والهرسك، والمجازر في أيرلندا، وغيرها...

وقد سعد المسيحيون بهذا التحول كثيرًا، فكتب جون لينوكس[4] يقول: من المؤسف أن دوكنز لم يفكر في ذلك أثناء تأليفه لكتاب وهم الإله، لكنني سعيد بأن أقرأ له هذا الكلام. سبحان الله... هذا دائمًا قَدَر الإسلام، أن يشتد دوران الرحى حين يظهر في الساحة.

(١) Steven Weinberg: عالم الفيزياء النظرية الأمريكي الحاصل على جائزة نوبل للسلام مشاركة مع محمد عبد السلام الباكستاني وشيلدون جلاشو. ولد عام ١٩٣٣.

(٢) The God Delusion, P.58

(٣) في حوار نشر في مجلة التايم، ٢ أبريل ٢٠١٠، أجرى الحوار الصحفي Ruth Gledhill

(٤) John Lennox: عالم الرياضيات وفيلسوف العلوم البريطاني. له العديد من المؤلفات دفاعًا عن المسيحية، واستشهر بمناظراته مع ريتشارد دوكنز. ولد عام ١٩٤٥.

مصائب دين الإلحاد

لا يقف الملاحدة الجدد عند ادعاء سُمِّية الدين وأمان الإلحاد، بل يجعلون من المادية دينًا، ويَدَّعون أنها قادرة على التغلب على ما فى النفس البشرية من قصور، كما يَدَّعون بصلف وعنجهية أن فى أيديهم خلاص البشرية!

الإلحاد المسالم!!

يَدَّعى ريتشارد دوكنز (وشرذامه) أن إنكار إنسان ما للإله لا يمكن أن يؤذى الآخرين، ولا يمكن أن يدفع الناس لفعل أشياء سيئة. وفى أحد حواراته، يحك دوكنز رأسه فى وقار، ويطرح تساؤلًا يبدو وجيهًا، يقول: **لا أجد حربًا واحدة نشبت باسم الإلحاد، لماذا يخوض أى إنسان حربًا بسبب غياب معتقد؟** ويستشهد على ذلك قائلًا: **لا أعتقد أن ملحدًا واحدًا مستعد لأن يُجَرِّف مكة أو الكاتدرائيات المقدسة.**

ويسخر ريتشارد شرويدر[1] (أستاذ الفلسفة فى برلين) من ادعاءات دوكنز، فيقول: إن الكاتدرائيات المقدسة أعلى من أن تجرفها الجرافات، لذلك فضل ستالين فى الاتحاد السوفيتى وماوتسى تونج فى الصين تفجيرها بالديناميت. كما يفند زيجيو برزينسكى هذا الهراء قائلًا: **لقد كلفت محاولات إقامة الشيوعية فى العالم حياة أكثر من سبعين مليونًا من البشر، مما يجعلها أكثر المحاولات الفاشلة كُلفة فى التاريخ**[2].

جهل أم تزوير: تاريخ الماركسية والنازية

لقد بَسَّط ريتشارد دوكنز تاريخ الحياة على الأرض بصورة مخلة (التطور العشوائى التراكمى) لو اتَّبَعَتها الحياة لما كنا موجودين الآن!. ويبدو أن تخصصه فى «تبسيط علم التاريخ الطبيعى ـ البيولوجيا» انعكس على تبسيطه للتاريخ الإنسانى!، فغابت عنه (وعن كل الملاحدة الجدد) أمور شديدة الأهمية (عن جهل أو قصد) فى التاريخ الإنسانى المعاصر.

(١) Richard Schroeder: من المهتمين بفلسفة الأديان.

(٢) Zbighiew Brzeinski: السياسى الأمريكى الشهير من أصل بولندى، ولد عام ١٩٢٨. المقولة من كتابه Out Of Control صفحة ١٦، ١٧. والرقم الأقرب إلى الصواب هو ٩٤ مليون قتيل.

يتخذ دوكنز من الاتحاد السوفيتي مثالًا لقدرة الحضارة على أن تقوم بغير دين!. وللرد عليه، يلخص جون لينوكس ما صارحه به مفكرون ومتخصصون أكاديميون روس عن حياتهم في الاتحاد السوفيتي، قالوا له: كنا نظن أننا يمكن أن نكون أفضل دون إله، وأن نحافظ على إنسانية الإنسان، كم كنا مخطئين، لقد حطمنا الإله والإنسان سويًا!. وأضاف بعضهم قائلين: إذا كان دوكنز أمينًا حقًا فليستمع إلينا ليعرف العلاقة بين الإلحاد وبين الإجرام والتوحش.

ويحاول دوكنز التملص من هذه الحقيقة فيقول: ربما كان بعض الملاحدة سيئين كأفراد منفصلين، لكنهم لا يمارسون الشر باسم الإلحاد. ويعترض جون همفرى[1] (مذيع الإذاعة البريطانية BBC الشهير) على ادعاء دوكنز قائلًا: من أكثر الأشياء التى استرعت انتباهى التعصب العقائدى عند الملاحدة الجدد. إنهم لا يدركون أنهم ينطلقون فى إلحادهم من نقص معرفى فظيع، وتعصب عقائدى يصبغ كل ملاحظاتهم واستنتاجاتهم.

وتأكيدًا لرأى همفرى انظر قول الملحد هتشنز: إن موقفنا ضد الدين هو منطَلَق كل الأدلة، إنه المقدمة (وليس الاستنتاج) لكل القضايا الفلسفية والعلمية والتاريخية وكل ما يخص الطبيعة الإنسانية. لذلك نجده فى رسالته للدكتوراه يستشهد بقول ماركس «لا يُعتبر الإنسان مستقلًا إلا إذا صار سيد نفسه، أما الإنسان الذى يحيا بدعم خارجى فليس إنسانًا مستقلًا، ويُعتبر الإنسان تابعًا كاملًا لآخر إذا دان له بوجوده الأول وباستمرارية حياته» ويضيف ماركس: «إن محو الدين كمصدر للسعادة المتوهَمة هو الطريق لتحصيل السعادة الحقيقية». وبالرغم من وضوح ما قاله ماركس، يصر الملاحدة الجدد على الفصل بين الماركسية والإلحاد، لا شك أن ادعاءهم يثير الضحك والشفقة.

ألم يقرأ دوكنز وشراذمه كتاب «الكتاب الأسود للشيوعية»[2]، ألم يقرأوا فيه: «لقد حولت النظم الشيوعية الجرائم الجماعية إلى عمل مشروع. لقد بلغ عدد الضحايا حوالى ٩٤ مليون قتيل، منهم ٨٥ مليون فى روسيا والصين فقط». ألم يسمع دوكنز بملايين أخرى كثيرة اقترب بها التعذيب من حافة الموت، وملايين آخرين نُفوا إلى سيبريا، وأكثر منهم دُفعوا إلى إدمان المخدرات. ذلك بالإضافة إلى ملايين قضوا أعمارهم فى السجون لجريمة وحشية ارتكبوها،

(١) John Humphry: صاحب البرنامج الشهير فى BBC بعنوان: همفرى باحثًا عن الإله.
(٢) The Black Book Of Communism. من تأليف عدد من المفكرين والسياسيين الأوروبيين، نُشر عام ١٩٩٧ تحت إشراف ستيفان كورتويس.

وهى أنهم آمنوا بالإله. ولا شك أن ملايين عديدة حُرموا من فرص التعليم لنفس السبب، وهذا هو القتل الفكرى الأسوأ من تدمير المبانى. وأحيانًا كان ستالين رحيمًا فلم يفجر دور العبادة، بل كان يحولها إلى متاحف أو سينيمات أو مطاعم، لقد أغلق ستالين عشرات الآلاف من المساجد وعشرات الآلاف من الكنائس، ألم يقرأ دوكنز ذلك؟!

وماذا عن هتلر؟

فى كتاب «إله هتلر Hitler's God »، يبين المؤرخ مايكل ريسمان[1] أن هتلر اعتبر قوانين الطبيعة التى تعمل فى الكون هى الإله، واعتبر أن المسيحية تُـرَوِّج لإلهين (الأب والابن)، وأنها أكبر ضربة أصابت البشرية، وأن العالم كان نقيًّا طاهرًا قبل أن يعرف مصدرَىَّ المعاناة الكبيرين للبشرية؛ الجدرى والمسيحية[2]. وينظر هتلر للمسيحية باعتبارها عقيدة تبيد معارضيها باسم الحب، وأن محورها هو عدم تقبل الآخر[3].

ومهما حاول المتعصبون لهتلر إظهار تعاطفه مع المسيحية بالإشارة إلى نشأته الدينية، فموقفه الفعلى يتجلى فى عدائه الرهيب للمسيحيين واليهود. وفى نفس الوقت يحاول الملاحدة التخلص من عبء نسبة ستالين وهتلر إلى الإلحاد، فيحسبهما هتشنز على المتدينين لخلفيتهما الدينية!. ونحن ندحض هذه المحاولة بأن نُذَكِّر بأن معظم زعماء الإلحاد الجديد كانت نشأتهم دينية!

ويحاول دوكنز أيضًا التنصل من مصائب ستالين وهتلر، فيخرج علينا بمقولات بالغة السخف، مثل: حتى إذا قبلنا أن ستالين وهتلر يشبهان الملاحدة فذلك لا يعنى وجود علاقة بين الطغيان والإلحاد، إذ أن لهتلر وستالين شاربين مثلما أن لصدام حسين شاربًا[4]، فهل هما مسلمين؟!. ما هذا الهراء؟ نحن لا نتحدث عن صفات مشتركة، لكن عن العقيدة المحركة التى دفعت ستالين وهتلر وآخرين لقتل الملايين للتخلص من الدين.

ولا يمنع تزوير الملاحدة لتاريخ الإلحاد أن بعضهم كانوا أكثر إنصافًا لحقائق التاريخ، فهذا مارك هوسر[5] يقول: حتى لا نُتهم بالنظرة الأُحادية، نقول إن الملاحدة ارتكبوا قدرًا

(١) Michael Rissmann: المؤرخ الألمانى المهتم بتاريخ النازية وهتلر.

(٢) يختلف دوكنز مع هتلر قليلًا، إذ يعتبر أن الدين فيروس مثل فيروس الجدرى، يصيب العقل لكنه أصعب فى القضاء عليه!

(٣) يشبه موقف هتلر من المسيحية موقف نيتشه، حين وصفها بأنها لعنة كبرى، خواء وفقر داخلى، غريزة للانتقام، لا يقف فى وجهها شىء، لذلك أطلق عليها الوصمة الخالدة للإنسانية.

(٤) The God Delusion, P. 309

(٥) Mark Hauser: عالم البيولوجيا التطورية الأمريكى، ولد عام ١٩٥٩.

كبيرًا من الجرائم الفظيعة، مثل مجازر ستالين التى ذهب ضحيتها الملايين فى الاتحاد السوفيتى، وحقول القتل التى دفن فيها بول بوت[1] أكثر من مليون كمبودى. وإذا وضعنا كل الشواهد معًا، خرجنا باستنتاج واحد، وهو أن كلًا من المتدينين والملاحدة لا ينفرد بمسرح الجرائم.

إلحاد الاستنارة مَصْدَر العنف

يعلمنا استقراء التاريخ أن الحركات التى تبدأ بالتحليل الفكرى ثم المناظرات الفكرية يمكن أن تؤدى إلى عدم قبول الآخر ثم إلى العنف. مثال ذلك كارل ماركس الذى جلس فى مكتبه فى لندن يكتب أفكاره الإلحادية فى هدوء، ثم آل الأمر فى القرن العشرين إلى ما آل إليه من مذابح لم يكن يتصورها ماركس نفسه. إن للأفكار عواقب وتوابع ومنها ما هو قابل للانفجار، وبدلًا من أن تؤدى الأفكار الإلحادية إلى القضاء على الدين والإله فإنها قضت على إنسانية الإنسان.

إن الغشاوة تحجب هذا المفهوم البديهى عن عقول الملاحدة، فيتمادون فى أوهامهم. هذا مايكل أونفراى[2] يصف فلاسفة الإلحاد الكبار، نيتشه وماركس وفيرباخ[3]، بأنهم رجال الاستنارة (المُشْرِقين) الذين أعقبوا الفيلسوف كانت! ياله من وصف مضلل لرجال غَذَّت فلسفاتهم الإلحادية عقول طغاة ومستبدى القرن العشرين، فنشروا الظلام فى معظم بقاع الأرض وأغرقوها فى بحار دماء الملايين. إن ما سببه الإلحاد من كوارث فى القرن العشرين وحده يفوق كل ما سببته الحروب الدينية عبر التاريخ، هل هؤلاء حقًا هم رجال الاستنارة؟!

ويضع جون جراى[4] يده على هذه الحقيقة فيقول: «إن دور حركة الاستنارة فى إرهاب القرن العشرين يظل نقطة سوداء فى جبين الحضارة المعاصرة. لقد انبثق النظام الشيوعى الرهيب من قلب أحلام المدينة الفاضلة لفلاسفة التنوير. إن الرعب الذى سببه ستالين ولينين تتضاءل أمامه كل المعاناة التى سببها القياصرة المتدينين السابقين فى روسيا».

هل يعتقد الملاحدة الجدد حقًا أن المجتمع العلمانى الذى تلاشى منه الدين يكون أقل عرضه للعنف من مجتمع تَقَبَّلَ الدين؟! إن هذه فكرة مرفوضة فى عصر مارست فيه المجتمعات العلمانية أقصى أشكال العنف فى التاريخ.

(١) Pol Pot : (١٩٢٥ - ١٩٩٨م)، زعيم الحركة الشيوعية المعروفة بالخمير الحمر بكمبوديا، اشتهر بممارساته القمعية.
(٢) Michel Onfray: الفيلسوف الفرنسى الملحد. ولد عام ١٩٥٩.
(٣) Feurbach: (١٨٠٤ - ١٨٧٢م)، الفيلسوف الألمانى المهتم بعلوم الإنسان، اشتهر بنقده للمسيحية.
(٤) John Gray: الكاتب الأمريكى الشهير. ولد عام ١٩٥١.

الإلحاد الأصولى أشد خطرًا

يقول دوكنز فاضحًا كراهيته للدين التى لا هوادة فيها: « إن تعليم الدين بأسلوب وسطى معتدل هو باب للتطرف الدينى»[1]! ونحن نجيبه بنفس منطقه؛ فإن الاتجاه اللادينى المعتدل يمكن أن يكون بابًا للتطرف ضد الدين، فيثير رد فعل دينى متطرف. إن ذلك التسلسل ليس فرضية أو تصور بل تسلسل حقيقى كلف البشرية الكثير. إن نظرة سريعة لما صار يُعرف بالأصولية الإسلامية التى مارس بعض رموزها أشكالًا من العنف ضد الغرب تُظهر أنها موقف دفاعى مباشر ضد محاولات القضاء على الإسلام.

وقد عبر ملڤن كونر[2] عن عداء الملاحدة الجدد للدين وإصرارهم على القضاء عليه بقوله ساخرًا: إن الملاحدة استوفوا القضية من كل جوانبها، ولم يبق إلا سؤال واحد: هل يضربون الدين بقضيب حديدى أم بمضرب البيسبول الخشبى[3]!

التشخيص النهائى

لقد وضع ديڤيد بيرلنسكى[4] أيدينا على حقيقة العلاقة بين الإلحاد والشر حين قال: «إن الذين اقترفوا جرائم ضد البشرية، مثل هتلر وستالين وماوتسى تونج وضباط الجستابو والـ NKVD وكل النازيين والشيوعين، لم يكونوا يعتقدون أن الإله يراقبهم»، وهذا ببساطة هو مفهوم مجتمع العلمانية المطلقة.

فالفكر العلمانى ينظر إلى الإنسان باعتباره جزءًا من الطبيعة، وينظر إلى الإيمان بالدين باعتباره انتحارًا متواصلًا للعقل البشرى[5]. لذلك يستبعد العلمانيون الدين كمصدر للمعرفة والأخلاق والقوانين، ويستنبطونها من تجارب الإنسان وخبراته الحياتية، وبالتالى يصبح الإنسان هو المُطلَق بدلًا من الله ﷻ.

وبناء على مقولة دستوفسكى التى وردت فى قصته «الأخوة كرامازوف»، والتى صَدَّرنا بها الفصل، يطرح ديفيد بيرلنسكى هذه القضية المنطقية:

(١) God Delusion, P. 342

(٢) Melvin J.Konner: أستاذ علم الإنسان والأمراض النفسية والعصبية فى جامعة ايمورى، بالولايات المتحدة.

(٣) كان ذلك فى المؤتمر الذى نظمته The Science Netwark فى Salk Insritute فى La Jolla بكاليفورنيا.

(٤) David Berliniski: فيلسوف أمريكى، من دعائم مدرسة التصميم الذكى ومؤسسة ديسكفرى ولد عام ١٩٤٢.

(٥) كان نيتشه يشير إلى الإيمان المسيحى عندما أطلق هذه العبارة.

مقدمة أولى: الإله غير موجود، إذًا كل شيء مباح ... دستوفسكى.

مقدمة ثانية: إذاً كان العلم صادقًا، فالإله غير موجود ... العلم المادى.

إذًا: إذا كان العلم صادقًا، فكل شيء مباح!!

إن هذا الاستنتاج لا يعنى أن الملاحدة عاجزون عن اتباع السلوك القويم، بل يعنى أن الإلحاد لا يمدهم بمنظومة أخلاقية. وعندما نفى الملاحدة الجدد وجود أصول غير مادية لأخلاقنا وقيمنا فإنهم لم يقدموا لنا فرضيات بديلة، وبذلك ألقوا كل شيء إلى ضياع مطلق. إن الملاحدة الجدد ملاحدة أغبياء، لم يدركوا عواقب إلحادهم!! تصور ما سيحدث لأجيالنا القادمة عندما نلقن هذه المفاهيم لأبنائنا فى المدارس وفى الإعلام!!

القارئ الكريم

تمثل الألوهية والدين والأخلاق فى المنظور الإسلامى متتالية، تبدأ بالإيمان بالله ﷻ الذى أنزل الدين، وجعل من أساسياته استكمال المنظومة الأخلاقية للإنسان. ولتأصيل هذه المنظومة فى النفس الإنسانية استخدام الإسلام منهجًا من ثلاث آليات تعمل بشكل متتال:

الفطرة ـ الرسالة ـ العقل

ويرفض الملاحدة القول بأسس فطرية للحس الإلهى والحس الدينى والحس الأخلاقى. كما يرفضون القول برسالات سماوية تُعَرِّف الإنسان بالإله وبالدين وتنبهه إلى هذه المشاعر الفطرية التى كثيرًا ما يطمسها الشق المادى فى بنيته. ولا شك أن الملاحدة يرفضون كذلك دلالة العقل على هذه المنظومة. ويعتبر الملاحدة بزوغ متتالية (الألوهية ـ الدين ـ الأخلاق) أحد نتائج التطور الداروينى أثناء صراع الإنسان فى مواجهة قوى الطبيعة والشرور والآلام.

إن الخطأ المزرى الذى يقع فيه الماديون هو تصورهم أن وجود فوائد من وراء فكرة الإله والدين، يعنى أن الإنسان قد اخترعها لتحصيل هذه الفوائد.ومن ثم اعتبروا أنهم إذا أثبتوا الفائدة فقد أثبتوا أن الألوهية والدين من اختراع الإنسان! وكأن الإله إذا خلق لا ينبغى أن يحقق فائدة!!

وتمثل نشأة الأخلاق الحميدة كالتعاطف والإيثار التحدى الأكبر للداروينية عند تصديها

لتفسير نشأة منظومة الإنسان الأخلاقية، فهذان الخُلقان يتعارضان بشكل مباشر مع التطور الداروينى العشوائى الذى يسعى بأنانية لمصلحة الذات الإنسانية والمحافظة عليها.

ويصر الدراونة على أن الطبيعة المادية هى مصدر الأخلاق الإنسانية،وعلى الإنسان أن يدرك أن ليس هناك خير أو شر، ليس هناك إلا المصلحة. إن الأم الطبيعة لا مبالية بكل آلام الإنسان، إذ ليس لديها أى هدف!!

لم يكتف الملاحدة الجدد بعدم الإقرار بوجود الإله، ولا بالإقرار بعدم وجود الإله، ولا بدعوة الآخرين لذلك، وكلها بدائل متاحة لإنسان لا دينى. لكنهم أخذوا يوجهون قذائفهم «ضد» الإله، ليس فقط على مستوى القضايا العلمية، بل أيضًا على المستوى الأخلاقى. فالملاحدة الجدد يصرحون أن الكتب المقدسة تطرح مفاهيم أخلاقية متدنية، ويؤكدون أن البشرية ستكون أحسن حالًا دون هذه المفاهيم. وقد أثبتت كتابات الملاحدة الجدد الأخيرة أن عداءهم فى المقام الأول ليس ضد الدين، أو ضد المسيحية، بقدر ما هو ضد الإسلام.

كما يدعى الملاحدة الجدد أن الإلحاد لا يمكن أن يدفع شخصًا ما لارتكاب أية إساءات تجاه الآخرين، متناسين أن محاولات إقامة الشيوعية الملحدة فى العالم كلفت البشرية أكثر من ٩٤ مليون قتيل من البشر، مما يجعلها أكثر المحاولات الفاشلة كُلفة فى التاريخ.

ويمكن تلخيص العلاقة بين الإلحاد والشر فى قول واحد، وهو أن الملاحدة الذين ارتكبوا المجازر فى حق الإنسانية لم يكونوا يعتقدون أن الإله يراقبهم، وهذا ببساطة هو مفهوم «المجتمع العلمانى» الذى لم يكتف بإخراج الدين من دائرة السياسة (العلمانية الجزئية) بل يخرجه من الحياة كلها (العلمانية المطلقة).

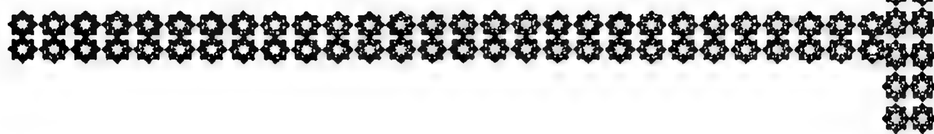
وأخيرًا نؤكد أن العلم قد أثبت أن المنظومة الإلهية الدينية الأخلاقية فطرة فى النفس البشرية، تقف وراءها آليات جينية وعصبية ونفسية، ولا يمكن أن تنشأ عشوائيًّا، ولا بد أن يكون وراءها إله حكيم قادر.



الباب الثالث

مستنقع

الملاحدة



الفصل العاشر

ريتشـــارد دوكـنز

حادى الملاحدةُ الجُدد

- هذا هو ريتشارد دوكنز
  - ملحد هاوٍ سيئ الأدب
  - أهذا القزم يُقارَن ببرتراند رَسِل؟!
  - سفسطائى مبتدئ، مُزَيِّف للحقائق
- فلسفة دوكنز الإلحادية
  - منهج دوكنز الفلسفى
    - التعارض
    - المماثلة
    - الاحتمالية
  - ملحد، أم شكاك، أم لا أدرىّ؟
  - منهج دوكنز الفلسفى فى الميزان
  - بعض جوانب الاتفاق
- الإله فى فلسفة دوكنز
  - الإله خلق الكون، فمن خلق الإله؟!
  - ذات الإله: مادى، معقد، متطور!
  - حقيقة الموجود الأزلى
  - صفات الإله
- إله دوكنز «الاحتمالية والصدفة»
  - يقبل كل شىء إلا الإله!
  - «الاحتمالية الرياضية» لا تعنى «الإمكانية الفعلية»
  - حقيقة الصدفة
- خرافة صانع الساعات الأعمى
  - برهان القِرَدة
  - الانتخاب التراكمى والتعقيد غير القابل للاختزال
  - الانتخاب الطبيعى التراكمى
    - مغالطات جوهرية
- عالم دوكنز الأخلاقى
  - الداروينية وراء أخلاق الإله وأنبيائه!!
  - الإناء ينضح بما فيه
  - من أين ينبغى أن نستمد أخلاقنا؟
  - تشابهت الأسماء واختلفت المسميات
- القارئ الكريم

«يحصل العديد من استدلالات دوكنز الفلسفية
على درجة الرسوب إذا طُرحت فى امتحانات
الفلسفة فى المدارس الثانوية».
الفن بلانتنجا[١]

وَلت أيام الإلحاد الفلسفى المهذب، كما وَلّى زمان الملاحدة الكبار أمثال ديفيد هيوم ونيتشه وبرتراند رَسِل. لقد تقهقر الاهتمام بالكيف لحساب الكم، وصار المهم هو ارتفاع الصراخ من خلال الإعلام والشبكات العنكبوتية وشبكات التواصل الاجتماعى. لقد صرنا نحيا فى زمن يطرح فيه الإلحاد نفسه فى الغرب على نواصى الطرقات، ويعلن صراحة عن عزمه على إزاحة الدين من الطريق. وقد حَذَت طلائع الملاحدة فى الشرق حذو روادهم فى الغرب، فبدأنا نسمع الهمهمات تأتى من هنا وهناك.

فى البابين السابقين، عرضنا القضايا الحيوية التى يشتد حولها الخلاف بين المؤمنين والملاحدة، ودحضنا المفاهيم والحجج الرئيسية للإلحاد الجديد.

وفى هذا الباب، نستكمل طرح الفكر الإلحادى، فنفرد هذا الفصل لاستكمال عرض وتحليل أفكار ومنهج كبير الملاحدة الجدد، ريتشارد دوكنز، من خلال كتاباته المشهورة. ثمْ نتعرض فى الفصل التالى لإضافات شراذم دوكنز المشهورين. ونختم الباب بفصل عن الإلحاد فى بلادنا. وأحسب أن هذا الطرح كاف لاستيفاء عرض الفكر الإلحادى الجديد ودحضه، ولإكساب القارئ مناعة ضد هذا الفكر.

(١) الفيلسوف الأمريكى الكبير.

هذا هو ريتشارد دوكنز[١]

ملحد هاوٍ سيئ الأدب

اتباعًا للحكمة العربية «وشهد شاهد من أهلها»، نلقى الضوء على أسلوب ريتشارد دوكنز ومنهجه من خلال طرح ردود أفعال بعض الملاحدة وأنصار الداروينية تجاه كتابه الأخير «وهم الإله»:

يقول الفيلسوف الملحد مايكل روس[٢]: «لقد جعلنى كتاب وهم الإله أشعر بتوتر وارتباك Embarrassed لكونى ملحد. فالكتاب الذى يعالج فى المقام الأول قضية الأخلاق، يتبنى حملة صليبية لا أخلاقية، تتسم بالتكبر والعجرفة. فدوكنز لا يتحدث كفيلسوف يعالج الأدلة ليصل إلى استنتاجات منطقية، لكن كواعظ أصولى يرسم طريق الخلاص ويهدد بالطرد من الرحمة». ثم يطرح روس تساؤله: «إذا كان الإله غير موجود، فلم هذا التطرف الشديد ضد الدين؟!».

ويفيض الكيل بالفيلسوف الملحد توماس ناجل[٣] بسبب أسلوب دوكنز فى الحديث عن الإله، فيقول: «يهدف دوكنز فى كتابه إلى إنكار أن الدين هو مصدر آداب السلوك Etiquette التى تسود الحضارة المعاصرة، وقد أخذ يكرر هذا الإنكار بطريقة كريهة ومقرفة Offensive قدر استطاعته».

ويقول عالم الوراثة التطورى هـ. ألين أور[٤]: «بالرغم من إعجابى السابق بنشاط دوكنز إلا أنه قد آن الأوان لنفترق، إن كتابه «وهم الإله» سيئ للغاية. وبالرغم من أننى وصفت دوكنز قبلًا

(١) Richard Dawkins: بريطانى وُلد فى نيروبى بكينيا عام ١٩٤١، يعيش الآن فى أكسفورد. وهو بيولوجى، كان يشغل منصب أستاذ تبسيط العلوم فى جامعة أكسفورد. وصل إلى الشهرة من خلال كتابه «الجين الأنانى The Selfish Gene» الذى صدر عام ١٩٧٦، وعرض فيه مفهومه للتطور من خلال دور الجينات. وهو من المعارضين لمفهوم الخلق الخاص ومفهوم التصميم الذكى كما ظهر فى كتابه «صانع الساعات الأعمى ـ The Blind Watch Maker». وفى عام ٢٠٠٦ أصدر كتاب «وهم الإله The God Delusion» الذى ينكر فيه وجود أى قوى غيبية، وينظر إلى الإيمان باعتباره من الضلالات والأوهام، ويُعتبر هذا الكتاب أشهر كتبه الآن.

(٢) Michael Ruse: إنجليزى، فيلسوف العلوم المتخصص فى فلسفة البيولوجيا. ولد عام ١٩٤٠.

(٣) Thomas Nagel: أستاذ الفلسفة والقانون بالولايات المتحدة، مهتم بفلسفة العقل والأخلاق والسياسة. ولد فى صربيا عام ١٩٣٧.

(٤) H.Allen orr: أستاذ البيولوجيا المهتم بالوراثة، بجامعة روشستر بالولايات المتحدة.

بأنه ملحد محترف، فإننى بعد قراءة كتابه الأخير أجزم أنه مجرد ملحد هاوٍ، فإنه لم يقدم فى الكتاب أى نقد موضوعى للدين بالرغم من إنفاقه مئات الصفحات فى الهجوم على الإله.

هكذا تخلى الكثيرون من أنصار دوكنز عنه بعد أن مارس غروره بتلقائية شديدة فى كتابه الأخير، وملأه ببذاءات كثيرة، منها:

- ما أن يتصفح المؤمنون كتابى فإنهم سيصبحون ملاحدة قبل أن يضعوه جانبًا[1].
- لقد تشبعت أدمغة المؤمنين بأفكارهم بحيث لا تستجيب للدليل والبرهان، تمامًا كما تتخلل الصبغة النسيج. وقد تكونت هذه المقاومة تدريجيًّا عبر سنوات طويلة من التلقين منذ الطفولة[2].
- عندما يعانى شخص من أوهام نصفه بالجنون أما عندما يعانى مجموعة من الناس من الأوهام فإننا نعتبرهم متدينين[3].
- إن ذوى التوجه الدينى يعانون من العجز عن التفرقة بين ما هو حقيقة وما يريدون أن يبدو كحقيقة[4].
- لا تجد حضارة تتسم بتضييع الوقت والمال، والطقوس العدائية، والأفكار المنافية للحقيقة، والأوهام المعوقة للإنتاج قدر ما تجد فى الأمم المتدينة[5].
- يعانى المسيحيون أصحاب الذكاء الأقل من المتوسط من إحساس مزمن بالذنب، يجعلهم فى حالة صحية متدهورة يصعب الشفاء منها[6].

وقبل ذلك كله، يفتضح موقف دوكنز العدائى من الإله من عنوان كتابه، الذى ينكر فيه وجوده ويصف فيه مخالفيه بأنهم واهمون.

ويُشَخِّص سكوت هان[7] سبب ما ينضح به الكتاب من تدنى أخلاقى قائلًا: إن الكتاب لاذع جارح ملىء بالغضب، ويُعَد سقطة مخجلة لدوكنز، ولا يُصنَّف كعمل فكرى موضوعى. إنك تشعر وأنت تقرأه أنك أمام محاولة يائسة من شخص يعصف به الضيق؛ لأنه لم يستطع التخلص من معارضيه الذين لا يزالون يملئون الساحة. إن الكتاب يبدو كهزيان شخص ملأه الغرور والزهو بعد أن أفرط فى شرب الخمر، فأخذ يبعثر سبابه الحاقد على من لا يشاركونه الرأى.

(١) The God Delusion, P.4
(٢) The God Delusion, P.5
(٣) The God Delusion, P.5
(٤) The God Delusion. P, 108
(٥) The God Delusion. P. 166
(٦) The God Delusion. P, 167
(٧) Scott Hahn: مفكر أمريكى مهتم بالديانات. ولد عام ١٩٥٥.

لذلك كله يحذر الفيلسوف المتدين ألفن بلانتنجا القارئ لكتاب وهم الإله أن ينظر إليه باعتباره عملًا عقلانيًا، فالكتاب ينوء بقدر يثير الدهشة من اللاموضوعية والإهانة والشتيمة والسخرية والاستهزاء.

سفسطائى مبتدء، مُزَيِّف للحقائق

بالإضافة لأسلوبه الساخر المتهكم المتدنى، يلجأ دوكنز إلى المنهج السفسطائى[1] ليثبت وجهة نظره، بغض النظر عن التماس الحقيقة، فيقع فى أخطاء منهجية ومغالطات منطقية، ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة، ليس على سبيل الحصر ولكن كنماذج لما ننسبه إليه.

١) من حيل المنهج السفسطائى أن يطرح المُحاور النتيجة التى يطمح فى الوصول إليها كمقدمة ثابتة دون برهان[٢]. انظر إليه وهو يقول: «لا أظن أن ملحدًا واحدًا فى العالم يمكن أن يدمر مكة أو كنيسة نوتردام أو معابد كيوتو أو تماثيل بوذا فى باميان بأفغانستان[٣]. ألم يسمع دوكنز عن عشرات الآلاف من المساجد والكنائس التى دمرها النظام الملحد فى الاتحاد السوفيتى، بالإضافة إلى المجازر التى ذهب ضحيتها الملايين من المسلمين والمسيحيين[٤]. إن هذا الخطأ المنهجى فى تقديم النتيجة المرجوة كمقدمة ثابتة يعكس جهلًا كبيرًا أو تزييفًا متعمدًا للتاريخ.

٢) ومن السقطات العلمية لدوكنز موقفه من قضية: المعلومات أم المادة أولًا؟ فدوكنز يتبنى (كغيره من الماديين) أن المعلومات يمكن أن تتراكم فى المادة تلقائيًا. ويرفض دين كينيون[٥] البيولوجى الفيزيائى الكبير هذا الرأى، قائلاً: «كلما ازدادت معارفنا عن كيمياء الحياة، خاصة فى مجال البيولوجيا الجزيئية، كلما قل تقبلنا للتفسيرات الفيزيائية والكيميائية لأصل الحياة. إن العلم الحديث يخبرنا أن المعلومات التى يحملها الدنا لا بد أن يكون أصلها مصدر ذكى، ما هو؟ هذا خارج نطاق العلم، وينبغى أن يُترك للدين والفلسفة».

---

(١) السفسطائية: بغض النظر عن أصلها التاريخى، أصبحت تعنى صرف الذهن وتمويه الحقائق الصحيحة والمقبولة للمنطق، وتضليل الخصم عن الوجهة الصحيحة فى التفكير.

(٢) هذه مغالطة منطقية معروفة باسم Petitio Principii

(٣) The God Delusion. P. 249

(٤) تحدثنا فى الفصل السابق عن إغفال دوكنز لهذه الحقائق.

(٥) Dean Kenyon: أستاذ البيولوجيا بجامعة سان فرانسسكو، من أنصار حركة التصميم الذكى.

كذلك يخبرنا آلان سانداج[1] (أعلم البشر بالكون!) أن الكون والحياة شديدا التعقيد، أعقد من أن يُنسب ما فيهما من معلومات إلى الصدفة فقط.

٣) عندما وجه أحدهم سؤالًا إلى دوكنز عن الأمور الذى يعتقد أنها صواب بالرغم من أنه لا يملك دليلًا عليها، أجاب دوكنز : إنى «أعتقد»أن الكون نشأ تلقائيًّا من العدم، وأن الحياة وجود مادى، وأن العقل البشرى من نتاج الانتخاب الطبيعى كما وصفه دارون. لقد انطلق دوكنز فى كل هذه القضايا الجوهرية من «الاعتقاد» بدون دليل علمى أو فلسفى.

٤) من سقطات دوكنز الكبيرة، أنه حمل مقولات أينشتين حول «الإله» على أنه يقصد بها «الطبيعة»، كما يصر دائمًا على أن يَنسب أينشتين إلى الإلحاد أو إلى وحدة الوجود[2] pantheism. هذا فى الوقت الذى يؤكد فيه أينشتين إيمانه بوجود عقل حكيم هو المنشئ والمدبر لقوانين الطبيعة. كذلك يؤمن الكثيرون من علماء الفيزياء الكبار المعاصرين أمثال هيزنبرج وبلانك بما يؤمن به أينشتين، ولكن دوكنز ينفى عنهم ذلك الإيمان، ويُصر على أن يضمهم إلى زُمرَة الملحدين الوضعيين الذين يؤمنون بأن «ما لا يمكن رصده لا وجود له».

٥) يوجه الفيزيائى الكبير جون بارو[3] نقده الساخر لدوكنز، قائلًا له: إن ما تعانيه من مشاكل مع الدين يرجع إلى أنك لست عالِمًا حقيقيًّا، فأنت من البيولوجيين ولست من الفيزيائيين[4]!، لذلك فأنت تعجز عن تصور حجم ما فى الوجود والحياة من تعقيد. ويضيف جون بارو موجهًا نقده اللاذع لدوكنز: إنك ما زلت محكومًا بعقدة البيولوجيين التطوريين فى القرن التاسع عشر، ورغبتهم فى إثبات وجهة نظرهم بأى ثمن، ولو على حساب الحقيقة، ولا شك أن لَىّ الحقائق لا يُعين كثيرًا أو قليلًا فى فهم القوانين التى تحكم الكون.

(١) Allan Sandage: (١٩٢٦ - ٢٠١٠م)، عالم الفلك الأمريكى الشهير.

(٢) وحدة الوجود: مذهب فلسفى يرى أن الإله والمخلوقات شىء واحد، وأن العالم هو صورة الإله، ومن ثَمَّ فلا موجود إلا الإله. ولا يرى القائلون بوحدة الوجود أن العالم من خلق الإله، بل يقولون: إن العالم هو الإله وإن الإله هو العالم.

(٣) جون بارو John Parow: أستاذ الفيزياء بجامعة Memorial بكندا.

(٤) يرى الفيزيائيون أن البيولوجيا علم ينبثق من تاريخ الكائنات الحية، لذلك يضعونه فى منزلة أدنى من العلوم الرياضية والتجريبية.

أهذا القزم يُقارَن ببرتراند رَسِل؟!

يُرَوِّج البعض أن الفيلسوف الكبير برتراند رَسِل هو الأب الروحى لدوكنز؛ باعتبار أن رَسِل معارض قوى للأديان السماوية، وأنه يُطَعِّم معارضته بكثير من السخرية والتلميحات والمبالغة، إلا أن هناك اختلافًا شاسعًا بين الرجلين.

تخبرنا كاترين تيت Katharine Tait ابنة رَسِل فى كتابها «أبى، برتراند رَسِل My father, Bertrand Russell» أن والدها كان يشعر دائماً بوجود مكان شاغر فى عقله وفى قلبه، مكان كان يشغله الرب عندما كان رَسِل صبيًّا، ثم أصبح خاويًا ولم يعثر على شىء يملؤه. وتقول كاترين إن والدها كان يشعر دائمًا أن جوهر الإنسان لا ينتمى إلى هذا العالم المادى، وأنه أخذ منذ بداياته الفلسفية وطوال حياته يبحث عن الإله باهتمام ومثابرة.

وكما يحدث مع المفكرين الكبار، اصطدم برتراند رَسِل (كما تخبرنا ابنته) بالعديد من المسيحيين المتعصبين والكئيبين، الذين يعرضون الدين بأسلوب يُذهب بسماحة العلاقة بين الله والإنسان، وكذلك بين الإنسان والإنسان، كما يُذهب ببهجة الحياة، مما جعله ينفر من الدين بالكلية، ووصل الأمر إلى أنها فشلت تمامًا فى أن تدخل مع والدها فى أى حوار دينى.

أين هذه المعاناة داخل نفس برتراند رَسِل من أجل البحث عن الحقيقة من العَمَاء الذى يعانى منه ريتشارد دوكنز.

كذلك فات دوكنز أن مَثَلَه الأعلى الـمُـدَّعَى، برتراند رَسِل، قد وصف نفسه بأنه يتبنى (أو يُنشِئ) مذهبًا فلسفيًّا جديدًا كل بضعة سنوات، وهذا دأب معظم الفلاسفة الكبار مثل أنتونى فلو.

> ويقارن دوكنز بين برتراند رَسِل باعتباره فيلسوفًا ملحدًا يتحرى أمانة الفكر، وبين الفيلسوف أنتونى فلو، فيقول إن فلو أعلن ارتداده عن الإلحاد بعد أن كَبُرَ فى السن، وإنه أعلن «أن هناك إلـهًا» حتى يملأ الإعلام ضجيجًا حوله، بينما كان برتراند رَسِل فيلسوفًا كبيرًا حصل على جائزة نوبل. هل لاحظت السخرية والمقابلة بين وصف فلو بأنه «كَبُرَ فى السن» وبين وصف رَسِل بأنه «فيلسوف كبير»؟ لقد فات دوكنز أن المفكرين الحقيقيين يُقَيِّمون الحجج والبراهين دون النظر إلى عِرْق أو جنس أو عُمْر. هذا هو منهج دوكنز وسلوكه الأخلاقى إذا عجز عن تفنيد ما يقال؛ يترك الموضوعية ويهاجم الشخص ببذاءة.

ونختم حديثنا عن حقيقة دوكنز بأنه ينتمى إلى مجموعة من الكتاب العلميين أمثال

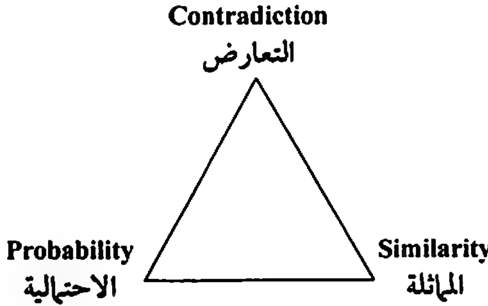
كارل ساجان[1] وإسحق عظيموف[2] الذين لا يكتفون بأن يكونوا علماء وكُتّابًا، بل يعتبرون أنفسهم كهنة العلم فيرتدون مسوح الوعاظ، ويلقون على الناس الخطب باعتبارهم مبعوثي العناية العقلية، الذين يحددون ما يُسمح بأن نؤمن به من الغيبيات، ويستنزلون على مخالفيهم اللعنات.

فلسفة دوكنز الإلحادية

يقول الفيلسوف ألفن بلانتنجا فى عرضه لكتاب وهم الإله؛ يحصل العديد من استدلالات دوكنز الفلسفية على درجة الرسوب إذا طُرحت فى امتحانات الفلسفة فى المدارس الثانوية. كذلك يصف فيلسوف الإلحاد توماس ناجل محاولات دوكنز الفلسفية بأنها محاولات ضعيفة لهاوٍ مبتدئ.

منهج دوكنز الفلسفى

تقوم فلسفة دوكنز الإلحادية على مثلث من المفاهيم الخاطئة، يمكن التعبير عنه بثلاث كلمات:



التعارض: إما العلم وإما الإله!

يمثل هذا المفهوم قاسمًا مشتركًا فى الإلحاد المعاصر. فما أن قامت الثورة العلمية فى أوروبا بطرح التفسيرات الآلية لمختلف الظواهر الفيزيائية حتى بدأ الناس ينظرون إلى هذه التفسيرات كبدائل للتفسيرات الغائية التى تعكس إرادة الله ومشيئته. وكلما توصل العلم إلى تفسير لأحد الظواهر الطبيعية، انتقص ذلك من رصيد الألوهية وأضاف لرصيد العلم. لقد تناسى الناس أن الجمع بين التفسير الغائى والتفسير الآلى هو طبيعة الأشياء، وصارت القاعدة السائدة فى

(١) Carl Sagan: وُلد بالولايات المتحدة (١٩٣٤ - ١٩٩٦م)، وهو عالم الفلك والكونيات الشهير، من المهتمين بالحياة خارج كوكبنا، عمل مستشارًا لوكالة أبحاث الفضاء الأمريكية NASA. من المهتمين بتبسيط العلوم، والمُعد للبرنامج التليفزيونى «الكون Cosmos. A personal Voyage» الذى يُعتبر أكثر البرامج التليفزيونية مشاهدة فى التاريخ؛ إذ شاهده أكثر من ٦٠٠ مليون إنسان فى ٦٠ دولة.

(٢) Isaac Asimov: (١٩٢٠-١٩٩٢م)، أستاذ فى الكيمياء الحيوية، روسى المولد أمريكى الجنسية. له حوالى ٥٠٠ كتاب فى تبسيط العلوم وفى الخيال العلمى.

الغرب أن ما يمكن تفسيره بالعلم لا يحتاج لإله. وأصبح هذا اللبس هو السبب الرئيس وراء نشأة الإلحاد المعاصر.

وبعد دارون امتد نفس المنظور إلى علم البيولوجيا، فصار التطور بالانتخاب الطبيعى من بين طفرات عشوائية هو البديل عن الإله فى خلق الكائنات الحية. وقد عبر دوكنز عن ذلك المفهوم بقوله: «إذا كان التطور يستطيع تفسير ما يبدو عليه عالم الأحياء من تصميم، فلا ينبغى إرجاع ذلك إلى مصدر ذكى». إن ذلك يعنى أن ما يمكن تفسيره بالتطور لا يحتاج لإله، أى أن التطور يعنى الإلحاد. ويمكن صياغة هذا الطرح لدوكنز فى مقدمتين ونتيجة:

المقدمة الأولى: التطور البيولوجى قادر على تفسير كل ما فى عالم الأحياء من تعقيد.

المقدمة الثانية: التطور البيولوجى لا ينسجم مع وجود الإله.

إذًا ليس هناك إله.

المشكلة أن دوكنز يعتبر أن العلم قد أثبت المقدمة الأولى، وأن المقدمة الثانية بديهية. والحقيقة أن كلتا المقدمتين خطأ! فالكثيرون من التطوريين يقرون بأن التطور يعجز عن تفسير العقل البشرى[1]، ويؤكد فرانسس كولنز خطأ المقدمة الثانية بقوله: من الذى يحجر على الإله فى أن يستخدم آلية التطور فى الخلق.

يا الله... ألِى هذا الحد يبلغ السفه بدوكنز؟! فيبنى منهجه الإلحادى كله على مقدمتين خاطئتين؟!

المماثلة: الإله السوبرمان!

يتعامل دوكنز مع الإله باعتباره «سوبرمان»، يتسم بكل ما يتسم به الإنسان من صفات، فيفرض على الإله تصوراته البشرية، لكن على مستوى أكبر!

تجربة الدعاء

من أجل أن نفهم عنصر «المماثلة» فى منهج دوكنز الفلسفى فلنتأمل تلك التجربة العلمية! التى أجراها ونشرها فى كتابه وهم الإله (ص ٦١ - ص ٦٦)، وأسماها تجربة الدعاء Prayer Experiment

---

(١) من هؤلاء ألفريد والاس نظير دارون.

أحضر دوكنز فريقين من المرضى، وطلب من مجموعة من الأشخاص الدعاء للإله بأن يشفى أفراد أحد الفريقين، وتابع الحالة الصحية لجميع المرضى. لاحظ دوكنز أن الدعاء لم يحقق للمرضى أى تحسن يفوق مرضى الفريق الآخر. استنتج دوكنز من ذلك أن ليس هناك إله، إذ لو كان هناك إله «فلا بد» أنه كان سيستجيب للدعاء! بس خلاص، هاهاها، لا تظن أنها نكتة، بل تجربة أجراها دوكنز تحت شروط علمية دقيقة.

قد تصلح هذه التجربة لاختبار أداء الكمبيوتر، الذى ينبغى أن ينفذ ما نلقى عليه من تعليمات، لكنها لا تصلح لاختبار وجود الإله من عدمه. ففى التجربة وقع دوكنز فى خطأين منهجيين كبيرين ينزعان عنها كل حجية:

الخطأ الأول؛ لقد خلط دوكنز بين العلاقة السببية الحتمية (مثل أن رفع درجة حرارة الماء إلى ١٠٠°م يؤدى إلى الغليان) وبين العلاقة السببية اللاحتمية (الدعاء تتبعه الاستجابة). إن دوكنز يتعامل مع الإله باعتباره سببًا طبيعيًا يخضع للقوانين وليس باعتباره إلهًا حرًا هو مصدر حرية الإرادة التى يتمتع بها الإنسان. إن دوكنز يُلزم الإله (إن كان موجودًا) أن يستجيب للدعاء، وإلا فإنه غير موجود!

والخطأ الثانى، أن التجربة لا تختبر وجود الإله، لكن تختبر إحدى صفاته؛ وهى إن كان خَيِّرًا أم لا، كما تفرض عليه مفهومًا معينًا للخير؛ وهو أن يستجيب لكل من يسأله ولكل ما يُسأل.

وإذا تأملنا استجابة الإله الخَيِّر للدعاء، نجد أن الخير مستويات متعددة. فماذا عن الديكتاتور شديد البطش الذى أصيب بمرض جعله يتوقف لحظات ليراجع سلوكه ويفكر فى مصيره؟ أليس من الأفضل له ولنا ألا يستجيب الإله فورًا لدعائه بالشفاء. كذلك يعرف كل أب وكل أم أن ليس من الحكمة الاستجابة لكل طلبات أبنائهم، بل قد لا تكون الاستجابة فى بعض الأحوال فى صالح الأبناء. إن الخير الأعم كما نفهمه عن الإله العظيم هو تحقيق التوازن الدقيق داخل المنظومة المتكاملة، وإن بدا ذلك ضارًا فى بعض جزئياتها[1].

وماذا لو دعى كل البشر واستجاب لهم الإله جميعًا فحصلوا على أفضل الصفات البشرية، ماذا عن آلية الانتخاب الطبيعى، التى تختار الأفضل من تلك الصفات؟ لا شك أنها ستتعطل.

(١) من أمثلة ذلك الحديث الصحيح لرسول الله ﷺ: أَتَتِ امْرَأَةٌ سَوْدَاءُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللهَ لِي. قَالَ: «إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ». فَقَالَتْ: أَصْبِرُ. وقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللهَ أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لَهَا.

وماذا لو شَفَى الإله عند الدعاء جميع مرضى تجربة دوكنز، هل سيقر دوكنز بالإله الشافى؟ أم سيعتبر أن الشفاء مجرد حظ متكرر؟ أم سيفترض أن هناك طاقة مادية صدرت من الدعاء وأدت إلى الشفاء؟ أم سيتوقع أن العلم سيكتشف لاحقًا تفسيرًا لذلك؟ أو...

بماذا يشعر الخفاش؟

لتجسيد ما فى مفهوم المماثلة من عَوَار ولبس، وما فى تجربة الدعاء من خطأ، نقف مع البحث الذى نشره الفيلسوف الملحد توماس ناجل بعنوان: كيف تبدو الأمور لو أصبح الإنسان خفاشًا[(١)]؟!. ما المقصود بهذا البحث الذى يبدو عنوانه غريبًا فى الوهلة الأولى؟

يبصر الإنسان وجود الأشياء وصفاتها بعينيه من خلال ما يقع عليهما من ضوء، أما الخفاش فيدرك ما حوله من خلال عملية رادارية تعتمد على سقوط موجات فوق صوتية على الأشياء ثم ارتدادها ليستقبلها الخفاش بأذنيه. وإذا كان كلٌّ من الإنسان والخفاش يدرك الأشياء التى فى مواجهته، فإن ما يدركه كل منهما يختلف كثيرًا عما يدركه الآخر، كما تختلف مشاعر كل منهما تجاه ما يدركه. ويعلق ناجل ساخرًا: من أجل أن ندرك مشاعر الخفاش، علينا أن نتقبل أن تكون لنا أغشية فى أذرعتنا كالجناحين، وأن نكونَ ضعيفى الإبصار ندرك الأشياء باستخدام جهاز السونار، نطير فى الليل لنصطاد الحشرات وفى النهار نتعلق من أقدامنا مقلوبين فى كهوف مظلمة. إن مجرد ارتدائنا لبدلة الرجل الخفاش غير كاف لأن ندرك مشاعر الخفاش. يبين هذا المثال أن هناك فرقًا كبيرًا بين أن تقوم بنفس الوظيفة (إدراك ما حولك) وبين أن تحصل على نفس الخبرة والشعور[(٢)].

وانطلاقًا من مثال الخفاش نقول: إن إدراك الإنسان لمشاعر الإلوهية وكيف ينظر الإله إلى الأمور أمر مستحيل، لا نحصل عليه بتصور أننا قد صرنا أقوياء كهرقل، أو بتصور الإله كإنسان ضخم كالذى رسمه مايكل أنجلو على سقف الكنيسة السستينية، إنك لا تستطيع أن تتصور كيف تبدو الأمور للإله المطلق الأبدى الأزلى الذى لا تحكمه الأسباب والموجود خارج الزمان وخارج المكان.

الاحتمالية: ربما نعم وربما لا!

يرى دوكنز أنه يستحيل أن نثبت أو ننفى بيقين ملايين الأشياء التى يحلم بها الخيال الخصب لكل إنسان؛ كبراد الشاى الميكروسكوبى الذى يدور فى الفضاء[(٣)]، أو العفاريت التى تعيش فى

---

(١) عنوان البحث الأصلى ?What is it like to be a bat
وقد صار البحث من البحوث المهمة فى تاريخ الفلسفة، واستدل به دوكنز فى كتابه صانع الساعات الأعمى ص ٣٣.

(٢) هذا البحث شديد الدلالة، وسنستشهد به مع مواضع أخرى.

(٣) ضرب هذا المثال برتراند رَسِل، ويقصد أنك لا تستطيع أن تنفى وجود براد شاى ميكروسكوبى الحجم يدور حول الشمس فى مدار بين الأرض والمريخ، وذلك للعجز عن رصد موجود فضائى بهذا الحجم الدقيق.

الحديقة، أو الوحش الطائر المصنوع من المكرونة الأسباجتى، أو الإله! أو...، ومن ثم ينبغى ألا نشغل أنفسنا بمحاولة إثبات أو نفى وجود هذه الأشياء، بل يجب أن نركز على معرفة ما إذا كان وجودها «محتملًا» أم لا[١].

ويترك دوكنز براد الشاى والعفاريت ووحش الأسباجتى باعتبارها أوهامًا غير مهمة، ويركز على وهم الإله! لعدة أسباب؛ أهمها أن الكثير من ظواهر الكون والحياة والإنسان «تخدعنا» بأن تبدو كأنها مُصَمَّمَة ومن ثم تُغرى الكثيرين بالقول أن وراءها إلهًا، فيضيعون أعمارهم فيما لا طائل من ورائه! كذلك فإن الديانات تتسبب فى مصائب رهيبة للبشرية! وأخيرًا لأن كونًا فيه إله يختلف دون شك عن كون ليس فيه إله[٢].

ولبيان عبث مفهوم الاحتمالية، تأمل معنى هذا الحوار: فى إحدى المناظرات[٣]، أخبر الفيلسوف الرياضى جون لينوكس الملحد دوكنز أن سيرجون مادوكس[٤] كان يرفض الإقرار بأن للكون بداية، لئلا يدعم رأى المتدينين بالإله الخالق! لكن عندما تتابعت الأدلة على صحة نظرية الانفجار الكونى الأعظم أعلن مادوكس أنه صار يجد عذرًا قويًا للقائلين بإله خالق أنشأ الكون من عدم. عندها مارس دوكنز سفسطته وقال: إذا كان هناك احتمالان، أن يكون للكون بداية أو يكون قديمًا، فإن لدى المتدينين فرصة ٥٠٪ أن يكونوا على صواب، و ٥٠٪ أن يكونوا مخطئين مثلهم مثل الملاحدة تمامًا!!

ياالله، ما كل هذه اللاموضوعية واللاعلمية. فى مثل هذا الموقف لا ينبغى أن نخضع لمفهوم الاحتمالية، بل المهم هو مدى صحة الشواهد على أن للكون بداية. ما أشبه موقف دوكنز بطبيب دُعى لمناظرة إنسان تُوفى، فقال لأهله: هناك احتمال ٥٠٪ أن يكون ميتًا و ٥٠٪ أن يكون حيًّا، ومن ثم ينبغى عدم دفنه! أليس المنهج الصحيح أن يبحث الطبيب عن الشواهد المؤكدة للوفاة؟

ولتأكيد عنصر الاحتمالية، يمارس دوكنز هوايته فى الخطابة (دون أن يقدم أى دليل «حقيقى» كعادته) فيقول: «حتى منتصف القرن التاسع عشر (ما قبل دارون) كان كل شخص عاقل يعتقد أن هناك ذكاءً فائقًا صمم وخلق الكون وكل ما فيه، بما فى ذلك الإنسان، أما بعد دارون فيمكن إرجاع ما نرصده من تصميم ظاهر إلى التطور الأعمى، ومن ثم تراجعت احتمالية وجود الإله بقدر كبير».

---

(١) The God Delusion, P. 51 -54

(٢) The God Delusion., P.31,55,139

(٣) مناظرة جرت فى ولاية آلاباما.

(٤) Sir John Maddox رئيس تحرير مجلة Nature

إن عنصر الاحتمالية يضع دوكنز فى موقف شديد الحرج، فهو يرى أن إثبات أو نفى وجود الإله قضية شديدة الأهمية، وفى نفس الوقت يرى أنه يستحيل علميًّا وفلسفيًّا تحقيق هذا الإثبات أو النفى!! إن دوكنز بذلك يُمَيِّع قضية الألوهية تمامًا، ويحولها ـ على أفضل الأحوال ـ إلى احتمالية: الأرجح أن الإله موجود أو الأرجح أن الإله غير موجود!!

والمدهش أن دوكنز يستخدم مفهوم الاحتمالية استخدامًا معاكسًا! فإذا كان يطرح مفهوم «الاحتمالية» حتى «يشكك» فى أمر عليه أدلة علمية وعقلية، فإنه يستعمل نفس المفهوم حتى «يرجح» وقوع ما يستحيل فعليًّا حدوثه!! ومن ثم فهو يعتبر أن كل ما هو ليس بمستحيل مطلق فإنه «ممكن» الحدوث. هنا يقع دوكنز فى خطأ فاحش، وهو الخلط بين «المحتمل رياضيًّا» وبين «الممكن واقعيًّا»، وسنتعرض للفرق بينهما بعد قليل.

ملحد، أَم شكاك، أَم لا أدرى؟

وضع دوكنز فى كتابه وهم الإله تدريجًا Scale [1] من "١" إلى "٧"، ينتظم فيه الناس تبعًا لمستويات إيمانهم بالإله، فأصحاب الإيمان المطلق يحصلون على "١"، وأصحاب الإنكار التام يحصلون على "٧". ويصف دوكنز نفسه بأنه يقف عند الدرجة ٦,٩. وكرر دوكنز الحديث عن ذلك فى حوار تليفزيونى فى فبراير ٢٠١٢. وقد جعل هذا الحديث الكثيرين من المؤمنين يستبشرون ويحسنون الظن بدوكنز، ويتصايحون بأن أعتى الملاحدة قد بدأ فى إعادة النظر فى موقفه الإلحادى، والحقيقة غير ذلك.

يردد الملاحدة دائمًا أن العلم لا يستطيع إثبات وجود الإله، ويستطردون، قائلين كذلك لا يستطيع نفى وجوده[2]. هذا هو منطلق دوكنز فى تصريحه بأنه لا يستطيع نفى وجود الإله بشكل كامل، ومن ثم وضع نفسه على الدرجة ٦,٩. وهو يعتبر العجز عن ذلك تمامًا مثل العجز عن نفى براد الشاى الكونى، وعفاريت الحديقة، ووحش المكرونة الأسباجتى[3].

---

(١) تدريج دوكنز The Dawkins' Scale

١ – مؤمن بقوة	Strong Theist
٢– مؤمن معتاد	DE-Facto Theist
٣– ضعيف الإيمان	Weak Theist
٤– لا أدرى	Pure Agnostic
٥ – ضعيف الإلحاد	Weak Atheist
٦– ملحد معتاد	DE- Facto Atheist
٧ – ملحد بقوة	Strong Atheist

(٢) هذا ما ناقشناه منذ قليل تحت عنصر «الاحتمالية».

(٣) يعتبر الملاحدة بذلك أنهم قد حَيَّدوا العلم تجاه قضية الألوهية. وما يقولون هو نصف الحقيقة، فالعلم بلا شك لا يستطيع نفى وجود الإله، وذلك لسبب بسيط، وهو أن الإله موجود، وإثبات ذلك هو موضوع هذا الكتاب.

إن تصريح دوكنز بذلك لا ينبغى أن يخدعنا، فدوكنز لا يرقى إلى مستوى اللا أدريين أو الشكاكين الصادقين فى البحث عن الحقيقة، فهو فى مواضع عديدة يكرر أنه ليس فقط لا دينى ولكنه ضد الدين، خاصة دين الإسلام. وقد صرح دوكنز مرارًا أن أحداث ١١ سبتمبر التى تُنسب إلى الأصولية الإسلامية قد حولته من ملحد مسالم إلى ملحد أصولى Fundamentalist!

بعض جوانب الاتفاق

نقبت طويلًا فى كتاب وهم الإله، عَلِّى أجد شيئًا أوافق دوكنز عليه، فعثُرت فى مفهومين سطحيين لا بأس من قبولهما:

فدوكنز يرفض ما يُسمى «دليل الخبرة الخاصة»، الذى يشير إلى ما يشعر به المتدينون من مشاعر التسامى وما يشاهده بعضهم من مكاشفات، ويستشهدون بها على وجود الإله. ويعتبر دوكنز أن هذه التجارب الشخصية لا تُلزم أحدًا سوى من يعاينها، ونحن نوافقه.

كذلك يرفض دوكنز ما يُسمى «دليل العلماء المشهورين المتدينين» الذين يستشهد بهم البعض على صحة مفهوم الألوهية والدين، لما لهم من سمعة علمية طيبة. ونحن نوافق دوكنز على هذا المنهج بشرط ألا يُزَوِّر مواقفهم بادعائه أنهم من الملاحدة (كما يفعل مع أينشتين). وهذا لا يمنعنا من أن نستشهد بموقف العلماء المتدينين (كعلماء فيزياء الكم) من خلال طرح حججهم.

منهج دوكنز الفلسفى فى الميزان

المنهج الفلسفى هو الطريق الذى يتبعه المفكر للوصول إلى الحقيقة. فاستنادًا إليه، يقوم المفكر باستبعاد ما يرى خطأه ويربط بين ما يراه صوابًا ليشكل نظرته المتكاملة تجاه قضية معينة. وإذا تأملنا العناصر الثلاثة التى يقوم عليها منهج دوكنز الفلسفى (التعارض - المماثلة - الاحتمالية) نجد أنها تجهض أية دراسة موضوعية لقضية الألوهية، ولا تسمح إلا بتبنى الإلحاد!!

فعنصر «التعارض» يضعنا من البداية فى مفترق طرق، الاختيار فيه محسوم مسبقًا. إما العلم وإما الألوهية! إذ لا يمكن (عند دوكنز) الجمع بينهما. إذا لم يمكن الجمع حقيقة فأنا شخصيًا سأختار العلم!!

وينطلق دوكنز فى عنصر «الاحتمالية» من مقدمة مسبقة بأنه يستحيل إثبات أن هناك إلهًا، فلماذا نضيع وقتنا وجهدنا من أجل قضية مقطوع بالعجز عن إثباتها.

وتُوقِع الاحتمالية دوكنز فى مطب عسير، فهو لا يستطيع نفى «احتمالية» وجود الإله، إذًا يظل باب الألوهية مواربًا. هنا يطرح دوكنز العنصر الثالث «المماثلة» الذى سينفى شكوكك ويستبعد كل احتمالية بوجود الإله! فالتصرفات الإلهية لن تماثل تصرفاتنا البشرية، مما يجعلك تحاكم الإله عند كل فعل يخالف ما نتوقعه منه، وتطرده فى الساحة، وتعود إلى المربع صفر؛ مربع الإلحاد.

ويرفض الفيلسوف «الملحد» توماس ناجل منهج دوكنز فى النظر إلى الإله، فيقول: «إن الإله (الذى يتحدث عنه المؤمنون والملاحدة على السواء) ليس موجودًا ماديًا معقدًا يسكن عالمنا الطبيعى (كما يُعَرِّفه دوكنز)، لذلك فإن تفسير وجود الإله بأنه احتمالية نشأت نتيجة لتجمع ذرات بالصدفة فى عملية تطور عشوائى أمر مرفوض. **إن الإله الذى يدور حوله الاختلاف والتنازع وجود يختلف تمامًا عن عالمنا المادى وعلومنا الطبيعية**، إنه وجود غير مادى قادر على إيجاد الوجود المادى. إن التفسير المادى الذى يتبناه دوكنز دائمًا ليس هو التفسير الوحيد، لكن هناك التفسير العقلى Mental، والغائى Purposive، والقصدى Intentional، وكلها تقف وراء التفسير المادى ووراء قوانين الطبيعة»[1].

ونحن نتفق مع ناجل فى أن منهج دوكنز مقبول إذا كنا نبحث عن إله مادى ذى جسم خارق وذكاء كذكائنا. وناجل يوافقنا أن الإله الذى يدور حوله النقاش ليس كذلك. إن ما نثبته ويحاول دوكنز نفيه هو موجود مغاير تمامًا، إن موقف دوكنز يشبه تمامًا أن ننكر أن هناك كائنًا يدرك الوجود باستعمال السونار، فقط لأننا كبشر ندرك الوجود عن طريق الإبصار!

إن منهج دوكنز الفلسفى يشبه «المتاهة» التى تقودك - إذا دخلت فيها - إلى نقطة البداية، ياله من منهج شيطانى يمثل سياجًا حديديًا يحمى العقيدة الإلحادية ولا يُمَكِّن العقل من اختراقه.

ولا شك أن ريتشارد دوكنز هو أول ضحايا هذا المنهج.

الإله فى فلسفة دوكنز

الإله خلق الكون، فمن خلق الإله؟!

يقيم دوكنز أشهر كتبه وأكثرها إثارة للضجيج «وهم الإله» على هذا التساؤل الساذج الذى كنا نطرحه ونحن صبية فى المدرسة الإعدادية، حتى صرت أُسمى الإلحاد الذى يقوم على هذا التساؤل بالإلحاد الصبيانى. لذلك يكرر دوكنز كثيرًا فى كتابه قوله: «ليس هناك دليل

(١) Thomas Nagel: The fear of Religion. P.26

فلسفى أو علمى على وجود سبب أول ذكى؛ لأن ذلك الدليل سينهار عند البحث عن سبب هذا السبب الأول»[1]، وقد ناقشنا فى الفصل الثالث دَفْعَنا لهذا المنطق المعتل، وأثبتنا أنه ينبغى أن يكون للوجود سبب أول لا سبب له، ومن ثم **فالسؤال عن سبب من لا سبب له سؤال غبى.**

وقد استقر دفع هذا الادعاء فى علم الكلام الإسلامى منذ ألف عام، وعنه أخذ اللاهوت المسيحى ثم الفلسفة الحديثة. وبه أيضًا قال أنتونى فلو حين تحول من الإلحاد إلى الإيمان ولخص الأمر فى قول بسيط حكيم: **لا بد من موجد أول أوجد كل شىء.**

حقيقة الموجود الأزلى

عندما يطرح دوكنز تساؤله: من خَلَقَ السبب الأول؟ فذلك يعنى **رفضه لتقبل وجود موجود أزلى غير مخلوق**، وهذا الرفض يعكس خللًا فكريًّا آخر. فدوكنز يتبنى ـ مثل من سبقه من الملاحدة اليونانيين الأقدمين، وكذلك الماركسيين ـ أن الطاقة/ المادة أزلية وأنها السبب الأول للكون. أى قبل هؤلاء أن تكون المادة غير العاقلة أزلية، **أما أن يكون الإله أزليًّا، فلا!**

إن الاختلاف بين الملاحدة والمتدينين ليس حول وجود حقيقة أزلية أولى، **فكلاهما يتفق على موجود أزلى.** ولكن الاختلاف يدور حول ماهية الحقيقة الأزلية الأولى: **الطبيعة أم الإله؟** وقد ذكرنا فى الفصل الثالث أن الطبيعة لا يمكن أن تكون هى السبب الأول، فالطبيعة ليست إلا طاقة ومادة وزمان ومكان، وقد أثبت العلم أن لهذه العناصر الأربعة بداية، أى أنها مخلوقة، ومن ثم فالطبيعة مخلوقة، وبالتالى لا يمكن أن تكون سببًا أول.

ونحن نرد على دوكنز سؤاله للمتدينين: **إذا كنت تعتبر الطبيعة هى الخالق، فمن خلق خالقك؟**

ذات الإله: مادى، معقد، متطور!

يعتبر دوكنز أن الأشياء الذكية (كالإنسان) ينبغى أن تكون معقدة، وأن الأشياء المعقدة لا تنشأ إلا بالتطور، لذلك إذا كان هناك إله ذكى أنشأ الإنسان والوجود **فينبغى أن يكون**

(١) صفحات 156 ,155 ,147 ,143 ,141 ,120 ,114 ,109

أكثر تعقيدًا وأن يكون قد نشأ نتيجة لعملية تطورية[١]!. وانطلاقًا من منهجه الفلسفى الذى يدرس الإله «كاحتمالية»، يقول دوكنز: إن وجود الإله (الأعقد) هو أقل احتمالًا من وجود الأشياء (الأبسط) التى نحاول تفسيرها بوجوده. ويسمى دوكنز هذا الاعتراض على وجود الإله بـ«دليل تعقيد الإله»[٢].

إن هذا الاعتراض لدوكنز خطأ بَيِّن؛ فكثيرًا ما نفسر الأبسط بأمر أعقد، دون أن يكون وجود الأعقد أقل احتمالية. فنفسر مثلًا سقوط التفاحة بقانون نيوتن للجاذبية أو بانحناء الزمكان (النظرية النسبية)، كذلك نفسر وجود الذرات وبنيتها وخصائصها بفيزياء الكم التى هى من أعقد العلوم[٣].

إذا كان طرح دوكنز صحيحًا، فعلينا أن نرفض تفسير الكون بفيزياء الكوانتم الأكثر تعقيدًا أو بالطاقة التى لا نفهمها ولا نعرف حقيقتها، تمامًا كما لا نعرف حقيقة الإله.

إن هذا الخطأ لدوكنز خطأ منهجى، فليس المهم أن يكون التفسير أبسط أو أعقد، لكن «القدرة التفسيرية» هى الأهم. فإذا عَثَرَ عالم حفريات على خطين مرسومين بطريقة مميزة على جدار كهف قديم فإنه سيجزم أن كائنًا ذكيًا قد رسمهما، ولن يعتبر أن إرجاع الخطين إلى مصدر أكثر تعقيدًا مرفوض علميًا. وهل نرفض القول بأن دوكنز هو مؤلف كتاب «وهم الإله»، انطلاقًا من أن دوكنز أكثر تعقيدًا من كتابه؟ لا أظن أنه سيقبل ذلك.

صفات الإله

ويتساءل دوكنز: كيف يثبت المتدينون علميًا صفات الإله التى يَدَّعونها؛ مثل طلاقة القدرة، طلاقة العلم، استجابة الدعاء، غفران الذنوب،..؟ وتحت عنوان «الدليل من الكتاب المقدس»[٤] يبذل دوكنز جهدًا كبيرًا لتبرير رفضه لما جاء فى الكتب المقدسة عن الصفات الإلهية، باعتبار أنها لا تُلزم إلا المؤمنين بها. ونحن نقول له إن منهج الإسلام الذى يتمشى مع المنطق هو إثبات وجود الله ﷻ وبعض صفاته وأيضًا إثبات صحة القرآن الكريم بدليل العلم والعقل[٥]، بعد ذلك يصبح من البديهى والحتمى الإيمان بما جاء فيه، شاملًا جميع صفات الله ﷻ.

(١) The God Delusion, P. 31- 73

(٢) The God Delusion, P. 147

(٣) يخبرنا ريتشارد فيمان أن لا أحدًا يعرف كيف تعمل فيزياء الكم، ولا ما هى الطاقة التى تتشكل منها المادة!

(٤) The God Delusion, P. 92 - 97

(٥) سنتناول موضوع «الصفات الإلهية فى العلم والفلسفة» فى الكتاب القادم إن شاء الله ﷻ.

إله دوكنز

الاحتمالية والصدفة

يقبل كل شيء إلا الإله!

من أكثر ما يستدعي انتباه القارئ لدوكنز إيمانه الجارف غير المنطقي «بالاحتمالية والصدفة»، فقد جعلهما التفسير لكل معضلات الخلق، بل جعلهما إلهه! إن دوكنز يؤمن أن أي حدث مهما بدا مستحيلًا يمكن تفسير وقوعه علميًا بالاحتمالية والصدفة! تعال نتأمل هذا المثال الذي طرحه دوكنز[1]:

«إذا لَوَّحَ تمثال رخامي للعذراء مريم لنا بيده فإننا سنعتبر ذلك معجزة؛ لأن خبراتنا ومعلوماتنا تؤكد أن الرخام يستحيل أن يسلك بهذا الشكل. وإذا كان المنهج العلمي يرفض إمكانية حدوث المعجزة، فإنه لا يعتبر هذا الحدث «مستحيل الوقوع»، وإن كان بعيد الاحتمال جدًا».

ويشرح دوكنز هذه الاحتمالية قائلًا: «في الأحوال العادية، تتصادم جزيئات الرخام فتتدافع في اتجاهات عشوائية يعادل بعضها بعضًا، لذلك تظل أجزاء التمثال ثابتة. لكن إذا حدث تزامُن Coincidence ـ بالمصادفة المطلقة ـ فتحركت جميع جزيئات الرخام في ذراع التمثال في اتجاه واحد في نفس اللحظة فيمكن للذراع أن تتحرك في هذا الاتجاه، ثم إذا عكست هذه الجزيئات اتجاه حركتها ـ بالمصادفة المطلقة أيضًا ـ فيمكن للذراع أن تتحرك في الاتجاه المعاكس، بذلك يُلَوِّح التمثال لنا بيده». ويضيف دوكنز: «ليس هناك استحالة رياضية لحدوث ذلك».

لقد قَدَّر أحد الفيزيائيين الرياضيين «احتمالية» حدوث التزامن بالصدفة في حركة الجزيئات بحيث يسمح بحركة ذراع التمثال، فوجد أن عمر الكون كله لا يكفي لكتابة الرقم الذي يدل على ضآلة الاحتمالية. إنها تقارب احتمالية أن تقفز بقرة من الأرض فتستقر على القمر[2]. وبهذا المنطق أيضًا، يمكن أن يتحول القمر إلى قرص هائل من الطعمية! عن طريق إعادة ترتيب جزيئاته، إذ أن احتمالية حدوث ذلك يمكن حسابها رياضيًا!

---

(١) Blind Watch maker, New York: Norton 1996, P. 159، ثم كرر المثال في كتابه وهم الإله 374 -373 .P

(٢) مسافة ٢٤٠,٠٠٠ ميل، مراعيًا دوران الأرض والقمر، وضعف قوة عضلات البقرة، واحتكاك البقرة بالوسط المحيط، و...).

ومن أجل أن يصبغ دوكنز على الاحتمالية والصدفة مظهرًا علميًا فى مجال البيولوجيا، فإنه صك اصطلاحًا غامضًا هو «الإمكانية البيولوجية **Biologically Possible**»، وحدد لها مقياسًا شديد الغموض (ويغيظ)؛ فقال: إن الشىء قابل للحدوث إذا كانت عدم احتمالية وقوعه تبلغ أرقامًا أقل من فلكية Less than astronomical Improbility. وإذا جارينا دوكنز فى تعريفه، ألا يُعتبر الرقم الذى لا يكفى عمر الكون لكتابة أصفاره رقمًا فلكيًا!!

أهذا يا دوكنز تعريف أم تخريف؟!

ونظرًا لإدراك عدد من البيولوجيين الملاحدة استحالة نشأة الحياة «تلقائيًا» على كوكب الأرض فقد تهربوا من المشكلة بادعاء أن الحياة قد وصلت للأرض من كوكب آخر. لقد قبلوا هذا ولم يقبلوا القول بالاحتمالية والصدفة!

وإذا انتقلنا من هذه الأمثلة إلى قضية الألوهية، نجد دوكنز يقول: «لا أستطيع أن أجزم تمامًا بعدم وجود الإله، لكن هذا الاحتمال ضئيل جدًا، لذلك فإننى أحيا حياتى باعتباره غير موجود»[1]. سبحان الله! فى قضية الألوهية جعل دوكنز من الاحتمالية الرياضية الضئيلة جدًا لوجود الإله حكم الاستحالة، فقرر أن يحيا حياته باعتباره غير موجود. أما فى حركة ذراع التمثال الرخامى جعل الاحتمالية الضئيلة جدًا جدًا جدًا فى حكم الممكن، وبناء عليها يرفض قيام الإله بهذه المعجزة.

وإذا كانت القاعدة المنطقية لتشخيص المعجزة تقول: إن وقوع أمر ما يُعَد معجزة إذا كان مستحيل الحدوث، فإن دوكنز قَلَبَ القاعدة لتصير: إن الأحداث المستحيلة تصبح ممكنة بالصدفة؛ لأن حدوث المعجزات بعيد الاحتمال جدًا! بذلك يتنحى الإله الحق لصالح الصدفة، إله دوكنز. والآن فلنحلل أقنومى[2] إله دوكنز: «الاحتمالية» و«الصدفة»:

«الاحتمالية الرياضية» لا تعنى «الإمكانية الفعلية»

إن سقطة دوكنز المنهجية فى مجال الاحتمالية والصدفة، أنه يخلط بين «الاحتمالية الرياضية» و«الإمكانية الفعلية». فهو يَدَّعى «إمكانية» وقوع أى حدث فيزيائى (كتلويح التمثال أو قفزة البقرة أو القمر الطعمية) طالما يمكن حساب «احتمالية» حدوثه بالمصادفة، ولا شك أن هذا الخلط بالغ الخطأ.

(١) The God Delusion, P. 51

(٢) إشارة إلى اصطلاح الأقانيم الثلاثة التى يُقَسِّم إليها المسيحيون الإله: الأب - الابن - الروح القدس.

تصور أنك فى يوم من الأيام عدت إلى بيتك طافح البِشر والسعادة، وعندما سألتك زوجتك عن سر ذلك، أخبرتها أن ابتداء من الشهر القادم سيُزاد مرتبك إلى مليون جنيه شهريًا. اندهَشَت زوجتك وسألت «كيف»؟ و«لماذا»؟ ما الآلية وما المبرر؟ أجبتها بأن «الاحتمالية الرياضية» تسمح بذلك وتبلغ ٥٠٪!

المشكلة أن زوجتك ـ لسوء حظك ـ درست نظرية الاحتمالات بعمق، فسخرت منك، وأخبرتك أن «الاحتمالية الرياضية» **لا تعنى أن الحدث قابل لأن يخرج إلى حيز الواقع دون أن تتوافر له المقدمات التى تنسجم مع القوانين الموجِدة للظاهرة.** ولما كانت هذه المقدمات غير موجودة فى حالتك فإن الاحتمالية الرياضية «**يستحيل**» أن تخرج إلى حيز الإمكان. لا شك أن كلمات زوجتك أصابتك بالإحباط(١).

إن دوكنز يحاول أن يُسَوِّق لنا ادعاءه بفاعلية الاحتمالية الرياضية، ونحن نخرسه بالمنطق الذى طرحته زوجتك. إن الاحتمالية الرياضية لأن يحرك تمثال العذراء الرخامى ذراعه لا تعنى إطلاقًا الإمكانية الفعلية لحدوث ذلك، بل إن ذلك مستحيل لعدم توافر مقدمات تزامن حركة الجزيئات، فالصدفة غير قادرة على إحداث ذلك، كما سنرى بعد قليل.

كذلك يقع دوكنز فى خطأ منهجى آخر، فهو يتغافل عن أن **الاحتمالية الرياضية الضئيلة جدًّا تبلغ بنا حد الاستحالة الإمكانية.** لذلك يتحدث المتخصصون فى دراسة الصدفة عما يُعرف «**بالحد الاحتمالى الأدنى Universal Probability bound**» ، ويقصدون به أن إمكانية وقوع الحدث بالصدفة تصبح فى حكم المستحيل إذا قَلَّت احتماليته عن حد معين. وقد قدر المتخصصون هذا الحد بـ ١× ١٠^-١٥٠^، وهو حد مقبول جدًّا إذا قورن باحتمالية حركة ذراع تمثال العذراء الرخامى بالصدفة.

إن هذين العاملين (الاحتمالية لا تعنى الإمكانية، والحد الاحتمالى الأدنى) تجعلان من الأقنوم الأول من إله دوكنز «الاحتمالية» إلهًا عاجزًا لا قدرة له.

---

(١) فلنضرب مثالًا آخر يبين الفرق بين «الاحتمالية الرياضية» و«الإمكانية الفعلية»:
إذا ألقينا عددًا من أوراق اللعب (الكوتشينة) لأعلى، وتركناها تسقط على الأرض، فيمكن حساب احتمال أن تسقط هذه الأوراق بتتابع قيمها العددية، وليكن الاحتمال ١/ مليون. لكن ماذا يحدث إذا ألقينا بنفس الأوراق فى إعصار؟ إن «الاحتمالية الرياضية» تقل بمقدار كبير لتصبح مثلًا ١/ بليون أو ١/ تريليون، لكن فى الحقيقة هناك «استحالة فعلية»، فالإعصار سيبعثر الأوراق فى كل مكان.

حقيقة الصدفة

ما حقيقـة الصدفة؟ ذلك الأقنوم الثانى لإله دوكنز، الذى يجعل منه عِوَضًا للإله الحى، الفَعَّال، الحكيم، الخالق؟ نجيب عن هذا السؤال بما قاله أرسطو للمؤمنين بالصدفة فى زمانه:

«لا تصلح الصدفة لتفسير شىء، لأنها ليست شيئًا على الإطلاق». فإذا حللنا قول مثل «إن وقوع حدث ما بالصدفة أمر محتمل، نجد أن جوهر الأمر هو «وقوع حدث» وليس «بالصدفة» التى ليست شيئًا.

ولنشرح ذلك بمثال: إن احتمالية الحصول «بالصدفة» على الرقم «٥» عند إلقاء زهر هو ٦/١ . هل ٦/١ شىء أو سبب؟! إن الحصول على «٥» بالصدفة تقف وراءه أمور حقيقية؛ مثل: لدينا زهر له ستة أوجه، يمكن هز الزهر وقذفه بقوة معينة، شكل الزهر يسمح بالاستقرار على أحد الجوانب الستة بنفس الاحتمالية... وهكذا. إن قولنا بالحصول على رقم «٥» بالصدفة هو **أسلوب مختصر للتعبير عن محصلة هذه العوامل كلها.** إن احتمالية ٦/١ ستتلاشى إذا غيرنا من الأمور السابقة: كأن نقذف بالزهر فى فرن شديد الحرارة فينصهر، أن نملأ ثقوب الزهر بمادة تخفى الأرقام...

ولنُصَعِّد المثال السابق لنتأكد أن **«الصدفة» لا وجود لها فى الحقيقة.** هل تعلم أنك تستطيع الحصول على نفس الرقم عند إلقاء زهرى الطاولة مرات متعددة إذا ثَبَّتَ نفس العوامل(قوة إلقاء الزهرين، وزاوية الإلقاء، و.....) **إن ذلك يعنى أن ما نعتبره صدفة إنما هو محصلة لعوامل عديدة نعجز عن حصرها والتحكم فيها، ومن ثم نطلق على محصلتها اصطلاح «صدفة».**

إذًا فالصدفة ليست سببًا أوليًا، إنها نتيجة ثانوية تتبع عوامل أخرى. هكذا ينهار الأقنوم الثانى من إله دوكنز الذى جعله إلاهًا فاعلًا.

زاد الطين بِلَّة

فى محاولته لإنقاذ إلهه الصدفة، لجأ دوكنز إلى تقسيم القدر الهائل من اللاحتمالية إلى أجزاء صغيرة، وافترض إمكانية حدوث كل منها بالصدفة خلال بضعة ملايين من السنين.

بالرغم من إثباتنا أن الصدفة غير قادرة على فعل أى شىء، تعال نجارى دوكنز فى محاولته: لنفترض أننا سنقسم آلية نشأة جزىء الهيموجلوبين بالصدفة إلى ١٠٠٠ خطوة، وأنه سيكون أمام كل خطوة أحد احتمالين، إما أن تحدث فتقترب بنا من بنية جزىء الهيموجلوبين أو لا

تحدث. إن احتمالية اكتمال هذه الخطوات الألف بنجاح هى $٢^{١٠٠٠}$ أى حوالى $١٠^{٣٠٠}$، إنها احتمالية أكثر ندرة من نشأة جزىء الهيموجلوبين بالصدفة فى مرحلة واحدة والتى تبلغ $١٠^{١٩٠}$! وهو الأمر الذى لم يتنبه إليه دوكنز.

بذلك يتحول إله دوكنز «الاحتمالية والصدفة» إلى وهم وسراب. فالاحتمالية لا تحقق إمكانية، كما أن الصدفة لا وجود لها **أصلا**. سبحان الله القائل فى كتابه الحكيم ﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المؤمنون].

خرافة صانع الساعات الأعمى

أراد دوكنز أن يدعم إلهه (الاحتمالية والصدفة) العاجز عن توجيه عملية التطور البيولوجى، فخرج علينا بأكذوبة أخرى أطلق عليها **«الانتخاب الطبيعى التراكمى»**، وضَمَّنَها كتابه **«صانع الساعات الأعمى** Blind Watch Maker»[(١)]، الذى كان سببًا فى شهرته. وفى الكتاب يمهد دوكنز لعرض وجهة نظره التراكمية حول التطور فيقول:

«استعرت اصطلاح صانع الساعات (فى عنوان كتابى) من رسالة **«اللاهوت الطبيعى»** التى نشرها عالم اللاهوت وليام بالى عام ١٨٠٢، وتعتبر الرسالة أحسن عرض معروف لـ «**برهان التصميم**»، **الذى يعنى أن الوجود بما فيه من إبهار يشير إلى وجود إله قام بتصميمه وخلقه**.

ويبدأ بالى رسالة «اللاهوت الطبيعى» بفقرته المشهورة: لنفرض أن قدمى حطت على «حَجَر» أثناء عبور حقل، وتساءلت: كيف وصل الحجر إلى هنا؟، لعلى أعتبر أن الحجر يقبع هنا منذ الأزل. ولكن لنفرض أنى وجدت «ساعة» فى هذا المكان، فلا أظن أنى سأفكر فى الإجابة السابقة».

ويواصل بالى حديثه، فيبين الإحكام الذى تُصنع به تروس الساعة وزنبركاتها، والدقة التى توضع بها هذه الأجزاء معًا، ثم يعلق قائلًا: فإذا عثرنا على شىء مثل الساعة فى حقل، أجبرنا إحكامها ودقة تصميمها أن نستنتج أنه «**ينبغى أن يكون للساعة صانع شَكَّلها لتفى**

(١) قام بترجمة الكتاب إلى العربية الدكتور مصطفى إبراهيم فهمى، ونشرته مكتبة الأسرة باسم «الجديد فى الانتخاب الطبيعى» عام ٢٠٠٢، وتقع ترجمة الكتاب فى ٤٢٥ صفحة من القطع الكبير.

بالغرض المطلوب منها». ويعمم بالى هذا الاستنتاج، فيقول: «إن ما فى الساعة من مظاهر التصميم وأدلة على الاختراع توجد أيضًا فى الكون، بل إن الكون أعظم وأكبر وأدق بدرجة تفوق كل تقدير».

ويؤكد بالى وجهة نظره بمثال آخر شهير وهو العين البشرية، فيقارن العين بآلة مُصَمَّمَة مثل التلسكوب، ويرى أننا إذا أقررنا بأن التلسكوب قد صُمِمَ وصُنع للمساعدة على الرؤية، فمن باب أولى أن للعين (التى هى أصل الرؤية) مُصَمِّمًا وصانعًا».

ثم يعلق دوكنز: «لقد صيغت حجج بالى بإخلاص مشبوب، وأُيدت بمعلومات من أحسن ما توافر فى علم البيولوجيا فى ذلك الوقت. ولكن الربط بين التلسكوب والعين، وبين الساعة والكون هو ربط زائف».

فصانع الساعات الحقيقى له تَبَصُّر للأمام؛ فهو يصمم تروسه وزنبركاته، ويخطط لما بينها من ترابطات، وقد وضع نُصب عينيه هدفًا مستقبليًا (غاية). أما صانع الساعات فى الطبيعة فهو تلك العملية التلقائية العمياء غير الواعية التى وصفها دارون (وهى الانتخاب الطبيعى)، والتى نعرف الآن أنها تفسر نشأة الحياة، دون أن يكون لها عقل وهدف».

ويرى دوكنز أن لُب الداروينية هو حقيقة بسيطة كل البساطة، وهى «أن التكاثر مع وجود طفرة وراثية حدثت بالصدفة (عشوائية) ثم تبعها انتخاب طبيعى (لا عشوائى) إذا أُتيح لهما معًا الزمن الكافى، فإن ذلك يؤدى إلى تطورية فى الحياة هى أبعد من الخيال».

ويؤكد دوكنز «أن الانتخاب الطبيعى الذى يتحكم فى التطور هو اختيار «لا عشوائى»، وإن كان فى الوقت نفسه بلا عقل ولا يتجه لهدف فى المستقبل، وإن كان يبدو بالنظر إلى الخطوة السابقة له أنه يحقق ما يشبه أن يكون تقدمًا نحو هدف. وهو إذ يؤدى إلى تصميمات مركبة فهو بمثابة صانع ساعات معقدة ولكنه صانع ساعات أعمى بلا رؤية للمستقبل!».

أما الطفرة العشوائية، فيرى دوكنز أن دورها ثانوى فى التطور[1]!، ويرى أنها مجرد بداية التغير البسيط الذى يظل يتراكم بالانتخاب الطبيعى اللاعشوائى لتكوين ما هو أكثر تعقيدًا، حتى نصل على المدى الزمنى البعيد إلى أقصى تَعَقُّد وتَرَكُّب.

(١) يحاول دوكنز هنا أن يصد بعض أوجه الهجوم الرئيسية على الداروينية، مثل ما تُتهم به من أن التطور فيها يعتمد على صدف عمياء عشوائية، مع أنه لا يمكن أن ينشأ تركب وتعقد منتظم عن العشوائية دون مصمم ذكى.

برهان القِرَدَة

إذا كانت «الاحتمالية والصدفة» هى إله دوكنز وكل الدراونة، فإنهم يلجأون إلى الاستشهاد على قدرته ببرهان القِرَدَة الذى يُنسب إلى توماس هكسلى[1] نصير دارون الأول، والذى يدعى أن مجموعة من القردة لو تُركت وقتًا كافيًا لتدق على مجموعة من الآلات الكاتبة فإنها ولا شك ستكتب قصيدة من قصائد شكسبير، وربما إحدى مسرحياته، بل ربما أعمال شكسبير كلها.

وقد لقى هذا البرهان من التسفيه بالأدلة العلمية العقلية والرياضية ما جعل سير أنتونى فلو يصفه بإنه كومة من النفايات. ومن هذه الأدلة ما أثبته الرياضى الكبير جيان كارلو روتا[2] من أن عمر الكون كله لن يكفى لكتابة مسرحية واحدة لشكسبير إذا دق القرد على آلة كاتبة بمعدل مرة كل نانو ثانية. ويبين رَسِل جريج[3] أن القرد من أجل أن يكتب قصيدة تتكون من ٦٠٣ حرف بالمصادفة يحتاج ١٠^١٠١٧ سنة، بينما عمر الكون ١٣,٧ بليون سنة فقط. لذلك يؤكد سير فريد هويل[4] أن المادة مهما بلغت من حجم ومهما أُعطيت من زمن فإنها تعجز عن إنشاء الحياة بالصدفة لأسباب علمية إحصائية بحتة، ويضيف: **إن هذه الحقائق الإحصائية كافية لأن تدفن دارون ونظريته.**

وللخروج من هذا المأزق، قام دوكنز بمحاولة لإعطاء قبلة الحياة لإله «الاحتمالية والصدفة»، فطرح ما أسماه بآلية «**الانتخاب الطبيعى التراكمى**»، وادعى أنه يزيد من الاحتمالية كما يلغى دور الصدفة فى التطور الداروينى، **ويجعل منه عملية ذكية لكنها غير واعية!!** فلننظر ماذا يقول دوكنز.

الانتخاب الطبيعى التراكمى

يشرح ريتشارد دوكنز الفرق بين الانتخاب التراكمى وبين الانتخاب بخطوة واحدة، فيقول: إذا مَرَّرت كمية من حبيبات الحصى مختلفة الأحجام من خلال غربال مرة واحدة فستحصل على كومتين من الحصى، إحداها حصياتها أكبر والأخرى أصغر من ثقوب الغربال.

(١) Thomas Huxley: (١٨٢٥ – ١٨٩٥م)، عالم البيولوجيا البريطانى المهتم بالتشريح المقارن، كان أشد المتحمسين لدارون حتى سُمى Darwin's Bulldog. ولا شك فى خطأ نسبة برهان القِرَدَة إلى هكسلى، فالشائع أنه قد استخدمه فى مناظرته الشهيرة فى أكسفورد عام ١٨٦٠م، بينما لم تُعرف الآلات الكاتبة إلا عام ١٨٧٤م.

(٢) Gian-Carlo Rota: (١٩٣٢ – ١٩٩٩م)، عالم الرياضيات والفيلسوف الإيطالى الأصل الأمريكى الجنسية.

(٣) Russell Grigg: ولد فى نيوزيلاندا عام ١٩٢٧، تخصص فى الكيمياء، من أنصار مفهوم الخلق الخاص.

(٤) Sir Fred Hoyle: (١٩١٥ – ٢٠٠١م)، عالم الفلك البريطانى الكبير، له مساهمة كبيرة فى تطوير نظرية الانفجار الكونى الأعظم.

أما إذا أخذت نواتج عملية الغربلة ومررتها مرات متتالية خلال غرابيل تضيق ثقوبها بشكل متدرج، فستفصل الأحجام المختلفة من الحصى بدقة كبيرة. إن ذلك يشبه عملية الانتخاب التراكمى التى يتم فيها الفرز عبر أجيال كثيرة متعاقبة، على أن يكون المنتَج النهائى لجيل الانتخاب الطبيعى الأول هو نقطة البداية للجيل التالى، وهكذا دواليك لأجيال كثيرة.

ويضرب دوكنز مثالًا بجزىء الهيموجلوبين ليؤكد محدودية قدرة «الانتخاب بخطوة واحدة» فيقول: «يتكون جزىء الهيموجلوبين من أربع سلاسل من الأحماض الأمينية مضفورة معًا. ولننظر إلى سلسلة واحدة فحسب من الأربع؛ إنها تتكون من ١٤٦ حمضًا أمينيًّا، وإذا كان هناك عشرون نوعًا مختلفًا من الأحماض الأمينية يشيع وجودها فى الكائنات الحية، فإن عدد الطرق الممكنة لترتيب ٢٠ نوعًا من شىء ما فى سلاسل يبلغ طولها ١٤٦ وحدة هو عدد هائل يمكن حسابه، ولكن يستحيل تصوره، يسميه البيولوجيون فى هذا المثال «عدد الهيموجلوبين»[١]. ويبلغ (على وجه التقريب) واحدًا يتبعه ١٩٠ صفرًا.

هذا هو الاحتمال إذا انتظرنا الحصول على إحدى سلاسل الهيموجلوبين الأربع فى خطوة واحدة بالصدفة، وجزىء الهيموجلوبين ليس إلا جزءًا صغيرًا جدًّا من تركيب الكائن الحى، لذلك من الواضح أن الانتخاب بخطوة واحدة لا يقترب أدنى اقتراب من توليد النظام الموجود فى كائن حى».

أما الانتخاب الطبيعى التراكمى فشىء آخر، ولشرح دوره يستخدم دوكنز مثال القرد الشهير ويقول: أشار توماس هكسلى إلى أن القرد لو أتيح له الزمن الكافى ليضرب عشوائيًّا على آلة كاتبة فإنه سيتمكن فى إحدى المرات من إنتاج كل أعمال شكسبير. ربما تستبعد احتمال حدوث ذلك عن طريق الانتخاب بخطوة واحدة، أما مع الانتخاب التراكمى فالأمر ممكن!.

ويسترسل دوكنز قائلًا: دعنا نحدد المهمة التى يواجهها قردنا هذا؛ لنفرض أن عليه، لا أن يُنتج أعمال شكسبير كلها، وإنما فقط جملة قصيرة: «أظنها تشبه ابن عُرس[٢] Me think it is like a weasel» وردت على لسان هاملت فى مسرحية عطيل، تراجيدية شكسبير الشهيرة.

---

(١) إن الحلقة الأولى من السلسلة قد تكون أى حمض من الأحماض الأمينية العشرين المحتملة، والحلقة الثانية قد تكون أيضًا أى حمض من العشرين، لذلك فإن العدد المُحتَمَل للسلاسل التى من وحدتين هو ٢٠×٢٠= ٤٠٠ والعدد المحتمل لسلاسل من ثلاث وحدات هو ٢٠×٢٠×٢٠ = ٨٠٠٠. والعدد المحتمل للسلاسل من ١٤٦ وحدة هو ٢٠ مضروبة فى ذاتها ١٤٦ مرة، والناتج عدد كبير لحد الإذهال.

(٢) ابن عُرس هو أحد الثدييات من آكلة اللحوم، ويُسمى فى مصر «عِرْسَة».

تتكون الجملة من ٢٨ حرفًا (شاملة المسافات). ولنفترض أن القرد سيقوم بسلسلة من «المحاولات» المنفصلة، كل محاولة عبارة عن ٢٨ دَقَّة على لوحة مفاتيح الكمبيوتر. إذا طبع القرد الفقرة الصحيحة تنتهى التجربة، وإذا لم يفعل، فإننا نسمح له بـ«محاولة» أخرى من ثمانٍ وعشرين دَقَّة، وهكذا.

ولما كنت لا أعرف أى قرد، فقد اضطررت أن «أُبرمج» الكمبيوتر ليقوم عشوائيًّا بالمهمة:

وباستخدام نفس أسلوب الحساب الذى قمنا به لعدد الهيموجلوبين، نجد أن فرصة القرد/ الكمبيوتر للوصول إلى العبارة الكاملة المكونة من ٢٨ حرفًا هى (١ / ٢٨) مضروبة فى نفسها ٢٨ مرة. وهذا احتمال ضئيل جدًّا، يقترب من ١×١٠^-٤٠. باختصار إن العبارة التى نطلبها لن تأتى إلا بعد زمن طويل جدًّا جدًّا، دع عنك الحديث عن مؤلفات شكسبير الكاملة.

هذا بالنسبة للانتخاب بخطوة واحدة، فماذا عن الانتخاب التراكمى؟ إنه أكثر فاعلية إلى حد أكبر كثيرًا جدًّا جدًّا مما تتصور. ولندرك الفرق، استخدمت مرة أخرى القرد/ الكمبيوتر لكتابة نفس الجملة، ولكنى «أعددت برنامجه» ليشبه ما قمنا به من غربلة الحصى خلال غرابيل متتابعة:

١ – بدأ الكمبيوتر بكتابة تتابع عشوائى من ٢٨ حرفًا ومسافة، فكتب:

WDLMNLT DTJBKWIRZREZLMQCO P

٢ – أعطيت الكمبيوتر الفرصة ليكرر هذا التتابع العشوائى عدة مرات، و«برمجته» ليُحدث بعضَ الأخطاء العشوائية فى النسخ = «طفرة».

٣ – فى كل مرة «يفحص» الكمبيوتر حروف التتابعات الطافرة الجديدة، و«يختار» إحداها على أن تشبه العبارة المطلوبة شبهًا أكبر!!!! ثم يقوم بكتابة تتابع آخر من ٢٨ حرفًا ومسافة مستخدمًا الحروف التى اختارها. وفى مَثَلِنا هذا كانت الحروف الناتجة فى «الجيل» التالى:

WDLMNLT DTJBKWIRZREZLMQCO P

٤ – لم يكن هذا بالتحسن الملحوظ ! على أن العملية تتكرر، ومرة أخرى تحدث طفرات فى ترتيب الحروف ويتم «اختيار»!!!! ترتيبًا جديدًا فائزًا، ويستمر هذا جيلًا بعد جيل.

٥ – وبعد عشرة أجيال (محاولات) كانت الحروف المُختارة هى:

WDLDMNLS ITJISWHRZREZ MECS P

٦ – وبعد عشرين جيلًا كانت الحروف هى:

MELDINLS IT ISWPRKE Z WECSEL

٧- وبعد ثلاثين جيلًا:

METHINGS IT IS WLIKE B WEÇSEL

٨- ويقترب بنا الجيل الأربعون من العبارة المطلوبة إلى حد بعيد:

METHINKE IT IS´LIKE I WEASEL

٩- وقد تم الوصول إلى الهدف النهائى فى الجيل الثالث والأربعين.

ثم كُرِرَت التجربة مرة أخرى فوصلنا إلى نفس العبارة المطلوبة فى الجيل الرابع والستين.

وفى محاولة ثالثة، وصلنا إلى نفس العبارة المطلوبة بعد ٤١ جيلا من الانتخاب التراكمى.

ويطرح دوكنز استنتاجاته من التجربة:

إذا تركنا الأمر للانتخاب بالخطوة الواحدة (كل محاولة تكون جديدة تمامًا) لكتابة هذه الجملة، فإن ذلك سيستغرق ما يقرب من ١×١٠ ^٣٠ سنة. وهذا أكثر مليون مليون مرة من عُمر الكون. فى حين أنه إذا تقيد الكمبيوتر «المبرمَج» بالانتخاب التراكمى (حيث يُستَخْدَم كل تحسين مهما كان صغيرًا، كأساس للبناء فى الخطوة التالية) فإنه يستغرق لأداء نفس المهمة من إحدى عشرة ثانية إلى الوقت الذى تستغرقه فى تناول وجبة الغذاء !!.

لذلك إذا كان ثَمة طريقة!!! يمكن بها للانتخاب التراكمى أن يَحدُث «بتوجيه» من قوى الطبيعة العمياء!!! فإن النتائج قد تصبح غريبة مدهشة! وواقع الأمر أن هذا هو ما حدث بالضبط فوق هذا الكوكب، ونحن أنفسنا نُعَد من أروع هذه النتائج إن لم نكن أغربها وأكثرها إدهاشًا.

ومن ثَمَّ، فإن الاعتقاد بأن التطور الداروينى «عشوائى» هو اعتقاد زائف تمامًا! فالحقيقة عكس ذلك!!. فالمصادفة عنصر ضئيل فى الوصفة الداروينية !! أما أهم عنصر فيها فهو الانتخاب التراكمى الذى هو فى جوهره «لا عشوائىْ» !!!!.

انتهى كلام ريتشارد دوكنز بنفس عباراته...

مغالطات جوهرية

قارئى الكريم، تعال نتأمل التجربة التى أجراها دوكنز على جهاز الكمبيوتر، وهى تجربة ساذجة تحوى «مغالطات جوهرية» تُذهِبُ كليةً بمفهوم «الانتخاب التراكمى» بل وتعصف بالثقة فى منهج دوكنز العلمى.

أولًا: اقرأ فى الخطوة (٣) نص عبارة دوكنز :

«فى كل مرة يفحص الكمبيوتر حروف التتابعات الطافرة الجديدة، ويختار إحداها على أن تشبه العبارة المطلوبة شبهًا أكبر !!».

يُقر دوكنز أنه قد «برمج» الكمبيوتر «ليفحص» التتابعات «ويختار» أكثرها شبهًا بالعبارة المطلوبة «التى تم تحديدها مسبقًا»! نقول: «هل هذا انتخاب طبيعى؟ أم تصميم واختيار ذكى للوصول إلى جملة تم تحديدها مسبقًا بتوجيه من برنامج الكمبيوتر، كيف يَدَّعى دوكنز بعد ذلك أن صانع ساعاته أعمى؟!

أليس هذا «تطورًا موجهًا إلى غاية محددة سلفًا» يهيمن عليه عقل ذكى.

ثانيًا: انظر إلى الخطوة (١) التى كتب فيها الكمبيوتر تتابعًا عشوائيًّا من ٢٨ حرفًا ومسافة ثم استولد منها فى الخطوة (٢) تتابعات أخرى. إن هذا جائز وممكن فى برامج الكمبيوتر، أما فى البيولوجيا فغير جائز. لماذا؟

فلنطبق ذلك على جزىء الهيموجلوبين كمثال. فى حالة التراص الأول العشوائى لـ ١٤٦ حمضًا أمينيًّا، هل سيكون الناتج جزيئًا قادرًا على العمل بكفاءة قليلة حتى يُسلمنا إلى الخطوة (٢) مع خطأ عشوائى بسيط، أم أن التراص الأول لن يكون إلا تتاليًا عشوائيًّا من الأحماض الأمينية لا عمل له ولن يُوَرَّث بفساده إلى الجيل التالى، ومن ثم لن يُسلمنا للخطوة (٢)، فى هذه الحالة فإن سلسلة التطور التى أنجزها الكمبيوتر فى ٤١ أو ٦٣ أو ٤٣ خطوة لن يُكتب لها أن تتجاوز الخطوة الأولى. أم تُرى أن هناك خالقًا جعل من التتابع العشوائى فى الخطوة الأولى مركبًا عضويًّا قادرًا على العمل وصالحًا للتوريث، لو أقر دوكنز بذلك فسيكون متفقًا مع ما يقول به الخلقويون وأنصار التطوير الإلهى.

ثالثًا: اقرأ نص عبارة دوكنز:

«لذلك إذا كان ثَمة طريقة يمكن بها للانتخاب التراكمى أن يحدث «بتوجيه» قوى الطبيعة العمياء، فإن النتائج قد تصبح غريبة مدهشة !».

لى سؤال: ما هى هذه الطريقة التى تُمِد قوى الطبيعة العمياء بالقدرة على الاختيار المُبَرمَج كما حدث فى الكمبيوتر ؟. لا بد أنها طريقة غاية فى الذكاء والقدرة.

رابعًا: انظر إلى قول دوكنز فى موضع آخر: «أما الطفرة العشوائية فدورها ثانوى فى التطور!! فهى مجرد بداية التغير البسيط الذى يظل يتراكم بالانتخاب الطبيعى اللاعشوائى».

يختلف معظم الداروينيين مع قول دوكنز هذا، إذ يرون أن الانتخاب الطبيعى يقوم بتأكيد أو نفى الطفرة العشوائية التى تحدث بالصدفة، وليس له أى دور إنشائى، فالانتخاب الطبيعى ينقل الطفرات العشوائية للأجيال التالية ويضيف بعضها إلى بعض، أما الأهم فهو التغير العشوائى نفسه[1].

هب أن أسطولًا من سيارات النقل (الانتخاب الطبيعى) يقوم بنقل وتجميع أصناف من البضائع من أماكن إنتاجها ليودعها فى مخزن. إذا أُعجبنا بالمحتوى النهائى للمخزن، هل ينسب أحد جودة المخزون إلى كفاءة أسطول النقل أم إلى جودة البضاعة وكفاءة صانعها ؟ كذلك إذا كانت مهارة صانع الساعات (الذى يجمع أجزاءها) مطلوبة، فإن جودة كل ترس وكل زمبرك وموافقته للمواصفات أكثر أهمية.

خامسًا: يدعى القائلون بالطفرات العشوائية بالصدفة أن الزمن قادر على إنجاز كل شىء، لذلك فعندما تحاصرهم المعضلات ـ وما أكثرها ـ يدافعون بأن التطور لم يحصل فى آلاف السنين بل فى مئات الملايين من السنين.

إن فى هذا الاحتجاج بالزمن جهلًا بمضمون القانون الثانى للديناميكا الحرارية، الذى يقول بأن أى نظام مغلق (نظام لا تأتيه طاقة أو تنظيم من الخارج) يسير نحو زيادة «الإنتروبيا entropy[2]» أى إلى تزايد العجز عن الاستفادة من الطاقة، فيسير نحو التعادل الحرارى، أى إلى الموت البطىء .

معنى ذلك أن الزمن - وحده - عامل هدم وليس عامل بناء، أى أنك إن تركت نظامًا عشوائيًّا لحالِه فإنه يتحلل ويتهدم ولا يتحسن وضعه، ولكى تحافظ عليه وتدفعه للبناء فعليك توجيهه عن طريق اتخاذ تدابير خاصة.

سادسًا: دوكنز ونظرية الاحتمالات وقانون الصدفة

يضرب الرياضيون مثالًا يشرحون من خلاله نظرية الاحتمالات:

هب أنك وضعت فى جيبك خمس كرات صغيرة إحداها حمراء، وقمت بوضع يدك فى جيبك عدة مرات لتُخرِج فى كل مرة إحدى الكرات، راغبًا فى أن تُخرج الكرة الحمراء.

إذا كنت بعد كل محاولة تعيد الكرة (إذا كانت غير حمراء) إلى جيبك قبل أن تعاود المحاولة مرة أخرى، فستظل فرصة خروج الكرة الحمراء فى كل مرة ١: ٥ حتى ولو كررت المحاولة آلاف المرات.

---

(١) ناقشنا هذا المفهوم فى الفصل السادس بالتفصيل.

(٢) تعكس الإنتروبيا مقدار عدم الانتظام فى منظومة ما.

ويصف الرياضيون هذا النوع من العلاقة بين المحاولات المتكررة بأنها «وقائع مستقلة Independent events» أى محاولات لا يؤثر بعضها فى بعض.

أما إذا كنت بعد أن تُخرج الكرة غير الحمراء تقوم بالتخلص منها قبل معاودة المحاولة، فإن الفرصة لخروج الكرة الحمراء فى أول محاولة تكون ١ : ٥، وفى المحاولة الثانية (بعد التخلص من أول الكرات) تكون ١ : ٤ ثم ١ : ٣ وهكذا، ويصف الرياضيون هذا النوع من المحاولات بأنها «وقائع متنافية Mutually Exclusive» أى محاولات ذات تأثير متبادَل فيما بينها.

فى ضوء هذا الفهم، نعود إلى محاولات القرد/ كمبيوتر دوكنز أن يكتب جملة «أظنها تشبه ابن عُرس ME Think it is like a weasel»:

يخبرنا دوكنز أن فرصة القرد لكتابة هذه الجملة بالصدفة تُقَدَّر بما يقرب من واحد إلى عشرة آلاف مليون مليون مليون مليون مليون أى (١٠^٤٠). ولكنه يضيف: ولو استطعنا حشد ١٠^٤٠ قرد لكل واحد منهم آلته الكاتبة فإن أحدهم «ولا شك» سيكتب الجملة المطلوبة!!.

لقد فات دوكنز أن محاولات القِـرَدة تخضـع للنوع الأول من الاحتمالات «الوقائع المستقلة Independent events». ولكن دوكنز يعتبرهـا من النــوع الثانــى «وقائـع متنافيـة Mutually exclusive» إذ يؤكد أن أحد هذه القرود سيكتب «ولا شك» هذه الجملة !، وهذا لا يحدث إلّا إذا استطاع دوكنز إلزام كل قرد بألا يكرر ما كتبته القرود الأخرى، واستطاع كذلك إلزام كل قرد ألا يكرر ما كتبه فى مرة سابقة (ولا أظنه يستطيع)، لذلك فستظل فرصة كل قرد فى كل محاولة واحد إلى ١٠^٤٠ ولو زاد عدد القرود ببلايين المرات.

ومما يؤكد عدم فهم دوكنز لنظرية الاحتمالات قوله: إنك لو عبرت الطريق يوميًّا لمدة نصف مليون سنة «فمما لا شك فيه» أن سيارة ستُدهسك فى إحدى هذه المرات. إن هذه الحتمية «لا شك» مغرقة فى الخطأ. إن فرصة أن تُدهَس ستظل هى هى فى كل مرة ولو عبرت الطريق عشرات الملايين من السنين. فالوقائع هنا ـ كما فى مثال القرود ـ مستقلة وليست متنافية.

من تحليلنا للمغالطات الجوهرية فى تجربة القرد/ الكمبيوتر التى أجراها دوكنز، نجد أن التجربة تخالف أساسيات التطور الداروينى، ففيها ثلاث خطوات تحتاج لعقل ذكى، وهى:

١ - وجود هدف محدد (الجملة الهدف) من البداية يسعى الكمبيوتر للوصول إليه.

٢ - فى كل خطوة يقوم الكمبيوتر بمقارنة البدائل بالجملة الهدف.

٣ - يقوم الكمبيوتر بالاحتفاظ بأقرب النتائج للهدف واستبعاد النتائج الأخرى.

ألا يجعل ذلك من التطور «تطورًا موجهًا»؟

إن هذه العوائق تجعل من مثال دوكنز دليلًا فاسدًا تمامًا، يتم فيه (فبركة!) الآليات للحصول على ما نريد إثباته، وهو ما يُعرف بالبرهان الدائرى Circular proof.

ويؤكد ديفيد بيرلنسكى هذا المعنى قائلًا: «إن المعلومات الموجودة فى مخرجات آلية الانتخاب الطبيعى التراكمى (كما طرحها دوكنز) كانت موجودة فى المدخلات، وهى جملة هدف تم تحديدها مسبقًا من بين حروف الأبجدية، وقامت الآليات الموجهة الذكية باكتشافها من بين الحروف والمحافظة عليها ومراكمتها. إن ذلك يثبت أن ليس هناك انتخاب تراكمى دون آلية ذكية.

ولتخفيف وطأة ما فى المثال السابق من تحايل صارخ، يعترف دوكنز أن مثاله غير دقيق، للأسباب الثلاثة التى ذكرناها، ويدعى أنه يمكن تعديل المثال لتفادى هذه النقاط (لو كان ذلك ممكنًا لأجرى التعديل قبل نشر الكتاب). إن دوكنز باعترافه هذا يثبت أهمية وحتمية وجود الذكاء فى المنظومة، وهو ما سعى دوكنز لنفيه بمثاله هذا.

الانتخاب التراكمى والتعقيد غير القابل للاختزال

لا يكتفى دوكنز بما مارس فى المثال السابق من تلفيق، بل يدعى أن آلية الانتخاب الطبيعى التراكمى قادرة على دحض مفهوم التعقيد غير القابل للاختزال[1] الذى طرحه مايكل بيهى، والذى يُعد ضربة قاصمة للتطور الداروينى.

للرد على بيهى، يفكك دوكنز بأسلوبه المخادع القضية إلى خطوات قد تخِيل على البعض:

١) اعتبر أن عدد الخطوات المطلوبة لتحويل كائن لا عين له إلى كائن ذى عين مبصرة هو (س).

٢) اعتبر أن عدد الخطوات المطلوبة لهذا التحويل كبيرًا جدًّا، وأن كل خطوة تختلف عن سابقتها بقدر ضئيل جدًّا، بحيث يمكن أن تقع كل خطوة بالصدفة.

٣) أليس من الممكن أن تحقق كل خطوة إبصارًا أفضل من سابقتها يعين على تكاثر وبقاء الكائن، مما يسمح للخطوة التالية بالحدوث؟

يتخيل دوكنز أن أسلوبه هذا قادر على اختزال أى تعقيد إلى خطوات يمكن أن تحدث بالتطور الداروينى. فى هذا المثال وقع دوكنز فى خطأ مُخجل، فعندما أعترض على تصوره

(١) عرضناه بالتفصيل فى الفصل السابع.

السابق بأن فى المرحلة التى يوجد فيها ٥٪ من عين فإن هذا التكوين لن يبصر على الإطلاق، ومن ثم لن يعين على التكاثر بأى قدر يسمح بتوارثه واقترابه من العين المبصرة، عندها أجاب دوكنز أن عينًا نشأت بنسبة ٥٪ يمكن أن تقدم للحيوان إبصارًا قدره ٥٪، مما يعينه على التكاثر ومن ثم التطور! لقد فات دوكنز أن لا ٥٪ ولا ٥٠٪ ولا ٨٠٪ من العين يمكن أن تبصر بتاتًا.

ونختم وقفتنا مع مفهوم الانتخاب الطبيعى التراكمى بمثال شاع استخدامه ولم يفقد دلالته ونَضْرَته، يقول البروفيسور «إيدوين كونكلين[(١)]»: «إن القول بأن الحياة وُجدت نتيجة حادث تلقائى، شبيه فى مغزاه بأن نتوقع إعداد مُعجم ضخم من الحروف التى تناثرت نتيجة انفجار يقع بالصدفة فى مطبعة».

عالم دوكنز الأخلاقى

يتبنى المنظور الإسلامى (والدينى بصفة عامة) أن منظومة الإنسان الأخلاقية منظومة فطرية، يقوم الدين بتعميق وتفصيل ما فيها من مفاهيم الصواب والخطأ، وإخبار الإنسان بما ينبنى عليها من ثواب وعقاب[(٢)]. وأرى أن اتباع بعض الملاحدة لمكارم الأخلاق يرجع جزئيًا إلى فطرية هذه المفاهيم، وأيضًا إلى ما ترسخ فى نفوس البشر من أخلاق صارت بمثابة العُرف، بعد أن أَصَّلَتها الديانات عبر الأزمان السابقة.

الداروينية وراء أخلاق الإله وأنبيائه!!

فى كتاب وهم الإله، يتصدى ريتشارد دوكنز فى الفصلين الخامس والسادس لإثبات مفهوم النشأة التطورية للديانات، ويجتهد فى قطع علاقة الأخلاق بالدين والفطرة، ويروج للقول بأنها مكتسبة، قام الانتخاب الطبيعى بدعمها فى النفس البشرية.

ويصف دوكنز الإله كما يعرضه العهد القديم بأسوأ الصفات؛ فهو «تافه حقير petty، ظالم Unjust، غير متسامح، متنمر حقود، مُهلك محب للدماء والإبادة الجماعية، يكره البشر ويكره النساء، قاتل للأطفال، تحكمه الشهوات، عنصرى يمارس التصفيات العرقية، يحكمه جنون

(١) Edwin Conklin: (١٨٦٣ – ١٩٥٢م)، عمل أستاذًا للبيولوجيا وعلم الحيوان بجامعات أوهايو وبنسلفانيا. وكان رئيسًا للاتحاد الأمريكى لتقدم العلوم، ورئيسًا للجمعية الأمريكية للعلوم الطبيعية.

(٢) لتأكيد أن الدين يتمم منظومة الأخلاق الفطرية، يقول الرسول ﷺ: «إنما بُعثت «لأُتمم» مكارم الأخلاق».

العظمة، سادى ماسوشيستى، غيور، وفى نفس الوقت يباهى بذلك كله. لذلك لم يكن غريبًا أن يختار أنبياءه على تلك الصفات السيئة الدنية»[١].

ويعتبر دوكنز أن تلك الصفات المنحطة للإله وأنبيائه (كما جاءت فى العهد القديم) تتطابق تمامًا مع الأخلاق التى يفرزها التطور، وتنسجم مع الصراع من أجل البقاء والمحافظة على الجينات (الجين الأنانى)، ومن ثم لا ينبغى العتب على بنى إسرائيل وأنبيائهم لأنهم تصرفوا كآلات جينية تسعى لمصلحتها تبعًا للحتمية الجينية.

من أين ينبغى أن نستمد أخلاقنا؟

بالرغم من أن دوكنز يُرجع نشأة القيم الأخلاقية إلى التطور، فإنه يرفض أن تكون أخلاق التطور هى مرجعيتنا، ويكرر هذا المعنى فى كتاباته كثيرًا. انظر إلى قوله: إن التطور الداروينى لا يُنتج إلا أمثال هتلر، والمجتمع الداروينى لا يكون إلا مجتمعًا فاشستى ينتشر فيه التعصب العنصرى والتصفية العرقية. لذلك يضيف (فى كتاب الجين الأنانى)[٢]: لا أتحمس للأخلاق التى أنشأها التطور، فإذا كنا قد ولدنا أنانيين، فعلينا إذا أردنا أن نحيا فى مجتمع يتعاون أفراده لتحقيق أهدافٍ سامية ألا نتوقع مساعدة من طبيعتنا البيولوجية، ومن ثم علينا أن نُعَلِّم أبناءنا الكرم والإيثار.

وفى نفس الوقت يرفض دوكنز أن نربى أبناءنا تربية دينية، ويعتبرها نوعًا من سوء استعمال الأطفال Child abuse، إذ تزرع فى عقولهم مفاهيم خاطئة دون أن يكون لهم القدرة

(١) عن كتاب The God Delusion, P.31. وللاستدلال على اتصاف الإله بتلك الأخلاق ينتقى دوكنز من العهد القديم بعض المشاهد التى تشينه وتشين أنبياءه:

- لوط يعرض بنتيه على رجال سادوم الذين أرادوا اغتصاب ضيوفه. سفر التكوين ١٩: ٤-١١
- لوط يغشى بناته فيحملن منه. سفر التكوين ١٩: ٣٠-٣٨
- أوشك إبراهيم أن يذبح ابنه إسحق. سفر التكوين ٢٢: ١-١٩
- ذبح موسى ٣٠٠٠ إسرائيلى بعد أن صنعوا العجل الذهبى عندما كان منشغلًا باستلام الوصايا العشر من الإله فوق جبل سيناء. سفر الخروج ٣٢: ٢٥ - ٢٩
- النبى يشوع يقتل كل سكان أريحا. سفر يشوع ٦: ٢١
- الإله يشعل الحرب المقدسة فى كنعان سفر التثنية ٢٠: ١٠ - ١٨

فى المثلين الأخيرين يُشَبه دوكنز الإله بهتلر فى غزوة لبولندا، وبصدام حسين وإبادته للأكراد، ويبرر بذلك إبادة اليهود للفلسطينيين لاسترداد الأرض الموعودة.

(٢) The Selfish Gene, P. 2,3

على مناقشتها والاعتراض عليها، مما يقضي على حرية اختيارهم عندما يكبرون. ويتمادى دوكنز فى ذلك ويقول: «إذا كان اغتصاب رجال الكهنوت للأطفال أمرًا مستهجنًا، فإن الأسوأ منه تحطيمهم نفسيًّا بجعلهم يحيون حياتهم كلها فى خوف ورعب من النار». ونحن قد نوافق دوكنز على ما يقول بدعوى أن نترك لأبنائنا حرية الاختيار عندما يكبرون! بشرط أن يكف المجتمع عن بث مفاهيم الإلحاد فيهم حتى ينشئوا متوازنين. أليس كذلك يا دوكنز؟!

يوقع هذا الطرح دوكنز فى موقف متضارب شديد الغرابة. فهو يرى أن القيم الأخلاقية ليس لها مصدر سماوى سواء من الفطرة أو من الدين، وفى نفس الوقت يرى أنه لا ينبغى أن نستمد قيمنا من الطبيعة، فهى لا تقدم إلا الصراع! فمن أين إذًا نستوحى القيم التى ينصحنا باتباعها؟ يقدم دوكنز طرحًا غريبًا للخروج من هذا المأذق:

فى صحوة أخلاقية، يؤكد دوكنز أننا لا ينبغى أن نستمد أخلاقنا من مفاهيم الصراع الداروينى كما وردت فى كتب أصل الأنواع وأصل الإنسان والجين الأنانى والعهد القديم! بل علينا أن نتأمل هذه الكتب لنختار منها المفاهيم الحسنة Nice لنتخلق بها وندع الباقى. السؤال هنا: ما هو مقياسنا للمفهوم الحسن؟

ليحدد مقاييس هذا الحُسن ينتقل بنا دوكنز إلى «العهد الجديد»، ويقول: «لقد كان المسيح من أعظم مصلحى التاريخ، وقد كان متدينًا[1]. لقد رفض إله اليهود (يهودا) القاسى المخادع، وطرح بدلًا منه إلهًا حسنًا ظريفًا لطيفًا، فلم يكن غريبًا أنهم صلبوه»[2]. وفى موقع آخر يقول دوكنز: «لقد رفض المسيح أن يستمد قيمه من البيئة اليهودية التى نشأ فيها (بيئة العهد القديم)، بل ونهى عن ذلك، وبذلك أصبح مثالًا للتدين الحق»[3].

ونحن نسأل دوكنز: من أين استمد المسيح قيمه ومرجعيته وأخلاقه؟ لا شك أن مصدرها لم يكن الانتخاب الطبيعى، تلك العملية البذيئة الرديئة المؤذية Deeply nasty (هكذا يصفها دوكنز)، والتى وصفها دارون بأنها عمل شيطانى تقوم به الطبيعة القاسية عديمة الرحمة، التى لا تراعى إلا الأقوياء والشرسين.

تمسكًا بالداروينية، وتهربًا من الإقرار بأن أخلاق اللطف والظرف والحُسن ـ التى يدعو إليها المسيح ـ سماوية المصدر، يخبرنا دوكنز أن الانتخاب الطبيعى أفرز (كيف؟ لا ندرى) عددًا

---

(١) يقول دوكنز: فى الحقيقة لم يكن المسيح يملك إلا أن يكون متدينًا، فلم يكن أحد فى زمانه يملك حرية أن يكون ملحدًا، خشية بطش اليهودا

(٢) من مقال بعنوان Atheists for Jesus

(٣) The God Delusion, P. 250

من القيم بالغة اللطف Supernice (كالإيثار والكرم والتعاطف والشفقة والحنو) ليتعامل بها أفراد المجموعة الواحدة لتعينهم على البقاء، مع عدم التخلى عن قيم الصراع فى التعامل مع الآخرين. وبالرغم من أن الطبيعة تعتبر الأخلاق بالغة اللطف سفه وسخف، فإن علينا أن نتحراها ونقطفها Picks and chooses وأن ندع الأخلاق الدنية البذيئة.

وإذا أردنا أن نكون واسعى الصدر مع دوكنز إلى أقصى حد، وقَبِلْنا تمييزه للأخلاق إلى نوعين، أخلاق لطيفة للتعامل مع المقربين وعداء نتعامل به مع المنافسين، فكيف نفسر وجود مفاهيم أخلاقية حسنة تمارسها الكائنات تجاه كائنات من أنواع أخرى (كحنو الإنسان على الحيوان)، وهو ما يُعرف بـ«عالمية الأخلاق Universal»، مما يتعارض مع التطور؟ لم يكن السؤال مباغتًا لدوكنز، فقد أجاب من فوره بأن عالمية الأخلاق «خطأ تطورى Evolutionary Misfiring» أى نيران صديقة، بلغة العصر!

الإناء ينضح بما فيه

ذكرنا منذ قليل أن بعض الملاحدة يتمسكون بالقيم الفاضلة التى يتمسك بها المتدينون، وفسرنا ذلك التشابه بالفطرة وبالعرف المستمد من الدين. أما دوكنز فيُرجع هذا التشابه إلى أن الإنسان جنس واحد يخضع لنفس الظروف التطورية[1]، وهذا خطأ علمى كبير، فظروف الإنسان التطورية متباينة أشد التباين.

وبالرغم من بعض «التشابه الأخلاقى الظاهرى» بين الملاحدة والمتدينين، فإن هناك «تباينًا عميقًا» فى المنظومة الأخلاقية لكل منهما، حتى إن دوكنز نفسه يقر بأن كونًا يتربع على عرشه إله يختلف تمامًا عن كون ليس به إله!. ويقف وراء هذا التباين الأخلاقى العميق نظرة كل منهما للذات الإنسانية، فلا شك أن التوابع الأخلاقية لمنظومة تعتبر الإنسان حيوانًا ليس إلا، تختلف جذريًّا عن منظومة تعتبره خليفة من الله ﷻ فى الأرض وأنه خُلق على صورة الإله. فلنتأمل بعض الانعكاسات الأخلاقية لهذا التباين:

الإجهاض

ترفض الديانات السماوية الإجهاض باعتباره قتلًا للنفس التى حرم الله قتلها[2]، وإذا كان دوكنز يتفق مع الديانات فى تحريم القتل، فإنه يمزق هذه القاعدة بسهولة إذا جاء إلى الإجهاض.

(١) The God Delusion, P. 271

(٢) وضع الإسلام ضوابط للإجهاض، وحرمته المسيحية تمامًا باعتبار أن الله قد خلق الإنسان على صورته.

فدوكنز يتبنى أنه لا ينبغى أن ننظر إلى الجنين البشرى كإنسان! بل كتجمع من الخلايا، المهم أن نعرف فى أى مرحلة يبدأ الجنين فى الإحساس والمعاناة، حتى نعرف ما يعانيه إذا تم إجهاضه[1]. ويعقد دوكنز مقارنة توضح موقفه فيقول: «إن حيوانًا بالغًا يعانى من الألم أكثر مما يعانيه جنين إنسان داخل الرحم أو طفل مولود حديثًا، كذلك ليس هناك سبب أخلاقى للحرص على الإنسان بشكل خاص، فمن يعانى أكثر هو الأهم». أى أن الإنسان ينبغى ألا يُفَضَّل على الحيوان البالغ.

ويثنى دوكنز[2] على آراء الفيلسوف التطورى الملحد بيتر سنجر Peter Singer[3]، الذى يتبنى أن المنظور الأخلاقى يحتم المعاملة المتماثلة لجميع الأجناس ذات القدرات المخية المتطورة، أى أن الإنسان ينبغى معاملته مثل باقى الحيوانات[4].

من ذلك نرى أن المنطلقات الفكرية الأخلاقية لدوكنز لا تقف عند تطورية دارون، بل تشمل مذهب المنفعة لجون ستيوارت مل[5]، الذى يؤكد أن مذهبه تجديد للمدرسة الأبيقورية[6] القديمة التى ترى أن الأخلاق لا تنطلق من مفاهيم إنسانية مشتركة، لكن من قدرتها على زيادة المتعة واللذة وتقليل الألم.

قتل الرحمة

من نفس منطلقات إباحة الإجهاض، يتحمس دوكنز لما يُعرف بـ«قتل الرحمة Euthanasia» الذى ترفضه الديانات السماوية. فيرى أنه من المقبول أخلاقيًا أن يتخذ الإنسان قرارًا بإنهاء حياته للتخلص من المعاناة. والمشكلة الأكبر أن ذلك يؤدى إلى الموافقة على اتخاذ الأقارب قرارات بإنهاء حياة الآخرين من المسنين والمرضى والأطفال المعاقين، وهذا ما حدث بالفعل فى قانون صدر فى نيوزيلاندا Netherland.

(١) The God Delusion, P. 297 - 298

(٢) The God Delusion, P. 271

(٣) Practical Ethics, Cambridge University Press 1979, P 261 - 373

(٤) لذلك يُجَوِّز سنجر قتل الأطفال المولودين حديثًا إذا لم يرغب والداهم فى الاحتفاظ بهم، ولذلك أيضًا يوافق على قتل النازيين للضعفاء والعاجزين، فكهذا نُعامل الحيوانات التى تعانى من نفس المشاكل. ومن المفارقة أن ينشر سنجر دراسة يؤكد فيها أن المتدينين والملاحدة يتمسكون بنفس المفاهيم الأخلاقية!!

(٥) John Stuart Mill: (١٨٠٦ - ١٨٧٣م)، فيلسوف واقتصادى بريطانى كبير. أحد كبار الفلسفة النفعية.

(٦) مذهب يُنسب إلى أبيقور (٣٤٠ - ٢٧٠ ق.م)، يقوم على أن اللذة هى هدف الإنسان فى حياته، تبدأ باللذة الجنسية وتصل إلى اللذة العقلية.

من وجهة النظر التطورية، لا يوجد مبرر يمنع أكل لحوم البشر Cannibalism! فالتطور لا يعرف الصواب والخطأ فى المفاهيم الأخلاقية، لكنه قد يفسر نشأتها. كذلك فإن قيم الحرية واللطف لا تمنع الاستفادة من لحم الإنسان فى جميع الأغراض، خاصة أن أكل لحوم البشر يحل الكثير من مشكلات نقص الغذاء فى المجتمعات الفقيرة، ويحل كذلك مشكلات التخلص من الجثامين!. ويُرجع دوكنز عزوف الأسود عن أن تأكل بعضها بعضًا إلى أن ذلك لن يكون مفيدًا تطوريًّا، بل يمكن أن يهدد بقاء الجنس إذا تبنت كل الأسود نفس السلوك(١). ونحن ندفع هذا المنطق بأن هناك فائدة محققة إذا أكلت الأسود جثث بنى جنسها، وليس أقرانها الأحياء لكن ذلك لا يحدث! كذلك إذا كان أكل لحوم البشر من نفس المجموعة البشرية ضار تطوريًّا فإنه بلا شك مفيد بالنسبة للحوم الأعداء!

تشابهت الأسماء واختلفت المسميات

يتضح مما سبق أن هناك تباينًا عميقًا فى المفاهيم الأخلاقية للملاحدة والمتدينين، وإن اتفقت فى الأسماء. فخُلق كـ«الرحمة Kindness» الذى يعنى عند المتدينين الرعاية الكاملة للضعفاء والمرضى والمحتضرين، يعنى عند دوكنز معاملة الإنسان كالحيوان تمامًا! إذ يوافق على الإجهاض دون ضوابط كما يوافق على قتل الرحمة.

وإذا جئنا إلى خُلق «الكرم Generosity» وعلاقته بالحمل غير المرغوب فيه، وجدنا المتدينين يهتمون برعاية الأمهات الحوامل والأطفال غير المرغوب فيهم، أما دوكنز وأمثاله فيهتمون بتوفير الإجهاض كخدمة مجانية.

من هذين المثلين، يتضح أن التشابه الخُلُقى بين المتدينين والملاحدة هو تشابه لفظى فى المقام الأول، أما من الناحية الفعلية فهما مختلفان تمامًا وربما متضادان، ولا شك أن ذلك أمر طبيعى يرجع إلى الاختلاف فى النظرة لطبيعة الإنسان.

أخيرًا نسأل؛ هل كان دوكنز محقًا حين قال: على المتدينين ألا يخشوا من المخرجات الأخلاقية للتطور؟

---

(١) The Selfish gene, P. 83

القارئ الكريم

يقوم مذهب دوكنز الفلسفي على ثلاث دعائم؛ «التعارض» بين الإله وبين قوانين الطبيعة، ومن ثم ينبغي أن نختار أحدهما كمنشيء للكون والكائنات. والدعامة الثانية «المماثلة»؛ فدوكنز ينظر إلى الإله باعتباره سوبرمان عليه أن يسلك مثل البشر، لذلك يحاسبه دوكنز حسابًا عسيرًا إذا سلك على غير ما يتوقع! وأخيرًا «الاحتمالية»، واعتمادًا عليها يبنى دوكنز الكون والحياة بالعشوائية والصدفة، وبنفس الدعامة ـ الاحتمالية ـ يستبعد دوكنز أن يكون الإله قد قام بعملية الخلق!

إن دوكنز بهذا المنهج الفلسفي يضع ما يشاء من نتائج كمقدمات ينطلق منها، وهو منهج سفسطائي شيطاني يمثل سياجًا حديديًّا يحمي العقيدة الإلحادية، وقد كان دوكنز أول ضحايا هذا المنهج.

وينطلق دوكنز في رفضه للإله الحق من البحث الصبياني عن سبب السبب الأول الذي أوجد كل شيء. وفي نفس الوقت يتبنى دوكنز «الاحتمالية والصدفة» كإله بديل يفسر به كل شيء. ويغيب عن دوكنز أن الاحتمالية الرياضية لا تعني الإمكانية الفعلية، كما يغيب عنه أن الصدفة ليست سببًا أوليًّا بل هي تعبير عن العلاقات بين الأسباب الحقيقية، ومن ثم فالصدفة «لاشيء» كما قال أرسطو.

وللخروج من مأزق الاستحالة الفعلية لأن يكون الانتخاب الطبيعي قد قام بعملية التطور البيولوجي، طرح دوكنز فرضية أسماها الانتخاب الطبيعي التراكمي، واستشهد عليها بأمثلة تفضح جهله بالمنطق والرياضيات بل وبالمنهج العلمي، ولا نريد أن نزيد ونقول إنها تفضح سوء نيته.

وعند معالجته لنشأة المنظومة الأخلاقية للإنسان يقع دوكنز في تعارض مخجل، فهو يؤكد أن هذه المنظومة قد نشأت بالتطور الدارويني الذي لا يفرز إلا الوحشية والدناءة، وفي نفس الوقت يرى أن جوهرها مجموعة من الأخلاق الحسنة التي نشأت نتيجة لأخطاء تطورية! وأن علينا أن نُنَشِّيء أبناءنا على هذه الأخطاء الحسنة، ونحن نسأله؛ ألا يؤدي معاندة قوانين الطبيعة إلى فناء الجنس البشري؟!

ولم تقف سوءات دوكنز عند عجزه الفلسفي وضعف استدلالاته العلمية، بل إنه يستخدم أسلوبًا وقحًا متدنيًا جعل أقرانه من الملاحدة يَنْفَضُّون من حوله ويصفونه بأنه مجرد ملحد هاوٍ سفسطائي مبتدء، مزيف للحقائق، يبدو كشخص ملأه الغرور والزهو بعد أن أفرط في شرب الخمر، فأخذ يبعثر سبابه الحاقد على من لا يشاركونه الرأي.

* * *

الفصل الحادى عشر

شراذم الإلحاد الجديد

- ستيفن هوكنج
  - التصميم العظيم
- دانيل دينيت
  - فكرة دارون الخطيرة
  - إبطال السحر
  - حجة دينيت
- سام هاريس
  - نهاية الإيمان
  - خطاب إلى أمة مسيحية
- كريستوفر هتشنز
  - الإله ليس عظيمًا
- القارئ الكريم: وشهد شاهد من أهلها
  - الإلحاد المنطقى

«ليس الجديد فى الإلحاد الجديد عدوانيته ووقاحته فقط،
أو الترويج له إعلاميًّا، أو التناول العلمى للدين،
ولكن أشد الجديد ظهورًا هو مهاجمة
الممارسات الإسلامية بل والإسلام ذاته»
وليام إيمرسون (١)

يُطلَق اصطلاح «الإلحاد الجديد New Atheism» فى الغرب على الأفكار التى طرحها مجموعة من الكُتاب الملاحدة، والتى تتبنى أنه لا يكفى التعايش بين الإلحاد والدين، بل ينبغى مهاجمة الألوهية والمفاهيم الدينية ونقدها وطرحها للتحليل العلمى والموضوعى. وفى سبيل ذلك، تبنت هذه الموجة التفسير المادى/ الطبيعى لكل الظواهر ابتداء من نشأة الكون حتى المشاعر الروحية للإنسان.

وقد شهدت الفترة بين عامى ٢٠٠٤ - ٢٠٠٧م تكثيفًا للكتابة والتأليف فى هذا المجال. وأشهر هؤلاء الكُتاب تلك المجموعة التى أُطلق عليها عام ٢٠٠٧ اسم الفرسان الأربعة، وتشمل البيولوجى ريتشارد دوكنز، والفيلسوف دانيل دينيت، وطبيب الأعصاب سام هاريس، والإعلامى كريستوفر هتشنز. وقد أُلحق بهؤلاء مجموعة أخرى(٢) أهمهم عالم الفيزياء الرياضية ستيفن هوكنج الذى أنكر الألوهية مؤخرًا.

(١) William Emirson: (١٩٢٣ - ٢٠٠٩م)، الإعلامى الأمريكى الشهير المهتم بحقوق الإنسان.

(٢) يُلحِق الإعلام الغربى بالإلحاد الجديد ثلاثة أشخاص آخرين جاء ذكرهم وبعض آرائهم خلال فصول الكتاب، وهم:

١- فيكتور ستنجر Victor Stenger: عالم فيزياء الجسيمات الدقيقة الأمريكى، ومؤلف مهتم بتبسيط العلوم، وهو يُصنف كشكاك. ولد عام ١٩٣٥.

٢- لورانس كراوس Lawrence Krauss: ولد بالولايات المتحدة عام ١٩٥٤، وهو أستاذ فى الفيزياء الرياضية، ويستعين دوكنز به كثيرًا فى براجه الإعلامية.

٣- أ.ك. جرايلنج A.C. Grayling: فيلسوف بريطانى مهتم بالإنسانيات، ولد عام ١٩٤٩.

وفى عام ٢٠١٠ كتب الإعلامى الكبير توم فلين[١] مقالًا وضع الإلحاد الجديد فى حجمه الحقيقى، جاء فيه: ينبغى أن ندرك خطأ ما يثار حول حركة الإلحاد الجديد، فهى ليست جديدة، ولا هى حركة! الجديد هو إثارة عاصفة عن طريق تركيز ناشرين كبار على طباعة وتسويق عدد كبير من الكتب، حتى قرأها الملايين واحتلت قوائم أعلى المبيعات.

ولا شك أن الإلحاد الجديد له أبعاد سياسية، من أهمها الترويج للخوف من الإسلام واضطهاده (الإسلاموفوبيا Islamophobia). فكتابات مجموعة الأربعة تنضح بكراهية شديدة للإسلام، كما تستخدم مفاهيم صامويل هنتنجتون فى كتابه صراع الحضارات[٢] The Clash of Civilisations لتأصيل العداء للإسلام فى نفوس الشعوب. ويقول ويليام إيمرسون مشيرًا لهذا المعنى؛ ليس الجديد فى الإلحاد الجديد عدوانيته ووقاحته فقط، أو الترويج له إعلاميًا، أو التناول العلمى للدين، ولكن أشد الجديد ظهورًا هو مهاجمة الممارسات الإسلامية بل والإسلام ذاته.

إننى أرفض بشدة وصف الإلحاد الجديد بالإلحاد العلمى، فهو وصف لا يستحقه. فهؤلاء الكُتَّاب وإن كانوا يتناولون القضايا العلمية فتناولهم أبعد ما يكون عن المنهج العلمى المنزه عن الغرض. كذلك فإننى أرفض وصف أوقح أربعة من شراذم هذا الاتجاه بأنهم الفرسان الأربعة The Four Horsemen، فاصطلاح الفارس يُستخدم فى جميع اللغات للإشارة إلى الرجل الشهم الذى يهب حياته للدفاع عن الحق والوقوف فى وجه الباطل. من ثم فإن وصف هؤلاء الملاحدة بالفرسان أسلوب إعلامى للانتقاص من الديانات وإظهار أنها فى جانب الباطل، بحيث يخسر الدين معركته مع الإلحاد من قبل أن تبدأ.

ولما كانت هذه الشخصيات الإلحادية تتبنى ما طرحنا من أفكار فى البابين الأولين، كما تتفق مع ريتشارد دوكنز فى أفكاره التى طرحناها فى الفصل السابق، فسنكتفى فى هذا الفصل بالحديث بإيجاز عن أشهر كتبهم التى حرص الإعلام الغربى على الإشادة بها، حتى نضع أيدينا على منهج كل منهم وعلى الفوارق الضئيلة بينهم.

(١) Tom Flynn: الكاتب والإعلامى الأمريكى، رئيس مجلس حقوق الإنسان بالولايات المتحدة. ولد عام ١٩٥٥.

(٢) أخذت نظرية صراع (صدام) الحضارات شهرتها بعد انهيار الاتحاد السوفيتى عام ١٩٩٠ وبروز الولايات المتحدة كقوة عظمى وحيدة فى العالم. وتركز النظرية على أن ما يحكم العلاقة بين حضارات العالم المختلفة (الصينية - اليابانية - الهندية - الإسلامية - الغربية - الأرثوذكسية) فى مرحلة ما بعد الحرب الباردة هو الصراع.

ستيفن هوكنج[1]

لا شك أن ستيفن هوكنج قد حقق شهرة عالمية كبيرة، وذلك لنبوغه فى تخصصه وهو الفيزياء النظرية، وأيضًا لتعاطف العالم مع ما أظهره من قوة إرادة وعزيمة فى مواجهة مرض شديد معجز أصيب به فى بدايات شبابه، حتى صار مثلًا أعلى وقدوة للكثيرين.

وإذا كان ستيفن هوكنج قد شغل لسنوات كرسى الأستاذية الذى شغله إسحق نيوتن فى جامعة كمبردج فشتان بين الرجلين فى موضوعيتهما الفكرية وفى عمق نظرتهما الفلسفية. لذلك لا عتب علينا أن نحلل أفكار هوكنج الفلسفية ونعترض عليها، طالما بقينا بعيدين عن مجال تخصصه العلمى الذى لا قِبَل لنا به.

لسنوات طويلة، ترك هوكنج الباب للسؤال حول الإله مفتوحًا. ففى ختام كتابه «**تاريخ موجز للزمن**»[2] كتب يقول: «إذا اكتشفنا النظرية الجامعة لقوى الفيزياء سنكون قد حققنا انتصارًا كبيرًا للعقل البشرى، وعندها **سنكون قد فهمنا عقل الإله**». فرح المتدينون بذلك الرأى واعتبروا هوكنج عالمًا مؤمنًا، واستشهدوا برأيه على صحة موقفهم. وفى كتابه الأخير «**التصميم العظيم**»[3] بَدَّل هوكنج موقفه وأعلن أنه «**لم يعد هناك مجالًا للقول بوجود الإله**»[4]، عندها انتشى ريتشارد دوكنز وأعلن أنه «إذا كان داروِن قد ألقى بالإله بعيدًا Kiched Out عن علم البيولوجيا، فقد ظل له موضعًا فى الفيزياء حتى أخرجه منها ستيفن هوكنج». هل دعوى دوكنز صحيحة؟ فلنرى.

التصميم العظيم The Grand Desing

فى كتابه «تاريخ موجز للزمن»، ذكر هوكنج أن الأحداث التى صاحبت وأعقبت الانفجار الكونى الأعظم كانت تخرق قوانين وثوابت الفيزياء، مما احتاج إلى التدخل الإلهى. ثم بَدَّل هوكنج رأيه فى كتاب «التصميم العظيم» وأعلن أن قوانين وثوابت الفيزياء التى نعهدها قادرة على إيجاد وتشكيل الكون، ومن ثم لا حاجة للقول بوجود الإله. انظر إلى قوله: لأن هناك

---

(١) Stephen Hawking: جاء التعريف به فى الفصل الرابع.

(٢) A Brief History of Time، صدر عام ١٩٩٨.

(٣) The Grand Design، صدر عام٢٠١٢، وشارك فى تأليفه الفيزيائى ليونارد ملودنيو.

(٤) سنطرح بعد قليل سبب تغييره لموقفه.

قانون كقانون الجاذبية فقد خلق الكون نفسه من عدم[1]! إن هذا الطرح يتماشى مع ما فى مفاهيم دوكنز الإلحادية من مغالطات منطقية علمية خطيرة، منها:

أولًا: يقع هوكنج فى نفس الهوة التى يتردى فيها معظم الملاحدة وإن احتلوا مراكز علمية مرموقة، وهو اعتبار أن ما يمكن تفسيره بقوانين الطبيعة ليس بحاجة إلى وجود إله. إنه الخلط الساذج بين الإله الخالق (كسبب أول) وبين قوانين الطبيعة (كآلية). إن ذلك يشبه أن تختار لتفسير عمل المحرك النفاث بين قانون الدفع لنيوتن[2] وبين مصمم المحرك المهندس العبقرى سير فرانك ويتل[3]. إن الاختيار بين الآلية وبين السبب الأول خطأ منهجى بَيِّنٌ، فأنت هنا تختار بين «مستويات مختلفة» وليس بين «بدائل». وهذا الخطأ يُعرف فى المنطق بالخطأ الطبقى Category Error.

لم يقع سير إسحق نيوتن فى هذا الخطأ الساذج. فعندما اكتشف قانون الجاذبية لم يقل: الآن توصلت إلى قانون الجاذبية، لم أعد بحاجة لوجود الإله. لكنه كتب أشهر كتاب فى تاريخ العلم «قواعد الرياضيات Principia Mathematica» وسجل فيه: أتمنى أن يقنع هذا الكتاب الإنسان المفكر بالإيمان بالإله.

إن قوانين الطبيعة تشرح للإنسان كيف يعمل المحرك النفاث، لكن لا تنفى أن هناك من ابتكر هذا المحرك، فلا شك أن قوانين الطبيعة لم تقم بهذا العمل، بل إن القوانين نفسها احتاجت لمن يكتبها ويخرجها إلى الوجود ويمدها بفاعليتها. كما أن هناك المادة (وهى أهون الأمور) التى انطبقت عليها هذه القوانين والتى استخدمها سير وتيل فى صنع المحرك، ولا شك أن هذه المادة لم تنتجها قوانين الطبيعة.

نحن هنا أمام ثلاثة أمور (السبب الأول ـ المادة ـ القوانين التى تحكم سلوك المادة) ولا شك أن القوانين عاجزة بذاتها عن فعل أى شىء، فهى ليست إلا توصيف رياضى لما يمكن أن يحدث تحت ظروف معينة[4]. إن القانون الرياضى يقول لك ـ ببساطة ـ إذا كان لديك (أ) فإنك ستحصل على (ب)، لكن ينبغى أن يكون لديك «أ» أولًا. إن تصور أن قوانين الطبيعة قادرة على إنتاج المادة/ الطاقة وعلى كتابة وتفعيل ذاتها إنما هو خيال علمى سقيم.

---

(١) P. 180

(٢) لكل فعل رد فعل مساوٍ له فى القوة ومضاد له فى الاتجاه. ويعتمد عمل المحرك النفاث على هذا القانون.

(٣) Sir Frank Whittle: (١٩٠٧ - ١٩٩٦م)، ضابط مهندس بالسلاح الجوى الملكى البريطانى، مخترع المحرك النفاث.

(٤) مفهوم قوانين الفيزياء عالجناه بالتفصيل فى الفصلين الثانى والثالث.

وفى كتابه «تاريخ موجز للزمن» كان هوكنج متنبهًا لهذه الحقيقة ـ قبل أن يتنكر لها فى كتابه التصميم العظيم ـ فقال: إن توصل العلم لقوانين الفيزياء لا يعنى أن هذه القوانين هى التى أنشأت الكون، ولا يجيب بالتبعية عن سؤال لماذا يوجد كون فى الأصل. هل إذا توصلنا إلى النظرية الجامعة لقوى الفيزياء فإن ذلك يعنى أن النظرية أوجدت نفسها، أم أنها تحتاج إلى خالق؟ وهل لهذا الخالق دور آخر فى الكون، سوى كتابة القوانين؟

ثانيًا: تشير مقولة هوكنج «لأن هناك قانونًا كقانون الجاذبية فقد خلق الكون نفسه من عدم» إلى أن نشأة الكون كانت حتمية نتيجة لوجود الجاذبية، بالرغم من أنه ليس هناك دليل علمى واحد على هذه الحتمية، فما زلنا لا ندرى لماذا نشأ الكون بدلًا من أن يمتد العدم.

ثالثًا: عندما يتبنى هوكنج أن الكون أنشأ نفسه من عدم، فقد وقع فى مغالطة علمية وعقلية كبيرة. فرأيه يعنى أن شيئًا لم يوجد بعد قادر على إيجاد ذاته! إن اللامنطقية تظل لا منطقية حتى وإن صدرت عن عالم عالمى شهير[1].

رابعًا: لم يفسر هوكنج فى كتاباته لماذا يتبع الكون هذا الانتظام الدقيق المعجز الذى وقف عنده أينشتين وغيره من المفكرين الكبار، فقادهم إلى الإيمان بالإله. كان أولى بهوكنج أن يتأمل حكمة آلان سانداج أبى علم الفلك الحديث حين قال: «أرى استحالة أن يأتى هذا النظام من الفوضى، لا بد من منظم. إن الإله بالنسبة لى شديد الغموض، لكنه التفسير الوحيد لمعجزة الوجود بشقيها: لماذا هناك شىء بدلًا من لاشىء؟ ولماذا هذا الانتظام المدهش؟

خامسًا: من الأطروحات التى يروج لها هوكنج فى كتابه «التصميم العظيم» أن التوصل لنظرية التوحيد الكبرى، التى تجمع قوى الطبيعة الأربع الكبرى فى معادلات رياضية مشتركة، كفيل بتفسير ما فى الكون من دقة متناهية وأن يقضى على الاحتياج لوجود إله خالق. نتفق مع هوكنج فى أن التوصل لمثل هذه النظرية يعنى وجود أقصى درجات الترابط والتصميم فى بنية الكون، أما أن نستنتج من وجود هذه الدقة المتناهية عدم الاحتياج إلى سبب أول فذلك خبل عقلى، فالعكس هو الصحيح.

سادسًا: أقر هوكنج بملاءمة بنية الكون لنشأة الحياة (المبدأ البشرى). ولتفسير ذلك يتبنى القول بالأكوان المتعددة. وقد فندنا هذا الادعاء فى الفصل الرابع. يدهشنا تمسك هوكنج بفرضية الأكوان المتعددة التى ليست إلا طرح فلسفى ضعيف بعيد كل البعد عن المفاهيم العلمية.

(١) تناولنا فى الفصل الرابع فرضية «النموذج الكمومى للكون» التى يطرحها هوكنج لتفسير نشأة الكون من عدم، وبينا آراء كبار الفيزيائيين والفلكيين تجاه ما فيها من عَوار وتضارب منطقى.

سابعًا: إذا انتقلنا من القوانين والنظريات الرياضية إلى عالم البيولوجيا، يفجأنا هوكنج باتباع أسلوب سفسطائى مشهور، وهو أن يطرح تصوراته الإلحادية المسبقة باعتبارها مقدمات مُسَلَّم بها دون أدنى دليل! انظر إلى قوله: لا أجد أمامى تفسيرًا لنشأة الذكاء الإنسانى وقدرتنا على التوصل لقوانين الطبيعة ووضع النظريات العلمية إلا الانتخاب الطبيعى الداروينى، فالاكتشافات العلمية تحقق فرصًا أفضل للحياة.

قد نقبل من هوكنج هذا الادعاء بخصوص الاكتشافات العلمية التى لها علاقة مباشرة ببقاء الجنس البشرى، أما الكثير من الاكتشافات العلمية الدقيقة فلا يخضع للانتخاب الطبيعى، ويبين بول ديفيز ذلك قائلًا: «لا شك أن الانتخاب الطبيعى يلعب دورًا هامًا فى بعض مهاراتنا كالقفز فوق مجارى الماء والتقاط الثمار المتساقطة من الأشجار، لكن لا أرى له دورًا فى التوصل إلى المفاهيم العلمية التى ليس لها علاقة مباشرة ببقاء الجنس البشرى؛ كإدراك ما يحدث داخل الذرات أو الثقوب السوداء أو نظرية الأوتار، أو المفاهيم الفلسفية العامة كالغرض من وجودنا ومنشأنا ومآلنا. إن هذه أمور لا علاقة للتطور الداروينى بها». لقد بَسَّطَ هوكنج الأمر بشكل مخل ليدعم تصوراته الإلحادية.

ثامنًا: من مفاجآت هوكنج المثيرة أن يعلن[1] أن الفلسفة قد ماتت Philosophy is dead! ويُرجع ذلك إلى عدم مسايرة الفلسفة للاكتشافات العلمية والاستفادة منها خاصة فى مجال الفيزياء. لاشك أن هذا الادعاء مجانب تمامًا للصواب؛ فالفلسفة ليست علمًا تطبيقيًّا! إنها أسلوب الإنسان الفطرى فى التفكير للبحث عن أجوبة للأسئلة الوجودية المحورية، حتى لقد قيل إن البشر كلهم فلاسفة.

ربما كان هذا الادعاء الهوكنجى صائبًا!! إذا كان مقياسنا للحالة الصحية للفلسفة هو كتابه (الفلسفى الضعيف جدًّا: التصميم العظيم)! ولكن ـ ولله الحمد ـ ما زال الفلاسفة العظام يملئون عالم الفكر بأفكارهم المبتكرة وتحليلاتهم العميقة واستنتاجاتهم الصائبة. ونختم وقفتنا مع هوكنج بأن نقول؛ إذا كانت الفلسفة قد ماتت فكتابه «الفلسفى» مجرد أوهام، وإن كانت الفلسفة فى عنفوانها ـ وهذا هو الحق ـ فمقولته خاطئة كاذبة.

(١) جاء ذلك فى برقية أرسلها إلى Google Zeitgeist Conference فى ١٧/ ٥/ ٢٠١١.

دانيل دينيت[1]

فكرة دارون الخطيرة Darwin's Dangerous Idea[2]

يُعتبر دانيل دينيت من أوائل من شارك فى مهزلة الإلحاد الجديد عام ١٩٩٥، من خلال كتابه «فكرة دارون الخطيرة». يشرح دينيت هذه الفكرة الخطيرة قائلًا: «إن عالم الأحياء بكل ما فيه من جمال وعجائب، وما يبدو عليه من تصميم دقيق مدهش بارع، ليس مخلوقًا أو مُصَمَّمًا عن طريق إله أو أى شيء شبيه بالإله، لكنه كان نتاج انتخاب طبيعى قام بغربلة طفرات وراثية عشوائية، إنه عملية ميكانيكية لا واعية، أنتجت من الفوضى هذا الانسجام دون معونة من عقل»[3]. كذلك تبنى دينيت فى كتابه (مثل باقى التطوريين) أن «الحياة» قد نشأت بالتطور الكيميائى العشوائى الذى يخضع للقوانين الكيميائية والفيزيائية.

لماذا فكرة دارون خطيرة؟

يجيب دينيت بأن هذه الفكرة تجبرنا أن نعيد النظر فى كل مفاهيمنا «الطفولية» حول الحياة والأخلاق والجمال والقيم. إنها تؤدى فى النهاية إلى أن نتنكر تمامًا للإله. ويرى دينيت أن هذه الفكرة ستبقى وتسود (فالبقاء للأصلح) بينما ستنقرض المفاهيم الدينية، لذلك يقترح أن نحتفظ ببعض المتدينين فى (حدائق حيوان ثقافية) حتى تشاهدهم الأجيال القادمة، بشرط ألا يسمموا عقول أبنائهم بأفكارهم عن الإله[4].

ويضيف دينيت: «إن أى إنسان يشك اليوم فى أن تنوع الحياة على كوكبنا قد حدث بالتطور الداروينى فهو ببساطة جاهل لا يُعذر»[5]. يالها من مشكلة؛ إذا قبلت التطور كمفهوم ورفضت العشوائية لاستحالتها العلمية والمنطقية أكون جاهلًا ولا أُعذر؟!

يبدو أن وصف الآخرين بالجهل يعجب الدراونة، فلم يكن دينيت هو السَّبَّاق به، فدوكنز

(١) Daniel Dennett: فيلسوف أمريكى، مهتم بفلسفة العلوم وفلسفة العقل وله عشرة كتب فى هذه المجالات، ولد عام ١٩٤٢.

(٢) Darwin's Dangerous Idea, NewYork: simon & Shuster, 1995

(٣) P. 50

(٤) P. 516

(٥) P. 46 من كتابه «Breaking the Spell».

كتب عام ١٩٨٩ فى جريدة النيويورك تايمز يقول: «لا أتجاوز الحقيقة إذا اعتبرت أن من لا يؤمن بالداروينية إما جاهل، أو غبى، أو مجنون، أو شرير مؤذ». لقد كان دوكنز أكرم من دينيت إذ أعطانا حق الاختيار بين أربع نقائص، كما لم يرفض التماس العذر لنا، أما دينيت فكان أكثر حزمًا عندما اعتبر أن الجهل لا يُعْذَر. وفى النهاية فإن كليهما يتبنى اللهجة المستعلية الصارمة، فاستحقا الوصف الذى أطلقاه على أنفسهما بأنهما ملاحدة أصوليون.

إبطال السحر Breaking the Spell [1]

بعد إحدى عشرة سنة من كتابه السابق، أصدر دينيت كتابه «إبطال السحر» مضيفًا إلى الفكرة الخطيرة السابقة جزئية جديدة، فقال: «إن فكرة الإيجاد دون معونة من عقل تنطبق أيضًا على منظومتنا الأخلاقية وأحاسيسنا الدينية وإبداعاتنا الفنية واهتماماتنا العلمية. لقد نشأ العقل والذكاء بعد نشأة الكون، ولم يكونا سابقين عليه».

حجة دينيت Dennett's Argument

ينطلق دينيت فى وصفه للتطور الداروينى بالخطورة من أربعة محاور:

١ - يمكن إرجاع كل سمة من سمات العالم إلى آلية ميكانيكية عمياء لا غاية لها ولا بصيرة.

٢ - لا ينبغى أن يشارك الإيمانُ العقلَ كمصدر للمعرفة، حتى فى قضايا الغيب.

٣ - إن فكرة وجود الإله المتشخص فكرة طفولية غير منطقية.

٤ - إن الأدلة التقليدية على الألوهية (دليل الحدوث، التصميم...) غير صحيحة، ومن ثم ينبغى على من يدعى وجود الإله أن يقدم دليلًا حسيًّا عمليًّا.

وقد سبق أن قدمنا عبر فصول الكتاب الأدلة على خطأ فكرة التطور الداروينى، وكذلك على خطأ المحاور الأربعة لحجة دينيت، كما قدمنا الأدلة الحاسمة على وجود الإله. لكن افترض أن كل ما قدمنا من أدلة علمية وفلسفية لم يقنع دينيت وغيره من الملاحدة، هل معنى ذلك أن القول بالإله غير منطقى وضد العقل؟!

(١) Breaking the Spell. NewYork, Penguin 2006

يجيب الفيلسوف الأمريكى العظيم ألفن بلانتنجا عن هذا التساؤل إجابة مفحمة قائلًا:

«عبر تاريخ الفلسفة القديمة والحديثة والمعاصرة كان هناك دائمًا من يرى أنه لا يوجد دليل مقبول على وجود الآخرين أو وجود الشخص نفسه، أو وجود العالم الخارجى، أو وقوع الأحداث الماضية! ومع ذلك لم يقل أحد إن اليقين بوجود هذه الأشياء غير منطقى».

ويضيف بلانتنجا متحدثًا عن دينيت:«إن دينيت وغيره ممن يتبنون المذهب الطبيعى لا يدرون شيئًا عن فلسفة الدين التى تشغل ثلث الفلسفة، ومع ذلك لا يتوقفون عن الخوض فيها والهجوم عليها. ينبغى أن يعوا أن الربع الأخير من القرن العشرين قد شهد موجات من انحسار الفلسفة المادية لصالح الفلسفة الدينية».

ويختم بلانتنجا خطابه عن دينيت قائلًا:«لقد فات دينيت أن الإنسان الأمريكى ما زال يؤمن بالإله والدين حتى وإن لم يمارس طقوسه، كما أثبتت الإحصائيات أن أكثر من ٨٥٪ من الأمريكيين يرفضون التطور الداروينى، ويعارضون تدريسه لأولادهم فى المدارس. معنى ذلك أن فكرة دارون كانت خطيرة على العلم أكثر مما كانت خطيرة على الدين».

سام هاريس[1]

نهاية الإيمان The End of Faith

يُعتبر كتاب «نهاية الإيمان» الذى أصدره سام هاريس عام ٢٠٠٥ بطاقة عضويته فى نادى شرازمة الإلحاد. ففى الكتاب، يروج هاريس للفكرة التى يرددها الملاحدة كثيرًا حتى أُستهلكت، بالرغم من تراكم الأدلة على كذبها؛ وهى أن الدين هو سبب معاناة البشرية. والجديد الذى أضافه هاريس فى عرض الفكرة أنه لا ينبغى فى زمن الحضارة العلمية الوثابة أن نسمح لمن يسعون إلى الجنة عن طريق الاستشهاد فى عمليات دينية إرهابية أن يقتلوا فى طريقهم أعدادًا من الأبرياء. حتى هنا نحن نتفق مع هاريس.

ولكن هاريس، باسم قُدرة الأمة على التحمل، يمارس أشد أنواع التطرف، فيتهم المتدينين المعتدلين بأنهم يوفرون التربة التى ينشأ فيها المتطرفون، لذلك يطالب الحكومات بألا تسمح

(١) Sam Harris: ولد فى الولايات المتحدة فى أبريل ١٩٦٧، من أطباء المخ والأعصاب ومفكر وإعلامى وفيلسوف، له عدد من المؤلفات، أكثرها ارتباطًا بالإلحاد الكتابين الذين نقدمها له.

بحرية العقيدة! باعتبار أن الأفكار تُوَلِّد الأفعال، كما يطالب المجتمعات المتحضرة أن تتوقف عن إظهارالاحترام للديانات!. وحجة هاريس المحورية وراء هذه الادعاءات، أن التقدم العلمى ينتقل بالإنسان دائمًا إلى مستقبل أكثر إشراقًا، ويظل الدين هو المجال الوحيد الذى يحمل أفكارًا مُعَوِّقة من الماضى. لذلك على المجتمعات المتحضرة أن تُخضع هذه الأفكار لنفس المنهج العلمى الذى تُدَرَّس به الفيزياء والكيمياء والطب وغيرها. ويضيف هاريس ساخرًا؛ إن كنا نمارس ضبط النفس تجاه شخص يدعى أن كائنات فضائية ترسل له رسائل عن طريق مجفف الشعر مثلًا، فإننا لا نسمح لهذا الشخص أن ينشئ المدارس لتعليم صغارنا أفكاره، كما لا نسمح له أن يخاطب الناس عن طريق الإعلام. ويطور هاريس هذا المثال قائلًا: كيف نسمح بأن يضع سياسات بلادنا والعالم رجال يعتقدون أن الكتاب الموجود بجوار فراشهم قد أملاه إله غيبى، وأن ما فيه من أفكار غير قابل للنقاش[1].

إن دعوة هاريس لدراسة الدين بنفس منهج العلوم الطبيعية والتطبيقية تعكس جهلًا مخزيًا بمناهج العلوم، فلا شك أن لكل علم من العلوم الإنسانية (ويمكننا تجاوزًا أن نضم الدين إليها) منهجه الخاص فى الدراسة، فنحن لا ندرس التاريخ والجغرافيا وعلم النفس والفلسفة والاقتصاد بنفس منهج العلوم الطبيعة والعلوم التطبيقية. إنها سقطة لا يقع فيها طالب بالمرحلة الثانوية.

خطاب إلى أمة مسيحية Letter to a christian Nation

على عكس الكتاب السابق الذى حفل بالإطالة والتكرار، جاء هذا الكتاب فى أقل من مائة صفحة. وعلى غير ما يشير العنوان يهاجم الكتاب كل معتنقى الديانات خاصة المسلمين.

يدعى الكتاب أن الدين ليس مسئولًا فقط عن نشر العنف، لكنه مسئول أيضًا عن الجهل والغباء، ويستشهد على ذلك بالموقف الرافض لليمين الأمريكى المتطرف من قضايا علمية طُرحت عليه؛ كالتطور البيولوجى وأبحاث الخلايا الجذعية والإجهاض. ويضيف هاريس ساخرًا؛ إذا كان ٥٠٪ من حالات الحمل تُجهَض تلقائيًا فى بداية الحمل دون أن تدرى بها السيدة، فإن الإله يُعتبر أكبر من يقوم بجريمة الإجهاض التى يحاسب عليها الدين! ويستمر هاريس فى سخريته قائلًا إن الصلاة لن تفيد فى حسم هذه القضايا العلمية ولن تشرحها للمصلين.

(١) يقصد بذلك جورج بوش الابن الذى تبنى اتجاه اليمين المتطرف.

ويؤكد هاريس أن المسيحيين لو قرأوا كتابهم المقدس بعقول متنبهة فلن يقبلوا معظم ما فيه، ولكن من سوء حظ الولايات المتحده هذه الأيام أن القليلين من الأمريكيين لديهم عقول مفتوحة على طلب الحقيقة. ويضيف هاريس: من العجيب أن نسمح بحق الانتخاب لإناس يؤمنون أن نوح اصطحب معه على السفينة زوجين من الديناصورات، وأن جدنا الأكبر قد خُلق من كومة من القاذورات ونَفَس إلهى!

وينسب هاريس إلى المسلمين أمورًا تكشف أنه على غير دراية بهذا الدين، فيتساءل: لماذا يعتبر المسلمون أن القرآن كلمات الله ويرفضون الإقرار بذلك بالنسبة لكتب اليهود والمسيحيين؟ ولماذا يعتبون عليهم لو خالفوهم الاعتقاد؟ ويقول أيضًا: ما أكبرها كذبة؛ ادعاء أن الإسلام يدعو للسلام وغير مسئول عن سلوك الإرهابيين الأصوليين.

عرضنا فى الفقرات الثلاثة السابقة ادعاءات هاريس ضد الديانات، والتى طرحها بسخرية فى خطابه إلى الأمه المسيحية. وندفع هذه التفاهات باختصار بأن نقول:

- ليست الديانات مسئولة عن ضيق الأفق العلمى لليمين الأمريكى، المتطرف فى تعصبه للتفسيرات التراثية للعهد القديم.
- تعتبر محاسبة الإله على حالات الإجهاض التلقائى نوع من «المماثلة» التى أثبتنا خطأها واستنكرناها عند حديثنا عن مذهب دوكنز الفلسفى.
- يقع هاريس فى سقطة علمية عند حديثه عن الديناصورات وسفينة نوح، فالديناصورات انقرضت قبل عصر نوح بثلاثٍ وستين مليون سنة!
- لا يفهم هاريس شيئًا عن رمزية خلق الإنسان من ثنائية الروح والمادة، والتى هى جوهر الوجود الإنسانى، فينطلق فى السخرية منها بدلًا من أن يجتهد فى فهمها.
- وأخيرًا نقول: لقد فات هاريس أن المسلمين يُكنون الاحترام لكتب اليهود والمسيحيين المقدسة ويعتبرونها كتبًا سماوية فى الأصل، كما فاته أن الديانات الثلاث تتفق فى معظم عقائدها حتى إن المسلمين يؤمنون باليهودية والمسيحية. كذلك لم يطالع هاريس الكثير من آيات القرآن الكريم التى تدعو إلى السلام وتنبذ الحرب والإرهاب. إن اتهامات هاريس للإسلام لا تعكس إلا جهلًا به كما تؤكد أنه يخوض فيما لا يعلم.

أرأيت كم هى غَثَّة أفكار هاريس التى يملأ بها الإعلام ضجيجًا!

كريستوفر هتشنز(1)

الإله ليس عظيمًا: كيف يسمم الدين كل شىء

God is Not Great: How Religion Poisons Every Thing

يعتبر هذا الكتاب الذى صدر عام ٢٠٠٧ أشهر كتب هتشنز وأكثرها ارتباطًا بموضوع الإلحاد. ويدل عنوان الكتاب على أنه يتناول بالهجوم الشقين المتكاملين؛ الإله والدين.

يطرح الكتاب الدين باعتباره مُنتجًا تطوريًا فرويديًا غير منطقى غير مُحتَمل، وأنه يُرَوِّج للعنصرية والقبلية والتعصب والإرهاب والحروب واغتصاب الأطفال، كما يُرَوِّج للجهل، بل إنه يمثل الذروة فى التوهم. ويسخر هتشنز فى كتابه من الأسئلة المحورية التى تتصدى لها الديانات والفلسفة. فيجيب مثلًا عن السؤال: لماذا نحن هنا؟ فيقول: لأننا انتصبنا واقفين على قدمين!

والعنوان الرئيس للكتاب «الإله ليس عظيمًا» هو المناقض لشعار المسلمين (الله أكبر)، وقصده الأول مهاجمة صدام حسين والإرهابيين المنتسبين للإسلام. ويدعى هتشنز أن المسلمين يتبنون «نظرية المؤامرة» فيتهمون الحضارة الغربية بأنها تتعمد تصدير الإيدز وشلل الأطفال والعجز الجنسى وغيرها من الأمراض للدول الإسلامية!. ويؤكد ذلك أن الكتاب لا يتعامل فى نقده مع الدين بقدر ما يتعامل مع التطبيقات السيئة للمتمسحين بالدين.

كما يصرح هتشنز أن القرآن الكريم مجرد نقل عن أساطير اليهودية والمسيحية والأساطير السابقة عليهما، ويخرج هتشنز من ذلك بأن القرآن ملىء بالانتحال والاقتباس، وأيضًا المتناقضات!

ونحن نعلق على هذه الادعاءات لهتشنز بأن نقول: لا تعليق!

---

(١) Christopher Hitchens: مؤلف وصحفى، بريطانى ـ أمريكى، ولد عام ١٩٤٩ وتوفى فى ديسمبر ٢٠١١ نتيجة لإصابته بسرطان المرىء.

القارئ الكريم:

وشهد شاهد من أهلها

مايكل شيرمر(١) مفكر وكاتب أمريكى فى مجال فلسفة وتاريخ العلم، كان من المسيحيين الأصوليين، ثم ترك المسيحية وصار يصف نفسه بالإلحاد تارة وبالشك تارة وباللاأدرية تارة ثالثة. أسس «جمعية الشكاكين Skeptics Society» وأصبح رئيسًا لتحرير مجلة «الشَّكاك Skeptic». ولشيرمر مقال ثابت فى «مجلة العلوم الأمريكية Scientific American»، وكان عنوان مقال عدد سبتمبر ٢٠٠٧ «الإلحاد المنطقى Rational Atheism: خطاب مفتوح للسادة دوكنز ودينيت وهاريس وهتشنز». وجاء المقال كرد فعل لتعصب مجموعة الأربعة تجاه الدين، مبينًا خطورة هذا التعصب، وكيف ينبغى على هؤلاء الأربعة (ومن على شاكلتهم) أن يُعَدِّلوا عن أسلوبهم العدائى فى تناول قضية الألوهية والدين، وإليك قارئى الكريم ملخص للمقال:

الإلحاد المنطقى

«مع وداع القرن العشرين ودخول القرن الحادى والعشرين واجهتنا ثلاث ظواهر تمثل تهديدات للعلم والحرية. أولها، الهجوم على تدريس التطور البيولوجى وإجراء أبحاث الخلايا الجذعية. وثانيها، تطور العلاقة بين الكنيسة والحكومة، ووقوف الحكومة بجانب بعض أشكال الإيمان(٢) وتجنب الأشكال الأخرى. وثالثها، انتشار الإرهاب الدينى الأصولى على مستوى العالم بشكل عام وفى الولايات المتحدة بشكل خاص.

وقد انعكس هذا الصراع فى ظهور الكتب الإلحادية لمجموعة الأربعة، والتى احتلت قوائم أعلى المبيعات فى تصنيف جريدة النيويورك تايمز لفترات طويلة. وتدور الكتابات كلها حول مقولة ريتشارد دوكنز: علينا أن ندرك جميعًا أن تبنى الإلحاد هو تطلع شجاع ورائع، إنك تستطيع أن تصبح ملحدًا متوازنًا، خلوقًا، سعيدًا، مبدعًا.

قد نوافق هؤلاء فى أنه إذا تعارضت المفاهيم الدينية مع حقائق العلم أو مبادئ الحرية السياسية فينبغى أن نتخذ تجاه ذلك مواقف حازمة، لكن علينا أن نحاذر من المبالغة. وحتى لا نقع فى هوة التطرف والعداء ينبغى أن نراعى ما يلى:

(١) Michael Shermer: أسس جمعية الشَّكاكين التى أصبحت تضم ٥٥,٠٠٠ عضو. وتهتم «مجلة الشكاك» بتفنيد الظواهر التى تُنسب ادعاءً إلى العلم. ولد عام ١٩٥٤.

(٢) يقصد اليمين المتطرف.

أولًا: إن الحركات التى لا تكتفى إلا بالمعارضة (يشير بذلك إلى الإلحاد الجديد) تُفَشِّل نفسها بنفسها، بل إنها تروج للمنظومة التى تهاجمها. لذلك يجب علينا أن نناضل من أجل تحقيق شىء نريده وليس من أجل دفع شىء لا نريده.

ثانيًا: إن دورنا ـ كما قال دارون ـ ليس طرح الحجج ضد الإيمان بالإله، ولكن دورنا هو تنوير العقول من خلال طرح وتحليل منجزات العلم.

ثالثًا: علينا ـ كما قال كارل ساجان ـ أن نتحلى بالخُلق الحسن وعدم السخرية من المتدينين، فتلك السخرية وإن كانت تحقق لك الاستمتاع فإنها تنفر الآخرين منا ومن أفكارنا.

رابعًا: «المعاملة بالمثل» هى القاعدة الذهبية فى التعامل مع المتدينين. فإذا كنا نرفض أن يصدر المتدينون علينا أحكامًا مسبقة، علينا ألا نفعل نفس الشىء معهم.

خامسًا: كما أشار مارتن لوثر كنج[1]، علينا تحاشى تخوين كل من يخالفوننا وأن نحترم معتقداتهم، فإن حريتنا فى ألا نؤمن مقيدة باحترام حرية الآخرين فى أن يؤمنوا.

وأخيرًا أؤكد أن الإلحاد العقلانى، إذ يُقَدِّر حقائق العلم وسلطة العقل، عليه أن يدرك أن «مبدأ الحرية» فوق العلم وفوق الدين».

انتهى تلخيص المقال.

عسى أن يستوعب شراذمة الإلحاد الجديد رسالة زميل لهم أدرك خطورة تطرفهم حتى صاروا أشد تطرفًا من الأصوليين الدينيين الذين يهاجمونهم.



(1) Martin Luther King: (١٩٢٩ - ١٩٦٨م)، زعيم أمريكى من أصول أفريقية، قس وناشط سياسى إنسانى، من المطالبين بإنهاء التمييز العنصرى ضد السود، كان أصغر من حصل على جائزة نوبل للسلام، اُغتيل عام ١٩٦٨.

الفصل الثانى عشر

الإلحاد فى العالم الإسلامى

- الإلحاد فى القرآن الكريم
- حروب الردة
- الزندقة
  - نشأة الإلحاد فى الحضارة العربية الإسلامية
  - من هم الزنادقة
  - ابن الراوندى
  - دروس من حركة الزنادقة
- الإلحاد المعاصر
  - المُلَيحد د. إسماعيل أدهم
  - نكبة عبد الله القصيمى
    - لماذا؟...
    - قاذورات القصيمى الإلحادية
    - القصيمى فى الميزان
- الإلحاد فى بيوتنا
  - خلفيات الموجة الإلحادية
  - الإلحاد السفسطائى وأنماطه
- القارئ الكريم

«إن انتشار الكفر فى العالم يحمل نصف
أوزاره متدينون... بَغَّضوا الله إلى خلقه...
بسوء صنيعهم... وسوء كلامهم».

الشيخ محمد الغزالى[1]

تُعتبر ظاهرة الإلحاد من أخطر الظواهر فى تطور الحياة الروحية، وهى تفسح لنفسها مكانًا فى كل حضارة حينما تصل إلى فى طور الرفاهية، ذلك أن بعض النفوس تكون قد استنفذت تطلعاتها وإمكانياتها الدينية واشتاقت إلى المزيد من المتع الحسية.

ويختلف نمط الإلحاد تبعًا لروح الحضارة التى انبثق فيها. فإذا كان نيتشة قد عبر عن الإلحاد الغربى بقوله: «لقد مات الله»، وعَبر الإلحاد اليونانى بقوله: «إن الآلهة المقيمين فى المكان المقدس قد ماتت»، فإن الإلحاد العربى يقول: «لقد ماتت فكرة النبوة والأنبياء». ذلك أن الإلحاد فى العالم الإسلامى يصدر عن الروح العربية التى كانت تنظر إلى العلاقة بين الله وبين العبد باعتبارها صلة افتراق وبُعد كامل[2]، لذلك احتل النبى (الوسيط بين الله والعبد) أخطر دور فى الحياة الدينية الإسلامية.

ولا فرق فى الواقع فى النتيجة النهائية بين كلا الموقفين، فكلاهما يؤدى فى النهاية إلى إنكار الدين؛ فبإنكار الإله عند اليونانى القديم وعند الغربى المعاصر ينتفى الدين، وبإنكار النبوة والأنبياء عند العربى تزول الأديان، فينقطع كل سبيل إلى الألوهية ذاتها. وفى النهاية يتلاشى فى الحالين القول بالبعث، وما يتبعه من ثواب وعقاب وما يتطلبه ذلك من التزام بطاعات وانتهاء عن معاصٍ. وهذا هو جوهر ما يهتم به الملاحدة بكل أصنافهم[3].

(١) الشيخ محمد غزالى: من أشهر الداعين لتجديد الفكر الإسلامى فى القرن العشرين، والمناهضين للتشدد والغلو فى الدين، ولد بمحافظة البحيرة بمصر (١٩١٧ - ١٩٩٦م).

(٢) العقيدة الإسلامية الصحيحة خالية من مفاهيم وحدة الوجود والحلول والاتحاد التى نجدها فى الديانات الأخرى.

(٣) المقدمة السابقة تلخيص بتصرف من كتاب «من تاريخ الإلحاد فى الإسلام»، للفيلسوف الدكتور عبد الرحمن بدوى.

الإلحاد فى القرآن الكريم

يرى الكثير من المفسرين أن القرآن الكريم لم يتناول قضية الوجود الإلهى، باعتبار أنها فطرة فى النفس البشرية[1]، لذلك اتجه مباشرة إلى تناول أنماط الانحراف المختلفة عن هذه الفطرة. ونحن نختلف مع هذا الرأى، فالكثير من آيات القرآن الكريم يدور حول إثبات حقيقة الوجود الإلهى، كما يدعو الإنسان للنظر فى آيات الآفاق والأنفس حتى يتبين أن القرآن حق وأن الإله حق.

والقرآن الكريم باعتباره موجهًا للبشر جميعًا وباعتباره خاتم الرسالات السماوية كان طبيعيًا أن يخاطب البشر جميعًا، ابتداء من المؤمنين صادقى الإيمان إلى مدعى الألوهية، مرورًا بجميع أشكال الطمس والانحراف التى يمكن أن تصيب الفطرة الإنسانية. وإليك أهم أنماط هذا الانحراف كما جاءت فى القرآن الكريم:

١ - يقول الحق ﷻ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون]. يطلق القرآن الكريم على من تصيب فطرتهم الأنماط المختلفة من الطمس والانحراف اصطلاح «الكافرون». «وكَفَرَ» بمعنى غطَّى، أى أن فطرتهم قد غطاها ما غطاها من ران. وهؤلاء الكافرون قد يكونون «مدعون» أو «منكرون» أو «مشركون» أو «ضالون».

٢ - يتناول القرآن الكريم «مُدَّعو الألوهية» من خلال القصص القرآنى، فيحدثنا عن نمرود إبراهيم وفرعون موسى. وهذا الادعاء هو أشد أشكال الانحراف عن الفطرة السوية. وهؤلاء تقابلهم فى العصر الحديث المدارس الفكرية المادية التى جعلها المنكرون لله ﷻ آلهة يتبعونها؛ كالداروينية والماركسية. ويمتد الادعاء ليشمل أيضًا «ادعاء النبوة».

و يقول القرآن الكريم فى ادعاء النبوة وادعاء الألوهية ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ... ۝٩٣﴾ [الأنعام].

٣ - يطلق القرآن الكريم على «المنكرون» لوجود الله ﷻ اسم «الدهرية». وهذه الطائفة من العرب شعارها: ما هى إلا أرحام تدفع وقبور تبلع وما يهلكنا إلا الدهر، لذلك

(١) كذلك يرى البعض أن معظم أهل مكة كانوا يقرون بوجود الإله، ومن ثم لم يكن هناك مبرر لإثبات ذلك. وهذا الرأى مردود، فالقرآن الكريم لم ينزل لأهل مكة وحسب، بل للبشر أجمعين عبر المكان وعبر الزمان.

قـال فيهـم الله ﷻ ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ... ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية].

وجاء فى «موسوعة المفاهيم» للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية أن الدهرية مذهب كل من اعتقد فى قِدَم الزمان والمادة والكون، وأنكر الألوهية والخلق والعناية والبعث والحساب. كما يرون أن الموجب للحياة والموت هى طبائع الأشياء وحركات الأفلاك، ويعتقدون أن للحياة دورات تتكرر كل ٣٦ ألف سنة يعود بعدها كل شىء إلى ما كان عليه. وقد عُرفت الدهرية فى بلاد الهند قبل الإسلام، ومن هؤلاء مذهب «السمنية» الذين ينكرون الألوهية والوحى والنبوة والرسالة، ويؤمنون أن لا طريق للمعرفة إلا الحس(١).

والدهرية أصل كل مذاهب الإلحاد والمادية التى عرفتها البشرية، كما يمكن اعتبار الفلسفة الوضعية الحديثة أحدث صور الدهرية القديمة. وهؤلاء الدهرية المنكرون للألوهية هم أقرب الكافرين من «الملاحدة» المعاصرين.

٤- يخبرنا القرآن الكريـم عما سيدعيه بعض الكافرين بعد أربعة عشر قرنًا عن خلق الكون والإنسان مـن عـدم. فيقـول الحـق ﷻ ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الطـور]: سـبحان الله، فـ﴿ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ تعنـى مـن غير مادة ومن غير سـبب أول، و﴿ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ تعنى أن المخلوق (الكون والإنسـان) قد أوجد ذاته، وكلاهما مما وقع من الملاحـدة المعاصرين.

٥- يحدثنـا القـرآن الكريـم عن طائفة تقـر بالإله الخالـق، لكنها ترى أنه قـد اعتزل الكون بعـد أن وضـع فيه القوانين التى تُسَـيره، ومن ثم ينكـر هؤلاء «القيوميـة» أى ينكرون متابعـة الإله الخالـق للكون بالحفظ والتدبـير والرزق و... وقد قـال فيهم الحق ﷻ(٢) ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ... ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت].

---

(١) نلخص هذه الفقرة عن مقال للأستاذ د. محمد عمارة، نُشر بجريدة الأهرام ٦/ ٤/ ٢٠٠٩: وقعت هذه المناظرة المشهورة بين السمنية والجهم ابن صفوان (توفى عام ٧٤٥م) زعيم الجبرية. وفى المناظرة، وافق الجهمُ السمنية على ألا شىء سوى المحسوس، عندها أفحموه بأن إلهه غير محسوس، ومن ثم غير موجود. بعدها أرسل الجهم إلى واصل ابن عطاء (المتوفى ٧٤٨م) زعيم المعتزلة (التيار العقلانى) يطلب منه حل الإشكال، فطلب منه واصل أن يسألهم إن كان العقل الذى يؤمنون بوجوده محسوس؟ وجعلهم يستنتجون من ذلك أن المعلوم ليس فقط ما تدركه الحواس وإنما يضاف إليه ما يثبته الدليل. عندها سعوا إلى لقاء واصل واعتنقوا على يديه الإسلام.

(٢) جاء هذا المعنى أيضًا فى سور: لقمان -٢٥، الزمر - ٣٨، الزخرف -٩.

٦ - يخبرنا القرآن الكريم أن من الكافرين من يقر بالقيومية (متابعة الله ﷻ خلقه بالرعاية) فقال ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... ﴿٦٣﴾ ﴾ [العنكبوت] لكنه ينكر أن يكون الإله قد تواصل مع البشر عن طريق الأنبياء والرسل، أى ينكرون الديانات. وهذه الطائفة تقابل «الربوبيون» بالمعنى المعاصر.

ويهدف هؤلاء من إنكارهم للدين ـ فى المقام الأول ـ إنكار البعث والثواب والعقاب. فعند ذلك لن يكون هناك مبرر للعبادات وللالتزام بأوامر الله ﷻ ونواهيه. وبذلك يفرغون الألوهية من كل معنى وقيمة.

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الإسراء]، ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ [التغابن].

كما يبين الحق ﷻ أن رفض هؤلاء للدين قد يرجع لأسباب نفسية (خاصة الكِبْر)، ونجد ذلك كثيرًا فى أيامنا هذه، فيقول: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف].

٧ - يأتى بعد المدعين والمنكرين «المشركون». والمشرك هو الذى يؤمن بوجود الله ﷻ، لكنه يعبد معه غيره، بزعم أنه يقربه إلى الله ﷻ ﴿ ...وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ... ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر].

وقد كان هذا الصنف من الكافرين أكثر من واجه دعوة الإسلام فى بدايتها فى مكة المكرمة.

ومن أشكال الشرك الأخرى التى يعرضها القرآن الكريم ويكشف فسادها أن يتخذ الإنسان من «هواه» شريكًا لله ﷻ أى أنه يُسلم زمام نفسه لميوله ورغباته ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ... ﴿٤٣﴾ ﴾ [الفرقان].

٨ - و«الضالون» آخر أنماط الكافرين. وهم الذين ضلوا عن الحق بعد أن عرفوه. ومن أخص هؤلاء المسيحيين، فقد بين القرآن الكريم أن معظمهم ضلوا عن المعنى الحقيقى للتوحيد الذى دعاهم إليه نبيهم، فأشركوا مع الله المسيحَ وأمه مريم[1]: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ

(١) ما زال من المسيحيين من يؤمنون بوحدانية الله، وبأن الكتاب المقدس ينص على أن المسيح رسول الله، وينكرون كل ما أُدخل على المسيحية من عقائد ضالة. ويُطلق على هؤلاء اسم «شهود يهوا».

﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ... ﴿١١٦﴾ ﴾ [المائدة].

ومن الضالين أفراد من أمة محمد ﷺ، عرفوا الحق ثم ألحدوا في أسماء الله ﷻ وآياته.

٩- جاء لفظ «يلحد» في القرآن الكريم على ثلاثة معانٍ:

الأول: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [الأعراف].

وهذا هو الإلحاد في أسماء الله ﷻ، أي الميل والانحراف بها إلى الباطل، فينسبون إلى الله ﷻ العدمية، أو الجبر، أو الحلول والاتحاد، أو... حاشا لله ﷻ[1].

والثاني: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ ... ﴿٤٠﴾ ﴾ [فصلت].

وهو تحريف معنى آيات القرآن الكريم إلى غير مراد الله ﷻ منها.

والثالث: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل].

ويلحدون إليه بمعنى ينسبون إليه. والمقصود في الآية أن الكفار ينسبون تعليم محمد ﷺ إلى الكُهان، وهؤلاء لسانهم أعجمي غير عربي.

مما سبق، يتضح أن القرآن الكريم استعرض كل أنواع الضلال والانحراف عن فطرة الإنسان السوية، لذلك يحدثنا علماء التوحيد عن توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات[2]. فسبحان الإله الواحد الأحد، وأشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله.

(١) في ذلك يقول الإمام ابن تيمية:

وَأَصْلُ ضَلَالِ الخَلْقِ مِنْ كُلِّ مِلَّةٍ ... هُـوَ الخَوضُ فِى فِعْلِ الإِلَهِ بِعِلَّةٍ

ويقول: أفعال الله لا يُسأل عنها بِلِمَ (أي لا نتفكر في العلة وإنما نتفكر في الحكمة)، وصفات الله لا يُسأل عنها بكيف.

(٢) توحيد الربوبية: هو توحيد الله ﷻ بأفعاله من الخلق والرزق والإحياء والإماتة ونحو ذلك.
توحيد الألوهية: هو إفراد الله ﷻ بالعبادة من صلاة وصوم وحج وزكاة ونحو ذلك.
توحيد الأسماء والصفات: أن تصف الله ﷻ بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ وأن تسميه بما سمى به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ.

حروب الردة

شهدت الساحة العربية الإسلامية عقب وفاة المصطفى ﷺ حدثين أطلق عليهما الدارسون اسم «حروب الردة». الحدث الأول هو «ادعاء النبوة»، ومن هؤلاء المدعين مسيلمة الكذاب وطليحة بن خويلد الأسدى، والأسود العنسى وسكاح وغيرهم. وكان الغرض من هذه الادعاءات تحقيق الجاه والسلطان فى بيئة تتصارع قبائلها من أجل السيادة. أما الحدث الثانى فكان «منع الزكاة»، إذ رفضت بعض القبائل سداد زكواتها إلى السلطة المركزية فى المدينة المنورة، فرأى الخليفة الصديق فى ذلك تهديدًا لوحدة الأمة الناشئة وكيانها. وإذا كان الحدث الأول يمثل ردة حقيقية وإلحادًا، فلا ينبغى تعميم تلك النظرة على الحدث الثانى.

وقد اجتاحت هذه الفتن جزيرة العرب حتى لم يبق على الدين القويم إلا أهل مكة والمدينة والقبائل المحيطة بهما. لذلك جَرَّدَ الخليفة أبو بكر الصديق عشرة جيوش خاضت حروبًا طاحنة مع زعماء الفتنة وانتصرت فيها حتى استقرت الخلافة الإسلامية.

الزنادقة

بعد انتهاء حروب الردة، شُغل المسلمون بنشر الإسلام وتدعيم الدولة الناهضة والدفاع عن حدودها، كما شُغلوا بصراعات الفتنة الكبرى، وتأسيس الدولة الأموية ثم العباسية ومحاربة المعارضين. وقد مثلت هذه الظروف مناخًا مناسبًا لظهور العديد من المذاهب والفرق، كالخوارج والجبرية والقدرية والمُرجئة والمعتزلة...

نشأة الإلحاد فى الحضارة العربية الإسلامية

وصل الإسلام خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة إلى أكمل صورة قُدِّرَ للحضارة العربية بلوغها.وتبعًا لسنن التطور الحضارى، بدأ الانحدار عن تلك القمة فى العديد من المجالات خاصة المجال الدينى، فكان ذلك هو العامل الرئيس وراء ظهور الإلحاد، وقد دَعَمَه عددٌ من العوامل المساعدة.

كانت «النزعة الشعوبية» أهم العوامل المساعدة لظهور الإلحاد. ونعنى بها سعْى المغلوبين الذين قامت الحضارة الإسلامية على أنقاض حضاراتهم (خاصة الفرس) للانتقام، وقد أجج

ذلك تعصبهم لدينهم القديم، فى بيئة تعتبر الدين هو العامل الحاسم فى قيام القوميات والدول. تأتى بعد ذلك «النزعة المادية»[1] التى تمجد العقل بحسبانه الحاكم الأول والأخير الذى لا راد لحكمه، وقد نشأت هذه النزعة فى العالم العربى الإسلامى نتيجة لانتشار الثقافة اليونانية فى تلك الأصقاع؛ سواء بشكل مباشر أو عن طريق بلاط كسرى أنوشروان.

وتُعتبر «النزعة الحسية» العامل الثالث المساعد على ظهور الإلحاد، فقد ضاق هؤلاء بضوابط الدين التى تحد من انطلاقهم لإشباع شهواتهم الجامحة. ونرصد ذلك بوضوح فى سلوك الجماعة المعروفة بـ«عصابة المُجّان» على حد تعبير ماجنها الأكبر أبو نواس.

مَن هُم الزنادقة؟

«زنديق» لفظ فارسى مشتق من «زندكراى»، وهو الشخص الذى يتبع كتاب زند لزراديشت[2]. وقد أُطلق الاصطلاح على من ظل - بعد الإسلام - يعتنق تعاليم مزدك[3] ومانى[4] التى تدعو إلى عبادة إلهين أزليين للعالم (النور والظلمة)، وتحرم الذبح وأكل اللحوم، وتبيح كل ما يحقق اللذة من المحرمات؛ كشرب الخمر ووطء المحارم، كما تُرَوِّج لعقائد الهند التى تقول بتناسخ الأرواح والحلول والاتحاد ووحدة الوجود.

ثم اتسع معنى لفظ زنديق حتى صار يُطلق على كل صاحب بدعة وكل ملحد، وكل من يحيا حياة المجون من الشعراء والكُتاب. وانتهى الأمر باللفظ إلى أن صار يُطلق على كل من خالف مذهبه بوضوح مذهب أهل السُّنة.

وقد نقم الزنادقة الشعوبيين على الحكم الإسلامى، فسعوا إلى الانقضاض على الحكم من خلال تقريب العناصر الفارسية (كالبرامكة) من الخليفة العباسى، أو القيام بثورات عليه. كما سعوا إلى إفساد عقيدة المسلمين من خلال إقناع الشباب بمفاهيم مزدك الداعية للغرق

(١) يُشار دائمًا إلى النزعة العقلية المادية باسم (الحركة التنويرية)، وقد أُستخدم هذا الاصطلاح فى فترات مختلفة أشهرها بداية العصر الحديث. ولا شك أن هذا الاصطلاح ينحاز لتلك المفاهيم المادية، لذلك عزفنا عن استعماله إذ لا نعتبرها تنويرًا!

(٢) زرادشت: مؤسس الديانة الزرادشتية (المجوسية) منذ قرابة ٣٠٠٠ سنة فيما يعرف الآن بدولة إيران وما حولها، وتعتبر أقدم ديانات التوحيد.

(٣) مزدك: داعية فارسى أسس الديانة المزدكية التى تؤمن بإلهين (الخير والشر). وأقرت المزدكية المشاركة فى الأموال والنساء. وقد ألغى الملك كسرى أنوشروان هذه الديانة وأعاد الزرادشتية لفارس.

(٤) مانى: مؤسس الديانة المانوية فى القرن الثالث الميلادى، وهى مزيج من الزرادشتية والبوذية والمسيحية، وتؤمن بإلهى الخير والشر كالمزدكية، لكنها كانت تدعو إلى العفة الجنسية.

فى اللذة. وتسجل كُتب التاريخ أن بعض من كانت لهم إسهامات كبيرة فى الحضارة العربية الإسلامية كجابر بن حيان ومحمد بن زكريا الرازى ظلوا على احترامهم للعقائد الفارسية. وبالنسبة للنظرة الدينية، يحتل الزنادقة طيفًا يمتد من الحياة الماجنة والتمرد على العبادات إلى الإلحاد بالمعنى الكامل وهو إنكار الألوهية[1]، ومن هؤلاء ابن الراوندى الذى يُعتبر أشهر الشخصيات الملحدة من الزنادقة.

ابن الراوندى

يعرفنا الدكتور يوسف زيدان[2] بابن الراوندى قائلاً:

«من أعجب الشخصيات فى التاريخ العربىُ الإسلامى، بل فى التاريخ الإنسانى كله، شخصية ابن الراوندى الملحد (أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق، المتوفى فى حدود سنة ٣٠١ هجرية)[3]، فقد عاش الرجل حياة غريبة، تنَّقل فيها بين الديانات والمذاهب على نحو عجيب.

كان ابن الراوندى فى أول الأمر يهوديًا، وسرعان ما أعلن إسلامه ليدخل فى نطاق عزة الإسلام، ويستظل بظل الدولة العباسية التى كانت ـ آنذاك ـ فى أوج مجدها.. ووجد ابن الراوندى أن فرقة المعتزلة هى أكثر الفرق الإسلامية اقترابًا من الخلفاء العباسيين، فصار معتزليًا! وألف مجموعة من الكتب على هذا المذهب.. لكن المعتزلة لم يفسحوا له مكانًا لائقًا بينهم، ولم يعطوه ما كان يطمح إليه، فانقلب عليهم وهاجمهم فى كتاب مشهور له، عنوانه: فضيحة المعتزلة (نَقَضَ فيه كتاب الجاحظ: فضيلة المعتزلة!).

وقام المعتزلة بالهجوم على ابن الراوندى وأوغروا صدر الخليفة ضده، فهرب والتجأ لأعداء الدولة من الشيعة الباطنية، وألف لهم كتابًا ضد مذهب أهل السُّنة، نظير مبلغ ٣٣ دينارًا! وكان عنوان الكتاب: فى الإمامة.. وبعد فترة، شَعر ابن الراوندى أن الشيعة لن يحموه من السُّنة، وأنه من الممكن أن يتقرب للسنة مرة أخرى، فكتب كتابه: فى التوحيد.

ثم اكتشف ابن الراوندى أنه لم يحقق مأربه عند أهل السنة فخاصمهم، وانقلب عليه الشيعة أيضًا.. فخرج عن نطاق الإسلام بما فيه من سُنة وشيعة، ولجأ إلى اليهود. ومرة أخرى يستخدم ابن

(١) من أبيات الشاعر بشار بن برد الإلحادية:

إبليسُ أفضلُ من أبيكــم آدم ... فتبينوا يـا معشـر الفجــارِ
النارُ عنصـره وآدم طينـــــةٌ ... والطين لا يسمو سمو النارِ

إنه يتبنى نفس منطق إبليس الذى تسبب فى طرده من رحمة الله ﷻ.

(٢) الدكتور يوسف زيدان، أستاذ الفلسفة ومدير مركز المخطوطات بمكتبة الإسكندرية (سابقًا). والتعريف بابن الراوندى عن مقال له بعنوان «أحفاد ابن الراوندى»، نشر بمجلة أكتوبر فى ٢٧/ ٣/ ١٩٩٤.

(٣) قيل إنه مات فى الأربعين من العمر، وقيل فى الثمانين.

الراوندى فكره وقلمه لتحقيق أغراضه الدنيوية التافهة، فيؤلف لليهود كتاب (البصيرة) ينتصر فيه لليهودية ويرد على الإسلام، نظير مبلغ ٤٠٠ درهم تقاضاها من اليهود.. ثم أراد بعد فترة أن ينقض الكتاب ويرد على ما ذكره فيه من آراء ضد المسلمين والإسلام، فأعطاه اليهود ١٠٠ درهم أخرى، فعدل عن الرد على الكتاب!.

وفى نهاية الأمر، يقف ابن الراوندى ضد كل الديانات وجميع الأنبياء، فيضع كتاب «الفِرِنْد» (بمعنى: لا مثيل له) ليطعن فيه على الأنبياء والنبوة، ثم يضع كتابه المشهور «الزمردة» ويطعن فيه الرسالات السماوية كلها، ويشكك فى الألوهية ذاتها..

هكذا عاش ابن الراوندى حياته متنقلًا بين المذاهب والديانات، وقضى أيامه (الدرامية) البائسة ساعيًا وراء المجد الدنيوى، وهو المجد الذى ما ناله ابن الراوندى قط، وإنما نال لقب: الملحد الأكبر فى تاريخ الإسلام».

أما أفكار ابن الراوندى الإلحادية فتمثل نموذجًا لما كان عليه الزنادقة الملحدين؛ وهذه الأفكار هى:

١ - القرآن الكريم ليس نصًا فريدًا، ويمكن كتابة ما هو أفضل منه. ويرجع عدم اهتمام العرب بمحاكاة القرآن إلى انشغالهم بالقتال والفتن.

٢- ليس هناك مبرر لإرسال الرسل؛ فما يأتى به الرسول إما يكون معقولًا أو لا يكون معقولًا. فإن كان معقولًا فالعقل قادر على إدراكه دون الحاجة إلى رسول، وإن كان غير معقول فلا يكون مقبولًا.

٣- ليس لله حاجة لإرسال الرسل، فالله قادر على أن يرتقى بالإنسان بحيث يتوصل بعقله إلى رشده وصلاحه.

٤- تحيط بتصورات الإنسان عن الخالق الأوهامُ والأساطير؛ لأن فكر الإنسان يعجز عن إدراك الخالق أو معرفة أوصافه.

٥- الحج ومناسكه طقوس هندوسية وعادات وثنية كانت تمارَس فى الجاهلية، ولا يختلف الطواف حول الكعبة عن الطواف بغيره من البيوت.

٦- إن غزوات الرسول ﷺ عمليات سلب ونهب.

٧- كان الملائكة الذين أنزلهم الله يوم معركة بدر «مغلولى الشوكة وقليلى البطش» إذ لم يقتلوا سوى سبعين رجلًا. ولِمَ لم يُنزل الله ملائكته يوم أُحد عندما توارى النبى ﷺ بين القتلى فَزِعًا!!

٨ - يتهكم ابن الراوندى على وصف الجنة فى القرآن الكريم قائلًا: إن فيها حليب لا يشتهيه إلا جائع، وفيها زنجبيل ليس من لذيذ الأشربة، وبها استبرق وهو الغليظ من الديباج.

وينبغى هنا أن نفند أفكار ابن الراوندى (وأفكار الزنادقة)، حتى لا نكون كمن أثار زوبعة من تراب وتركها تؤذى أعين الناس:

١ - لا شك فى تعدد جوانب إعجاز القرآن الكريم، وقد تحدى الله ﷻ الكافرين أن يأتوا بعشر سور مثله، بل سورة واحدة، بل آية! وما زال التحدى قائمًا، وبالرغم من ادعاء ابن الراوندى بأن القرآن الكريم ليس متفردًا، فهو لم ينزل إلى ساحة التحدى!.

٢ - لا يستطيع العقل أن يصل إلى حقائق الوجود دون معونة من الرسالات السماوية، وقد أقر بذلك العديد من الفلاسفة حتى الملحدين منهم.

٣ - تشتمل كل الديانات التى يعتنقها البشر على طقوس متشابهة، منها الحج، فمصدر الديانات جميعًا هو الإله الخالق. ويعلم ابن الراوندى أن العرب كانوا يمارسون طقوس الحج نقلًا عن خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام قبل البعثة المحمدية.

٤ - يعرف الدارس لغزوات الرسول أنها كانت إما دفعًا لعدوان، أو تأمينًا للديانة الجديدة. وما كان يؤخذ من غنائم إما كان استردادًا لأموال المهاجرين التى أُغتصبت منهم، أو تمشيًا مع أعراف العرب فى القتال.

٥ - كان الدرس المقصود من نزول الملائكة فى معركة بدر هو تعليم البشرية أن الله ﷻ يُعين من يَصْدُق التوكل عليه واللجوء إليه. أما الدرس المقصود من غزوة أُحد فكان أهمية الأخذ بأسباب النصر المادية وأهمها طاعة القائد، وهذا ما تجاهله ابن الراوندى. كذلك لم يشأ الله ﷻ أن تُفنى ملائكته مشركى بدر لعلمه أن معظم من نجا سيدخل الإسلام، وقد كان.

٦ - يعلم كل مهتم بعلوم القرآن أن أوصاف الجنة جاءت تشبيهًا بما هو معروف عند العرب ومحبَّب لديهم حتى يستطيعوا إدراكه، أما الحقيقة ففوق ذلك بكثير ومخالفة له تمامًا. ففى الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

هذا هو ابن الراوندى الملحد المُتَلَوِّن المنافق، الذى خصه المستشرقون بالأبحاث المستفيضة، مشيدين بحريته الفكرية وجهوده التنويرية[1]!.

(١) يعلق د. يوسف زيدان على سيرة وفكر ابن الراوندى قائلًا: يبدو أن نسل ابن الراوندى لم ينقطع من بعده - مع أنه لم يترك أولادًا - ففى كل زمن نجد زمرة من هؤلاء الذين يتوسلون بالكلمة المكتوبة لتحقيق المآرب الدنيوية، بل إنهم قد طوروا منهجه الانتهازى المتلون، وجاءوا بما لم يعرفه الأوائل من حيل والتفافات.

وقبل أن نطوى صفحة الزنادقة، ينبغى أن نستوعب أهم دروسها:

فى بداية حركة الزنادقة، تصدى الخلفاء الأمويون والعباسيون لرجالها بالسجن والتعذيب والقتل، فما أثمر ذلك إلا المزيد من شيوع أفكارهم ومفاهيمهم. ثم نبه البعضُ الخليفة العباسى المهدى أن خير من يتصدى لهؤلاء هم المعتزلة (أصحاب المدرسة العقلية فى الفكر الإسلامى) وكان الخلفاء قد ألقوا بهم فى السجون لعدم رضاهم عن أفكارهم. أفرج الخليفة عن المعتزلة، فساحوا فى الأقاليم يناظرون الزنادقة، ونجحوا فى أن يردوا معظمهم عن غيهم.

إن الدرس الذى ينبغى تعلمه من هذه الصفحة من التاريخ الإسلامى أن الفكر لا يُقاوَم بالقهر، لكن ينبغى أن يُقَاوم الفكر بالفكر. وهذا ما نصبوا إليه عندما ندعوا إلى تجديد الفكر الدينى، بل هذا هو قصدنا من تأليف هذا الكتاب عن «خرافة الإلحاد» ليكون عونًا فى الوقوف فى وجه المد الإلحادى المعاصر فى بلادنا.

الإلحاد المعاصر

كما ساهمت النزعة العقلانية المادية فى ظهور حركة الزنادقة فى العالم الإسلامى فى القرنين الثالث والرابع الهجْرى، فقد أفرزت نفس النزعة توجهات لادينية فى مصر منذ مدخل القرن العشرين.

لقد مكنت البعثات التى أرسلها محمد على وأبناؤه من بعده المصريين من الاطلاع على ما كان يموج فى أوروبا ـ خاصة فرنسا ـ من توجهات عقلانية مادية ظهرت فيما عُرف بـ«فلسفات التنوير» كما ظهرت فى الأدب العالمى بصفة عامة. كذلك اطلع المصريون على التوابع الفكرية المادية للنظرية الداروينية ولمفاهيم فرويد، والتى لاقت قبولًا واسعًا فى الغرب فى هذه الفترة. كذلك غذى الحلم الماركسى الملحد المتمثل فى نجاح الثورة الروسية أوهام المدينة الفاضلة عند الكثير من الشباب. وقد أفرزت هذه العوامل مجتمعة عددًا من الأنماط الفكرية المعادية للدين.

ويقسم المفكر الكويتى الكبير د. محمد العَوَضى[1] تلك الأنماط المعادية للدين إلى خمس مجموعات، وهم المتشككون والمؤدلَجون (كالماركسيين) والتغريبيون والعلمانيون، وفى آخر

(١) فى محاضرة بعنوان «عودة الوعى»، ألقاها فى المؤتمر الرابع لمؤسسة فور شباب العالمية بالقاهرة، يوم ٢٠١٣/٦/٢١.

المطاف الملاحدة. ويلفت د. العوضى نظرنا إلى أن الكثيرين من هؤلاء اعترتهم صحوة فكرية أعادت إليهم الوعى بأهمية الانتماء الدينى والحضارى والتراثى. ومن أشهر هؤلاء الدكتور عبد الرحمن بدوى والدكتور زكى نجيب محمود والدكتور طه حسين والأستاذ محمد حسين هيكل والدكتور سليمان مظهر والشيخ على عبد الرازق والأستاذ خالد محمد خالد والدكتور مصطفى محمود والدكتور عبد الوهاب المسيرى وآخرين[1].

واستكمالًا لطرح أبعاد خرافة الإلحاد، نعرض لفكر شخصيتين تمثلان نموذجين للإلحاد المعاصر، وهما د. إسماعيل أدهم الذى وُصف «بالمليحد» لموته قبيل بلوغه الثلاثين من عمره ولصغر كتيبه الذى اشتهر به «لماذا أنا ملحد»، وعبد الله القصيمى الذى يعتبره الملاحدة المعاصرون أبًا روحيًّا لهم.

المليحد د. إسماعيل أدهم

تركى الأصل، وُلد بالإسكندرية عام ١٩١١، حصل على الدكتوراه فى الرياضيات من جامعة موسكو بالاتحاد السوفيتى عام ١٩٣١، وعمل مدرسًا للرياضيات بجامعة سان بطرس برج ثم بجامعة أتاتورك فى تركيا، وعاد إلى مصر عام ١٩٣٦. وفى عام ١٩٣٧ نشر المفكر الإسلامى أحمد زكى أبو شادى مقالًا بعنوان «عقيدة الألوهية»، فرد عليه صديقه إسماعيل أدهم بمقال ـ تحول فيما بعد إلى كتيب ـ بعنوان «لماذا أنا ملحد» يشرح فيه معاناته مع الشك وكيف انتهت به إلى تبنى الإلحاد. ويُعتبر أدهم من القلائل فى العالم العربى الذين كتبوا عن تجربتهم الإلحادية فى ذلك الوقت.

يقول إسماعيل أدهم عن تأثير دراسته وحياته بالاتحاد السوفيتى: «كانت نتيجة هذه الحياة أنى تنكرت للأديان وتخليت عن كل المعتقدات وآمنت بالعلم وحده وبالمنطق العلمى. ولشد ما كانت دهشتى وعجبى أنى وجدت نفسى أسعد حالًا وأكثر اطمئنانًا من حالى حينما كنت أغالب نفسى للاحتفاظ بمعتقدى الدينى».

وإذا أردنا تتبع دوافع إسماعيل أدهم الإلحادية، وجدنا للعوامل النفسية دورًا كبيرًا. يبين أدهم فى كتيبه أن أباه كان متعجرفًا وذا بطش، كما كان زوج عمته الذى تابع تربيته يجبره وهو

(١) وعَدَنَا د. محمد العَوَضى بأن يؤلف كتابًا عن تحول هؤلاء الأعلام العرب من الموقف المعادى للدين إلى الوعى بأهمية الانتماء الدينى والحضارى والتراثى.

طفل على القيام بالطقوس الدينية وحفظ القرآن. أما والدته فكانت نصرانية، وتابَعها أختاه فى دينها، وكان يصف الثلاثة بالتسامح والمحبة، وكن فى نفس الوقت يسخرن مما فى الكتاب المقدس من حديث عن المعجزات ويوم القيامة وكن لا يترددن على الكنيسة. ويخبرنا إسماعيل أدهم أن هذا التعصب الإسلامى والسخرية من النصرانية مَثَّلا الخلفية النفسية التى مارس عليها الانبهار بالعلم وبالفكر الماركسى دوره أثناء حياته فى الاتحاد السوفيتى.

وبعد أقل من ثلاث سنوات، وفى إحدى ليالى شهر يوليو عام ١٩٤٠م، عُثر على جثة إسماعيل أدهم طافية على مياه بحر الإسكندرية، وفى معطفه خطاب وجهه لرئيس النيابة يبين فيه أنه انتحر لزهده فى الحياة وكراهية لها، ويوصى بعدم دفن جثته فى مقبرة المسلمين ويطلب إحراقها. أين السعادة والاطمئنان اللذان كان يستشعرهما إسماعيل أدهم أثناء إلحاده؟!

ويمكن أن نلخص المفاهيم الإلحادية عند إسماعيل أدهم فى بضعة نقاط:

- الإلحاد هو الإيمان بأن الكون يتضمن سببه فى داخله، وأن لا شىء وراء هذا العالم».
- لا يرجع إقبال الفكر الإنسانى على مفهوم الألوهية إلى ما فيه من عناصر القوة الإقناعية الفلسفية، لكنه يرجع إلى ما يسميه علماء النفس «التبرير». فقد شَقَّت فكرة الألوهية طريقها لعالم الفكر بسبب ما يعترى النفس البشرية من خوف وجهل بأسباب الظواهر الطبيعية. ولا شك أن معرفتنا لأصل فكرة الألوهية تُذهب بالقدسية التى كنا نخلعها عليها.
- إذا كان لا بد من الأسباب بالنسبة للكون، فلماذا يُستثنى سيادته (الله ﷻ) من مبدأ السببية (أى لا بد أن يكون للخالق خالق!).
- يفسر أدهم وجود كل ما فى الكون بالاحتمالية والصدفة، ويستشهد على ذلك بمثال حروف المطبعة التى يمكن أن تتراص بالصدفة عقب حدوث انفجار بها، لتُخرِج لنا مقالًا أو تُخرج القرآن الكريم.
- يهدى إسماعيل كتيبه «إلى أحرار الفكر، إلى الذين حرروا الفكر من قيوده، وجاهدوا فى سبيل تحرير العقل الإنسانى من الأساطير الدينية والمزاعم الوطنية، والذين أخذوا بيد الجماعات الإنسانية إلى الحياة الصحيحة، أهدى هذا الكتيب، لعلهم يجدون فيه نظرة حرة بعيدة عن تعصب الدين وجموده».

سبحان الله...

أى حياة صحيحة يتحدث عنها هذا المليحد، ربما يقصد المجازر التى قام بها الشيوعيون فى الاتحاد السوفيتى الذى تعلم فيه وتأثر به. إنه نفس التعالى وادعاء التفرد بالنضج العقلى الذى يمارسه الملاحدة الجدد فى القرن الحادى والعشرين. كذلك هى نفس المبررات الإلحادية التى طرحناها عبر فصول الكتاب، وفندنا ما فيها من بريق خادع يتسربل بالعلم. ومن ثم ليس هناك حاجة للمزيد من التفنيد[1].

نكبة عبد الله القصيمى[2]:

عبد الله القصيمى (١٩٠٧ - ١٩٩٦م) مفكر سعودى، من أكثر المفكرين العرب إثارة للجدل، بسبب انقلابه من موقع النصير والمدافع عن الإسلام والسلفية إلى الإلحاد.

لماذا؟...

قُدِّمَت لتحول القصيمى منَ النقيض إلى النقيض وانتقاله إلى معكسر الإلحاد المعاكس عدة تفسيرات، تدور جميعها حول بنيته النفسية. لقد كان القصيمى شكاكًا بطبعه، حتى كانت تعتريه أثناء دفاعه عن الإسلام الشكوك حول الله ﷻ وحول الرسول ﷺ.

كذلك كان الرجل ذا مزاج مندفع متطرف، فهو دائمًا متمرد ثائر بشكل عنيف، يشتم هذا ويلعن هذا ويسخر من هذا ويحطم هذا ويمرغ بهذا. فى البداية كان ذلك ضد أعداء الدين، ثم صار ضد مناصرى الدين.

ويعتبر من يعرفون القصيمى أنه كان من مدمنى ركوب الموجات الفكرية الرائجة. فحينما كانت الفرصة متاحة للموجة السلفية ركبها وانتفع بها حتى استنفذ أغراضه منها: فلما برزت موجات القومية واليسارية والشيوعية وغيرها ركبها واستغل منابرها الصحفية وتحمس لفلسفاتها الإلحادية.

(١) ينبغى الإشارة إلى مناخ حرية الرأى وحرية العقيدة الذى كان سائدًا فى مصر فى ثلاثينيات القرن العشرين، والذى فاق أجواء الحرية فى بلادنا العربية فى القرن الحادى والعشرين. لقد أثار مقال عقيدة الألوهية للأستاذ أحمد زكى أبو شادى المناظرة، فرد عليه صديقه إسماعيل أدهم بكتيب «لماذا أنا ملحد»، فأجابه أبو شادى بمقال «لماذا أنا مؤمن»، كما نشر الأستاذ محمد فريد وجدى فى مجلة الأزهر مقالًا بعنوان «لماذا هو ملحد». لقد تميزت المناظرة بموضوعيتها وبأدب الاختلاف والحوار. قارن ذلك بفوضى تصارع الآراء التى سادت بعد ثورات الربيع العربى.

(٢) تلخيص بتصرف عن مقال فى موقع صيد الفؤاد، للكاتب المُكنى بـ«صخرة الخلاص».

وأخيرًا كان الرجل متكبرًا مغرورًا بنفسه، حتى إنه مدح نفسه شعرًا قائلًا:

ولو أن ما عندى من العلمِ والفضلِ يُقَسَّمُ فى الآفاق أغنى عن الرُسْلِ

يَكشف هذا البيت وحده خبيئة الرجل ويفضح دوافعه الإلحادية.

لم يكف القصيمى ما وصل إليه من شأن فى مجال الدفاع عن الإسلام، إذ شاركه فى هذا المضمار كثيرون، فقرر أن يتفرد فى مجال تميزه. ويتضح ذلك من نظرة واحدة إلى الغلاف الخارجى لكتابه (هذه هى الأغلال)، إذ كتب عليه: (سيقول مؤرخو الفكر أن بهذا الكتاب بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل). يبدو أن مصيبة «الكِبْر» التى أودت بإبليس قد أودت بالرجل.

وعندما سُئل القصيمى عن سبب تحوله، أجاب بأنه عندما بدأ يراجع نفسه وعقيدته بميزان العقل، وجد من المشايخ ورجال الدين كل هجوم وتعنيف وازدراء، بدلًا من التفهم والنصح والتوجيه، فدفعه هذا الموقف إلى العناد. سبحان الله... ما أحكم المصريين حين قالوا فى أمثالهم الشعبية «العند يُوْرِثُ الكفر»، وقد كان!

أى تلك الأسباب يكمن وراء نكبة القصيمى؟ علها جميعها.

قاذورات القصيمى الإلحادية

بعد انحرافه عن جادة الإيمان، كتب القصيمى حوالى عشرة كتب، لا تخرج عن:

- التعدى على الذات الإلهية وسبها بكل فظاظة ووقاحة.
- سب الرسل والأنبياء ووصفهم بأحقر الألفاظ والسخرية منهم.
- السخرية من الشرائع والديانات جميعًا وانتقادها بأسلوب جارح هدام معيب.
- الحط من العرب والتحقير والاستهزاء بكل ما هو عربى.
- الاستخفاف بالقضايا العربية والإسلامية.
- التغنى بآلام الإنسان وتعاسته وأحزانه وهمومه بشكل غريب وفظ.

ليس هناك مفر من أن نستشهد على أفكاره وأسلوبه السابق ببعض كتاباته:

يقول فى كتاب «هذا الكون ما ضميره»، تحت عنوان فى «غار حراء لم أجد الإله ولا الملاك»:

«ذهبت إلى الغار... غار حراء.. غار محمد وإلهه وملاكه... الغار العابس اليابس البائس اليائس... ذهبت إليه استجابة للأوامر... ذهبت إلى الغار الذى وَلَّدَ وَوَرَّث وعَلَّم ولَقَّن وألفَّ وحَرَّض وخَلَّدَ

أقسى وأقوى وأغبى وأجهل وأدوم إلهيات ونبوات وديانات ووقاحات ووحشيات! لقد مات هذا الغار ... لقد مات بأسلوب الانتحار لأنه أوحى إلى الإنسان العربى... إلى النبى العربى ما أوحى... ماذا أوحى إليه؟ لا تستطيع كل الحسابات والإحصاءات أن تحسب أو تحصى الخسران الذى أصاب الحياة والإنسان من هذا الوحى والإيحاء... هل أساء أى إله إلى نفسه مثل إساءته إليها بإيحائه ومخاطبته ومحاورته للإنسان العربى؟!

اسمع يا إلهى... اسمع بآذان غير آذانك التى جربناها وعرفناها... لو كان من صَنَعَ لك يا إلهى أذنيك أعظم فنان... فإنه قد جعلهما بلا وظيفة... بل ضد الوظيفة المفروضة فيهما.

لقد جئت يا إلهى فى حجم ترفض كل الأحجام أن تكونه أو تكون شيئًا منه... إنك يا إلهى بلا أى حجم...

كم هو فظيع أنه لم توجد منظمات ومحاكم عالمية بل كونية يتألف قضاتها وشهودها من كل الشموس والنجوم... كى تحاكم توراة الإنسان وإنجيله وقرآنه على قسوته وفحشه ووقاحته وبلادته!».

ويقول تحت عنوان: لماذا يسارع المتخلفون إلى الدخول فى الإسلام:

«أعلن النبى محمد أنه آخر الأنبياء وأنه بمجيئه قد أغلقت أبواب السماء، لئلا تتصل بالأرض أو تتحدث إليها بالأسلوب الذى تحدثت به إلى الأنبياء... ذلك بعد أن قرأ ورأى وعرف ضخامة وفظاعة عدوان السماء على الأرض وتشويهها لها بإرسال من تسميهم الأنبياء إليها... بعد أن عرف قبح عدوان الأنبياء على الأرض لمعرفته بقبح عدوانه هو عليها.

لو كان الإله يعاقب الوثن على قدر كونه وثنًا لما وُجد أو عُرف عقابًا يكفى لمعاقبة النبى العربى ولمعاقبة النبوة العربية!

كيف وَصَفَ النبى العربى محمد للإله؟ لمكره وخداعه وكبره، ولحبه وبغضه ورضاه وغضبه، ولسروره وكآبته وعداوته وشهواته وممارساته... إنه لم يوجد ولن يوجد هاجٍ مثل النبى محمد فى هجوه للإله!

إن القرآن هو أشهر وأضخم وأقسى وأفدح وأفضح كتاب امتداح وهجاء وافتخار وادعاء... لقد كان وسوف يظل بلا منافس فى فضحه وافتضاحه... القرآن أقبح وأفظع وأوقح وأنذل الأساليب والصيغ».

يكفينا ما نقلنا ... ونعتذر عما نقلنا

لستَ فى حاجة لتعليق أو تحليل أو تفنيد

لعل ما نقلنا يفضح ما يعتمل فى نفس الرجل من كراهية وحقد وغيره من الكمالات... لعله يثبت ما وصفنا من خلل نفسى... كنت ملحدًا أو غير ملحد، لماذا يجرنى ذلك إلى الانتقاص مما يؤمن به الآخرون ويقدسونه!!

نختم بتعليق المفكر والأديب والشاعر ميخائيل نعيمة على كتاب القصيمى (العَالم ليس عقلًا)، يقول مخاطبًا المؤلف:

«إنه كتاب هدم ونفى من الطراز الأول. هدم الآلهة والأخلاق والفضائل والثورات والمثل العليا والغايات الشريفة، لا عجب فأنت فى أول فصل تنفى أن يكون لوجود الإنسان أى معنى، والذى لا يعرف لوجود الإنسان ولعبقريته أى معنى كيف يكون لكلامه أى معنى؟

إن قلمك ليقطر ألمًا ومرارة واشمئزازًا وحقدًا، ولو كان لمثل حقدك أن يصنع قنبلة لكانت أشد هولًا من قنبلة هيروشيما».

مات القصيمى طريح الفراش فى إحدى مستشفيات القاهرة. يدعى البعض أنه تاب إلى ربه قبل أن يموت. تاب أم لم يتب، إنه الآن بين يدى ربه...

الإلحاد فى بيوتنا

يتردد فى الإعلام العربى (والمصرى بصفة خاصة) أن مدًا إلحاديًا ظهر بين الشباب العربى فى الفترة الأخيرة، فما نصيب هذه الأقوال من الحقيقة؟

ليس لدينا دراسات إحصائية دقيقة للإجابة عن هذا التساؤل[1]، لكن انطباعى الشخصى يؤكد وجود هذا المد. ففى العامين الماضيين حاورت عشرات الشباب الملحدين والمتشككين، كما علمت بيقين وجود مجموعات إلحادية فى الجامعات والمدارس (حتى الإسلامية والمسيحية منها)،

(١) أجرى معهد جالوب الأمريكى دراسة فى أعوام (٢٠٠٦ - ٢٠٠٨م) شملت ١٤٣ دولة واشتملت على ١٠٠٠ شخص من كل دولة. وذكرت الدراسة أن المصريين أكثر شعوب العالم تدينًا بنسبة ١٠٠٪، وأستونيا أقلهم بنسبة ١٤٪، وتلى مصر بنجلاديش ثم المغرب وجيبوتى والإمارات العربية المتحدة.
كذلك نشرت صحيفة الواشنطن بوست فى ١٥/ ٦/ ٢٠١٣ نتائج دراسة أجراها معهد جالوب الدولى Win Gallup (وهو غير معهد جالوب الشهير) عام ٢٠١٢ على خمسين ألفًا من الأشخاص فى ٥٤ دولة حول موقفهم العقائدى. أظهرت الدراسة أن ٥٩٪ من العينة متدينون، ٢٣٪ غير متدينين، ١٣٪ ملحدون. وكانت أعلى نسبة للإلحاد فى الصين، بينما ارتفعت النسبة بين عامى ٢٠٠٥ و ٢٠١٢ فى باكستان من ١٪ إلى ٢٪، وهبطت فى ماليزيا من ٤٪ إلى صفر، وبذلك تصبحان أقل الدول إلحادًا.
والمدهش أن الدراسة ذكرت أن نسبة الإلحاد بلغت ٦٪ فى السعودية، وبذلك تصبح فى مقدمة دول العالم الإسلامى! كما تضاهِى نظيراتها فى البلدان الأوروبية العلمانية مثل بلجيكا!.
ولا شك أن هاتين الدراستين تنقصهما الدقة العلمية إلى حد كبير، فالاكتفاء بعينات من ألف شخص من كل دولة ـ لا ندرى كيف تم اختيارهم من مختلف الأوساط العلمية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية ـ لقياس ظاهرة التدين شديد الشيوع يُفقد أى دراسة موضوعيتها ويسمها بالانتقائية وعدم الحيادية وربما سوء القصد.

حيث يوزع البعض أوراقًا على الطلبة تحمل هذه الأفكار، وأيضًا فى النوادى ومختلف التجمعات الشبابية. هذا بالإضافة إلى استحداث عشرات من المواقع الإلحادية العربية على الإنترنت، بل وإصدار مجلات ومطبوعات إلحادية تشكيكية فاخرة الإخراج تُوزع فى مختلف الدول العربية. وقد سجل أحد أكبر المواقع العربية الإلحادية أن الأسبوعين الأخيرين من شهر ديسمبر ٢٠١٢ شهدا انضمام ٣٥٠ شابًا مصريًا ملحدًا جديدًا إلى الموقع، وكان نصف هذا العدد من الفئة العمرية ١٥ - ٢٥ سنة.

خلفيات الموجة الإلحادية

لا شك أن شبكة المعلومات (الإنترنت) قد يسرت اطلاع الشباب على ما يموج به العالم من أفكار إلحادية، كما سمحت شبكات التواصل الاجتماعى المختلفة بتبادل هذه الأفكار بينهم. وقد تزايد هذا المد الإلحادى بعد ثورات الربيع العربى، ويرجع ذلك إلى نجاح الشباب فى تحديهم لرموز السلطة فى هذه البلاد، مما شجع بعضهم على تحدى الرمز الأكبر متمثلًا فى منظومة الألوهية والدين، كما سمح جو الحرية الذى أتاحته الثورات بالبوح بهذه الأفكار. ولا شك أن فشل تجربة الإسلام السياسى (خاصة فى مصر) سيؤدى إلى انعكاسات سلبية فى هذا المجال.

فى الجانب الآخر، عجز الخطاب الدينى التقليدى عن مجاراة ما تموج به الأوساط الإلحادية من أفكار وحجج علمية وفلسفية، بسبب اكتفائه بالطرح التراثى وانقطاعه عن المستجدات العلمية والحضارية. وتشير دراسات عديدة إلى أن الفكر الدينى القاصر هو أهم أسباب المد الإلحادى المعاصر فى بلادنا العربية.

تضعنا هذه الخلفيات أمام مسارين لا ثالث لهما. الأول هو «المسار الغربى الكنسى» الذى تصادم فيه الدين مع العلم والعقل، فأفرز حضارة مادية ملحدة عاتية، هى الأولى فى تاريخ الإنسانية. والمسار الثانى هو «المسار الشرقى» الذى تبنته الخلافة العباسية فى القرنين الثالث والرابع الهجريين، حين ظهرت الفلسفات المناوئة للإسلام وللألوهية، فكان الحل هو استدعاء خطاب دينى جديد للتصدى لهؤلاء المناوئين متمثلًا فى فكر المعتزلة العقلانى، وعلينا أن نختار.

الإلحاد السفسطائى وأنماطه

تدور حجج الإلحاد فى الفكر الغربى حول القضايا العلمية الخاصة بخلق الكون وظهور الحياة ونظرية التطور الداروينى والأبحاث الحديثة فى شتى المجالات العلمية، مما يُسَوِّغ تسميته

بـ«الإلحاد المادى الطبيعى». أما الفكر الإلحادى بين شبابنا فدور هذه القضايا العلمية فيه قليل، بينما للانطباعات العامة فيه دور كبير، كما أن للخلفية النفسية فيه دورًا كبيرًا أيضًا.

وتقف وراء الإلحاد الذى ظهر بين شبابنا «مفاهيم ونماذج معرفية[1] مختلة Paradigm Errors» تختلف من مجموعة لأخرى، يمكن أن نطلق عليها جميعًا اسم «الإلحاد السفسطائى». وسأعرض فيما تبقى من الفصل أنماط وأسباب الإلحاد السفسطائى بين الشباب فى بلادنا، وذلك من خلال ما لمسته بتجربتى الشخصية، سواء فى محاوراتى ومناظراتى معهم أو متابعتى لمواقعهم وكتاباتهم. وقد أطلقتُ على كل نمط إلحادى وخلل فى النموذج المعرفى اسما يُعَبِّر عن سماته ويميزه عما سواه. وقد فندنا الكثير من هذه الأنماط خلال فصول الكتاب السابقة، لذلك سنكتفى هنا بالاختصار عند عرضها وتفنيدها:

١- الإلحاد الصبيانى

اعتدنا فى صبانا أن نتحاور مع أقراننا، وكان كلٌّ منا يحرص على استعراض قراءاته وإظهار ثقافته، وكنت كثيرًا ما أطرح على محاورىَّ سؤالًا: إذا كان الله قد خلق الكون، فمن خلق الله؟[2]

وبالرغم من أن هذا التساؤل الصبيانى قد قُتل بحثًا، وحُسم على أيدى علماء الكلام المسلمين منذ ألف سنة، وأيضًا على أيدى رجال اللاهوت فى المسيحية، فإن الملاحدة فى بلادنا وعبر العالم يعتبرونه الحجة المحورية فى إلحادهم. ولا يقوم بهذا الطرح الصبيان فقط، بل كثير من الكبار أيضًا، حتى إن ريتشارد دوكنز يُقيم كتابه «وهم الإله» على هذا التساؤل!.

وملخص تفنيد هذه الحجة الإلحادية، أن كل موجود حادث لابد له من موجد (سبب)، وإذا تسلسلنا فى الأسباب لأعلى فسنصل حتمًا لسبب أول وراء كل الحادثات ينبغى ألا يكون له موجد، ويطلق علماء المنطق على استحالة التسلسل إلى ما لا نهاية اصطلاح «التسلسل يمتنع»، ومن ثم يصبح السؤال عن سبب السبب الأول الذى لا سبب له سؤال غبى!. وإذا كنا لا نستطيع «تصور» موجود لا موجود له، فإن هذا «الدليل العقلى المنطقى» (التسلسل يمتنع) وكذلك «الدليل العلمى» المتمثل فى احتياج الكون والحياة والإنسان إلى مصمم ذكى «يحتمان» الإقرار العقلى بالإله كموجد أول.

---

(١) النموذج المعرفى هو العدسات التى يرى الإنسان من خلالها الحياة، ويمكن تسميتها بـ«المفاهيم الحاكمة».
(٢) يبدأ د. مصطفى محمود كتابه «رحلتى من الشك إلى الإيمان» بموقف مشابه كان يمارسه فى صباه... لا شك أن الميول الصبيانية تتشابه.

إذًا فقضية الإله الأزلى تُتَعقل وإن كانت لا تُتَصور[1]. بل إن العلم المعاصر يقدم لنا مفاهيم لا يمكن تصورها ولكن ينبغى تَعَقُّلها إذ يؤكدها البرهان الرياضى، مثال ذلك ما تخبرنا به نظرية الكوانتم من أن الجسيم تحت الذرى يمكن أن يكون فى أكثر من موضع فى وقت واحد!.

٢- إلحاد المراهقين:

تُعتبر فترة المراهقة من أحرج الفترات فى حياة الإنسان. ففيها يبدأ المراهق فى الشعور بذاته والثقة بنفسه وعقله، فيعتبر آراءه وأحكامه العقلية هى المرجعية التى يقرر فى ضوئها صواب وخطأ الآخرين، بل ويجعل من نفسه ندًا للكبار فيتمرد عليهم ويرفض ما لا يروق له من آرائهم وأفكارهم، كما تسيطر عليه الرغبة فى الظهور. وقد أفرزت هذه الصفات (سواء تَخَلَّقَ بها المراهقون أو الكبار) عددًا من الأنماط الإلحادية، فاستحقت أن نطلق على كل منها اسمًا:

أ- إلحاد الندية والكِبر:

ينظر المراهق (سواء كان فى سن المراهقة أو كان كبيرًا مثل دوكنز) إلى الإله باعتباره رجلًا ذا قدرات خارقة (سوبر مان)، فيحكم على أفعال الإله بمقارنتها بأفعاله هو.

فى المناظرة التى دارت بينى وبين قطب إلحادى، والتى أذاعتها إحدى الفضائيات، قال الملحد: فى يوم من الأيام قتلتُ باعوضة وتحديت الإله - إذا كان موجودًا - أن يقبل التحدى وأن يحييها!. يُعتبر التحدى لإحياء الموتى أحد أشكال الندية والكبر، وقد طرحه ملاحدة الأمم الغابرة على أنبيائهم، وكنت أظن أنه قد انقضى بانقضائهم، فإذا بالملاحدة المعاصرين يمارسونه بغباء. كيف يصير الأمر لو استجاب الله ﷻ لكل تحدٍ يطرحه ملحد؟ لا شك أن الحياة ستصير مهزلة، ويصبح الملحدون هم الآلهة[2].

ومن أمثلة الندية الخرقاء شكوى البعض من أن ليس هناك «عقد» بيننا وبين الإله يضمن أنه سيوفى بوعده لنا بالجنة إن أطعناه!.

ويؤدى الشعور بالندية إلى فرض تصوراتنا على الإله، من أمثلة ذلك تساؤل البعض: ما الذى يستفيده الإله من عبادتنا له طوال عمرنا؟ لهؤلاء قلت: إن قواعد المنظومة (أو اللعبة كما يقولون) يضعها الإله الخالق، وليس للعبد المخلوق إلا الطاعة والالتزام. فأنت إذا شاركت فى لعبة كرة القدم مثلًا عليك الالتزام بقوانينها، ولا تستطيع أن تطبق فيها قواعد لعبة كرة اليد!

(١) فصلنا هذا المعنى فى الفصلين التاسع والرابع عشر.

(٢) فندنا هذا التحدى بالتفصيل فى الفصل العاشر عند حديثنا عن منهج ريتشارد دوكنز الفلسفى.

وفى كل الأحوال فإن طاعاتنا لا تزيد فى مُلك الله ﷻ ولا تنقص منه معصيتنا شيئًا، والعبد هو المستفيد الأول والأخير.

ب ـ إلحاد التمرد:

فى مناظرتى التى بُثَّت فضائيًا، أراد الملحد إظهار إعلائه لقيمة الحرية، فقال: **إنى مستعد أن أدخل النار حرًا ولا أدخل الجنة عبدًا للإله!** إن تمرد هذا الملحد ليس بسبب اعتزازه بالحرية ورفض العبودية، فقد خاطب رفيقته من خلال موقعه على شبكة المعلومات قائلًا لها «معبودتى»! إنه تمرد على العبودية للإله بالتحديد.

إن جوهر المشكلة التى تولد إلحاد الندية والكبر وكذلك التمرد، إنه **لا يمكن قياس علم وأفعال الإله المطلق الأزلى الأبدى الذى لا يحده الزمان ولا المكان ولا منظومة الأسباب على علم وأفعال الإنسان المحدود المحكوم بالأسباب.** وقد أدت هذه الفوارق إلى أن الإله ليس كمثله شىء، أى أنه مختلف تمامًا عن البشر، ومن هذه الاختلافات أنه لا يفعل لغاية أو احتياج مثلما يفعل الإنسان.

لقد سقط إبليس اللعين فى هذه الخطيئة المعرفية، فتمرد على الإله، وجعل من نفسه ندًا له وَحَكَمًا على أوامره ﷻ ورفض السجود لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بدعوى مخالفة أوامر الله ﷻ لمنطقه الإبليسى؛ فإبليس من نار وآدم من طين!.

جـ ـ إلحاد خالِف تُعرَف:

أخبرنى الأب أن ابنه فشل فى تحقيق ما حققه أخوته من تفوق فى مجال الدراسة، وأخيرًا مال إلى الحديث مع الآخرين فى قضايا الألوهية، ثم تبنى الإلحاد بشكل كامل. وعندما حاورت الفتى لمست فخره بأن ذلك جعله حديث المدرسة، طلابها ومدرسوها، وجعله يجالس ويحاور عددًا من العلماء والمفكرين بعد وساطة والده على أمل أن يردوه عن إلحاده.

إن مخالفة أعراف المجتمع ومفاهيمه وقيمه المستقرة هى أيسر الطرق لتحقيق ذيوع الصيت والشهرة بين الأقران وأمام الآخرين[1].

(١) يجسد هذا المعنى موقف الدكاترة زكى مبارك. فقد هاجم الإمام الغزالى فى رسالته للماجستير التى كان عنوانها «الأخلاق عند الغزالى». وبعد أن صحح ذكى مبارك مساره وأدرك قيمة المنهج الإسلامى كتب فى مقدمة رسالته للدكتوراه وموضوعها «التصوف الإسلامى»: «إليك أعتذر أيها الغزالى، قصدت مهاجمتك حتى أشتهر، فالشهرة قد تأتى على أكتاف العظماء». عن كتاب «المعارك الأدبية، للأستاذ أنور الجندى».

د- إلحاد الاستغناء:

شكى لى الوالدان أن ابنهما قد تبنى الإلحاد ويدعوهما إليه، وأنه يرفض أن يتحاور مع أحد؛ لأنه «مبسوط كده». أرسلت إلى الفتى مع والديه؛ أدعوه لمحاورتى، فإن أقنعنى برأيه سأدعم موقفه وأقنع به والديه. أما إن كان على خطأ فليعلم أن تمسكه بموقفه سيكلفه ما لا طاقة له به فى الدنيا والآخرة. وافق الفتى على دعوتى، والتقينا. قال لى: إن حياتى سعيدة مستقرة مع إلحادى، فلماذا أشغل نفسى بقضية الألوهية والدين فى الوقت الذى لا أشعر بحاجة إلى الإيمان بها؟

قلت له، ما تقول فى الطالب الذى لا يستذكر دروسه؛ لأن حياته سعيدة مستقرة دون مذاكرة؛ ولأنه لا يشعر بحاجة لبذل الجهد والمعاناة فى ذلك؟. إن هذا الطالب لا يستحضر أن هناك عواقب لحياته السعيدة تلك! ألا ينبغى على والديه ومدرسيه أن يوجهوه إلى ما فيه مصلحته، حتى وإن كانت المذاكرة على غير هواه، وحتى إن كان لا يدرك أهمية ذلك الآن؟.

وأضفت؛ لا ينبغى أن يحيا الإنسان تبعًا لما يحقق له السعادة وفقط، ولكن ينبغى أن يحيا تبعًا لما يمليه عليه العقل، وينبغى أن يحدد كيف يكون مساره بعد أن يدرك مصدره ومآله. وأنهيت التمهيد للجلسة قائلًا: إن الحياة تبعًا لما يمليه «الهوى» هى حياة المراهقين، أما حياة الناضجين فتتبع العقل، ومن ثم فإن «الاستغناء» الحالى ليس مبررًا لعدم الإيمان.

اقتنع الفتى بمنطقى وَقبِل أن يدخل معى فى حوار.

٣ - إلحاد الربوبية:

يشبه هذا النمط من الإلحاد ما كان سائدًا فى مكة وقت البعثة المحمدية. فقد كان معظم القرشيين يؤمنون بوجود الإله لكنهم ينكرون أن يكون قد أرسل رسولًا ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت].

فيقول هؤلاء: نقر بوجود الإله، أما الأديان فادعاءات سببت كل ما فى الدنيا من شقاء، ولا حاجة لنا بها. ويضيف آخرون: ما دليلكم على أن الإله قد خلقنا لغاية، لِمَ لا يكون قد خلقتنا وتركنا؟ وكيف ينشغل بتفاهات مثلنا؟ هل هو فى حاجة إلينا؟.

أجبت هؤلاء: إن الإنسان إذا أقدم على فعل شىء دون سبب عددناه أبلهًا، فهل يُعقل أن يخلق الإله الوجود والإنسان دون حكمة أو غاية؟!.

وأضفت: أن الباحث عن الحقيقية يرحب بأى عون يأتيه، لذلك كان خليل الرحمن

إبراهيم عليه السلام (وغيره من الأنبياء والمرسَلين) يتفرس في السماء باحثًا عن الإله، وفي النهاية قال: ﴿...لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنعام].

وإذا كنا مخلوقين لغاية ألا يكون من الظلم ألا نُوَجَّه إليها عن طريق الديانات السماوية.

وحقيقة الأمر أن «القائلين بالربوبية المنكرين للديانات» هم و«الملاحدة» سواء بسواء، إذ إن إنكار الدين يُفرغ الألوهية من جوهرها؛ الذى هو تكليف الإنسان عن طريق الدين بأوامر ونواه، وما يعقب الموت من بعث وحساب وجزاء[1].

٤ - إلحاد الجبر والتسيير:

قال بعضهم: كان ينبغي على الإله أن يأخذ رأيي قبل أن يخلقني! وبأي حق يحاسبني إن لم أعبده، ألستُ حُرًّا؟ «إزاى يحاسب واحد على لعبة هو مش عاوز يلعبها»؟

لهؤلاء قلت: لو مش عاجبك أنسحب من اللعبة! قال: كيف؟ قلت: بالانتحار! وليس هناك عاقبة تخشاها فأنت لا تؤمن بالبعث والحساب. وأضفت: إن عدم إقدامك على الانتحار هو أكبر دليل على رضائك عن خَلْقِه لك، حتى إنك قبل أن تعبر الشارع تنظر يمنة ويسرة عدة مرات حفاظًا على حياتك. أَفْحَمَته حجتي فقال: ربما يكون هناك شيء مما تقول، عندها سيعذبني إلهك، إنه يعاملنا كالعبيد. قلت له: أخيرًا وصلت إلى الحقيقة. فعلاقة الله بنا هي علاقة السيد بالعبد، وهذا ما تحاول دائمًا التملص منه بادعاء الندية. والعدل يقتضي أن يكون الإله الرحمن الرحيم أيضًا منتقمًا جبارًا مذلًا. وأضفت، إن الإسلام يتبنى هذا المفهوم الذى يجمع بين الجمال والجلال، ولا يكتفي بأن «الله محبة» كما يعتقد المسيحيون، أو أنه «غضوب» فقط كما يعتقد اليهود. فلله الأسماء الحسنى جميعًا، جمالها وجلالها، ومن لم يعرف ذلك فمعرفته بالإله ناقصة.

وشكى بعضهم أن الإله يحاسبنا على اختياراتنا بالرغم من أنه فرض علينا أشياء، كالعائلة والبلد والمرض وأحداث كثيرة مما يمر بنا. قلت لهؤلاء: إن الله لا يحاسبنا على هذه الأشياء، الحساب لا يكون إلا على ما فيه مجالًا للاختيار، ويرجع ذلك إلى أن حرية الإنسان مقيدة وليست مطلقة، ذلك لأن قدراته ليست مطلقة، فحرية الإرادة بقدر المقدرة، لذلك تزداد حرية الإنسان في عمله بقدر ارتقائه في السلم الوظيفي، أليس كذلك؟!.

(١) نتعرض لهذا المفهوم بالمزيد من التفصيل في الفصل الرابع عشر.

ويتهم الملاحدةُ المؤمنينَ بأنهم جبريون، إذ يؤمنون أن الله دَوَّنَ كل ما سيقع حتى يوم القيامة فى لوح محفوظ وأننا ملزمون بأن نتبع ما دَوَّنه، ويرى الملاحدة أن هذا جبر محض وظلم بَيِّن. قلت لهؤلاء: إن «العلم الإلهى» الذى لا يحده الزمان كاشف لما سيحدث وليس مُلزِمًا. ولنوضح ذلك نضرب مثالًا: تصور إنسانًا اخترع آلة الزمان، وتقدم بها مائتى عام فى المستقبل، ورأى ما سيفعله أحفاده، ثم عاد لزمانه ودَوَّنَ ما رأى، هل ما دَوَّن الرجل مُلزِم لهم أم أنه دَوَّن ما صدر منهم بالفعل. هذا هو حال العلم الإلهى الكاشف. ولا يتعارض ذلك مع إرادة الله ﷻ المطلقة، فقد أراد الله ﷻ أن تكون لنا إرادة.

٥ - إلحاد الإله العاجز:

قال لى الشاب الملحد، وقد علت وجهه ابتسامة خبيثة: هل يستطيع إلهك أن يخلق إلاهًا أكبر منه أو أقوى منه؟ وهل يستطيع أن يخلق صخرة لا يستطيع حملها؟

ظن ذو الابتسامة الخبيثة أنه قد وضعنى فى مأزق؛ فإن قلت إن الله ﷻ يستطيع، فإنى بذلك أنفى أنه الأكبر والأقوى. وإن تهربت من هذا الاستنتاج بأن قلت إنه لا يستطيع، كنت أُثبت على إلهى العجز، حاشاه.

قلت للشاب، إن كلًّا من سؤاليك ينطوى على تعارض بديهى، ومن ثم يناقض نفسه ولا يجوز طرحه. وأضفت، إنك تطلب مستحيلات عقلية، كأن ترسم دائرة مربعة! فكيف تطلب أن يخلق الله إلاهًا (سواء أكبر وأقوى أو أصغر وأضعف) بينما الإله لا ينبغى أن يكون مخلوقًا؟! وكيف تطلب أن يخلق صخرة لا يستطيع حملها، بينما كل مخلوق يستمد صفاته من خالقه، ولا يمكن بداهة أن يكون الفرع والجزء أكبر من الأصل والكل. إن سؤاليك سؤالين مستحيلين عقليًّا.

اختفت الابتسامة الخبيثة وعلا الشحوب وجه الشاب.

٦ - إلحاد الإله المخادع:

قال الملحد: تَدَّعون أن الإسلام هو الدين الحق، فكيف يرسل الإله لأقوام رسلًا بديانات فاسدة؟ ولماذا ركز الديانات كلها فى منطقة الشرق الأوسط بينما حَرَمَ أقوامًا آخرين من الديانات تمامًا[1]؟. وبعد ذلك يحاسب ربكم البشر ويُدخل النار أقوامًا لا ذنب لهم. إن إلهكم الذى تَدَّعون إله ظالم مخادع.

(١) يُسمِى بعضُ الملاحدة ذلك: «سوء توزيع الديانات»!

لقد جهل هؤلاء بديهيات الدين، فالرسالات السماوية جميعها هى الإسلام، ليس فيها دين حق ودين باطل، وقد كُلِّفَ أتباع الرسالة الخاتمة أن يبينوا لأصحاب الرسالات السابقة ما اعترى رسالاتهم من تحريف.

كذلك لم يترك الله ﷻ أمة دون أن يرسل لها رسولًا ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ... ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل]، بل ما كان الله ليعذب من لم تصله الرسالة ﴿ ... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء].

إن الله ﷻ ليس بمخادع، بل الملاحدة هم الذين يخدعون أنفسهم.

٧ - إلحاد الإله الظالم القاسى[1]:

يبلغ الإلحاد السفسطائى مداه بادعاءات تصف الإله بالظلم. فيقول بعضهم: كيف يعاقب إلهكم الرحمن الرحيم الإنسان على معاصٍ يرتكبها فى حياته القصيرة (وإن كثرت) بعذاب أبدى لا يحتمله بشر.

قلت لهذا المعترض: ولماذا لم يدهشك عِظَم الثواب والنعيم فى جنات تخلد فيها مقابل طاعات قليلة؟! إن حجتك تصبح ذات قيمة إذا كان عِظَم العقاب يقابله فقط النجاة من العقاب فى حالة الطاعة، إلا أن عظم العقاب يقابله عظم الثواب. ولم يكتف الإله بذلك، بل دلك على طريق الجنة وأعانك على السير فيه وتعهد بأن يُبَدل سيئاتك حسنات فى حال التوبة من المعاصى. وأضفت: إن الإنسان إذا سب كلبًا أزعجه فله العذر، أما أن يُهين والديه فلا عذر له. أعنى لا تنظر فقط إلى عِظَم المعصية، لكن انظر فى حق مَن أُرتكبت المعصية.

أجابنى الشاب الملحد قائلًا: لقد تكررت كلمة العذاب بمشتقاتها فى قرآنكم قرابة أربعمائة مرة، ربما أكثر من أى كلمة أخرى، أليس هذا دليلٌ على القسوة الشديدة؟. قلت له: إنك تقلب الأمور وتجعل الرحمة قسوة، أما كان ينبغى أن تقول إن الله حذرنا أربعمائة مرة، وفى كل مرة وصف لنا طريق النجاة. وضربت لذلك مثالًا: ما قولك فى أم تنبه أولادها ـ كلما خرجوا من المنزل ـ أن يأخذوا حذرهم عند عبور الطريق؟ هل تصف هذه الأم بالقسوة لأن تحذيرها يجعل أولادها يستحضرون فى أذهانهم احتمال الإصابة فى حادث؟! أم أن سلوك الأم هو عين الحب والرحمة؟.

وأضفت قائلًا: هل تنتظر من الله ﷻ أن يربت على أكتاف حفنة الشيوعيين (ستالين

(١) تعتبر «مجادلة الشر والألم» أحد أمثلة إلحاد الإله الظالم القاسى. ولمنزلتها المحورية فى الفكر الإلحادى (خاصة الغربى) سنفرد لها عرضًا منفصلًا فى الفصل الرابع عشر.

وماوتسى تونج و...) الذين قتلوا قرابة ٩٤ مليون شخصًا لينشروا مذهبهم الإلحادى الفاسد؟! وهل تنتظر من الله ﷻ أن يلتمس العذر لهتلر الذى قتل قرابة ثلاثين مليون شخص لأن حياته كانت قصيرة؟!.

أصر الشاب على عناده وقال: كيف يطلب إلهكم من نبيه إبراهيم أن يذبح ابنه، أى قسوة تلك أن يُطلَب من أب مُسن أن يذبح وحيده الذى رُزق به على كِبَر؟ قلت له: هل طُلب منك مثل ذلك؟ أجابنى بلا. قلت: وهل طُلب ذلك من إنسان آخر سوى إبراهيم؟ فقال لا. فعقَّبت شارحًا الموقف: إن إبراهيم عليه السلام ادعى (عن حق) أن ليس أحدٌ أو شىء أحب إلى قلبه من الله ﷻ، فكان طبيعيًا أن يُختبر فى هذا الادعاء السامق بمثل هذا الطلب القاسى، وقد كان الطلب ذبحًا لتعلق إبراهيم بابنه. وما كان الله ﷻ ليدع إبراهيم يقتل وحيده، بل كان جزاء إخلاص إبراهيم عليه السلام أن صار خليلًا للرحمن وأن أصبح موقفه هذا عيدًا تحتفل به البشرية كل عام حتى يوم القيامة.

وأضفت: بعد ذلك كله، فإن قسوة الإله وظلمه ليست حجة ضد وجوده، بل قد تكون حجة ضد رحمته، ومن ثم فهى ليست حجة للإلحاد. وحاشا لله أن يكون ظالمًا أو قاسيًا، بل حاشاه أن يكون عادلًا! فهو الرحمن الرحيم. لكنها الرحمة الحقيقية الإلهية المطلقة، وليست رحمة الضعف البشرى، فلا ينبغى أن نقيسها بمقاييسنا.

٨ – إلحاد التعنت والسَّفَه:

قال الشاب لى: كيف يعطينى الإله غرائز ثم يطالبنى ألا أستعملها؟ وكيف يطالبنى أن أخسر نقودى باسم الزكاة، وأن أخسر وقتى وجهدى باسم الصلاة، وأن أخسرها جميعًا باسم الحج والعمرة؟

قلت له: إن الإنسان ليس بهيمًا تحركه الغرائز فقط. إن ما طُلب منا هو توجيه هذه الغرائز وترشيدها، وفى ذلك ترقية للنفس وسمو للروح.

إن الملاحدة إذ يدعون إلى إطلاق الغرائز يشبهون الصبية الذين يريدون أن يتفرغوا للعب وفقط، بينما يُلزمهم والداهم بإنفاق بعض الوقت فى مذاكرة دروسهم لما فى ذلك من مصلحة لاحقة.

وإذا كان الماديون يرفضون إنفاق بعض المال والوقت والجهد فى سبيل الله ويعدون ذلك سفهًا، فما بالُ فريقٍ منهم ينفقها فى سبيل المجتمع استجابة لتعاليم الشيوعية؟!

٩ - إلحاد عدم التصور:

قال لى شاب ملحد: لا أستطيع تصور الإله الموجود الذى لا موجد له، ولا الموجود الأزلى الأبدى، ولا الموجود فى كل مكان ولا مكان، ولا أتصور أن يكون للإنسان إرادة مع طلاقة الإرادة الإلهية. ثم أردف قائلًا: كيف تطالبنى أن أؤمن بإله أنا عاجز عن تصوره وتصور أفعاله.

نكرر هنا أن أُس البلوى فى قضية الإلحاد هو أن نزن العلم والفعل الإلهى المطلق بميزان العلم والفعل البشرى المحدود. هنا تنشأ عدم القدرة على التصور ومن ثَمَّ يحدث الإنكار.

١٠ - إلحاد المحامى الفاشل:

من أقوال الشيخ محمد الغزالى التى أصاب بها كبد الحقيقة ـ وما أكثر ما فعل ـ قوله: إن الإسلام قضية حق محاميها مقصر خائب. إن كثيرًا ممن حاورت من الملاحدة الشباب عاتِب بشدة على الخطاب الدينى، خاصة بعد ثورات الربيع العربى، وعاتب أيضًا على أداء تيار الإسلام السياسى، وكانت الخطوة التالية أن حَمَّل الإسلام كدين أخطاء هذه الممارسات.

إنه خطأ معرفى أن أُعمم التقصير، فأنتقل به من عيب الممارسة إلى عَوَار المنظومة كلها. ما أشبه ذلك بمريض حدثت له مضاعفات صحية عقب عملية جراحية، فأصبح يُشكك ليس فقط فى قدرة الأطباء والجراحين بل وفى جدوى الطب والجراحة.

١١- إلحاد تحصيل الأهداف:

قال لى: أليس الغرض من الأديان حث البشر على تعمير الأرض، وحثهم على أن يعامل بعضهم بعضًا بخُلق حسن؟ وأضاف: نحن نجد أممًا ملحدة تلتزم بهذين الهدفين إلى أبعد الحدود، كما نجد أفرادًا ملاحدة أكثر التزامًا بالهدفين من كثير من المتدينين. فما لزوم الدين؟ وكيف يدخل رجال عظماء قدموا للبشرية خدمات جليلة مثل نيوتن وفولتا وماكسويل وأينشتين النار؟[١]

قلت له: هذا الادعاء من أكبر الأخطاء وأكثرها شيوعًا عن دور الدين. إن تعمير الأرض والخُلق الحسن ليسا هدفين للدين لكنهما فى الحقيقة وسيلتان! فهدف الدين أن يُعَرِّف الإنسان بربه أولًا، ثم بمصدره ومساره ومآله، ولا يتحقق حُسن المآل إلا بتحصيل رضا الله ﷻ. والسبيل إلى تحقيق ذلك تعمير الأرض والخُلق الحسن، بشرط أن تكون أفعال العبد ابتغاءَ

(١) هؤلاء العلماء الأربعة الكبار الذين استشهد بهم الملحد كانوا عميقى الإيمان بالله ﷻ!!

لمرضاة الله ﷻ. أما إن لم نضع هذه الغاية فى اعتبارنا، فستظل أفعالنا ـ مهما حسنت ـ بعيدة عن أن تحقق للإنسان حسن المآل، وعلى الإنسان أن يُحَصِّل مكافأته ممن عمل لأجلهم.

وأضفت قائلًا لمحاورى: إن ما ذكرتُ لك هو دور الدين الأساسى، أما أن تسألنى عن أشخاص بعينهم أَهُمْ من أهل الجنة أم من أهل النار؟ أجيبك قائلًا إن مفتاح الجنة ليس بيدى أو بيد أحد من البشر، والأمر كله لله ﷻ.

١٢- الإلحاد الحسى:

قال لى فى المناظرة التى أذاعتها الفضائيات: إن الوجود الإلهى قضية فى منتهى الأهمية، ولا بد أن يكون الدليل عليها مناسبًا لها فى القوة، لذلك ينبغى أن يكون دليلًا حسيًّا أو تجريبيًّا. بل إننى إذا التقيت بالإله فى الطريق وصافحنى فذلك غير كاف! فعليه أن يثبت لى أنه هو الخالق وهو الرازق وهو المحيى وهو... كيف تريدنى أن أصدق شيئًا لم أره؟.

قلت له: إن كلامك هذا ملىء بالأخطاء العلمية، فالدليل الحسى الذى تطلبه هو أضعف الأدلة! فالحس خادع. ألا ترانا نبصر قوس قزح ونبصر السراب وهما ليسا موجودين! وفى نفس الوقت فإننا لا نبصر أشياء أثبت العلم وجودها، كالجاذبية والثقوب السوداء. أما الدليل التجريبى فلا يُستخدم إلا فى العلوم التجريبية كالفيزياء والكيمياء، وعندما تطلبه فى قضية الألوهية فإنك تطلب دليلًا فى غير موضعه، كالذى يريد أن يبصر بأذنيه! [1] لذلك فإن الأدلة الأقوى فى الاستشهاد على الألوهية هى الأدلة الرياضية والعقلية.

أما إذا التقيت بالإله وأحيا أمامك الموتى فستقول إن ذلك لا يدل على الألوهية، فالعلم قد يثبت فى المستقبل أن ذلك ممكنًا! وقد سبق أن قال أمثالك عن أنبيائهم الذين قدموا لهم هذه المعجزات أنهم سحرة. فالعلم المستقبلى بالنسبة لك هو إله سد الثغرات الذى تقول به كلما واجهت دليلًا على الألوهية لا يمكنك رده.

١٣- إلحاد الشهوات[2]:

يُبتعَث الكثير من شبابنا إلى دول العالم الغربى والدول الشيوعية (سابقًا)، ويعاينون نمطًا من الحياة تحتل فيه العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج موضعًا محوريًّا باسم الصداقة والحب.

(١) عرضنا أنواع الأدلة العلمية ومدى حجيتها فى الفصل الثانى.

(٢) أطلق الشيخ عبد الحليم محمود، شيخ الجامع الأزهر الأسبق، على هذا النمط من الإلحاد اصطلاح إلحاد البطن والفرج.

كذلك فإن هذا النمط من الحياة يدخل بيوتنا عن طريق الإعلام والسماوات المفتوحة، كما تعرض المواقع الإباحية على الشباب كَمًّا كبيرًا من المثيرات.

نتيجة لذلك، يَطُوق بعضُ شبابنا إلى هذا النمط من الحياة. وقد تُمثل التنشئة الدينية حاجزًا أخلاقيًا وعبئًا نفسيًّا يؤرقهم، **فيلجأ بعضهم للهروب من هذه المعاناة إلى إسقاط منظومة الإله والدين من حياتهم بالتنكر لها.**

لذلك لا نجد هذا النمط من الإلحاد فى العالم الغربى، فلا مشكلة عند شبابهم فى **الجمع بين الإيمان الدينى وبين الحياة المتحررة أخلاقيًّا.**

١٤- إلحاد عقدة النقص:

عقب الحلقة الأولى من مناظرتى مع الملحد التى أذيعت إعلاميًا، اتصل بى صديق وأخبرنى أن ابنه الذى سبق أن ألحد طلب منه أن يصلى معه العصر، وعندما سأله عن سر تصحيح موقفه بالرغم من أن المناظرة ما زالت فى بدايتها، قال الابن: عندما كنا نشاهد هذا الملحد وغيره فى «النت» **كانوا يشعروننا أنهم هم الحكماء الذين يحتكرون العقل ويرتكزون على العلم**، أما الدين ورجاله فهم المتخلفون علميًّا والعاجزون عقليًّا وأنهم لا يحسنون إلا ترديد ما جاء فى التراث، فأصبحوا خارج الزمان وخارج الحضارة. وأضاف الفتى، أما وقد شاهدت الجزء الأول من المناظرة وعاينت قوة حجج د. عمرو العلمية والفلسفية وعجز الملحد أن يدفعها، تأكد لى كم هم أقزام ومدعون، وأدركت **أن الدين عظيم وأن حججه لا تُدفع بشرط أن يُحسنَ عرضُه.**

١٥- إلحاد نقض العهد:

قال لى: تَدَّعون أن إلهكم أخذ علينا عهدًا فى يوم الذر بأن نعبده، لكننى ولا أنت ولا أحد من البشر نذكر هذا العهد، فكيف يجعل الإله هذا العهد الذى تَرَكَنا ننساه حجة علينا ويدخلنا النار إن خالفناه؟

قلت له: أَقبل حجتك لو أن سيناريو الأحداث سار كما تدعى، لكن الأمر ليس كذلك. فنحن قد تعلمنا الدرس وإن كنا قد نسينا الموقف، فالعهد ما زال قائمًا فى نفس كل منا، متمثلًا **فى الفطرة السليمة المدرِكة لوجود الإله**. كذلك وضع الله ﷻ **أدلة الألوهية فى الكون والأنفس، وأرسل الرسالات السماوية تستحث العقل ليتأمل هذه الأدلة**، وتُذَكِّر الإنسان بما نُسِىَ من العهد وطُمس من الفطرة، لذلك حفل القرآن الكريم بالدعوة إلى التذكر، بل إن الرسول الكريم ﷺ إنما بُعث مُذَكِّرًا: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ [الغاشية].

١٦- إلحاد البساطة:

قال لى الشاب الملحد: إنكم أيها المتدينون تنظرون إلى الإنسان نظرة شديدة التعقيد، لقد أدخلتموه فى دهاليز غيبية وصلت بكم إلى افتراض تواصله مع إله سماوى! بينما هو كائن بسيط مثل باقى الحيوانات! يعمل وينتج ويستهلك ويستمتع وفقط.

قلت للشاب: إن نظرتك هذه هى سبب مأساة إنسان الحضارة المعاصرة، وقد شَخَّصَ د. عبد الوهاب المسيرى هذه المأساة قائلًا: إن الحضارة الحديثة حضارة عقلانية مادية (لا عقلانية وحسب)، فإنجازاتها الضخمة (التكنولوجيا- العلم - السيطرة على العالم) هى نتاج رؤيتها المادية التى تطلبت استبعاد الكثير من العناصر الأخلاقية والإنسانية (العناصر غير المادية)، وذلك لتبسيط الواقع بهدف التحكم فيه (إذ لا يمكن التحكم إلا فيما هو بسيط). لا شك أن الإنسان هو الضحية الأولى لهذا التبسيط، فبعد أن تم استبعاد عناصره الأخلاقية والإنسانية الراقية لم يبق منه إلا ماديته، فَسَهُل على البعض نسبتها للطبيعة العمياء.

وقد أثبتنا عبر فصول الكتاب السابقة عجز الطبيعة عن تفسير الوجود والإنسان، ولم يتبق إلا القول بالإله الخالق.

١٧- إلحاد الإله الآخر:

أمعن بعضُهم فى العبثية، فقال: ما أدرانى أن الله الذى تدعونى إلى عبادته هو الخالق والرازق والشافى و...؟ لم لا يكون الفاعل لهذه الأشياء إله آخر أو آلهة متعددون آخرون؟ قلت (وداخلى سخرية لم أظهرها له): قد يكون طرحك مقبولًا إذا كنا قد التقينا فى الشارع بإله ادعى أنه هو الخالق والرازق والشافى و... وطالبنا أن نعبده دون أن يقدم لنا الدليل، لكن الأمر ليس كذلك!

حقيقة الأمر أننا عايَنَّا أفعال الخلق والرزق والشفاء و...، وأدركنا أن لا بد لها من فاعل عظيم منزه. ثم كان أن قُدِمَت إلينا ديانات سماوية خاطَبَنَا بها مَنْ قال «إننى أنا الله»، ونسب هذه الأفعال لذاته، وطالبنا أن نعبده. ألا ترى أنه لو كان هناك آلهة أخرى هى الخالقة والرازقة والشافية و... لوجب عليها ألا تسكت على هذا الادعاء وأن تبين لمخلوقاتها الحقيقة، بل وأن تصفى حساباتها مع هذا الدَّعى!.

أما قضية تعدد الآلهة، فإن كان لها موضع عند المشركين قديمًا، فقد أثبت العلم بما لا يدع مجالًا للشك أن الخالق واحد. ذلك بعد أن توصلنا إلى أن قوانين الطبيعة واحدة، وأن المادة

الخام التى يتشكل منها الوجود واحدة، وأن نمط الخلق واحد من الذَّرة إلى المجرة. هذا بالطبع بالإضافة إلى الأدلة الفلسفية والعقلية التى تسوقها الكتب السماوية على التوحيد.

١٨- إلحاد الشبهات:

يركز كثير من الملاحدة الشبان فى هجومهم على الألوهية والدين على التشكيك فى مصداقية القرآن الكريم وكتاب المسيحيين المقدس، وينكرون نسبتهما إلى الله ﷻ. ويدور التشكيك حول عدد من النقاط أهمها:

- تُعتبر نظرية التطور الداروينى أهم الأعمدة التى يستند إليها الملاحدة. فهى بزعمهم تنفى الاحتياج للإله، كما تثبت خطأ مفهوم الخلق الخاص الذى تطرحه التفاسير التراثية للقرآن الكريم وسفر التكوين فى التوراة.
- تتحدث العديد من كتب التفسير عن آية السيف التى تنسخ عشرات الآيات التى تؤكد حرية العقيدة فى القرآن الكريم، بل وتصل إلى حد قتل من لا يؤمن بالإسلام، مما يدمغ الإسلام بالإرهاب.
- تجعل الكتب السماوية للقلب دورًا فى المنظومة الإيمانية والمعرفية والشعورية، بينما يؤكد العلم أن القلب ليس إلا مضخة للدم.
- تتحدث الكتب السماوية عن عدد من المفاهيم التى لا يقر بها العلم؛ كالسماوات السبع، وأن الشهب والنيازك رجوم للشياطين، وأن الشمس تختفى من السماء بانتهاء النهار لتسجد تحت عرش الرحمن و...
- تشتمل الكتب السماوية على أحداث لا يمكن تقديم الدليل على صحتها، كطوفان نوح وأهل الكهف، والتقام الحوت ليونس ﵇، وقوم يأجوج ومأجوج، والطفل الذى تلده العذراء دون أب، و...
- يدعى الملاحدة أن الكتب السماوية اقتبست بعض الأحداث السابقة (كطوفان نوح وحوت يونس) من الأساطير السابقة عليها.
- أباح القرآن الكريم عددًا من السلوكيات التى لا ينبغى أن تتبناها ديانة سماوية، كالرق وملك اليمين والرجم وقطع يد السارق. كما أباح لرسول الله ﷺ من الزواج ما لم يبحه لأتباعه.
- كانت حياة المصطفى ﷺ مليئة بالحروب والغزوات وسلب الغنائم، وبعد ذلك قام صحابة الرسول الكريم ﷺ وأتباع دينه بنشر الإسلام بالسيف.

لتفنيد هذه الدعاوى، نقول إن العلم قد صار الآن يتبنى مفهوم «التطور البيولوجى الموجه» الذى يتمشى مع الدين[1]. كما أثبت العلم أن للقلب دورًا فى المنظومة الإيمانية والمعرفية

(١) جاءت تفاصيل ذلك فى الفصل السادس عند حديثنا عن الداروينية.

والشعورية، وإن كان هذا الأمر فى حاجة إلى المزيد من الدراسة[1]. كذلك فإن القصص المشتركة بين الكتب السماوية والأساطير إنما بقيت كأساطير عند الشعوب بعد أن نزلت بها كتب سماوية فى معظم الحضارات.

أما دعوى استباحة دماء الكفار فترد عليها الآية ١٩٠ من سورة البقرة، التى تؤكد أن مناصبة العداء إنما تكون لمن يقاتلون المسلمين: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾.

أما اصطلاح «السماء» فى الكتب المقدسة فهو مرادف للـ «الكون»، فلو وضعنا لفظ «الكون» بدلًا من «السماء» فى القرآن الكريم لاستقام المعنى تمامًا مع المفاهيم العلمية، لكن القرآن استخدم اللفظ المعتاد والمشهور بين العامة وأيضًا بين العلماء. أما السماوات السبع والأراضين السبع فمفاهيم غيبية لا ينبغى البحث عن تفسير علمى لها.

وهناك عدد من المفاهيم ينبغى النظر إليها باعتبارها مفاهيم رمزية، كسجود الشمس تحت عرش الرحمن بمعنى انقيادها للسنن والقوانين الكونية، وهناك عدد من المفاهيم التى طرحها القرآن الكريم ولم نتوصل لرمزيتها بعد.

أما وقوع أحداث محلية فى بعض بقاع الأرض، كأهل الكهف ويأجوج ومأجوج وغيرها، فأمور لا يُتوقع أن تترك أدلة تاريخية تشير إليها، بل ينبغى اعتبارها من الأحداث التى تُعرَف بالرواية، فالقرآن الكريم يرويها لنا كما تروى لأولادك أحداثًا وقعت لأجدادك، لا أظنهم سيطلبون عليها دليلًا تاريخيًّا.

أما باقى الشبهات، كانتشار الدين بالسيف وغزوات الرسول ﷺ والرق وما ملكت اليمين وقطع يد السارق وزوجات الرسول ﷺ، فقد تكفل العديد من كتب رد الشبهات بطرح الأدلة على كذب بعضها وحكمة الإسلام فى التعامل مع بعضها الآخر.

وأحيانًا يُعرض على شبابنا نمطٌ خاص من إلحاد الشبهات، فيقال للشاب ينبغى أن تؤمن بالإله فهو حق، والأدلة العلمية على وجوده كثيرة، أما القرآن فلا؛ فهو ملىء بالأخطاء. فى هذا النمط يتم الإقرار بالإله مع إنكار الإسلام، وقد تكون الخطوة التالية هى: إذًا فلنبحث عن الدين الحق، ويكون ذلك مقدمة للدعوة إلى اعتناق المسيحية؛ إذًا فهى محاولات تنصيرية.

---

(١) لتفاصيل هذا المفهوم راجع فصلاً بعنوان القلب والتدين، فى كتاب «رحلة عقل» للمؤلف، الطبعة السابعة ٢٠١٣، مكتبة الشروق الدولية.

هذه هى أكثر أنواع وأسباب الإلحاد التى نقابلها بين شبابنا شيوعًا، وكلها خاضعة للردود والدفوع العقلية. ولا شك أن الشيطان والنفس الأمارة بالسوء لن يتوقفا عن محاولات التملص من هذا الخطاب العقلانى الصِرف بما له من حجية قوية، كما لن يتوقفا عن طرح أشكال وحجج أخرى للتهرب من الإقرار بالألوهية والدين.

القارئ الكريم...

قمنا فى هذا الفصل بعرض مختصر لمسيرة الإلحاد فى العالم الإسلامى عبر التاريخ، ولعلك لاحظت ـ كما ذكرنا ـ أن دور المفاهيم والحجج العلمية فيه قليل، خلافًا لما نرصده فى الإلحاد الغربى، بدلًا عن ذلك تشيع فيه عوامل نفسية عديدة تصب معظمها فى الرغبة فى التملص مما تفرضه الديانات من التزام أخلاقى، لذلك أحسبنى كنت مصيبًا حين أطلقت على الإلحاد المعاصر فى بلادنا اسم «الإلحاد السفسطائى».

وقد كانت وقفاتنا مع فكر ابن الراوندى ثم إسماعيل أدهم ثم عبد الله القصيمى رحلات عبر الجغرافيا والتاريخ، امتدت من العراق فى القرن التاسع الميلادى، إلى مصر فى مدخل القرن العشرين، إلى السعودية فى ختام هذا القرن، فكانت جولة مع فكر أشهر ثلاثة ملاحدة فى العالم الإسلامى. ولا ينبغى أن نختتم عرضنا للفكر الإلحادى فى بلادنا (سواء العرض التاريخى أو خبراتنا الشخصية نتيجة لتعاملنا مع أشكال الإلحاد السفسطائى بين شبابنا) دون الخروج بدروس تفيدنا فى التعامل مع المد الإلحادى الحالى:

١ - للتنشئة والتربية والتعليم دور كبير فى التوجه الإلحادى، ظهر فى نشأة إسماعيل أدهم المضطربة بين تعصب وقسوة دينية مارسها والده وزوج عمته وبين تساهل دينى وسخرية تأثر بهما من أختيه، وأكمل المهمة التعليم الإلحادى الذى تلقاه فى الاتحاد السوفيتى.

٢ - للبنية النفسية للإنسان دور كبير أيضًا فى التوجهات الإلحادية، فالشخصيات الثلاث التى درسناها لم تكن شخصيات سوية نفسيًا. فهذا إسماعيل أدهم ينتحر فى شرخ شبابه لأنه لم يجد طمأنينة فى الحياة التى لا معنى لها، وهذا ابن الراوندى المتطرف فى انتهازيته وتسلقه، وأخيرًا شخصية القصيمى التى ينضح من جوانبها الكِبر.

٣ - البحث عن الشهرة والتميز بمنطق «خالف تعرف» عامل مشترك ـ بدرجات مختلفة ـ في الشخصيات التي درسناها.

٤ - يقوم الإلحاد على خطأين كبيرين، علينا أن نبذل جهدًا كبيرًا لمحوهما من عقول ونفوس الملاحدة. وهما أن الإيمان الديني في كل حالاته أعمى، وأن العلم ليس فيه ذرة إيمان.

٥ - ينبغي على الدعاة الإلمام بالخطوط العريضة للفلسفات المادية وكيفية دحضها، وكذلك الإلمام بالمفاهيم العلمية وكيفية استنباط الأدلة على الألوهية منها. وقد رأينا كيف كان الفكر الماركسي والثورة العلمية بمكتشفاتها وراء إلحاد د. إسماعيل أدهم، وتُعتبر هذه النقلة الفكرية المرجوة من أهم جوانب تجديد الفكر الديني التي ندعو إليها.

٦ - ينبغي التعامل مع الشكوك التي تعتمل في نفوس البعض بالرفق واللين والحوار، وليس بالزجر والتأنيب، وهما من العوامل التي دفعت القصيمي للإلحاد.

٧ - ينبغي أن تمتد حرية الحوار إلى المجتمع كله، فالآراء الصحيحة الصريحة الحرة هي القادرة على دحض حجج الإلحاد، وهذا هو المنهج الذي وجهنا إليه الله ﷻ في القرآن الكريم: ﴿... قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة].
صدق الله العظيم

إذًا «فالفكر لا يُقاوَم إلا بالفكر»، هذا هو أحد أكبر الدروس من كتابنا...

* * *

الباب الرابع

مع الله

الفصل الثالث عشر

الطريق إلى الله

- العقل فى مهمة إيمانية
- رحلة سير أنتونى فلو
  - رحلة أنتونى فلو الفكرية
  - العلم الحديث والإله الخالق
  - خاتمة المطاف
- رحلة د. جيفرى لانج
  - رؤيا جيفرى لانج
  - الإلحاد والضياع
  - الطريق إلى الإسلام
  - فهم جيفرى لانج للإسلام
  - جيفرى والقرآن: وجهًا لوجه
  - جيفرى ومنهج القرآن
- رحلة د. مصطفى محمود
  - معاناتى مع الشكوك: تمرد العقل
  - لا إله إلا العلم
  - الإله يفرض نفسه
  - ضباب وحدة الوجود، المخلوق هو الخالق!
  - وانقشع الضباب
    - نسيج واحد يعنى خالق واحد
    - التوازن العظيم
    - غَرَقَ العلمُ فى الغيبيات
  - دليل الروح والنفس والجسد
- رحلة د. عبد الوهاب المسيرى
  - بذور الشك
  - عودة الوعى
  - مقدمات العثور على الذات
  - محطات فى رحلة الإيمان
    - أدركت تركيبية الظاهرة الإنسانية
    - تبنيت العنصر الكونى
    - أدراكت فطرية الخير
    - مصدر حرية الإرادة؟
    - وداعًا للشك، كتاب الفردوس الأرضى
    - أذن المؤذن فأقمت الصلاة
  - وقفات فى ساحة اليقين
- القارئ الكريم

«لقد أنجزت الفلسفة مهمتها الأساسية بنجاح عظيم عندما تَوَصَّلَت إلى تفسير نشأة الوجود بوجود الإله الخالق، الذى خلق الكون ليكون مُعَدًّا لاستقبال المخلوق العاقل الحكيم، الذى هو الإنسان».

سير أنتونى فلو

«هكذا قدم لى العلم الفكرة الإسلامية الكاملة عن الله».

د. مصطفى محمود

تُعتبر حياة الإنسان «رحلة عبر الزمان»، ويُعتبر سفره للسياحة أو الدراسة أو العلاج «رحلات عبر المكان»، وتتفاوت هذه الرحلات فى دوافعها ومردودها. وتظل «الرحلة إلى الله ﷻ» مبتغى معظم البشر، فهى الغاية من الوجود الإنسانى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴿٦﴾ ﴾ [الانشقاق]، وهى رحلة الإنسان من المخلوق إلى الخالق، ومن الموجود إلى الموجِد، ومن عالم الشهادة إلى عالم الغيب، ومن عالم الملك إلى الملكوت إلى الجبروت.

ولا شك أن القرآن الكريم قد أنار لنا الطريق إلى الله وخط لنا الصراط المستقيم، حتى إن الرسول الكريم ﷺ لم يفارق حياتنا الدنيا إلا وقد اكتمل المنهج ﴿... ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ... ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة].

وبالرغم من أن الصراط المستقيم واحد، فقد قال أحد العارفين بالله: «**عدد الطرائق بعدد الخلائق**»، لذلك شبهوا الطريق إلى الله بأنصاف أقطار دائرة، مركزها هو الله ﷻ وكل إنسان هو نقطة على محيط الدائرة، ومن ثم هناك أنصاف أقطار للدائرة (تصل المحيط بالمركز) بعدد أفراد البشر. فهذا إنسان قَرَّبَه من الله ﷻ تأمل آيات كتاب الله المسطور (القرآن الكريم)، وآخر قَرَّبَه تأمل آيات كتاب الله المنظور (الكون والأنفس)، وثالث قَرَّبَه من الله ﷻ اتباع سنة الرسول الكريم ﷺ، ورابع ربما لا يفهم اللغة العربية ولكن استمال قلبه إيقاع ترتيل القرآن أو إنشاد دينى شجى، وهكذا.

نعرض فى هذا الفصل الرحلات العقلية الإيمانية لأربعة من كبار المفكرين، كان لكل منهم شكوكه أو دوافعه الإلحادية لفترة طويلة من حياته، ثم عانى مرحلة من القلق النفسى والفكرى، حتى اهتدى إلى طريق الله ﷻ، كلٌ منهم عبر رحلة تتناسب مع شخصيته ونمطه الفكرى.

وهذه الرحلات الأربع هى:

رحلة سير أنتونى فلو: وطريقها العلم والفلسفة.

رحلة د. جيفرى لانج: وطريقها الإيمان القلبى والنظر فى القرآن الكريم.

رحلة د. مصطفى محمود: وطريقها الشك وطرح التساؤلات.

رحلة د. عبد الوهاب المسيرى: وطريقها تأمل الذات الإنسانية والحضارة المادية.

وتتضافر هذه الرحلات الأربع لتشكل نسيجًا واحدًا ينتظم معظم جوانب المنظومة الإيمانية التى تُشبع كلًا من تساؤلات العقل وأشواق النفس، وقد تأثرت شخصيًا بالعديد من جوانب رحلات هؤلاء الكبار.

رحلة سير أنتونى فلو

سير «أنتونى فلو[1]» (أستاذ الفلسفة البريطانى) اسم ذائع الصيت فى مجالات الفكر والفلسفة والإلحاد والتدين! كان يُعَد بحق من أكبر ملاحدة العصر الحديث، وكانت كتاباته الغزيرة جدول أعمال الفكر الإلحادى طوال النصف الثانى من القرن العشرين، لذلك اخترنا أن نبدأ معه رحلاتنا الإيمانية.

فى التاسع من ديسمبر عام ٢٠٠٤، فوجئ العالم بخبر ما زال صداه يتردد فى الأوساط الفلسفية والعلمية والثقافية والدينية؛ لقد أعلن أنتونى فلو (بعد أن تجاوز الثمانين من العمر) أنه قد صار يؤمن بأن «هناك إلهًا». وقد أذاعت وكالة أنباء الأسوشيتد برس الخبر بعنوان:

«ملحد شهير يؤمن بالإله، بدافع من الشواهد العلمية»

Leading atheist now believes in God، more or less based on scientific evidence.

---

(١) Sir Antony Flew: وُلد فى لندن فى ١١/ ٢/ ١٩٢٣، وتوفى عام ٢٠١٠.

أصاب الخبر الملاحدة من زملاء أنتونى فلو وتلاميذه بهستيريا عارمة، حتى امتلأ إعلام العالم الغربى الحر بسخريتهم وازدرائهم لهذا التحول!

وقـد طُلب من أنتونى فلو مـرارًا أن يُصدِر كتابًا يعرض فيه رحلته، مـن صبى متدين إلى رجل ملحد إلى شيخ فى الثمانين يؤمن بوجود الإله. وأخيرًا صدر عام ٢٠٠٧ الكتاب المنتَظَر[١] بعنوان:

«هناك إله: كيف عَدَلَ أشرسُ مُلحدٍ عن الإلحاد»

There is a god; How the World's most
notorious atheist changed his mind.

رحلة أنتونى فلو الفكرية

أ- ملحد صغير فى بيت متدين، دون دوافع واضحة: ورث فيلسوفنا عن والده رجل الدين المسيحى الكبير حب الحكمة وشغفه العقلى ومنهجه التحليلى الدقيق فى البحث. ثم جاء دور رجال تميزوا بحرية الفكر ليؤصلوا فيه هذه المفاهيم، منهم ناظر مدرسته وبعض أساتذته فى الجامعة. كذلك كان للجو الفكرى الحر الذى يموج به نادى سقراط الفلسفى بجامعة أكسفورد أثر كبير فى اتجاهه للتخصص فى الفلسفة.

ويخبرنا أنتونى فلو فى كتابه أن هذه التنشئة دفعته إلى الاهتمام بعالم الفكر، لكنها لا تفسر بالتأكيد اتجاهه إلى الإلحاد. لذلك يقول إنه لا يعرف حتى الآن لماذا رفض مفهوم الألوهية!. وربما كانت «مجادلة الشر والألم» هى أكثر القضايا التى وجهته إلى الإلحاد منذ كان فى الخامسة عشر؛ إذ لم يستطع التوفيق بين ما ينزل بالبشر من شرور وآلام وبين أن الله محب لمخلوقاته رحيم بهم.

ب - ألبَسَ الإلحادَ ثوبًا علميًا فلسفيًا منمقًا، لا يستحقه: فى سن السابعة والعشرين، نشر أنتونى فلو بحثه «زيف علم اللاهوت» الذى عرض فيه حججه الإلحادية، وفى الوقت نفسه، دعى إلى الحوار المستمر بين الفلاسفة والمؤمنين. وفى كتبه التالية، دعى إلى اتباع المنهج العلمى فى تفنيد مفاهيم الدين والألوهية، كما طالب المتدينين بتقديم الأدلة على وجود الإله بعد أن كانت المسئولية تقع على الملاحدة فى نفى الألوهية.

(١) قمت بترجمة هذا الكتاب وتلخيصه وعرضه كجزء من كتابى «رحلة عقل». مكتبة الشروق الدولية، الطبعة السابعة، ٢٠١٣. ويمكن الرجوع إلى هذا الكتاب لمعرفة تفاصيل رحلة أنتونى فلو الإيمانية.

جـ - **حارس مرمى الإلحاد:** أصبح أنتونى فلو حارس مرمى الإلحاد فى الغرب، فكان يُدعى كثيرًا لإلقاء المحاضرات وإجراء الحوارات التليفزيونية. وكان آلاف المشاهدين يحضرون مناظراته مع المؤمنين، والتى كانت تُنقل عبر وسائل الإعلام.

د - **خطوات من الإلحاد إلى الشك إلى اليقين:** يخبرنا أنتونى فلو أن ليس هناك خط فاصل واضح فى رحلته الفكرية من الإلحاد إلى تبنيه الإيمان بوجود الإله. ويصرح فلو أن هذا التَّحَوُّل تقف وراءه القفزات العلمية الهائلة، التى حدثت فى النصف الثانى من القرن العشرين. فقد أكدت هذه الاكتشافات أن الكون والحياة، بما فيهما من تعقيد مذهل، لا يمكن إرجاعهما إلى الصدفة والعشوائية، ولا بد أن يكون وراءهما إله حكيم قادر، وأن ما فى الوجود من قوانين ثابتة متناغمة يعكس ما يمكن أن نسميه فِكر الإله.

العلم الحديث والإله الخالق

يرى أنتونى فلو أن العلم الحديث يُجَلِّى خمسة أبعاد تشير إلى الإله الخالق:

١ - الكون له بداية وخرج فى العدم، وقد فشلت جهود العلماء والفلاسفة الماديين فى الوصول إلى نظرية مقبولة تفسر البداية فى العدم المطلق بمعزل عن الإله الخالق. وقد أدرك فلو ذلك من خلال دراسة نظرية «الانفجار الكونى الأعظم».

٢ - تسير الطبيعة وفق قوانين ثابتة مترابطة، ويتطلب ذلك الإقرار بواضع لهذه القوانين. والأكثر دلالة على الإله الخالق هو أن هذه القوانين تشمل الموجودات كلها، وأنها مترابطة مع بعضها البعض، وأنه يمكن التعبير عنها بصياغات رياضية دقيقة لا تشغل أكثر من صفحة واحدة.

٣ - نشأة الحياة بكل ما فيها من دقة وغائية وذكاء. فلا شك أن الصدفة والعشوائية، وكذلك كل قوانين الطبيعة التى نعرفها، تعجز مجتمعة عن أن تفسر نشأة الحياة من المادة غير الحية. وقد تكشف لفلو ذلك من خلال دراسته لبنية جزىء الدنا DNA وطريقة أدائه لوظائفه.

٤ - يهيئ الكون، بما فيه من موجودات وقوانين، الظروف المُثلَى لظهور ومعيشة الإنسان، وهو ما يُعرف بالمبدأ البشرى. وكلما زادت معارفنا عن دقائق بنية الكون، كلما تأكدت ملاءمتها لاحتياجات الإنسان. مما يشير إلى أن هذا الكون قد أُعِد لاستقبالنا.

وفى نفس الوقت فإن ما وضعه العلماء والفلاسفة الماديون من تفسيرات لهذا التناغم (كفرضية الأكوان المتعددة) مثير للسخرية، ويجعل القول بالإله المُصَمِّم لهذا الكون أكثر قبولًا من الناحية العلمية.

٥- العقل، خصوصية الإنسان. إن قدرات العقل الإنسانى على التفكير المنطقى فى الأمور المادية وفى المفاهيم المجردة، وإدراك ما يحيطنا وما بداخلنا، وإدراك الإنسان لذاته، لا يمكن أن تكون صادرة تلقائيًّا عن المخ البشرى المادى! إذ لا تستطيع اللغة الكهروكيميائية للمخ، والتى لا تختلف عن نشاط باقى الخلايا الحية، أن تقوم بكل هذه المهام وإنتاج كل ما تملكه الحضارة الإنسانية من إبداعات. لقد أصبح لا مفر من اللجوء إلى عالم ما وراء الطبيعة لتفسير قدرات العقل الخارقة.

ويختم أنتونى فلو عرض حججه الإيمانية قائلًا:

ليست معطيات العلم الحديث فقط هى التى دفعتنى لتغيير قناعاتى، ولكنى أيضًا أَعَدْتُ النظر فى البراهين الفلسفية التقليدية التى قادتنى من قبل إلى الإلحاد، ثم طَبَّقْتُ نفس القاعدة السقراطية المنهجية التى اتبعتها طوال حياتى الفلسفية الملحدة:

«أن نتبع البرهان إلى حيث يقودنا»[1]، فقادنى البرهان، هذه المرة، إلى الإيمان.

خاتمة المطاف

يخبرنا أنتونى فلو، أنه وإن كان قد صار مؤمنًا بالإله الخالق للكون، فإن هناك مفهومين يتبناهما منذ إلحاده، ولم يغير فيهما رأيه:

أولًا: يرفض فلو فكرة تَجَسُّد الإله المطلق فى هيئة بشرية (المسيح)، كما يعتقد المسيحيون.

ثانيًا: لم يتوصل فلو إلى أدلة عقلية وعلمية على التواصل بين الإله والبشر، عن طريق الوحى.

ومن ثم، يؤمن أنتونى فلو بالإله الخالق ولا يؤمن بالأديان السماوية، وبالتالى يمكن اعتباره من أنصار الديانة الطبيعية (الربوبيون Diests)، وإن كان قد مات وهو يبحث عن الأدلة على تواصل الإله مع مخلوقه الإنسان.

ونسجل هنا عقيدة أنتونى فلو فى الإله، والتى مات عليها، يقول:

(١) «To Follow The Argument wherever it Leads»

لقد صرت أؤمن بإله واحد أحد،

واجب الوجود،

غير مادى، لا يطرأ عليه التغير،

مطلق القدرة، مطلق العلم،

كامل الخير[1].

ويرى فلو أن الفلسفة قد أَنجَزَت مهمتها الأساسية بنجاح عظيم عندما تَوَصَّلَت إلى تفسير نشأة الوجود بوجود الإله الخالق، الذى خلق الكون ليكون مُعَدًّا لاستقبال المخلوق العاقل الحكيم، الذى هو الإنسان. لذلك يردد دائمًا قوله: لقد كان توصلى إلى وجود الإله عن طريق العقل، دون الحاجة إلى تدخل غيبى خارق من وحى أو معجزات (كما يحدث فى الأديان السماوية)، لقد كانت رحلة عقل وليست رحلة إيمان قلبى.

لذلك علقت مجلة تايم الأمريكية على صدور كتاب أنتونى فلو بقولها: على رأس أعظم الاكتشافات العلمية فى العصر الحديث يأتى اكتشاف أن «هناك إلهًا».

رحلة د. جيفرى لانج[2]

تُعتبر رحلة عالم الرياضيات الأمريكى «جيفرى لانج[3]» تجربة فريدة فى الانتقال من الإلحاد إلى الإيمان واعتناق الإسلام. وقد سجل جيفرى لانج رحلته الإيمانية فى كتابه «الصراع من أجل الإيمان»، وأهداه إلى بناته الثلاث المؤمنات، كإجابة لسؤال إحداهن له: يا أبت لماذا أصبحت مسلمًا؟.

رؤيا جيفرى لانج

يبدأ جيفرى رواية رحلته الطويلة الشاقة برؤيا رآها أكثر من عشر مرات خلال أعوام عشرة، فيقول: كنت فى غرفة صغيرة ليس فيها أثاث، تغطى أرضها سجادة ألوانها الأساسية الأحمر والأبيض. وكانت جدرانها العارية رمادية بيضاء. كانت هناك نافذة صغيرة مواجهة لنا

(١) لا شك أن هذا الوصف للإله يتفق إلى حد بعيد مع عقيدة الأديان السماوية المُوَحِّدة.

(٢) بتصرف من عرض مركز نماء للبحوث والدراسات لكتاب «الصراع من أجل الإيمان»، الذى يروى فيه د. جيفرى لانج رحلته مع الإسلام.

(٣) Jeffrey Lang: أستاذ الرياضيات بجامعة كانساس بالولايات المتحدة. ولد لعائلة كاثوليكية بمدينة بردجبورت عام ١٩٥٤.

أشبه بنوافذ القبو، تملأ الغرفة بالنور الساطع. كنا مجموعة من الرجال جالسين على أقدامنا فى صفوف مواجهين النافذة؛ وكنت أنا فى الصف الثالث. كنت أشعر بالغربة، فلم أكن أعرف أحدًا منهم، ربما كنت فى بلد آخر. وكنا نقف ثم ننحنى على نحو منتظم حتى تقابل وجوهنا الأرض، وسرعان ما كنا نعود للجلوس على أقدامنا. كان الجو هادئًا وساكنًا، لا تسمع فيه همسًا. وعندما نظرت إلى الأمام أدركت أن شخصًا ما يَؤُمُّنا، وكان بعيدًا عنى إلى جهة اليسار، كان يقف بمفرده فى الوسط تحت النافذة تمامًا، وكنت بالكاد ألمح ظهره، وكان يرتدى عباءة بيضاء طويلة ويضع على رأسه لفة بيضاء موشاة برسم أحمر. وفى تلك الأثناء كنت أستيقظ من نومى مرتاحًا.

الإلحاد والضياع

لم يلتفت جيفرى (الذى تم تعميده ونشأ فى وسط كاثوليكى جنوب ولاية كونيكتيكت) لهذه الرؤيا بعد أن قاده ذكاؤه وعقله الرياضى وإعجابه الشديد بالفكر المنطقى وعدم رضائه عن الكثير من عقائد المسيحية إلى الإلحاد. ويتخذ جيفرى من موقفه من رمزية الصليب (كان موت الابن البشرى للإله على الصليب فداءً أبديًا للبشرية) إشارة لمرحلة تحوله عن المسيحية إلى الإلحاد، فيقول: «**عندما أصبحت ملحدًا قذفت بالصليب جانبًا**، وصحب ذلك شعور داخلى بالضياع، فإن لرموزنا من التأثير ما يشعرنا باضطراب نفسى إذا فقدناها، خاصة عندما لا يكون البديل جاهزًا».

فى البداية اعتقد جيفرى أن السعادة تكمن فى اللقب الأكاديمى، واستشعرها يوم مناقشة أطروحته للدكتوراه وإعلان النتيجة، لكن فرحته تلاشت بمجرد عودته إلى شقته، وكان كلما حاول استرجاعها غمره مزيد من الشعور بالسوداوية وخيبة الأمل والمرارة. عَبَّرَ جيفرى عن ذلك بقوله: «**ما نحن سوى أحد الحيوانات التى تحاول أن تعيش سعيدة. هل هذا كل ما فى الحياة؛ نجاح يفتر يليه آخر، وهكذا؟**».

ويصف جيفرى بحرقة نفسية الفرد الملحد، وطبيعة علاقاته وانفعالاته وتوجهاته الفكرية والعقائدية والاجتماعية، محللًا سيكولوجية الملحد الانعزالية الهشة، فيقول: «**سرعان ما تعلمت أن لا أحدًا يعرف الوحدة كالملحد**. فعندما يشعر المؤمن بالوحشة فإنه يناجى، من أعماق روحه، الواحد الأحد الذى يعرفه، ويكون بمقدوره أن يشعر بالاستجابة. ولكن الملحد محروم من هذه النعمة؛ لأن عليه أن يسحق هذا الدافع، ويُذَكِّر نفسه بسخفه. فالملحد هو إله عالمه الخاص، وهو عالم صغير جدًّا، يحدده مجال إدراكاته، وهذه الحدود دومًا فى تناقص مستمر.

والملحد لا يُشبع حاجاته شىء؛ لأن عقيدته تخبره أن ليس للحياة هدف، وأن ليس هناك شىء كامل أو شىء مطلق. ولذا عندما اتَّبعتُ النماذج الاجتماعية السائدة[1]، لم يكن ذلك لأنى أُقدِّرها، بل لأنها تُسَيِّر سفينة الحياة.

ولا شك أنه توجد دومًا فى أعماق الإنسان حاجة فطرية إلى تجاوز أبعاده المادية والانجذاب إلى قوة ما وراء الطبيعة، وهى التى تلهمه وتقويه وترشده إلى الصواب وتشعره بالاطمئنان والأمان. وإذا كان المتدين يؤمن بأشياء تفوق إحساسه وإدراكه، فإن الملحد لا يستطيع الثقة بتلك الأشياء، وليس عنده شىء حقيقى، ولا حتى الحقيقة ذاتها.

وعادة ترى الملحد منشغلًا بنفسه، يحاول الحفاظ على وحدتها واتزانها، لتصبح ذات معنى. وفى الوقت ذاته عليه أن يقبل تطفل القوى الخارجية، خاصة العلاقات الإنسانية، على عالمه، دون أن يستطيع كبح جماحها. فالملحد يحتاج إلى البساطة والعزلة والانفراد، ولكنه يحتاج أيضًا أن يتواصل مع الآخرين».

وتبلغ مأساة الملحد ذروتها عند التفكر فى الموت، فى ذلك يقول جيفرى: «إننا جميعًا نصبو للخلود. وبمقدور المؤمن أن يتخيل السبيل لتحقيق ذلك، أما الملحد فعليه أن يفكر فى حلول بديلة آنية، ربما عن طريق الزواج وإنشاء أسرة، أو تأليف كتاب أو إنجاز اختراع ما، أو القيام بمأثرة أو عمل بطولى أو رومانسى، بحيث يعيش فى أذهان الآخرين. إن هدف الملحد الأسمى ليس الذهاب للجنة، بل أن يذكره الناس».

الطريق إلى الإسلام[2]

يقول جيفرى لانج: «توثقت علاقتى فى جامعة سان فرانسيسكو بطالب عربى كنت أُدرِّسُهُ، فأهدانى نسخة مترجمة من القرآن، فلما قرأته لأول مرة شعرت كأن «القرآن هو الذى يقرأنى»!.

وفى أحد الأيام عزمت على زيارة هذا الطالب فى مسجد الجامعة. هبطت الدَرَج ووقفت أمام الباب متهيبًا الدخول، ثم صعدت وأخذت نفسًا طويلًا، ثم هبطت ثانية، لم تكن رجلاى قادرتين على حملى! مددت يدى إلى مقبض الباب فأخَذَت ترتجف، ثم هرعْتُ إلى أعلى الدرج ثانية...

(١) يقصد بذلك التماشى مع أعراف المجتمع ومقاييسه ومفاهيمه.

(٢) هذا الجزء بتصرف عن موقع «صيد الفوائد» بعنوان «هكذا أسلم جيفرى لانج»، بقلم الشاعر الدكتور عبد المعطى الدالاتى.

شعرت بالهزيمة، وفكرت بالعودة إلى مكتبى.. مرت عدة ثوان كانت هائلة ومليئة بالمشاعر المتناقضة التى اضطرتنى أن أنظر إلى السماء، لقد مرت علىَّ عشر سنوات وأنا أقاوم الدعاء والنظر إلى السماء! أما الآن فقد انهارت المقاومة وارتفع الدعاء: «اللهم إن كنت تريد لى دخول المسجد فامنحنى القوة».

نزلت الدَّرَج، دفعت الباب، كان فى الداخل شابان يتحاوران. ردا التحية، وسألنى أحدهما: هل تريد أن تعرف شيئًا عن الإسلام؟ أجبت: نعم، نعم.. وبعد حوار طويل أبديت رغبتى فى اعتناق الإسلام، فقال لى أحدهما: قل أشهد، قلت: أشهد، قال: أن لا إله، قلت: أن لا إله - لقد كنت أؤمن بهذه العبارة معظم حياتى قبل اللحظة - قال: إلا الله، رددتها، قال: وأشهد أن محمدًا رسول الله، نطقتها خلفه».

يقول جيفرى لانج معلقًا على هذه اللحظة: «كانت هذه الكلمات كقطرات الماء الصافية تنحدر فى الحلق المحترق لرجل قارب الموت من شدة العطش، وكنت أستعيد القوة بكل كلمة منها، كنت أعود للحياة ثانية. كنت أنضم إلى أتباع الأنبياء جميعًا الذين يؤمنون بكافة الرسل الذين أُرسلوا فى مختلف العصور لجميع الأجناس والأعراق، مادًا يدى كتابع ومصدق لمن بُعث للإنسانية منذ أربعة عشر قرنًا خلت. إن هذا يعنى التزامًا بطريق عالمى متمتع بقداسة القِدم، بَشَّرَ به حملة عدة رسائل سماوية بشرت بظهور محمد ﷺ. شعرت بالحصانة والأمان والحرية، شعرت أنه بمقدورى الآن أن أحب وأن يحبنى من لا حدود لعطاءاته ونعمه، لقد هويت فى الرحمة النابعة من الحب الأسمى. لقد عدت إلى ملاذى ثانية!» إنه الوعى الحاد والإدراك الروحى والقلبى والعقلى أثناء النطق بالشهادة، بمقتضياتها وأبعادها.

ويضيف جيفرى: «بعد يومين حضرت أول صلاة جمعة، كنا فى الركعة الثانية، والإمام يتلو القرآن، ونحن خلفه مصطَفُّون، الكتف بالكتف، كنا نتحرك وكأننا جسد واحد، كنت أنا فى الصف الثالث، وجباهنا ملامسة للسجادة الحمراء، وكان الجو هادئًا والسكون مخيمًا على المكان!! والإمام تحت النافذة التى يتسلل منها النور يرتدى عباءة بيضاء! صرخت فى نفسى: إنه الحلم! إنه الحلم ذاته... تساءلت: هل أنا الآن فى حلم حقًا؟! فاضت عيناى بالدموع، السلام عليكم ورحمة الله، انقضت الصلاة، ورحت أتأمل الجدران الرمادية! تملكنى الخوف والرهبة، عندها شعرت لأول مرة بالحب الذى لا يُنال إلا بأن نعود إلى الله ﷻ».

ومن الطبيعى أن تنهال الأسئلة على الدكتور جيفرى لانج تبحث عن سر إسلامه، فكان

يجيب: «فى لحظة من اللحظات الخاصة فى حياتى، منَّ الله بواسع علمه ورحمته علىّ، بعد أن وجد ما أكابد من العذاب والألم، وبعد أن وجد لدىَّ الاستعداد الكامل لملء الخواء الروحى فى نفسى، فأصبحت مسلمًا... قبل الإسلام لم أكن أعرف معنى للحب، ولكننى عندما قرأت القرآن شعرت بفيض واسع من الرحمة والعطف يغمرنى، وبدأت أشعر بديمومة الحب فى قلبى، فالذى قادنى إلى الإسلام هو محبة الله التى لا تقاوَم».

فهم جيفرى لانج للإسلام

«الإسلام هو الخضوع لإرادة الله، وطريق يقود إلى ارتقاء لا حدود له وإلى درجات لا حدود لها من السلام والطمأنينة. إنه المحرك للقدرات الإنسانية جميعها، إنه التزام طوعى للجسد والعقل والقلب والروح».

«بعد أن أسلمت كنت أحرص على حضور الصلوات كى أسمع تلاوة القرآن، على الرغم من أنى كنت أجهل العربية. ولما سُئلت عن ذلك أجبت: لماذا يسكن الطفل الرضيع ويرتاح لصوت أمه؟ أتمنى أن أعيش تحت حماية ذلك الصوت إلى الأبد».

«الصلاة هى المقياس الرئيس اليومى لمدى خضوع المؤمن لربه، ويالها من مشاعر رائعة الجمال، فعندما تسجد بثبات على الأرض، تشعر فجأة كأنك رُفعت إلى الجنة، تتنفس من هوائها وتشتمُّ تربتها وتتنشق شذا عبيرها، تشعر وكأنك توشك أن تُرفع عن الأرض، وتُوضع بين ذراعى الحب الأسمى والأعظم».

«إن صلاة الفجر من أكثر العبادات إثارة، فثمة دافع ما فى النهوض فجرًا - بينما الجميع نائمون - لتسمع موسيقى القرآن تملأ سكون الليل، فتشعر وكأنك تغادر هذا العالم وتسافر مع الملائكة لتمجّد الله عند الفجر».

جيفرى والقرآن: وجهًا لوجه[1]

تبدو العلاقة بين القرآن الكريم وجيفرى لانج ذات طبيعة خاصة، تفاعلية وسجالية وحجاجية، لقد تعامل جيفرى مع القرآن بعقلانية منفتحة ومنطقية صارمة وفكر تحليلى تعليلى، طارحًا عليه أسئلة حارقة وهواجس مؤرقة.

(١) رغم عدم معرفة جيفرى لانج باللغة العربية، وتعامله مع ترجمة لمعانى القرآن الكريم باللغة الإنجليزية، وما نتج عن ذلك من حرمانه من الاتصال المباشر بالنص القرآنى، فإنه سبح مع القرآن فى تأملات هائلة وتفاعل حى ويقظ مع منهج الإسلام وروحه.

يخبرنا جيفرى أنه قرر الدخول فى معركة حادة ومبارزة عقلية مع القرآن. فكان يقرأ صفحة فى الترجمة وفى الليل يطرح عشرين أو ثلاثين سؤالًا، وكان القرآن يهزمه، إذ يجد فى الآية التالية أو الصفحة التالية أو السورة التالية الأجوبة المفحِمة على أسئلته. ثم تُفجِر هذه الأجوبة أسئلة أخرى، فيظن أنه أمسك بخناق القرآن، فإذا به مرة أخرى يصرعه، إذ يجد بعد قليل الإجابة التى تغلق عليه كل منافذ الشك والريب والشعور باستحالة الجواب.

ويصف جيفرى هذا الحال قائلًا: «إن القرآن يتحداك بشكل مباشر وشخصى وكأن له حقوقًا عليك، وهو يجادلك وينتقدك ويخجلك. لقد بدا واضحًا لى أن مبدع القرآن يعرفنى أكثر مما أعرف نفسى. لقد كان القرآن يسبقنى دومًا فى تفكيرى ويزيل الحواجز التى كنت بنيتها عبر سنوات، وكان يخاطب تساؤلاتى. لقد قابلت نفسى وجهًا لوجه فى صفحات القرآن، وكنت أشعر بالانقياد بحيث كنت أشق طريقى إلى حيث ليس سوى خيار واحد، كنت خائفًا مما رأيت».

جيفرى ومنهج القرآن

يرى جيفرى أن القرآن قد عمد إلى إصلاح المجتمع، وليس إلى تحطيمه وإعادة بنائه من نقطة البدء، فقام باستبقاء ما كان نافعًا ثم تعديله والبناء عليه. كذلك يهدف القرآن لجعل المسلمين يفكرون بالدين بطريقة جديدة؛ فهو يغرس فى أذهانهم أساسًا جديدًا لحياتهم، ويرقى بنظرتهم إلى العالم إلى أخرى أكثر رفعة وسموًا. لقد نقل هذا المنهج العرب من التقليدية إلى التميز، ومن التهور والاندفاع إلى النظام، ومن الغيبية إلى العلم؛ ومن الحدس إلى التعليل الواعى، وفى النهاية فإنه ينظم المجتمع على نحو مثالى.

ومن أهم ما لاحظه جيفرى، ويلاحظه كل مستشرق غربى معاصر، أن القرآن يعرض العقيدة من خلال «تحدى العقل واستنهاض الفكر التأملى». فعندما يتحدث القرآن عن الكفار والجاحدين والمنكرين، فإنه يسألهم بتحد: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ... ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج]، و﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾ [الشعراء]، و﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ... ﴿٩﴾ ﴾ [الروم]، و﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ... ﴿٦﴾ ﴾ [ق]، و﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾ [الغاشية]، و﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الواقعة]. إن هذه

التساؤلات تؤكد أن برهان صدق الرسالة يوجد فى التاريخ والثقافات والأرض والأكوان والطبيعة وغيرها. فالقرآن يخاطب بآياته مَن ﴿...يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ ... ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة]، و﴿... ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت]، و﴿...أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر]، والذين ﴿... يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية].

ويصف جيفرى دور القرآن الكبير فى إعادة بناء إدراكه ورؤيته للعالم ونظرته للوجود قائلًا: «إن القرآن يأمرنا أن نفكر بعين ناقدة فى سلوكنا ومعتقداتنا. فالخلاص لا يمكن الحصول عليه إلا من خلال تقصى الحقيقة والتسليم بها. إن أحد أهداف القرآن أن يعلمنا كيف نعلل بدقة، وكيف نكشف عما هو متناقض ومتضارب داخل أنفسنا. لذلك تقترن فى العديد من أمثلة القرآن وقصصه ونصائحه دروس تتعلق بالتفكير الصحيح والتفكير الخطأ. ولاستكمال النظرة الموضوعية نجد أن القرآن يشدد على أهمية الدليل والبرهان فى المناقشة، يقول تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة].

لذلك كله لم يكن غريبًا أن يكون كتابَىّ «حتى الملائكة تسأل» و«حتى الخليل إبراهيم يريد أن يطمئن» من أهم كتب جيفرى لانج. فعنوانَىّ الكتابين يشيران إلى أن التفكير والتساؤل هما جوهر الإيمان، حتى عند الملائكة وعند أبى الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم.

هذه رحلة جيفرى لانج الإيمانية، والتى ذكرنا فى مقدمة الفصل أن طريقها كان مزيجًا من الإيمان القلبى والنظر فى القرآن الكريم. الإيمان الذى وَقَّرَه فى قلبه تحقق الرؤيا التى ألحت عليه مرارًا طوال عشر سنوات فى أرض الواقع، مما يعنى أن الله ﷻ قد اصطفاه وقدم إليه البرهان الذى لا يُرد. أما النظر فى القرآن الكريم فقد روى ظمأ عقل جيفرى لانج حتى الثمالة، فأجابه عن كل التساؤلات وسد كل ثغرة للشك.

وإذا كانت الرحلة السابقة لأنتونى فلو - كما وصفها - رحلة عقل لا مكان للإيمان القلبى فيها، ووقفت به عند القول بالألوهية دون الإيمان بدين، فإن رحلة جيفرى لانج للإيمان القلبى فيها نصيب كبير، كما وصلت به لا أقول إلى شاطئ الدين الحق، بل خاضت به بحر الإسلام الممتد.

لذلك لم يعد جيفرى لانج يتصور أن يحيا يومًا واحدًا خارج دائرة الإيمان. وحول هذا المعنى يقول فى إحدى مناجاته لله ﷻ: «يا ربى، إذا ما جنحتُ مرة أخرى نحو الكفر بك، اللهم أهلكنى قبل ذلك وخلصنى من هذه الحياة. اللهم إنى لا أطيق العيش ولو ليوم واحد من غير الإيمان بك». ١

رحلة د. مصطفى محمود

يُعتبر د. مصطفى محمود صاحب أشهر رحلة إيمانية فى العالم العربى فى العصر الحديث. وقد طرحها باختصار ووضوح مذهلين فى كتابه الرائع «رحلتى من الشك إلى الإيمان»، والذى أنصح كل إنسان (مؤمن أو شكاك أو ملحد) بدراسته، وعن هذا الكتاب نلخص رحلة د. مصطفى محمود الإيمانية.

معاناتى مع الشكوك: تمرد العقل

كان ذلك من زمن بعيد لست أذكره .. ربما كنت أدرج من الثالثة عشرة إلى الرابعة عشرة وربما قبل ذلك ..بدأتُ فى مطالع المراهقة أتساءل وأُساءل أقرانى فى تمرد : تقولون إن الله خلق الدنيا لأنه لا بد لكل مخلوق من خالق ولكل صنعة من صانع ولا بد لكل موجود من موجد.. صدَّقنا وآمنا .. فلتقولوا لى إذن من خَلَقَ الله ؟ أم أنه جاء بذاته؟. وإذا كان قد جاء بذاته وصح فى تصوركم أن يتم هذا الأمر .. فلماذا لا يصح فى تصوركم أيضًا أن الدنيا جاءت بذاتها بلا خالق وينتهى الإشكال.

كان وراء ذلك الجدل زهوى بعقلى الذى بدأ يتفتح، وإعجابى بموهبة الكلام ومقارعة الحجج التى انفردت بها .. وليس البحث عن الحقيقة ولا كشف الصواب.

لقد رفضت عبادة الله لأنى استغرقت فى عبادة نفسى وأعجبت بومضة النور التى بدأت تومض فى فكرى مع انفتاح الوعى وبداية الصحوة من مهد الطفولة . وغابت عنى أيضًا أصول المنطق وأنا أعالج المنطق؛ فلم أدرك أنى أتناقض مع نفسى عندما أعترف بالخالق ثم أقول ومن خلق الخالق؟ فأجعل منه مخلوقًا فى الوقت الذى أسميه خالقًا، وهذه هى السفسطة بعينها . فالقول بسبب أول للوجود يقتضى أن يكون هذا السبب واجب الوجود فى ذاته وليس معتمدًا ولا محتاجًا لغيره لكى يوجد . أما أن يكون السبب فى حاجة إلى سبب فإن هذا يجعله إحدى حلقات السببية ولا يجعل منه سببًا أول.

لقد احتاج الأمر ثلاثين سنة من الغرق فى الكتب وآلاف الليالى من الخلوة والتأمل والحوار مع النفس وإعادة النظر ثم إعادة النظر فى إعادة النظر .. ثم تقليب الفكر على كل وجه لأقطع الطريق الشائكة إلى الله. لم يكن الأمر سهلًا .. لأنى لم أشأ أن آخذ الأمر مأخذًا سهلًا.

ولو أنى أصغيت إلى صوت الفطرة وتركت البداهة تقودنى لأعفيت نفسى من عناء

الجدل.. ولقادتنى الفطرة إلى الله .. ولكنى جئت فى زمن تَعَقَّد فيه كل شىء وضعف صوت الفطرة حتى صار همسًا، وارتفع صوت العقل حتى صار لجاجة وغرورًا واعتدادًا. والعقل معذور فى إسرافه، إذ يرى نفسه واقفًا على هرم هائل من المنجزات، ويرى نفسه بانيًا لحضارة مبهرة بما فيها من صناعة وكهرباء وصواريخ وطائرات وغواصات، ويرى نفسه قد اقتحم البر والبحر والجو .. فتصور نفسه القادر على كل شىء، وزج نفسه فى كل شىء، وأقام نفسه حاكمًا على ما يعلم وما لا يعلم.

لا إله إلا العلم

غرقت فى مكتبة البلدية بطنطا وأنا صبى، أقرأ لشبلى شميل وسلامة موسى وأتعرف على فرويد وداروِن.. وشغفت بالكيمياء والطبيعة والبيولوجيا .. وكان لى معمل صغير فى غرفتى أُحَضِّر فيه غاز ثانى أكسيد الكربون وثانى أكسيد الكبريت، وأقتل الصراصير بالكلور وأُشَرِّح فيه الضفادع.

وكان ما يصلنا من أنباء العلم الغربى باهرًا يخطف أبصارنا.. وكنا نأخذ من الغرب كل شىء؛ الكتب والدواء والملابس والمنسوجات والقاطرات والسيارات وحتى الأطعمة المعلبة، حتى قلم الرصاص والدبوس والإبرة، حتى نظم التعليم وقوالب التأليف الأدبى من قصة ومسرحية ورواية، حتى ورق الصحف.

وحول أبطال الغرب وعبقرياته كنا ننسج أحلامنا ومُثُلَنا العليا .. حول باستير وماركونى ورونتجن وأديسون .. وحول نابليون وإبراهام لنكولن .. وكرستوفر كولمبس وماجلان.

كان الغرب هو التقدم.. وكان الشرق العربى هو التخلف والضعف والتخاذل والانهيار تحت أقدام الاستعمار. وكان طبيعيًّا أن نتصور أن كل ما يأتينا من الغرب هو النور والحق .. وهو السبيل إلى القوة والخلاص.

ودخلت كلية الطب، وتعلمت مع ما تعلمت فى كتب الطب النظرة العلمية .. وأنه لا يصح إقامة حكم بدون حيثيات من الواقع وشواهد من الحس. وأن العلم يبدأ من المحسوس والمنظور والملموس، وأن العلم ذاته هو عملية جمع شواهد واستخراج قوانين. وما لا يقع تحت الحس فهو فى النظرة العلمية غير موجود، وأن الغيب لا حساب له فى حكم العلم.

لقد كانت الصيحة التى غمرت العالم هى .. العلم .. العلم .. العلم .. ولا شىء غير العلم.. النظرة الموضوعية هى الطريق.

لنرفض الغيبيات ولنكف عن إطلاق البخور وترديد الخرافات. من يعطينا دبابات وطائرات ويأخذ منا الأديان والعبادات ؟؟

الإله يفرض نفسه

لقد قَدَّمَ لى العلم صورة عن الكون بالغة الإحكام والانضباط .. كل شىء من ورقة الشجر إلى جناح الفراشة إلى ذرة الرمل فيه تناسق ونظام وجمال. الكون كله مبنى وفق هندسة وقوانين دقيقة. كل شىء يتحرك بحساب، من الذرة المتناهية فى الصغر إلى الشمس وكواكبها إلى المجرة الهائلة التى يقول لنا الفلك إن فيها أكثر من ألف مليون نجم.

كل هذا الوجود اللامتناهى من أصغر إلكترون إلى أعظم جرم سماوى صرت أراه أشبه بمعزوفة متناسقة الأنغام مضبوطة التوزيع.. كل حركة فيها بمقدار .. أشبه بالبدن المتكامل الذى تدب فيه روح. لذلك لم أستطع أن أنفى أو أستبعد القوة الإلهية، لقد صار العلم يمدنى بوسيلة أتصور بها الله بطريقة مادية.

ضباب وحدة الوجود: المخلوق هو الخالق!

فى هذه المرحلة تصورت أن الله هو الطاقة الباطنة فى الكون، والتى تنظمه فى منظومات جميلة من أحياء وجمادات وأرض وسماوات . هو الحركة التى كشفها العلم فى الذرة وفى البروتوبلازم وفى الأفلاك .. هو الحيوية الباطنة فى كل شىء ..

كان الوجود فى تصورى لامحدودًا لانهائيًا، لذلك أصبح الله هو الوجود المادى الممتد أزلًا وأبدًا بلا بدء وبلا نهاية.. دون حاجة إلى افتراض الغيب والمغيبات..ودون حاجة إلى التماس اللامنظور.

وبذلك وقعت فى أسر فكرة وحدة الوجود الهندية وما تبعها من فلسفات حديثة(١) .. وكلها فلسفات تبدأ من الأرض..من الحواس الخمس .. ولا تعترف بالغيبيات .. وتلغى الثنائية بين المخلوق والخالق ..فكل المخلوقات هى عين الخالق .. إنه إله يشبه النور الأبيض؛ واحد وبسيط.. لكنه يحوى فى داخله ألوان الطيف السبعة.

وعشت سنوات فى هذا الضباب الهندى وهذه الماريجوانا الصوفية، ومارست اليوجا

(١) فلسفة سبينوزا، وفكرة برجسون عن الطاقة الباطنة الخلاقة.

وقرأتها فى أصولها وتلقيت تعاليمها على أيدى أساتذة هنود، وسيطرت على فكرة تناسخ الأرواح مدة طويلة[1].

وانقشع الضباب،

نسيج واحد يعنى خالق واحد

ثم بدأت أفيق على حالة من عدم الرضا وعدم الاقتناع. وأدركت بينى وبين نفسى أن هذه الفكرة عن الله فيها الكثير من الخلط. ومرة أخرى كان العلم هو دليلى ومنقذى ومرشدى، لقد قالت لى الشريحة الحية تحت المجهر (الميكروسكوب) شيئًا آخر.

كانت وحدة الوجود الهندية عبارة شعرية صوفية تشعرك بالنشوة.. ولكنها غير صادقة..! إن الحقيقة المؤكدة التى يقولها العلم إن هناك وحدة فى الخامة لا أكثر .. وحدة فى النسيج والسنن الأولية والقوانين .. وحدة فى المادة الأولية التى بُنى منها كل شىء .. فكل الحياة من نبات وحيوان وإنسان بنيت من تواليف الكربون مع الهيدروجين والأوكسجين .. ولهذا تتحول كلها إلى فحم بالاحتراق .. وتقوم كل صنوف الحياة على الخلية الواحدة ومضاعفاتها.

كذلك نتعلم من الفلك والفيزياء والكيمياء والعلوم النووية أن الكربون ذاته وجميع العناصر المختلفة جاءت من طبخ عنصر واحد فى باطن الأفران النجمية الهائلة هو الهيدروجين، الذى يتحول إلى هليوم وكربون وسليكون وكوبالت ونيكل وحديد إلى آخر قائمة العناصر، وذلك بتفكيكه وإعادة تركيبه فى درجات حرارة وضغوط هائلة.

و يَرُدُّ هذا جميع صنوف الموجودات إلى خامة واحدة .. إلى فتلة حريرية واحدة.. غُزِل منها الكون فى تفصيلات وتصميمات وطرز مختلفة. والاختلاف بين صنف وصنف وبين مخلوق ومخلوق هو اختلاف فى العلاقات الكيفية والكمية.. فى المعادلة والشفرة التكوينية .. لكن الخامة واحدة .. وهذا سر الشعور بالنسب والقرابة والمصاهرة وصلة الرحم بين الإنسان والحيوان، وبين الوحش ومروضه، وبين الأنف التى تشم والزهرة العاطرة، وبين العين ومنظر الغروب الجميل.

هذا هو سر التناغم والانسجام. إن كل الوجود أفراد أسرة واحدة من أب واحد. وهو أمر لا يستتبع أبدًا أن نقول إن الله هو الوجود، وأن الخالق هو المخلوق. أدركت أن وحدة الوجود الهندية شطحة صوفية خرافية .. وهى تبسيط وجدانى لا يصادق عليه العلم ولا يرتاح إليه

(١) تعنى هذه الفكرة أن الروح تحل بعد موت الإنسان فى جسد إنسان آخر أفضل (إن كان من أهل الخير) أو إنسان شقى أو حيوان (إن كان من أهل الشر). وتجسدت هذه المرحلة من حياة د. مصطفى محمود فى روايتَىّ العنكبوت والخروج من التابوت.

العقل. والأمر شبيه بحالة الناقد الذواقة الذى دخل معرضًا للرسم، فاكتشف وحدة فنية بين جميع اللوحات .. فجميعها مرسومة على الخامة نفسها .. وبذات الألوان.. وأكثر من هذا أن أسلوب الرسم واحد. النتيجة الطبيعية أن يقفز إلى ذهن الناقد أن راسم جميع هذه اللوحات واحد.. ربما كان بيكاسو أو شاجال أو موديليانى .. مثلًا .. فالوحدة بين اللوحات تعنى أن راسمها واحد، ولكنها لا تعنى أبدًا أن هذه الموجدات هى ذاتها الموجِد.

إن النظرة العلمية المتأملة لظواهر الخلق والمخلوقات تقول إن هناك وحدة بينها .. وحدة أسلوب ووحدة قوانين ووحدة خامات، تعنى جميعها أن خالقها واحد لم يشرك معه شريكًا يسمح بأسلوب غير أسلوبه، سبحانه الخالق البارئ المصور.

التوازن العظيم

فى رحلاته عبر الزمان وعبر المكان، ومع الذرة والكون والحياة، ومع بنية جسم الإنسان ووظائفه، كانت عينا د. مصطفى محمود دائمًا على ما فى هذه العوالم من توازن رهيب، توازن لو اختل بجزء من ألف جزء أو مليون أو مليار لما أمكن لهذه العوالم أن تقوم. ويعلق د. مصطفى محمود على هذا التوازن قائلًا:

إن القول بأن كل هذا الاتساق والنظام حدث بعشوائية وصدفة هو السذاجة بعينها. كقولنا إن انفجارًا فى مطبعة أدى إلى أن تتراص الحروف على هيئة قاموس محكم.

والكيميائى المغرور الذى قال آتونى بالهواء والماء والطين وظروف نشأة الحياة الأولى وأنا أصنع لكم إنسانًا، هذا الكيميائى قرر احتياجه سلفًا لكل العناصر والظروف، وهو اعتراف بالعجز عن تقليد صنعة الخالق الذى خلق كل شىء وخلق ظروفه أيضًا. ولو أنا أتيناه بما طلب، ولو أنه فرضًا وجدلًا استطاع أن يخلق إنسانًا... فإنه لن يقول.. صنعته الصدفة... بل إنه سوف يقول.. صنعته أنا.. إذًا لا بد من صانع.

والكلام عن القرد الذى يجلس إلى آلة كاتبة لمدى اللانهاية من الزمان ليدق لانهاية من المحاولات، وكيف أنه لا بد يومًا ما أن يدق بالصدفة بيتًا لشكسبير أو جملة مفيدة، هو كلام مردود عليه[1].

هذا التوازن العظيم والاتساق المذهل والتوافق والتلاحم والانسجام الذى يتألف من ملايين الدقائق والتفاصيل يصرخ بأن هناك مبدعًا لهذه البدائع، وأنه إله قادر جامع لكل

(١) فندنا هذا الادعاء فى الفصل العاشر عند نقدنا لمفهوم «الانتخاب الطبيعى التراكمى».

الكمالات. إنه الإله الذى وصفته الأديان، وليس القانون الأصم الذى تقول به العلوم المادية البكماء.. ولا إله أرسطو المنعزل. ولا إله أفلاطون القابع فى عالم المُثل.. ولا هو الوجود المادى بكليته كما تصور أتباع وحدة الوجود.

غَرَقَ العلمُ فى الغيبيات

عندما قلنا للعقل العلمى إن الله ﷻ ليس محدودًا ولا يقع فى مدى الأبصار.. وإنه اللانهاية.. وإنه الغيب، أجابنا: إنه لهذا لا يعترف بالإله، فليس من العلم الإيمان بالغيب، فمجال العلم هو المحسوس، به يبدأ وإليه ينتهى.

نقول للعقل العلمى: كذبت، إن نصف العلم الآن أصبح غيبًا!

فعندما اكتشف نيوتن الجاذبية، فسرت لنا الكثير.. وقوع التفاحة من شجرتها، وصعوبة تسلق الجبل، وصعوبة رفع الحجر الكبير، وتعلُّق القمر فى السماء.. إنها نظرية فسرت لنا الواقع. ومع ذلك فهذه الجاذبية غيب لا أحد يعرف كنهها.. نيوتن نفسه يقول فى خطاب إلى صديقه بنتلى: إنه لأمر غير مفهوم أن نجد مادة لا حياة فيها ولا إحساس تؤثر على مادة أخرى وتجذبها مع أنه لا توجد بينهما أية علاقة. فها هى أصبحت نظرية علمية نتداولها ونؤمن بها ونعتبرها علمًا.. وهى غيب فى غيب.

كذلك الإلكترون والموجة اللاسلكية والذرة والنيترون، لم نر منها شيئًا ومع ذلك نؤمن بوجودها اكتفاء بآثارها، ونقيم عليها علومًا متخصصة ونبنى لها المعامل والمختبرات.. وهى غيب فى غيب .. بالنسبة لحواسنا.

العلم لم يعرف «ماهية» أى شىء على الإطلاق. ونحن لا نعرف إلا أسماء.. نحن نتبادل مصطلحات دون أن نلمس لها كُنهًا. والله ﷻ عَلَّمَ آدم الأسماء فقط ولم يعلمه المسميات ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ... ﴿٣١﴾ ﴾ [البقرة] وهذه هى حدود العلم.

نحن فى عصر العلم الغيبى والضرب فى متاهات الفروض. وليس للعلم الآن أن يحتج على الغيبيات بعد أن غرق إلى أذنيه فى الغيبيات.

وأولى بنا أن نؤمن بعالِمِ الغيب.. خالقنا البر الكريم.. الذى نرى آثاره فى كل لمحة عين وكل نبضة قلب وكل سبحة تأمل.

هكذا قدم لى العلم الفكرة الإسلامية الكاملة عن الله ﷻ.

يقول د. مصطفى محمود: أثناء دراستى للتشريح، كنت أتصور أنى يمكن أن أفهم الروح إذا شَرَّحت الجسد وأن لا فرق بين الإثنين؛ الروح هى البدن.. والعقل هو المخ.. والشخصية هى ردود الفعل ومجموع الأفعال المنعكسة.. والعاطفة فى نهاية الأمر جوع جسمانى. وكان ذلك يعنى أن النفس ما هى إلا مجرد حوافز الجوع والجنس ومجموعة الاستشعارات التى يدرك بها الجسد ما يحتاجه.

ثم تنبهت أن الإنسان يضحى بلقمته وبيته وفراشه الدافئ فى سبيل أهداف ومُثُل وغايات شديدة التجريد كالعدل والحق والخير والحرية.. فأين حوافز الجوع والجنس هنا؟!.. والمحارب فى الميدان يضحى بنفسه على مدفعه فى سبيل غد لغيره لم يأت بعد.. أين هذا من التفسير المادى؟! إننا أمام إثبات قاطع بأن النفس والذات حقيقة متجاوزة وعالية على الجسد، وليست مجرد احتياجات الجسد الحسية معكوسة فى مرآة داخلية.

وإذا كنت أنا الجسد، فكيف أتحكم فى الجسد وأُخضعه؟ إن الهيمنة الداخلية على جميع عناصر الجسد ومفردات الغرائز هى الشهادة الكاشفة عن ذلك العنصر المتعالى والمفارق الذى تتألف منه الذات الإنسانية.

إن تلك الإرادة الهائلة التى تضحى بالجسد لا بد أن تكون حقيقة عالية بطبيعتها وآمرة ومهيمنة عليه. عن طريق النفس أتحكم فى الجسد، وعن طريق العقل أتحكم فى النفس، وعن طريق البصيرة أضع للعقل حدوده. إن هذا التفاضل بين وجود مادى ووجود يعلو عليه ويحكمه هو الإثبات الواقعى الذى يقودنا إلى الروح كحقيقة عالية متجاوزة للجسد وحاكمة عليه، وليست ذيلًا وتابعًا تموت بموته.

وتعتبر عملية الإدراك والوعى عند الاستيقاظ من النوم إثبات أكيد بأن هناك شيئين فى كل لحظة.. الشيء المدرَك، والنفس المدرِكة خارجه. وإنه لقانون معروف إن التغير لا يمكن رصده إلا من خارجه، لذلك لا يمْكننا رصد حركة الأرض ونحن نسكن عليها وإنما نستطيع رصدها من القمر.

وهكذا دائمًا.. لا تستطيع أن تحيط بحالة إلا إذا وقفت خارجها ولاحظتها كموضوع.. لذلك لا تستطيع أن تدرك مرور الزمن إلا إذا كانت ذاتك المدركة خارج الزمن. وهذه نتيجة

مذهلـة تثبت الروح أو الذات المدركـة كوجود مستقـل متعـال على الزمـن ومتجاوز له وخـارج عنه.

ها نحن أولاء أمام ثنائية إنسانية حقيقية، جزء منها غارق فى الزمن ينصرم معه ويكبر معه ويشيخ معه ويهرم معه، وجزء منها خارج عن هذا الزمن يلاحظ الجسد من عتبة السكون ويدركه دون أن يتورط فيه، ولهذا فهو لا يكبر ولا يشيخ ولا يهرم ولا ينصرم.. ويوم يسقط الجسد ترابًا سوف يظل هذا الجوهر على حاله حيًا حياته الخاصة غير الزمنية.. ولا نجد لهذا الجوهر اسمًا غير الاسم الذى أطلقته الأديان وهو الروح.

ونحن حينما ندرك الجمال ونميزه عن القبح، وندرك الحق ونميزه عن الباطل، وندرك العدل ونميزه عن الظلم.. فنحن فى كل مرة نقيس بمعيار .. بمسطرة منفصلة عن الحادث الذى نقيسه.. فنحن إذن نقيس من العتبة نفسها.. عتبة الروح.

وحينما نعيش حياتنا لا نضع اعتبارًا للموت ونتصرف فى كل لحظة دون أن نحسب له حسابًا.. وننظر إلى الموت كأنه اللامعقول.. فنحن في الواقع نفكر ونتصرف بهذه الأنا العميقة التى هى الروح والتى لا تعرف الموت بطبيعتها. فالموت بالنسبة للروح التى تعيش خارج الزمن ليس إلا تغيير ثوب.. لا أكثر من انتقال.. أما الموت كفناء وكعدم فهو أمر لا تعرفه.

الروح، تلك النقطة المركز داخل الدائرة. الذى تدور حوله أحداثنا الدنيوية الزمنية، وهو شاخص فى مكانه لا يتحرك ولا ينصرم له وجود.

الروح.. حقيقتنا المطلقة التى هى برغم ذلك لغز.

ونختم هذه الجولة مع رحلة د. مصطفى محمود الإيمانية بتشخيصه النهائى لما يعانيه شبابنا المعاصر من شكوك تجسد الانهزامية التى يعانى بعضهم منها، انظر إليه وهو يقول:

لم يكن العلم الحق أبدًا مناقضًا للدين بل دال عليه، وإنما نِصفُ العلم هو الذى يوقع العقل فى الشبهة والشك.. وبخاصة إذا كان ذلك العقل مزهوًّا بنفسه معتدًّا بعقلانيته.. وبخاصة إذا دارت المعركة فى عصر يتصور فيه العقل أنه كل شىء.. وإذا حاصرت الإنسان شواهد حضارة مادية صارخة تزأر فيها الطائرات وسفن الفضاء والأقمار الصناعية، هاتفة كل لحظة. أنا المادة. أنا كل شىء.

رحلة د. عبد الوهاب المسيرى

أختم هذه الجولة برحلة د. عبد الوهاب المسيرى الإيمانية، فهى الأعمق دون شك، كما أنها الأشد تأثيرًا فى فكرى وشخصيتى، وربما يرجع ذلك لعلاقتى الشخصية به، ولإلمامى بأطراف هذه الرحلة بعد أن أَلَّفْتُ عنها كتابًا بعنوان «رحلة عبد الوهاب المسيرى الفكرية، قراءة فى فكره وسيرته»[1].

بذور الشك

يقول د. المسيرى: حينما كنت فى السنة النهائية فى مدرسة دمنهور الثانوية، وأنا بعد فى السادسة عشرة، بدأت بعض الأسئلة الأساسية تهاجمنى بإلحاح شديد، من أهمها أسئلة عن أصل الشر فى العالم والحكمة من وجوده، وعن أصل الكون والإنسان. وشهد هذا العام بداية دراستى لمادة الفلسفة، التى خلبت لبى تمامًا، وساعدتنى على تنويع أسئلتى وتعميقها وصياغتها بطريقة متبلورة.

لم يكن أحد من أعضاء أسرتى قادرًا على تقديم أجوبة شافية لهذه التساؤلات، فمعظمهم كان يصلى ويصوم بحكم العادة والتقاليد. أما أقرانى فلم يكونوا فى مستواى الفكرى، ولذا عجزوا أيضًا عن محاورتى. وهذا ما جعلنى أشعر أن الإيمان الدينى مسألة جبن وإحجام عن التساؤل وهذا ما لا يقبله من كان فى سنى.

وفى النهاية، ذهبت إلى مدرس اللغة العربية (والدين) أسألة، فأجاب بأن هذا العالم المخلوق لا بد أن يكون له خالق، وبذا فالأمور واضحة تمامًا، وهنا سألته ومن خالق الشر؟ فقال إن العقل يعجز عن إدراك مثل هذا، وتركنى وحيدًا مع إجاباته البسيطة السهلة التى لم تشف لى غليلًا، بل قوَّضت من إيمانى. وانتهى بى الأمر أن أعلنت أننى لن أصلى ولن أصوم إلى أن أجد إجابة عن أسئلتى.

ثم اتسعت دائرة الحوار مع بعض المثقفين بعد التحاقى بجامعة الإسكندرية. وكان فى كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية (الذى التحقت به) مجموعة من الأجانب ممن لا يحجمون

(١) هذا العرض مأخوذ عن هذا الكتاب. نشرته الهيئة العامة لقصور الثقافة التابعة لوزارة الثقافة بمصر.

عن مناقشة مثل هذه الأمور بحرية بالغة، مما أتاح أمامى الفرصة لطرح المزيد من الأسئلة إلى أن أصبح الشك مكونًا أساسيًّا فى رؤيتى.

فراغ لم تملؤه إلا الماركسية

خلق ما اعترانى من شك فراغًا فى نفسى، فلم يعد من الممكن قبول الأُطر القديمة، وكان لا بد من أن يُملأ هذا الفراغ العقائدى (أو الأيديولوجى)، وبما أننى كنت ثائرًا ضد الظلم الاجتماعى، كان من الحتمى تقريبًا أن أتوجه للماركسية.

كان اهتمامى بالماركسية فكريًّا (من خلال القراءة) فى بداية الأمر، إلى أن التقى بى أحد أعضاء حدتو (الحزب الشيوعى) وجنَّدنى عضوًا فى الحزب عام ١٩٥٥. ثم تم تصعيدى إلى مستويات أعلى فى الحزب نظرًا لمعرفتى باللغة الإنجليزية وبالمصادر الأولية للفكر الماركسى.

سلوك الرفاق انتشلنى من الماركسية!

بعد فترة، بدأت ألاحظ أن السلوك الشخصى للرفاق كان متناقضًا مع جميع القيم الدينية والإنسانية، وأن النرجسية (الإعجاب بالذات) كانت متضخمة عند بعضهم للغاية، كما كانت الحريات الأخلاقية التى يسمحون لأنفسهم بها كاملة. كذلك كانت ماركسية بعضهم تنبع من حقد طبقى أعمى وليس من إيمان بضرورة إقامة العدل فى الأرض، بل كثيرًا ما كنت أشعر أن بعضهم كان ماركسيًّا بحكم وضعه الطبقى وحسب، وأنه لو سنحت له الفرصة للفرار من طبقته والانضمام للطبقات المستغلة الظالمة لفعل دون تردد وطلَّق ماركسيته طلاقًا باتًا.

كذلك كانت صفوف الحزب تزخر بالأجانب وبأعضاء الجماعات اليهودية وبالحماسة للحرب ضد فرانكو فى إسبانيا مع إهمال الجهاد ضد الصهاينة فى فلسطين!، فقد كان هذا الجهاد يُعَدُّ سقوطًا فى قبضة الرجعية العربية، وكان حل الصراع العربى الإسرائيلى - فى تصورهم - هو التحالف بين العمال والفلاحين اليهود والعرب ضد الرأسماليين والإقطاعيين العرب واليهود[1]!.

لكل هذا قدَّمت استقالتى، وطلبت أن أُعَدَّ من أصدقاء الحزب لا من أعضائه.

---

(١) يحكى د. المسيرى نقلًا عن أحد الرفاق الفلسطينيين ما حدث له مع مجموعة من الشيوعيين المتطرفين الغربيين الذين حضروا إلى معسكر تدريب الفدائيين. فعندما بدأ الرصاص ينهال عليهم، بتدبير سابق، تصرفوا مثل أى بشر، أى اختبئوا تحت السيارات، ولكن ما فاجأه هو أن كل واحد منهم بدأ يتلو أدعية دينية ويطلب العون من الإله!.

يمكن تلخيص «الرحلة الوجودية والفكرية» فى حياة د. المسيرى فى خمس مراحل:

- هيمنة النموذج المادى الفلسفى (الأفكار المادية) عليه، بعد أن اجتاحه الشك فى دمنهور ثم الإسكندرية[1].
- ثم إدراكه التدريجى عجز النموذج المادى عن الإحاطة بالإنسان، نظرًا لبساطة هذا النموذج وسذاجته واختزاليته.
- ثم إحساسه المتزايد بتركيبة الإنسان وثنائيته (المادة والروح).
- ثم الإقرار بأن إنسانية الإنسان التى مصدرها عنصر غيبى (الروح) لا يفسرها إلا وجود الإله.
- ثم النظر فى الديانات السماوية والشرقية واختياره الإسلام دينًا.

يقول د. المسيرى واصفًا هذه الرحلة: لقد كانت رحلتى من الإلحاد إلى الشك ثم إلى الإيمان رحلة عقلية صِرفة، كان محركها الأول تأملى لطبيعة الإنسان المركبة. ولم يكن انتقالى من ضيق المادية إلى رحابة الإنسانية عملية سهلة، فأنا لم أدرك بسهولة أن هناك قانونين: أحدهما للإنسان والآخر للمادة، وليس قانونًا ماديًا واحدًا يسرى على كليهما. لقد كان الانتقال عملية طويلة شاقة استمرت أكثر من ربع قرن، فالفلسفة المادية فلسفة مريحة، تختزل الواقع وتختزل الوجود الإنسانى فى قوانين المادة، ولذا فهى قادرة على تزويد الإنسان بأجوبة واقعية وسريعة ومريحة.

مقدمات العثور على الذات

بالرغم من اقتناع د. المسيرى العقلى بالإلحاد، فقد كان الشعور بتجاوز الإنسان للمادية كامن دفين فى وجدانه، وقد ساعدت عدة عوامل هذا الشعور على التبلور والتجسد، ويعرضها د. المسيرى قائلًا:

١ ـ أُلقيت بذور التراحم فى تربيتى الفكرية خلال نشأتى فى المجتمع التقليدى فى دمنهور، وقد روتها ثقافتى الإسلامية التى تلقيتها وقتئذ.

(١) ناقشنا هذا النموذج كما يرصده د. المسيرى فى آخر الفصل الأول، تحت عنوان «متتالية الفكر المادى والحضارة المادية ثم الإلحاد». ورأينا كيف تقود هذه المتتالية إلى الإلحاد.

٢ ـ يُعتبر الأدب (الذى توجهت لدراسته)، هو التخصص الوحيد الذى لا يزال يتعامل مع الإنسان بوصفه كائنًا مُركّبًا لا يمكن تفسيره فى ضوء عنصر أو عنصرين (على عكس الاقتصاد، على سبيل المثال، الذى يدرس الإنسان، فى معظم الأحوال، فى إطار المعطيات الاقتصادية وحسب).

٣ ـ حينما قررت الارتباط بالدكتورة هدى، ظهر تناقض بين النموذج المهيمن علىّ (الفكر المادى) وبين العاطفة وما ينبنى عليها من سلوك وتضحيات.

٤ ـ حينما رزقنى الله ابنتى نور، وجدت نفسى أنا العقلانى المادى أواجه معجزة جعلتنى أغرق فى التأمل. طفلة تولد، وبعد ولادتها بلحظات تنظر بعينيها الواسعتين حولها. ووجدت زوجتى تتحول بين يوم وليلة إلى أم تطعم الصغيرة بثدييها وترتبط بابنتها ارتباطًا جنونيًّا لم أرَ مثله. زميلتى فى الجامعة والتى كنت أذهب معها إلى السينما والرحلات أصبحت أمًّا ودخلت عالمًا جديدًا أقف أنا على أطرافه دَهِشًا، وأحسست بالهجران. ثم فوجئت بأن زوجتى قررت ألا تستمر فى دراستها العليا؛ لأنها لا تريد أن تحرم ابنتها من حق ممارسة كل وظائفها البيولوجية بما يتفق مع إيقاعاتها الجسدية ويريحها عصبيًّا. فزعت من نفسى ساعتها لأننى لم أفكر فى هذا، ولم أفكر إلا فى الأداء والإنجاز المادى فى رقعة الحياة العامة.

وبدأت أتأمل فى هذا الكائن الجديد الذى دخل حياتى: هل يمكن أن يكون نتيجة تفاعلات كيميائية وإنزيمات وغدد وعضلات فقط؟ هل هذا الإنسان هو جماع أعضائه المادية وثمرة المصادفة، أم أن هناك شيئًا ما يجاوز السطح المادى؟ هل الإنسان فعلًا جزء من الطبيعة، خاضع لقوانينها وأهوائها، أم أن فيه أسرارًا وأغوارًا؟، لقد أصبحت ظاهرة الإنسان بالنسبة لى ظاهرة غير مادية غير طبيعية، معجزة بكل المعايير المعروفة لدى.

٥ ـ ثمة ليلة لن أنساها أبدًا، أسميها «ليلة بكاء الطفلة»، إذ استيقظت ابنتنا نور وهى لم تكمل عامين بعد، وأخذت تبكى بصوت عال، مزيج من الفزع والحزن لم ندرك سببهما، كلما حملتها أمها على كتفها سكتت، ولكن إذا اقتربْتُ منها تصرخ بأعلى صوتها، وظلت أمها معها إلى أن نامت. لقد أدركت بعضًا مما فى داخلنا من أسرار وأدركت مدى احتياجنا للأم.

٦ ـ عندما رزقنا الله ابننا ياسر، تصورت أنا وزوجتى أننا تدربنا على تنشئة الأطفال، وإذا به يختلف تمامًا عن أخته وتطلبت تنشئته مهارات جديدة. فابنتنا نور تحب التجريب ولا تخشاه وتتميز بقدراتها اللغوية، أما ياسر، فيكره التجريب ويعيش فى عالم الأرقام. ونتيجة لهذا الاختلاف، ترسخ اعتقادى بالإنسان المعجزة الذى يجاوز العوامل الوراثية والبيئية التى يتفق فيها ياسر مع نور. كما بدأت أدرك أهمية الأسرة فى عملية التنشئة، وتساءلت، كيف يمكن للموظف المختص بتنشئة الأطفال فى المجتمع الشيوعى ـ مهما بلغ من تخصص ـ أن يدرك الاحتياجات النفسية للطفل، والتى تختلف من طفل لآخر.

٧ ـ ثم كان لقائى مع سيرة الزعيم المسلم مالكولم إكس[1] الذى كان يعمل قوادًا ومهربًا للمخدرات.

(١) Malcolm X: (١٩٢٥ – ١٩٦٥م)، أمريكى أفريقى مسلم، من دعاة حقوق الإنسان، ويُعد أحد أهم الأمريكيين من أصل أفريقى فى تاريخ أمريكا. وبينما هو فى السجن التحق بجمعية أمة الإسلام، التى سرعان ما صار زعيمًا لها، وقد قتله المتعصبون البيض قبل أن يُكمل العام الأربعين من عمره.

وحينها دخل السجن، أقنعه المسلمون السود بالإسلام، وبدأت حياته فى التغير. فبدأ يدرك عالمية الرؤية الإسلامية للإله (رب العالمين)، وأنه بعيد كل البعد قريب كل القرب فى آن واحد، كما أدرك الطبيعة الجماعية للإسلام (فى مقابل الفردية الأنانية فى المجتمع الأمريكى). وفى أثناء حجه إلى مكة، اكتشف مالكوم إكس إمكانية تحقيق المساواة بين البشر، فتجاوز كرهه للبيض، وعاد إلى الولايات المتحدة لينظم حزبًا جديدًا يجمع بين البيض والسود فى رفض المادية، فحصدته رصاصات التمييز العنصرى الغادرة.

ما أروعك أستاذى المسيرى؛ أمور تمر علينا مر الكرام، نحسبها بديهيات الحياة، فإذا بك تعتصر منها رحيق الإيمان الذى يُسكر القلب وبراهين الألوهية التى تُسجد العقل.

محطات فى رحلة الإيمان

يقول د. المسيرى: مررت فى سبيل تحقيق التحول من الإلحاد إلى الشك إلى الإيمان بعدد من المراحل، وكنت أجاهد للبقاء فى كل مرحلة وصلت إليها - حتى أظل أقرب للمادية - ولا أفارقها إلى غيرها إلا مضطرًا، بعد أن تعجز عن الإجابة عن تساؤلاتى وتفشل فى الحفاظ على طمأنينتى النفسية.

المرحلة الأولى: أدركت تركيبية الظاهرة الإنسانية

بَدَأَت «المرحلة الأولى» عندما لاحظت أن بعض الكتابات الأدبية والفلسفية الغربية (وخصوصًا تلك التى توصف بأنها «صوفية») تقع فى خلط شديد، إذ لا تُفَرِّق بين «الروحى» و«المادى». فمن الشائع فى الولايات المتحدة أن يصف أحدهم زيارته للمتحف أو للمطعم أو لعرض مسرحى أو غنائى (بل وتجربته الجنسية) بأنها كانت تجربة «روحية». لقد اكتشفت أن هؤلاء يتبنون «روحانية مادية» تتحد فيها الروح بالمادة والمقدَّس بغير المقدس. إن ثنائيتهم زائفة لا تمثل اختلافًا حقيقيًا بين عنصرين، إنما اختلاف فى التسمية فقط.

إنه نفس الفكر الكامن وراء الرأسمالية الاستهلاكية والإمبريالية والفلسفات الفاشية[١]، فكلها تعلن أن الفردوس هنا (اليوتوبيا التكنولوجية)[٢]! أدركت أن هذا الفكر يؤمن بانتصار المادة وإلغاء استقلال الإنسان عن النظام الطبيعى المادى، ويدعى أن ذلك يحقق للإنسان كل أشكال النعيم!.

(١) الفاشية Fascism؛ حكم استبدادى يقوم على التعصب القومى، كالنازية والصهيونية.
(٢) تعنى أن التكنولوجيا تحقق للإنسان حلم المدينة الفاضلة والفردوس الأرضى.

حينئذ تخليت عن نظرتى للعالم باعتباره وجودًا واحديًا ماديًّا بسيطًا يقوم فقط على العلاقات الاقتصادية، وانتقلتُ من سذاجة المادية واختزاليتها إلى إدراك تركيبية الظاهرة الإنسانية.

المرحلة الثانية: تبنيت العنصر الكونى

اضطرنى الإقرار بخصوصية الإنسان إلى البحث عن مفاهيم ثابتة فى عالم المادة تؤكد استقلاليته وحريته وقداسته، وتحتفظ به فى الوقت نفسه داخل الإطار المادى، ويالها من مفارقة! ولعدم تقبلى وجود «العنصر الربانى» فى الإنسان آنذاك، فقد تبنيت ما أطلقتُ عليه «العنصر الكونى». والعناصر الكونية هى «مفاهيم معنوية مبهمة» توجد داخل عالم المادة، واستقر فى فهم الإنسان عبر التاريخ أنها تحقق مصلحته. وقد أشعرنى ذلك بقدر من خصوصية الإنسان.

من أمثلة العناصر الكونية التى تبنيتها لفترة «أهمية الاتزان والتفاهم مع الطبيعة». فقد لاحظت أن الإنسان باسم «التقدم» يستهلك موارد الطبيعية بسرعة فائقة وغير رشيدة، مما يؤدى بنا إلى الهلاك: بيئة ملوثة، عالم نتنافس فيه على المواد الخام، كوكب أقرع لا خضرة فيه، أنهار تحمل الأحماض القاتلة بدلًا من المياه الصافية، هواء يحمل كميات محترمة من أول أوكسيد الكربون. وحينما أقرأ جريدتى اليومية فى الصباح، أتذكر كمية الأشجار التى قطعتها الفأس الصناعية العلمية لتزودنى بكم هائل من الأخبار أنا فى غنى عنها، فقد سمعتها فى النشرة الإخبارية. لقد أدركت أن التقدم العلمى سيؤدى إلى ورطة كونية، ولا يمكن الوقوف ضد هذا الاتجاه إلا بالإيمان بمفاهيم استقرت فى أنفسنا عبر التاريخ، تؤكد أهمية الاتزان والتفاهم مع الطبيعة.

كذلك لاحظت أن هذا الاستنزاف امتد إلى داخل الإنسان نفسه. فقد بدأ الإنسان يفقد ذاته ويعيش فى غيبوبة كاملة من المخدرات والشذوذ الجنسى، وشرع فى إجراء تجارب تؤدى حتمًا إلى خلق أمساخ من البشر. عند ذلك تنبهت إلى مبدأ تَرَسَّخ عبر التاريخ، وهو «أن الإنسان الواعى خير من الإنسان الذى يفقد رشده، وأن العلاقة الجنسية المثلى هى العلاقة بين الرجل والمرأة وليس بين فردين من نفس الجنس».

كذلك يُعتبر اهتمامى بالتاريخ مثالًا لمفهوم «العنصر الكونى»، فالتاريخ من صنع الإنسان وليس من صنع الطبيعة/ المادة. وقد ترجم هذا الاهتمام نفسه إلى «ضرورة تأكيد الهوية القومية». وللتعبير عن هذه الهوية بدأت فى تغيير بعض معالم حياتى. فكنت، على سبيل المثال، أرتدى جلبابًا ريفيًّا فى الحفلات التى تُقام لتوديعى فى الولايات المتحدة إعلانًا عن أن عودتى لوطنى ليست عودة جسدية وإنما عودة روحية.

ولعل عدائى للصهيونية ينبع من أنها أيديولوجية تنكر التاريخ، وبالتالى تعادى الإنسان والقيم، ولذا تبنيت القضية الفلسطينية التى تحولت إلى القضية المحورية فى حياتى؛ فهى قضية ذات مضمون أخلاقى واضح لا يمكن التفاوض بشأنها (عنصرًا كونيًّا)، ولا يمكن للإنسان أن يرفضها إلا من منظور داروينى مادى شرس (البقاء للأقوى).

المرحلة الثالثة: أدركت فطرية الخير

كنت ألاحظ أن معظم البشر برغم ما فيهم من شرور يحوون قدرًا كبيرًا من الخير، مما طرح عليَّ تساؤلات: كيف نفسر هذا الخير؟ هل الإنسان الطبيعى/ المادى قادر على إتيان أفعال الخير؟ لِمَ أفعل الخير وأتحاشى الشر؟ على أى أساس يمكن أن نحكم على الأشياء؟ لماذا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر؟ هل هناك معروف وهل هناك منكر؟ وحينما يسقط كل شىء فى قبضة الصيرورة (الإقرار بالأمر الواقع) ألا يصبح كل شىء مباحًا؟...

ولاحقتنى الأسئلة تطاردنى وتنهكنى وكادت تقضى على، خاصةً حينما أقوم بفعل فاضل يكلفنى الكثير. أمر مُرهِق حقًّا أن يفكر المرء بتوتر فى كل موقف يواجهه، ليحكم عليه فى ضوء نموذجين متناقضين يتصارعان داخله؛ أحدهما مادى والآخر إنسانى، ثم يقرر ودون سبب واضح أن يختار الثانى دون الأول. وقد استمر بحثى المحموم لمدة ربع قرن قبل أن أصل إلى ما وصلت إليه من قناعات إيمانية.

ربما أعاننى على الإجابة عن هذه التساؤلات قصيدة «الملاح القديم» لكوليردج[1]، وهى من الشعر الرومانتيكى[2]. وتحكى القصيدة قصة ملاح يتسم بسطحية الماديين ونفعيتهم، فيصرع طائر القطرس الأبيض (رمز الجماعة الإنسانية والمحبة، وأيضًا رمز الإله)، عندئذ يواجه عالمًا ماديًا بلا إله، لا رحمة فيه ولا محبة، وتصبح الحياة خرابًا يبابًا وتتوقف سفينته عن الإبحار، بل تتعفن المياه ذاتها. وبالتدريج يكتشف الملاح أن عالم المادة وحسابات المكسب والخسارة لا تنفع كثيرًا فى عالم الإنسان. عندها يتحول عالمه من مادة محضة إلى عالم تسرى فيه الروح والقداسة، فيدرك جمال أصغر المخلوقات البحرية وأكثرها قبحًا ويباركها، ويفقد الرغبة فى السيطرة والتحكم. حينئذ تذهب اللعنة وتحل البركة، بعد أن أثبت مقدرته على الحب وعلى الإحساس بالجمال وعلى الانطلاق من عالم المادة. ويعود الملاح للجماعة الإنسانية بعد طول غربة وعزلة وانفصال. هذه القصيدة تركت فىَّ أثرًا عميقًا وجعلتنى أبحث فى غير المنظور.

لقد تنبهت إلى خطورة المادية والنسبية المطلقة واستحالة أن يعيش الإنسان فى عالمه المادى دون مركز ودون قيم ودون مرجعية. لقد أيقنت أنه لا يمكن «الحكم» على شىء ولا يمكن التمييز بين الخير والشر مع غياب الأسس المعيارية، فإصدار حكم على شىء ما يتطلب وجود أرضية فلسفية وأخلاقية تحوى بعض المسلمات والبديهيات المتجاوزة لقوانين المادة والحركة، تجعل بوسعنا الحكم والتميز.

(١) Samuel T.Coleridge: (١٧٧٢ - ١٨٣٤م)، الشاعر والفيلسوف الرومانسى البريطانى.

(٢) ظهرت الحركة الرومانسية كرد فعل فى مواجهة مادية الاستنارة الغربية، منذ منتصف القرن الثامن عشر، وقد أثرت فى المجالات الفلسفية والأدبية والشعرية والفنية، وتتميز الحركة بالتوجهات الإنسانية والشعورية والطبيعية.

المرحلة الرابعة: مصدر «حرية الإرادة»؟

كانت كتابات جون ستيورات ميل[1] ـ الأخيرة بالذات ـ تستهوينى، فقناعات فيلسوف النفعية والليبرالية أخذت تهتز بشدة فى أواخر حياته، وكان يردد: «خير لى أن أكون سقراطًا ساخطًا عن أن أكون خنزيرًا راضيًّا».

فكنت بدورى أتساءل: إذا كان الخنزير يعيش فى عالم الحواس والمادة، ولا يسأل عن أى أخلاقيات أو مطلقات، ولا تهاجمه أى شكوك أو تساؤلات، فماذا عن سقراط؟ لماذا هو ساخط؟ ولماذا نُفَضِّله على الخنزير الراضى؟.

ويجيب الفيلسوف «لقد صار الخنزير خنزيرًا دون اختيار، أما سقراط فقد شاء ألا يكون خنزيرًا. «حرية الإرادة» هى إذن المدخل لعملية التفضيل». ومن ثم فهى الباب لكوننا بشرًا.

عندئذ سألت نفسى: وإذا كانت نشأتنا مادية محضة، فما مصدر حرية الإرادة هذه؟ بدأت أفكر؛ هل هى النور الذى يضعه الإله فينا ويُعَبِّر به عن نفسه؟

المرحلة الخامسة: وداعًا للشك، كتاب «الفردوس الأرضى»

فى كتابى «الفردوس الأرضى» (بدأته عام ١٩٧١ وانتهيت منه عام ١٩٧٩) عرضت معاناتى وناقشت كل تساؤلاتى. والأهم من هذا، أن الكتاب ملىء بالإشارات ذات النكهة الدينية، فعلى سبيل المثال حينما كتبت عن حركة الهيبيز[2] اختتمت المقال بهذه العبارة: «حقًّا إن الصمت هو قدس الأقداس للمُنتشى الذى يفقد عقله، أما آدم فقد كان عليه أن يتعلم الأسماء كلها كى يصبح إنسانًا سويًا تخر له الملائكة ساجدين».

وتناولت فى الكتاب لحظة الإشراق والكشف «المادية» الكبرى فى حياة نورمان بودورتز (المفكر الصهيونى اليهودى)، كما يصفها هو: «لا شك أنه من الأفضل أن تكون ثريًا على أن تكون فقيرًا، من الأفضل أن تعطى الأوامر عن أن تتلقاها، من الأفضل أن تكون معروفًا على أن تكون مغمورًا». ووقفت عند رأيه بأنه عندما يصبح مقال كتبه موضوعًا حادًا للنقاش، فإن الأمر يثير الغبطة فى قلبه،

(١) John Stuart mill: (١٨٠٦ - ١٨٧٣م)، الفيلسوف والاقتصادى والسياسى البريطانى، من دعاة حقوق الإنسان.

(٢) حركة الهيبيز Hippies: ظاهرة اجتماعية كانت بالأصل حركة شبابية بدأت فى الولايات المتحدة فى ستينيات وسبعينيات القرن العشرين. وتُعتبر حركة مناهضة للقيم الرأسمالية، واحتجاج وتمرد على تحكم الكبار وعلى مظاهر المادية والنفعية وثقافة الاستهلاك، وتدعو إلى عالم تسوده الحرية والمساواة والحب والسلام. ميزوا أنفسهم عن المجتمع بإطالة شعورهم وبالملابس المهلهلة والفضفاضة والتجول والتنقل على هواهم كتعبير عن قربهم من الطبيعة وحبهم لها.

ليس لأن المقال جيد (يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر)، أو لأنه حقق ربحًا (تجارة يصيبها أو امرأة ينكحها)، وإنما لأن المقال جعل منه موضوعًا للحديث. وهذا هو المهم، أن يظل هو السلعة الرابحة والشيء المطلوب. لقد أصبح هو نفسه «الإنسان السلعة»، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وبذلك يجسد بودورتز الحضارة الأمريكية، فهو يؤمن بأن النجاح (الخارجى) هو بالفعل مقياس للقدرات (الداخلية). وبذلك تكون الإمبريالية النفسية الأمريكية قد قضت قضاءً مبرمًا على الإنسان الأمريكى وحولته إلى شيء يُقاس.

وفى مقابل ذلك، طرحت فى الكتاب سيرة الزعيم المسلم الأسود مالكولم إكس، وبدأت حديثى عنه بهذه العبارة: حينما تغمض عينيك فإنك تبصر؛ لأن الإنسان له بصر وبصيرة، عين حسية (مادية) ترى الأشياء، وأخرى (روحية) تخترق السطح لتصل إلى البنية الكامنة وإلى طبيعة الوجود (ثنائية المادة والروح التى تميز حياة الإنسان الربانى). ونتعلم من مالكولم إكس أن على الإنسان أن يحلم دائمًا بعالم البراءة الأولى وبذا يحتفظ بقدر من النقاء الروحى. والإسلام بالنسبة لمالكولم هو حلم البراءة هذا، فقد زوده بإطار مثالى حرره من مفاهيم وأخلاقيات مجتمعه المادية (على عكس بودورتز الذى كان يتعبَّد فى محراب ربة النجاح المادية الأمريكية). لقد أدرك مالكولم أنه عندما كان طائرًا مفترسًا لم يكن ذلك بسبب شرٌ كامنٍ فيه وإنما بسبب وجوده فى عالم الرجل الأبيض المادى المبنى على التنافس الذى يلتهم فيه الإنسان أخاه الإنسان. لقد رفض بيع روحه لشيطان العنصرية والمادية، فدفع حياته ثمنًا لموقفه هذا.

إن تلك السيرة الذاتية هى حقًّا ترتيلة تمجيد لروح الإنسان القادرة على التحمل، بل على الانتصار.

المرحلة السادسة: أَذَّنَ المؤذن فأقمت الصلاة

ينتهى كتابى «الفردوس الأرضى» بسماعى صوت المؤذن عند الفجر. أسمع صوته ولكنى لا أقيم الصلاة، فلم يكن قد حان وقتها بعد بالنسبة لى، ولم أكن قد انتقلت بعد من ضيق المادية إلى رحابة الإنسانية والإيمان. كنت أقف على العتبات أتأمل وأتفكر بلا توقف ولا هوادة. كان على أن أنتظر بضع سنوات أخرى قبل أن أقيم الصلاة، وحينما فعلت، كنت أفعل ذلك فى بداية الأمر لأعطى ابنى حرية الاختيار بين الشك والإيمان (فقد قرأت أن الشاعر وليام بتلر ييتس[1] كان ساخطًا على أبيه الملحد لأنه حرمه من المقدرة على الإيمان وجعله بديلًا غير مطروح، ولذلك حينما بدأ يشعر بالحاجة إلى الإيمان بشيء يتجاوز عالم المادة، وهو شعور إنسانى فطرى، غرق فى الغيبيات مثل تحضير الأرواح، وانتهى به الأمر إلى أن أسس عالمًا أسطوريًّا كاملًا يشبه الدين فى كثير من الوجوه). كنت أؤدى صلاة الجمعة مع ابنى، ولكن فى جامع أثرى، فندرس

(١) William B.yeats: (١٨٦٥ - ١٩٣٩م)، الأديب والشاعر الأيرلندى.

المسجد وقيمته المعمارية والحضارية بعد الصلاة، ونأخذ معنا كتبًا إرشادية، وكأننى كنت أريد أن أكون مصليًّا وسائحًا فى الوقت ذاته. ثم فى أوائل الثمانينيات أقمت الصلاة خالصةً لوجه الله، وأصبح اهتمامى بمعمار المسجد جزءًا من إيمانى وليس مسوغًا له.

وقفات فى ساحة اليقين

هكذا ينظر د. المسيرى إلى الإنسان:

«الإنسان كائن حر يصنع التاريخ،

جزء من الطبيعة ومستقل عنها، ولا يمكن أن يُردَّ إليها،

كائن له منتاجاته الحضارية التى تمنحه خصوصيته القومية والإنسانية،

إنه الإنسان الربانى (فى مقابل الإنسان الطبيعى/ المادى)».

وهكذا ينظر د. المسيرى إلى الدين:

«اكتشفت الدين كنموذج معرفى متكامل وليس مجرد جزء ليس له أهمية فى حد ذاته، وأدركت أن المكوِّن الدينى ليس مجرد قشرة وإنما هو من جذور الكيان والهوية. كما بدأت أشعر أن الدين ذو فعالية فى الواقع المادى الذى نحياه وليس جزءًا مغلقًا من عالم الغيب، وهكذا زاد اتساع الهُوَّة التى تفصل «الإنسان الإنسان» عن التصور المادى البسيط، وزاد دور الأفكار (عالم الروح) فى تفسير ظاهرة الإنسان، أى أن الدين أصبح تدريجيًّا فى تصورى جزءًا من الكيان الإنسانى وليس منفصلًا عنه».

وهكذا ينظر د. المسيرى إلى الوجود الإلهى:

«إن وجود الله هو الضمان الوحيد لوجود الإنسان الإنسان، بجزأيه المادى وغير المادى، فالله هو الجوهر الذى يتطلع إليه الإنسان لينطلق من طينته. ومن ثَمَّ بغياب الله يتحول الإنسان إلى مادة طبيعية صماء، خاضعة لقوانين المادة، التى يمكن حصرها ودراستها والتحكم فيها، وكذلك بغياب الله يتحول الإنسان إلى كم مادى يمكن تفسيره فى إطار مجموعة من المعادلات الرياضية الميتة التى يمكن معرفتها والتنبؤ بها[1]».

رحمك الله سيدى، وألحقنا بك إخوانًا على سُررٍ متقابلين...

---

(١) مثلًا: إذا تعرضت لموقف كذا، سيكون سلوكك كذا.

القارئ الكريم

كانت هذه رحلتنا مع أربعة عقول كبار، ومع طَرَقَاتهم المتكررة على باب الحقيقة حتى ولجوا ساحة اليقين. وكما ذكرنا فى بداية الفصل، تُشَكِّل هذه الرحلات الأربع نسيجًا ينتظم معظم جوانب المنظومة الإيمانية.

كانت رحلة أنتونى فلو رحلة عقلية ليس للإيمان القلبى فيها نصيب. رحلة رجل تجاوز الثمانين من عمره قضى معظمها فى حظيرة الإلحاد، وكان قطبه الأكبر فى النصف الثانى من القرن العشرين. رجل تتبع الدليل طوال حياته فقاده إلى الإلحاد، ثم عاد وتتبعه مع تقدم السن فقاده إلى الإيمان. لقد انطلقت حجج فلو الإيمانية من تأمل المعانى الفلسفية وراء نظرية الانفجار الأعظم الذى أنشأ الكون، ووراء بنية وطريقة أداء الشفرة الوراثية للكائنات الحية (الدنا DNA) لوظائفها. ما أعظم عطاء العقل الفلسفى المنصف حين يتأمل بعمق معطيات العلم الحديث. لقد كانت رحلة أنتونى فلو بحق تجسيدًا لقول الحق ﷻ ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت].

وإذا كانت رحلة أنتونى فلو رحلة عقل لا مكان للإيمان القلبى فيها، ووقفت به عند القول بالألوهية دون الإيمان بدين، فقد كان للإيمان القلبى فى رحلة جيفرى لانج نصيب كبير، تَمَثَّل فى الرؤيا التى رآها مرارًا طوال عشر سنوات ثم تحققت فى أرض الواقع. وإذا كان أنتونى فلو انطلق فى إيمانه من تأمل كتاب الله المنظور (الكون والأنفس)، فقد كان لتأمل كتاب الله المسطور (القرآن الكريم) العطاء الأكبر فى رحلة جيفرى لانج، ومن ثم فإن رحلته تجاوزت الإيمان بالله ﷻ إلى الإيمان بالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولًا.

وتُعتبر رحلة د. عبد الوهاب المسيرى رحلة فريدة لم أقابل مثلها بين مفكرى الشرق والغرب. وإذا كان إدراك سلبيات الحضارة المعاصرة بابًا للدكتور المسيرى لإدراك سوءات الفكر المادى، فقد شاركه فيه آخرون كروجيه جارودى. أما تأمل الذات الإنسانية وتعبير الأدباء والشعراء عنها فكان تجربة عميقة فريدة، مكنته من إدراك ما يتميز به الإنسان من ثنائية (أقدامنا فى الطين ورءوسنا فى السماء)، فكانت المحرك الأكبر والأَخص للدكتور المسيرى لإدراك ألوهية مصدر الذات الإنسانية. كذلك كان تواصل السماء مع الأرض من بديهيات

الوجود الإلهى، كما كان الإسلام هو الدين الحق الذى يناسب تطلعات وأفكار د. المسيرى كما سنرى فى الفصل القادم.

أما رحلة د. مصطفى محمود فقد جسدت بشكل مثالى حيرة الشكاكين وحيرة شبابنا، وما تثيره عقولُهم من شكوك وتساؤلات. ويمكن اعتبار هذه الرحلة مزيجًا من الرحلات الثلاث السابقة، شاركت كلًا منها فى منحى من مناحيها؛ فقد اشتملت على البحث العلمى، والتأملات الفلسفية فى الكون والنفس، وتسليم القياد لعظمة وسطوة القرآن الكريم. وقد نجح المفكر الكبير فى أن يعرض علينا من خلال كتاباته المبسطة مشروعه الفكرى المتكامل، وتستطيع أن تتابع بدقة تطوره الفكرى فى هذه الكتابات، التى انصح كل مهتم بالدين وبعالم الفكر بقراءتها بعمق.

ونختم هذا الفصل بإجابة د. مصطفى محمود الإيمانية على الذين يسألون فى حيرة: لماذا خلقنا الله؟ وما حكمة العذاب الذى نعانيه؟ يجيبنا د. مصطفى محمود:

يخبرنا القرآن بمجموع آياته.. أن الله أنزل الإنسان إلى الدنيا بفضول مفطور فيه.. ليتعرف على مجهولاتها ثم يتعرف على نفسه. ومن خلال إدراكه لنفسه يدرك ربه.. ويدرك مقام هذا الرب الجليل فيعبده ويحبه.. وبذلك يصبح أهلًا لمحبته وعطائه.. لهذا خلقنا الله.. وهو يعذبنا ليوقظنا من غفلتنا فنصبح أهلًا لمحبته وعطائه.

بالحب خلق.. وللحب خلق.. وللحب يُعَذِّب.

تبارك وتعالى فى سماواته، الله ﷻ الذى خلقنا باسمه الرحمن الرحيم.



الفصل الرابع عشر

الخروج من المستنقع

- ملامح المستنقع
  - عقائديًّا: نحن حيوانات عشوائية فانية
  - فكريًّا: جعلوا من المذهب المادى دينًا
  - أخلاقيًّا: كل شيء مباح
  - يسخر منهم الباحثون عن الحقيقة
  - علميًّا: الاغترار بالعلم والعلماء
- منظومة الإيمان الثلاثية:
  - هل هناك إله؟
    - مجادلة الشر والألم
    - النجاة...
  - هل تواصل الإله مع الإنسان؟
  - أى الرسالات السماوية أولى بالاتباع؟
    - لماذا الإسلام؟
  - إنكار منظومة الإيمان رهان خاسر
- تجديد الفكر الدينى
  - الفكر الدينى الجامد
  - تجربة شخصية مؤلمة
  - سمات الفكر الدينى الجامد
  - صيحة تحذير ... لماذا التجديد الآن
  - أسس تجديد الفكر الإسلامى
  - دعوة إلى المصالحة
    - مع الدين
    - مع الإنسان
    - مع العلم
    - مع العقل
    - مع التاريخ
    - مع الطبيعة
  - نموذج مشرف للمصالحة والتجديد
- القارئ الكريم: قراءة فى الكتابين

«من المحزن جدًّا أن يكون الإله غير موجود، إن كل القيم والأخلاق التي يمكن تصورها ستتلاشى معه، لن يكون هناك خير فطرى، فليس هناك مرجعية أومقياس».

جان بول سارتر!

«فإن كنت لا تدرى فتلك مصيبةٌ وإن كنت تدرى فالمصيبةُ أعظمُ[1]»

حكمة عربية عميقة تعكس خطورة ما عليه الملاحدة، وتضعهم فى أحد فريقين؛ إما أنهم جهلاء، وهؤلاء يَسهُل تعليمهم أو أنهم من فريق مصيبة الكِبر الإبليسى الأعظم. إن الملاحدة فى كلا الحالين يعتبرون أنفسهم الحكماء وأن من سواهم متخلفون جهلاء أغبياء، ومن ثم فهم غارقون فى مستنقع آسن، وكلما تعاظمت الأدلة العلمية والعقلية على الوجود الإلهى كلما ازداد عنادهم وتزايدت عفونة مستنقعهم، ومن أجل أن يخرجوا مما هم فيه ينبغى أن يتنبهوا لهذه الحقيقة، وهذا ما سنعينهم عليه فى هذا الفصل.

ملامح المستنقع

يتسم مستنقع الإلحاد بعدد من الملامح التى فَصَّلناها طوال فصول الكتاب السابقة، ويمكن أن نلخصها فى النقاط التالية:

عقائديًّا: نحن حيوانات عشوائية فانية

لا يجد كثير من الملاحدة غضاضة فى الإقرار بوجود الإله! شريطة ألا يستتبع ذلك إقرار ببعث وحياة أخرى بعد الموت ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ... ﴿٧﴾ ﴾ [التغابن].

(١) بيت من الشعر ختم به الإمام ابن قيم الجوزية قصيدته الرائعة فى وصف الجنة، معاتبًا به مَن لا يسلك الطريق إليها. والراجح أن القول سبقه به الفاروق عمر بن الخطاب فى رسالة بعث بها مؤنبًا عمرو بن العاص حين اعتذر له بأنه لم يكن يدرى أن ابنه قد ضرب القبطى الذى فاز عليه فى سباق الخيل.

ويستتبع إنكار البعث انقلابٌ جذرى محورى. فالإنسان، ذلك الكائن الخالد أبدًا، والذى خُلِقَ لغاية، والمكلف والمرَاقَب والمحَاسب من قِبَل الإله، يصبح حيوانًا عشوائيًا فانيًا ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ... ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية].

أخلاقيًّا: كل شىء مباح

«من المحزن جدًّا أن يكون الإله غير موجود، إن كل القيم والأخلاق التى يمكن تصورها ستتلاشى معه، لن يكون هناك خير فطرى، فليس هناك مرجعية أو مقياس، لن نعود نقول إن الإله موجود فينبغى أن نكون أمناء، ينبغى ألا نكذب،... لقد أصاب دستوفسكى حين قال: إذا لم يكن الإله موجودًا فإن كل شىء مباح».

لقد أصاب القائل عين الحقيقة، ما أشد إيمانه...

لا... لم يكن جان بول سارتر! قائل هذه العبارة مؤمنًا حين قالها، بل كان أحد كبار الملاحدة المحترمين[١]! ويعلق سارتر على مقولة دستوفسكى قائلاً: «هذه هى نقطة الانطلاق فى الفلسفة الوجودية، ففيها يصبح الإنسان بائسًا تائهًا، فلا شىء داخله ولا خارجه يمكن أن يتعلق به، بل لن يصبح قادرًا على التماس العذر لنفسه».

حتى زعيم الملاحدة المعاصرين ريتشارد دوكنز يدرك خطورة غياب الدين! فيقول: «لا تستطيع أن تبنى القيم الأخلاقية المطلقة على أى أساس إلا الدين!»[٢]. وتارة أخرى يقول: «فى عالم ليس فيه سوى قوى الطبيعة العمياء وتَحَكُّم الجينات، سيُدَمَّر بعض الناس وسينجو من هم أكثر حظًّا، لن تجد فى ذلك أى منطقية أو عدالة. إن هذه الأمور منطقية تمامًا فى عالم يخلو من التصميم والغائية، ليس فيه شر أو خير. ليس هناك إلا العماء واللامبالاة، فالدنا DNA لا يعرف ولا يبالى، هذا هو لحن الدنا، وليس لنا إلا أن نرقص على موسيقاه»[٣].

يريدنا دوكنز أن نقنع بعالم لا أخلاق فيه، ما عصف به من مصائب (حروب عالمية - تصفيات عِرقية - حروب صليبية - قنابل ذرية) ليس إلا اتباعًا لأوامر جينية، ومن ثم لا ينبغى أن نلوم هؤلاء المجرمين أو نحاسبهم. عفوًا، إن عالمًا كهذا ليس فيه للوم والمحاسبة معنى. تصور ما سيحدث لأجيالنا القادمة عندما نلقن هذه المفاهيم لأبنائنا فى المدارس.

---

(١) أصفه بالاحترام لأنه كان باحثًا بإخلاص عن الحقيقة، وانتهى به السعى إلى الإيمان بالله وهو على فراش الموت.
(٢) A Devil's Chaplain, P.93: كاهن الشيطان.
(٣) River out of Eden, New York, Basic book 1992, P.133

علميًّا: الاغترار بالعلم والعلماء

يظن الكثيرون أن العلم معصوم كوحى السماء وإن كان يبدل رأية دائمًا! ويعتبره آخرون المرجعية الوحيدة وصاحب الكلمة النهائية. وإذا كان هذا الفهم صائب بالنسبة للعلوم التجريبية والتطبيقية فإنه خطأ بالنسبة لأكثر العلوم إلحاحًا فى حياتنا؛ كالدين والسياسة والقيم والأخلاق. ويضاعف من الخطأ أن الكثيرين ينظرون إلى العلماء التجريبيين والتطبيقيين نظرة تبجيل جعلهم يطلبون مشورتهم فى أمور خارج مجالات تخصصاتهم ويقبلون آراءهم بثقة، كأنهم الطبقة الجديدة من المفكرين والفلاسفة ورجال الدين!

فكريًّا: جعلوا من المذهب المادى دينًا

يَقْصُر البعض «قضية الوجود الإلهى» فى إطار «المباحث الفلسفية» التى تتصدى للإجابة عن الأسئلة الوجودية المحورية. لكنها فى الحقيقة تتجاوز ذلك كثيرًا فهى «قضية علمية» تشارك فى تفسير ما يعجز العلم عن تفسيره بشكل نهائى، وأيضًا «قضية أخلاقية» لمعرفة الخير والشر، وكذلك «قضية سلوكية» تحدد للإنسان كيف يسلك ليحقق السعادة فى هذه الحياة وفى الحياة الآخرة. إن قضية الوجود الإلهى تغطى كل هذه المجالات وأكثر.

لذلك عندما نشر دوكنز كتابه «وهم الإله» فإنه لم يكن يطعن فى مفاهيم فلسفية نظرية فقط، لكنه كان يطعن فى مفاهيم علمية وأخلاقية وسلوكية أيضًا. وعندما يتنكر الملاحدة للإله، ويعتقدون أنهم قد تخلصوا من قبضة الدين (كما يقولون)، فإنهم فى الحقيقة يقعون فى قبضة المذهب المادى الذى يقدم لهم الأجوبة الخطأ على كل الأسئلة الفلسفية المحورية. ولننظر إلى أهم هذه الأسئلة وأجوبة المذهب المادى عليها:

هل هناك إله؟ ... لا

كيف ينبغى أن نحيا؟ ... كما تشاء

ما مكاننا فى الكون؟.. كأى موجود

ما علاقتنا بباقى الكائنات؟.. نحن أحد الحيوانات.

هل هناك حياة بعد الموت؟.. لا

هذه إجابات ديانة المذهب المادى! على الأسئلة الفلسفية المحورية، وأتحدى أى ملحد أن

يقدم دليلًا علميًّا على أى من هذه الأجوبة، ومن ثم فإن ادعاء الملاحدة أنهم ينطلقون فى نظرتهم للإنسان والكون من العلم ادعاء كاذب.

يسخر منهم الباحثون عن الحقيقة

يصف جون همفرى[1] (المذيع الشهير فى الإذاعة البريطانية BBC) نفسه بأنه «لا أدرىّ»، وقد ضَمَّنَ أفكاره كتابًا أسماه «نحن نشك فى الإله»[2]. وبالرغم من ذلك، فإنه بعد أن حاور العديد من الملاحدة الجدد صار يرفض مواقفهم تمامًا، وكتب هذا الحوار الافتراضى الساخر يُفَنِّد فيه دعاواهم:

- قال الملحد: غالبًا ما يكون المؤمنون سُذَّج أو أغبياء، أو على الأقل ليسوا بمهارة الملاحدة.

● أجابه همفرى: إن هذا الادعاء غير حقيقى بالمرة، ولا يستحق النظر فيه. وإذا كان دوكنز فى كتابه «وهم الإله» يدعى أن هناك علاقة عكسية بين الذكاء والإيمان، ويستدل على ذلك بأن قليلين من أعضاء الجمعية الملكية يؤمنون بالإله المتشخص، فإن ادعاءه لا قيمة له. وإذا كنتُ أعرف بعض المتدينين الأغبياء، فإننى أعرف ملاحدة لا أثق أن يبدل لى أحدهم مصباح الكهرباء إذا احترق (يشير هنا إلى دوكنز نفسه).

- إن الأذكياء من المتدينين قليلو الحيلة، لذلك يعتنقون الدين كـ«عكاز» يستعينون به فى حياتهم.

● إن ذلك لا يعنى شيئًا، فأنا أعرف الكثير من الملاحدة الذين يستخدمون عكاكيز أخرى بدلًا من الدين، كالخمر مثلًا.

- يجبن المتدينون عن مواجهة الموت باعتباره فناءً نهائيًّا لهم، لذلك يتعشمون فى حياة أخرى بعد البعث.

● ربما، لكن ذلك لا يعنى أنهم مخطئون، فأنا أعرف الكثيرين من الملاحدة الراقدين فى مراكز علاج السرطان ويرتعدون فزعًا من الموت.

- ليس هناك أطفال مسيحيون بالفطرة، بل يتم غسيل أدمغتهم أثناء التنشئة، ويبدأ ذلك بعملية التعميد.

● حقًّا، لذلك فبعضهم يتخلى عن تعميده ويتبنى الإلحاد عندما يكبر، لكن الكثيرين منهم يتمسكون بدينهم.

- لقد تم جذبهم قسرًا إلى الإيمان.

● ذلك صحيح فى بعض الحالات، لكن ثق أن هؤلاء ليسوا مؤمنين، لكنهم يتظاهرون بالإيمان.

---

(١) John Humphys: الإعلامى البريطانى الشهير، أحدث نقلة كبيرة فى أداء الإذاعة البريطانية. ولد عام ١٩٤٣.

(٢) In God we Doubt

- إن توجيه أولادنا لتبنى الدين يُعتبر نوعًا من «سوء استعمال الأطفال Child abuse»، تمامًا كاغتصابهم جنسيًّا. ينبغى أن نتركهم يمارسون حرية اختيار العقيدة عندما يكبرون، دون ضغوط أو توجيه.

● لا بأس، بشرط أن يتوقف المجتمع والإعلام عن إغرائهم بنمط الحياة الإلحادى المتحرر، حتى تكون حرية الاختيار حقيقية.

- إذا لم نقضِ على المعتقدات الدينية خلال أسبوع فإن حضارتنا ستهلك!

● لا شك أن مِنَ المتطرفين الدينيين مَنْ هم خطيرون وربما مجانين، وينبغى التعامل معهم بجدية. لكننا عشنا مع ديانات التوحيد قرابة ٤٠٠٠ سنة، وأستطيع أن أدلك على بعض السلوكيات الأكثر خطورة على الحضارة والتى يمارسها الملاحدة.

- أنهى الملحد الحوار قائلًا: ثق فيما أقول لك، فأنا ملحد عن اقتناع.

● أجابه همفرى: ولماذا أثق بك؟!

ويعلق همفرى ساخرًا: لا تظن أننى بذلك الحوار المقتطب الساخر شوهت أفكار الملاحدة فهذه هى حقيقتهم تمامًا، وهذا الأسلوب هو دأبهم فى الحوار.

القارئ الكريم....

أوجزنا فيما مضى من الفصل ما فصلناه فى أبواب الكتاب من ضلال وخطورة ما يتبناه الملاحدة من أفكار، والآن جاء دور الخروج من المستنقع واللحاق بمنظومة الإيمان.

منظومة الإيمان الثلاثية

لا شك أن قضية الإيمان قضية مركبة، ويمكن تحليلها إلى ثلاثة مستويات، إذا تحقق السابق فإن اللاحق يطرح نفسه تلقائيًّا، وبذلك تكتمل منظومة الإيمان:

أولًا: هل هناك إله؟

ثانيًا: هل تَواصَل الإله مع مخلوقه الإنسان عن طريق رسالات سماوية؟

ثالثًا: أى الرسالات السماوية أولى بالاتباع؟

أولًا: هل هناك إله؟

فندنا فى الفصول السابقة دعاوى الملاحدة، كما عرضنا البراهين والأدلة العلمية والعقلية والفلسفية على أن «هناك إلهًا». وتُركز «الأدلة العلمية» على شِقّين: الأول؛ علوم البدايات، فنشأة الكون من عدم، وظهور الحياة فى المادة غير الحية، وبزوغ العقل الإنسانى، أمور لا يمكن أن تقوم بها الطبيعة العمياء، ولا بد لها من موجد حى ذكى خالق بارىء مصور. والشق الثانى؛ ما عليه منظومة الكون والحياة والعقل الإنسانى من تعقيد هائل، بحيث لا يمكن تفسير بقائها وممارستها لأنشطتها من خلال قوانين الطبيعة فقط، ولا بد لها من الإله القيوم القادر سبحانه وتعالى.

ويتمسك الملاحدة بأن «العلم» يعجز عن إثبات أو نفى الوجود الإلهى باعتباره خارج إطار الوجود المادى (كما ندعى نحن المتدينون) الذى يتعامل معه العلم. لذلك تقوم استدلالاتنا العلمية على إثبات أن نشأة الوجود وبنيته واستمراريته تتسم بالذكاء وتحتاج إلى تصميم ذكى، ومن ثم يقف ورائها مصمم ذكى لا يكون إلا الإله الخالق الحكيم القادر.

وقد طرحنا فى فصول الكتاب «الأدلة العقلية والفلسفية» على الوجود الإلهى من خلال تفاعل العقل المعاصر مع العلم الحديث، ولا يعنى ذلك أن هذه الحجج لم تُطرَح من قبل، بل إن علم الكلام طرح جميع هذه الأدلة واستخرجها من القرآن الكريم منذ قرابة ألف سنة، وأكثر هذه الأدلة قبولًا فى العقيدة الإسلامية هى:

١ - دليل الخلق والإيجاد[١]: وهو يقابل البرهان الكونى، ويعنى أن نشأة الكون من عدم تدل على وجود الإله الخالق. ويلخصه قول الأعرابى: البعرة تدل على البعير والخطو يدل على المسير، أسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ألا تدل على الخالق القدير.

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران].

٢ - دليل الوجوب: وهو يقابل قولنا أنه لا يجوز تسلسل الموجودات الحادثة فى السببية إلى ما لا نهاية (التسلسل يمتنع)، ومن ثم لا بد من سبب أول واجب الوجود[٢].

﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الطور].

(١) يُعرف بدليل الاختراع عند ابن رشد، ويُعرف أيضًا بدليل الحدوث.

(٢) يقول به من الفلاسفة الفارابى وابن سينا وديكارت ولوك ولايبنتز وغيرهم.

٣ - دليل الإتقان والنظام (التقدير): ويقابل دليل الضبط الدقيق، ويعنى أن دقة بناء الكون وقوانينه تدل على وجود الإله الخالق.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾ [الملك]. ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل]. ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر].

٤ - دليل العناية (الغاية): وهو يقابل المبدأ البشرى، ويعنى أن الكون قد تم بناؤه ليكون ملائمًا تمامًا لنشأة الإنسان، ويعود هذا الدليل إلى صفات الجمال والرحمة الإلهية.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا ... ﴿٣٢﴾﴾ [إبراهيم].

٥ - دليل التسخير والتدبير: مثل دليل العناية، ويختص بصفات الجلال والقهر الإلهى.

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل]. لقد قهر الله ﷻ هذه الكائنات لتكون فى خدمة الإنسان.

٦ - دليل التخصيص (الاختصاص): ويعنى أن ما نراه فى الكون كان يمكن أن يكون على هيئات عديدة، لكن الله ﷻ اختار منها الهيئة الأفضل.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ... ﴿٤٥﴾﴾ [الفرقان].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص].

سبحان ربى الذى بث أدلة الوجود الإلهى فى كتاب الله المنظور (الكون والأنفس) ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ

كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت] كما بثها فى كتابه المسطور ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت].

مجادلة الشر والألم:

ربما كانت «مجادلة الشر والألم» أهم الحجج العقلية والفلسفية التى يطرحها الملاحدة لتدعيم إنكارهم لوجود الإله، ومنها تنطلق العديد من الحجج التى عرضناها فى فصول الكتاب. ولمحورية هذه المجادلة فى الفكر الإلحادى فضلنا أن نؤصل طرحها وتفنيدها أثناء عرضنا لمنظومة الإيمان.

بحلول القرن الرابع قبل الميلاد، طرح فيلسوف اليونان القديم أبيقور Epicurus (٣٤١ - ٢٧٠ق م)، الذى يُعَد بحق أول فيلسوف ملحد، «مجادلة الشر» التى عُرفت «بالحجة الأبيقورية»، وصاغها كالآتى:

هل يريد الإله أن يمنع الشر ولا يستطيع؟... إذًا فهو ليس كلى القدرة.

هل هو قادر على منع الشر ولكنه لا يريد؟... إذًا فهو خبيث وشرير.

هل يريد أن يمنع الشر وقادر على ذلك؟... إذًا من أين أتى الشر؟

هل هو غير قادر ولا يريد منع الشر؟... إذًا لماذا نعتبره إلهًا(١)؟

وقد أجاب فلاسفة اليونان الرواقيون(٢) على نظرائهم الأبيقوريين بأن ما نرصده من شر يخدم الخير العام الذى يريده الإله.

وتقوم مجادلة الشر والألم المعاصرة على تساؤل يتحدى به الملحدون المؤمنين: كيف يكون الإله رحمن رحيم (الله محبة فى العقيدة المسيحية) ومع ذلك يسمح بكل ما يصيب البشر من آلام وشرور. ويُصَعِّد الملاحدة التحدى مدعين أن زيارة واحدة لمستشفيات علاج سرطان الأطفال كفيلة بأن تدفع الإنسان إلى حظيرة الإلحاد.

وقد قدم الفكر الإسلامى العديد من الدفوع لتلك المجادلة، أهمها أن الشر والألم ابتلاء من الله ﷻ للبشر. ومنها أن الشر يقع بالإنسان عقابًا على ذنب سابق أو جلبًا لخير لاحق. ومنها

(١) تبنى أبيقور بعد ذلك القول بإلهين، أحدهما للخير والآخر للشر. وربما كان هذا بداية الحركة الفكرية التى قادت مزدك فى فارس إلى الخروج بديانة الصراع بين إله الخير وإله الشر.

(٢) ظهرت هذه المدرسة فى أثينا أوائل القرن الثالث قبل الميلاد، وتقوم كمذهب فلسفى على الأخلاق والدين. أسسها الفيلسوف زينون.

أن الشر موجود فى بنية الأشياء؛ فالماء الذى من خصائصه الرِّى من خصائصه أيضًا الإغراق، والنار من خصائصها التدفئة وأيضًا الإحراق[1].

ويرى البعض أن هناك حكمة كامنة لا نعرفها فى وجود الشر والألم، أو أنهما محض مشيئة إلهية لا يُسأل عنها الله ﷻ.

كما يقدم الفكر الإسلامى عدة تفسيرات لحكمة وجود إبليس اللعين، أهم مصادر الشر، منها أن وجوده ضرورى لاستكمال منظومة الغرض من الحياة، ومنها إظهار قدرة الله على خلق المتضادات، ومنها إظهار صفات الله القهرية، وأيضًا تجلية صفات الله الجمالية من رحمة ومغفرة.

وتتعدد الدفوع والتفسيرات...

وتنطلق حجتنا فى الرد على مجادلة الشر والألم من أن نظرتنا إلى الشرور والآلام تتوقف على نظرتنا إلى حقيقة الحياة الدنيا والغرض من الوجود الإنسانى فيها، والتى تختلف لدى المتدينين عنها لدى الماديين (ناهيك عن الملاحدة)[2].

فالمنظور المادى يعتبر أن الحياة الدنيا ليس وراءها غرض، ولا تحكمها غاية، وأن الإنسان إذا مات صار عدمًا، إذ ليس هناك بعث تتبعه حياة أخرى. ومن ثم للإنسان (بل عليه) أن يُحَصِّل أقصى ما يستطيع من متع، وبالتالى يصبح ما قد يشعر به من ألم وكل ما يحجبه عن هذه المتع شر لا جدال فيه. وانطلاقًا من هذا المنظور، يصبح ما يتعرض له الإنسان من شرور وآلام أمورًا عشوائية تمر به خلال حياته فى دنيا نشأت بأسلوب عشوائى أيضًا، ومن ثم يصبح القول بوجود إله كله رحمة ومحبة ينظم هذه الحياة هراء وعبث.

أما المنظور الإسلامى، فيعتبر أن الحياة الدنيا بداية لرحلة أبدية، يستأنفها الإنسان بعد الموت بالبعث والحساب والجزاء. ويعتبر الإسلام أن لوجودنا فى هذه الحياة غرضًا وغاية، وهى معرفة الله ﷻ ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات]، والعبادة هنا بمعنى المعرفة، أى أن معرفة الله هى الغاية من وجودنا الدنيوى. وتتحقق هذه المعرفة من خلال إدراك ما لله من أسماء حسنى وصفات عُلى تنقسم إلى مجموعتين أساسيتين: جمال وجلال؛

(١) قال ابن القيم فى ذلك: أن الشر والألم إما إحسان ورحمة وإما عدل وحكمة، وإما إصلاح وتهيئة لخير يحدث بعدها، وإما لدفع شر هو أصعب منه.

(٢) يرجع عجز المتدينين عن تقديم تفسير مقنع للملاحدة لمجادلة الشر والألم إلى محاولة القيام بذلك فى إطار المنظور المادى! ولا شك أن ذلك الأسلوب يخالف بديهيات المنهج العلمى الذى يحتم أن تتعامل مع مشكلة ما من خلال نظرتك للقضية العامة وليس من خلال نظرة المعارضين.

فأسماء الجمال منها الرحمن الرحيم، والغفار، والوهاب، والرزاق، والبر، والرؤوف، و... وأسماء الجلال منها العزيز، والجبار، والقهار، والقابض، والخافض، والمذل، والمنتقم، والمانع، والضار، والمميت، و... ويتفرع من معرفة الله ﷻ عبادتُه بالمعنى المباشر، من قيام بطقوس العبادات والتزام بالأوامر واجتناب للنواهى وكذلك تعمير الأرض.

وبناء على هذا المفهوم، تصبح الحياة الدنيا بمثابة «لجنة اختبار» لمعرفة مدى ما حققه العبد من إدراك لأسماء الله ﷻ وصفاته، بجمالها وجلالها، ومدى طاعته لربه فى القيام بالعبادات والالتزام بالأوامر واجتناب النواهى وإقامة الحضارات. وتبعًا لنتيجة هذا الاختبار يكون مآل الإنسان فى حياته الأخرى، إما إلى نعيم فى الجنة أو عذاب فى السعير.

فى ضوء هذه النظرة للحياة، يصبح المنظور الدينى قادرًا على تفسير ما يتعرض له الإنسان من شر وألم. فما يقع فى الأرض من كوارث يتضرر منها البشر، كالبراكين والزلازل والفيضانات، إنما هى تجليات لأسماء وصفات «الجلال الإلهى». وهى فى نفس الوقت بمثابة ابتلاء وامتحان للإنسان يُجازَى عليه بالإحسان إن صبر وبالعذاب إن ضجر. وبذلك يتعرف الإنسان على جلال ربه من خلال هذه البلايا، تمامًا كما يتعرف على جماله من خلال العطايا، وفى ذلك قالوا إن من لم يعرف إلا صفات الجمال الإلهى لم يعرف الله ﷻ.

سؤال يطرح نفسه هنا؛ وما ذنب هؤلاء الذين وقع عليهم الابتلاء بالكوارث أو الأمراض أو... أو...؟ يجيب المنظور الإسلامى عن هذا التساؤل ببساطة؛ فالحياة الدنيا ليست إلا لحظة إذا قورنت بالحياة الأخرى الأبدية، ومن ثم يهون كل ما عاناه الإنسان فى الدنيا بغمسة واحدة فى نعيم الجنة، كما بَشَّر بذلك رسول الله ﷺ. وكلما زادت المعاناة فى الدنيا زاد النعيم فى الآخرة، حتى يتمنى المؤمن لو كانت حياته الدنيا كلها شقاء.

وقد كانت «مجادلة الشر والألم» السبب وراء إلحاد كثير من الفلاسفة الماديين المعاصرين، ومنهم الفيلسوف العظيم سير أنتونى فلو الذى كان زعيمًا للملاحدة خلال النصف الثانى من القرن العشرين. وعندما عاد فلو إلى دائرة الإيمان أعلن أن وجود الشر والألم فى حياة البشر لا ينفى الوجود الإلهى، لكن يدفعنا لإعادة النظر فى الصفات الإلهية. ويعتبر أنتونى فلو أن لهذه الكوارث إيجابياتها، فهى تستفز قدرات الإنسان المادية فيبتكر ما يحقق له الأمان، كما تستفز أفضل سماته النفسية وتدفعه لمساعدة أخاه فى الإنسانية، وقد كان لهذين العاملين الفضل فى بناء الحضارات الإنسانية عبر العصور. وأضاف الفيلسوف الكبير أنه مهما تعددت أطروحاتنا لتفسير هذه المعضلة فسيظل التفسير الدينى هو الأكثر قبولًا والأكثر انسجامًا مع طبيعة الحياة.

النجاة...

نختم المستوى الأول (هل هناك إله) من منظومة الإيمان الثلاثية بطرح أربعة مفاهيم نرى فيها الخروج من مستنقع الإلحاد:

المفهوم الأول: ينبغى ألا نعتبر أن البحث فى كيفية حدوث الظواهر (التفسير الآلى = كيف؟_How?) هو وحده التفسير العلمي، فإن التفسير الآلى لا يتعارض عقليًّا مع وجود تفسير غائى (لماذا؟_Why?) قصد إليه خالق الكون والإنسان، ومن ثم ينبغى أن نوسِّع من تعريف التفسير العلمى ليشمل الجانبين(١).

نحن لا نرى تعارضًا بين التفسيرين، ولا يتنافى القول بأحدهما مع القول بالآخر (كما يرى الملحدون). فإن معظم أمورنا الحياتية يحكمها الأمران، الغائية والآلية: التهام الطعام؛ هناك غائية وهناك آلية- تناول الدواء؛ هناك غائية وهناك آلية- قيادة السيارة...

إن أهم التعارضات بين العقل فى العصر الوسيط فى أوروبا والعقل فى العصر الحديث، هو أن الأول سيطر عليه الدين المسيحى الذى ارتبط بالغائية فقط، بينما سيطر العلم المادى المرتبط بالآلية على عقل العصر الحديث.

إن التمييز، ثم الجمع، بين التفسير الغائى والتفسير الآلى على جانب كبير من الأهمية لفهم تاريخ الفكر البشرى، وفهم حياتنا كلها، وأخيرًا لإدراك أن لوجودنا غاية وراءها إله حكيم خالق.

المفهوم الثانى: يعتقد الملاحدة أن ما يمكن تفسيره بقوانين الطبيعة لا يحتاج للإله! ومن ثم كلما توصل العلم لتفسير ظاهرة ما اعتبروا أن ذلك ينتقص من رصيد الإله! ودحضًا لهذه الحجة المحورية لدى الملاحدة نبين أن وجود قوانين الطبيعة التى تنظم عمل الكون لا يتعارض مع كون الله ﷻ هو الفاعل بكلمة كن ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس]،

(١) لنضرب على ذلك مثالًا: رجل يتسلق جبلًا، ويتساءل الناس عن ذلك. هناك إجابتان مختلفتان؛ الأولى، أنه يريد أن يشاهد المنظر الطبيعى من فوق قمة الجبل. وهذا هو التفسير الغائى للظاهرة؛ لأنه يطرح الغاية التى يسعى إليها الرجل من التسلق.
أما الإجابة الثانية، فتكون بعرض سلسلة الأسباب والنتائج التى تنتهى بحركة أرْجل الرجل؛ فالطعام الذى تناوله كان مصدرًا لإنتاج طاقة استفاد منها الجهاز الحركى، ثم دفعه مثير خارجى إلى استغلال هذه الطاقة، فتقلصت عضلات الرجل ثم ارتخت ثم تقلصت حتى دفعت فى النهاية جسده إلى أعلى الجبل، وهذا هو التفسير الآلى أو الميكانيكى. ويمكن القول أن التفسير الآلى يدفع الحدث من الخلف، أما التفسير الغائى فإنه يجر الحدث من الأمام.

فقد شاء الله ﷻ أن يلتزم الوجود بطاعة الأسباب، بل اختار الله ﷻ (القادر على الفعل بالأمر المباشر) أن يدير الكون بآلية الأسباب[1] ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩﴾ [ق]، ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٣٣﴾ [الشورى].

المفهوم الثالث: يقول البعض، إذا سَلَّمنا بوجود الإله الذى خلق الكون، ووضع فى الطبيعة القوى والقوانين التى تديرها، فما ضرورة القول بمتابعته تنظيم الكون وتدبير شئونه أولًا بأول؟

لقد كان أرسطو أول مَن طرح هذا المفهوم مِن فلاسفة اليونان القديم. فقال إن الإله بعد أن خلق الكون وَنظَّمَه انشغل بما يليق بسموه وعُلوِّه، انشغل بذاته. لقد حاول الفلاسفة بذلك تنزيه الإله عن الانشغال بما دونه، فكانت النتيجة أن عزلوه عن خلقه، وجعلوه إلـهًا ليس له أهمية فى حياتنا. وفى العصر الحديث، تبنى فريق من العلمانيين هذا المفهوم وصاروا يُعرفون «بأنصار الديانة الطبيعية أو الربوبيون Diests».

وقد أغلق الإسلام الباب فى وجه هؤلاء الذين يمسكون العصا من المنتصف، فبينت أن الله يُدَبِّر الوجود طوال الوقت، من خلال وبواسطة القوانين. فقوة الجاذبية مثلًا لا تعمل بذاتها، بل إن الله هو الذى يمدها بقوتها فى كل لحظة، هذا هو الشأن مع جميع قوانين الطبيعة الأخرى.

وإذا لم يكن الله ﷻ قائمًا على الوجود بشكل متواصل، فسوف تتوقف الجاذبية وغيرها من قوى وقوانين الطبيعة عن العمل، بل سوف تنهار الطبيعة نفسها. أى أن الله يقف وراء الطبيعة وقوانينها، فى كل لحظة، وعلى نحو متواصل.

المفهوم الرابع: إن أدلة الوجود الإلهى حتمية «التعقل»، حتى وإن عجز العقل عن «تصور» السبب الأول الذى لا موجد له[2].

وأخيرًا نقول إن القفزات العلمية؛ من قوانين الحركة (نيوتن)، إلى العلاقة بين الكتلة والطاقة (أينشتين)، إلى سلوك الذرة والجسيمات تحت الذرية (فيزياء الكم)، إلى بنية الدنا

(١) تحدثنا عن هذا المفهوم بمزيد من التفاصيل فى نهاية الفصل الثانى تحت عنوان «قوانين العلم من آليات عمل الإله».

(٢) فصلنا ذلك فى الفصل الثانى عشر.

DNA (جزىء الحياة)، إلى المخ وما تَكَشَّف من أسراره... تُظهر لنا أبعادًا وأعماقًا أكبر وأكبر لبراهين الوجود الإلهى وعنايته بالإنسان.

ولا شك أن هذه المفاهيم الأربعة تحل الكثير، والكثير جدًّا، من التعارض الظاهرى بين النظرة العلمية والنظرة الدينية للوجود الذى يتربع على عرشه إله حكيم قادر.

ثانيًا: هل تَواصَل الإله مع الإنسان؟

يعرض الله ﷻ منظومة تواصله مع الإنسان فى القرآن الكريم فى تسلسل مدهش:

- يبدأ الله ﷻ بأن ينفى أن يكون قد خلق الإنسان لغير حكمة، فيقول: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون].

- ثم ينفى الله ﷻ أن تكون الغاية من الخلق مجرد اللهو (حاشاه) قائلًا: ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنبياء].

- يُتبع الله ﷻ هذا النفى بإثبات أن هناك غاية من خلق الإنسان وهى عبادة الله ﷻ ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات] والعبادة هنا بالمعنى الشامل الذى ذكرناه عند حديثنا عن المنظور الإسلامى للغاية من الحياة.

ونُتبع التأكيد القرآنى لتواصل الإله مع الإنسان بعدد من الأدلة العقلية:

١- دليل الحكمة: إذا بنى إنسان منزلًا ثم هجره، لا هو أقام فيه ولا أَجَّره ولا احتفظ به لأولاده، عددناه غبيًا أبله، فالإنسان السوى لا يفعل شيئًا إلا لسبب أو غاية، فما أدراك بالإله الحكيم؟ أليس من البديهى أن يخلق الإلهُ الإنسانَ لسبب أو غاية؟

وإذا كان الأمر كذلك، ألا يكون من الظلم ألا نُوَجَّه إلى هذه الغاية عن طريق الرسالات السماوية؟!

٢- دليل الفطرة: جعل الله ﷻ فى نفس الإنسان شوقًا فطريًا لمعرفة مصدره والتواصل مع هذا المصدر، وكذلك معرفة الغاية من وجوده وأيضًا مآله بعد الموت. وقد بزغت هذه التساؤلات فى العقل الإنسانى منذ وعى بنفسه، وللإجابة عنها وضع الإنسان الأساطير، ثم أسس الفلسفة التى تقوم على هذه الأسئلة الوجودية المحورية. كذلك زَوَّدَ الله ﷻ العقل البشرى بقدرات تمكنه من طرح هذه الأسئلة والبحث عن الأجوبة عليها.

أليس من المستنكَر أن يَدَعَ الإله الذى وضع فى مخلوقه الإنسان هذه الفطرة دون عون وإرشاد وهداية؟!

٣- **الدليل الأخلاقى**: يطرح الفيلسوف الألمانى الكبير إيمانويل كانط ما يُعرف «بالدليل الأخلاقى» للاستدلال على تواصل السماء بالأرض، ويشرحه قائلًا: «إن ظمأنا للماء هو دليلنا على وجود الماء»، ويعنى ذلك أن الطفل يظمأ للماء قبل أن يعرف بوجوده، حتى إن هذا الظمأ هو أكبر دليل على وجود الماء. ويقيس كانط على هذه الحقيقة قائلًا: «**كذلك شوقنا للعدل هو الدليل على وجود العادل**»، فالإنسان الذى يشاهد ما فى الحياة من ظلم لا يستسيغ أن تنتهى حياة الظالم على الأرض وينجو الظالم بظلمه دون قصاص، لذلك يرتاح الإنسان كثيرًا لفكرة البعث والقصاص فى حياة آخرة.

ولا شك أن الإنسان الذى هذا مآله لا ينبغى أن يُترك دون توجيه وإرشاد، وترغيب وترهيب، وهذا دور الرسالات السماوية.

٤- **دليل الكتب السماوية**: إذا ثبتت صحة أحد الكتب السماوية التى يؤمن المتدينون بإلوهية مصدرها، فلا شك أن ذلك «دليل مباشر» على تواصل الإله مع الإنسان. لذلك حرص الله ﷻ على أن يقدم الأدلة على صدق أنبيائه وكتبه، بالأسلوب الذى يناسب كل زمان وكل قوم.

وقد ذكرنا فى الفصول السابقة أن الملاحدة قد يقبلون وجود الإله لكنهم يتهربون بشدة من الإقرار بتواصله مع البشر عن طريق الديانات السماوية، لما تحمله من أوامر ونواه تتعارض مع رغبتهم فى أن يحيوا بلا التزامات. لذلك كانت هذه الأدلة الأربعة على التواصل شديدة الأهمية عند مناظرة الملاحدة.

وعندما سُئل د. عبد الوهاب المسيرى عن أدلته على تواصل السماء مع الأرض، أجاب إجابة حكيمة تجمع بين الأدلة الأربعة التى عرضناها، يقول د. المسيرى:

من المسلمات العقلية عندى أن الإقرار بوجود الإله يتبعه الإقرار بوجود التواصل (الديانات) بينه وبين البشر. فليس من المعقول عقليًا أن يخلق الإله الإنسان ككائن عاقل، مدرك لقيمة الوجود (أن يكون موجودًا)، ثم يجعله كائنًا يفنى بالموت، وهو ما جُبل الإنسان على رفضه كلية، وكذلك دون أن يكون لسلوكه فى هذه الحياة توابع وعواقب، أى أن يُترك الظالم

يفر بظلمه دون القصاص للمظلوم بالرغم من جعل العدل فطرة فى النفس البشرية. إن هذا التصور بالنسبة لى منظومة مختلة للوجود، لا أتصور أن يقع فيها إله حكيم قادر.

ويزيد د. المسيرى النقطة الأخيرة إيضاحًا فيقول: إن استكمال منظومة الوجود تتطلب وجود حياة أخرى يتم فيها محاسبة البشر على أفعالهم، خاصة وإننى من المؤمنين بأن إدراك الخير والشر والصواب والخطأ أمر فطرى فى النفس البشرية. فلِمَ جُعلنا كائنًا حر الإرادة ووُضعت فينا هذه المقاييس إذا لم يتم محاسبتنا عليها؟... إذًا فكلٍ من سمات الإله (الحكمة) وسمات الإنسان (فطرية الخير والشر وحرية الإرادة) تحتمان أن يبين الإله للإنسان لماذا خلقه، وأن يؤكد له أن الموت ليس إفناء، وأن يرسم له الطريق للاختيار بين الخير والشر، ولا يكون ذلك إلا عن طريق الديانات.

ثالثًا: أى الرسالات السماوية أَولى بالاتباع؟

بعد أن أثبتنا بالبراهين والأدلة أن الوجود الإلهى حق، كما أثبتنا بديهية الإيمان برسالات سماوية يتواصل بها الله ﷻ مع الإنسان، يأتى الدور على سؤال مهم، كثيرًا ما يطرحه الملاحدة الشباب: إذا قلتُ بالإله وبالدين، فأى الديانات أختار؟ ولماذا؟

يعتقد البعض أن المفاهيم الدينية مفاهيم نسبية، ينبغى الحكم عليها بمقارنتها بالديانات الأخرى، والحقيقة أن الدين حق مطلق؛ إذ يمكن تقويمه بشكل موضوعى، عن طريق تقويم مكوناته الأساسية الثلاثة (محتوى الرسالة - الرسول - الإله)[1].

- **المُكَوِّن الأول:** يختص بمحتوى النص الدينى وطبيعته. فالنص الدينى الصحيح ينبغى أن يتميز بالآتى:

١- أن يُعَرِّف الإنسان بالإله الخالق.

٢- أن يوضح للإنسان الغاية من وجوده.

٣- تقع المفاهيم الدينية فى إطار الإدرك العقلى للإنسان.

٤- أن يقدم الدين البرهان العقلى على صحة ما يعرضه من مفاهيم ومسلمات.

(١) المفاهيم الواردة تحت هذا العنوان مستقاة من كتاب المهندس الدكتور محمد الحسينى إسماعيل: الدين والعلم وقصور الفكر البشرى. عام ١٩٩٩ - مكتبة وهبة.

٥- لا يوجد تناقض بين المضامين الدينية التى تطرحها الرسالة.

٦- لا يتناقض النص الدينى مع قانون الفطرة الأخلاقى للإنسان.

٧- لا تتناقض المفاهيم الدينية مع مفاهيم العلم.

٨- ألَّا يكون منفصلًا عن واقع حياة الإنسان.

٩- أن يتحرك معنى النص الدينى مع التقدم الحضارى للإنسان، فثبوت المعنى عند مفاهيم وقت التنزيل يعنى أن الخالق لم يأخذ فى الاعتبار التطور العلمى والحضارى الذى يُجريه على الإنسان على مدار حضاراته.

المكون الثانى: ويختص بمفهوم الرسول وصفاته، وينبغى أن:

١- تحدد الرسالة كيفية اتصال المرسِل بالرسول.

٢- تبين الرسالة أن الأنبياء والرسل مسئولون عن التبليغ عن الإله، فلم يأتِ الرسل للتعريف بأنفسهم.

٣- تؤكد الرسالة أن الأنبياء والرسل هم الذروة فى الكمال الإنسانى المحدود، حيث إنهم يمثلون القدوة البشرية للإنسان. وذلك بمفهوم أرقى كثيرًا من مفهوم أبطال الشعوب فى الملاحم والأساطير.

المكون الثالث: يختص بمفهوم الإله وطبيعته. فينبغى فى الدين الحق أن يحتوى على:

١- برهان الإله الخالق على وجوده بشكل قاطع، وعلى فطرة وجوده فى النفس البشرية.

٢- اتصاف الإله بالكمالات المطلقة، وأن حكمته وقدرته تتعالى فوق الحكمة والقدرة البشرية.

٣- عند عرض صفات الإله لا مفر من استخدام الألفاظ التى نستخدمها فى الحديث عن الإنسان، مثل الوجود والغضب والرحمة والسمع والبصر. فنحن لا نملك مواد أخرى نصوغ منها تصورنا عن الله، وهذا ما يُسَمَّى عند علماء العقائد «النزعة التشبيهية». ولا يعنى ذلك بأى حال من الأحوال أن الإله يُشْبِهنا.

وقد تعامل القرآن الكريم مع هذا الموقف بأسلوب أزال كل لَبْس:

﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[الشورى].

فالله ﷻ قد استخدم أسلوب التشبيه (ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ)، وقَدَّم لذلك بأن التشبيه يأتى فى إطار من التنزيه المطلق (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ).

هذه البنود الثلاثة هى الخطوط العريضة التى يمكن أن نحكم من خلالها بشكل موضوعى على صحة أو خطأ الديانة المعنية بالدراسة.

فبديهى أنه لا مكان لديانة تصف الإله بصفات إنسانية متدنية، أو صفات وثنية أسطورية. أو تصوره فى صورة حيوان أو مسخ أحمق، تتعالى عليه مخلوقاته البشرية حكمةً وذكاءً وقدرة. أو تعتبره إلـهًا أحمق متسرعًا لا يدرى ماذا يفعل.

-ولا مكان لديانة تخبرنا نصوصها أن أنبياءها زناة وقتلة وسفاحون وخونة.

ولا مكان لديانة تطفح نصوصها بالفاحشة فى أحط وأقذر معانيها.

وقبل كل شىء، لا مكان لديانة لا تعطينا البراهين العقلية الواضحة والكافية للحكم على صحة ما جاء بها. وقد ضرب الإسلام أوضح مثل على ذلك، فلم يكتفِ القرآن الكريم بسَوْق الأدلة، بل تحدى المنكرين أن يقدموا البراهين العقلية على صحة ما يقولون: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المؤمنون].

﴿ ... قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النمل].

هذه هى المقاييس الموضوعية التى ينبغى الأخذ بها عند اختيار الدين الأَولى بالاتباع.

لماذا الإسلام؟

وقد سُئل المفكر الإسلامى الكبير د. عبد الوهاب المسيرى عندما عاد من الإلحاد إلى دائرة الإيمان، لماذا اختار الإسلام وليس أى دين آخر؟ فأجاب:

«فى البداية، ينبغى أن ندرك أن الرسالات السماوية كلها دين واحد هو «الإسلام»، الذى هو التسليم لله الواحد الأحد، لذلك سَمَّانَا أبو الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم: المسلمون».

وهذا المفهوم بديهى، فالعقيدة واحدة، ومن ثم لا يمكن أن يتواصل الله ﷻ مع البشر بديانات تحمل عقائد مختلفة. أما ما نرصده من اختلاف بين مفاهيم ما صار يُعتبر ديانات مختلفة فيرجع إلى تأثرها بالفلسفات والمعارف السائدة من حضارة لأخرى.

وتنقسم ديانات العالم (سوى الإسلام) إلى مجموعتين كبيرتين؛ الأولى هى عقائد الشرق الأقصى كالهندوسية والبوذية وغيرهما، وتشمل المجموعة الثانية المسيحية واليهودية، وهى منتشرة فى الغرب ويشكل أقل كثيرًا فى الشرق الأوسط[1].

وإذا نظرنا إلى عقائد الشرق الأقصى، وجدنا أن القاسم المشترك الأعظم بينها هو القول بـ «وحدة الوجود»، التى تعنى أن الإله قد خلق الوجود من ذاته، وأن الإنسان بعد الانتهاء من حياته الدنيا يعود ليمتزج مع أصله (وهو الإله)، كما تعود قطرة ماء المطر إلى البحر المحيط. ومهما فلسف معتنقو مفهوم وحدة الوجود عقيدتهم، فإنها تعنى ببساطة أن الإنسان هو الله، أو على الأقل جزء منه».

وأضاف د. المسيري؛ «وبالنسبة لى فإننى أؤمن أن ثنائية الخالق والمخلوق، والرب والعبد، ثنائية أساسية فى علاقة الإله بالإنسان، أما أن يوهمنى البعض أن المخلوق هو الخالق، وأنني الإله (أو جزء منه) (وأنا مش واخد بالي) فهذا ما لا أقبله فى حق الإله أو فى حقى».

أما بخصوص المسيحية واليهودية، فيقول د. المسيرى: «تقوم هاتان الرسالتان فى المقام الأول على معجزات وقعت منذ أكثر من ألفى عام (كالميلاد المُعجز للمسيح ﷺ وإحيائه للموتى وشفائه للمرضى، ومعجزة عصا موسى وشق البحر) والمعجزة لا تكون دليلًا إلا لمن يعاينها». ويضيف د. المسيرى: «كذلك فالمسيحية واليهودية تشتملان على قدر من وحدة الوجود كالتى يقول بها الهندوس. فالمسيح ﷺ أقنوم (صورة) من أقانيم الله ﷻ. كذلك نجد فى اليهودية أن الإله قد حل فى الشعب المقدس (وهو اليهود) وفى الأرض المقدسة (وهى أرض الميعاد)».

أما الإسلام، فليس للمعجزات دور فيه، فالسيرة النبوية لا تحمل لنا اسم صحابى واحد اعتنق الإسلام بعد أن عاين أكثر معجزتين توثيقًا؛ وهما الإسراء وشق القمر، اللتين وثقهما القرآن الكريم. أما براهين وأدلة الألوهية والرسالة فى الإسلام فتقوم على العقل وتنبيه الفطرة، لذلك انتفت الحاجة إلى رسالات لاحقة وأصبح الإسلام هو خاتم الرسالات السماوية.

كذلك فإن ثنائية الخالق والمخلوق، والرب والعبد شديدة الوضوح فى القرآن الكريم ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص]. فالآية الأولى من السورة تثبت خالقًا يأمر ومخلوقًا يؤمَر بكلمة

(١) باستثناء هجرة اليهود إلى أرض فلسطين المغتصبة.

«قل»، وتنفى باقى السورة أن يكون هناك أدنى مشابهة بين الخالق والمخلوق، دون أن ينتقص ذلك من منزلة المخلوق، حتى إن الله ﷻ قد أثنى على رسوله الكريم ﷺ بمقام العبودية فى كتابه الكريم ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ... ①﴾ [الإسراء].

كذلك كانت «النسبية الإسلامية» أحد العوامل المهمة التي دفعت د. المسيري لتبني الإسلام من بين الديانات الشائعة في العالم؛ ويعنى بها أن الله ﷻ وحدة هو الثابت الذى لا يتحول، وما عدا ذلك فمتغير، مما يسمح بتعدد الرُّؤى. وفى نفس الوقت لا تؤدى تلك النسبية إلى العدمية والضياع، إذ لا تمتد إلى المرجعية النهائية كما نرى فى بعض الفلسفات المعاصرة.

وقد كان توافق أهم عناصر العقيدة الإسلامية مع فكر د. المسيرى من أهم العوامل التي دفعته لاعتناقها، وأقصد بذلك أن الله ﷻ هو «رب العالمين» أجمعين، يشملهم جميعًا بعدله ورحمته. ويختلف الإسلام بذلك عن باقى الديانات؛ فالهندوسية اشتقت اسمها من الشعوب الهندية لأنها خاصة بهم، واليهودية اشترطت ألا يكون يهوديًا إلا من كانت أمه يهودية! وقد أرسل المسيح ﷺ إلى «كلاب بنى اسرائيل الضالة» (كما ذكر عن نفسه). بذلك يصبح الإسلام هو دين البشرية جمعاء عبر المكان والزمان، كما يصبح أكثر الديانات تسامحًا وقبولًا للآخر.

بعد المفاهيم الأربعة السابقة (وضوح ثنائية الرب والعبد، محدودية دور المعجزات، النسبية الإسلامية، عالمية الدعوة) يطرح د. عبد الوهاب المسيرى عنصرًا خامسًا كان وراء اتجاهه للإسلام، وهذا العنصر خاص بالقرآن الكريم كتاب الإسلام المقدس. فالقرآن الكريم هو كلام الله قطعًا، ولا يمتزج بكلام الرُّسل والأتباع والشُّراح كما فى ديانات أخرى. كذلك فإننا نعرف يقينًا متى نزلت كل آية من آياته، ولِمَ نزلت، وعلاقتها بما قبلها وبما بعدها. وهذه الدقة فى التوثيق لا تجدها فى أى كتاب مقدس آخر[1].

وقبل أن ينتقل نبى الإسلام (الذى تلقى الوحى) إلى الرفيق الأعلى كانت كل آيات القرآن الكريم مدونة فى أكثر من موضع، بالإضافة إلى حفظها فى ذاكرة عشرات بل مئات من

(١) فى إحدى مناظراتى مع أحد عتاة الملاحدة عبر شبكة المعلومات، بذل جهدًا كبيرًا ليثبت أن هناك تحريفًا قد وقع فى القرآن الكريم. فحرف «هو» ورد مرة فى بعض نسخ المصحف الشريف ولم يرد فى نسخ أخرى، ونفى أن يكون ذلك بسبب اختلاف القراءات. أجبت الملحد بأن ما يذكر هو دليل على دقة توثيق النص، فحرف واحد - إن وافقنا على ما يقول - من بين أكثر من ٣٢٠ ألفًا من الحروف يؤكد الدقة، بل وله تفسير عند علماء تدوين القرآن الكريم. وأضفت ساخرًا: كنت أظن أنك ستثبت أن بعض نسخ القرآن تذكر أن محمدًا ﷺ كان رسولًا بينما تذكر النسخ الأخرى أنه ابن الله ﷻ (وحاشاه)!

الصحابة. وقبل انقضاء عامين من وفاة المصطفى ﷺ (فى خلافة أبى بكر الصديق) كان القرآن مجموعًا ومدونًا فى مصدر واحد على الهيئة التى بين أيدينا اليوم.

ونستطيع أن ندرك قيمة وأهمية هذا التوثيق وحجيته إذا علمنا أننا لا نعرف شيئًا عن كتاب الهندوسية المقدس (المعروف بالفيدا)؛ بنيته - مصدره - تدوينه - توقيته. كذلك فإن كتابات المؤرخين اليهود والمسيحيين تطرح بوضوح العديد من جوانب الغموض فى بنية وتدوين التوراة والإنجيل.

لعل طرح د. المسيرى العقلى، بالإضافة إلى قطعية ما فى القرآن الكريم من براهين عقلية وفلسفية وعلمية على ألوهية مصدره، يعين الشباب الملحد كثيرًا فى الاختيار بين الديانات.

وبذلك تكتمل ثلاثية الإيمان من منظور العقل: الألوهية - التواصل - الرسالة.

إنكار منظومة الإيمان رهان خاسر

فى القرن السابع عشر الميلادى طرح الفيلسوف والرياضى والفيزيائى الفرنسى بليز باسكال[1] ما صار يُعرف بـ«رهان باسكال Pascal's Wager»، وهو حجة فلسفية تدعو إلى الإيمان بالإله وبالدين، باعتبار أننا لن نخسر شيئًا إذا سلكنا فى حياتنا بناء على هذا الإيمان ثم ثبت غير ذلك، بينما لو أنكرنا الألوهية ثم ثبت وجود الإله ستكون الخسارة جسيمة فى الدنيا والآخرة.

وقبل باسكال بأكثر من خمسمائة عام، طرح الفيلسوف الشاعر أبو العلا المعرى (٩٧٣ - ١٠٥٧م) نفس الحجة الفلسفية بأسلوب مباشر واضح دقيق فى بيتين من الشعر، فقال:

قال المُنجِّمُ والطبيبُ كِلاهما: لا تُحشَرُ الأجسادُ، قُلتُ: إليكُما

إن صَحَّ قولُكما، فَلَسْتُ بخاسرٍ، أو صَحَّ قولى، فالخَسارُ عليكُما

وقد سُئل الفيلسوف الكبير الملحد برتراند رَسِل يومًا: ماذا لو مُتَّ ثم اكتشفت أنك انتقلت إلى عالمٍ آخر، ووقفت بين يدى إله، وسألك: لماذا لم تؤمن بى؟ بماذا ستجيبه حينئذٍ؟ قال رَسِل: سأجيبه بأن أدلة وجودَك لم تكن كافية.

اعتقد أن الله ﷻ سيقول له: لقد كانت آياتى المُقنعة تملأ الوجود، بدليل أن ملايين العلماء والفلاسفة آمنوا بى عبر التاريخ. وربما يضيف الإله: لنفترض أن أدلة وجودى لم تكن كافية،

(١) Blaise Pascal: (١٦٢٣ - ١٦٦٢م).

ألم يكن الأليق أيها الفيلسوف أن تدفع عن نفسك الضرر المُحتَمل؟ هل إذا أبلغك شخصٌ - وأنت فى الدنيا - أن بيتك يحترق، دون دليل جازم، هل كنت ستهرول إلى البيت لتحرى الأمر ولاستدعاء رجال الإطفاء، أم كنت ستنتظر أن يؤتوك بصورة فوتوغرافية تظهر البيت والنار مشتعلة فيه؟!(١)؟.

ليس معنى طرحى لرهان باسكال أن يكون إيماننا بالله ﷻ وبالدين قائم على الأخذ بالأحوط، لكنى أبين بذلك أن أفضل الخيارات المتاحة هو السلوك انطلاقًا من أن الله ﷻ موجود، سواء ثبت ذلك أم لا. أما قضية الإيمان عندنا فقضية علمية يمكن إثباتها بالبراهين القاطعة بشكل حازم.

القارئ الكريم

ذكرنا مرارًا فى فصول الكتاب أن الفكر الدينى القاصر (المسيحى والإسلامى) كان سببًا رئيسيًّا فى تبنى الكثيرين للإلحاد، فكيف يجد الإنسان الحائر فى هذا الخطاب ما يروى ظمأه فى تيه الشكوك والحيرة والإلحاد؟!

ينبغى قبل أن نتهم الآخرين بالتقصير فى البحث والدراسة مما أوقعهم فريسة سهلة للفكر المادى، أن ننظر إلى الفكر الدينى نظرة ناقدة، تضع أيدينا على ما فيه من عَوار وتقترح العلاج الذى يجعل من هذا الفكر عامل جذب للعقول الصادقة فى البحث بدلًا من أن يكون مدعاة للنفور من الدين، وبذلك تكتمل رحلتنا مع خرافة الإلحاد.

تجديد «الفكر» الدينى

يتردد فى الفترة الأخيرة اصطلاح تجديد «الخطاب» الدينى، بعد أن صار الخطاب السائد عاجزًا عن عرض الإسلام عرضًا حقيقيًّا صحيحًا، مما ساهم بشكل كبير فى الموجة الإلحادية التى ظهرت فى بلادنا فى الفترة الأخيرة، كما ساهم فى الصورة السيئة لدى الغرب عن الإسلام.

والمتأمل للخطاب الدينى يجد أن قصوره ليس قاصرًا على الأسلوب والهيئة فقط، بحيث إذا عَدَّلناهما انصلح الأمر، بل إن هذا «الخطاب» يعكس قصورًا حَرِجًا فى «المحتوى» ينبغى تداركه فورًا، أى يحتاج إلى علاج مكثف ورعاية مركزة كما نقول بلغة الأطباء.(٢)

(١) يقوم هذا الرهان على «مفهوم الاحتمالية» الذى تعتمد عليه فلسفة ريتشارد دوكنز الإلحادية، ومع ذلك فإن دوكنز يرفضه!

(٢) لا شك أن قضية تجديد الفكر الدينى شديدة التفرع والشمولية، وقد كُتبت فيها مئات الدراسات ولم تستوف حقها بعد، ولم تتقدم إلا خطوات قليلة نحو الإصلاح. لذلك سنعرض فى الصفحات القادمة للخطوط العريضة فى هذه القضية بما يخدم موضوع هذا الفصل وهو الخروج من مستنقع الإلحاد والملاحدة.

وقد طرح رسول الله ﷺ الآلية التى تُمَكِّن الدين الذى نزل فى القرن السادس الميلادى فى جزيرة العرب من أن يكون صالحًا لكل زمان ومكان، فقال:

«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد (يصلح) لها (أمر) دينها»[1].

ويبين الحديث حاجة الأمة إلى (تجديد) و (إصلاح) أمر الدين وإلا صار رجعيًا متخلفًا. لم يقل رسول الله ﷺ من ينبه الأمة أو يعيد الأمة إلى دينها، والفرق واضح جلى. فتغير ظروف البشرية وأحوالها مع تطورها الحضارى يتطلب ألا تكون المنظومة الدينية جامدة، وإلا قيدت الحضارة وألزمتها بالتوقف والسكون عند القرن السادس الميلادى، خاصة وأن الإسلام هو خاتم الديانات السماوية، وأنه صالح لكل زمان ومكان.

سبحان الله، ما أكثر ما تتداول الأمة هذا الحديث وما أقل عملها به!

فمنذ أكثر من ألف سنة أُغلق بابُ الاجتهاد المنوط به التجديد، فوصلت الأمة إلى الدرك الأسفل فى الحضارة الإنسانية. وقد وصف الشيخ محمد الغزالى هذا المصير ـ عن حق ـ فقال «إن أمة تلغى عقولها لألف سنة كان الأحرى بها أن تسير على أربع (كالدواب)». لولا ستر الله.

وفى بحث ألقاه روبرت بللا[2] أحد كبار علماء الاجتماع فى مؤتمر عُقد بجامعة هارڤارد عام ١٩٦٨، قال: إن تعاليم الإسلام «عالمية» «تقدمية» بل و«ثورية» أيضًا. وما مُنيت به هذه التعاليم من إخفاق لا يرجع إلى خطأها أو جمودها كما يتهمها الكثيرون، بل على العكس تمامًا، ربما يرجع إخفاقها إلى أنها كانت فى بعض الفترات الزمنية أكثر عصرية من أن تنجح.

تساؤل مُلح يطرح نفسه؛ كيف تخلفت دعوة عالمية تقدمية ثورية حتى صارت أداة حَجْر على الفكر وآلية لتجميد المجتمع؟!. إذا قارنا حال الإسلام فى عصوره الزاهرة الأولى مع حاله فى عصور تراجع وتأخر الحضارة الإسلامية، وجدنا أن عِلَّتين خطيرتين قد جَدَّتا وترسختا فى الفكر الإسلامى حتى خُيِّل للناس أنهما من أصول الدين. إحداهما، ظهور طبقة تحتكر تفسير النصوص وتستأثر بحق التحدث باسم الدين وإصدار الحكم فيما يوافقه من الآراء والمذاهب وما لا يوافقه، أى أنها «طبقة كهنوتية» وإن لم تتسَمَّ بهذا الاسم صراحة. وثانى العلل، اعتبار تلك الطبقة أن ما سبقها من تشريعات وأجوبة وحلول هى «تعاليم مُلزمة من أساسيات الدين»، لا يجوز تعديلها أو تغييرها، سواء فيما يختص بأمور العقيدة أو ما يتطرق إلى المعاش[3].

---

(١) هذا الحديث من الأحاديث الصحيحة المشهورة عن الصحابى الجليل أبو هريرة. و(يصلح) و (أمر) فى بعض الروايات. رواه أبو داود، وصححه السخاوى والحاكم والبيهقى وابن حجر والألبانى.

(٢) Robert N.Bellah: شغل منصب أستاذ علم الاجتماع بجامعة كاليفورنيا، من المهتمين بعلاقة علم الاجتماع بالديانات.

(٣) عن كتاب نحو ثورة فى الفكر الدينى، للدكتور محمد النويهى. حصل على الدكتوراه من جامعة لندن، ورأس قسم اللغة العربية بجامعة الخرطوم، ولد بطنطا بمصر عام ١٩١٧. الناشر دار رؤية.

الفكر الدينى الجامد

لقد أفرزت العلتان السابقتان فكرًا لا يتمشى مع دعوة رسول الله ﷺ للإصلاح والتجديد، فصار جديرًا بأن يوصف بأنه فكر جامد مقلد، يكاد يكون هو المسيطر على الخطاب الدينى فى الساحة الإسلامية فى الوقت الحالى.

وبالرغم من أن هذا الخطاب بدأ منذ ألف سنة بعد أن أُغلق باب الاجتهاد (عقب وفاة الإمام أبى حامد الغزالى)، فقد شهد طفرات خطيرة فى العصر الحديث. ويرجع ذلك إلى الهوة السحيقة التى أصبحت تفصل بين القوة والثروة والنهضة التى يعيشها الغرب وبين التخلف والضعف الذى يعيشه معتنقو هذا الفكر فى الشرق. ذلك بالإضافة إلى كراهية هؤلاء للحضارة الغربية لظروف تاريخية ترجع لعهد الاستعمار الغربى، فاعتبروا أن فى تراثهم الملاذ من الطوفان الحضارى. بالإضافة إلى ذلك فإن الغالبية العظمى من مروجى هذا الاتجاه فى العصر الحديث من الشباب الذى يتسم بالانفعال وسهولة التأثير عليه من قوى كثيرة ومتنوعة، سواء من داخل المجتمع الإسلامى أو خارجه، فوقع فريسة لمصالح وأهواء الآخرين السياسية.

ويتلخص الفكر الإسلامى الجامد المُقلد فى السعى للرجوع إلى الماضى والتمسك بأسلوب الحياة الإسلامية الذى كان سائدًا فى عصور الإسلام الأولى، بحجة تنقية الحياة من الشوائب والأفكار الهدامة الوافدة من الغرب. وفى سبيل تحقيق ذلك، يطرح أنصار هذا الفكر عقولَهم جانبًا، ويجاهدون للتقيد الحرفى بالنصوص والتعصب للمذاهب الدينية التى ينتمون إليها.

واستنادًا لهذا المنهج فى رفض التجديد وإعمال العقل،فإن معتنقيه وقفوا ضد أى اجتهاد فى أمور الدين بل والدنيا. حتى أن شيخ الأزهر فى أوائل القرن التاسع عشر أصدر فتوى وصف فيها المذاهب الأربعة بأنها أفضل ما يكون على الإطلاق، بحجة أن أصحابها هم فقط الذين لديهم العلم والفقه العميق، وأن كل من يبتعد عنهم يتردى من خطأ إلى خطأ، ومن ثم لا يوجد فى زمانه من هم أهل للاجتهاد ولتفسير النصوص المقدسة[1].

تجربة شخصية مؤلمة:

كما رويت فى الفصل الثانى عشر بعضًا من حواراتى مع الشباب الملاحدة، فسأروى هنا تجربتى الشخصية المقابلة، والتى تعكس جمود الفكر المُقلد السائد وتقديسه للتراث على حساب:

١) الدين! ٢) العلم! ٣) العقل! ٤) الحق! ٥) القيم والأخلاق!

(١) يتبنى الكثير من رجالات الأزهر الشريف فى العصر الحديث اتجاهًا تجديديًّا مستنيرًا، لكن الفتوى صدرت من شيخ الأزهر فى فترة من تاريخ مصر كان يسيطر فيها الجمود على هذه المؤسسة العريقة.

دار الحوار التالى مع أحد كبار علماء الدين، الذى تبوأ لسنوات أعلى مناصب الإفتاء فى الديار المصرية. كان الشيخ يلقى خطبة الجمعة فى المسجد التاريخى الكبير الذى اعتدنا أن نصلى فيه، فذكر فى الخطبة أن فترة حمل النساء يمكن أن تصل إلى أربع سنوات تبعًا لمذاهب المالكية والشافعية والحنابلة(١)، وأضاف الشيخ أنه بهذا يفتى.

أذهلنى أن الشيخ ما زال متمسكًا بهذا الرأى الفقهى الذى كان له ملابساته وأسبابه فى الماضى(٢)، بالرغم من أن العلم القطعى أثبت أن فترة الحمل لا تتجاوز التسعة أشهر إلا بأسبوعين، فلماذا التمسك بهذا الرأى الذى أثبت العلم خطأه؟!

فى جلسة خاصة مع الشيخ قلت له: إن ما تفتى به يخالف العلم الصريح الصحيح. فسألنى: هل بلوغ فترة الحمل أربع سنوات يُعتبر من المستحيلات العقلية أم من المستحيلات الفعلية؟ فأجبته: ليس من المستحيلات العقلية، فأنثى الفيل والحوت تحمل لفترة مقاربة.

فقال: إذن يمكن «عقليًا» أن تبلغ فى الإنسان ولو مرة واحدة فقط الأربع سنوات!

فسألته: وهل يفتى المفتون بناء على الإمكانية العقلية؟ أم بناء على الإمكانية الواقعية؟ وأضفت: إن من الممكنات العقلية أن يصبح شهر رمضان مائة يوم، وألا تغيب الشمس أو تزول عن كبد السماء... أمور كثيرة ليست من المستحيلات العقلية. إن العلم والدين يتهاويان لو انطلقنا فى أحكامنا من الممكنات العقلية.

قال الشيخ محاولًا أن يجد تبريرًا لإفتائه بهذا الرأى الخطأ: إن الإسلام حريص على الذب عن سمعة وأعراض النساء بأى شكل من الأشكال. فسألته: وهل يشجع الإسلام على الزنا، أو يقبل أن يُنسب لى طفلٌ ليس ابنى وأن يطلع على عورة بناتى من أم أخرى وهو ليس أخًا لهم، وأن يشارك أولادى الميراثَ تدليسًا؟! وأضفت، بذلك لا تخالف هذه الفتوى العلم والعقل والحق فقط، بل والقيم والأخلاق، وأيضًا تخالف الدين؛ ألم يحدد المولى ﷻ فى القرآن الكريم فترة الحمل والرضاعة بعامين ونصف، فكيف يصل الحمل وحده إلى أربعة أعوام(٣)؟!!

بعد أن ضاق الخناق تراجع الشيخ وقال: إن مجمع البحوث الإسلامية التابع للأزهر الشريف يفتى الآن برأى العلم بأن فترة الحمل تسعة أشهر! سبحان الله!! بالرغم من أن مجمع البحوث يفتى بكلمة العلم، فالشيخ يناصب الدين والعلم والعقل والحق والقيم والأخلاق العداء، دفاعًا عن قدسية التراث، واستماتةً من أجل ألا يعيد النظر فى الفتاوى القديمة فى ضوء العلم والواقع.

---

(١) تصل بعض آراء المالكية بفترة الحمل إلى خمس سنوات.

(٢) تروى كتب الفقه المالكى أن زوجة محمد بن عجلان كانت تحمل كل بطن لمدة أربع سنوات، وهى سيدة مشهود لها بالخلق وحسن السيرة، فأفتى الإمام مالك بأن فترة الحمل يمكن أن تبلغ أربعة سنوات، وعنه أخذ الشافعى وابن حنبل.

(٣) تأمل هاتين الآيتين: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ... ﴿١٤﴾ ﴾ [لقمان]، ﴿ ... وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ... ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف].

حددت آية سورة لقمان أن فترة الرضاعة (الفصال) تبلغ عامين، كما حددت آية سورة الأحقاف أن فترة الحمل والرضاعة تبلغ عامين ونصف. وبناء على الآيتين يفتى الفقهاء بأن أقل فترة للحمل هى ستة أشهر، لكنهم لم يأخذوا بما فى الآيتين بخصوص أطول فترة للحمل!

جمعنى مجلس آخر بالشيخ فى أحد دروسه، وكان يتحدث عن الناسخ والمنسوخ فى القرآن الكريم، وكيف ينبغى أن يُلم بهما كل من يتصدى لتفسير آيات الكتاب الحكيم، وأفاض فى تأكيد الأمر لأكثر من ساعة. بعد الدرس ذهبت إلى الشيخ فى مكتبه وقلت له: سيدى لا أستسيغ ما ذكرت من أن ينسخ حديث شريف آية قرآنية أو أن سورة الأحزاب كانت أكبر من سورة البقرة ثم نُسخت معظم آياتها، وأضفت: إن هذا الفهم للناسخ والمنسوخ باب خطير للطعن فى عصمة القرآن الكريم. فإذا بالشيخ يقول لى: إننى لا أؤمن بالناسخ والمنسوخ!! وأؤمن أن كتاب الله ﷻ كان على صورته الحالية فى اللوح المحفوظ من قبل خلق الخلق!!

سبحان الله... أيصل تقديس التراث إلى هذا الحد من إظهار الحماس لما ننكر؛ بل وتعليمه كحقائق للآخرين؟! لا حول ولا قوة إلا بالله.

بعدها بسنوات، استمعت إلى الشيخ الكبير فى عدد من الفضائيات ووجدته ما زال متمسكًا بآرائه السابقة ومنافحًا عنها بجهد جهيد، أى أن هذا الفهم لم يعد مطروحًا على المهتمين بالعلم والفقه فقط بل وصل إلى عقول العامة أيضًا!!

سمات الفكر الدينى الجامد

إذا تأملنا تجربتى الشخصية المؤلمة والملامح العامة التى ذكرتها للفكر الدينى السائد نجد أنه يتسم بستة مبادئ أو قواعد أساسية:

أولًا: الأخذ بظاهر النصوص، وتقديس التراث وأعمال السلف:

يكتفى الفكر الدينى الجامد بظاهر النصوص فى معظم تفسيراته دون مراعاة المصلحة والحكمة، وقد أدى هذا الاتجاه إلى قدر كبير من مخالفة مقاصد الشريعة وأصولها الكلية(١).

كما يعتمد هذا الاتجاه فى فهمه للدين على أقوال السلف وتفسيراتهم اعتمادًا كليًّا، يرقى بها إلى درجة القداسة، بحيث لا يمكن مناقشتها أو إعادة النظر فيها.

وفى نفس الوقت، يتجاهل هذا الاتجاه الأعمال التراثية العقلية المستنيرة ولا يأخذ بها، على الرغم من أنه يتفاخر بهذه الأعمال عند الحديث عن نقل أوروبا المنهج العلمى العقلى عن المسلمين (كما يحدث مع فكر ابن رشد) وأيضًا ليبرر الاستفادة من بعض منتجات الفكر الأوروبى إذا لزم الأمر! وهكذا يسلك الخطاب الجامد منهجًا انتقائيًّا حال تعامله مع معظم القضايا الدينية والحياتية.

ثانيًا: إهمال العامل التاريخى فى التشريع

يتفرع من الاعتماد على التراث الاعتقاد بتطابق مشكلات الماضى والحاضر، ومن ثم تصور إمكانية تطبيق ذات الحلول التى طبقت فى الماضى على المشكلات المعاصرة. وقد أدى ذلك إلى محاولة إيقاف عجلة التاريخ

(١) مثال ذلك تبنى هذا الفكر عدم جواز تطبيق حد السرقة على من يقوم بسرقة الأموال المملوكة للدولة، بدعوى أن للسارق نصيبًا فيها!

بل والعودة بها إلى عصر التنزيل، وكأنهم يطالبون بتعديل العصر ليطابق النص! بدلًا من قراءة النص فى ضوء الواقع التاريخى.

ويتجاهل هذا الاتجاه حقيقة أساسية، وهى أن الإسلام منذ نشأته يراعى الظروف الواقعية، ويظهر ذلك فى التدرج فى الإصلاح والتغيير والتحريم أيضًا. والأمثلة على ذلك واضحة فى منهج تحريم الخمر والعبيد وملك اليمين وعلاقة الزوج غير المسلم بالزوجة المسلمة وغيرها(١). يتجاهل المُقَلِّدون هذه الحقائق ويطالبون مسلمى القرن الحادى والعشرين، زمن ثورة علوم الفضاء والاتصالات والإنترنت، أن يعيشوا حياة المسلمين الأوائل فى مكة ويثرب، لكن كيف ولماذا؟ لا إجابة.

لذلك إذا جدت قضية يقوم الفقيه المُقَلِّد بالتنقيب فى الآراء القديمة ليختار منها أقربها إلى قضيته ولا يعود إلى مصدرى القرآن والسنة، وكأن العقول قد عقمت عن استنباط الحكم منها(٢).

ثالثًا: عدم التفرقة بين الفكر البشرى والدين

يتجاهل الفكر الرجعى ما كان جَلِيًّا لصحابة رسول الله ﷺ من التفرقة بين النصوص الدينية والخبرة الإنسانية وحصاد العقل. ودليل ذلك أن الكثيرين من الصحابة كانوا يسألون النبى ﷺ عما إذا كان تصرفه هذا أو ذاك محكومًا بالوحى أم بالعقل والخبرة. وقد أرسى الرسول ﷺ مبدأ هامًا للتفرقة بين الحالتين فى قوله (أنتم أعلم بأمور دنياكم)(٣).

رابعًا: إهدار دور العقل والعلم فى الحياة

يتبنى الفكر المُقَلِّد أن القرآن الكريم يقدم التفسير لكافة الظواهر الاجتماعية بل والطبيعية أيضًا، دون النظر للقوانين التى تحكمها، وهو ما يعنى إلغاء كل دور للعقل والعلم، وقد أدى ذلك إلى التواكل والتقصير الشديد فى الأخذ بالأسباب، مما أسلمنا إلى حالة التخلف والتراجع الشديد التى يعيشها عالمنا الإسلامى حاليًّا.

وبالرغم من ذلك يتعمد الخطاب الجامد فى كل مناسبة التأكيد على أن الإسلام دين العلم والعقل، ويؤدى هذا التناقض إلى قدر كبير من التشويش على العقل المسلم. كذلك يهاجم ويُهَوِّن هذا الخطاب من معظم اجتهادات وإبداعات العقل الإنسانى، لا لشىء سوى كونها نتاج العقل الغربى أو العلمانى أو الملحد أو الماركسى...

خامسًا: تحريم الاجتهاد فيما ورد فيه نص

يرى الفكر المُقلد أن الأولوية تكون لدلالات النصوص كما فهمها رجاله، ولو كان ذلك على حساب المصلحة. وقد فاتهم قول الإمام على بن أبى طالب (القرآن حَمَّال أوجه، إنه خط مسطور

---

(١) يؤكد هذا المعنى قول الرسول ﷺ للسيدة عائشة: «لولا قرب قومك من الجاهلية لهدمت الكعبة وبنيتها على قواعد إبراهيم». حديث صحيح.

(٢) أدى ذلك المنهج إلى لبس شديد جعل الكثيرين ـ مثلاً ـ يرفضون التصوير الفوتوغرافى لأن الأقدمين قالوا بتحريم التصوير، الذى هو فى وقتهم صناعة التماثيل!!

(٣) حديث صحيح رواه مسلم عن أنس رضي الله عنه.

بين دفتين لا ينطق، إنما يتكلم به الرجال)، وقد أفرز هذا الفهم العميق العديد من المذاهب الفقهية والعديد من الآراء والمدارس داخل كل مذهب.

وفى مواجهة هذا التعدد أرسى المُقَلِّدون قاعدة «لا اجتهاد مع النص»، التى أدت إلى توحيد دلالات النصوص طبقًا لفهمهم، مما يعنى عدم الاعتراف بالتعددية المذهبية السائدة فى الفقه الإسلامى. لقد سادت هذه القاعدة بالرغم من أن الفقه الإسلامى يباهى بعدد من أمثلة الاجتهاد بغير مراد النص التى قام بها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، والتى تؤكد تغليبه للحكمة والقصد على ظاهر النص، أى أنه غَلَّب العقل على صريح النقل[1].

سادسًا: توظيف «مبدأ الحاكمية»[2] توظيفًا نفعيًّا

لقد أدى بريق شعار «لا حكم إلا الله» الذى استقر عبر التاريخ إلى أن استأثر المُقلدون بسلطة تفسير النصوص وبيان حكم الله ﷻ، فى مختلف القضايا. وترتب على ذلك وجود حزب واحد فقط، وادعاء أنه حزب الله.

وإذا كان من مدعاة الفخر للبشر التسليم بـ«الحاكمية لله» فى مجال العقيدة، فالتشريعات الخاصة بأمور الدنيا يحتاج استنباطها للتأويل والاجتهاد[3]. أما إذا أصر الخطاب الدينى على مد الحاكمية لهذا النطاق، فسيقود ذلك حتمًا إلى العبودية لأحكام طائفة رجال الدين[4]. وبدلًا من أن تحقق الحاكمية الحرية من ديكتاتورية بعض الحكام فإنها توقعنا فى ديكتاتورية رجال آخرين أكثر خطورة! فإذا كان يمكن مقاومة حاكمية الحُكَّام والسعى لتغييرها، فمقاومة حاكمية الفقهاء توصف بالإلحاد والكفر والزندقة باعتبارها تجديفًا وهرطقة ضد الله. وبذلك ينتقل الصراع من معركة بين البشر والبشر إلى معركة بين البشر والله ﷻ[5].

---

(١) من هذه الأمثلة أن الفاروق عمر أوقف قطع يد السُّرَّاق فى عام المجاعة رغم عموم نص الآية، وتوقفه عن إعطاء سهم المؤلفة قلوبهم بالرغم من صريح الآية، وتحريم الزواج من الكتابيات مع إباحة النص. وكذلك توقفه عن تقسيم أرض سواد العراق ضمن الغنائم بالرغم مما فعله الرسول ﷺ فى أرض خيبر، وإيقاع الطلاق ثلاثًا بلفظ واحد واعتباره ثلاث طلقات لا طلقة واحدة، وزيادة حد الجَلد فى شرب الخمر عما كان معروفًا فى عهد رسول الله وخلافة الصديق أبى بكر، والقصاص من الجماعة لقتل واحد، وغيرها كثير من أمثلة تغليب المصلحة على صريح النص.

(٢) تعود فكرة الحاكيمة إلى حادثة رفع المصاحب على أسنة السيوف والدعوة إلى تحكيم كتاب الله التى أطلقها الأمويون فى موقعة صفين، كحيلة لاختراق صفوف معسكر الإمام على بن أبى طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. يسلمنا ذلك إلى كهنوت ككهنوت العصور الوسطى وتحكم الكنيسة وصكوك الغفران.

(٣) حديث «أنتم أعلم بأمور دنياكم».

(٤) كما يحدث فى المذهب الشيعى حيث تصبح الإمامة جزءًا من العقيدة.

(٥) مثلما حدث فى أوروبا فى العصور الوسطى.

صيحة تحذير... لماذا التجديد الآن[1]

لم يكن تجديد الفكر الإسلامى لازمًا فى أى مرحلة أو عصر من العصور السابقة قدر لزومه اليوم، حتى أصبح بمثابة حق للمجتمع وفرض عين على علماء المسلمين. فالمتصفح للمواقع والصفحات الإلحادية على النت net يدرك بوضوح أن هناك حملات منظمة باحترافية عالية تركز على إثارة الشبهات حول القرآن الكريم ورسول الإسلام ﷺ وكذلك الشريعة الإسلامية والتاريخ الإسلامى. وتستند هذه الحملات على مقتطفات من كتب التراث الإسلامى الخاصة بقراءات وتفسير القرآن الكريم والسيرة والأحاديث النبوية والفقه والتاريخ الإسلامى، كما تستخدم مقولات لكبار الشيوخ والدعاة فى غير موضعها لتدعم الدعاوى الإلحادية.

لذلك لم يعد دعاة الإلحاد وإثارة الشبهات حول الإسلام فى حاجة لأن يختلقوا حكايات أو يفتروا أقاويل ليصلوا إلى أغراضهم، يكفيهم أن يُقَلِّبوا فى كتبنا وأقوالنا ليجدوا فيها فوق ما يشتهون. لذلك صار تجديد الفكر الإسلامى أمرًا حتميًّا ملحًا لا يحتمل التأجيل لتحقيق عدد من الأهداف أهمها:

١ - محو ما شاب العقيدة من مدخلات[2]، والتيسير ورفع الحرج عن الشعوب الإسلامية، ومقاومة البدع والخرافات واقتلاعها من طريق الإسلام، ومحاصرة دعاة التشدد والتضييق فى الأحكام.

٢ - استقرار وسطية الدين وسماحته فى نفوس أتباعه، بحيث تستقيم المبادئ والمقاصد العليا للإسلام مع فطرة النفوس وتطلعاتها، فتطمئن نفوس أهله بالعبادة وتنطلق طاقاتهم بالعمل الصالح من أجل خير المجتمع الإسلامى والإنسانية جمعاء.

٣ - ينبغى تجلية ما يتمتع به الإسلام من وسطية للعالم، وليس ذلك تزلفًا للآخرين، ولكن من أجل تبليغ الدعوة السمحة إلى البشرية جمعاء، فما أرسل رسول الله ﷺ إلا رحمة للعالمين.

٤ - يواجه العالم الإسلامى فى المرحلة الراهنة تحديات التخلف التى تفرض التجديد من أجل تفعيل مشروعات الإصلاح التى تحتاجها الدول الإسلامية فى جميع المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، حتى يصبح العالم الإسلامى قوة فاعلة فى إطار النظام العالمى الجديد.

٥ - صار التجديد التزامًا دينيًّا لمواجهة الكوارث التى أنتجها الخطاب الدينى المتطرف، وأهمها جرائم الإرهاب المتستر بالدين فى الخارج والداخل، والتى أصبحت بقعًا سوداء تشوه صورة الإسلام فى كافة أنحاء العالم، وتفرض التخلف على بلاد المسلمين.

---

(١) يمكن القول بأن التجديد بدأ مع الإمام الشافعى منذ القرن الثانى الهجرى ثم الإمام أحمد بن حنبل والكندى والرازى فى القرن الثالث ثم تلاهم أبو الحسن الأشعرى والفارابى، وفى القرن الخامس الإمام الغزالى ثم الفيلسوف ابن رشد مرورًا بالإمام ابن تيمية، وفى القرن الثامن الفيلسوف ابن خلدون والإمام ابن قيم الجوزية، وصولًا لجمال الدين الأفغانى فى القرن الثالث عشر الهجرى، ثم الإمام محمد عبده فى القرن الرابع عشر، ونأمل أن تستأنف القافلة المسير.

(٢) مثل اتهام من يقول بفاعلية الأسباب بالشرك والخروج عن ثوابت العقيدة.

٦ - صار التجديد أمرًا حتميًا لتهدئة الحرب العالمية الرابعة[١] التى يقودها الغرب والولايات المتحدة ضد العالم الإسلامى فى أعقاب تدمير برجى مركز التجارة العالمى فى نيويورك، حتى صار كل حدث إرهابى فى العالم يُنسب للمسلمين.

٧ - لاشك أن تجديد الفكر الدينى الجامد هو السبيل الأول لحسر المد الإلحادى المعاصر فى بلادنا، بعد أن تأكد أن الخطاب الدينى السائد هو المسئول الأول عن هذا المد.

إن المسئولية هائلة والمهمة شاقة تنوء بها الجبال، فلم يعد ينفع فى عالمنا المعاصر السكوت عما فى ... من سوءات وتضارب داخلى تراكم عبر مئات السنين، وتعارُض تبلور فى مناخ ثورة العلم والعقل. لقد آثر علماؤنا السكوت حتى لا يثيروا مشكلات مع المقدسين للتراث، لكن الأمر لم يعد يحتمل، فلا يكاد يمر يوم أو بعض يوم حتى يسقط بعض شبابنا صرعى بسهام التشكيك.

أسس تجديد الفكر الإسلامى

يتضح مما سبق أن تجديد الفكر الإسلامى ينبغى أن يقوم على الأسس التالية:

١ - نزع القداسة عن التراث، وإدراك أنه منتج عقلى بشرى، يتناسب مع زمان ومكان ما طُرِح من أحكام فقهية[٢].

٢ - عدم الوقوف عند ظاهر النصوص، والنفاذ إلى المقاصد والحكمة من التشريع، وإعلاء قيمة المصلحة[٣].

٣ - تأكيد مفهوم أن «الحاكمية لله» فى أمور العقيدة، والالتزام فى الأمور المعاشية بحديث رسول الله ﷺ «أنتم أعلم بأمور دنياكم».

٤ - فتح باب الاجتهاد وإعلاء قيمة العقل.

٥ - إعلاء قيمة العلم والعمل فى الحياة[٤].

---

(١) كانت الحرب العالمية الثالثة هى الحرب الباردة بين المعسكرين الرأسمالى والشيوعى.

(٢) أمرنا الله بعبادته وحده، فلماذا إصرار البشر على العبودية للتراث؟!

(٣) تقتضى الرحمة ـ المشتقة من اسم الله ـ التيسير على العباد حتى بمخالفة النص، طالما يحقق ذلك مصلحة المسلمين وحقن دمائهم. ولعل أفضل مثال على مراعاة الزمان فى الفتوى بالرغم من مخالفة النص إباحة رجم الجمرات فى منى أثناء الحج طوال اليوم، بعد أن تأكد أن الإصرار على الرجم بعد الزوال يؤدى إلى إراقة دماء المئات من الحجيج كل عام. أما مراعاة المكان فنجدها فى تغيير الإمام الشافعى لكثير من فتاواه بعد الانتقال من العراق إلى مصر.

(٤) إن إتقان العمل واجب وفرض على كل مسلم كالصلاة، بل يرتفع إلى مرتبة الجهاد فى سبيل الله ﴿... وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ... ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل].

كذلك لم يسو الإسلام بين المسلم المتعلم والمسلم الجاهل، بل جعل الأول فى درجة الملائكة ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران]، وأخبرنا أن العلم يحقق الخشية لله ﷻ ﴿... إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ... ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر].

٦ - التسليم بشرعية تعدد المذاهب الإسلامية وإسقاطها على واقع المسلمين. وفى نفس الوقت إباحة عدم التقيد بمذهب معين، ما لم يتعارض اختيار الأحكام من المذاهب مع ثوابت الدين.

دعوة إلى المصالحة

وكما كانت الرجعية المسيحية فى أوروبا فى العصور الوسطى هى العامل الأول وراء انفجار أكبر موجة إلحادية فى التاريخ، فما أشبه الليلة بالبارحة، فالمقدمات هى نفسها فى العالم الإسلامى، وأخشى ما أخشاه أن يؤدى تشابه المقدمات إلى تشابه النتائج.

لقد تصادم الفكر الإسلامى الجامد مع جميع جوانب الحياة؛ مع الدين، ومع العقل، ومع الإنسان، ومع التاريخ، ومع العلم، ومع الطبيعة، حتى صار بحق الدافع الأول للإلحاد بين شبابنا. لذلك لا يقف تدارك المشكلة عند مجرد تجديد «الخطاب» الدينى، بل ينبغى أن يمتد إلى تجديد «الفكر» الدينى، ولا أكون مخطئًا إن قلت إلى «تجديد أو إصلاح أمر الدين»؛ أليس هذا قول رسول الله ﷺ؟ ولا شك أن ذلك لن يتم إلا بعقد مصالحة حقيقية (وليست صورية) مع جميع جوانب الحياة.

أولًا: المصالحة مع الدين[(١)]

لا شك أن أول ضحايا الفكر الرجعى الجامد ـ فى جميع الديانات ـ هو الدين!

ومن دواعى الإعجاب بماضينا والتأسى على ما آل إليه حاضرنا، أننا نملك فى كنوز تراثنا أمثلة باهرة لفقه العقل كانت تضىء فى سماء الدين المنيرة فى مسيرة الصحوة الإسلامية الحقيقية، وتلك نجدها:

عند الصحابة الأوائل، فى إيثارهم للمصلحة كما فى فقه عمر بن الخطاب[(٢)] رضي الله عنه.

وعند فقهاء الرأى وإمامهم أبى حنيفة النعمان صاحب الاستحسان[(٣)].

وفى فقه المصالح[(٤)] عند المالكية والحنابلة.

وفى تعاليم الثائر الفقيه العظيم ابن إسحق الشاطبى صاحب نظرية المقاصد فى الشريعة[(٥)].

وفى تعاليم فقه المصالح[(٦)] الذى وصل إلى ذروته على يد الإمام نجم الدين الطوفى فى القرن الثامن الهجرى.

---

(١) عن كتاب «البحث عن العقل: حوار مع فكر الحاكمية والنقل» للدكتور محمد نور فرحات أستاذ فلسفة القانون وتاريخه بكلية الحقوق جامعة الزقازيق، فقيه دستورى حائز على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية ٢٠٠٣، وكبير مستشارى الأمم المتحدة لحقوق الإنسان.

(٢) تحدثنا عن بعض أمثلة إيثار المصلحة فى فقه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب منذ قليل.

(٣) الاستحسان عند أبى حنيفة هو عدول المجتهد عن اتباع قياس جلى إلى قياس خفى أو عن حكم كلى إلى حكم استثنائى، لدليل انقدح فى عقله رجح له هذا العدول.

(٤) فقه المصالح هو الفقه الخاص بحفظ الأصول الخمس التى هى مقصود الشارع (حفظ الدين والنفس والنسل والعقل والمال).

(٥) يرى الإمام الشاطبى أن الشريعة تهتم جملة وتفصيلًا برعاية مصالح العباد، ومن ثم لا ينبغى اعتبار أحكام الشريعة أمورًا تعبدية مطلقة.

(٦) يعتبر الإمام الطوفى (ثالث أكبر فقهاء المالكية) أن المصلحة العقلية للأمة وللأفراد فى المعاملات والعادات دليل شرعى «يجب» الأخذ به بين بقية مصادر التشريع.

وفى تعاليم ابن حزم الظاهرى الذى أطلق الحرية لعقل المسلمين بقوله بمبدأ استصحاب أصل الإباحة[1].

وفى آراء الإمام ابن قيم الجوزية الذى نهى عن الاستنان بالرجال وتقليدهم.

ومن عجب أن هذه الذخائر الفقهية العقلانية تُطْمَر فى صدور فقهاء النقل المعاصرين، ويقتصرون - على أحسن الفروض - على تناولها فى قاعات الدرس أو دوائر البحث الأكاديمى دون أن يتم استدعاؤها إلى ساحة الخطاب الإسلامى المتداول اليوم. فهل هو نسيان يرفَع عن أصحابه الوزر أم تجاهل مُتعمد يدانون به؟.

وإن شئنا أن نرتب طبقات الفكر الإسلامى وفقًا لاعتمادها على النقل واقترابها منه إلى اعتمادها على العقل لكان ترتيبها كالتالى:

المُحَدِّثُون «أى رواة الحديث» والمفسرون الذين يعتمدون على الرواية فى التفسير.

ثم فقهاء الحديث الذين يعتمدون أساسًا على النقل والرواية.

ثم فقهاء الرأى الذين يقتربون من العقل والدراية.

ثم المتكلمون من الأشاعرة وأهل السنة.

ثم المتكلمون من المعتزلة وأهل العقل.

ثم الفلاسفة.

ويأتى خارج هؤلاء جميعًا «المتصوفة» الذين يهتمون بالحقيقة لا بالشريعة، ويعتمدون على البصيرة لا على الفهم، وينأون بأنفسهم عن العقل والنقل معًا.

وإن المرء إذ يتجول بين هذه البساتين الفيحاء للفكر الإسلامى ليأخذه العجب والإعجاب والزهو والانبهار بهذه الثمار المختلفة الطعم والمذاق التى حفل بها تاريخ الفكر الإسلامى. ثم أليست تلك الثمار هى طرح شجرة «الدين»؟ فإذا اختفت جميعها - فعليًا - من الساحة ولم يبق إلا الفكر الرجعى، أليس الخاسر الأول هو دين الإسلام؟ أليس من مخاصمة الدين أن يتمسك الرجعيون بحرمة زواج الحنفى من الشافعية، لأنه يُشَكُّ فى إيمانها؟! ثم يوافق بعضهم على هذا الزواج قياسًا على الزواج من أهل الكتاب!!

ومن ثم لا تكون المصالحة مع الدين إلا بانتقال هذه الثمار اليانعة من الأسفار المطوية إلى الحياة اليومية الفاعلة.

ثانيًا: المصالحة مع العقل

لا يقبل الفكر الجامد دورًا للعقل فى الدين إلا التحقق من صحة إسناد أحاديث رسول الله ﷺ، وحتى فى هذه يخبرنا الإمام ابن قيم الجوزية (المولود عام ٦٩١هـ) أن المُقَلِّدين والفقهاء المتأخرين كانوا يصححون الحديث النبوى أو يضعفونه تبعًا لموافقته لمذهبهم!! أى أنهم كانوا يُحَكِّمون المذهب

(١) الأصل فى الأمور النافعة التى يرد فيها من الشرع حكم معين هو الإباحة، كما أن الأصل فى الأشياء الضارة هو الحرمة.

فى الحديث ولا يُحَكِّمون الحديث فى المذهب[1]!، وفى نفس الوقت يصر هؤلاء على التأكيد فى خطابهم على دور العقل المحورى فى المنظومة الإسلامية، ويضعون فى ذلك المؤلفات العديدة المطولة.

إن ما نصبو إليه فى عملية المصالحة أن يدرك المُقَلِّدون - بحق - أن الإسلام يجعل للعقل دورًا محوريًا ليس له مثيل فى أى منظومة أخرى، ويتمثل هذا الدور فى:

١ - الاستدلال على وجود الله ﷻ وصحة دين الإسلام.

٢ - فهم النصوص فهمًا يسمح بالنفاذ إلى جوهرها وحكمتها.

٣ - الاجتهاد فى استنباط الأحكام فى ضوء ما يستجد من ظروف حضارية.

٤ - مراعاة حكمة التشريع والانحياز إلى المصلحة، وهو ما تنبه إليه الصحابة قبل ظهور علم الفقه وأصوله، حتى وإن تعارض ذلك مع نص من النصوص[2].

ولا ينبغى الاعتداد بما يردده المُقَلِّدون؛ وأين نحن من صحابة رسول الله ﷺ وتابعيه، ونحن نجيبهم بأن كل قوم أدرى بعصرهم، ولا أحسب أن المصلحة تخفى على أى ذى عقل منصف.

كما لا يصح الاحتجاج بأن الله ﷻ هو المشرع وهو أدرى بمصلحتنا، فالصحابة والتابعين كانوا يعلمون ذلك، لكنه لم يمنعهم من الاجتهاد لمصلحة الأمة، وهذا بعض ما فهموه من معنى الخلافة من الله ﷻ فى الأرض، وقد حسم رسول الله ﷺ الأمر حين قال: «أنتم أعلم بشئون دنياكم».

ثالثًا: المصالحة مع الإنسان

عندما يهبط الفكر الجامد بالعقل البشرى عن منزلته بالرغم من أنه المخاطَب والمكلَّف والمحاسَب من قِبَل المولى ﷻ! وعندما يعتبر هذا الفكر الإنسانَ عاجزًا عن إدراك مصلحته وهو الخليفة من الله فى الأرض! وعندما يعتبر الإنسان عبدًا لآراء قدسها وإن ثبت خطأها دينيًّا وعلميًّا وعقليًّا وإنسانيًّا وأخلاقيًّا! وعندما يُفْرَض على الإنسان سلوكيات لا إنسانية كزواج الصغيرات وختان الإناث وإرضاع الكبير! أقول عندما يدعم الفكر الدينى الجامد ذلك كله فإنه ينزع عن الإنسان إنسانيته بل ويناصبه العداء.

ومن أجل استنهاض الفكر الدينى السائد للمصالحة يكفى أن نُذَكِّره بمنزلة الإنسان دون الدخول فى التفاصيل، وليكن ذلك ببعض الأدلة من القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة وحكم الحكماء:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ... ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة].

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ ... ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة].

- فى الحديث القدسى: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِى وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِى فَإِنْ ذَكَرَنِى فِى نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِى نَفْسِى

---

(١) فى كتاب «إعلام الموقعين عن رب العالمين».

(٢) هذا ما مارسه عمر بن الخطاب فيما عرضنا من أمثلة، وأيضًا ما مارسته أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا حين وجدت أن الحكمة من السماح لإماء الله بارتياد المساجد قد انتفت فقالت قولتها: لو علم رسول الله ﷺ ما أحدثت النساء لمنعهن المساجد مثلما مُنعت نساء بنى إسرائيل.

وَإِنْ ذَكَرَنِى فِى مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِى مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَىَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَىَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِى يَمْشِى أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»(١).

- «لزوال الدنيا أهون عند الله ﷻ من سفك دم مسلم بغير حق»(٢).

- وتحسبُ أنك جُرمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالمُ الأكبرُ(٣).

هذا هو الإنسان يا أصحاب الفكر الجامد، فهرولوا للمصالحة معه.

رابعًا: المصالحة مع التاريخ(٤)

لا شك أن إحدى الآفات الكبرى فى العقل العربى الإسلامى المعاصر هى غيبة القدرة على الإدراك العلمى للتاريخ، بل وفتور الرغبة فى هذا الإدراك. فنحن أكثر ميلًا وتعاطفًا وحبًا للرواية والقصة والأسطورة منا تقبلًا وفهمًا للتاريخ كحقيقة موضوعية حدثت فى الزمن الماضى. والفرق بين منطق القصة ومنطق التاريخ أن القصة ننطق بها نحن، فهى رواية للتاريخ كما نريد لا كما حدث فعلًا(٥).

إن نظرتنا الأسطورية للتاريخ تقول لنا: كنا أمجادًا وعلينا أن نعود لتراثنا كى نعود أمجادًا مرة أخرى، لذلك «لن يَصْلح آخر هذه الأمة إلا بما صلُح به أولها»(٦). ولم يتوقف هؤلاء الأسطوريون للحظة واحدة لتدبر الأسباب المطلوب الأخذ بها لينهض حال آخر هذه الأمة، وفاتنا أيضًا أنه لا يَفسدُ هذه الأمة إلا بما فسد به أولها.

إن التاريخ هو تاريخ أفراد مسلمين وليس تاريخًا إسلاميًا. ويحفل هذا التاريخ بنماذج وأنماط مختلفة من الخلفاء؛ منهم الأتقياء ومنهم الجبارون ومنهم الماجنون ومنهم من اتسعت صدورهم لمعارضة الرعية وآخرون بطشوا بشراسة بأية معارضة، ومنهم ومنهم. ويحفل تاريخنا أيضًا بالغزوات التى كان بعضها جهادًا فى سبيل الله وبعضها رغبات توسعية. ويحفل بالفتن التى كانت صراعًا بين بشر قصد بعضهم الجهاد ونصرة الإسلام وبعضهم حركته أطماع النفس والتطلع إلى الحكم. لذلك لا ينبغى التصدى للدفاع عن كل حدث فى تاريخ المسلمين وكأنه هو الإسلام.

إن الدعوة إلى المصالحة هى دعوة إلى عدم تديين التاريخ، أى دعوة إلى احترام موضوعيته وقراءته قراءة صحيحة تحقق عددًا من الفوائد أهمها:

---

(١) رواه الإمام مسلم فى حديثه عن أبى هريرة.

(٢) فى سنن النسائى وجامع الترمذى وسنن ابن ماجة وسنن البيهقى، عن عبد الله بن عمر، صححه الألبانى.

(٣) من أقوال الإمام على بن أبى طالب.

(٤) عن كتاب «البحث عن العقل، حوار مع فكر الحاكمية والنقل» للدكتور محمد نور فرحات، مكتبة الأسرة.

(٥) لا يخلو تاريخ المسلمين كما كتبه ابن كثير وابن الأثير وابن جرير الطبرى وابن طباطبا العلوى وابن إسحق، ثم ابن إياس والجبرتى، فى كثير من أجزائه، من جوانب قصصية أسطورية تنأى عن التصديق العقلى ولا تقف أمام التحليل العلمى، وهو ما يستغله الملاحدة للهجوم على الإسلام. وما زال الحال على ما هو عليه فى واقعنا المعاصر، فسمينا هزيمة ١٩٦٧ بالنكسة وحرب الخليج بأم المعارك!.

(٦) قول تردد قديمًا على لسان زياد بن أبى سفيان متوعدًا أهل البصرة بالقتل!

١ - أن نـدرك أن أول هـذه الأمـة قـد صلـح بنهضة العقـل وقوة العزيمـة التى يحققهـا الإيمان وفتح الأبواب أمام امتزاج الثقافات. وأن آخرها قد فسـد لغلبة المصالح والمطامع السياسية لدى فئات المسـلمين وطوائفهم على حسـاب صالح الأمة العام، وانغماس الحكام فى اللهو والترف، وكثرة حركات الانشقاق والخروج.

٢ - أن نـدرك أن المجتمـع المثـالى يتحقـق بالتغيير إلى ما هو أحسـن (وهذا هو فهـم الغرب المعاصر) وليـس بالثبـات والقرار كما يؤمن العقـل الشرقى الذى يحركه حنينه الرومانسـى إلى الماضى دون النظـر إليه نظـرة نقدية. هذا بالرغم من أن القـرآن الكريم يدين إدانة صريحة الركون إلى التقليد ومحاكاة الماضى(١).

٣ - الارتياح من عبء الدفاع عن مواقف سلبية فى التاريخ الإسلامى، وهو أحد أبواب الإلحاد التى رصدناها بين شبابنا.

وأخيرًا نقول، إذا كان النظر فى الآفاق هو قراءة للمكان، وكان النظر فى الأنفس هو قراءة للداخل، فإن النظر فى التاريخ هو قراءة فى الزمان. وإذا كان للآفاق والأنفس قوانين تحكمهما فإن للتاريخ قوانين تحكمه، لذلك حثنا القرآن الكريم على قراءة التاريخ فى آية تكررت ست مرات على نحو فريد بأسلوب استنكارى عاتِب على من لا يستفيد من أحداث التاريخ(٢):

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ... ﴿١٠﴾﴾ [محمد].

خامسًا: المصالحة مع العلم

لم يظهر التعارض بين الفكر الدينى الرجعى والعلم إلا بعد الثورة العلمية فى أوروبا، حين فوجئ هذا الفكر بمفاهيم علمية جديدة فى مجالات الكونيات ونشأة الإنسان تتعارض مع ما جاء فى التفسيرات التراثية للنصوص المقدسة. وتمشيًا مع منهجهم فى تقديس التراث، بادر الرجعيون إلى رفض المفاهيم العلمية الجديدة بدعوى أنها فرضيات ومفاهيم لم تثبت أو نظريات وليست حقائق علمية(٣).

---

(١) ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الزخرف]، ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس]، ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنبياء]، ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الشعراء]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمان].

(٢) جاء التساؤل ثلاث مرات بلفظ «أفلم»، وجاء ثلاث مرات بلفظ «أولم».

(٣) نؤكد ما ذكرناه فى الفصل الثانى من أن من النظريات العلمية ما هو فى حجية حقائق العلم وقوانينه، ومثال ذلك نظرية الجاذبية الأرضية ونظرية فيثاغورث فى المثلث قائم الزاوية.

وإذا انتقلنا إلى العالم الإسلامى، نجد أن المفسرين التراثيين قد بذلوا أقصى الجهد كما لجأوا إلى كلمة العلم فى عصرهم حين تصدوا لتفسير آيات القرآن الكريم ذات الدلالات العلمية، ومن ثم فلهم عذرهم إذا اختلفت تفسيراتهم عما توصل إليه العلم الحديث. أما المعاصرون فليس لهم أى عذر فى التمسك بالقديم على حساب كلمة العلم الحديث. ومما زاد الطين بِلة أن جعل المُقلدون من التفسيرات التراثية حَكَمًا على صحة المفاهيم والنظريات العلمية.

ولعل مفهوم التطور البيولوجى - الذى يتبنى نشأة الجسد الإنسانى بالتطور عن كائنات أدنى منه - من أشد مناطق الصدام سخونة. فبالرغم من أن مفهوم التطور أصبح الحقيقة المحورية فى علم البيولوجيا، فما زال الفكر المُقَلِّد يتمسك بالتفاسير التراثية لآيات خلق الإنسان فى القرآن الكريم. بل ويكيلون للعلم الاتهامات، تارة بالجهل! وتارة بالتآمر على الدين[1].

ومن أجل تحقيق المصالحة بين العلم والفكر الدينى الرافض له كان هذا الكتاب الذى بين يديك. وهناك سبيلان على أنصار هذا الفكر أن يختاروا بينهما للخروج من التضاد الظاهرى الذى فرضوه علينا بين العلم والدين:

السبيل الأول: الإقرار بأن القرآن الكريم ليس بكتاب علم، وأن يرجعوا فى القضايا العلمية إلى العلماء، ثم يبذلوا أقصى الجهد فى تأويل آيات القرآن الكريم فى ضوء المفاهيم العلمية الثابتة.

السبيل الثانى: الفصل بين العلم والدين فى القضايا العلمية، وعدم محاولة الربط بينهما. فعلى سبيل المثال عند الحديث عن نشأة الإنسان نقول إن كلمة العلم هى كذا وكلمة الدين هى كذا، وبذلك يصبح ما لقيصر لقيصر وما لله لله، وهو المنهج هو السائد فى الغرب فى تحديد العلاقة بين العلم وبين الديانة المسيحية.

وما أحسبنا كمسلمين فى حاجة إلى المنهج الثانى، فليس فى القرآن الكريم أو السنة الصحيحة سوءة نحاول إخفاءها أو نعجز عن التوفيق بينها وبين العلم. لقد آن الأوان من أجل تحقيق المصالحة مع العلم أن يتوقف المُقَلِّدون عن القيام بدور الحَكَم على المفاهيم والنظريات العلمية.

سادسًا: المصالحة مع الطبيعة[2]

نشبت بين أنصار بعض مدارس الفكر الإسلامى والطبيعة خصومة شديدة منذ اتهموها - بحسن نية - بالفوضى والعشوائية! وتعود بدايات تلك الخصومة إلى اعتقاد الأشاعرة أن تنزيه الله ﷻ وتأكيد القدرة الإلهية يتطلب الإسراف فى تأكيد عجز الذات الإنسانية وعفوية الطبيعة، فتبنوا رؤية تدميرية للعالم!

(١) طرحنا فى الفصل السادس والسابع مفهوم التطور الموجه الذى يجمع بين كلمتى العلم والدين فى هذا المجال. كما تناولنا الربط بين كلمتى العلم والدين فى نشأة الإنسان بتفصيل كبير فى كتابنا «كيف بدأ الخلق»، الفصلين الثانى عشر والثالث عشر، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الثالثة ٢٠١٣.

(٢) عن كتاب «الطبيعيات فى علم الكلام: من الماضى إلى المستقبل» للدكتورة يمنى طريف الخولى. رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠١٠.

لقد نَفَى الأشاعرة أية علاقة بين الأسباب والنتائج (بلغة علم الكلام: نفوا أى رابط عِلِّى سببى بين الأحداث = نفوا العِلِّية أو السببية) ورأوا أن القول بالأسباب يتعارض مع طلاقة قدرة وأفعال الخالق، ومن ثم اعتبروا القول بالسببية شركا! فضلًا عن اعتقادهم أن القول بالسببية يمثل خطرًا على فكرة المعجزة التى تخرق الأسباب.

ومن أجل نفى قوى وقوانين الطبيعة كأسباب مؤثرة، وضع الأشاعرة «نظرية الاقتران والعادة» التى ترى أننا نفسر تتابع حدثين (كتسخين الماء والغليان) باعتباره علاقة الأسباب بالنتائج بينما هو فى الحقيقة مجرد اقتران، أى لا علاقة سببية بين التسخين والغليان، وأننا نحن الذين تصورنا هذه العلاقة[1]! بهذا الطرح الأشعرى، لم يعد هناك قانون ولا نظام فى الطبيعة، وبهذا غُلَّت يد العقل تمامًا، وكان ذلك إيذانًا بليل عجز العقل الإسلامى، فاستحق أن يطلق الفلاسفة على هذه النظرية اصطلاح «كارثة الأشاعرة»[2].

وفى المقابل، تبنى المعتزلة[3] «مذهب الطبائع» الذى يقول بأن الله ﷻ قد مَيَّزَ كل شىء بطبيعة ثابتة يحدث الفعل بمقتضاها، كالحرق للنار والرِىّ والإغراق للماء. وضع المعتزلة بذلك فرقًا جوهريًّا بين عالم الطبيعة الحتمى وعالم الإنسان الحر المختار، ولم يسقطوا فى هوة نفى الحرية الإنسانية بناء على حتمية قوانين الطبيعة كما فعل فلاسفة أوروبا. وقد سُميت هذه المقابلة بين مذهب الطبائع ونظرية الاقتران والعادة بـ «دراما المعتزلة والأشاعرة».

ومن الأشاعرة، يقول بمذهب الطبائع الإمام أبو حامد الغزالى، كما يمد ابن خلدون (الأشعرى) مذهب الطبائع من عالم الطبيعة إلى عالم العمران والإنسان، فيرى أن المجتمعات البشرية تخضع فى حركتها لقوانين اجتماعية. كذلك تبنى الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم مذهب الطبائع، وعرضاه عرضًا عميقًا. وبخلاف الغزالى وابن خلدون نجد الأشاعرة جميعًا ينهالون بنقد عنيف على مذهب الطبائع ويصمون القائلين به بالشرك!.

وإذا كان علماء الكلام المعتزلة لم يتورطوا فى اتهام الطبيعة بالفوضى والعشوائية، فإنهم سقطوا فى خصومتها حين أعلنوا صراحة أنهم يستخدمون الطبيعة فقط من أجل إثبات وجود الله، وليس لدراستها وتحليلها وفهمها للسيطرة عليها والانتفاع بها، إذ إن الطبيعة ـ عند هؤلاء ـ مجرد حامل لأفعال الإرادة الإلهية. بذلك أصبح استخدام الطبيعة عند المعتزلة استخدامًا رأسيًّا يرقى بنا إلى ما فوق الطبيعة، ونحن نرحب بذلك بشرط أن نقرنه باستخدام أفقى يجعلها عالمًا حيًّا للإنسان، يسكن فيه ويتواصل فيه مع الآخرين ليحقق رسالته وخلافته.

(١) لذلك صرنا نقرأ فى كتب الأشاعرة أن السكين لا تقطع ولكن القطع يحدث عند حد السكين، وأن النار لا تحرق لكن الحرق يحدث عند النار. ولم يقدم لنا الأشاعرة تفسيرًا مقنعًا لِمَ أمر الله ﷻ النار أن تكون بردًا وسلامًا على إبراهيم، ألا يعنى ذلك أن الحق ﷻ لو تركها دون أمر لأحرقت! أى أن الإحراق من خصائص النار.

(٢) من المثير للدهشة أن ديفيد هيوم (أكبر فلاسفة الإلحاد فى القرن الثامن عشر) يقول أيضًا بعدم فاعلية الأسباب، ويوافق على مفهوم الاقتران والعادة، وذلك ليثبت عشوائية الوجود وعدم خضوعه للقوانين ليدعم مفاهيمه الإلحادية. معنى ذلك أنه يتفق مع الأشاعرة فى النظرة إلى الأسباب وإن كان يتضاد معهم فى الهدف!

(٣) أصحاب المدرسة العقلية فى الإسلام.

وتتفاقم المشكلة، ويختفى النظر فى الآفاق واستثمار الطبيعة، ويصبح الواجب الشرعى بديلًا عن الواجب النظرى، وتتضخم الشعائر والعقائد (هل يؤمن المؤمن بخمسين أم بعشرين عقيدة؟). لقد ضمر الفكر الموضوعى وتقلصت العلوم التطبيقية والطبيعية، وتم التمثيل بالطبيعة وهدمها.

لذلك يُرجع البعض انتكاسة الحضارة العربية إلى محنة المعتزلة التى تلاشى فيها فكرهم وسطوتهم، ولولاها لكان للتقدم العلمى فى القرن التاسع الميلادى فى الدولة الإسلامية شأن آخر أى شأن.

المصالحة

فى العصور الوسطى، استمد رجال الكنيسة فى أوروبا سلطانهم من أنهم أقدر البشر على قراءة وفهم الكتاب المقدس، بينما أصر العلماء على أنهم أقدر على قراءة كتاب آخر لا يقل عن الأناجيل عظمة ودلالة على قدرة الرب وبديع صنعه، إنه كتاب الطبيعة المجيد، أو قل توراة الطبيعة[1].

قبل ذلك بمئات السنين رأينا أبا الهذيل العلاف والنَّظَّام وابن الهيثم والبيرونى وابن رشد يجمعون بين العلوم الطبيعية كعلوم تطبيقية وبين دلالتها على وجود الله وعلى التوحيد. لقد كنا الأسبق فى الانتقال الجدلى بين قراءة الكتاب المقدس وقراءة كتاب الطبيعة (كتاب الله المسطور وكتاب الله المنظور)، فوصلنا إلى تعقيل الطبيعة وتطبيع العقل. لكن ما جدوى الأسبقية التاريخية؟!. لقد جعل العلم الغربى الطبيعة والعقل صنوين، بينما يكشف العربى المسلم المعاصر عن عجز مؤسف وتخلف مشين عن مجرد مواجهة الطبيعة.

والمطلوب للمصالحة مع الطبيعة أن يدرك الفكر المُقَلِّد أن الله ﷻ هو الذى وضع الخصائص فى الأشياء، وهو الذى ينظم العلاقة بينهما بقوانين الطبيعة، أى أن يدركوا اتساق مذهب الطبائع مع الإرادة الإلهية.

إن المصالحة تتحق عندما نصبح وسطًا بين طرفين؛ طرف يتنكر للطبيعة والحس، أغرق فيه المُقَلِّدون، وطرف يقدس الطبيعة والحس؛ أغرق فيه الماديون. إن الحق ﷻ يمزج بين الطرفين ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]، فالآية الكريمة تبين أن الحس (سنريهم) والطبيعة (الآفاق والأنفس) سيصبحان الباب الواسع للإيمان. أى أن براهين الألوهية ستنطلق من تأمل الطبيعة والتفكر فيها. وهذا ما تدعو إليه أستاذتنا د. يمنى الخولى فى دعوتها «نحو علم كلام جديد».

وفى ذلك يقول الفيلسوف الكبير محمد إقبال: «كان أفلاطون وفيًّا لتعاليم أستاذه سقراط فقدح فى الإدراك الحسى؛ لأن الحس فى رأيه يفيد الظن ولا يفيد اليقين. وما أبعد ذلك من تعاليم القرآن الذى يعد السمع والبصر من أنعم نعم الله على عباده».

وفى مشروع المصالحة؛ ينبغى أن يشكل الدين نظرة الذهن للطبيعة، وينتقل بها من موضوع حسى

(١) أطلق اصطلاح توراة الطبيعة عالم اللاهوت بارومر. وتمشيًا مع هذا المعنى نشر جون راى (١٦٩١م) كتابًا بعنوان «حكمة الرب كما تتجلى فى أفعال الخلق»، ثم نشر وليم بالى (١٧٤٣ - ١٨٠٥م) كتابه اللاهوت الطبيعى.

وجدانى إلى موضوع عقلى علمى، ليصنع نهضة حضارة وسؤدد أمة، وهو المشروع الذى توقف فى العالم الإسلامى منذ القرن التاسع الميلادى.

إن الصراع الحقيقى الذى يواجه المسلم المعاصر ولا يرضى الله أبدًا التقاعس عن البلاء فيه ليس مع العقائد والفلسفات المعادية للإسلام والتى واجهت أسلافنا، بل هو الصراع مع جحافل الطبيعة الضنينة، قهرًا للجهل والفقر والعجز والمرض، وهو أيضًا صراع من أجل ألا نمد أيدينا طلبًا للطعام والكساء والعلاج من الآخرين.

نموذج مشرف للمصالحة والتجديد

خلق الإنسان بين العلم والقرآن

إن السماء وإن بدت ملبدة بالغيوم لانتشار الفكر الدينى المُقَلِّد الجامد واستماتة أنصاره فى الدفاع عنه، فإن الساحة لا تخلو من عقول مستنيرة يؤرقها مستقبل الإسلام ومستقبل شبابه. ويشغل الأزهر الشريف بوسطيته موضعًا بين هذه العقول، لذلك استعرض هنا موقفًا تتجلى فيه استنارة بعض رجالات الأزهر، على عكس ما يروج البعض ليطعن هذه المؤسسة العريقة:

تُعتبر قضية خلق الإنسان من القضايا الساخنة التى يتجلى فيها الصراع بين العلم الحديث، الذى صار يتبنى بأدلته مفهوم النشأة التطورية للإنسان، وبين الفكر المُقَلِّد الذى يتبنى مفهوم الخلق الخاص تبعًا لما جاء فى التفسيرات التراثية لآيات خلق الإنسان فى القرآن الكريم[1]. وكلما لاحت فى الأفق محاولة للتوفيق بين المفهوم العلمى والمفهوم التراثى لخلق الإنسان، انبرى المُقَلِّدون معترضين وساخرين، بل ومكفرين من يحاول جاهدًا القيام بهذا التوفيق. لكن يقف بعض رجالات الأزهر تجاه هذه القضية وقفات موضوعية مشرقة تضيف إلى تاريخ الفكر الإسلامى المستنير صفحات سيظل يفخر بها المسلمون لقرون قادمة. وإليك بعض هذه المواقف:

* أصدر د. عبد الصبور شاهين[2] (رحمه الله) عام ١٩٩٨ كتاب «أبى آدم، قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة»، عرض فيه قصة خلق الإنسان كما فهمها من آيات القرآن الكريم، وصرح بأن الآيات الكريمة تحمل ملامح التطور فى خلق الإنسان من كائن بدائى إلى كائن عاقل. قامت الدنيا ولم تقعد، ورفع عليه أنصار المدرسة التقليدية أربع قضايا تطالب بتكفيره!. طلبت المحكمة من مجمع البحوث الإسلامية الإدلاء برأيه فى الكتاب، فشكل المجمع لجنة علمية بحثت الكتاب وأصدرت تقريرها الذى أنصف الرجل وأنصف كتابه وانتصر للعقل. جاء فى التقرير[3]:

«ليس للّجنة على المنهج الذى اتبعه المؤلف أى مأخذ؛ حيث حدد هدفه من بحثه بأنه محاولة لفهم

---

(١) شرحنا هذا الاختلاف بالتفصيل فى الفصل السادس من الكتاب.

(٢) د. عبد الصبور شاهين: (١٩٢٩ – ٢٠١٠م)، أستاذ اللغة العربية فى كلية دار العلوم والضليع فى علوم القرآن.

(٣) قصة المعركة حول كتاب «أبى آدم» وتقرير مجمع البحوث الإسلامية وردت فى كتابى «كيف بدأ الخلق» ص ٣٢٣ – ٣٢٦، مكتبة الشروق الدولية ـ الطبعة الثالثة ـ ٢٠١٣.

النصوص التى جاءت فى القرآن الكريم تروى وقائع قصة الخلق، وأيضًا محاولة للتوفيق بين التصوير القرآنى والاتجاه العلمى (علوم البيولوجيا والجيولوجيا والأنثروبولوجيا) فى تصوير الحياة البشرية على هذه الأرض. ولا حَرَجَ علينا فى هذا ما دمنا نرعى قداسة النصوص المنزلة، وما دمنا لا نخالف معلومًا من الدين بالضرورة، وما دمنا نقدم رؤية عقلية تحترم المنطق وتستنطق اللغة من جديد، وتدعم إيمان المؤمنين بما ينطوى عليه كتاب الله من أسرار قد تكون خَفِيَت عن بصائر ذوى التمييز، ثم أذن الله ـ سبحانه ـ لبعض السر أن ينكشف وللرؤية أن تَنْجَلى..».

«ويجمع المؤلف رأيه كله فى قوله: فخلْق الإنسان بدأ من طين، أى فى شكل مشروع بشرى، ثم استخرج الله منه نسلًا ﴿...مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨] ثم كانت التسوية ونفخ الروح، فكان (الإنسان) هو الثمرة فى نهاية المطاف.. عبر تلكم الأطوار التاريخية السحيقة العتيقة..».

ولا ترى اللجنة فيما كتبه المؤلف محاولة للتوفيق بين العلم والدين بقدر ما ترى فيه اجتهادًا منه فى فهم النص القرآنى، وهو اجتهاد لا توافق اللجنة المؤلف على بعض أجزائه.

لكن اللجنة فى نفس الوقت لا ترى أن المؤلف قد تجاوز الحد فى تأويلاته للنصوص القرآنية تجاوزًا يخالف به ثوابت العقيدة أو يناقض ما هو معلوم من الدين بالضرورة.

ويؤمن المجمع بحاجة هذا الجيل من المسلمين إلى متابعة الاجتهاد وتقليب النظر فى الآفاق وفى الأنفس، وإلى مواكبة التطورات العلمية الهائلة التى غيرت أساليب معيشة الناس وأوضاعهم خلال القرن الذى توشك الإنسانية أن تودعه، وذلك باجتهاد متصل وفقه متجدد وبصر دقيق بحاجات الناس التى صارت تتغير بسرعة هائلة (بتغير الأمكنة والأزمنة والأحوال). على أن يتم ذلك كله بطبيعة الحال من خلال منهج علمى أصولى دقيق، لا يخالف فيه الباحث شيئًا من ثوابت العقيدة أو الشريعة، ولا يميل ـ مهما كانت البواعث ـ عن قول الحق فى تجرد وصدق وشجاعة».

انتهى تقرير اللجنة، وجزى الله أعضاءها عن العلم والعقل والإسلام خير الجزاء.

* أصدر د. حسن حامد عطية[1] كتابه «قضية الخلق» عام ١٩٩٩ وتبنى فيه مفهوم «التطور البيولوجى الموجه» الذى نتبناه وعرضناه فى الفصل السادس من هذا الكتاب، كما تصدى لتأويل عدد من الآيات القرآنية الواردة عن خلق الإنسان فى ضوء مفهوم الخلق التطورى بدلًا من الفهم السائد بالخلق الخاص.

ولم يجد د. عبد المعطى بيومى، عميد كلية أصول الدين ـ جامعة الأزهر، تعارضًا بين اجتهادات د. حسن حامد عطية وبين ثوابت العقيدة، حتى إنه كتب مقدمة الكتاب التى جاء فيها:

«هذا الكتاب لا يرتاب قارؤه فى صدق إيمان مؤلفه، فهو لا يكف عن تمجيد إلهه سبحانه وتعالى، ونسبة الأمر كله لله والخلق كله إليه، ولا ينى لحظة واحدة عن إثبات سعة علم الله ﷻ وإحاطته بكل

(١) د. حسن حامد عطية: أستاذ علوم البيولوجيا والتطور، الكتاب من منشورات دار الخيال.

شيء، وإشادته بقدرته سبحانه وباجتماع العلم والقدرة فى الخلق، والاستدلال بقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر].

ومع ذلك فهو يفسر بعض آيات القرآن الكريم فى ضوء بعض النظريات العلمية فى خلق الإنسان والحيوان والعلاقة بينهما فى المراحل الأولى للخلق.

وفى ذلك نرى أننا نختلف معه أحيانًا ونتفق أحيانًا، وذلك شيء طبيعي ما دمنا بصدد تفسيرات بشرية للقرآن الكريم مع التسليم المطلق منا ومن الكاتب والقارئ على السواء بالنص القرآنى المعصوم من الخطأ وبالعقائد الإسلامية الثابتة بنصوص القرآن الكريم، والتى لا ينال من صحتها وثبتها على وجه الزمن خطأ الأفهام أو غلط التفسيرات، فهى حق فى ذاتها، وحق فى طريق ثبوتها».

«ومنذ نزل القرآن الكريم كان كل عصر يرى فى القرآن رؤية جديدة بما يحصله من ثقافة وما يعينه على فهم الآيات من آفاق العلم والمعرفة السائدة، وكل إنسان يقرأ القرآن فيفهم منه بما وهبه الله من قدرة على الفهم وبما أسبغه عليه من علوم وثقافة وبما اتسع به أفقه من دراسة بالحياة وشئونها، فيستخرج كلٌ من القرآن ما يهديه أو يهتدى إليه.

والقرآن مع ذلك يسع الجميع، بعموم ألفاظه، وثراء معانيه. ولقد نبه الدكتور «موريس بوكاى»[1] فى كتابه «دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة» إلى إعجاز القرآن البالغ فى أنه هو الكتاب السماوى الوحيد الذى لا يوجد به خطأ علمى واحد، وعلل ذلك بأن القرآن ـ على حد قوله ـ لم يتورط فى التفاصيل بل عرض الحقائق بأسلوب عام يسع كل الأفهام ويفتح الباب للاجتهاد، ويظل مع ذلك متفقًا مع الحقائق العلمية الثابتة».

«وما دامت أفكار الكتاب تعتمد على الإيمان بالخالق وعلى عموم النص القرآنى والاعتراف بقداسة هذا النص فلا حرج بعد ذلك أن يخطىء العلم البشرى أو يصيب».

«ولئن كنا ندرك أن ربط التفسير القرآنى بالنظريات العلمية تحوطه المخاوف عند الكثيرين، مخافة أن تبطل النظرية فيهتز الإيمان بحقيقة النص، فإننا نرى أن الاجتهاد ـ أيًا كان ـ فى فهم النص هو غير النص، فلئن تبين خطأ الاجتهاد فلا ضرر ولا ضرار؛ لأن النص باق على اعتباره والإيمان به، لا يختلف التفسير العلمى فى ذلك عن سواه من التفسيرات. ولطالما تعددت أقوال المفسرين بغير العلم عبر العصور، ثبت منها ما ثبت ويطل منها ما بطل، ويبقى القرآن ثابتًا، رغم تغير الآراء، فليكن التفسير العلمى إذن واحدًا من هذه التفاسير، يجرى عليه ما جرى على غيره من الخطأ والصواب، ويبقى القرآن بمنجاة من الخطأ والصواب فى كل حال».

«(لم يكن ما فعله المؤلف بجديد، فإن هناك علماء أفذاذًا فتحوا مجالًا لهذه التفسيرات العلمية فى تراثنا، من أقدم هؤلاء إمام المفسرين بالرأى، الإمام الفخر الرازى حيث امتلأ تفسيره الكبير «مفاتيح

(١) Maurice Bucaille: (١٩٢٠ – ١٩٩٨م)، طبيب فرنسى وأستاذ فى الجراحة. نشأ مسيحيًا كاثوليكيًا ثم اعتنق الإسلام، وله عدة كتابات عن العلاقة بين القرآن الكريم والعلم والتاريخ، وله مؤلفات حول شخصية فرعون. وكان يتقن اللغتين العربية والهيروغليفية.

الغيب» بالتفسير الكونى حيث كان العلم بالكون فى زمنه مجال بحث وجدال. وكذلك الشيخ طنطاوى جوهرى عمدة المفسرين العلميين فى عصرنا، ثم يأتى الشيخ محمد فريد وجدى على رأس الذين فتحوا المجال لنظرية التطور، خاصة أن مؤكداتها لا تمس قاعدة من قواعد الدين ولا تهز نصًا من نصوص القرآن أو الحديث، ويذكرنا برأى ابن مسكويه والفارابى وابن خلدون فى ترتيب الأنواع. وعلى هذا الدرب سار الأستاذ عباس العقاد متعجبًا من فزع البعض من النظرية وقلقهم على الدين بينما الدين فى مأمن من هذه النظرية وغيرها من النظريات».

«وفى هذا الإطار ينبغى أن يكون موقفنا من هذه النظرية وغيرها من الاجتهادات لا تشنجًا ولا فزعًا أو مصادرة، بل فحصًا بالموضوعية، ومقارعة بالحجة وجدالًا بالتى هى أحسن، ولا ضرر ولا ضرار على الدين لأنه بمثل هذا الجدال يقوى فى القلوب وتشتد به العقول ولا ينال منه رأى أخطأ صاحبه أو أصاب».

جزى الله د. عبد المعطى بيومى عن العلم والعقل والإسلام خير الجزاء

* طلب د. محمد عمارة (المفكر الإسلامى ورئيس تحرير مجلة الأزهر) من د. عمرو شريف (مؤلف الكتاب) أن يكتب كتابًا مبسطًا عن الإلحاد، ليكون هدية مجلة الأزهر، وبالفعل صدر الكتاب بعنوان «وهم الإلحاد» مع عدد المحرم للعام ١٤٣٥هـ. ويطرح الكتاب فى تفنيده لآراء الملاحدة وإظهار العلاقة بين العلم والدين عددًا من المفاهيم التى تخالف ما عليه الفكر الإسلامى المُقَلِّد، ومنها القول بالتطور البيولوجى الموجه، وفاعلية الأسباب ودور المخ البشرى فى المشاعر الروحية وغيرها.

وبالرغم من ذلك تبنت مجلة الأزهر الكتاب وقدم له د. محمد عمارة بمقدمة زادته ثراء وأثنت على منهجه الذى يمثل جسرًا يربط بين العلم والدين، وجاء فى المقدمة:

«إنه كتاب علمى دقيق عميق، ومع ذلك فهو واضح وممتع وجذاب. ففيه مستويات من الحقائق العلمية وطبقات من البراهين المنطقية، تجعل لكل قارئ من القراء الذين تتفاوت مداركهم العلمية ومستوياتهم الفكرية، نصيبًا وحظًا يدعم الإيمان ويبدد شبهات الإلحاد».

جزى الله د. محمد عمارة عن العلم والعقل والإسلام خير الجزاء.

* ربما كان المفكر الإسلامى الكبير د. مصطفى محمود (رحمه الله) أول من طرح مفهوم التطور الموجه فى العالم الإسلامى. وقال إن حرفًا واحدًا وهو «ى» يضاف إلى كلمة «تطور» لتصبح «تطوير» يحل المشكلة. ومنذ أكثر من أربعين عامًا والدكتور مصطفى محمود يتحدث فى مقالاته وكتبه وبرنامجه التليفزيونى الأشهر فى العالم العربى «العلم والإيمان» عن «التطور الموجه» و«التطوير الإلهى».

لم يعترض رجالات الأزهر الشريف على هذا الطرح، ولم نسمع صوتًا معارضًا واحدًا فى الساحة الإسلامية. لقد كان رجال الفكر الإسلامى أوسع أفقًا وأوفر ثقة فى منهجهم وأكثر احترامًا للعلم مما نحن عليه الآن. لذلك لم نسمع عن الفكر الإلحادى أيام د. مصطفى محمود كما نسمع عنه الآن.

جزى الله رجالات الإسلام المستنيرين عن العلم والعقل والإسلام خير الجزاء

القارئ الكريم

تبدأ رحلة الخروج من مستنقع الإلحاد والملاحدة بإدراك ما يسببه الإلحاد من تدن عقائدى وأخلاقى وعلمى وفكرى. كما ينبغى التنبه إلى كذب ادعاءات الملاحدة من أن التقدم العلمى والحضارى فى الغرب هو من نتاج الإلحاد، حتى إنهم فى مناظراتهم يرددون دائمًا نحن أنجزنا كذا وكذا، وأنتم متخلفون حضاريًا! إن ما عليه الغرب من تقدم علمى حققه علماء فطاحل كان معظمهم من المؤمنين بالله الواحد الأحد، كذلك ما فى الحضارة المعاصرة من بعض المفاهيم والسلوكيات الأخلاقية الإيجابية إنما هو نتاج أعراف استقرت فى هذه المجتمعات بعد أن أفرزتها المفاهيم الدينية.

يأتى بعد ذلك ـ للخروج من المستنقع ـ دور التحقق بمنظومة الإيمان الثلاثية؛ إثبات الوجود الإلهى وتواصله مع البشر واختيار الدين الحق، ولكل من عناصر هذه المنظومة أدلتها العلمية والفلسفية.

ولا ينبغى أن نتهرب من مسئولية خطابنا الدينى السائد عن اتجاه بعض شبابنا إلى الإلحاد، لذلك لن يتم تجفيف هذا المستنقع تمامًا إلا بتجديد الفكر الدينى وإجراء المصالحة بينه وبين الدين والعقل والإنسان والتاريخ والعلم والطبيعة.

ويصف المفكر البريطانى روب لاسى[1] «الوثنية Idolatry» بأنها «أن نحيا من أجل المخلوق بدلًا من الخالق»[2] ويضيف لاسى؛ إذا كنا لا ننحنى أمام أجهزة التليفزيون والكمبيوتر، فإننا كثيرًا ما نحيا من أجل هذه الأشياء ونرفعها فوق منزلتها، وننزلها فى أنفسنا حيث يجب أن ننزل الإله، معتقدين أن فى ذلك كمال الحرية.

إنه خلل فى وضع الأولويات؛ نهبط بأهم ما فى الحياة (الإله) ونرفع أشياء أخرى. وبهذا المفهوم فإن المادية نوع من الوثنية، إذ ترفع المخلوق (الطبيعة) فوق الخالق. ويكون ذلك بإحدى طريقتين، إما نفى الألوهية بالمرة أو وضعها خارج العمل (الديانة الطبيعية).

(١) Rob Lacey: (١٩٦٢ - ٢٠٠٦م)، ممثل ومفكر بريطانى، أصل مقولة لاسى:
Living for the Product instead of The Producer

(٢) وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: «تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس عبد القطيفة تعس عبد الخميصة تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش، إذا أعطى رضى وإذا مُنع سخط».

ويشير ألدوس هكسلى[1] إلى هذا المعنى قائلًا: «إن تبنى الإنسان لمفهوم الإلحاد وفلسفة العدمية (الفناء بعد الموت) إنما كان بدافع البحث عن التحرر، بعد أن رفضنا القيم السماوية العليا لِتحقيق الحرية الجنسية، كما رفضنا انعكاسات الدين على السياسة والاقتصاد بدافع التحرر أيضًا».

وإذا كان الكل يؤمن، فإن لكل إيمان عواقبه. فعندما نعزل الكون عن الإله فإننا نحرم الإنسان من التعرف إلى خالقه، حتى يعتبر أن معاناته وآلامه من إفراز قوى الطبيعة العمياء بسبب سوء تعامله معها. أى أن الإنسان يرى أن معاصيه وآثامه إنما هى فى حق الطبيعة، وليست فى حق الله ﷻ.

إن الكتاب الذى بين يديك دليل للرحلة إلى الله، وهذا الفصل يمثل حصاد الكتاب وحصاد الرحلة، فاسمح لى وقد أوشكنا على المفارقة أن أختم الرحلة بهذه الوقفة التأملية.

قراءة فى الكتابين

يقوم الإيمان بالله ﷻ على دعامتين أساسيتين: الأولى هى الأدلة على الألوهية والوحدانية، وقد تكفل العلم فى قراءته المعاصرة للكون بإظهار هذه الأدلة من خلال البرهان الكونى. والدعامة الثانية هى إدراك ما يقدمه الله ﷻ لجميع مخلوقاته، وللإنسان بصفة خاصة، من عناية ورعاية، وقد بَيَّن العلم بجلاء من خلال المبدأ البشرى الكثير من جوانب هذه العناية والرعاية.

ومن ثم، فالكون هو كتاب الله المنظور، الذى ينبغى أن نتعلم قراءة آياته، تمامًا كما نقرأ آيات كتاب الله الكريم المنزل على رسوله ﷺ، لندرك ما بينهما من توافق وتناغم وتكامل.

لذلك، فالقرآن الكريم يحيلنا عند طرح قضية الإيمان إلى كتاب الكون حتى تكتمل فى قلب الإنسان ويقينه من القراءة فى الكتابين (القرآن والكون) أدلة الألوهية وأدلة العناية والرعاية.

انظر قول الحق ﷻ:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت].

---

(١) Aldous Huxly: (١٨٩٤-١٩٦٣م)، الكاتب البريطانى الشهير، من المهتمين بحقوق الإنسان والفلسفة والروحانيات.

فى هذه الآية، يخبرنا الله ﷻ أنه قد أودع فى الكون (الآفاق)، وفى الإنسان (أنفسهم) من الآيات التى سيكشفها للبشر تباعًا ما يبين لهم بيقين أنه الحق. وهذا هو البرهان الكونى فى القرآن الكريم.

ثم يتدرج الإنسان مرتقيًا فى علمه حتى يصبح عالِمًا حقيقيًا فيحقق مقام الخشية.

﴿ ... إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ... ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر].

ثم انظر إلى آيتى سورة إبراهيم (آية ٣٢، ٣٣):

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

هل لاحظت كيف بيَّن الله ﷻ دلائل العناية والرعاية (المبدأ البشرى) فى قرآنه الكريم، ووجهنا فى نفس الوقت لنرصدها ونتذوقها فى الكون من حولنا. إن الآيتين الكريمتين تشيران إلى أن الله ﷻ:

- أوجد السماوات والأرض من عدم.
- وجعل لنا الشمس نجمًا مثاليًا والقمر تابعًا مثاليًا.
- وجمع لنا بين فوائد الليل وسكونه والنهار ونشاطه.
- وأنزل لنا الماء من السماء.
- وأنبت لنا الثمرات من الأرض.
- وبث فى الأرض الثروات الطبيعية الميسرة، كالأنهار.
- حتى ما نصنعه بأيدينا (كالفلك) فبهدايته.
- وكشف لنا أسرار القوانين التى تُسَيِّر قوى الطبيعة (بأمره).

وأخيرًا انظر قول الحق ﷻ:

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران]

تمزج هاتان الآيتان بين آيات كتاب الكون المنظور وكتاب القرآن المسطور مزجًا يأسر العقول والقلوب، ويبيّن أن التردد بين قراءة الكتابين هو الذى يحقق كمال الإيمان بالله وبالدين. فقد وصف الله ﷻ من يتأملون خلق السماوات والأرض بأنهم هم أصحاب العقول (أولو الألباب)، ثم يعود ليصف هؤلاء بأنهم الذين يزاوجون بين الذكر الدائم والتفكير الحكيم. وعلى الفور (دون أن يضع القرآن الكريم أدوات وصل أو عطف) يحقق الذكر والتفكير عدة نتائج متتالية:

- الإيمان بالله (ربنا).
- الإيمان بأنه الخالق (خلقت).
- الإيمان بحكمة الله (ما خلقت هذا باطلًا).
- تنزيه الله ﷻ (سبحانك).
- الإيمان بما جاء فى رسالته من بعث وجزاء (فقنا عذاب النار).

جعلنا الله ممن وصفهم بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾

صدق الله العظيم



تعريف بالمؤلف

أ.د. عمرو عبد المنعم شريف

* من مواليد بورسعيد عام ١٩٥٠.

* أستاذ ورئيس أقسام الجراحة الأسبق - كلية الطب - جامعة عين شمس. مع التخصص الدقيق فى جراحات الكبد والجهاز المرارى، ومناظير البطن، وجراحات الحوادث.

* حاصل على درجة البكالوريوس فى الطب والجراحة بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف الأولى عام ١٩٧٤، ودرجتى الماجستير عام ١٩٧٨ والدكتوراه عام ١٩٨١ فى الجراحة العامة من كلية الطب جامعة عين شمس.

* عضو مؤسِّس للجمعية الدولية للجراحة، والجمعية الدولية لجراحة الكبد والبنكرياس والجهاز المرارى - بسويسرا.

* أُختير المدرس المثالى على مستوى جامعة عين شمس عام ١٩٨٤، والطبيب المثالى على مستوى الجمهورية عام ١٩٨٨.

* مفكر ومُحاضر فى موضوعات التفكير العلمى ونشأة الحضارات، والعلاقة بين العلم والفلسفة والعقل وبين الأديان.

* من مؤلفاته:

- كتاب «أبى آدم: من الطين إلى الإنسان»، طرح فيه مفهومًا جديدًا حول نشأة الإنسان عن طريق التطور الموجه.
- كتاب «رحلة عبد الوهاب المسيرى الفكرية»، عرض فيه (من خلال فكر د. المسيرى) إيجابيات وسلبيات الحضارة المادية الحديثة، وأسوأها ظهور الحركة الصهيونية ودولة إسرائيل.
- كتاب «المخ ذكر أم أنثى؟!»، وتناول فيه الفوارق التشريحية والوظيفية بين مخ الرجل ومخ المرأة، وانعكاس ذلك على أسلوب تفكير ومشاعر وسلوك كل من الجنسين. وشارك فى تأليفه الكتاب د. نبيل كامل خبير التنمية البشرية.
- كتاب «رحلة عقل»، ويعرض فيه كيف يقود العلم أشرس الملاحدة إلى الإيمان، وذلك من خلال عرض الرحلة الإيمانية لأكبر ملحد فى القرن العشرين (أستاذ الفلسفة البريطانى، سير أنتونى فلو)، ثم يستكمل الكتاب الرحلة ليعرض البراهين العقلية الدالة على تواصل السماء بالأرض (الديانات).
- كتاب «كيف بدأ الخلق»، يعرض قصة خلق الكون ثم الحياة وتطور الكائنات الحية، وصولًا إلى الإنسان. ويقرأ قصة خلق الإنسان فى القرآن الكريم فى ضوء حقائق العلم.
- كتاب «ثم صار المخ عقلا»، ويتناول فيه دور المخ البشرى فى ملكات الإنسان العقلية ومشاعره الروحية، وهى أهم ما يتميز به الإنسان على غيره من الكائنات.
- كتاب « أنا، تتحدث عن نفسها»، ويتناول السمات المميِّزة للذات الإنسانية من منظور العلم والفلسفة والدين.
- كتاب «وهم الإلحاد»، لخص فيه تاريخ الفكر الإلحادي وأفكاره ومنهج رده. وقد صدر الكتاب كهدية مع مجلة الأزهر - عدد المحرم ١٤٣٥هـ.
- ترجم كتاب «الطب المصرى القديم» مع د. عادل وديع فلسطين، وهو أفضل كتاب فى موضوعه.